سعادة الاستاذ الدكتور
عبد العزيز الدوري أطال الله
عمره ونفع به طلبة العلم
اهدي لسعادتكم هذه الرسالة
نظير الفوائد الجمة التي استفدتها
من مؤلفاتكم ..

مع الاحترام

١٩٧٦/٨/٢٥

٢٢٢
٥٨٠

جامعة الازهر
كلية اللغة العربية
قسم التاريخ والحضارة

تاريخ الحجاز في العصر الاموي
(دراسة سياسية اجتماعية)

•□•

رسالة مقدمة من الطالب
عطيه عوده ابو سرحان
لنيل درجة العالمية (الدكتوراه) في
التاريخ الاسلامي

•□•

باشراف
الاستاذ الدكتور عبد الفتاح علي شحاته
رئيس قسم التاريخ والحضارة سابقاً
والاستاذ المتفرغ بكلية اللغة العربية

•□•

القاهرة
١٣٩٦ هـ = ١٩٧٦ م

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

((يأيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله شهداء بالقسط، ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا ، اعدلوا هو أقرب للتقوى، واتقوا الله ان الله خبير بما تعملون)).

سورة المائدة : الآية ٨

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

مقدمـــة

تحتل بلاد الحجاز مكانة بارزة في تاريخ صدر الاسلام ، فهي مهبط الوحي ، ومعدن الرسالة ، وعاش فيها الرسول الكريم حياته المباركة ، ودعا الى الايمان ، وأسس في هذا الاقليم الدولة الاسلامية الأولى . وعلى أهل الحجاز اعتمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ وخلفاؤه الراشدون في نشر الدعوة الاسلامية ، وتوسيع رقعة الدولة ، فانطلقت من الحجاز بشائر الهداية والنور . فكان أهل البلاد هم مادة الاسلام ومنهم كان الخلفاء والقادة والولاة الذين سيّروا دفة الأمور ورسخوا بنيان الدولة .

ومازالت المكانة الدينية لهذا الاقليم تحظى باهتمام المسلمين ، ويستهوي ذكره أفئدتهم وتتجه مشاعرهم وأنظارهم الى مدينتيه المقدستين مكة والمدينة ـ اللتين هما أشرف بلاد الله تعالى وأجل بقاع الأرض ـ . ويتجه اليهما الآف من المسلمين سنويا لتأدية فريضة الحج والزيارة .

لقد كانت الحجاز من أقدم البلدان التي ردد البشر اسمها في مختلف العصور مقرونا بالتوقير والتعظيم ، كما أن مكة والمدينة كانتا من أهم حواضرها في الجاهلية ، وحين جاء الاسلام اضفى على المدينتين مكانة ممتازة ، ففي مكة البيت الحرام الذي جعله الله مثابة للناس وأمنا . أما المدينة فهي مهاجر النبي عليه الصلاة والسلام ، ومقام الامامة ومحل الامرة واتخذت عاصمة للدولة في عهدها الزاهر ، ولكن مجدها السياسي لم يدم طويلا اذ نقل الأمويون العاصمة الى دمشق في بلاد الشام .

ولم يكن انتقال مركز الثقل السياسي الى خارج الحجاز نهاية المطاف لطموح أهلها السياسي أو نشاطهم العلمي . ففي المجال السياسي عارضوا الأمويين ثم اشتدت المعارضة وتحولت الى نضال مسلح في عهد خلفاء معاوية ، كوقعة الحرة ، وحركة عبدالله بن الزبير ـ التي كانت في جانب من جوانبها تهدف الى اعادة الخلافة الى الحجاز ـ ودانت

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

السيف لتقرير أمر الخلافة .. الى أن قتل سنة ثلاث وسبعين للهجرة . وما تلا ذلك من مشاركة أهل الحجاز في الأحداث العامة ، وحركات الخوارج الذين بسطوا سلطانهم السياسي على الحجاز .

واذا كانت الزعامة السياسية للحجاز قد انتهت باستقرار الخلافة في بلاد الشام ، فقد استمرت في العصر الأموي تؤدي دورها الحضاري في العلم والأدب والفن . وعاش فيها صحابة الرسول الكريم وتابعوهم الأعلام الذين كانوا قدوة للمسلمين ومصدرا لمعرفة سنة الرسول . وفشت العناية بأكثر العلوم الاسلامية في وقت مبكر بالمقارنة مع الأقاليم الأخرى ، وتنوع النشاط العلمي فشمل الحديث والتفسير والفقه والتاريخ ، وتنبه الرواة لذلك ، وصار مع الزمن لكل موضوع رجال قصروا عليه حياتهم . وبجانب ذلك وجد أدب وفن بذت فيه الحجاز سائر الأمصار . كما امتزجت في البلاد الحضارات التي كانت سائدة آنذاك ، وتجلى ذلك في شتى مظاهر الحياة الاجتماعية .

ان مكانة الحجاز الدينية والسياسية والاجتماعية ـ في العصر الأموي ـ قد شدت انتباهي وأثارت أكثر من تساؤل في نفسي ، ورغبتي في البحث عن تاريخ هذا الاقليم سياسيا واجتماعيا في الفترة التي حكم خلالها الأمويون الدولة الاسلامية ، لاسيما وأن الأحداث السياسية والسلمية التي وقعت في عهدهم لتثير أشد الاهتمام ، ولكون هذا الاقليم لم يحظ بالعناية والاهتمام ويحتاج الى مزيد من الدرس والبحث واستخلاص الحقائق من مؤلفات المؤرخين الذين ذكروها ضمن تسجيلهم أحداث التاريخ الاسلامي العام .

وقد جعلت غرضي البحث عن الحقيقة فتحريتها من غير تعصب أو سير وراء عاطفة ، وجهدت أن أجلو تاريخ هذا الأقليم السياسي والعلمي والاجتماعي بروح الناقد النزيه ، بما أتيح لي من بصيرة وطاقة .

وقد كان العصر الأموي ، دون ريب ، فترة حافلة بالأحداث ، والتي كتب بعضها في ظل ظروف ساعدت على طمس كثير من حقائق ذلك العصر ، اذ أن حركة تدوين العلوم ازدهرت في عصر العباسيين الذين كانوا يكرهون بني أمية . فجاءت بعض الكتابات متأثرة بوجهة نظر الدولة الحاكمة . ولم يقف الأمر عند هذا الحد ، فقد شارك مؤرخون ذوي ميول معادية للأمويين في تعمية الحقائق حينا وتشويهها أحيانا أخرى . وفي العصر الحديث بنى بعض المستشرقين على تلك

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الكتابات أوهاما زعموا أنها دراسة عميقة للتاريخ الأموى .

أما البحث فقد رأيت أن أجعله فى بابين رئيسيين : الباب الأول ، دراسة للأحوال السياسية في الحجاز خلال العصر الأموى . والباب الثانى ، دراسة لمظاهر الحياة العملية والاجتماعية ابان ذلك العصر في الحجاز ، وأتبعت البابين بخاتمة للبحث .

ويشمل الباب الأول ثلاثة فصول . الفصل الأول منها تمهيدي ، درست فيه الأحداث التى أدت الى انتقال الخلافة الى الأمويين . فبدأت بدراسة أحوال الحجاز فى أواخر خلافة عثمان بن عفان الذى كانت الحجاز فى عهده تنعم بثمار الانتصارات ، وكما قيل : ((الأعطيات دارة ، والصدور مقموع ، وذات البين صلح)) ، ولم تلبث الأمور أن تطورت فى أواخر خلافة عثمان وازداد نفوذ بنى أمية ، وأصبحوا أركان دولة عثمان ، وأحاطوا به وغدوا بطانة له ، وعلا شأنهم وتحققت أمانيهم فى تولى المناصب الادارية حتى قيل أن خلافة عثمان كانت بداية فعلية للحكم الأموى . ورافق ازدياد النفوذ الأموي تغيرات تمخض عنها تطور المجتمع ، وظهر تباين اقتصادى بين الناس ، فبدأت القبائل فى الأمصار تتذمر من استعلاء نفوذ بنى أمية خاصة وقريش عامة .. وهبت رياح الفتنة وعصفت بالخليفة الشيخ ، وأودت بحياته . وتركت الفتنة العديد من الآثار السياسية والاجتماعية ، كانت ذات أثر بالغ فى حياة أهل الحجاز .

ثم اختير على بن أبى طالب للخلافة ، فى ظروف جد حرجة من تصدع وحدة الجماعة الاسلامية وتآلفها ، الى استعلاء نفوذ الأمصار فى عاصمة الخلافة نفسها ، فكان ذلك المهد عهد حروب أهلية وفتن ، قطف الأمويون ، بزعامة معاوية بن أبى سفيان ، ثمارها ، ووصلوا الى منصب الخلافة ، حين اضطر الحسن بن علي الى التنازل عنها الى معاوية . فكان هذا التنازل فاتحة عصر الخلافة الأموية .

وفى الفصل الثانى درست قيام الخلافة الأموية بالشام وأثر ذلك فى الحجاز ، فبينت موقف أهل الحجاز من تولى معاوية بن أبى سفيان الخلافة ، والسياسة التى انتهجها للتغلب على معارضة أهل الحجاز ، التى عنفت واشتدت حين نصب ابنه يزيد وليا للعهد وعقد البيعة له واعتبر بعض أهل الحجاز هذه البيعة بدعة ليس لها سابقة عند العرب ... وما أن توفى معاوية

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

حتى ثار أهل الحجاز على خليفته يزيد ، ثورة تزعمها الحسين بن علي ، وثورة تزعمها أهل المدينة . ولم يتمكن يزيد من اخماد الثورة الا بعد أن ذهب العديد من أهل الحجاز ضحية لسيف بنى أمية الذين فشلوا فى اخضاع ابن الزبير الذى عاذ بمكة .

وتناولت فى الفصل الثالث حال الحجاز السياسى فى عهد الخلفاء الأمويين من بنى مروان ، فأوضحت تزايد النفوذ الزبيرى فى الأمصار الاسلامية التى غدت تدين معظمها بطاعة ابن الزبير ، الذى كادت حركته أن تقتلع جذور الحكم الأموى . ثم أشرت الى موقف أهل الحجاز من الخلافة الزبيرية التى لم تعمر طويلا ، حين حزم الأمويون أمرهم ، واشتبكوا فى صراع مع خليفة الحجاز الذى لم يلبث أن قتل سنة ثلاث وسبعين من الهجرة ، وخضعت بلاد الحجاز مرة أخرى للحكم الأموى ، وعادت سيرتها قبل الثورة ولاية تتبع دمشق .

ثم خبا نجم أهل الحجاز السياسى ، وغدت بلادهم على هامش الأحداث ، ولم تظفر ثورة زيد بن علي على هشام بن عبد الملك ، بأكثر من تأييد أهل الحجاز المعنوى . وكانت آخر الحركات السياسية التى تعرضت لها الحجاز استيلاء الخوارج بقيادة أبي حمزة الخارجى على البلاد سنة ١٢٩ هـ . ولم يتمكن الحجازيون من دفع خطر الخوارج عن بلادهم ، الا أن الدولة الأموية أنقذت الحجاز من خطرهم ، وما كادت أن تقضى على حركتهم حتى كانت قد لفظت أنفاسها سنة ١٣٢ هـ لصالح بني العباس .

وتناولت فى الباب الثانى مظاهر الحياة العلمية والاجتماعية في الحجاز . فدرست في الفصل الأول مظاهر الحياة العلمية كالتفسير والقراءات ، ثم الحديث والفقه ونشأة علم التاريخ - السيرة والمغازى - وبينت دور المسجد فى تلك الحركة التى ظهرت في فترة مبكرة على أرض الحجاز ، وفاقت فيها الأمصار الاسلامية الأخرى . واستمر أهل الحجاز يؤدون دورهم الحضارى خلال ذلك العصر ، فكانت مكة والمدينة من أهم مراكز الحياة العلمية الدينية في الدولة الاسلامية .

وبجانب تلك الحياة العلمية الجليلة ازدهر فن شمل الأدب والموسيقى والغناء ، وسار

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ودرست في الفصل الثاني مظاهر الحياة الاجتماعية، فتناولت عناصر السكان : الصرب، الموالي ، الرقيق . وكان المجتمع الحجازي يرتكز على القبائل العربية التي كانت تمثل اغلبية السكان وتمتعت بأهم الامتيازات ... فأشرت الى أهم القبائل العربية الحجازية، وأتبعت ذلك بدراسة أحوال الموالي والرقيق في الحجاز . وبينت المكانة العالية التي كانت تتمتع بها المرأة ومشاركتها في الحياة العامة . وأشرت الى المجالس الاجتماعية ، ودرست ثراء القوم وتحضرهم في تلك الحقبة الزمنية حين كثرت الأموال وتوفر الفراغ والأيدي العاملة، من أجناس شتى ، خدمت الطبقات الغنية، فاستخدموهم في مهنهم وحاجات منازلهم، واتسع لهم العيش وتفننوا في أحواله، وظهر تحضر أهل الحجاز في المساكن والمطاعم والملابس.

ولا شك أن دراسة الأوضاع الاجتماعية، هذا الجانب الحيوي من حياة المجتمع، يعطي صورة أصدق تعبيرا عن حالة البلاد ، فاجتهدت بالتالي أن اعرض صورة متكاملة عن الجوانب السياسية والجوانب الاجتماعية في عصر بني أمية الذين توطدت أركان الاسلام دينا تدين به الأمم في أيام حكمهم و لست بهذا أدافع عن الأمويين الذين يكفيهم فخارا ما وصل اليه الاسلام والمسلمون من عزة وسؤدد ومجد وانتشار في عصرهم .

وختمت البحث بخلاصة موجزة لأهم الأفكار التي تناولتها الدراسة . أما المراجع التي اعتمدت عليها فقد تنوعت وتعددت وشملت مؤلفات المؤرخين الذين حظيت بلاد الحجاز باهتمامهم فتتبعوا الأحداث الهامة التي وقعت فيها وذكروا أخبارها ضمن مؤلفاتهم التاريخية . وأهم هذه المؤلفات تاريخ خليفة بن خياط - ت ٢٤٠هـ - والمحبر لابن حبيب - ت٢٤٥ هـ - وكتابي الامامة والسياسة، والمعارف لابن قتيبة - ت ٢٧٦ هـ - والاخبار الطوال للدينوري - ت ٢٨٢ هـ - وتاريخ اليعقوبي - ت ٢٨٤ هـ - وتاريخ الرسل والملوك للطبري - ت ٣١٠ هـ - ومروج الذهب ومعادن الجوهر للمسعودي - ت ٣٤٦ هـ - والتاريخ الكبير لابن عساكر ت ٥٧١ هـ - والكامل في التاريخ لابن الاثير - ت ٦٣٠ هـ - والمختصر في أخبار البشر لأبي الفداء - ت ٧٣٢ هـ - والبداية والنهاية لابن كثير - ت ٧٧٤ هـ - والعبر وديوان

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ولم تخضع كتب المؤرخين لنفس التمحيص والتحرى الذى وجه لدراسة الحديث وتعديل وتجريح الرواة ، وبالتالى تختلف هذه المؤلفات من حيث درجة الوثوق في صحة الروايات التى وردت فيها ، الا أن تاريخ الطبري كان اكثرها أهمية للباحث وأقربها الى الصدق . كما تختلف هذه المؤلفات في سرد الحوادث ويغلب على مؤلفيها اتباع طريقة الحوليات في رواية الحوادث مرتبة على السنين ، وتكاد تخلو من تاريخ النواحي الاجتماعية المختلفة اذ اهتم مؤلفوها بالأحداث السياسية الهامة ، ويتجلى فضل المؤلفات المتقدمة منها في حفظ الروايات التاريخية الأولى من الضياع .

وتشارك المخطوطات المؤلفات التاريخية فى مواصفاتها العامة ، وأهم المخطوطات التى تيسر لي الاطلاع عليها ، الاعلام بالحروب الواقعة فى صدر الاسلام للبياسي - ت ٦٥٣ هـ - والدلالات السمعية على ما كان في عهد الرسول ، صلى الله عليه وسلم من الحرف والصناع والصالات الشرعية للخزاعى - ت ٧٨٩ هـ - والعقد الثمين في تاريخ البلد الأمين للفاسي - ت ٨٣٢ هـ - وقيد الشريد من أخبار يزيد لابن طولون (ت ٩٥٣ هـ) كما يلاحظ على هذه المخطوطات تأخرها زمنيا ، واعتمادها في الغالب على أصول طبعت .

٤٩٦٤٨٨

ومن كتب السيرة التى أفدت منها : السيرة النبوية لابن هشام (ت ٢١٨ هـ) وهى السيرة التي كتبها ابن اسحاق (ت ١٥١هـ) وهذبها ابن هشام واليه تنسب ، وعيون الأثر في فنون المغازى والشمائل والسير لابن سيد الناس - ت ٧٣٤ هـ - وانسان العيون في سيرة الأمين المأمون للحلبي - ت ١٠٤٤ هـ - . واستفدت من كتب السيرة هذه خاصة في نشأة علم التاريخ (المغازي والسيرة) في الحجاز ، كما أنها تصف أماكن كثيرة من الحجاز ، وسكانها وتحديد مساكنهم .

ومن أهم الكتب التى أفدت منها في دراسة " مظاهر الحياة العلمية بالحجاز " الموطأ والمدونة الكبرى للامام مالك - ت ١٧٩ هـ - والأم للشافعى - ت ٢٠٤ هـ - والمسند لابن حنبل - ت ٢٤١ هـ - وصحيح البخاري - ت ٢٥٦ هـ - وصحيح مسلم - ت ٢٦١ هـ - وجامع البيان عن تأويل أي القرآن للطبري .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

والالماع الى معرفة أصول الرواية وتقييد السماع ، وترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك ، وهما للقاضي عياض اليحصبي ـ ت ٥٤٤ هـ ـ والجامع لأحكام القرآن للقرطبي ـ ت ٦٧١ هـ ـ واعلام الموقعين عن رب العالمين لابن قيم الجوزية ـ ت ٧٥١ هـ ـ والاتقان في علوم القرآن للسيوطي ـ ت ٩١١ هـ ـ .

وبجانب أهمية هذه الكتب من الناحية الدينية وتأريخ الحركة العلمية التي تكونت حول القرآن ، أمدتني بمعلومات هامة في الحياة الاجتماعية الحجازية .

أما كتب الطبقات التي ترجم فيها أصحابها للعديد من الشخصيات الدينية والسياسية والعلمية والقضائية فكان ابرزها الطبقات الكبرى لابن سعد ـ ت ٢٣٠ هـ ـ ، وكتاب مشاهير علماء الأمصار لابن حبان البستي ـ ت ٣٥٤ هـ ـ ، والاستيعاب في معرفة الأصحاب لابن عبد البر ـ ت ٤٦٣ هـ ـ ، وصفة الصفوة لابن الجوزي ت ٥٩٧ هـ ، وأسد الغابة في معرفة الصحابة لابن الأثير ـ ت ٦٣٠ هـ ـ ، ووفيات الأعيان لابن خلكان ـ ت ٦٨١ هـ ـ ، والاصابة في تمييز الصحابة لابن حجر ـ ت ٨٥٢ هـ ـ ، وتترجم هذه الكتب لكثير من الشخصيات البارزة ، واثناء الترجمة ترد بعض الاشارات للأخبار والحوادث السياسية ، كما ترد معلومات قيمة عن النشاط العلمي والنشاط الاجتماعي وبعض مظاهر الحياة اليومية السائدة ، كما تجدر ملاحظة أن هذه الكتب لاتقتصر على رجالات الحجاز فحسب مما يجعل مهمة الباحث أكثر مشقة .

ومن كتب الأنساب ، كتاب نسب قريش للمصعب الزبيري ت ٢٣٦ هـ ، وكتاب جمهرة نسب قريش وأخبارها للزبير بن بكار ـ ت ٢٥٦ هـ ـ ، وأنساب الاشراف للبلاذري ، ـ ت ٢٧٩ هـ ـ ، وجمهرة أنساب العرب لابن حزم ـ ت ٤٥٦ هـ ـ ، وكتاب الأنساب للسمعاني ـ ت ٥٦٢ هـ ، ونهاية الأرب في معرفة أنساب العرب للقلقشندي ـ ت ٨٢١ هـ ـ ، وتهتم كتب النسب بالأنساب عامة ، وترد فيها بعض المعلومات التي تساعد في دراسة جوانب الحياة الاجتماعية المختلفة ، كما تذكر ديارات القبائل ومنازلها وبعض الأخبار السياسية ، وهي ككتب الطبقات لاتقتصر على الحجاز فحسب .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وكشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون لحاجي خليفة - ت ١٠٦٦ هـ .

ومن الكتب التي استفدت منها كذلك ، كتاب الأموال لابن سلام - ت ٢٢٤ هـ - وفتوح البلدان للبلاذري ت ٢٧٩ هـ ، وأقل من هذين الكتابين في الأهمية كتاب تاريخ فتوح الشام للأزدي ت ٢٣١ هـ .

أما الكتب الجغرافية كالمسالك والممالك للأصطخري ، وبلاد العرب للأصفهاني ، والأعلاق النفسية لابن رسته . وكتاب البلدان لليعقوبي ، وصفة جزيرة العرب للهمداني ت ٣٣٤ هـ ، وأحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم للمقدسي - ت ٣٨٧ هـ - ، ومعجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع للبكري - ت ٤٨٧ هـ ، ومعجم البلدان لياقوت - ت ٦٢٦ هـ - ، ومسالك الأبصار في ممالك الأمصار للعمري - ت ٧٤٩ هـ - فقد أفادتني هذه الكتب في وصف المدن والقرى ومعرفة مواقعها وتحديد الطرق والمواضع ومنازل القبائل ، وبعض المعلومات عن المظاهر الاجتماعية في الحجاز .

ومن قبيل الكتب الجغرافية مؤلفات تشابه ما هو معروف بالخطط ككتاب : المنتقى في أخبار أم القرى للفاكهي - ت ٢٣٠ هـ - وأخبار مكة وما جاء فيها من الآثار للأزرقي - ت ٢٣٣ هـ ، وشفاء الغرام بأخبار البلد الحرام للفاسي - ت ٨٣٢ هـ - ، ووفاء الوفا بأخبار دار المصطفى للسمهودي - ت ٩١١ هـ - . وهذه المؤلفات تتحدث عن المدينتين المقدستين في الحجاز وخططهما ومساجدهما ، وتفصيلات عن جغرافيتهما ، وأوديتهما والاسواق فيهما ، واشارات كثيرة عن السكان والحياة الاجتماعية في المدينتين ، وهذه الكتب ضرورية للباحث في تاريخ الحجاز .

ومن الكتب التي استفدت من الشرح اللغوي فيها ، لسان العرب لابن منظور - ت ٧١١ هـ - والقاموس المحيط للفيروزآبادي - ت ٨١٧ هـ - ، وتاج العروس من جواهر القاموس للزبيدي ، ت ١٢٠٥ هـ .

هذا وقد عاش في الحجاز عدد من الشعراء ، يجد الباحث في أشعارهم تصويرا للحياة الاجتماعية خاصة ، والأحداث السياسية عامة . ففي ديوان حسان بن ثابت الأنصاري قصائد في الفتنة ، ورثاء عثمان بن عفان . وفي ديوان عمر بن أبي ربيعة الحافل بتصوير الجوانب الاجتماعية ،

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ابن أبي عبيد الثقفي بعد أن قضى على حركته . أما ديوان عبيد الله بن قيس الرقيات ، فهو أكثر هذه الدواوين تعرضا للأحداث السياسية التي وقعت في الحجاز في عصره .

ومن الكتب الأدبية التي أفدت منها ، كانت مؤلفات أبي عثمان الجاحظ - ت ٢٥٥ هـ كالبيان والتبيين ، وكتاب الحيوان ، ورسائل الجاحظ . ومن مؤلفات ابن قتيبة ، الشعر والشعراء وعيون الأخبار . والكامل في اللغة والأدب للمبرد - ت ٢٨٥ هـ - ، والعقد الفريد لابن عبد ربه - ت ٣٢٨ هـ - ، والأغاني للأصفهاني - ت ٣٥٦ هـ - ، ونهاية الأرب في فنون الأدب للنويري - ت ٧٣٢ هـ - ، وسواها .

على أن أهم هذه الكتب الأدبية ، كان كتاب الأغاني الذي ترجم فيه أبو الفرج الأصفهاني للعديد من الشعراء والمغنين وأصحاب النوادر ، والكتاب حافل بالكثير من أخبارهم وحياتهم الاجتماعية وأشعارهم ، وأصوات المغنين وحفلاتهم الغنائية . وطرفا من أخبار هؤلاء مع الوجهاء وذوي السلطان .

وتكمل هذه الكتب الأدبية مؤلفات المؤرخين في تصوير جوانب الحياة الحجازية المختلفة خلال العصر الأموي . مع ملاحظة أن الكتب الأدبية لاتحظى بثقة كبيرة فيما يتعلق بالحوادث التاريخية السياسية التي تشير اليها .

ومن المؤلفات في الفكر الاسلامي ، والفرق الدينية الاسلامية ، أفدت من كتاب فرق الشيعة للنوبختي - ت ٣١٠ هـ - وكتاب مقالات الاسلاميين واختلاف المصلين للأشعري - ت ٣٣٠ هـ وكتاب الفرق بين الفرق للبغدادي - ت ٤٢٩ هـ - ، وكتاب الأحكام السلطانية والولايات الدينية للماوردي ، - ت ٤٥٠ هـ - ، وكتاب الفصل في الملل والأهواء والنحل لابن حزم - ت ٤٥٦ هـ ، وكتاب الملل والنحل للشهرستاني - ت ٥٤٨ هـ - .

هذه أهم المراجع التي استفدت منها في البحث ، كما أني لاأنكر الفائدة الكبيرة التي استفدتها من كتب المؤلفين العرب المحدثين سواء في التاريخ والحضارة أم في الأدب . وتجد قائمة بهذه الكتب منفصلة في مراجع البحث .

كما استفدت كذلك من المؤلفات الأجنبية ، والتي تجدها في آخر قائمة المراجع . وبالرغم

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وبعد ،فاني أرجو أن تلقي هذه الدراسة مزيدا من الأضواء على أوضاعنا الراهنة وتعين على توجيهنا الوجهة الصحيحة ،والاستفادة من عظات التاريخ وأن تكون فيها اضافات جديدة للمكتبة التاريخية الاسلامية عامة ،ولتاريخ الحجاز خاصة .

أما الاستاذ الدكتور عبد الفتاح علي شحاته المشرف على هذا البحث فطالما "اغترفت من علمه وأفدت من مكتبته ، وانتفعت بنصحة وتوجيهه ،وما أكثر ما كان ينفق من وقت يناقش معي فيه بعض وجوه الرأي ، ويبصرني بما لم أكن لأصل اليه لولا غزير علمه وسديد نصحه" . فله مني الثناء والتقدير والاعتراف بالفضل .

ثم اني لأبرئ نفسي من الزلل ،ولا أدعي العصمة أو الكمال ، وحسبي أني حاولت ما استطعت ، وجهدت في تحري الحقيقة ، فان يكن في بحثي صواب فهو ما ابتغيت وذلك من توفيق الله ، وان كان فيه ما يقصر عن الهدف فتلك طبيعة الانسان والكمال لله وحده .

والله من وراء القصد ، انه نعم المولى ونعم النصير

عطيه عوده أبو سرحان

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الفصل الأول

الأحداث السياسية التي أدّت الى انتقال الخلافة الى الأمويين

١ـ الأحداث الداخلية في أواخر خلافة عثمان بن عفان

استعلاء نفوذ بني أمية

الأوضاع الاقتصادية

الأحوال الداخلية في الأمصار

نهاية خلافة عثمان بن عفان

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الأحداث الداخلية في أواخر خلافة عثمان بن عفـــــان

شهدت السنوات الست الأولى من خلافة عثمان بن عفان هدوءا ظاهرا ، فساد البلاد أمـــن واستقرار في الداخل ، وفتوحات ظافرة في جبهات القتال[1] . وحافظت الحجاز على جاهها السياسـي وتمتعت بمركز الثقل السياسي بين أقاليم الخلافة الاسلامية الممتدة في جبهتي الفرس والروم . وكانـت المدينة المنورة هي العاصمة التي ((بها عقدت رايات المسلمين ، وقويت أمور الدين))[2] وبالتالي هـي نواة الجماعة ، ومركز الخلافة ، وقاعدة جيوش الفتح الاسلامي المظفر ، وترتب على ذلك نمو اقتصادي ويسر مالي ، وتدفقت الأموال من غنائم البلدان المفتوحة ((فزخرت بحار الرفه لديهم ، حتى كان الفـارس الواحد يقسم له في بعض الغزوات ثلاثون ألفا من الذهب أو نحوها))[3] . هذا بجانب التجارة التي برع الحجازيون في ممارستها ، وبلغ مما اصاب الناس من ثراء ورفاه أن قيل : ان الجارية بيعت بوزنها ورقـا ، وبيع الفرس بعشرة آلاف دينار ، وبيع البعير بألف والنخلة الواحدة بألف.[4]

ورافق عهد خلافة عثمان تغير في الظـروف وتطورات اجتماعية أشار الديار بكري[5] الى بعضها قائلا : ((كانت المدينة عامـــرة كثيرة الخيـرات والأموال والناس يجبى اليها خراج الممالك وهي دار الأمان وقبة الاسلام ، فبطر الناس بكثرة الأموال والخيل والنعـــم)) . وتمخض المجتمع الاسلامي عن تغيرات قويـة ، وتفاعلت حضارات الأمم التي جمعتها الدولة الاسلامية وكثر الرقيـق من سبي الفتوحـات وأرسل قسم كبير منهم الى الحجاز[6] ، التي فتحت أبوابها لمن رغب من المسلمين في سكناها لأسباب دينيـــة أو اقتصاديـــة ، وغدا المجتمع خليطا من شعوب شتى .

١ـ انظر الطبري : تاريخ الرسل والملوك ج ٤ ص ٢٤٦ ـ ٢٤٧ ، ٢٦٦ ـ ٢٧١ ، ٢٨٨ ـ ٣٠٠ ، ٣٠٩ ـ ٣١٢ ، تحقيق محمد ابو الفضل ابراهيم ، دار المعارف ١٩٧٠ .

٢ـ المقدسي : أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم ص ٦٧ نشر دي غويه ١٩٠٦ .

٣ـ ابن خلدون : المقدمة ج ٢ ص ٧١٢ تحقيق علي عبد الواحد وافي ، الطبعة الثانية ١٩٦٥ ـ ١٩٦٨

٤ـ انظر المحب الطبري : الرياض النضرة في مناقب العشرة ج ٢ ص ٥ حققه محمد مصطفى أبو الملا ١٩٧٠ .

٥ـ تاريخ الخميس في أحوال أنفس نفيس ج ٢ ص ٢٥٨ نشر مؤسسة شعبان بيروت .

٦ـ بلغ سبي قيسارية وحدها أربعة الاف رأس ، بعث بهم معاوية بن أبي سفيان الى عمر بن الخطاب فقسمهم على مقاتلي الأنصار وجعل بعضهم في الكتاب والأعمال للمسلمين .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ونشأ عن ذلك توفير الأيدى العاملة من الموالي والرقيق الذيـن أثروا فى الحيـاة العامة، وقاموا بمختلف الأعمال التى عهد أصحابهم اليهم القيام بها، فكانوا بالنسبة لذلك المعهد الآلات المنتجـة والمعامل المهمة لأصحاب الأموال وللسادة الأثرياء.(١) ويسر وجودهم فراغ وقت اقترن بيسر مالي وثروة. ومن الطبيعي أن يرافق الفنى والفراغ بطر وفساد أخلاق الا ماندر. خاصة حين أخذ الجيـل الأول يختفي من على ظهر المسرح بالتدريج، ويحل محله جيل آخر، جيل أقل من الأول ذلك الذى على أكتافه قام بناء الدولة في مجموعه من حيث قوة الايمان وفهم جوهر العقيدة والاستعداد لاخضاع النفس لحكم القانون العام.(٢)

وفى السنوات الست الأخيرة من خلافة عثمان بن عفان تهيأت الفرصة أن تفسر اجراءات الخليفـة لا كما ينبغى أن تكـون، وتطورت الأحداث بسرعة ((وعلينا أن نلاحظ أن الهزات الاجتماعية لا تنشأ حين انفجارها وانما يسبقها دور تمهيد تتجمع فيه عوامل الشكوى والتذمر والسخط ثم تنتظر الظروف المناسبة لتنفجر في دور قد يكون بعيدا عن تكوينها))(٤). والخليفة جاوز السبعين من عمره(٥) كما كان يفتقـد الى ((افراط جلد عمر وشدة رأيه وشكيمته ويقظته وخشونته وثبات عزمه))(٦). وصفات عمر هذه كانـت تضفي على الخلافة مهابة رادعة، وأبادر الى القول أن الفتنة لا تعود الى صفات عثمان الشخصيـة، ولكن لين الخليفة والتطورات الاجتماعية في الدولة المتنامية وعدم مقدرته على مواجهتها بحزم جعل سلطـة عثمان تميل تدريجيا نحو الغروب.(٧) ويظهر ذلك بوضوح من الأقاويل التى طعنت فى سياسته وأنتقدت اعماله الادارية.(٧)

استعلاء نفوذ بنى أميـة :

وقـد اعتمدت ادارة عثمان على اقربائه الأمويين فى السنوات الست الأواخر من خلافته، وتسنموا مناصب

١ـ انظر جواد علي : المفصل فى تاريخ العرب قبل الاسلام ج ٦ ص ٦٠٢ دار العلم للملايين بيروت ١٩٦٨

٢ـ انظر محمد ضياء الدين الريس : النظريات السياسية الاسلامية ص ٤٠، دار المعارف ١٩٦٩.

٣ـ كانت خلافة عثمان اثنتى عشرة سنة الا اثنتي عشرة ليلة. انظر ابن قتيبة : المعارف ص ١٩٨ تحقيق ثروت عكاشة، دار المعارف، ١٩٦٩.

٤ـ عبد العزيز الدورى : مقدمة فى تاريخ صدر الاسلام ص ٥١ بيروت ١٩٦١.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الولاة في أمصار الدولة الهامة، وازداد النفوذ الأموي، فقد كان الخليفة أمويا ، وأصبح التنظيم الاداري في الغالب يعتمد على الأمويين الذين نجحوا كثيرا في الفترة التي سبقت خلافة عثمان، وكان النبي صلى الله عليه وسلم قد استعمل الأمويين في بعض المناصب وكذلك فعل أبو بكر وعمر بن الخطاب من بعده (١). وحين جاءت خلافة عثمان اعتمد لأول ولايته في مشورته على من اعتمد عليهم الشيخان من قبل، اذ أوصى عمر بن الخطاب أن يقر الخليفة بعده عماله في أعمالهم سنة (٢)، فأمضى ذلك عثمان حين ولي الخلافة (٣). ثم اعتمد على أناس من أهله وعشيرته حين ((عزت على عثمان الطمأنينة الى الولاة مع الفراغ للدنيا بعد الجهاد ، فاختار للولاية أناسا من ذوي قرابته سبقت لهم ولاية في عهد الخليفتين السابقين عسى أن يصدقوه المنون بحكم القرابة ان لم يصدقوه المنون خالصا لوجه الله)) (٤). فأحاط الأمويون بعثمان وأصبحوا بطانة له .

ومن أبرز هؤلاء الولاة الأمويين الذين اعتمد عليهم عثمان كان معاوية بن أبي سفيان الذي أقره عثمان على الشام ، ثم ((اجتمع الشام على معاوية لسنتين من امارة عثمان)) (٥). وحظي مروان بن الحكم ابن عم عثمان بتولي الكتابة في المدينة، (٦) وكان بمثابة وزير أول للخليفة . وولى الكوفة لأخو عثمان لأمه الوليد ابن عقبة بن أبي معيط، وولى عبد الله بن عامر بن كريز ، وكان ابن خال عثمان، البصرة وهو حدث السن ، كما استعمل عثمان : عبد الله بن أبي سرح ، وكان أخاه من الرضاعة على مصر وجمع له حربها وخراجها (٨). وقيل في بعض هؤلاء الولاة أنهم ((أحداث وغلمه لا صحبة لهم من الرسول ولا تجربة لهم بالأمور)) (٩).

واذا كان عثمان بن عفان قد استعان باقربائه الأمويين في أمور السياسة والادارة ، عسى أن يعينه أولئك في تحمل تهمات الحكم ويصدقوه المنون بحكم قرابتهم له ، الا أنه لم يتعمد جورا ، ولم يأمر بظلم ، وحرص على ارضاء الناس واستصلاحهم وأن ينال كل ذي حق حقه وبذل في ذلك غاية جهده ، ولان للناس في أمور ادارية كان ينبغي أن يشتد فيها ، (١٠) وكتب الى أهل الأمصار : ((أما بعد ، فاني آخذ العمال بموافاتي

(١) ـ انظر : الذهبي : المنتقى من منهاج الاعتدال ص ٣٨٢ ـ ٣٨٣ تحقيق محب الدين الخطيب ١٣٧٤ هـ

٢ ـ انظر ابن كثير : البداية والنهاية ج ٧ ص ١٤٦ مكتبة المعارف بيروت ١٩٦٦ م الطبري : تاريخ ج ٤ ص ٢٤٤ .

٣ ـ انظر ابن خلدون : العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ج ٢ ق ١ ص ٢٦ ابيروت

٤ ـ عباس محمود العقاد : العبقريات الاسلامية ص ٦٤ دار الآداب بيروت ١٩٦٨ .

٥ ـ انظر ابن العربي : العواصم من القواصم ص ٨٠ تحقيق محب الدين الخطيب المطبعة السلفية ١٣٨٧ هـ

٦ ـ ابن أبي بكر : التمهيد والبيان في مقتل الشهيد عثمان ص ٢٨ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

في كل موسم، وقد سلطت الأمة منذ وليت على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فلا يرفع علي شيء ولا على أحد من عمالي الا أعطيته، وليس لي ولعمالي حق قبل الرعية الا متروك لهم، وقد رفع الي أهل المدينة أن أقواما يشتمون وآخرون يضربون، فيامن ضرب سرا، وشتم سرا من ادعى شيئا من ذلك فليواف الموسم فليأخذ بحقه حيث كان، مني أو من عمالي، أو تصدقوا فان الله يجزي المتصدقين))(١).

ولكن عثمان توانى في أمر رجال الشورى وزعماء الناس ممن يصلح للولاية واستعمل أقاربه وأهل بيته الأمويين الذين تمكنوا من عزله عن رجال الشورى من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وسواهم من الناس من ناحية، ورأى رجال الشورى، وشاركتهم العامة في رأيهم، أن الفضل في غير أولئك الولاة الأمويين من ناحية أخرى(٢). وعتب البعض وسخط الآخرون على عثمان ايثاره بني أمية، فكلموا عليا بهذا الشأن فذهب اليه وعاتبه، فما كان من عثمان الا أن خرج الى الناس من أهل المدينة وخطبهم مهددا وتارن بين شدة عمر ولينه لهم ولذلك، كما ذهب، اجترأوا عليه وأشار الى كثرة عصبته من الأمويين: ((ألا فقد والله عبتم علي ما أقررتم لابن الخطاب بمثله، ولكنه وطئكم برجله وضربكم بيده وقمعكم بلسانه فدنتم له على ما احببتم وكرهتم، ولنت لكم واوطأتكم كتفي، وكففت يدي ولساني عنكم فاجترأتم علي أما والله لانا أعز نفرا وأقرب ناصرا وأكثر عددا وأحرى ان قلت هلم أتى الي. ولقد عددت لكم اقرانا، وأفضلت عليكم فضولا، وكثرت لكم عن نابي، وأخرجتم مني خلقا لم أكن أحسنه ومنطقا لم انطق به، فكفوا عني ألسنتكم وعيبكم وطعنكم على ولاتكم فاني كففت عنكم من لو كان هو الذي يكلمكم لرضيتم منه بدون منطقي هذا. ألا فما تفقدون من حقكم، والله ماقصرت عن بلوغ مابلغ من كان قبلي ولم تكونوا تختلفون عليه(٣). فقام مروان بن الحكم فقال: ان شئتم حكمنا والله مابيننا وبينكم السيف))(٤). ولم يأت هذا الخطاب بالنتيجة المرجوة كما أنه لم يكسر حدة تألب الناس وزاد حنقهم على تلك البطانة، سيما وأن مروان زاد الموقف اشتعالا، وشمل الحنق عثمان نفسه حين عد مسؤولا عن تصرفاتهم. روى الطبري أن عثمان مر بجبلة بن عمرو الساعدي، ((وهو جالس في ندي قومه، وفي يد جبلة بن عمرو جامعة(٥)، فلما مر عثمان سلم، فرد القوم، فقال جبلة: لم تردون على رجل فعل كذا وكذا! قال: ثم أقبل على عثمان، فقال: والله لاطرحن هذه الجامعة في عنقك أو لتتركن بطانتك هذه. قال عثمان: أي بطانة!

١ـ الطبري: تاريخ ج ٤ ص ٣٤٢.

٢ـ انظر المرجع السابق ص ٣٣٨

٣ـ ابن الاثير: الكامل في التاريخ ج ٣ ص ١٥٢ ـ ١٥٣.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

والله اني لأتخير للناس فقال : مروان تخيرته ! ومعاوية تخيرته ! وعبد الله بن عامر بن كريز تخيرته ! وعبد الله بن سعد تخيرته ! منهم من نزل القرآن بدمه وأباح رسول الله صلى الله عليه وسلم دمه)).

ولعل النقد الذي وجه الى عثمان كان كذلك اذ حاد عن طريق عمر بن الخطاب في التولية والعزل ، والذي لم يخص فريقا دون فريق من أهل الحجاز ، كما انه لم يؤثر أحدا من بني عدي بشيء دون الناس ((فلم ينل أحد معه من الدنيا شيئا اعظاما له واجلالا وتأسيا به واقتداء))(١) ، كما عتب الأنصار(٢) حين رأوا أن الوعد الذي بذله المهاجرون لهم في سقيفة بني ساعدة ، بأن يكونوا عم الوزراء لهم النور وحين تنظر في هذا الأمر ، أعني استعلاء النفوذ الأموي ، وتولي الأمويين المناصب العليا في دولة عثمان ، علينا أن نأخذ بعين الاعتبار الفارق الزمني بين عمر بن الخطاب وعثمان بن عفان وظلم الروايات لعثمان تعظيما للفاروق هو في واقع الحال غني عنه . وقد اجتهد عثمان وتخير في حدود مقدرته سواء أصاب في اجتهاده أم اخطأ ، وانه أراد الخير لأهل الحجاز ولعامة المسلمين بنحو يتفق مع ما جبل عليه من دماثة في الطبع ورقة في الخلق وصدق في الايمان وتجرد للخير(٤) .

ولكن الأمويين نظروا الى خلافة عثمان بمنظار آخر قد يغاير نظرة الخليفة نفسه ، ذلك أن أقوالهم أفصحت بجلاء عن آرائهم حول أمويه خلافة عثمان ، فقد دخل أبو سفيان على عثمان حين صارت الخلافة اليه فقال : ((قد صارت اليك بعد تيم وعدي فأدرها كالكرة واجعل أوتادها بني أمية فانما هو الملك ...))(٥) وتكرر هذا المعنى في أقوال ثلاثة من أركان حكومة عثمان ، فكان مروان بن الحكم قد قال للناس وهم مجتمعون بباب عثمان : ((ماشأنكم قد اجتمعتم كأنكم قد جئتم لنهب ؟ شاهت الوجوه الا من أريد ؟ جئتم تريدون أن تنزعوا ملكنا من أيدينا أخرجوا عنا))(٦) ، وذكر أن الوليد بن عقبة قال لسعد بن أبي وقاص حين عزل الأخير عن ولاية الكوفة ووليها الوليد من قبل عثمان : ((لا تجزعن يا أبا اسحاق .... انما هو الملك يتعداه قوم ويتعشاه آخرون))(٧) ، وحين ناظر معاية بن أبي سفيان المسيرين من أهل الكوفة الى الشام قال لهم

١ــ ابن قتيبة : الامامة والسياسة ج ١ ص ٣١ .

٢ــ انظر Saunders : Ahistory of Medieval Islsm Page 61

٣ــ انظر ابن هشام : السيرة النبوية ، القسم الثاني ص ٦٥٩ ــ ٦٦٠ تحقيق مصطفى السقا ١٩٥٥

٤ــ انظر محمد حسين هيكل : عثمان بن عفان ص ٤٠

٥ــ المقريزي : النزاع والتخاصم فيما بين بني أمية وبني هاشم ص ٣١ تصحيح محمود عرنوس مكتبة الأهرام .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

في معرض حديثه :((... ثم ارتضى له أصحابا فكان خيارهم قريشا ، ثم بنى هذا الملك عليهم ، وجعل هذه الخلافة فيهم))[1].

ولا شك أن آراء الأمويين التي تتلخص في نظرتهم الى خلافة عثمان على أنها ملك لهم، هي من الأمور التي لم يرض الناس عنها ، خاصة وأن عثمان لم يكن منه لذلك تغيير ولا نكير ، فحاول بعض رجال الشورى اصلاح ذات البين[2] ، ولما لم ينجح مسعاهم برموا ثم سخطوا ، سيما وأن بطانة عثمان قد أبعدته عن الناس، وصورت له رجال الشورى أنهم منافسون ونظراء ، وقيل أن بعض الأمويين وصل بهم الأمر أن نصحوا عثمان بقتلهم والخلاص منهم[3].

وبجانب ذلك كان عثمان قد تقدمت به السنون، وفسر لينه وحلمه على أنه ضعف[4]، أو على الأقل هكذا استغل فكان ((يبعث السعاة لقبض الصدقات اذا حضر الناس المياه ، ثم يعهد اليهم فيتعدون حدوده ، فلا يكون منه لذلك تغيير ولا نكير، فاجترأوا عليه ونسب فعلهم اليه ، وتكلم الناس في ذلك وأنكروه))[5]. فلم يكن عثمان اذن ذا هيبة قوية على ولاته ، ولم تكن مراقبته ومحاسبته لهم شديدة، كما كان يفعل عمر[6]، فغير غريب ان يتصرف العمال وهم مطمئنون من جانب الادارة المركزية تصرفات لم يرض عنها الناس في ولاياتهم وبلغ الأمر ببعض الولاة أن كان يقتطع الأموال دون علم الخليفة ، يزعم للناس أن هذه هي أوامر عثمان، ثم يعلم عثمان فلا يغير عليهم شيئا[7]، وهذه صورة نقاش جرى بين عثمان أمير المؤمنين وعلي بن أبي طالب الذي كلمه الناس فذهب الى الخليفة فجرى بينهما هذا النقاش الذي يلقي أضواء ساطعة على آراء عثمان في تولية الأمويين((... فقال عثمان : قد والله علمت ، ليقولن الذي قلته أما والله لوكنت مكاني ماعنفتك، ولا اسلمتك ، ولا عبت عليك ، ولا جئت منكرا أن وصلت رحما ، وسددت خلة، وآويت ضائعا ، وليت شبيها بمن كان عمر يولي ، أنشدك الله ياعلي ، هل تعلم أن المغيرة بن شعبة ليس هناك ! قال : نعم، قال : فتعلم أن عمر ولاه ؟ قال:نعم . قال : فلم تلومني أن وليت ابن عامر في رحمه وقرابته ؟ قال علي : سأخبرك، ان عمر بن الخطاب كان كل من ولى فانما يطأ على صماخه ، ان بلغه

١ــ الطبري : تاريخ ج ٤ ص ٣٢٠.

٢ــ انظر المرجع السابق ص ٣٣٨.

٣ــ انظر ابن قتيبة الامامة والسياسة ج ١ ص ٣٤.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

منه حرفجلبه شيبلغ به أقصى الغاية ، وأنته لا تفعل ضعفت ورفقت على أقربائك . قال : عثمان هم أقرباؤك أيضا . فقال علي : لعمري ان رحمهم مني لقريبة ، ولكن الفضل في غيرهم ، قال عثمان : هل تعلم أن عمر ولى معاوية خلافته كلها ؟ فقد وليته . فقال علي : أنشدك الله هل تعلم أن معاوية كان أخوف من عمر من يرفأ غلام عمر منه ؟ قال : نعم . قال علي : فان معاوية يقتطع الأمور دونك وأنت تعلمها ، فيقول للناس : هذا أمر عثمان ، فيبلغك ولا تغير على معاوية)) (١) . ويتضح من ذلك أن خلافة عثمان قد مكنت للأمويين في تحقيق أمانيهم في السلطة ، وعلا شأنهم ، ولذا أمكن عد خلافة عثمان بداية الحكم الأموي بالفعل ، (٢) حين استغلوا الظروف وانتهزوا الفرص ، فانجلت الفتنة ، التي هبت رياحها في أواخر خلافة عثمان واستمرت طيلة خلافة علي ، عن تسنم بني أمية الخلافة .

وزاد في حدة الموقف أن الأمويين خلفوا بعض الصحابة في ولاية الأمصار وأعمالها ، أمثال : سعد ابن أبي وقاص ، وأبي موسى الأشعري ، والمغيرة بن شعبة ، وعمرو بن العاص وقبل بعض هؤلاء أمر العزل وركنوا الى الهدوء ، وشغل البعض الآخر منهم نفسه بنفث المرارة والطعن على الخليفة بين الناس بعد عزلهم ، (٣) وساعد في تقبل تلك الاقوال ماضي الأمويين الذين قاوموا الاسلام حين ظهوره مقاومة مريرة ، ثم أخذوا الآن يتمتعون بالمناصب العليا في الدولة ، (٤) حتى ذكر أن علي بن أبي طالب قال : ((الحمد لله انا نرى تراث محمد يأكله غيرنا)) (٥) . أما العامة في الأمصار فقد انتقدوا سياسة عثمان هذه بمرارة فحين عزل عثمان سعد بن أبي وقاص عن الكوفة وولاها الوليد بن عقبة قال الناس من أهلها : ((بئسما ابتدلنا به عثمان ، عزل أبا اسحاق الهين اللين الحبر صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم وولى أخاه الفاسق الفاجر الأحمق الماجن فأعظم الناس ذلك)) (٦) . واذا صحت هذه الاقوال فليس للوليد من مؤهلات الولاية الا أخوته لعثمان بن عفان . ومع مرور الزمن اتسعت هوة الخلاف ، وعلى ضوء ذلك اعطي لكثير من الأمور أهمية أكثر مما تستحق .

ولعل أخطر ما في الأمر هو اختلاف وجهات النظر ، فعثمان غير متعمد الاساءة يقرب الأمويين ، والمهاجرون يرون أنهم أركان الدولة وأهل الحل والعقد فيها ، وآخرون زاهدون في متاع الدنيا يرون

١ ـ الطبري : تاريخ ج ٤ ص ٣٣٨ .

٢ ـ انظر فلهوزن : تاريخ الدولة العربية ص ٣٩ ، عبد العزيز الدوري : مقدمة في تاريخ صدر الاسلام ص ٥٢ .

٣ ـ انظر الطبري : تاريخ ج ٤ ص ٣٥٦ ـ ٣٥٧ ، المسعودي : مروج الذهب ومعادن الجوهر ج ٢ ص ٣٥٤ . دار الأندلس بيروت ١٩٦٥ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أن كل انحراف عن سيرة الشيخين أبي بكر وعمر عملا غير شرعي . البتة، والأنصار الذين بذلوا جهودا عظيمة من أجل الاسلام، أصبحوا الآن ليس لهم من الأمر شيء حين ((ملك القوم فاستأثروا)) (١).

وهكذا فقد ترك التنافس على الحكم آثاره الواضحة في خلافة عثمان ، ولم يكن التفاف الناس حوله ، كما كان عليه الحال في عهدي الشيخين، قبله ، ((وأخذت بعض الشخصيات تثير السخط على سياسة عثمان وتجهر بأحقية علي بن أبي طالب بالخلافة، وتعمل على الدعوة له (٢) ، ولم يزل الحال على ذلك حتى انتهت حياة عثمان))، واذا اضيف لذلك أن أهل الحجاز كانوا قريبي عهد بالجاهلية ونزعاتها العصبية التي واتتها الظروف لتطل برأسها من جديد أمكن القول أن الشكوى من استعلاء نفوذ الامويين في خلافة عثمان كانت نتيجة أمور عديدة متنوعة . وزاد الطين بلة أن القبائل كانت تسخط سيادة قريش واستئثارها بالحكم ، وبتطون قريش كانت تسخط على عثمان ايثاره ذوي قرابته من الأمويين .

الأوضاع الاقتصادية

ولم يكن ازدياد النفوذ الأموي في عهد خلافة عثمان هو العامل الوحيد للشكوى التي انتشرت في أمصار الدولة، بل كان التباين الاقتصادي أحد العوامل الهامة التي غذت الشكوى فانقلبت بمرور الزمن الى سخط فثورة أودت بحياة الخليفة نفسه . وقد ظهر الثراء بوضوح بين قريش في عهد عثمان، واقتنى جماعة من أهل الحجاز الضياع والدور وكثرت لديهم الأموال ، وصار للخليفة الثالث أموال عظيمة، (٣) وقيل أن تركته بلغت حين وفاته ((خمسين ومائة ألف دينار وألف ألف درهم، وقيمة ضياعه بوادي القرى وحنين وغيرهما مائتا الف دينار)) (٤). وشارك آخرون عثمان في الثراء كالذي قيل أن : ((مال الزبير بعد وفاته بلغ خمسين ألف دينار وأن ربع ثمن مال عبد الرحمن بن عوف الزهري بلغ أربعة وثمانين الفا بعد وفاته ، وذكروا أن زيد بن ثابت حين مات خلّف من الذهب والفضة ماكان يكسر بالفؤوس ! ٢ . ومات يعلى بن منبه وخلّف خمسمائة

١ ــ البلاذري : أنساب الأشراف ج ٥ ص٢٩ .
٢ ــ محمد جمال الدين سرور : الحياة السياسية في الدولة العربية ص٢ دار الفكر العربي ١٩٦٦
٣ ــ انظر الدياربكري : تاريخ الخميس ج ٢ ص٢٥٨ .
٤ ــ وادي القرى : واد كثير القرى بين المدينة والشام . ياقوت: معجم البلدان ج ٥ ص٣٤٥ . دار صادر بيروت ١٩٥٧ .
٥ ــ ابن خلدون : المقدمة ج ٢ ص٧١٢ تحقيق علي عبد الواحد وافي ، لجنة البيان العربي

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ألف دينار، وثلاثمائة ألف دينار كانت ديونا على الناس وعقارات وغير ذلك من التركة))[1]، وعلق أحد المؤرخين[2] على ذلك فقال: هذا باب يتسع ذكره ويكثر وصفه فيمن تملك من الأموال في أيام عثمان. ولم يكن مثل ذلك في عصر عمر بن الخطاب، بل كانت جادة واضحة وطريقة بينة. ورغم المبالغة الظاهرة في هذه الثروات، الا أنها لا تخلو من دلالة واضحة عن الثروة التي تجمعت بين أيدي بعض أهل الحجاز.

وقد كانت كثرة الأموال التي ظهرت بوضوح في عهد خلافة عثمان نتيجة طبيعية للأحداث التي وقعت في صدر الاسلام، والتي يعود بعضها الى زمن خلافة أبي بكر الصديق، وتوعرعت في خلافة عمر بن الخطاب، وانجلت في عهد عثمان حين انصبت الأموال من الغنائم والجزية[3]، وبالتالي لم يكن عثمان هو الذي أوجد تلك الأوضاع الاقتصادية من العدم، ولكن ربما ساعدت الاجراءات التي اتخذها الخليفة الثالث على تجمع الثروات((فلم تمض سنة من امارة عثمان حتى اتخذ رجال من قريش أموالا في الأمصار وانقطع اليهم الناس ...))[4]، ذلك انه لم يتقيد تماما بسياسة سلفه في الحجر على أعلام المهاجرين من قريش حين رأى أن قريشا يريدون أن يتخذوا مال الله معونات دون عبادة، فلما ولي عثمان ((لم يأخذهم بالذي كان يأخذهم به عمر، فانساحوا في البلاد، فلما رأوها ورأوا الدنيا، ورآهم الناس انقطع اليهم من لم يكن له طول ولا مزية في الاسلام، فكان منعوما في الناس، وصاروا أوزاعا اليهم وأملوهم، وتقدموا في ذلك فقالوا: يملكون فنكون قد عرفناهم، وتقدمنا في التقرب والانقطاع اليهم، فكان ذلك أول وهن دخل على الاسلام، وأول فتنة كانت في العامة، ليس الا ذلك))[5]. وتملك بعض هؤلاء الاعلام الخطط في الأمصار[6].

وهكذا جمع بعض أهل الحجاز بجانب الأموال والثروات، شرف صحبة النبي الكريم، وعراقة النسب وكثرة الاتباع والمريدين[7]، في حين أن عامة القبائل كانت قد بذرت ما اجتمع لديها من أموال سيما

١ــ انظر المسعودي: مروج الذهب ج ٢ ص ٣٣٢ ــ ٣٣٤، الرشيد بن الزبير: الذخائر والتحف ص ٢٠٢ ــ ٢٠٨، ابن خلدون: المقدمة ج ٢ ص ٧١٢ ــ ٧١٣.

٢ــ المسعودي: مروج الذهب ج ٢ ص ٣٣٤.

٣ــ Arberry: Aspects of Islamic Civilization Page : 52 Lodon1964

٤ــ الطبري: تاريخ ج ٤ ص ٣٦٨.

٥ــ الطبري: تاريخ ج ٤ ص ٣٩٧.

٦ــ انظر المسعودي: مروج الذهب ج ٣ ص ٢٤٠.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وأن ((الذين لا سابقة لهم ولا قدمة لا يبلغون مبلغ أهل السابقة والقدمة في المجالس والرياسة والحظوة))(١)، فظهر عندئذ التباين الاقتصادي في المجتمع .

وقد أخذ على عثمان في سياسته الاقتصادية أنه ((اقطع أصحابه اقطاعات كثيرة من بلاد الاسلام))(٢)، كالذي فعل من اقطاع عثمان بن أبي العاص أرضا بالعراق(٣)، وقالوا : ((تصدق رسول الله صلى الله عليه وسلم بمهزور ـ موضع سوق المدينة ـ على المسلمين، فأقطعها عثمان، الحارث بن الحكم أخا مروان بن الحكم(٤)))(٥)، واقطع فدك مروان بن الحكم، كما اقطع لعبد الله بن مسعود ولعمار بن ياسر(٦) ولسعد بن مالك(٧) . وكان من حق الخليفة أن يقطع من أراضي الصوافي التي تعد ملك رئيس الأمة، وليست ملك المسلمين كأفراد(٨)، وللامام العادل أن يجيز ويعطي منها من كان له غناء في الاسلام .

ولم يكن عثمان مبتدعا في اقطاع القطائع، بل كان متبعا سنة أسلافه من حكام الدولة الاسلامية الذين أقطعوا من رأوا أن له غناء في الاسلام ونكاية للعدو(٩)، ولكنه فاقهم في مقدار ما أقطع ((لأنه رأى اقطاعها أوفر لغلتها من تمطيلها، وشرط على من أقطعها اياه أن يأخذ منه حق الفيء، فكان ذلك منه اقطاع اجارة لا اقطاع تمليك فتوفرت غلتها حتى بلغت على ما قيل خمسين ألف ألف درهم، فكان منها صلات وعطاياه ...))(١٠) . ولم يسلم رأي عثمان هذا من النقد، وقال الناس(١١): ((أعطيت الأرض رجالا ، وأن هذه الأرضين شاركهم فيها المهاجرون والأنصار أيام افتتحت ...)) ولا شك أن تغير شخصية الحاكم وتغير ظروف العصر قد جعلت سياسة الخليفة محل نقد كان له أثر واضح في تطور الأحداث في آخر عهد عثمان .

١ـ الطبري : تاريخ ج ٤ ص ٢٨١ .

٢ـ المحب الطبري : الرياض النضرة ج ٣ ص ١٠٦ مكتبة الجندي ١٩٧٠ .

٣ـ انظر محمد حميد الله : مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة ص ٣٩٥ . دار الارشاد للطباعة بيروت ١٩٦٩ م .

٤ـ ابن قتيبة : المعارف ص ١٩٥

٥ـ انظر ابن عبد ربه : العقد الفريد ج ٥ ص ٣٣ ، ٥٣ .

٦ـ انظر أبو يوسف : كتاب الخراج ص ٦٢ ، المطبعة السلفية ومكتبتها ١٣٨٢ هـ .

٧ـ الصوافي : الأراضي التي استصفاها عمر بن الخطاب أي جعلها خالصة لبيت مال المسلمين، ذلك أنه كان قد أصفى كل أرض كانت لكسرى أو لأهله أو لرجل قتل في الحرب أو لحق بأرض الحرب، أو مفيض ماء أو دير بويد . وسميت كذلك القطائع لأنها اقطعت بعد ذلك لمن يتعهدونها

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وقد سارع الأثرياء من أهل الحجاز الى اتخاذ الدور والقصور، وعثمان كواحد من هؤلاء اهتم ببناء دور خاصة له حتى ((عدوا سبع دور بناها بالمدينة))(٢) ومنها داره التي ((شيدها بالحجر والكلس، وجعل أبوابها من الساج والعرعر))(٣) وحذا حذو الخليفة آخرون، فابتنى سعد بن أبي وقاص داره بالعقيق ورفع سمكها ووسع فضاءها، وجعل أعلاها شرفات(٤) كما ابتنى المقداد بن الأسود دارا في ظاهر المدينة جعلها مجصصة الظاهر والباطن، وذكر أن طلحة بن عبيد الله بنى في أيام عثمان دورا بنى بعضها بالجص والساج وجعلها مشيدة(٥). وكان سعيد بن العاص قد ابتنى بالعرصة قصرا واحتفر بها بئرا وغرس النخل والبساتين(٦)، ذلك أن المجتمع الحجازي كان ينتقل من حياة البداوة بما عرف عنها من شظف العيش وخشونته، الى حياة الحضارة وعيشها الناعم الرغيد(٧)، ويتبع ذلك بالضرورة عمران وبناء سيما وأن((المعماريين الأجانب أخذوا يؤمون عاصمة الاسلام ويمتهنون حرفتهم))(٨). وبدت تلك الأعمال العمرانية تخالف ما ألف الزاهدون في الدنيا من أهل الحجاز الذين نظروا بعين المقارنة بين الحال بالأمس والحال اليوم، فلم ترقهم أمور - من وجهة نظرهم - دنيوية الطابع.

وكانت سياسة عثمان الاقتصادية تقوم على أن يقضي ما عليه وأن يأخذ ما على الرعية، وألا يحجرهم على الزهد، وأن يدعهم والاجتهاد في الأمور الاقتصادية(٩)، وكان نفسه يهتدي بالآية الكريمة ((قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق))(١٠). فكانت طريقته في العيش تنسجم مع ثرائه في الجاهلية والاسلام، فكان يحب العيش اللين ويطعم أطايب الطعام ويلبس فاخر الثياب ويتختم(١١) ويشد أسنانه بالذهب(١٢)، وأول من نخل له الدقيق من الولاة، وروى أن عمرو بن أمية الضمري قال: ((كنت أتعشى مع عثمان خزيرا من طبخ من أجود ما رأيت قط، فيها بطون الغنم وأدمها اللبن والسمن..))(١٣) وبالمقابل ذكر عبد الله بن عامر طعام عمر بن الخطاب فقال: ((ما رأيت عمر قط أكل من الدقيق منخولا ولا أكل

١- انظر عن ثروة عثمان الديار بكري: تاريخ الخميس ج ٢ ص ٢٥٨

٢- ابن قتيبة: الامامة والسياسة ج ١ ص ٣٥

٣- المسعودي: مروج الذهب ج ٢ ص ٣٣٢

٤- انظر المرجع السابق ص ٣٣٣

٥- انظر الرشيد بن الزبير: الذخائر والتحف ص ٢٠٢

٦- العرصة: موضع بالعقيق من نواحي المدينة. ياقوت: معجم البلدان ج ٤ ص ١٠١

٧- انظر ابن كثير: البداية والنهاية ج ٨ ص ١٠٤

٨- سيد أمير علي: مختصر تاريخ العرب والتمدن الاسلامي ص ٥٧ ترجمة رياض رأفت ١٩٣٨

٩- انظر ابن أبي بكر: التمهيد والبيان في مقتل الشهيد عثمان ص ٥٧ تحقيق محمود يوسف زايد بيروت ١٩٦٤

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

من الغنم الا مسانها ..)) (١) وحين قيل لعثمان في ذلك قال : يرحم الله عمر! ومن يطيق ماكان عمر يطيق .. أما والله ما آكله من مال المسلمين ولكني آكله من مالي (٢) . ومن البديهي ألا يعجب ترف عثمان فئة معينة من الناس هذا الترف الذي لا يقارن مطلقا بترف أسلافه من قياصرة الروم وأكاسرة الفرس لكن من سبقه في تدبير شؤون المسلمين، وهم النبي صلى الله عليه وسلم وأبو بكر وعمر، كانوا يحتقرون متاع الدنيا وزخرفها، وبدا عثمان اذا قورن بهم رجلا دنيوي الطابع لكنه كان تقيا تقوى أصيلة حتى الرسول الكريم بشره بالجنة (٣) .

وبجانب ترف عثمان كانت له سياسة في المال والصلات تغاير سياسة ابن الخطاب فلما ولي وهو في السبعين من عمره ، وكان سهلا لينا عاش في ترف وتعود النعيم لم يكن باستطاعته التخلص من مما اعتاد ، فبقي وصولا للرحم محبا لأهله وذوي قرباه ، يكثر لهم العطايا والصلات (٤) وحين عوتب في هذه المخالفة الصريحة لفعل أبي بكر وعمر أجاب: ((ان صاحبي اللذين كانا قبلي ظلما أنفسهما ومن كان منهما بسبيل احتسابا وان رسول الله صلى الله عليه وسلم ، كان يعطي قرابته ، وأنا في رهط أهل عيلة وقلة معاش، فبسطت يدي في شيء من ذلك المال، (٥) لمكان ما أقوم به فيه)) . ولكن هذا التبرير لم يكن مقنعا للناس أما هو فقد اجتهد في حق الخليفة في المال ، ورأى أن صاحبيه : أبا بكر وعمر منعا ذوي قرباهما تقربا لله واحتسابا له . أما هو فقد رأى أن يعطي قرابته ورهطه كما فعل الرسول الكريم، خاصة وأن عطاءه لا ينتقص من حقوق الناس شيئا ، اذ ((كثر الخراج عليه وأتاه المال من النواحي وأتخذ الخزائن العظيمة بالمدينة)) (٦) فكان ربما استسلف من بيت المال ليعطي أقاربه صلة لهم (٧) .

وتكثر الروايات التاريخية التي تتحدث عن آراء عثمان المالية وصلاته لذوي قرباه ، فابن سعد (٨) يروي أن عثمان ((تأول في ذلك المال الصلة التي أمر الله بها ، واتخذ الأموال واستسلف من بيت المال ، وقال : ان أبا بكر وعمر تركا من ذلك ما هو لهما واني أخذته فقسمته في أقربائي)) . أما ابن الأثير (٩) فذكر بعض صلاة عثمان للأمويين حين روى خبر غزو أفريقية فقال : ((وحمل خمس افريقية الى المدينة، فاشتراه مروان ابن الحكم بخمسمائة ألف دينار فوضعها عنه عثمان)) . وكان المسلمون قد غنموا في تلك الغزوة كثيرا من

١ـ الطبري: تاريخ ج ٤ ص ٤٠١

٢ـ انظر المرجع السابق نفس الصفحة

٣ـ انظر جلوب: الفتوحات العربية ص ٥٤٨ ـ ٥٤٩ تعريب خيري حماد ، مكتبة المثنى ١٩٦٣

٤ـ انظر ابن قتيبة : المعارف ص ١٩٤ ـ ١٩٥

٥ـ الطبري: تاريخ ج ٤ ص ٣٤٥ ، وانظر البلاذري: أنساب الاشراف ج ٥ ص ٢٥

٦ـ الديار بكري: تاريخ الخميس ج ٢ ص ٢٥٦

٧ـ انظر البلاذري: انساب الاشراف ج ٥ ص ٢٥ ، اليعقوبي: تاريخ ج ٢ ص ١٦٨

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الأموال حتى بلغ سهم الفارس ثلاثة آلاف دينار ، وسهم الراجل ألف دينار[1]، أما الطبري[2] فذكر أن عثمان نفل عبد الله بن سعد خمس الخمس من غنائم افريقية فكره الناس ذلك وشكوه ، وعندما ((قدمت ابل الصدقة على عثمان وهبها للحارث بن الحكم بن أبي العاص ... وولى الحكم بن أبي العاص صدقات قضاعة فبلغت ثلاث مائة ألف درهم فوهبها له حين أتاه بها))[3]. وزعموا أن عبد الله بن خالد بن أسيد طلب اليه صلة فأعطاه أربعمائة ألف درهم[4]، ((وزوج عثمان ابنته من عبد الله بن خالد بن أسيد وأمر له بستمائة ألف درهم ، وكتب الى عبد الله بن عامر أن يدفعها اليه من بيت مال البصرة))[5].

ولعل أهم ماتدل عليه الروايات السابقة أن عثمان كان بارا بذوي قرابته وأنه كان يعطيهم العطاء ، ومن بيت المال أحيانا استسلافا ، وكان يرى له أحقية في هذا التصرف بحكم توليه منصب الخلافة ، وفي اعتقاده أن ذلك لا يخالف شرعا دينيا . يؤيد ذلك قوله لمن انتقد تصرفاته المالية : ((ألا فما تنقمون من حقكم ؟ والله ماقصرت في بلوغ ماكان يبلغ من كان قبلي ومن لم تكونوا تختلفون عليه . فضل فضل من مال ، فمالي لا أصنع في الفضل ماأريد ! فلم كنت اماما))[6]. ويثبت هذا الرد أن عثمان تصرف في بيت المال بما رآه من حقه كامام[7]، ولم يكن هذا الاجتهاد ليرضي الناس خاصة وأن هدى عمر مازال ماثلا في الاذهان ، عمر الذي كان يرى أن المال العام حق للمسلمين كافة ، لا يصرف الا في مصالحهم ، وليس له ولا لآل الخطاب شيء ، فقد روى أنه نهر رجلا من ذويه سأله فزبره وأخرجه ، فلما كلم فيه قال : ((انه سألني من مال الله فما معذرتي ان لقيته ملكا خائنا . فلولا سألني من مالي))[8]. وانكار الناس على عثمان تلك السياسة في الهبات والاعطيات للمر بآل أبي معيط انما كان يقتصر على أموال بيت المال ، أما أن يهب من أمواله الخاصة فذلك له ان شاء وهب وان شاء منع . ولكن الحال اختلف حين تجاوز عثمان أمواله الى بيت المال فذلك أمر أنكروه ، كالذي روى أنه ((لما بنى مروان داره بالمدينة دعا الناس الى طعامه وكان المسور فيمن دعا ، فقال مروان وهو يحدثهم : والله ماأنفقت في داري هذه من مال المسلمين درهما فما فوقه . فقال المسور : لو أكلت طعامك وسكت لكان خيرا لك ، لقد غزوت معنا افريقية وانك لاقلنا مالا ورقيقا وأعوانا وأخفنا ثقلا ، فاعطاك ابن عفان خمس أفريقية وعملت على الصدقات فأخذت أموال المسلمين ..))[9].

١ــ انظر الكندي : ولاة مصر ص٣٦ تحقيق حسين نصار ، بيروت ١٩٥٩

٢ــ تاريخ الرسل والملوك ج ٤ ص٢٥٤

٣ــ البلاذري : أنساب الاشراف ج ٥ ص٢٨

٤ــ انظر ابن قتيبة : المعارف ص١٩٥

٥ــ اليعقوبي : تاريخ ج ٢ ص١٦٨

٦ــ الطبري : تاريخ ج ٤ ص٣٣٩ .

٧ــ انظر أحمد ابراهيم الشريف : دور الحجاز في الحياة السياسية العامة ص٢٩١ دار الفكر العربي ١٩٦٨

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ثم تطور انكار الناس الى سخط ثم قاموا عمليا برفض صلاة الخليفة فعندما ((قدمت ابل من ابل الصدقة على عثمان فوهبها لبعض بني الحكم فبلغ ذلك عبد الرحمن بن عوف، فارسل الى المسور بن مخرمة والى عبد الرحمن بن الأسود بن عبد يغوث فأخذ اها ، فقسمها عبد الرحمن بن عوف وعثمان في الدار)) (١).

ولم ترق أعطيات عثمان كذلك خازن بيت المال الذي ((جعل يدافعه ويقول له : يكون فنعطيك ان شاء الله ، فالح عليه فقال : انما أنت خازن لنا . فاذا اعطيناك فخذ ، واذا سكتنا عنك فاسكت. فقال : ... ماأنا لك بخازن ولا لأهل بيتك، انما أنا خازن المسلمين . وجاء بالمفتاح يوم الجمعة وعثمان يخطب، فقال : أيها الناس، زعم عثمان أني خازن له ولأهل بيته ، وانما كنت خازنا للمسلمين وهذه مفاتيح بيت مالكم ورمى بها . فأخذها عثمان ودفعها الى زيد بن ثابت)) (٢).

وتجدر ملاحظة أن الشكوى من سياسة عثمان المالية قد تعاظمت للحد الذى شعر معه زعماء الجماعة الاسلامية فى عاصمة الخلافة أن الشاكين محقين فكلموا الخليفة لازالة أسباب التذمر ((فكلمه في ذلك علي والزبير وطلحة وسعد وعبد الرحمن بن عوف)) فقال عثمان : ((فان رأيتم ذلك خطأ فردوه ، فأمري لأمركم تبع، فقالوا : قد أصبت وأحسنت قد أعطيت عبد الله بن خالد بن أسيد خمسين ألفا ، وأعطيت مروان خمسة عشر ألفا ، فأخذ منهما ذلك)) (٤). ويبدو أن عثمان كانت تعوزه شخصية سلفه القوية، فوقع تحت تأثير أقاربه الأمويين الذين لم يكونوا يتمتعون بمكانة سامية، كالتى كانت لذوي السابقة والفضل في الاسلام . وهذا ماجعل البر والصلات التى منحت لهم محل نقد الناس واعتراضهم .

ويظهر أن النتائج الأولية التى ترتبت على صلات عثمان وعطاياه وكثرة الأموال فى عهده ، وظهور الثراء بين فئة من أهل الحجاز كانت تباين اقتصادي في المجتمع يكفي للدلالة عليه ماذكره المسعودي (٥)، من تكدس ثروات كبيرة في أيدي القرشيين الذين أشار الى ثرواتهم . ونظر فقراء الناس الى أولئك المحظوظين والأغنياء نظرة حسد مشوبة بالحقد (٦)، ولعل ذلك الاحساس هو الذي حدا بالمستشرق نيكلسون (٧) الى القول بأن زيادة الثراء كانت من أهم اسباب التمرد على عثمان . ولكن الأهم من هذا هو الشعور بالفوارق الاقتصادية بين الناس لا الثراء فى حد ذاته ، ففي المدينة المنورة التي شعرت بمواكير الرضا المادي

١ـ الطبري: تاريخ ج ٤ ص٣٦٥

٢ـ اليعقوبي : تاريخ ج ٢ ص١٦٨ ـ ١٦٩

٣ـ البلاذري : أنساب الأشراف ج ٥ ص ٢٨

٤ـ ابن الاثير : الكامل ج ٣ ص١٥٧

٥ـ انظر مروج الذهب ج ٢ ص٣٣٢ ـ ٣٣٤

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الذي تولد عن ازدياد المال والرخاء ، نشأ فيها نفسها سخط على مابلغه البعض من بسطة سياسية في عهد عثمان، وعلى استغلال هؤلاء للموارد الاقتصادية في الدولة (١).

وكان أول من جاهر بالتذمر من تفشي الترف عدة اتقياء هزت ضمائرهم التبدلات الاجتماعية كأبي ذر الغفاري الصحابي المشهور بالورع والزهد (٢)، والذي حمل بعنف على الأثرياء وأنكر تصرفات معاوية بن أبي سفيان العالية ، ومعاوية يومئذ والي عثمان على الشام، ثم تحدى أبو ذر سياسة الخليفة نفسه في المال وأنكر عليه (٣).

وقد ذهب أبو ذر الغفاري أن المسلم لاينبغي له أن يكون له في ملكه أكثر من قوت يومه وليلته أو شيء ينفقه في سبيل الله أو يعده لكربه، (٤) وأخذ بظاهر الآية الكريمة ((والذين يكنزون الذهب والفضة ولاينفقونها في سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم، يوم يحمى عليها في نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم هذا ماكنزتم لأنفسكم فذوقوا ماكنتم تكنزون)) (٥) فأبو ذر يرى أن المال كنز، ولا تخلو آراء أبي ذر هذه من غلو وشطط، اذ سائر الأمة على خلاف رأيه ، وقالوا : الكنز مالم يزك (٦).

كان أبو ذر يقيم في الشام (٧)، التي كانت تحت ولاية معاوية بن أبي سفيان، وأخذ أبو ذر ينكر على الوالي تسمية أموال بيت المال ، مال الله . وظن أنه يريد أن ((يحتجنه دون الناس ويمحو اسم المسلمين)) (٨)، وركز أبو ذر على أن أموال الفيء والغنائم هي للناس وليست للحكومة وأن المال مال المسلمين وليس مال الله ، (٩) بمعنى أن المال مال المسلمين وأنه تبعا لذلك يجب أن يوزع عليهم، في حين أن مال الله في نظر الحكومة، هو المال العام، وأنه ليس للناس حق فيه الا أعطياتهم، وتصرف الحكومة مانبقى منه في الأوجه التي تراها مناسبة.

ويروى أن أباذر الغفاري لقي ابن السوداء الذي قال له : ((يا أبا ذر ، ألا تعجب الى معاوية يقول : المال مال الله ! ألا وان كل شيء لله كأنه يريد أن يحتجنه دون المسلمين، ويمحو اسم

١- انظر البلاذري: أنساب الأشراف ج ٥ ص٢٩
٢- انظر ابن سعد : الطبقات ج ٢ ص٣٥٤
٣- انظر البلاذري: أنساب الاشراف ج ٥ ص٥٢-٥٣
٤- انظر ابن كثير : البداية والنهاية ج ٧ ص١٥٥ ، الذهبي : المنتقى من منهاج الاعتدال ص٣٩٦ تحقيق محب الدين الخطيب ١٣٧٤ هـ . الطبري: تاريخ ج ٤ ص٢٨٤
٥- سورة التوبة: آية ٣٤-٣٥
٦- أنظر الذهبي : المنتقى من منهاج الاعتدال ص٣٩٧
٧- انظر البلاذري : أنساب الاشراف ج ٥ ص٥٢

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

المسلمين، فأتاه أبو ذر، فقال : مايدعوك أن تسمي مال المسلمين مال الله ! قال : يرحمك الله يا أبا ذر، ألسنا عباد الله ، والمال ماله ، والخلق خلقه ، والأمر أمره ، قال : فلا تقله . قال : فانـي لا أقول : انه ليس لله ، ولكن ساقول : مال المسلمين))(١). فان صحت هذه الرواية يكن ابن السوداء(٢) هذا قد اغتنم الفرصة وأخذ في نفث سمومه . ولم يكن يريد خيرا للاسلام والمسلمين بل أراد مكـــرا وشرا .

أما أبو ذر الغفاري، فقد انطلق مما اعتاد من زهد وتقشف ، ولا أشك في حسن نيته فيما ذهب اليه ، وانه تحقيقا لذلك أخذ يحض الاغنياء على مواساة الفقراء والرحمة بهم، ودعاهم الى انفاق الأموال وعدم اكتنازها ، وجعل يقول : ((يامعشر الأغنياء واسوا الفقراء ، بشر الذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله بمكاو من نار تكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم، فما زال يقول ذلك حتى ولع الفقراء بمثل ذلك واوجبوه على الاغنياء، وحتى شكى الأغنياء مايلقون من الناس))(٣).

ولم يقتصر الأمر على ولع الفقراء بمال الأغنياء، فقد هاجم أبو ذر تطور الأحوال بشدة قائلا : ((والله لقد حدثت أعمال ما أعرفها والله ماهي في كتاب الله ولا سنة نبيه ، والله اني لأرى حقا يطفأ وباطلا يحيى وصادقا يكذب وأثرة بغير تقى وصالحا مستأثرا عليه))(٤). وفي هذا لوم صريـــح الى الخليفة وولاته وتحريض عليهم .

وحين تناهت تلك الأقوال الى مسامع معاوية بن أبي سفيان نهاه عن اشاعة ذلك فلم يمتنع(٥). فكتب معاوية الى الخليفة يخبره أمر أبي ذر وشكى اليه أثر أقواله وأنه أغضل به . فورد اليه رد عثمان بحمله اليه ، وكتاب من عثمان فيه ((ان الفتنة قد اخرجت خطمها وعينيها ، فلم يبق الا أن تثب ، فلا تنكأ القرح ، وجهز أباذر الي ّ . وابعث معه دليلا وزوده ، وارفق به وكف الناس ونفسك ما استطعت فانما تمسك ما استمسكت))(٦). وأراد أن يناقش أبا ذر فيما بلغه عنه .

١ــ الطبري : تاريخ ج ٤ ص٢٨٣

٢ــ ابن السوداء : هو عبد الله بن سبأ يهودي من اليمن أسلم في خلافة عثمان وتنقل في الأمصار الاسلامية ، يحاول ضلالتهم ، فبدأ بالحجاز ، ثم البصرة، ثم الكوفة، ثم الشام، فأخرجوه حتى أتى مصر، وألب الناس على عثمان . أنظر الطبري: تاريخ ج ٤ ص٣٤٠ ــ ٣٤١، ابن خلدون : العبر وديوان المبتدأ ج ٢ ق٢ ص١٣٩

٣ــ الطبري: تاريخ ج ٤ ص٢٨٣ ، ابن أبي بكر : التمهيد والبيان ص٧٥

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

قدم أبو ذر الى المدينة المنورة ، فرأى امتداد البناء الى جبل سلع ، وهو مالم يعهده فاستاء من ذلك، وقال : ((بشر أهل المدينة بغارة شعواء وحرب مذكار))(١). وناظره عثمان فيما بلغه عنه ، ولكنه أصر على رأيه وأضاف : ((لا ترضوا من الناس بكف الأذى حتى يبذلوا المعروف، وقد ينبغي للمؤدي الزكاة ألا يقتصر عليها حتى يحسن الى الجيران والاخوان ويصل القرابات))(٢). وهذا الغلو في الرأي لم يقتصر على القول وانما تجاوزه الى الاساءة الى المخالفين له ، فحين قال كعب الأحبار : — وكان حاضرا هذا النقاش من أدى الفريضة فقد قضى ماعليه ، رفع أبو ذر محجنه فضربه وشجه(٣) . وكان أبو ذر قد أغلظ له في القول، فاستوهب عثمان من كعب شجته فوهبه(٤) ، وقال لأبي ذر : لو اعتزلت حين أصر على موقفه ، رضي الخليفة أثر اقواله على العامة(٥).

خرج أبو ذر الى الربذة(٦) ونزل بها ، ويروى أن عثمان أقطعه صرمة من الابل(٧) ، وأعطاه مملوكين . وأجرى عليه رزقا يوميا(٨) ، وعلى رافع بين خديج مثله وكانا قد تنحيا عن المدينة لشيء سمعاه .

ان خروج أبي ذر لم يكن دليل عصيان أو تمرد على سلطان الخليفة، وانما كان انسجاما مع ما مالت اليه نفسه من الزهد ، وينقل ثقاة المؤرخين(٩) أن خروجه الى الربذة تم بناء على طلبه ، وأنه حرص على الطاعة والجماعة كالذي روي عن رجل من بني ثعلبة بن سعد ، قال : ((رأيت أبا ذر وقوم يقولون له : فعل بك هذا الرجل وفعل يسمنون عثمان — فهل أنت ناصب لنا راية فتجتمع اليك الرجال فقال : لو أن ابن عفان صلبني على أطول جذع لسمعت وأطعت واحتسبت وصبرت))(١٠). وروى أنه قبل اطاعة عبد من رقيق الصدقة(١١) . واذا كان ذلك كذلك فهو بطاعة الامام أكثر التزاما وأشد تقيدا .

ان احتجاجات أبي ذر على كثرة الأموال ، وما ترتب على تلك الاحتجاجات من خروجه الى الربذة والاقامة بها ، قد أحيطت بكثير من المزاعم الباطلة ، واستغل الحاقدون تلك القصة وأشاعوا اضطهاد عثمان له ونفيه والاساءة اليه . وزعموا أنه مات وهو كاره لعثمان ولسياسة عثمان، واستغلوا ذلك في الطعن عليه .

١ــ ابن الاثير : الكامل ج ٣ ص١١٥

٢ــ الطبري : تاريخ ج ٤ ص٢٨٤

٣ــ انظر الطبري : تاريخ ج ٤ ص٢٨٤ ، ابن أبي بكر: التمهيد والبيان ص٧٦

٤ــ انظر ابن خلدون : العبر وديوان المبتدا والخبر ج ٢ ق٢ ص١٣٩

٥ــ ابن العربي : العواصم من القواصم ص٧٤

٦ــ الربذة : من قرى المدينة على ثلاثة أيام، أنظر ياقوت : معجم البلدان ج ٣ ص٢٤

٧ــ صرمة من الابل : مابين العشرين والثلاثين، انظر الفيروزآبادي : القاموس ج ٤ ص١٤١

٨ــ انظر الطبري : تاريخ ج ٤ ص٢٨٤ ، ٢٨٥

٩ــ انظر الطبري : تاريخ ج ٤ ص٢٨٤ ، ابن خلدون : العبر ج ٢ ق٢ ص١٣٩، ابن كثير : البداية

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وقد شاركت القبائل في التذمر والشكوى من الأوضاع الاقتصادية التي سادت آنذاك ، واختلفت أسباب شكواها من أسباب شكوى أبي ذر الغفاري، ذلك أن شكوى القبائل كانت نتيجة لعوامل متعددة أبرزها تيار العصبية القبلية الذي نما وارتبط بالأوضاع الاقتصادية والاجتماعية فازداد التذمر حدة وعنفا .

ولا بد أن نشير، ومنذ البداية، أن عثمان بن عفان استهل حكمه بالتقيد بسياسة سلفه وكتب الى ولاته قائلا: ((أما بعد ، فقوموا على مافارقتم عليه عمر، ولا تبدلوا ، ومهما أشكل عليكم فردوه الينا نجمع عليه الأمة، ثم نرده عليكم، واياكم أن تغيروا ، فاني لست قابلا منكم الا ماكان عمر يقبل))(١). فهو يلزم عماله أن يبقوا كما كانوا في سياستهم ومنها الأمور الاقتصادية . ويشير الى ناحية أخرى ألا وهي تقيده باتباع الشورى بجمع الأمة على مايشكل من أمور . ومما يوضح آراء عثمان في ادارة الدولة ومسئوليات الحاكم، الكتاب الأول الذي بعث به الى عماله : وجاء فيه ((أما بعد ، فان الله أمر الائمة أن يكونوا رعاة ، ولم يتقدم اليهم أن يكونوا جباة ، وان صدر هذه الأمة خلقوا رعاة، ولم يخلقوا جباة، وليوشكن أئمتكم أن يصيروا جباة ولا يكونوا رعاة، فاذا عادوا كذلك انقطع الحياء والأمانة والوفاء .ألا وان اعدل السيرة أن تنظروا في أمور المسلمين فيما عليهم فتصطوهم مالهم، وتأخذوهم بما عليهم ثم تثنوا بالذمة، فتصطوهم الذي لهم وتأخذوهم بالذي عليهم . ثم العدو الذي تتناوبون فاستفتحوا عليهم بالوفاء))(٢). ويتضح من هاتين الروايتين أن عثمان متبع وليس بمبتدع وأنه راغب أن ينهج عماله نهجا لا ظلم فيه ولا محاباة، وأن يعطوا كل ذي حق حقه ، وبالتالي لم تكن العبادئ التي أعلن الخليفة رفعته في اتباعها متجانفة من اثم ولا مائلة مع أثرة .

وقد لعبت طبيعة القبائل ، التي تأبى الخضوع لسلطان الحكومة وتنزع الى الحرية، (٣) لعبت دورها الواضح في تلك الفترة ، وبدأت القبائل تعود سيرتها الأولى ، فصارت ((الى الغض من قريش والائفة عليهم والتمريض في طاعتهم والتعلل في ذلك بالتظلم منهم والاستعداء عليهم، والطعن فيهم بالعجز عن السوية، والعدول في القسم عن التسوية وفشت المقالة بذلك))(٤). خاصة و أن القبائل قد وجدت في التحولات الاجتماعية مادة للطعن أحيانا ، كما أن نكرة الحكومة لم تكن واضحة الى الحد الذي يجعل القبائل تتصهر في بوتقة واحدة، وتتخلى عن الفردية القبلية والتكتلات الضيقة،(٥) وبالتالي رأى البعض أن الثورة على عثمان كانت تمثل ثورة البدو على الحكومة المركزية.(٦)

١ــ الطبري: تاريخ ج ٤ ص ٢٦١ ــ ٢٦٢

٢ــ المرجع السابق ص ٢٤٤ ــ ٢٤٥ كذلك انظر ابن أبي بكر: التمهيد والبيان ص ٢٩ ــ ٣٠

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

والواقع أن ولاء العرب في الجاهلية كان يتجه بصورة رئيسية الى القبيلة، وقد أنساهم الحماس الديني فترة من الزمن ولاءهم القديم، ولكنه ماليث أن عاد الى الظهور ابان حياة البطالة في القواعد العسكرية((بعد أن توقفت الفتوحات الكبرى وجاء الهدوء بعد الهياج ، ووجد المحاربون فراغا للتفكير))(١). فاشتد ساعد العصبية حين ظهرت الفوارق الطبقية في مجتمع كانت الدعوة الى المساواة أساسا مكينا من أسس تكوينه (٢).

وقد رسم ابن خلدون (٣)، صورة واضحة لأسباب تذمر القبائل في الأمصار حين قال : ((كان أكثر العرب الذين نزلوا هذه الأمصار جفاة لم يستكثروا من صحبة النبي صلى الله عليه وسلم ولا هذبتهم سيرته وآدابه ولا ارتاضوا بخلقه ، مع ما كان فيهم في الجاهلية من الجفاء والعصبية والتفاخر والبعد عن سكينة الايمان . واذا بهم عند استفحال الدولة قد أصبحوا في ملكة المهاجرين والأنصار من قريش وكنانة وثقيف وهذيل وأهل الحجاز ويثرب السابقين الأولين الى الايمان، فاستنكفوا من ذلك وغصوا به لما يرون لأنفسهم من التقدم بأنسابهم وكثرتهم)). وغذى ذلك ونماه انقسام العرب الى مجموعتين شمالية عدنانية وجنوبية قحطانية، وتحت كل اسم من هذين الاسمين تنطوي مجموعة كبيرة من القبائل، وكان هذا الانقسام مثار نزاع وكراهية وروح عدائية (٤).

وبفضل الاسلام أصبحت قريش صاحبة السيادة والنفوذ ، وبعبارة أخرى أصبحت هي الحكومة . واستطاعت الحكومة بفضل الفتوحات التي تمت على يد الجيش، وقد اشتركت فيها القبائل، أن تستقل عن الجيش وتتخلص من سلطانه ، ذلك أنها لم تقسم الأرض والناس على المحاربين . واكتفت بفرض الخراج على الأرض وعلى رقاب أهلها الجزية (٥)، ولذلك ((نزل الجيش الى مرتبة الافتقار الى الحكومة، والاعتماد عليها عن طريق أعطيات كانت الدولة تستطيع أن تمنحها بالمقدار والى المدى الذي تشاؤه .... فلا عجب أن يعتقد المقاتلة أن الدولة قد غلبتهم على حقوقهم وعرتهم من أموالهم وأخذتها لنفسها، وأنها تستند الى الخزانة، فتتعالى بذلك عليهم وتأخذ بزمامهم، فزعموا أن المال الذي يجتمع من الخراج انما

١ـ فلهوزن : تاريخ الدولة العربية ص ٤١ ترجمة محمد عبد الهادي أبو ريدة ١٩٦٨

٢ـ أنظر أحمد شلبي : المجتمع الاسلامي ص٥٠ مكتبة النهضة المصرية ١٩٦٧

٣ـ المقدمة ج ٢ ص ٧٢٩

٤ـ انظر دوزي : تاريخ مسلمي اسبانيا ج ١ ص٧٨ ـ ٧٩ دار المعارف ١٩٦٣ ترجمة حسن حبشي

٥ـ انظر البلاذري : فتوح البلدان ص٤٣٣ ـ ٤٣٤ تحقيق صلاح الدين المنجد ، النهضة المصرية

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

هو لهم وليس للدولة ... وكانت غيرتهم من الدولة سببا في اثارتهم بطبيعة الحال على عمالهـــا الذين كانوا يتصرفون في سلطان الدولة وما لها))(١).

ان القبائل التي ساهمت في الفتوح واشتركت بفعالية في صدام الفرس والروم أمثال ((قبائل بكر بن وائل وعبد القيس من ربيعة وقبائل كندة والأزد من اليمن وتميم وقيس من مضر))(٢)، حقدت على قريش حصولها على النصيب الأكبر من المال والسلطان والممتلكات ، فالقبائل أنفقت ما تجمع لديهـــا ، وقريش نمته وزادته لبراعتها في التجارة والصيرفة، وزاد موقف القبائل حدة عصبيتها القبلية من فخـــر بالأنساب وكثرة بالعدد وأمجاد في الفتوحات.

وهكذا أخذت القبائل تظهر سخطها وتذمرها من تحكم قريش واستئثارها من دونهم بالثروة والمناصب ، وأنفوا من ذلك وسخطوه ، واتضح هذا الموقف في أكثر من مناسبة، كالذي روى أن سعيد بن العاص عامل عثمان على الكوفة، قال لرهط من وجوه أهل الكوفة كانوا يسمرون عنده :((انما هذا السواد بستان لقريش))(٣) فأنكروا عليه . وقال الأشتر النخعي بلسانهم لسعيد بن العاص : ((أتجعل مراكز رماحنـــا وما أفاء الله علينا بستانا لك ولقومك والله لو رامه أحد لقرع قرعا يتصاصأ منه))(٤). فالقبائل ترى أن البلاد المفتوحة هي ملك لها بحق الفتح ، وترى في الحكومة ممثلة في قريش حاجزا يحول دون أطماعها . روى ابن الاثير(٥) نقاش معاوية من أبي سفيان لقوم من أهل الكوفة، كان عثمان قد نفاهم الى الشام(٦)، وهذا الحوار يؤيد الرأي الذي أشرنا اليه آنفا ، قال معاوية : ((قد بلغني أنكم نقمتم قريشا ، ولو لـــم تكن قريش كنتم أذلة ، ان أمنتكم لكم جنة فلا تفترقوا عن جنتكم ، — فقال أحدهم — أما ما ذكرت من قريش فانها لم تكن أكثر العرب ولا أمنعها في الجاهلية فتخوفنا ، وأما ما ذكرت من الجنة فان الجنة اذا اخترقت خلص الينا)). فهم يرون أن قريشا ليست أمنع ولا أكثر من قبائلهم ، ولا يخفون رغبتهم في وصول الامارة وتوابعها اليهم اذا زال سلطان قريش ، واتخذوا من الاسلام تكأة للوصول الى أغراضهم ، فلا غرابة اذن أن يصرحوا قائلين لمعاوية : ((فانا نأمرك أن تعتزل عملك ، فان في المسلمين من هو أحق به منك ... من كان أبوه أحسن قدما من أبيك ، وهو بنفسه أحسن قدما منك في الاسلام))(٧).

والحقيقة أن الروابط القبلية لم تنطفئ شعلتها — كما هو مفروض — حتى في الحجاز، رغـــم وجود العاصمة المركزية فيها ، مما يعني عدم وضوح فكرة سيادة القانون، فقد ورد أن ((بني زهـــرة

١ — فلهوزن : تاريخ الدولة العربية ص ٤٢
٢ — ابن خلدون : المقدمة ج ٢ ص ٢٢٩
٣ — الطبري : تاريخ ج ٤ ص ٣٢٣
٤ — البلاذري : أنساب الاشراف ج ٥ ص ٤٠
٥ — الكامل في التاريخ ج ٣ ص ١٤٠

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

حنقوا على عثمان لهناة كانت منه الى صاحبهم عبد الله بن مسعود ، وكذلك غضب بنو غفار وأحلافها لأبي ذر الغفاري، وبني مخزوم الذين حنقوا على عثمان لما صنع بعمار بن ياسر))[1]، وكأن الأمر كما كان قبل الاسلام . أما الحق في الاسلام فللإمام أن يؤدب من تعدى الحدود من رعيته[2] . وقد ألقيت كل تهمات هذه النوازع في حجر عثمان، وان صح أن ((ما ادعوه من اسراف عثمان في بيت المال، فأكثر ما نقلوه عنه مفترى عليه ومختلق...))[3] الا أن شعور القبائل أن قريشا قد فهمتها حقوقها كان موجودا ، وأنها استأثرت دونها بالسيادة والأموال، خاصة وأنها قبيلة تجارية بارعة حتى قيل :

نؤوب اذا آبوا ونغزوا اذا غزوا فأنى لهم وفر ولسنا أولى وفر
اذا التاجر الداري جاء بفأرة من المسك راحت في مفارقهم تجري[4]

وأتيحت لها الفرص التجارية لتضاعف أموالها ، وزاد في ذلك الشعور أن الرياسة كانت في أغلب الأحيان لها ، ولم يرق ذلك رجال القبائل الأخرى، فأخذوا يظهرون الطعن في الولاة والمؤاخذة لهم باللحظات والخطرات والاستبطاء عليهم في الطاعات[5]. وسرت روح المعارضة والتمرد على سياسة الحكومة الاقتصادية والسياسية .

وكان عثمان قد أحس بالفتن التي بدأت في الظهور، فأراد أن يكبح جماحها ، ورأى علاج ذلك في أن يستبدل الناس بأملاكهم في الأمصار أملاكا في الحجاز وغيرها من بلاد العرب ، وعرض هذا الأمر على أهل المدينة واستشارهم فيه ، وأخبرهم بما آل اليه الحال وحذرهم من الفتنة وكان مما قال : ((اني والله لأتخلصن لكم الذي لكم حتى أنقله اليكم، ان رأيتم ذلك، فهل ترونه حتى يأتي من شهد مع أهل العراق الفتوح فيه ، فيقيم معه في بلاده ؟ فقام أولئك وقالوا : كيف نتقل لنا ما أفاء الله علينا من الأرضين يا أمير المؤمنين ؟ فقال نبيعها ممن شاء بما كان له بالحجاز))[6]. وفرح الناس بهذا التدبير وفتح الله لهم أمرا لم يكن في حسابهم ، وأراحهم من عناء السفر الى أملاكهم في الأمصار، وكفاهم مؤنة الهجرة الى تلك الأملاك .

١ـ السيوطي : تاريخ الخلفاء ص ١٥٧ وأنظر البلاذري : أنساب الأشراف ج ٥ ص ٢٦ .
٢ـ انظر الديار بكري : تاريخ الخميس ج ٢ ص ٢٧٣
٣ـ المحب الطبري : الرياض النضرة ج ٣ ص ١١٥
٤ـ البلاذري : فتوح البلدان ص ٤٧٣
٥ـ انظر ابن خلدون : العبر ج ٢ ق ٢ ص ١٣٨

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وقد ترك قرار عثمان هذا أثرا واضحا في حياة المجتمع الحجازي من ناحيتين أولاهما :
أن الذين استبدلوا أراضيهم في الأقاليم بأراضي في الحجاز، احتاجوا الى أيد عاملة لاستصلاح الأرض وزراعتها، فكثر الموالي والرقيق في الحجاز واستعملهم أهلها في مهنهم وحاجات منازلهم ، وهم من ذوي الحضارات السابقة، وترتب على استخدامهم تفاعل حضاري مع السكان في كثير من مظاهر الحياة الاجتماعية ، أما ثانيتهما فالذين استفادوا عمليا من هذا القرار هم الفئة الموسرة التي جمعت المال من الغنائم والعطاء واستثمار الأموال في عروض التجارة . ثم استغلت أموالها في شراء الأرض الخصبة في الأقاليم سيما وأن عثمان قد أباح لأعلام قريش الخروج الى الأمصار ((فاشترى طلحة بن عبيد الله منه من نصيب من شهد القادسية والمدائن من أهل المدينة ممن أقام ولم يهاجر الى العراق النشاستج بما كان له بخيبر وغيرها من تلك الأموال (١)، واشترى منه بمئة ألف شيئا كان لعثمان بالعراق، واشترى منه مروان بن الحكم بمال كان له أعطاه أياه عثمان نهر مروان ... واشترى منه رجال من القبائل بالعراق بأموال كانت لهم في جزيرة العرب من أهل المدينة ومكة والطائف واليمن وحضرموت...)) (٢). ونشأ عن ذلك وجود الاقطاعات والضياع الكبيرة ، وقام فيها العاملون من الرقيق والموالي والأحرار، فظهرت في الاسلام طبقة جديدة من الناس تمتاز الى أرستقراطيتها التي تأتيها من المولد بكثرة المال وضخامة الثراء وكثرة الاتباع (٣). وكان من نتائج ذلك أن علا النقد والتذمر في أمصار الدولة .

الأحوال الداخلية في الأمصار

لعبت الأحداث الداخلية في أمصار الدولية الاسلامية دورا واضحا في الثورة على الخليفة، فلا بدّ اذن أن نستعرض تلك الأحداث خاصة في الكوفة والبصرة ومصر مما كان لها أكبر الأثر في تقويض حكم عثمان .

استقبل عثمان بخلافته المحرم سنة أربع وعشرين هجرية . وكان المغيرة بن شعبة واليا على الكوفة فعزله عثمان وولاها سعد بن أبي وقاص فعمل عليها سعد سنة وبعض أخرى . فأمّر مكانه الوليد بن عقبة فقدم الكوفة في السنة الثانية من امارة عثمان (٤)، ولم يعجب الوالي الجديد أهل الكوفة فقالوا : ((بئسما ابتدلنا به عثمان عزل أبا اسحاق الهين اللين الخير صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم وولى أخاه (٥) وعلى حد ما ذهب اليه الطبري (٦) كان أهل الكوفة ((أول مصر نزغ الشيطان بينهم في الاسلام)).

١- النشاستج : ضيعة أو نهر بالكوفة .. كانت عظيمة كثيرة الدخل ياقوت : معجم البلدان ج ٥ ص ٢٨٥

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وقد قام الوليد بواجبه في سد الثغور ومد الفتوح[١]، وزاد عثمان الناس على يده أن رد على كل مملوك بالكوفة من فضول الأموال ثلاثة دراهم في كل شهر[٢]، وساس الوليد أهل الكوفة بحزم فأقر الأمن وضرب على أيدي المفسدين[٣]، فكان ((أحب الناس في الناس وأرفقهم بهم، وكان كذلك خمس سنين وليس على داره باب))[٤]. ولكن بعض أهل الكوفة كرهوا الوليد لأمويته وحقد عليه بعضهم، ذلك أن شبابا من أهل الكوفة نقبوا على رجل من خزاعة وقتلوه، فقتلهم الوليد جزاء فعلتهم على باب القصر في الرحبة فنقم عليه آباؤهم وجعلوا يتلمسون له العيوب ويضعون عليه العيون[٥].

وقد انتهز المنحرفون صداقة الوليد بن عقبة لأبي زبيد الشاعر، الذي أخذ له الوليد بحقه من بني تغلب حين كان واليا على عرب الجزيرة لعمر بن الخطاب[٦]، فانقطع الشاعر له وغشيه بالمدينة، فلما ولي الوليد الكوفة أتاه أبو زبيد مسلما على مثل ماكان يأتيه بالجزيرة والمدينة، وكان نصرانيا، فلم يزل الوليد به حتى أسلم في آخر امارة الوليد[٧]. وارتاب المنحرفون في الرجلين وأخذوا يزعمون أن الوليد يعاقر أبا زبيد الخمر. واذاعوا ذلك بين الناس وأشاعوه، ثم خرج بعضهم الى المدينة وشهدوا أن الوليد شرب الخمر وأنهم وجدوه يقيئها، فعزله عثمان وضربه الحد، وأمر مكانه على الكوفة سعيد بن العاص[٨].

جاء سعيد بن العاص الى الكوفة راغبا في استصلاح أهلها وعزم على قطع دابر الفتنة التي أطلت استطاع، وأخذ في التعرف على أحوال الناس وحين خبرهم كتب الى عثمان: ((ان أهل الكوفة قد اضطرب أمرهم، وغلب أهل الشرف منهم والبيوتات والسابقة والقدمة، والغالب على تلك البلاد رواد ف رذ ف[٩] وأعراب لحقته حتى ما ينظر الى ذي شرف ولا بلاء من نازلتها ولا نابتتها))[١٠]. فكتب اليه عثمان أن يفضل أهل السابقة والقدمة وأن يجعل من نزلها بسببهم تبعا لهم، ((الا أن يكونوا تثاقلوا عن الحق وتركوا القيام به وقام به هؤلاء، — وأضاف — واحفظ لكل منزلته، واعطهم جميعا بقسطهم من الحق ..)).

١— انظر الطبري: تاريخ ج ٤ ص٢٤٦ — ٢٤٨
٢— المرجع السابق ص٢٧٤
٣— انظر الخضري: محاضرات تاريخ الأمم الاسلامية ج ٢ ص٣٢، المكتبة التجارية الكبرى ١٩٦٩
٤— الطبري: تاريخ ج ٤ ص٢٥٢
٥— انظر ابن أبي بكر: التمهيد والبيان ص٣٧، ٣٩.
٦— انظر ابن الاثير: الكامل في التاريخ ج ٣ ص٨٢ — ٨٣
٧— انظر الطبري: تاريخ ج ٤ ص٢٧٣
٨— انظر ابن كثير: البداية والنهاية ج٧ ص١٥٥، البلاذري: أنساب الاشراف ج ص٣٣، ابن العربي: العواصم من القواصم ص٩٣
٩— الطبري: تاريخ ج ٤ ص٢٧٩

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فأخذ سعيد يقدم ذوي السابقة والأيام ويجالس القراء ووجوه أهل الكوفة،(١) وقال لهم :((أنتم وجوه من وراءكم، والوجه ينهى عن الجسد ، فأبلغونا حاجة ذي الحاجة وخلة ذي الخلة، وأدخل معهم من يحتمل من اللواحق والروادف وخلص بالقراء والمتسمتين في سمره ...))(٢).

وقد يتوقع المرء أن تنال سياسة سعيد رضا الناس فتهدأ الأحداث ، ولكن عكس ذلك هو الذي حدث فعلا، وليم عثمان الذي لم يلتفت الى تأمير أحد من أصحاب الرسول الكريم(٣) وانما أبدل أهل الكوفة أمويا بأموي، وقبائل الكوفة كرهت سيادة قريش وأنفتها ، ويبدو رفض القبائل لكل ما هو قرشي ظاهرا في أبيات ظمها شاعر منهم هي :(٤)

فررت من الوليد الى سعيد ... كأهل الحجر اذا جزعوا فباروا
يلينا من قريش كل عام ... أمير محدث أو مستشار
لنا نار نخوفها فنخشى ... وليس لهم ، فلا يخشون نار

واذا أضيف الى تعصب قبائل الكوفة ، نقمتها من الثراء القرشي الذي ظهر في عهد عثمان أمكن ادراك روح التمرد التي سرت بين الناس وغدت الكوفة كأنما كانت يبسا شعلته نار(٥)، وظهر ذلك في مجلس سعيد بن العاص نفسه في ليلة كان يسمر عنده فيها بعض وجوه أهل الكوفة . فقال سعيد :((انما هذا السواد بستان قريش. فقال الأشتر: أترعم أن السواد الذي أفاءه الله علينا بأسيافنا بستان لك ولقومك وتكلم القوم معه))(٦).

ثم ثاروا على صاحب شرطة سعيد فوطئوه وطئا شديدا . فمنعهم سعيد حضور مجلسه فجعلوا يجلسون في مجالسهم وبيوتهم ويشغبون على سعيد ، ويطعنون في الخليفة والوالي . واجتمع اليهم الحاقدون من الناس فكثر جمعهم ((وكتب أشراف أهل الكوفة(٧) وصلحاؤهم الى عثمان في اخراجهم، فكتب اليهم : اذا اجتمع ملؤكم على ذلك فألحقوهم بمعاوية)).

قدم اولئك النفر من أهل الكوفة على معاوية بن أبي سفيان فرغب في استصلاحهم بالحسنى ، وجهد(٨) في اقناعهم بالعدول عن تصرفاتهم، ونصحهم بالتزام الطاعة والجماعة . الا أن ذلك لم يجد نفعا لتمكن

١ــ انظر البلاذري: أنساب الأشراف ج ٥ ص ٤٠
٢ــ الطبري: تاريخ ج ٤ ص ٢٧٩
٣ــ انظر ابن قتيبه : الامامه والسياسة ج ١ ص ٣٥
٤ــ ابن الاثير: الكامل ج ٣ ص ١٠٨
٥ــ انظر الطبري: تاريخ ج ٤ ص ٢٧٩
٦ــ ابن الاثير: الكامل ج ٣ ص ١٣٩
٧ــ الطبري: تاريخ ج ٤ ص ٣١٨

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الفتنة منهم، ولم يكن تمردهم على سعيد الا فرصة أتاحت لهم التعبير عما تنطوي عليه نفوسهم. فأخرجهم معاوية من الشام كي لا يفسدوا الناس عليه، وسيرهم الى حمص حيث اشتد عليهم واليها عبد الرحمن بن خالد بن الوليد فأذعنوا، الى حين.(١)

وكان مما أثار غضب بعض أهل الكوفة على عثمان بن عفان مسألة جمع المصاحف، حين خشي الفرقة والاختلاف بين المسلمين، وأخذ الاختلاف شكل التعصب الاقليمي ((فأهل حمص يزعمون أن قراءتهم خير من قراءة غيرهم وأنهم أخذوا القرآن عن المقداد ... وأهل الكوفة يقولون مثل ذلك وأنهم قرأوا على ابن مسعود .. وأهل البصرة يقولون مثل ذلك وأنهم قرأوا على أبي موسى الأشعري، ويسمون مصحفه لباب القلوب)).(٢) وعندما تناهى اختلاف الناس في قراءة القرآن الى المدينة، شق على الخليفة الأمر وأكبره المسلمون ((فأجمع رأيه ورأى الصحابة على أن يحمل الناس على المصحف الذي كتب في خلافة أبي بكر رضي الله عنه وكان مودعا عند حفصه زوج النبي صلى الله عليه وسلم، وتحرق ماسواه من المصاحف التي بأيدي الناس ففعل ذلك ونسخ من ذلك المصحف مصاحف وحمل كل منها الى مصر من الأمصار ... وقال عثمان: ان اختلفتم في كلمة فاكتبوها بلسان قريش فانما نزل القرآن بلسانهم)).(٣) وبذل عثمان من الجهد والصبر ما مكنه من جمع كافة النسخ الأخرى المتداولة وأتلفها وذكر أنه ((سلقها بالماء الحار والخل وقيل أحرقها)).(٤) وتم بذلك عن هذا السبيل الاحتفاظ بنسخة واحدة من كتاب الله العزيز، وتحقق وعد الله سبحانه ((انا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون)).(٤)

ولا شك أن جمع عثمان للمصاحف كان عين الصواب، وخطوة دينية سياسية وفق فيها عثمان لأمر عظيم، ورضي الصحابة والناس من أهل الحجاز عنه، وقال علي بن أبي طالب: ((... والله ماحرقها الا على ملأ من اصحاب محمد صلى الله عليه وسلم، ولو وليت مثل ماولي لفعلت مثل مافعل)).(٦)

ولم يسلم هذا العمل الجليل من نقد أهل الكوفة، وعدوه سيئة لعثمان وقالوا : ((كان القرآن كتبا، فتركتها الا واحدا))،(٧) واتهموا الخليفة أنه فعل مالم يفعل أبو بكر أو عمر،(٨) وكان أصحاب عبد الله ابن مسعود قد امتنعوا عن تسليم مصاحفهم وكذلك من وافقهم وعابوا الناس. وجاء هذا الموقف نتيجة موقف

١ــ انظر الطبري : تاريخ ج ٤ ص٣٢٢
٢ــ ابن الأثير : الكامل ج ٣ ص١١١ وانظر ابن خلدون العبر ج ٢ ق٢ ص١٣٥
٣ــ ابو الفداء : المختصر في أخبار البشر ج ١ ص١٦٧ طبعة المطبعة الحسينية الأولى
٤ــ اليعقوبي : تاريخ ج ٢ ص١٧٠ وانظر البلاذري : أنساب الأشراف ج ٥ ص٦٢
٥ــ سورة الحجر : اية ٦
٦ــ ابن الأثير : الكامل ج ٣ ص١١٢ وانظر ابن كثير : البداية والنهاية ج ٧ ص٢١٨

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

عبد الله بن مسعود الذي خطب في أهل الكوفة قائلا : ((أما بعد فان الله قال : ((ومن يغلل يأت بما غل يوم القيامة))[1]، واني غال مصحفي فمن استطاع منكم أن يغل مصحفه فليفعل))[2]. مما أوجد حزازة بين الخليفة وابن مسعود ، استغلت في التشنيع على عثمان واثارة الناس ضده[3] في الكوفة، وفي الحجاز تعصبت بنو هذيل وبنو زهرة وحنقت على عثمان ، وكان في قلوبهم مافيها لحال ابن مسعود[4].

وقد حانت الفرصة للحاقدين والناقمين من أهل الكوفة على الحكومة سنة ٣٤ هـ حين خرج سعيد بن العاص الى الحجاز . وكان عثمان قد استدعى الولاة للتشاور للذي بلغه من ضجيج الناس وشكيتهم . فتآمروا على طرد الوالي ، وكان لهم عين شخص مع سعيد بن العاص ليقرظه ، فلما رأى — علباء بن الهيثم السدوسي — عزم عثمان على رد عماله ، تعجل الى الكوفة فلما قدمها قال : ((يا أهل الكوفة هذا أميركم الذي يزعم أن السواد بستان له قد أقبل))[5]. فاغتنم أهل الكوفة غيبة الولاة وكتبوا الى اخوانهم الذين بحمص فاقبلوا . ثم خرج الرعاع ((وبقي حلماء الناس وأشرافهم في المسجد))[6]. ونزل الرعاع الجرعة[7]، فطلع عليهم سعيد بن العاص وهم مقيمون له معسكرون، فأبلغوه أنهم قد عزلوه ونجحوا في طرده ، فعاد سعيد الى المدينة .

قبل عثمان بالأمر الواقع ، وكتب الى أهل الكوفة يدعوهم الى الطاعة ويعلمهم أنهم أول من سن الفرقة ويأمرهم بتقوى الله ومراجعة الحق والكتاب اليه بالذي يحبون، فكتب اليه الأشتر : ((من مالك ابن الحارث الى الخليفة المبتلى الخاطئ الحائد عن سنة نبيه النابذ لحكم القرآن وراء ظهره ، أما بعد ، فقد قرأنا كتابك فانه نفسك وعمالك عن الظلم والعدوان وتسيير الصالحين نسمح لك بطاعتنا ، وزعمت أنا قد ظلمنا أنفسنا وذلك ظنك الذي أردك فأراك الجور عدلا والباطل حقا . وأما محبتنا فأن تنزع وتتوب وتستغفر الله من تجنيك على خيارنا وتسييرك صلحائنا واخراجك ايانا من ديارنا وتوليتك الأحداث علينا ، وأن تولي مصرنا عبد الله بن قيس أبا موسى الأشعري وحذيفة فقد رضيناهما وأحببناهما وليدك وسعيدك ومن يدعوك اليه الهوى من أهل بيتك ان شاء الله والسلام))[8]. وانما نقلنا كتاب الأشتر لنبين جرأة أهل الأحداث

١- سورة آل عمران : آية ١٦١

٢- ابن كثير : البداية والنهاية ج ٧ ص ٢١٨ ، ابن العربي : العواصم من القواصم ص ٧١

٣- انظر بروكلمان : تاريخ الشعوب الاسلامية ص ١١٢ دار العلم للملايين بيروت ١٩٦٥

٤- انظر السيوطي : تاريخ الخلفاء ص ١٥٧

٥- البلاذري : أنساب الأشراف ج ٥ ص ٤٠

٦- الطبري : تاريخ ج ٤ ص ٣٣٢

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

على عثمان، والأمور التي نقموها عليه ، وجاءت موافقة عثمان على عزلهم سعيد بن العاص وتوليـــة أبي موسى الأشعري وهنا للحكومة .

أقر عثمان تعيين أبي موسى الأشعري ((استصلاحا لأهل الكوفة واستمالة لحجتهم))[1] . وتبدو في هذا الاقرار بادرة ضعف في ادارة عثمان ، وكان الأجدر به أن يكون قويا حازما أمام شغب[2] أهل الكوفة وتمردهم ، فلم تعد الخلافة مرهوبة الجانب وأي تنازل في مثل هذه الحالة سيتبعه تنازلات لأهل مصر ((لا يرضون من أمير ولا يرضى عنهم أمير !))[3] ، وهذا ما حدث فعلا حين تطورت الأمور الى الأسوأ ، ومما يضاعف في أهمية أحداث الكوفة أنها كانت تنتقل الى الأمصار الأخرى، فكان أهل الشغب يكتب أهل كل مصر منهم الى مصر آخر بما يصنعون وأوسعوا الأرض بذلك اذاعة واشاعة، مما كان له أكبر الأثر في تأزم الموقف وتعليل الأذهان .

أما البصرة فكانت الأحوال الداخلية فيها تختلف اختلافا بيّنا عن مثيلاتها في الكوفة، وكان أبو موسى الأشعري عاملا عليها لعمر بن الخطاب ، ثم أقره عثمان الى أن عزله سنة تسع وعشرين هجريـــة ، وولى عبد الله بن عامر بن كريز على البصرة :((وهو يومئذ ابن خمس وعشرين سنة))[4] . وقد تم عزل أبـــي موسى الأشعري نتيجة لمطالبة بعض أهل البصرة الخليفة بتنحيته عنهم، وكان سبب ذلك ، كما روى ابن الأثير[5] ، أن أبا موسى نادى ((في الناس وحضهم على الجهاد ، وذكر من فضل الجهاد ما شيـــا ... فلما خرج أخرج ثقله من قصره على أربعين بغلا، فتعلقوا بعنانه وقالوا : احملنا على بعض هذه الفضول ، وارغب في المشي كما رغبتنا ...)) ولكنه نحاهم عن طريقه ، فجاؤا الى المدينة وطالبوا بعزله ، وذكر أن أحدهم خاطب عثمان قائلا : ((.. أما منكم خسيس فترفعوه ! أما منكم فقير فتجبروه ! يا معشـــر قريش حتى متى يأكل هذا الشيخ الأشعري هذه البلاد))[6] ، وتبدو روح التعصب القبلي جلية في قول نهلان بن خرشة هذا . وعزل عثمان أبا موسى وأمّر عبد الله بن عامر بن كريز .

ووصف أبو موسى الأشعري عبد الله بن عامر لأهل البصرة قائلا :((قد جاءكم غلام كثير العمـــات والخالات والجدات في قريش يفيض عليكم المال فيضا))[7] ، ورغم غمز أبي موسى هذا في ابن عامـــر[8] ، فقد سار في الناس سيرة حسنة ، وكان له في الفتوحات باع مجيد ، وبالتالي لم تكن البصرة كالكوفـــة

١ــ الطبري: تاريخ ج ٤ ص ٣٣٥ ــ ٣٣٦

٢ــ Muir, William: The Caliphate, Its Rise, Decline and Fall Page288

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

شغبا وفتنة ، ولم يقم فيها شغب وتمرد كالكوفة باستثناء حالات فردية ، كنشاط عبد الله بن سبأ مثلا ، الذي نجح في القاء بعض بذور الفتنة لدى بعض أهل البصرة . وحين اخرج منها ((جعل بكاتبهم ويكاتبونه وتختلف الرجال بينهم)) (١) .

أما الشام ، فقد أظهر معاوية بن أبي سفيان في حكمها كفاية نادرة (٢) . وادارة حسنة . مما جعل الفاروق عمر بن الخطاب يقره على ولايته مدة خلافته . ثم ((اجتمع الشأم على معاوية لسنتين من امارة عثمان)) (٣) . ونجح معاوية في ادارة البلاد والتقرب الى أهلها نجاحا انعكس أثره على البلاد فاستقرت الأمور ، ولم تبتل الشام بما ابتليت به العراق . ووصف معاوية أهل ولايته قائلا لعثمان : ((قد وليتني فوليت قوما لا يأتيك منهم الا الخير)) (٤) . ودفع نجاح معاوية وهدوء الولاية الخليفة الى الاعتماد عليه في كبح جماح المخالفين والمنحرفين ، فسير بعضهم اليه (٥) .

أما مصر ، فقد اضطربت فيها الأمور ، في ولاية عبد الله بن سعد بن أبي سرح ، الذي خلف عليها عمرو بن العاص ، سنة سبع وعشرين (٦) . ولم يكن الوالي الجديد يماثل سلفه في السياسة وضبط الأمور (٧) ، كما أن ماضي عبد الله بن سعد لا يخلو من عيوب ، اذ تذكر الناس كيف أهدر النبي صلى الله عليه وسلم ، دمه ولم ينقذه من الموت المحقق الا تدخل عثمان بن عفان (٨) . وحين أمّره عثمان على مصر نجح في مد الفتوحات الاسلامية في أفريقية ، وقتل جرجير ، وغنم غنائم كثيرة ((فكان سهم الفارس ثلاثة الاف دينار وسهم الراجل ألف دينار)) (٩) . الا أنه أتهم من أهل مصر بتحامله على المسلمين وأهمال الذمة وأنه يؤثر نفسه في الغنائم (١٠) .

١ــ انظر ابن الاثير : الكامل ج ٣ ص ١٤٤ ــ ١٤٥
٢ــ انظر جون باجوت گلوب : الفتوحات العربية ص ٥١
٣ــ الطبري : تاريخ ج ٤ ص ٢٨٩ ــ ٢٩٠
٤ــ ابن الاثير : الكامل ج ٣ ص ١٥٦
٥ــ انظر البلاذري : أنساب الاشراف ج ٥ ص ٤٣ ، ابن الأثير : الكامل ج ٣ ص ١٤٤ ــ ١٤٥
٦ــ انظر الكندي : ولاة مصر ص ٣٤ ــ ٣٥
٧ــ انظر الطبري : تاريخ ج ٤ ص ٢٥٦
٨ــ انظر ابن كثير : البداية والنهاية ج ٧ ص ١٧٠
٩ــ انظر ابن هشام : السيرة النبوية القسم الثاني ص ٤٠٩ تحقيق مصطفى السقا ، ١٩٥٥
١٠ــ ابن الاثير : الكامل ج ٣ ص ٩٠
١١ــ انظر الطبري : تاريخ ج ٤ ص ٣٧٤

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ويظهر أن عبد الله بن سعد ، كان يسوس البلاد بما لا يتفق تماما مع تعليمات الخليفة، فقد ذكروا أن : ((أهل مصر جاءوا يشكون ابن أبي سرح (١) . فكتب عثمان اليه كتابا يتهدده فيه ، فأبى أن ينزع عما نهاه عثمان عنه ، وضرب بعض من كان شكاه الى عثمان من أهل مصر حتى قتله))(٢) . وغضب لهذه السياسة أهل مصر ، كما غضب رؤوس الجماعة الاسلامية بالمدينة ، فاشتد الطعن على عثمان .

ويبدو كذلك أن المآخذ التي أخذت على عبد الله بن سعد قد بولغ فيها ، والذي ضخم هذه المخالفات أن مصر في تلك الفترة كانت مسرحا لنشاط معاد للحكومة ، حين اتخذها عبد الله بن سبأ مقاما ينفث منه السموم، فكان يزعم للناس: ((انه كان ألف نبي ، ولكل نبي وصي ، وكان علي وصي محمد . ثم قال : محمد خاتم الأنبياء ، وعلي خاتم الأوصياء . ثم قال بعد ذلك : من أظلم ممن لم يجز وصية رسول الله ، صلى الله عليه وسلم، ووثب على وصي رسول الله صلى الله عليه وسلم، وتناول أمر الأمة ! ثم قال لهم بعد ذلك ، ان عثمان أخذها بغير حق . . . فانهضوا في هذا الأمر فحركوه ، وابدأوا بالطعن على أمرائكم وأظهروا الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر (٣) تستميلوا الناس))(٤) . وكان قد وضع لهم الرجعة قائلا : ((ان الذي فرض عليك القرآن لرادك الى معاد)) (٥) فمحمد أحق بالرجوع من عيسى)) . فهو كما ترى ، ألبس افساده في الأرض رداء دينيا لاستمالة العامة، حيث أراد الكيد لهم والدس عليهم ونشر الفرقة بينهم .

وبجانب ذلك كانت سياسة عثمان في التولية والعزل قد اسخطت بعض الناس فعابوا على عثمان ايثاره بني أمية، وانتقدوه وشنعوا عليه ، وكان من هؤلاء الساخطين في مصر محمد بن أبي حذيفة ومحمد بن أبي بكر، واشترك الرجلان في غزوة الصواري ((فأظهرا عيب عثمان وسلم غيرّ وما خالف أبا بكر وعمر . ويقولان : دمه حلال لأنه استعمل عبد الله بن سعد ، وكان قد ارتد وكفر بالقرآن العظيم وأباح رسول الله صلى الله عليه وسلم دمه واخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم أقواما واستعملهم (٦) عثمان ، ونزع اصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم واستعمل سعيد بن العاص وعبد الله بن عامر)) . ولم يكتف محمد بن أبي حذيفة بذلك بل جعل يلقى الرجل ويقول : ((أما والله لقد تركنا خلفنا الجهاد حقا . فيقول الرجل : وأي جهاد ؟ فيقول : عثمان بن عفان فعل كذا وكذا ، وفعل كذا وكذا حتى أفسد

١ــ البلاذري : انساب الاشراف ج ٥ ص ٢٦
٢ــ انظر ابن قتيبة : الامامة والسياسة ج ١ ص ٣٩

الناس . فقدموا بلدهم وقد أفسدهم ، واظهروا من القول مالم يكونوا ينطقون به))[1] . ولم يجرؤ عبدالله بن سعد بن أبي سرح على معاقبتهما أو حبسهما .[2]

وهكذا التقى على التأليب ضد الحكومة، الساخطون للولاية ، والمفسدون كابن سبأ ومن شايعه ، وشغل عبدالله بن سعد نفسه بالفتوح ، فتهيأت لهم الفرصة . يدل على ذلك أن معظم الذين تولوا كبر مقتل عثمان كانوا من أهل مصر .[3]

أما الحجاز فقد جاءت الأخبار الى أهلها من جميع الأمصار الاسلامية وكان أهل الأحداث: ((يكتب أهل كل مصر منهم الى مصر آخر بما يصنعون حتى تناولوا بذلك المدينة وأوسعوا بذلك الارض اذاعة، فيقول أهل كل مصر: انا لفي عافية مما ابتلي به هؤلاء الا أهل المدينة فانهم جاءهم ذلك عن جميع الأمصار))[4] . وكانت تلك الأخبار المذاعة لا تصور الحقيقة كاملة ، وانما تمثل وجهة نظر مذيعيها ، الذين هدفوا الى تشويه سمعة الحكام، وأحيانا قلبوا محاسنهم الى مساوئ ، ومازال الأمر يتجسم حين أضيفت اليه عوامل أخرى، حتى أدى الى عتب البعض على الخليفة ولومهم اليه لوما شديدا وهم من كبار زعماء الجماعة الاسلامية .

هذا وقد فسرت سياسة عثمان الداخلية وما ترتب عليها من نتائج ، تفسيرا جاء ضد صالح عثمان نفسه ، فحين رفع الحجر عن اعلام قريش من المهاجرين[5] وظهر الثراء بينهم ، أطلت الشكوى من التباين الاقتصادي في المجتمع، وشعر مكان أولئك الاعلام من مجلس شورى الخلافة ، واعتمد الخليفة على نصح وارشاد سواهم من أقل ربه الأمويين الذين علا نفوذهم، وأنفسح المجال أمام اولئك النفر للانشغال بأمور الدنيا واتخاذ الأموال في الأمصار[6] ، وأحاط بهم الأعوان ((فانشأوا لأنفسهم ارستقراطية دينية سداها المال ولحمتها السبق في الاسلام وصحبة الرسول))[7] . فتشجعوا أو شجعهم الأعوان وقالوا:

١ـ الطبري : تاريخ ج ٤ ص٢٩٢

٢ـ انظر الطبري: تاريخ ج ٤ ص٢٩٢

٣ـ انظر الطبري: تاريخ ج ٤ ص٣٩١ ، ٣٩٣ ـ ٣٩٤ ، أبو الفداء : المختصر في أخبار البشر ج ١ ص١٦٩ ـ ١٧٠، ابن أبي بكر : التمهيد والبيان ص١٠٢ ، ١٣٧، ١٣٩

٤ـ ابن الاثير : الكامل ج ٣ ص١٥٤ ـ ١٥٥ ، ابن كثير : البداية والنهاية ج ٧ ص٢٠٧

٥ـ انظر ابن كثير: البداية والنهاية ج ٧ص٢١

٦ـ انظر الطبري: تاريخ ج ٤ ص٣٩٨

٧ـ حسن ابراهيم حسن : تاريخ الاسلام السياسي ج ١ ص٣٥٧

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

يملكون فنكون قد عرفناهم((وثبتوا سبع سنين كل قوم يحبون أن يلي صاحبهم الخلافة)) (١) ويؤكد ذلك أن أهل الأحداث في الأمصار اختلفوا فيما بينهم ، حين قدموا الى المدينة للثورة على عثمان، فكان أهل البصرة هواهم في طلحة ، وأهل الكوفة هواهم في الزبير، وأهل مصر هواهم في علي (٢) .

وترتب على ذلك أن أصيب المجتمع الاسلامي بالوهن في تماسكه والتفاف أعضائه حول شخص الخليفة، وتحزب الناس في الأمصار حول بعض رجال قريش وتطلعهم الى ولايتهم، قد شجع هؤلاء على التطلع الى المناصب العليا في الدولة، ولكن عثمان أهملهم، وولى أقاربه دونهم (٣)، فلا عجب أن اصبح بعضهم منافسين ونظراء لعثمان الذي كانت خلافته على شرط العمل ((بكتاب الله وسنة رسوله وسيرة الخليفتين من بعده (٤)). وهو شرط معرض للحساب والتأويل في ظل مثل تلك الظروف النفسية .

وفي عهد عثمان تملك بعض أعلام أهل الحجاز الضياع وشادوا القصور سواء في الحجاز أم في الأمصار المفتوحة كالعراق ومصر (٥)، واتخذ عثمان أمرا آخر حين أباح لمن شاء أن يستبدل بأملاكه في الحجاز أملاكا في الأمصار (٦). مما كان له أثر كبير في التطورات الاقتصادية، فكثر الغنى وعظمت الثروة في الحجاز ، ورافقهما بطر وفساد ((فأول منكر ظهر بالمدينة حين فاضت الدنيا وانتهى وسع الناس طيران الحمام والرمي على الجلاهقات فاستعمل عليها عثمان رجلا من بني ليث سنة ثمان، فقصها وكسر الجلاهقات)) (٧). فقالوا : ((يأمر بذبح الحمام وقد آوى طرداء رسول الله صلى الله عليه وسلم)) (٨). وكان عثمان قد لان لهم ((وانتزع الحقوق انتزاعا ولم يعطل حقا)) (٩). وبالتالي حين انغمس بعض الأفراد في التمتع بالحياة واللهو((وكان الغناء والايقاع والرقص والشعر ، الذي لا يصور جدا ولا نشاطا ، وانما يصور بطالة وفراغا وتهالكا على اللذات)) (١٠) ، هال ذلك عثمان، فحين حدث بين الناس النشو، أرسل طائفا يطوف

١ــ الطبري: تاريخ ج ٤ ص٣٩٨

٢ــ انظر ابن الأثير : الكامل ج ٣ ص١٥٩

٣ــ انظر ابن قتيبة: الامامة والسياسة ج ١ ص٣٥

٤ــ ابن الأثير: الكامل ج ٣ ص٧١ ، ابن كثير: الهداية والنهاية ج ٧ ص١٤٧

٥ــ انظر ابن سعد : الطبقات ج ٣ ص١١، المسعودي: مروج الذهب ج ٢ ص٣٣٢ ــ ٣٣٤

٦ــ انظر ابن أبي بكر: التمهيد والبيان ص٤٨

٧ــ الطبري: تاريخ ج ٤ ص٣٩٨ والجلاهق: البندق الذي يرمى به .

٨ــ البلاذري: أنساب الأشراف ج ٥ ص٢٧

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

عليهم بالعصا فمنعهم من ذلك ((ثم اشتد ذلك فأفشى الحدود، ونمّا ذلك عثمان، وشكاه الى الناس فاجتمعوا على أن يجلدوا في النبيذ، فأخذ نفر منهم فجلدوا))[1]. وكانت اجراءات عثمان قاسية، كما يجب أن تكون، وخطب في الناس قائلا: ((يا أهل المدينة أنتم أصل الاسلام، وانما يفسد الناس بفسادكم ويصلحون بصلاحكم، والله والله والله، لايبلغني عن أحد منكم حدث أحدثه الا سيرته، ألا فلا أعرفن أحدا عرض دون أولئك بكلام ولا طلب، فان من كان قبلكم كانت تقطع اعضائهم دون أن يتكلم أحد منهم بما عليه ولا له. وجعل عثمان لا يأخذ أحدا منهم على شر أو شهر سلاح: بصا فما فوقها الا سيره، فضج آباؤهم من ذلك))[2]. وأخذوا في الطعن على عثمان والتقوا في ذلك مع المنحرفين عليه في الأمصار.

ويتضح من خطاب عثمان في أهل المدينة، الفساد الذي بدأ يدب في المجتمع حين فاضت الدنيا على الناس فحذرهم وبين عزمه القاطع على تسيير ذوي الأحداث، وحين وضع ذلك موضع التنفيذ ضج آباؤهم، وضج الذين أخذ الحقوق من ظهورهم فنقموا عليه وانحرفوا عنه وألب بعضهم عليه كمحمد ابن أبي بكر[3] وعمار بن ياسر[4] وتعصبت لهم قبائلهم وأنكرت على عثمان شدته على ذويهم واعادته الحكم بن أبي العاص وبنيه الى المدينة[5]. وهو طريد الرسول صلى الله عليه وسلم الى الطائف، رقة لحالهم وايثارا لهم بالخير وأشركهم في الأعمال العامة، فعين مروان بن الحكم كاتبا له[6]، وعين الحارث بن الحكم على سوق المدينة[7]. وذكر أنه ولى الحكم بن أبي العاص نفسه صدقات قضاعة، ثم وهبها له حين أتاه بها[8].

ان تطور الأوضاع الاجتماعية والتغير الذي أصاب المجتمع كان يجعل من عثمان شخصية مرغوب عنها في نظر بعض الناس وبالتالي كانت سياسته الداخلية في بعض الأمور غير مقبولة في نظرهم، وان كان لانبار عليها، فحين زاد عثمان في الحمى[9] عابوا عليه وقالوا: ((أرأيت ما حميت من الحمى آلله أذن لك أم على الله تفتري؟))[10]. والواقع أن الائمة قد حموا لابل الصدقة قبل عثمان، فلما زادت زاد في

١- الطبري: تاريخ ج ٤ ص ٣٩٨
٢- المرجع السابق ص ٣٩٩
٣- انظر ابن الاثير: الكامل ج ٣ ص ١٨١
٤- انظر ابن أبي بكر: التمهيد والبيان ص ٨٥
٥- انظر اليعقوبي: تاريخ ج ٢ ص ١٦٤، ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب ج ١ ص ٣٨ المكتب التجاري بيروت.
٦- انظر الديار بكري: تاريخ الخميس ج ٢ ص ٢٥٥

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الحمى، وسبق أن حمى رسول الله صلى الله عليه وسلم لخيل المسلمين على عشرين فرسا. من المدينة[1]، مكان يسمى النقيع[2]، وهو قدر ((ميل في ستة أميال))[3]، وفي زمن عمر بن الخطاب اتسع الحمى فشمل سرف والربذة[4]، وكان المنع يقتصر على نعم الأثرياء[5]، أما رب الغنيمة ورب الصريمة فكان عامل الحمى يتسامح معهما لئلا تهلك ماشيتهما.

ولم ترق سياسة عثمان في الحمى للبعض فطعنوا عليه رغم أنه اتبع سياسة أسلافه، وحين تناهى اليه قولهم قال: ((انى والله ما حميت، حمي قبلي، والله ماحموا شيئا لأحد ماحموا الا غلب عليه أهل المدينة، ثم لم يمنعوا من رعيه أحدا، واقتصروا لصدقات المسلمين يحمونها لئلا يكون بين من يليها وبين أحد تنازع، ثم مامنعوا ولا نحوا منها أحدا الا من ساق درهما، ومالي من بعير غير راحلتين، ومالي ثاغية ولا راغية، واني قد وليت واني أكثر العرب بعيرا وشاء، فمالي اليوم شاة ولا بعير غير بعيرين لحجي، أكذلك؟ قالوا: اللهم نعم))[6].

ولعل الذي حدا بعثمان أن يطلب شهادة الناس على صحة قوله، ماكان يزعمه المنحرفون: أنه حمى الحمى لأبله واغنامه وأنعام الأمويين، فأبان عثمان أن الحمى كان يقتصر على صدقات المسلمين، وأنه أراد ألا يكون هناك اختلاف بين الافراد والدولة في ما يتصل بمراعي الصدقات. وليس هذا مما ينقم على الامام.

وفي سنة تسع وعشرين من الهجرة أتم عثمان الصلاة بمنى، وعرفة وقت الحج[7]، فكان أول ماتكلم به الناس في عثمان ظاهرا حين أتم الصلاة))[8] فعاب عليه أكثر من واحد من الصحابة، وكان مما قال علي بن أبي طالب: ((والله ماحدث أمر ولا قدم عهد، ولقد عهدت نبيك صلى الله عليه وسلم يصلي ركعتين. ثم أبا بكر، ثم عمر، وأنت صدرا من ولايتك، فما أدري ماترجع اليه. فقال: رأى رأيته))[9].

١ـ أنظر الكتاني: التراتيب الادارية ج ١ ص ٤٤١ نشر حسن جعنا بيروت.
٢ـ انظر ابن سلام: كتاب الأموال ص ٤١٧ تحقيق محمد خليل هراس ١٩٦٨
٣ـ الماوردي: الأحكام السلطانية ص ١٨٥
٤ـ الخزاعي: الدلالات السمعية ص ٥٩٩ مخطوط بدار الكتب المصرية رقم ٦٣٨ تاريخ تيمور
٥ـ انظر ابن العربي: العواصم من القواصم ص ٧٣
٦ـ الطبري: تاريخ ج ٤ ص ٣٤٧
٧ـ انظر ابن كثير: البداية والنهاية ج ٧ ص ١٥٤

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وكان هذا الرأي الذي ذهب اليه عثمان قد بني على أن بعض من حج من اليمن وجفاة الناس((قالوا : في عامنا هذا ان صلاة المقيم أربعا وان امامنا عثمان قد اتخذ بمكة أهلا فهو كالمقيم وقد صلى اثنتين، فرأيت أن أصلي أربعا))(١). وفي رواية أخرى أنه قال :((ان طائفة من أهل اليمن قالوا : ان الصلاة بالحضر ركعتان، فربما رأوني أصلي ركعتين فيحتجون بي))(٢). فأراد عثمان أن يقطع عليهم ماذهبوا اليه وتصرف تصرف المقيم اذ اتخذ بمكة أهلا وله بالطائف مال. ورفض عبد الرحمن بن عوف دفاع عثمان وحجته قائلا :((مافي هذا عذر ، أما قولك : اتخذت بها أهلا ، فان زوجك بالمدينة تخرج بها اذا شئت وانما تسكن بمسكنك، وأما مالك بالطائف فبينك وبينه مسيرة ثلاث ليال ، وأما قولك عن حاج اليمن وغيرهم فقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم، ينزل عليه الوحي والاسلام قليل ، ثم أبو بكر وعمر ، فصلوا ركعتين وقد ضرب الاسلام بجرانه))(٣). وواضح أن عثمان اجتهد للمسلمين حين سمع أن الناس أخذوا يقتدون به ((فرأى أن السنة ربما أدت الى إسقاط الفريضة فتركها خوف الذريعة))(٤).

ولم يسلم عثمان من النقد حين اجتهد ، واستغل الحاقدون تلك الهفوات((وتكلم في ذلك من يريد أن يكثر عليه))(٥)، وأخذوا في تكبير أفعاله ، كالذي قيل أن عثمان أمر بأخذ الزكاة من الخيل التي كانت معفاة منها(٦)، واذاعوا بين الناس أقوالا لتشويه سمعة الخليفة الشيخ تحقيقا للمآرب التي ابتغوها ، وساعد في ذلك لين عثمان وحلمه ، فقد كان ينقصه الحزم والشدة لمواجهة تلك الفتن، ففشت القالة بين الناس بنقد تصرفات الخليفة، وبدت الخلافة تفقد الهيبة التي كانت لها في عهد ابن الخطاب الذي وصفه أحد المؤرخين قائلا : ((كانت درة عمر أهيب من سيف الحجاج))(٧).

وبالاضافة الى ذلك أخذ الناقمون على عثمان أنه ارتقى على المنبر ((فجلس في الموضع الذي كان يجلس فيه رسول الله ، ولم يجلس أبو بكر ولا عمر فيه ، جلس أبو بكر دونه بمرقاة ، وجلس عمر دون أبي بكر بمرقاة ، فتكلم الناس في ذلك، فقال بعضهم : اليوم ولد الشر))(٨). كما سقط من يد عثمان خاتم الرسول صلى الله عليه وسلم في بئر أريس على ميلين من المدينة(٩) وليس في هذين الأمرين

١ـ البلاذري : انساب الاشراف ج ٥ ص ٣٠
٢ـ ابن كثير : البداية والنهاية ج ٧ ص ١٥٤
٣ـ ابن الاثير : الكامل ج ٣ ص ١٠٢ ـ ١٠٤
٤ـ ابن العربي : العواصم من القواصم ص ٧٩
٥ـ الطبري : تاريخ ج ٤ ص ٢٦٧

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

جرم يستوجب تأليبا أو قدحا على الخليفة . روى القلقشندي[1]، أنه ذكر عند بعض الخلفاء المتأخرين، ارتقاء عثمان الى مقام النبي صلى الله عليه وسلم ، فأنكر ذلك . فقال له بعض الحاضرين :((اشكره ياأمير المؤمنين ، فلولا ذلك لكنت اليوم تخطب في بئر)).

تجرأ على عثمان الناس وانتقدوه علنا كالذي قال جهجاه الغفاري :((ياعثمان ألا ان هذه شارف قد جئنا بها ، عليها عباءة وجامعة ، فانزل فلندرعك العباءة ولنطرحك في الجامعة ولنحملك على الشارف ثم نطرحك في جبل الدخان))[2]. ومن الطبيعي أن يترك هذا القول أثرا سيئا على هيبة الخلافة ، لاسيما وقد قيل على ملأ من الناس، ولم يتخذ عثمان أي اجراء بحقه فتجاسر عليه وقال لعثمان وهو يخطب :((قم يانعثل ،فانزل عن هذا المنبر ، وأخذ عصا النبي — التي كانت مع عثمان — فكسرها))[3]. وكان ذلك على ملأ من الناس أيضا[4]. ومن هذا القبيل ماقال جبلة بن عمرو الساعدي الذي كان أول من اجترأ على عثمان بالمنطق السيء، وروى انه جابه عثمان حين مر به في ندى قومه مجابهة شديدة على ملأ من الناس ((... قال : فا نصرف عثمان، فما زال الناس مجترئين عليه الى هذا اليوم))[5]، ومن الناس من لايرعوى الا بالشدة، أما وقد أمنوا العقوبة ، فقد اجترأوا ((... وعظم الناس على عثمان ونالوا منه وليس أحد من الصحابة ينهى ولا يذب الا نفر منهم زيد بن ثابت ، وأبو أسيد الساعدي ، وكعب بن مالك وحسان بن ثابت))[6]. ولعل مثل هذه التصرفات هي التي دفعت الصحابة بالمدينة سنة أربع وثلاثين ، الى الكتابة الى اخوانهم الذين تفرقوا بالأمصار يقولون :((... أن أقدموا ، فان كنتم تريدون الجهاد فعندنا الجهاد ...))[7].

ويستفاد من هذه الروايات أن جمهور أهل الحجاز خذلوا خليفتهم ، وظنوا أن الشاكين محقين في كره بطانة عثمان ، وسياستهم الداخلية في الأمصار ، وشارك بعض الصحابة كعلي بن أبي طالب ، والزبير بن العوام، وطلحة بن عبيد الله وغيرهم . في نصح عثمان لازالة أسباب الشكوى والتذمر[8]. ولما لم ينجحوا في ذلك أخذوا يعارضونه ثم يلومونه ، وفي بعض الأحيان لوما عنيفا . ولم يجد ذلك

١ــ انظر مآثر الانافة في معالم الخلافة ج ٣ ص ٣٤٠

٢ــ الطبري : تاريخ ج ٤ ص ٣٦٦

٣ــ المرجع السابق نفس الصفحة

٤ــ انظر المرجع السابق ص ٣٦٥

٥ــ الطبري : تاريخ ج ٤ ص ٣٦٦

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

نفسا فلم يتخلّ عثمان عن موقفه ولم يتخل الناس عن معارضتهم فنمت واشتدت ، ((وكتب أهل المدينة الى عثمان يدعونه الى التوبة ويحتجون ويقسمون له بالله لايمسكون عنه أبدا حتى يقتلوه ، أو يعطيهم مايلزمه من حق الله))(١).

كما أن انقسام أهل الحجاز على أنفسهم قد مكّن للمنحرفين ، واتاح لهم فرصا مواتية لتحقيق أغراضهم ، وظهر ذلك الانقسام في تنفذ الأمويين ، وكره القبائل الأخرى لازدياد النفوذ الأموي ، ونظر البعض الى الأمور الادارية بمنظار قبلي محض ، وحقدوا على عثمان حين مارس حقه في تأديب من رأى منه الخلاف ((صيانة لمنصب الشريعة واقامة لحرمة الدين))(٢) هذا الى أن بعض أهل الحجاز كانوا يرون أحقية علي بن أبي طالب في الخلافة ، كالمقداد بن الأسود الذي روى أنه قال حين بويع عثمان : ((ما رأيت مثل ما أتي الى أهل هذا البيت بعد نبيهم ، اني لأعجب من قريش أنهم تركوا رجلا ما أقول ولا أعلم أن رجلا أقضى بالعدل ولا أعلم منه))(٣). وقوى هذا الاتجاه حين ظن القوم أن عثمان لم يتقيد بالالتزام بسياسة الفاروق وحسبوه انحرف عنها .

وقد لاحظ الجاحظ(٤) ، التغير الذي أصاب المجتمع فقسمه الى طبقات وقال : الطبقة الأولى عصر النبي صلى الله عليه وسلم ، وأبي بكر وعمر وستسنين من خلافة عثمان . كانوا على التوحيد الصحيح والاخلاص المخلص مع الالفة واجتماع الكلمة على الكتاب والسنة ، وليس هناك عمل قبيح ولا بدعة فاحشة ، ولا نزعيد من طاعة ، ولا حسد ولا غلّ ولا تأول . أما في السنوات الست الأواخر فكان الناس على طبقات مختلفة ، فكانت حالتهم تماما كما وصف الجاحظ(٥٤) ، حين بويع أبو بكر ، فمن رجل ليست غايته صلاح المسلمين ، انما غايته أن يكون الحاكم من أقرب القبائل اليه ليزداد بذلك شرفا وفخرا ، ومن رجل شديد ظهور نجد تسه في بأسه ، ضعيف في دينه ، لايألوا اضرام الفتنة ، وتهييج السفلة ، يرى أن في الهيج ، وخروجه من الخمول الى النباهة ، ومن الاقلال الى الاكثار ، ومن رجل دخل في الاسلام مع من دخل في دين الله ، دخل من الافواج لايعرف حقيقته ، ولايستريح به الى الثقة ، ومن رجل أخافه السيف ، واتقى الذل والقتل باسلامه ونفاقه ... ومن رجل صاحب سلم ، يدين لمن غلب ، لايدفع مبطلا ولايعين محقا ... ومن رجل مؤمن عالم ناصح لله ورسوله ومازر للخليفة .

١ــ الطبري : تاريخ ج ٤ ص ٣٦٩

٢ــ المحب الطبري : الرياض النضرة ج ٣ ص ١٢٠

٣ــ ابن الاثير : الكامل ج ٣ ص ٧١

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

نهاية خلافة عثمان بن عفان

وفي العامين الأخيرين من خلافة عثمان اشتدت رياح الفتنة ، وأخذت أخبار الأمصار تـرد الى أهل المدينة ، فتألم بعضهم وذهبوا الى عثمان وقالوا :((ياأمير المؤمنين ، أيأتيك عن الناس الذي يأتينا ؟ قال : لا والله ، ماجاءني الا السلامة . قالوا : فانا قد أتانا .. وأخبروه بالـذي أسقطوا اليهم . قال : فأنتم شركائي وشهود المؤمنين، فاشيروا علي . قالوا : نشير عليك أن تبعث رجالا ممن تثق بهم من الى الأمصار حتى يرجعوا اليك بأخبارهم))(١)، فسارع عثمان الى تنفيذ اقتراحهم فأرسل محمد بن مسلمة الى الكوفة، وأرسل أسامة بن زيد الى البصرة، وأرسل عمار بن ياسر الى مصر، وأرسل عبد الله بن عمر الى الشام، كما فرق رجالا سواهم(٢)، لاستقصاء أوضاع الناس في الأمصار، وعاد رسل عثمان جميعا ، باستثناء عمار بن ياسر الذي استماله قوم من أهل مصر(٣) ، وذكروا أنهم لم يـروا منكرا ، ولا أنكر أعلام المسلمين ولا عوامهم شيئا ، وقالوا : ((الأمر أمر المسلمين الا أن أمراءهـم يقسطون بينهم ويقومون عليهم))(٤).

وبعث عثمان الـى ولاة على الأمصار لموافاته في موسم حج سنة خمس وثلاثين هجرية، لاستشارتهم والتحقيق فيما يشيع المنحرفون عنهم وأمصارهم، فوافاه معاوية بن أبي سفيان وعبد الله بن عامـر(٥)، وسعيد بن العاص، وعبد الله بن سعد ، وقيل أن عثمان أشرك معهم عمرو بن العاص(٦). وحيـن اجتمعوا ابتدرهم عثمان قائلا : ((ويحكم ماهذه الشكاية والاذاعة ؟ اني والله لخائف أن تكونوا صدوقا عليكم، وما يعصب هذا الا بي))(٧)، فرد العمال قائلين : ((ألم تبعث، ألم يرجع اليك الخبر عن القوم، ألم يرجعوا ولم يشافههم أحد بشيء .. لا والله ماصدقوا ولا بروا ، ولا نعلم لهذا الأمـر أصلا، وماكنت لتأخذ به أحدا فيقيمك على شيء ، وماهي الا اذاعة لايحل الأخذ بها ، ولا الانتهاء اليها))(٨). وهكذا أكد المجتمعون عدم صحة مزاعم المنحرفين واستندوا الى اقوال الرجال الذيـن

١ـ الطبري : تاريخ ج ٤ ص٣٤١

٢ـ انظر ابن الأثير : الكامل ج ٣ ص١٥٥

٣ـ انظر البلاذري : أنساب الأشراف ج ٥ ص٥١

٤ـ الطبري : تاريخ ج ٤ ص٣٤١

٥ـ انظر ابن كثير: البداية والنهاية ج ٧ ص١٦٧

٦ـ انظر ابن الاثير : الكامل ج ٣ ص١٥٥ ـ ١٥٦

٧ـ المرجع السابق ص ١٥٥

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

بعثهم عثمان الى الأمصار ولم يروا منكرا ، وأكد العمال أنهم مكذوب عليهم في تلك الاذاعات.

تدارس الخليفة وعماله الأوضاع الداخلية في البلاد ، فأما معاوية بن أبي سفيان[1] فأشار على عثمان ((أن يرد عماله الى أقاليمهم وأن لا يلتفت الى هؤلاء وما تقلبوا عليه من الشر))، وأشار الى حسن ادارته قائلا : ((قد وليتني فوليت قوما لا يأتيك عنهم الا الخير))[2]، واشارة معاوية هذه ثابتة النفع لشخصه حين ألمح الى جدارته الادارية، وضبطه أمور ولايته ، وعرض بالعمال الآخرين أمام الخليفة الذي لم يكن ليجني كبير فائدة من نصيحة معاوية، اذ العمال أنفسهم طرفا من أطراف الشكوى التي جأر بها الناس[3]. أما عبد الله بن عامر فقد رأى في الغزو علاجا حاسما للمشاكل التي أخذت طريقها الى الناس، بحيث ((لا يكون هم أحدهم الا نفسه ، وما هو فيه من دبر دابته .... فان فوغاء الناس اذا تفرغوا وبطلوا اشتغلوا بما لا يغني وتكلموا بما لا يرضي ، واذا تفرقوا نفعوا أنفسهم وغيرهم))[4]. في حين رأى سعيد بن العاص قتل قادة أهل الفتن وقال :((ان لكل قوم قادة متى تهلك يتفرقوا ، ولا يجتمع لهم أمر))[5] ، واقترح عبد الله بن سعد أن يرضي عثمان طمع الناس بتوزيع الأموال عليهم[6]، وكما نرى لم يشر أحد من هؤلاء الى أن علاج المشكلة يمكن أن يكون عن طريق عزل الولاة، في حين أن عثمان أعلمهم صراحة أن الناس((طلبوا الي أن اعزل عمالي))[7]، ولكن هذا الطلب استبعد في المشاورات.

أما عمرو بن العاص الذي ذكر بعض الرواة اشتراكه في هذا المؤتمر ، فقد طالب عثمان أن يلزم طريقة صاحبيه ، فيشتد في موضع الشدة ويلين في موضع اللين[8]. ولكن كيف تأتى لعمرو بن العاص حضور هذا الاجتماع؟ وقد عزل عن ولاية مصر منذ سنة سبع وعشرين، وكان هذا المؤتمر في سنة خمس وثلاثين من الهجرة[9]، وبالتالي كان وقع العزل على عمرو شديدا وأثار غضبه وسخطه على عثمان،

١ــ ابن كثير : البداية والنهاية ج ٧ ص١٦٧

٢ــ ابن الاثير : الكامل ج ٣ ص١٥٦

٣ــ انظر الطبري : تاريخ ج ٤ ص٣٣٣

٤ــ ابن كثير : البداية والنهاية ج ٧ ص١٦٧

٥ــ الطبري : تاريخ ج ٤ ص٣٣٣ ــ ٣٣٤

٦ــ انظر ابن كثير : البداية والنهاية ج ٧ ص١٦٧

٧ــ الطبري : تاريخ ج ٤ ص٣٣٣

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ان قيل أن عثمان أشركه لرأيه، فلماذا اذن لم يشرك الصحابة الآخرين، وهم ممن عرف بصدق النصيحة وحسن المشورة، ولذلك — يبدو لي — أن عمرا لم يحضر الاجتماع ولم يشارك فيه، وأن الأمر لايعدو خلطا من الرواة حين اختلط عليهم هذا الموقف بمواقف أخرى تاليه.

اختتم عثمان هذا الاجتماع قائلا : ((قد سمعت كل ماأشرتم به عليّ ولكل أمر باب يؤتى منه، ان هذا الأمر الذي يخاف على هذه الأمة كائن، وان بابه الذي يغلق عليه ليفتحن فنكفكفه باللين والموءاتاه الا في حدود الله، فان فتح فلا يكون لأحد عليّ حجة حق، وقد علم الله أني لم آل الناس خيرا، وان رحى الفتنة لدائرة، فطوبى لعثمان ان مات ولم يحركها، سكنوا الناس وهبوا لهم حقوقهم، فاذا تعوطيت حقوق الله فلا تدهنوا فيها))[1]. وهكذا، مع احساس عثمان أن رحى الفتنة دائرة، فلم يتخذ اجراء عمليا لمواجهتها واكتفى بالطلب الى العمال أن يسكنوا الناس وأن يعطوهم حقوقهم، واشتد في حقوق الله فطلب ألا يدهنوا فيها. ثم قفل عثمان عائدا الى المدينة وشخص معه الأمراء[2].

وفي المدينة عقد عثمان اجتماعا دعا اليه علي بن أبي طالب، وسعد بن أبي وقاص، وطلحة بن عبيد الله، والزبير بن العوام، وهؤلاء بقية الشورى، واشترك معهم معاوية بن أبي سفيان[3]. الذي ابتدأ الحديث، فذكر فضل المجتمعين وصحبتهم للنبي صلى الله عليه وسلم، وأنهم ولاة الأمر في الأمة، ولايطمع في ذلك أحد غيرهم. وان عثمان قد كبرت سنه، وولي عمره. ثم حذرهم الفتنة، وحاول ابراز قدره، وقال انه ضامن لما يطلبون وقمين بتحقيقه. فنهره علي، وكان بينهما حوار لم يخل من جفاء. وقطع عثمان الحوار وبرر للمجتمعين أعماله وبرأ لأهله، ثم قال : انه على استعداد للنزول عند رأيهم وأمرهم، فاستحسنوا ذلك منه وتفرقوا راضين[4].

وحين أراد معاوية بن أبي سفيان العودة الى الشام، جاء لتوديع عثمان ((وعرض عليه أن يرحل معه الى الشام، فانهم قوم كثيرة طاعتهم للأمراء. — فرفض عثمان قائلا — : لا أختار بجوار رسول الله صلى الله عليه وسلم، سواه))[5]. فعرض معاوية أن يرتب لعثمان في المدينة أربعة الاف فارس من خيل أهل الشام، يكونون له ردءا وبين يديه يدا. فرفض عثمان قائلا : أرزق أربعة الاف من الجند من بيت مال المسلمين لحرزدمي ؟ لافعلت هذا[6]. مع أن معاوية حذره قائلا :

---

١ — ابن الاثير : الكامل ج ٣ ص ١٥٦ .

٢ — انظر ابن الاثير : الكامل ج ٣ ص ١٥٦

٣ — انظر الطبري : تاريخ ج ٤ ص ٣٤٤

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

((والله لتقتالن ولتقتلن)) ويروي ابن قتيبة (١) ، أن معاوية بن أبي سفيان طلب بعد ذلك من عثمان (٢) أن يجعل له الطلب بدمه ان قتل ، وأن عثمان وافق على ذلك قائلا : نعم هذه لك ان قتلت فلا يطلّ دمي . وعاد معاوية الى الشام وقد علا ذكره ومركزه ، واستشعر لنفسه أمر الخلافة منذ هذا الوقت (٣).

كان رد الفعل الأول على مؤتمر عمال عثمان ، أن ثار المنحرفون من أهل الكوفة في وجه سعيد ابن العاص والي عثمان على الكوفة ، ومنعوه من دخولها (٤) فعاد أدراجه الى المدينة وكتب عثمان الى أهل الكوفة يأمرهم بتقوى الله ومراجعة الحق ويدعوهم الى الطاعة والجماعة والكتاب اليه بالذي يحبون (٥) فاستعفوا من ولاية سعيد بن العاص عليهم وطلبوا تأمير أبي موسى الأشعري مكانه . وظن عثمان أن في مقدوره دفع الفتنة فوافق على طلبهم وبعث الى أبي موسى الأشعري بالولاية عليهم (٦).

وجاءت خطوة السبئية التالية ((فكاتبوا أشياعهم من أهل الأمصار أن يتوافوا بالمدينة لينظروا فيما يريدون ، وأظهروا أنهم يأمرون بالمعروف ، ويسألون عثمان عن أشياء لتطير في الناس ولتحقق عليه)) (٧).

وكانت خطتهم كما قالوا : ((أن نذكر له أشياء قد زرعناها في قلوب الناس ثم نرجع اليهم فنزعم لهم أنا قرأناه بها ، فلم يخرج منها ولم يتب ، ثم نخرج كأنا حجاج حتى نقدم فنحيط به فنخلعه ، فان أبى قتلناه)) (٨).

وكان ذلك كذلك ، فخرج من مصر مايقارب خمسمائة رجل في شهر رجب سنة خمس وثلاثين واتجهوا الى الحجاز ، بزعم أنهم يريدون تأدية العمرة (٩) . ولكنهم كانوا يريدون مناظرة الخليفة في أمور أخذوها عليه (١٠) . وأورد الطبري روايتين عن لقاء عثمان للمصريين ، تتلخص الرواية الأولى في أن المصريين لقوا عثمان في قرية له خارج المدينة ، وناظروه في أشياء أقنعهم ببعضها وأقنعوه بالبعض الآخر ، وكان مما اشترطوا عليه ((ألا يأخذ أهل المدينة عطاء ، فانما هذا المال لمن قاتل عليه ولهؤلاء الشيوخ من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم)) . وأقبلوا معه الى المدينة راضين ، ولكن هذا أغضب الناس من أهل المدينة وقالوا : هذا مكر بني أمية .

١ــ ابن الأثير : الكامل ج ٣ ص ١٥٧
٢ــ انظر الامامة والسياسة ج ١ ص ٣٤
٣ــ انظر الطبري : تاريخ ج ٤ ص ٣٤٣ ، ٣٤٤
٤ــ انظر ابن أبي بكر : التمهيد والبيان ص ٦٣
٥ــ انظر البلاذري : أنساب الاشراف ج ٥ ص ٤٦
٦ــ انظر ابن الاثير : الكامل ج ٣ ص ١٤٨ ، ١٥٠ ، الطبري : تاريخ ج ٤ ص ٣٤٦
٧ــ الطبري : تاريخ ج ٤ ص ٣٤٦

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وتتلخص الرواية الثانية[1] في أن عثمان كلّم عليا في رد المصريين على أن يصير الى مايشير به علي ويراه . فركب علي اليهم ومعه جماعة من المهاجرين والأنصار وغيرهم في نحو ثلاثين رجلا ، ومازال هؤلاء بالمصريين حتى أرضوهم فرجعوا .

ثم خرج عثمان الى المسجد ، فأعتذر الى الناس ووعدهم الحسنى وأضاف:((فاذا نزلت فليأتني أشرافكم فليردوني برأيهم فوالله لو ردني الى الحق عبد لأتبعته وما عن الله مذهب الا اليه فسر الناس بخطبته واجتمعوا الى بابه مبتهجين بما كان منه))[2]. ولكن هذه البهجة لم تدم طويلا اذ أن مروان لم يزل بعثمان يفتله في الذروة والغارب حتى لفته عن رأيه . ثم خرج مروان الى الناس المجتمعين على باب عثمان فردهم ردا سيئا[3]. فأسخط هذا التحول السريع في موقف عثمان الناس[4].

وحين بلغ خبر مروان أهل الأمصار ((وغضب علي على عثمان بسببه ، ورجعوا الأمر على ماكان عليه لم يتغير ... تكاتب أهل مصر وأهل الكوفة وأهل البصرة وتراسلوا ، وزورت كتب على لسان الصحابة الذين بالمدينة ، وعلى لسان علي وطلحة والزبير يدعون الناس الى قتال عثمان ونصر الدين وأنه أكبر الجهاد اليوم))[5]. وتواعدوا الخروج الى المدينة لوضع حل نهائي لذلك الوضع . وفي شهر شوال سنة خمس وثلاثين أقبل الثوار كالحجاج فنزلوا قرب المدينة[6]. وكان ((المصريون في خمسمائة وقيل في ألف ... وعليهم جميعا الغافقي بن حرب العكي))[7]. وخرج أهل الكوفة((وعددهم كعدد أهل مصر وعليهم جميعا عمرو بن الأصم))[8]. وكذلك كان عدد أهل البصرة وأميرهم حرقوص بن زهير السعدي[9].

وكان هؤلاء متفقين جميعا على الخروج ضد عثمان ، ومختلفين فيمن يخلفه ، فأما((أهل مصر فانهم كانوا يشتهون عليا ، وأما أهل البصرة فانهم كانوا يشتهون طلحة ، وأما أهل الكوفة فانهم كانوا يشتهون الزبير))[10].

١ـ انظر الطبري: تاريخ ج ٤ ص٣٥٨ ـ ٣٦٠

٢ـ البلاذري: انساب الاشراف ج ٥ ص٦٤

٣ـ انظر الطبري: تاريخ ج ٤ ص٣٦٢ ، ابن كثير: البداية والنهاية ج ٧ ص١٧٣

٤ـ انظر الطبري: تاريخ ج ٤ ص٣٦٢ ـ ٣٦٤

٥ـ ابن كثير: البداية والنهاية ج ٧ ص١٧٣

٦ـ انظر ابن أبي بكر: التمهيد والبيان ص١٠٢

٧ـ ابن الأثير: الكامل ج ٣ ص١٥٨

٨ـ الطبري: تاريخ ج ٤ ص٣٤٩

٩ـ انظر ابن أبي بكر: التمهيد والبيان ص١٠٣

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ورغم أن المدينة غدت في خطر أمام هؤلاء الطارئين فلم يكن أهلها على قلب رجل واحد بل كان منهم من يميل الى الثوار، وأهل الأحداث من أهل المدينة((أحرص الأمة على الشر))، وتجمعت الأحقاد والمساوئ في ساعة الخطر، فكان منهم من يقول ((شتم ـ عثمان ـ أعراضنا وضرب أبشارنا)).

يضاف الى ذلك الضغائن القبلية واليأس من تردد الخليفة في اجراءاته . ولكن كبار الصحابة لم يقبلوا دخول الثائرين مدينة النبي ؛ صلى الله عليه وسلم، فخرجوا للدفاع عنها .

وازاء ذلك لم يكن باستطاعة المنحرفين الخارجين دخول المدينة عنوة ، وقد أسعفهم زعماء الصحابة من الكلمات القاسية ما ثبط هممهم، فتظاهروا بالعودة الى بلادهم خدعة للمدافعين عن المدينة الذين سارعوا بالعودة اليها ، ((فلم يفجأ أهل المدينة الا والتكبير في نواحي المدينة ، فنزلوا في مواضع عساكرهم، وأحاطوا بعثمان ، وقالوا : من كف يده فهو آمن)).

وقد زعم الثائرون على عثمان أن انسحابهم لم يكن خدعة للمدافعين عن المدينة، بل أنهم عادوا لما وجدوا كتابا مع غلام لعثمان فيه أمر منه الى والي مصر بمعاقبة رؤوس الفتنة بقتل بعضهم وبحبس آخرين منهم . وقال المصريون : ((أخذنا مع بريد كتابا بقتلنا ... وقال الكوفيون والمصريون : فنحن ننصر اخواننا وننتصم جميعا)).

والكتاب المزعوم غير ثابت النسبة قطعا الى عثمان، فهو لم يكتب ولم يأمر ولم يعلم، ويبدو أن الكتاب مكيدة دبرها من ساءه أن تنتهي الأمور عند هذا الحد بعودة الناس الى أمصارهم، فرغب في اشعال نيران الفتنة من جديد ، فدبر اختراع كتاب على لسان عثمان وبخاتمه ، وحرض الغلام أن يتعرض للمصريين حتى يقع الكتاب بين أيديهم .

١ـ انظر الطبري : ج ٤ ص٣٦٧، ٣٦٩

٢ـ المرجع السابق ص٣٢٩

٣ـ ابن أبي بكر : التمهيد والبيان ص٩٢

٤ـ انظر ابن الأثير : الكامل ج ٣ ص١٥٩

٥ـ انظر ابن كثير : البداية والنهاية ج ٧ ص ١٧٤

٦ـ الطبري : تاريخ ج ٤ ص ٣٥٠ ـ ٣٥١

٧ـ انظر البلاذري : أنساب الأشراف ج ٥ ص٦٧

٨ـ الطبري : تاريخ ج ٤ ص ٣٥١

٩ـ انظر البلاذري : أنساب الأشراف ج ٥ ص٦٨

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ولم تكن أمور الادارة في تلك الأيام كما هي اليوم ، فسهولة التزوير واختلاق الكتب ووضع الرسائل باسماء الآخرين كانت من الأمور الممكنة، وقد ذكر ابن عبد ربه[1] مسألة اختلاق الكتب والرسائل وقال :((لما قدم القواد قالوا لعلي : قم معنا الى هذا الرجل . قال : لا والله لا أقوم معكم . قالوا : فلم كتبت الينا ؟ قال : والله ماكتبت اليكم كتابا قط. قال : فنظر القوم بعضهم الى بعض .... ـ وعندما استنكرت أم المؤمنين عائشة قتل الناس عثمان ـ قال مروان : فقلت لها : هذا عملك، كتبت الى الناس تأمرينهم بالخروج عليه ، فقالت : والذي آمن به المؤمنون وكفر به الكافرون، ماكتبت اليهم بسواد في بياض حتى جلست في مجلسي هذا . فكانوا يرون أنه كتب على لسان علي ، وعلى لسانها كما كتب أيضا على لسان عثمان مع الأسود الى عامل مصر . فكان اختلاق هذه الكتب كلها سببا للفتنة)).

وحين وقع الكتاب المزعوم بين أيدي المصريين ، عادوا الى المدينة دفاعا عن أنفسهم ودمائهم التي أضحت مباحة لو صحت نسبة الكتاب الى عثمان . الا أن عودة أهل الكوفة وأهل البصرة أيضا ، وقد ساروا مراحل ، ثم عادوا جميعا وكأنما كانوا على ميعاد مسبق[2] ، تلقي مزيدا من الضوء على المؤامرات التي كانت تحبك من وراء ستار بهدف الهدم والافساد في الارض.

وزاد في شدة وقع الكتاب على الناس أن أمره لم يكتشف حين ذاك، وظن البعض أن عثمان هو الآمر بكتابته ، فلما قيل له في ذلك أنكر أن يكون كتبه قائلا : ((والله لا كتبت ولا أمليت ولا دريت بشيء من ذلك ، والخاتم قد يزور على الخاتم))[3]. فقالوا :((ما أنت الا صادق أو كاذب ، فان كنت كاذبا فقد استحققت الخلع لما أمرت به من سفك دمائنا بغير حقها ، وان كنت صادقا فقد استحققت أن تخلع لضعفك وغفلتك وخبث بطانتك ، لانه لاينبغي لنا أن نترك على رقابنا من يقتطع مثل هذا الأمر دونه لضعفه وغفلته))[4].

وعلى الرغم مما أثير حول هذا الكتاب فقد نجح في تحقيق غرض الثائرين حين ولّد نقمة في نفوس أهل المدينة((فلم يبق أحد من أهل المدينة الا حنق على عثمان، وزاد ذلك من غضب ابن مسعود وأبي ذر وعمار وقام أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم الا الى منازلهم وما منهم من أحد الا مغتم))[5].

واذا كان الصحابة قد افتوا حين علموا بأمر الكتاب ، فان الرعاع من أهل الحجاز قد أخلفوا الطاعة، ونكثوا بيعة عثمان، وتخاذلوا في دفع المحاصرين عنه[6].

١ـ ابن عبد ربه : العقد الفريد ج ٥ ص ٤١ ـ ٤٢

٢ـ انظر الطبري : تاريخ ج ٤ ص ٣٥١

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وقد كان الحصار في بدايته يسيرا، واقتصر على احتلال المدينة والاحاطة بدار عثمان الذي كان حرا يخرج من داره كيف شاء، ((وعثمان يصلي بهم، وهم يصلون خلفه ، وهم أدق في عينيه من التراب))(١).

واثناء الحصار كان البعض يسعى بين الخليفة والطارئين على المدينة من أهل الأحداث للوصول الى حل يرضى به الجميع(٢)، وكثيرا ما وقف كبار الصحابة موقف الناصح لعثمان(٣) لازالة اسباب الشكوى، ولكن بطانة عثمان حالت دون تنفيذ تلك النصائح ، بل واتهمت أولئك الصحابة في التواطؤ على عثمان(٤)، فهدوا يائسين من تردد الخليفة ، ووصل الأمر ببعضهم الى مقاطعة عثمان(٥)، وغادر بعضهم المدينة ابان الحصار، ومنهم من اعتزل ولزم داره(٦)، وشدد الثائرون الحصار ومنعوا الناس من الاجتماعات فتفرق أهل المدينة في حيطانهم(٧).

وعرض الثوار على عثمان ثلاثة حلول لفك الحصار : الخلع أو القصاص أو القتل . وقال أحدهم، حين سأله عثمان عما يريد الناس منه ، قال : ((ثلاثا ليس من احداهن بد ، قال : ماهن ؟ قال نخيرك بين أن تخلع لهم أمرهم فتقول : هذا أمركم فاختاروا له من شئتم وبين أن تقص من نفسك ، فان أبيت هاتين فان القوم قاتلوك))(٨). وشاور الخليفة عبد الله بن عمر في أمر الخلع ، فقال : ((لا أرى أن تسن هذه السنة في الاسلام فكلما سخط قوم أميرهم خلعوه ، لا تخلع قميصا قمصك الله))(٩). فرفض عثمان مطالب الثائرين، أما هم فلم يكونوا على استعداد لقبول تسوية لا تحقق احدى مطالبهم التي اشترطوها ، فتأزم الموقف ، وأرسل بعض الصحابة أبناءهم للوقوف بباب عثمان، والدفاع عنه أمام الخطر المحدق، ومن هؤلاء الحسن والحسين وعبد الله بن الزبير(١٠)، ومحمد بن طلحة ، وعبد الله بن عباس(١١)، وغيرهم من أهل المدينة والناس . وهم قليل أمام المحاصرين .

١ـ ابن الاثير : الكامل ج ٣ ص ١٦٠
٢ـ انظر الطبري : تاريخ ج ٤ ص ٣٧٠
٣ـ انظر المرجع السابق ص ٣٥٨، ٣٦٢، ٤٠٦
٤ـ انظر البلاذري : أنساب الأشراف ج ٥ ص ٦٢ ـ ٦٦
٥ـ انظر ابن الاثير : الكامل ج ٣ ص ١٦٥ ـ ١٦٦، ١٧٣ ـ ١٧٤ ، المحب الطبري : الرياض النضرة ج ٣ ص ١٠٩
٦ـ انظر ابن كثير : البداية والنهاية ج ٧ ص ١٧٦
٧ـ انظر الطبري : تاريخ ج ٤ ص ٣٥٤
٨ـ المرجع السابق ص ٣٧١
٩ـ البلاذري : أنساب الأشراف ج ٥ ص ٧٦

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وتجدر هنا ملاحظة أنه لا يعقل أن يعجز أهل الحجاز لو رغبوا عن صد الثائرين وطردهم من المدينة ، ومنعهم بالتالي من تحقيق أمانيهم مع قلة عددهم ونفاذ مؤنتهم . ولعل هذا الموقف بالذات هو الذي حدا بعثمان الى رفض مبدأ القتال رفضا قاطعا ، وأمر أنصاره بالانصراف الى منازلهم ، ورغب في انهاء الأزمة سلميا دون اللجوء الى اراقة دماء (١) .

لم يرضخ عثمان لمطالب الثائرين ، فازداد الموقف سوءا ، وجاءت المبادرة بالشر من الثائرين أنفسهم ، فحصبوا عثمان وهو يخطب يوم الجمعة التي تلت نزولهم المدينة ، فصرع عن المنبر مغشيا عليه (٢) ، فاحتمل وأدخل داره .

ورغم هذه الاساءة الموجهة الى الدولة ممثلة في شخص الخليفة ، أصر عثمان على رفض القتال ، وحرص على تذكير محاصريه — أكثر من مرة — بسابق فضله وبلائه في الاسلام ، وأقوال النبي صلى الله عليه وسلم عنه ، وأشار الى حقه عليهم كخليفة ، وحذرهم الفتنة قائلا : ((..لا تقتلوني ... فوالله ان أردت الا الاصلاح ما استطعت ، أصبت أم أخطأت ، وانكم ان تقتلوني لا تصلوا جميعا أبدا ، ولا تغزوا جميعا أبدا ولا يقسم فيئكم ...)) (٣) ، فلم تجد الموعظة شيئا ، وأصر الثائرون على شروطهم وغلب عليهم الشر .

لم يكن أمام عثمان الا أن يتوجه الى الأمصار طالبا من أهلها العون والنصرة على الفئة الباغية التي ضيقت عليه الحصار ، وهكذا فعل ، اذ لم يكن تحت تصرفه جيش يحميه ويدافع عنه على غرار ما يشاهد اليوم حول ذوي الرياسة والنفوذ . وطلب عثمان النصرة من أهل الأمصار انما كان لواحد من أمرين أحدهما : اقتناع عثمان أن من معه في الدار لا يستطيعون صد المتمردين لقلة عددهم بالنسبة للثائرين الذين انضم اليهم المنحرفون من أهل المدينة ، وثابت اليهم العبيد والأعراب فقد واكالأحزاب يوم الأحزاب (٥) .

أما الأمر الثاني : فلعل عثمان انطلاقا من رفقه في السلم ، أراد أن يسمح الثوار بوصول النجدات اليه ، فيفكوا الحصار وينصرفوا الى بلادهم .

ولكنهم حين علموا بارسال عثمان الى أهل الأمصار يستمدهم وأنه ((كتب الى معاوية وابن عامر وأمراء الأجناد يستنجدهم ويأمرهم بالعجل وارسال الجنود اليه)) (٦) ، تأزم الموقف وشدد الثائرون الحصار على عثمان ثم

---

١ — انظر الطبري : تاريخ ج ٥ ص ٣٨٥ ، ٣٨٨ ، ٣٨٩

٢ — انظر ابن الأثير : الكامل ج ٣ ص ١٦١

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

منعوا الماء عنه[1]، ظنا منهم أنه سيخضع لارادتهم وشروطهم.

وأثناء الحصار حان موعد حج سنة خمس وثلاثين ((فأشرف عثمان على الناس فقال : ياعبد الله ابن عباس فدعي له . فقال : اذهب فأنت على الموسم، وكان ممن لزم الباب ، فقال : ياأمير المؤمنين ، لجهاد هؤلاء أحب الي من الحج، فاقسم عليه لينطلقن، فانطلق على الموسم تلك السنة))[2]، وحمل من عثمان كتابا مطولا الى الحجاج ، أعلمهم فيه بحاله من الخارجين عليه ، وطلب اليهم أن يكونوا أنصارا للحق والعدل، وقرأ ابن عباس الكتاب على الناس في الموسم.[3]

ولم تلبث الأمور أن تطورت بسرعة حين ((قدم ركبان من الوجوه فأخبروا خبر من قد تهيأ اليهم من الآفاق : حبيب — بن مسلمة الفهري — من الشام ، ومعاوية — بن حديج — من مصر، والقعقاع — بن عمرو — من الكوفة ، ومجاشع — بن مسعود — من البصرة))[4]. ثم علموا أن ((أهل الموسم يريدون قصدهم وأن يجمعوا ذلك الى حجهم))[5]. فرأ الثائرون الخطر الذي يتهددهم والمصير الذي ينتظرهم ، فقالوا : ((لايخرجنا مما وقعنا فيه الا قتل هذا الرجل فيشتغل بذلك الناس عنا ، ولم يبق خصلة يرجون بها النجاة الا قتله))[6].

لاشك أن الكثيرين من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم نظروا بكثير من القلق لتلك الحملات المنيفة التي تعرض لها عثمان . وشاركهم بعض الناس سواء في الحجاز أم في الأمصار في ذلك القلق . وفي ظروف الفتنة تلك لم يظهر أحد من أهل الحجاز ليتولى زمام المبادرة في تنظيم مقاومة فعالة تصد الثائرين عن المدينة ، وتفك الحصار المضروب حول الخليفة . ومما يلفت النظر كذلك ، تساهل عثمان أمام المنحرفين، وفي المقابل تشدده الصارم أمام رغبة أنصاره لقتال المتمردين.[7]

ويبدو أن أنصار عثمان المدافعين عن الدار كمروان بن الحكم وسعيد بن العاص والمغيرة بن الأخنس قد عصوا عثمان وخرجوا للمبارزة والقتال ، فحالفهم الفشل ((وكان الذي حداهم على للقتال

١ــ انظر البلاذري : أنساب الأشراف ج ٥ ص ٦٨ ــ ٦٩، ابن قتيبة : الامامة والسياسة ج ١ ص ٤٠

٢ــ ابن أبي بكر : التمهيد والبيان ص ١٢٤

٣ــ انظر نص كتاب عثمان في الطبري : تاريخ ج ٤ ص ٤٠٧ ــ ٤١١

٤ــ المرجع السابق ص ٣٨٥

٥ــ ابن الأثير : الكامل ج ٣ ص ١٧٤

٦ــ الطبري : تاريخ ج ٤ ص ٣٨٨

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أنه بلغهم أن مددا من أهل البصرة قد نزلوا صرارا ، وهي من المدينة على ليلة ، وأن أهل الشام قد توجهوا مقبلين))[1]، حتى إذا قدمت امدادات الأمصار ادركتهم وهم يقاتلون، فنشب القتال على باب دار عثمان[2]((واقتحم الناس الدار من الدور التي حولها ، دخلوا من دار عمرو بن حزم))، فطلب عثمان من المدافعين عن الدار أن يكفوا أيديهم وأن ينطلقوا الى منازلهم[3]، واستسلم للقضاء، وبقي في أناس من أهل بيته وأصحابه فقتلوا معه[4] ، حين دخلوا عليه وغلبوه ((فضربوه بالسلاح ، وبعجوا بطنه بالحراب، وفروا أوداجه بالمشاقص وشدخوا هامته بالمعد))[5]، ولم تسلم زوجته نائلة بنت الفرافصة من الأذى فقطعت أصابع يدها حين انكبت على زوجها لحمايته واتقت السيف بيديها[6] .

وكشف المنحرفون عن حقيقتهم، فانتهبوا ما وجدوه في دار عثمان حتى تناولوا ما على النساء، ((وتنادوا : أدركوا بيت المال ولا تسبقوا اليه . فسمع أصحاب بيت المال كلامهم، وليس فيه الا غرارتان، فقالوا : النجاء فان القوم انما يحاولون الدنيا فهربوا ، وأتوا بيت المال فانتهبوه وماج الناس))[7] . وأين هذا مما زعموا حين قالوا : ((انا والله لله نغضب، وفي الله نرضى))[8]. وكان محمد بن أبي بكر ممن دخل على عثمان ، فأخذ محمد بلحيته فقال : ((يا ابن أخي فما كان أبوك ليقبض عليها))[9]، فتركه . ولعل الفارق بين أخلاق محمد هذا ووالده أبي بكر الصديق ، يظهر ما أصاب المجتمع من تغير وتبدل .

وقد حاول البعض القاء ظلال من الشك والريبة على موقف عمال عثمان في نصرته وفك الحصار الذي ضرب عليه وطال أمده فكان أربعين يوما[10] ، وهي مدة كافية لوصول النجدات من الأمصار الى المدينة . واتهم البعض صراحة معاوية بن أبي سفيان بالتواطؤ المقصود تحقيقا لمنفعة شخصية[11] . ومثل هؤلاء انما يقيسون الأمور بالنتائج التي انجلت عنها أحداث الفتنة حين وصل معاوية فعلا الى منصب الخلافة .

١ــ الطبري : تاريخ ج ٤ ص ٣٨٢ وانظر عن موقف مروان بن الحكم الصفحات ٣٨٠، ٣٨١

٢ــ ابن أبي بكر : التمهيد والبيان ص١٣٥

٣ــ انظر ابن كثير : البداية والنهاية ج ٧ ص١٨١

٤ــ انظر الطبري : تاريخ ج ٤ ص٣٨٣

٥ــ الجاحظ : رسالة في بني أمية ص٩١ تصحيح محمود مرنوس مكتبة الأهرام . وانظر رسائل الجاحظ ج ٢ ص٥٧

٦ــ انظر الطبري : تاريخ ج ٤ ص ٣٩١

٧ــ ابن الاثير : الكامل ج ٣ ص ١٧٩

٨ــ الطبري : تاريخ ج ٤ ص ٣٦٩

٩ــ ابن الاثير : الكامل ج ٣ ص ١٧٨

١٠ــ انظر ابن كثير : البداية والنهاية ج ٧ ص ١٩٠

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

حقا ان عثمان قد أرسل الى ولاته وأهل الأمصار يستنجد بهم ، وجاءت الأخبار بمضي ثماني عشرة ليلة أن الأمصار هيأت النجدات لانقاذ الخليفة،[1] ولكن علينا أن نلاحظ أن أمور التعبئة العسكرية والادارة والمواصلات تختلف عما هي عليه اليوم . وبالتالي حين خرج أهل الأمصار على الصعبة والذلول،[2] وأحس الثائرون بذلك وضعوا خطة تجيبهم من الوضع الذي أوجدوه ، فكانت جريمة الاعتداء على حياة الخليفة الثالث.

أما موقف معاوية بن أبي سفيان بالذات فلو افترضنا أنه تناسى واجبه الرسمي تجاه الخليفة وتنفيذ أوامره ، لعدة أسباب . لصعب تصديق أن يتناسى معاوية قرابته القريبة لعثمان ، وعصبية الأمويين التي تربطهما ، ومصلحة معاوية الشخصية في بقاء الخلافة في أموي، خصوصا ونحن نتذكر أقواله لكبار الصحابة حين أوصاهم بعثمان ،[3] ومن ثم فقد بعث جيشا بقيادة حبيب بن مسلمة الفهري الى المدينة عاد الى الشام حين علم بمقتل عثمان،[4] وان كان ثمة لوم على معاوية في قضية مقتل عثمان فانما يكون لتأخره في امداد الخليفة ، وذلك أمر آخر لا يستوجب تلك الاتهامات.

ولم تقتصر النجدات على أهل الشام فحسب بل شاركت الأمصار الأخرى كالبصرة والكوفة ومصر[5] وسواها ،[6] في ارسال النجدات الى الخليفة . وقام أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم ممن كان بالأمصار بدور كبير في حض الناس وتشجيعهم على النهوض دفاعا عن عثمان ،[7] ولكن الامدادات لم تصل في الوقت المناسب، ومن ثم عادت الى بلادها حين علمت نبأ مقتل الخليفة المظلوم.[8]

واذا كان بعض أهل الحجاز قد خذلوا خليفتهم وتخلوا عنه في ساعة الشدة ، فان البعض الآخر حرص على الدفاع عنه والموت بجانبه لطرد الفئة الباغية عليه ، ولكنه منعهم من القتال اذ كان يحذر الفتنة واراقة الدماء، فسعى الى وضع حد لتلك الأزمة بالحسنى ، وطالما ذكر الخارجين عليه بفضله وسابقته الى الاسلام عسى أن تهديهم الموعظة سواء السبيل ، وحضهم على الطاعة ولزوم الجماعة ،

١ـ انظر الطبري: تاريخ ج ٤ ص ٣٨٥

٢ـ انظر ابن كثير: البداية والنهاية ج ٧ ص ١٨٠

٣ـ انظر الطبري: تاريخ ج ٤ ص ٣٤٤

٤ـ انظر ابن كثير: البداية والنهاية ج ٧ ص ١٨٠، ١٨٨

٥ـ ابن الاثير: الكامل ج ٣ ص ١٦٠

٦ـ انظر البلاذري: أنساب الاشراف ج ٥ ص ٨٧

٧ـ انظر الطبري: تاريخ ج ٤ ص ٣٥٢

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الا أن ذلك لم يخفف من غلوائهم وضربوا بنصحه عرض الحائط، فنظر ورأى((أن الصحابة في قلـــة عدد ، وأن الذين يريدون قتله كثير عددهم فلو أذن بالقتال لم يأمن أن يتلف من أصحاب النبـــي (١) صلى الله عليه وسلم بسببه كثير)) فاستسلم للقضاء .

ومهما كان الرأي في هذه الفتنة((فهي من بعض وجوهها مظهر لاحتجاج بعض أفراد الجماعة على الطريقة التي كانت أمورها تساس بها))(٢)، وبالتالي نجد بعض الصحابة وكذلك بعض الولاة (٣)، يرون مسايرة الناس وازالة أسباب الشكوى والتذمر واعادة الأمور الى نصابها ، ولم ير البعض الآخر مخالفة أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، وبذلك يظهر ضعف موقف أهل الحجاز نتيجة لاختلاف وجهات النظر بينهم، اذ لو كانوا متحدين في التفافهم حول عثمان وحثوا التراب في وجوه اولئك المنحرفيـــن لانصرفوا (٤)، ولكن عكس ذلك هو الذي حدث فاستبد المنحرفون بعثمان .

أما والي مكة خالد بن العاص بن هشام بن المغيرة المخزومي (٥)، فلم يجرؤ على ارسال نجـــدة لعثمان، ورأى أن لاطاقة له بمداواة المتمردين (٦)، اذ لم تكن لدى الوالي القوات الكافيـــة لانشغال المحاربين بالفتوح والثغور خارج الحجاز .

نتائج مقتل عثمـــــان : سادت الفوضى عاصمة الخلافة بعد مقتل عثمان بن عفان (٧)، ودق اسفينـــ الانقسام والاختلاف بين الناس. وكان مقتل عثمان نقطة تحول هامة في تاريخ الحجاز السياسي . فقبل ذلك الحادث المؤسف كانت تمارس السيادة والنفوذ والتوجيه ، لايدانيها أي أقليم آخر من أقاليـــم الدولة في هذه المميزات وما يترتب عليها من نتائج . أما وقد جاءت فئات من الأمصار وتمكنت مـــن فرض سيطرتها ونفوذها في العاصمة على مرأى ومسمع أهل الحجاز فقد اختلف الأمر تماما . وكانت أول مرة في تاريخ الحجاز تفرض فيها الأمصار سيطرتها وتسلطها في أمور لم تكن تستشار فيها أصلا .

وقد علق أحد المستشرقين (٨) على تلك الأحداث قائلا : ((... كانت النتيجة الأولى لمقتل عثمان أن الخلافة القديمة قد انتهت في مدينة الرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ وأن الخلافة الجديدة جعلت

١ــ ابن أبي بكر : التمهيد والبيان ص١٩٤

٢ــ حسين مؤنس: عالم الاسلام ص٣٨ دار المعارف ١٩٧٣

٣ــ انظر الطبري: تاريخ ج ٤ ص ٣٣٣ ــ ٣٣٤، ٤٠٦

٤ــ انظر البلاذري: أنساب الاشراف ج ٥ ص ٩٧

٥ــ انظر خليفة بن خياط : تاريخ ق ١ ص ١٩٤ تحقيق سهيل زكار دمشق ١٩٦٧

٦ــ انظر الطبري : تاريخ ج ٤ ص ٤٠٦

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

مقرها بعيدا عن المدينة ... وكان أهل المدينة أنفسهم قد خطوا الخطوة الحاسمة في ذلك ـ لأنهم سمحوا لأهل الأمصار بالدخول ـ الى مدينتهم وخلوا بينهم وبينها ، يفعلون فيها مايشاؤون، وبذلك تنازل أهل المدينة عن سيادتهم التي كانت شاملة)).

ونشأ عن هذا الاضطراب الذي أصاب المجتمع أن بدأت الأمصار تشعر بأهميتها السياسية والاقتصادية اذ ((صار الملك بالسيف، فمن غلب على شيء أكله)) (١) وترتب على ذلك فيما بعد أن انتقلت الخلافة الى الأمصار حيث الأموال والرجال أكثر مما في الحجاز (٢).

وكان مقتل عثمان حادثة مشئومة على أهل الحجاز عامة وقريش خاصة (٣)، هؤلاء الذين كانوا يحتلون مرتبة عالية في أمور الدين والسياسة وأثبتوا ذلك وأكدوه في الحروب التي وقعت في صدر الاسلام، وكانوا وحدة متحدة متماسكة مرهوبة الجانب من القبائل الأخرى، ولكن قريشا انقسمت بعدئذ على نفسها وانكسر الباب الوثيق الذي كان بينها وبين العرب (٤). ومن الطبيعي أن يؤثر ذلك على هيبة السلطان الذي بقي في قريش اذ لم تكن القبائل الأخرى تمتلك من أسباب الرياسة والنفوذ مايشبع طموحها نحو الخلافة ، وبالتالي انقسمت حول شخصيات قرشية، ففئة منهم ترغب في شخص علي بن أبي طالب وأخرى في طلحة بن عبيد الله وثالثة تريد الزبير بن العوام، وظهر ذلك بوضوح حين جاء المنحرفون على عثمان الى المدينة (٥).

ان مقتل عثمان لم يكن حصيلة سبب واحد ، بل كان نتيجة عدة عوامل لعبت فيه كل الأمور التي تناولناها دورا ظاهرا، ومن المؤكد أنه حادث عام في مجريات التاريخ الاسلامي ((فمنذ ذلك الحين صار للسيف القول الفصل في أمر رئاسة الحكومة ... وفتح باب الفتنة ولم ينسد بعد ذلك أبدا انسدادا تاما)) (٦). وكان سعيد بن المسيب ((يسمي العام الذي قتل فيه عثمان عام الحزن)) (٧) اذ قتل الخليفة، رأس الجماعة الاسلامية والمسؤول عن حفظ النظام واقامة الحدود ورعاية أمور الدولة دينيا وسياسيا وعسكريا دون أن يقترف ذنبا يستدعي قتله (٨). فكان هذا الحادث قد أضعف مركز الخلافة بشدة.

١ـ ابن عبد ربه : العقد الفريد ج ٥ ص٤٧

٢ـ انظر ابن قتيبة : الامامة والسياسة ج ١ ص ٥١

٣ـ انظر Saunders: A History of Medieval Islam, Page 62.

٤ـ انظر الطبري : تاريخ ج ٤ ص ٣٥٧

٥ـ انظر ابن خلدون : العبر ج ٢ ق ٢ ص ١٤٥

٦ـ فلهوزن : تاريخ الدولة العربية ص ٥٠

٧ـ البلاذري : أنساب الاشراف ج ٥ ص ٩٦ ـ ٩٧

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

كذلك كان هذا الحادث بداية ظاهرة لانشقاق الجماعة الاسلامية، وتفرقها الى أحزاب يحاول كل حزب منها فرض سلطانه السياسي بقوة السيف ، وكان الأمر في غاية الحرج على أهل الورع والتقوى، فهم اما أن يتراجعوا عن الحق الذى يدافعون عنه بالقول والفعل ، أو أن ينضموا الى فريق من المتصارعين على السلطة ، فيشاركون في قتال يريق فيه المسلمون دماء بعضهم بعضا ، وفي كلا الأمرين مخالفة لما أمر به الاسلام(١). ولعل في قول حذيفة بن اليمان مايصور بوضوح عن ظاهرة الانشقاق الذي اصيبت به الجماعة حين قال :((فتق في الاسلام فتق لايرتقه جهل))(٢)، وظهرت على المسرح السياسي شيعتان ، شيعة لعثمان وشيعة لعلي بن أبي طالب(٣).

كانت نقطة البدء اذن في الصراع السياسي ، الذى طبع تاريخ العرب بطابعه فترة طويلة تكمن في الفتنة التى أودت بحياة الخليفة الثالث حين قسمت الأحداث الناس الى شيع وأحزاب سياسية، وتحول الصفاء الى دماء تراق، خصوصا حين ألبست هذه المسألة ثوب الدين وحاول كل فريق الوصول الى غايته بما يشبه أو مايختلقه من الأحاديث مما سنعرض له في الباب الثاني .

هذا وقد اشتبه الأمر على الناس فمنهم من خاض غمار الفتن ، ومنهم من التزم جانب الحياد، حين رأوا : ((فتنة صماء النائم فيها خير من اليقظان، واليقظان خير من القاعد والقاعد خير من القائم))(٤). أما الأمويون فكانت خلافة عثمان في بدايتها مكسبا أدبيا ومعنويا لهم، وفي نهايتها ورقة رابحة في أيديهم، مهدت لهم سبيل الوصول الى الخلافة تحت ستار الطلب بدم عثمان . ومن ناحية أخرى كان هذا الحادث بداية لتطورات شتى في حياة أهل الحجاز السياسية والاجتماعية والتي ستتجلى في الفصول القادمة.

ولنا نحن أن في تلك الأحداث عبرة لمن يعتبر ((... والاستفادة مما كان، فالعاقل همه أن يتعلم ويفهم أن لا يحقد على قوم لم تهق منهم باقية))(٥).

١ـ انظر فلهوزن : تاريخ الدولة العربية ص ٥٠ ـ ٥١

٢ـ ابن سعد : الطبقات الكبرى ج ٣ ص ٨٠

٣ـ انظر الجاحظ: العثمانية ص ٣ ، ٧، ١٣، ١٩، ٧٤، ٢٠٤

٤ـ ابن الأثير : الكامل ج ٣ ص ٢٢٧

٥ـ الخضري : محاضرات تاريخ الأمم الاسلامية ج ٢ ص ٤٦

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

٢- الحروب الأهلية في خلافة علي بن أبي طالب

بيعة علي بن أبي طالب بالخلافة

وقعة الجمل

وقعة صفين

التحكيم والخوارج

اضطراب الأحوال في دولة علي ونهايته

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

بيعة علي بالخلافة :

برزت مشكلة الخلافة من جديد بعد مقتل عثمان بن عفان، في ظل ظروف تختلف عن مثيلاتها حين بويع الخلفاء الثلاثة الأول، أبو بكر وعمر وعثمان، فكانت السيادة في عاصمة الدولة للثائرين((وبقيت المدينة بعد قتل عثمان خمسة أيام وأميرها الغافقي بن حرب))(١) كما أعقبت الهياج والاضطراب حركة نكوص وتراجع فندم الثائرون على ما اقترفت أيديهم(٢)، وأدركوا الخطر الذي ينتظرهم، وضل سعيهم فماذا يفعلون وقد أمسى المسلمون ولا امام لهم ؟.

ولم يكن في مقدور أحد من المنحرفين أن ينهض بامامة المسلمين فيتولى الخلافة، ذلك أن ((أمر الخلافة انما هو الى المهاجرين والأنصار يبايعون بها من يختارون من قريش))(٣) فتطلع الناس الى رجل قرشي يبايعونه بالخلافة، فتوجهت الأنظار الى كبار الصحابة وبقية الشورى كعلي بن أبي طالب، والزبير بن العوام، وطلحة بن عبيد الله . أما سعد بن أبي وقاص وعبد الله بن عمر فقد اعتزلا وخرجا من الأمر(٤). واختلفت آراء الثائرين حول هؤلاء الثلاثة ((فكان هوى المصريين مع علي ، وهوى الكوفيين مع الزبير، وهوى البصريين مع طلحة))(٥). وكل فريق منهم يختلف الى صاحبه فيعرض عليه الخلافة فيمتنعون ويأبون(٦)، اذ أنكروا على القتلة فعلتهم وتوعدوهم(٧).

أدرك الثائرون أنهم لم يستطيعوا وحدهم أن يقيموا للناس خليفة ، ولا بد أن يعينهم المهاجرون والأنصار اذن، فتوجهوا اليهم قائلين :((ياأهل المدينة أنتم أهل الشورى ، وأنتم تعقدون الامامة، وحكمكم جائز على الأمة، فانظروا رجلا تنصبونه ونحن لكم تبع))(٨). ثم أنهم رغبوا في تنصيب خليفة بأسرع ما يمكن وفي سبيل ذلك توعدوا أهل المدينة وأنذروهم قائلين : ((دونكم ياأهل المدينة ، فقد أجلناكم يومين، فوالله لئن لم تفرغوا لنقتلن غدا عليا وطلحة والزبير وأناسا كثيرا))(٩).

١ـ الطبري : تاريخ ج ٤ ص٤٣٢

٢ـ انظر ابن كثير : البداية والنهاية ج ٧ ص١٨٩

٣ـ طه حسين : علي وبنوه ص٨ دار المعارف ١٩٦٤

٤ـ انظر الطبري : تاريخ ج ٤ ص٤٣٢

٥ـ ابو الفداء : المختصر في أخبار البشر ج ١ ص١٦٩

٦ـ انظر ابن خلدون : العبر ج ٢ . ق٢ ص١٥١

٧ـ انظر الطبري : تاريخ ج ٤ ص٤٣٣

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

والناظر في أحداث وظروف تلك الحقبة يرى أن النفوذ أصبح بعد مقتل عثمان، وخروج كثير من الأمويين من المدينة،(١) أصبح للأنصار ولبني هاشم ولرجال القبائل الذين وطئوا المدينة . أمـــا الأنصار وبنو هاشم فقد أيدوا عليا ورغبوا في وصوله الى الخلافة، كما اعتادت القبائل أن ترى الخليفـة من قريش ولم يكن في قريش حينذاك من يتمتع بنفوذ علي بن أبي طالب وبمنزلته السامية لسابقته ومصاهرته وعلمه وفضله .(٢) فاتجهت الأنظار اليه ، واقبل الناس يلحون عليه ومازالوا به حتى غلبوه وبايعوه .

وقد اختلفت الروايات في بيعة علي بن أبي طالب ، فبعض الرواة يذكر أن البيعة تمت اثـــر مقتل عثمان مباشرة،(٣) والبعض الآخر منهم يذكر أن المدينة بقيت خمسة أيام وليس فيها خليفة، ويتولـــى الثائرون تدبير الأمور فيها،(٤) والرواية الثانية أقرب الى الواقع الملائم لطبيعة أحداث الفتنة والصدمة التـي أصابت الناس اثر مقتل عثمان .

وكذلك اختلف الرواة في موقف كبار الصحابة من بيعة علي، وقد ذكر الطبري روايتين حول ذلك الموقف جاء في أولاهما أن عليا خرج الى السوق فاتبعه الناس فدخل حائط بني عمرو بن مبـــذول وأغلق الباب((فجاء الناس فقرعوا الباب فدخلوا ، فيهم طلحة والزبير ، فقالا : ياعلي ابسط يدك . فبايعه طلحة والزبير . . . . . وخرج علي الى المسجد فصعد المنبر . . . فبايعه الناس . وجاءوا بسعد ، فقال علي : بايع . قال : لا أبايع حتى يبايع الناس ، والله ماعليك مني بأس ، قال : خلوا سبيله . وجاءوا بابـــن عمر ، فقال : بايع . قال : لا أبايع حتى يبايع الناس . قال : ائتني بحميل ، قال لا أرى حميلا . قال الأشتر : خل عني أضرب عنقه . قال علي : دعوه ، أنا حميله))(٥) . والمهم في هذه الرواية أن طلحة والزبير بايعـــا طائعين غير مكرهين مع الناس ، كما تبدو ظاهرة الخلاف حين رفض سعد بن أبي وقاص وعبد الله بن عمر البيعة قائلين : حتى يبايع الناس . مما يعني أن بعض الناس لم يبايعوا عليا بعد .

١ــ انظر ابن قتيبة : الامامة والسياسة ج ١ ص٤٧

٢ــ انظر ابن الأثير : الكامل ج ٣ ص١٩٠ ــ ١٩١ ، ابن خلدون : العبر ج ٢ ق٢ ص١٥٠
الدوري : مقدمة في تاريخ صدر الاسلام ص٥٧

٣ــ انظر الطبري : تاريخ ج ٤ ص٤٢٧، ابن قتيبة : الامامة والسياسة ج ١ ص٤٧

٤ــ انظر الطبري : تاريخ ج ٤ ص٤٣٢ ، ابن الأثير : الكامل ج ٣ ص١٩٢

٥ــ الطبري : تاريخ الرسل والملوك ج ٤ ص٤٢٨

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أما الرواية الثانية فتتلخص في أن الناس ألحوا على علي خشية الفرقة والفساد وبايعوه ثم جمعوا أهل المدينة للبيعة ((فلما كان يوم الخميس على رأس خمسة أيام من مقتل عثمان ... جمعوا أهل المدينة فوجدوا سعدا والزبير خارجين ، ووجدوا طلحة في حائطه ، ووجدوا بني أمية قد هربوا الا من لم يطق الهرب .... فبعث البصريون الى الزبير حكيم بن جبلة العبدي في نفر ، فجاءوا به يحدونه بالسيف . والى طلحة .. الأشتر في نفر فجاءوا به يحدونه بالسيف . وأهل الكوفة وأهل البصرة شامتون بصاحبهم ، وأهل مصر فرحون بما اجتمع عليه أهل المدينة ، وقد خشع أهل الكوفة وأهل البصرة أن صاروا أتباعا لأهل مصر وحشوة فيهم ، وازدادوا بذلك على طلحة والزبير غيظا))(١) . وتضيف الرواية أن طلحة والزبير بايعا مكرهين ، وانهما صرحا بذلك . ويبدو أن الرواية الثانية أقرب الى الواقع من الرواية الأولى ، فمعظم رجال الشورى أرادوا ممارسة حقهم في الانتخاب ، ذلك الحق الذي مارسوه في انتخاب عثمان ، بعيدا عن الضغط . ولكن المتتبع يجد أن معظم الناس يميلون الى انتخاب علي ابن أبي طالب ، ثم أنهم كانوا يرغبون في الخلاص من هذا الأمر بسرعة ، فاجبروا طلحة والزبير بالذات على البيعة . وقالوا : ((ان دخل طلحة والزبير فقد استقامت))(٢) ، وبالتالي أمكن القول أن بيعة علي تمت بالأغلبية وليس بالاجماع ، وتخلف عن البيعة بعض الأمويين ونفير يسير من الأنصار كانوا عثمانية(٣)(٤) .

ولي علي الخلافة في فترة من أصعب الفترات من انقسام الناس على أنفسهم وعدم اجتماع كلمتهم ، الى جرأة أهل الأمصار ودخول بعضهم المدينة عنوة ، واشتعال نيران الفتنة في العاصمة نفسها ، وألقيت كل المشكلات على عاتق الخليفة الجديد ، فكانت خلافته حافلة بالقلاقل من بدايتها(٥) .

وقد أعلن علي بن أبي طالب عن سياسته في أول خطبة خطبها ، فقال بعد أن حمد الله وأثنى عليه : ((ان الله أنزل كتابا هاديا يبين الخير والشر ، فخذوا بالخير ودعوا الشر ، الفرائض الفرائض أدوها الى الله تعالى يؤدكم الى الجنة . ان الله حرم حرمات غير مجهولة وفضل حرمة المسلم على الحرم كلها ، وشد بالاخلاص والتوحيد حقوق المسلمين ، فالمسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده الا بالحق لا يحل

١ــ الطبري : تاريخ ج ٤ ص ٤٣٣ ــ ٤٣٥

٢ــ الطبري : تاريخ ج ٤ ص ٤٣٤

٣ــ انظر اليعقوبي : تاريخ ج ٢ ص ١٧٨

٤ــ انظر ابن الاثير : الكامل ج ٣ ص ١٩١

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

دم امرئ مسلم الا بما يجب. بادروا أمر العامة، وخاصة أحدكم الموت فان الناس أمامكم وان ما من خلفكم الساعة تحدوكم. تخففوا تلحقوا، فانما ينتظر الناس اخراهم ، اتقوا الله عباد الله في بلاده وعباده . انكم مسؤولون حتى عن البقاع والمهائم، أطيعوا الله فلا تعصوه واذا رأيتم الخير فخذوا به ، واذا رأيتم الشر فدعوه ـ واذكروا اذ أنتم قليل مستضعفون في الارض ـ))(١). (٢) ولا تخفى اشارات علي الى قتلة عثمان، كما يبدو بوضوح أكثر المنهج الاسلامي الذي اعتزم السير عليه ، فكان اختيار علي للخلافة يعني الرجوع بالناس الى منهج عمر بن الخطاب في الحكم، ذلك المنهج الذي وصف بالصلابة والحزم، فاستأنف علي ((سيرة عمر بن الخطاب من حيث انقطعت ومضى بهم في طريقه من حيث وقف))(٣)، ومن الطبيعي ألا يرضى ذلك اولئك الذين استفادوا من لين عثمان وحلمه وعدم تشدده .

ان الأحداث التي وقعت على أرض الحجاز وعلى مرأى من أهلها ، كانت تطرح أكثر من تساؤل في وجه خلافة علي ، وكانت الاجابات تثير الاشفاق والاضطراب في النفوس، ليس لأن عليا أثار في نفوسهم شيئا من ذلك، بل لأن التجربة التي مرت كانت مريرة وقاسية، فكان مما أقض مضاجع أهل الحجاز أن القوة الحقيقية وأصحاب الحول والطول في دار الخلافة هم الثائرون على عثمان، رغم أن خلافة علي تمت شرعا ، وأصبح بمقتضى مراسيم البيعة أميرا للمؤمنين في الأمر والنهي . وأدرك علي حقيقة الواقع وعبر عنها قائلا : ((كيف أصنع بقوم يملكوننا ولا نملكهم ؟ هاهم هؤلاء قد ثارت معهم عبيدكم وثابت اليهم أعرابكم، وهم خلالكم يسومونكم ما شاؤوا))(٤). وانضاف لذلك أن بعض المهاجرين والأنصار آثروا العزلة وأقاموا ينتظرون ، ولا بد أن ذلك الاعتزال قد أثر في نفوس الناس خاصة المحيطين بهم .

كانت القضية الأولى التي نظر فيها علي بعد مبايعته هي قضية اقامة الحدود على الذين اشتركوا في دم عثمان، وذكر البعض(٥) أن عليا حقق في مقتل عثمان وسأل زوجة عثمان(٦) فقالت: ((دخل عليه رجال لا أعرفهم الا أن أرى وجوههم، وكان معهم محمد بن أبي بكر)). فدعاه علي وشهدت امرأة عثمان أن محمدا لم يباشر القتل .

١ـ سورة الانفال : من الآية ٢٦

٢ـ ابن الاثير : الكامل ج ٣ ص ١٩٤ ـ ١٩٥

٣ـ طه حسين : علي وبنوه ص ١٢

٤ـ الطبري : تاريخ ج ٤ ص ٤٣٧

٥ـ انظر ابن كثير : البداية والنهاية ج ٧ ص ٢٢٨ ـ ٢٢٩

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ويظهر أن هذه الرواية لا تمثل الحقيقة لجملة الظروف التي ذكرناها والتي أعقبت مقتل عثمان، يؤيد ذلك أن طلحة والزبير دخلا على علي في عدد من الصحابة فقالوا: ((ياعلي انا قد اشترطنا اقامة الحدود ، وان هؤلاء القوم قد اشتركوا في قتل هذا الرجل، وأحلوا بانفسهم))(١). فجعل علي يبين لهم الأوضاع في المدينة وسيطرة الثائرين عليها وكيف ازدادوا كثرة باشتراك الأعراب والعبيد معهم وأضاف: ((... فهل ترون موضعا لقدرة على شيء مما تريدون ؟ قالوا : لا . قال : فلا والله لا أرى الا رأيا ترونه ان شاء الله ، ان هذا الأمر أمر جاهلية ، وان لهؤلاء القوم مادة، وذلك أن الشيطان لم يشرع شريعة قط فيبرح الأرض من أخذ بها أبدا . ان الناس من هذا الأمر ان حرك على أمور : فرقة ترى ماترون، وفرقة ترى مالا ترون، وفرقة لا ترى هذا ولا هذا حتى يهدأ الناس وتقع القلوب مواقعها وتؤخذ الحقوق ، فاهدؤا عني وانظروا ماذا يأتيكم ، ثم عودوا))(٢). فعلي كان يرى التريث في هذه المسألة بالذات اذ النفوذ والسيطرة في المدينة ما تزال للثائرين ، وأن لهم مددا وأعوانا(٣)، ونجح في اقناع محدثيه بالتريث حتى تعود الأوضاع الى وضعها الطبيعي . ويقينا أن عليا لو ساعدته الظروف لاستطاع أن ((يحملهم على طريق الحق))(٤). كما وصفه الفاروق ، ولن تأخذه في ذلك لومة لائم(٥)، لا سيما وأن موقفه من قتل عبيد الله بن عمر الهرمزان ورأيه أن يقتل بمن قتل ، يلقي مزيدا من الضوء على حرصه في اتباع الحق واقامة الحدود .

وتجدر ملاحظة اشارة علي الى الاختلاف بين الناس بشأن قتلة عثمان وأنقسامهم الى : فرقة اعتزلت الناس ولم تدخل فيما دخلوا فيه ، وتركت اختلافهم الى الله ان شاء غفر وان شاء عذب ، وفرقة رأت أن الخليفة قتل مظلوما وأن لا بد من قصاص الثائرين القتلة ، وقالوا ((نقضي الذي علينا ولا نؤخره))(٦)، ومن هؤلاء بعض المهاجرين والأنصار ومنهم من حدث عليا في الأمر فاقنعهم بالتريث. وفرقة ثالثة تمثلت بالثائرين وأنصارهم ومنهم قتلة عثمان يرون أنه قتل ظالما لا ثأر له ولا قصاص على قتله ، وكانوا على استعداد لمخالفة أوامر علي والوقوف في وجهه(٧).

١ـ ابن الأثير : الكامل ج ٣ ص ١٩٥

٢ـ الطبري : تاريخ ج ٤ ص ٤٣٧

٣ـ انظر ابن كثير : البداية والنهاية ج ٧ ص ٢٢٨

٤ـ الطبري : تاريخ ج ٤ ص ٢٢٩

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وكما أشرت آنفا كانت خلافة علي عودا بالناس الى سيرة عمر بن الخطاب، اذ كان علي شديد الاعجاب بتلك السيرة ، وروى أنه قال :((ان عمر كان رشيد الأمر، ولن أغير شيئا صنعه عمر))(١)، وبالتالي لم يوسع على الناس في العطاء، ولم يمنحهم النوافل من المال ، ولم ير أن ذلك لـــه ، واعتبر نفسه كأحد المسلمين وقال :((انه ليس لي دونكم الا مفاتيح مالكم معي وليس لي أن آخذ درهما دونكم ..))(٢)، ومن هذا المنطلق استرد القطائع التي كان عثمان قد اقطعها صلة لرحمه وللناس، وقال :((والله لو وجدته قد تزوج به النساء، وملك به الاماء لرددته ، فان في العدل سعة، ومن ضاق عليه العدل، فالجور عليه أضيق))(٣)، وكانت نتيجة ذلك سخط الذين استفادوا في العهد السابق(٤)، لاسيما وقد عزل عمال عثمان ورفض أن يولي منهم أحدا .

ان معرفة علي بعمال عثمان، وقد كان يلوم عثمان على توليتهم وينكر سياستهم(٥)، واقتناعه بعدم صلاحيتهم للولاية في تلك الظروف، ورغبته في اقرار النظام في أمصار الدولة وازالة أسباب الشكـــوى ، كل هذه الأمور أملت عليه اتخاذ قرار عزلهم في ظروف كانت جد حرجة ، خاصة وأن هؤلاء العمـــال تربطهم بالخليفة المقتول رابطة القرابة الأموية، وهم في مراكز عليا ذات مكاسب مادية ومعنوية(٦)، وبالتالي لن يمر هذا القرار في يســـر ولين .

ولم يكن المقربون الى علي أنفسهم مقتنعين بهذا العزل، فابن عباس يعلل عدم اقتناعه قائلا للخليفة :((... لانك تعلم أن معاوية وأصحابه أهل دنيا ، فمتى تثبتهم لا يبالوا بمن ولي هذا الأمر ومتى تعزلهم يقولوا : أخذ هذا الأمر بغير شورى، وهو قتل صاحبنا ، ويؤلبون عليك فينتقض عليـــك أهل الشام وأهل العراق، مع أني لا آمن طلحة والزبير أن يكرا عليك))(٧)، ونصح عليا بالتالي أن يولي طلحة الكوفة، وأن يولي الزبير البصرة، ولكن أمير المؤمنين رفض قائلا :((ويحك ان العراقين بهما الرجال والأموال ومتى تملكا رقاب الناس يستميلا السفيه بالطمع، ويضربا الضعيف بالبلاء، ويقويا علـــى

١ــ يحيى بن آدم : كتاب الخراج ص ٢٣ تحقيق احمد محمد شاكر ، المطبعة السلفيه ١٣٨٤ هـ

٢ــ ابن الأثير : الكامل ج ٣ ص ١٩٣ ــ ١٩٤

٣ــ ابن أبي الحديد : شرح نهج البلاغة ج ١ ص ٢٢٠، مكتبة الحياة بيروت ١٩٦٣

٤ــ انظر سيد أمير علي : مختصر تاريخ العرب ص ٤٤

٥ــ انظر ابن الاثير : الكامل ج ٣ ص ١٥٢

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

القوي بالسلطان))[١]. ورفض علي كذلك نصائح أخرى تتلخص باقرار عمال عثمان الى أن تهدأ الأمور وتتم مبايعة الأمصار[٢].

اختار علي ولاة للأمصار من أحسن الناس سيرة، فارسل الى البصرة عثمان بن حنيف، والى الكوفة عمارة بن شهاب، والى مصر قيس بن سعد بن عبادة والى الشام سهل بن حنيف، وعبيد الله ابن عباس الى اليمن، ومن هؤلاء الولاة ثلاثة من الأمصار عينوا على البصرة ومصر والشام، ترضية[٣] للانصار واشراكا لهم في الحكم[٤].

وقبل أن نمضي مع الولاة الى ولاياتهم لا بد من وقفة عند خطوة علي بعزل ولاة عثمان، تلك الخطوة التي اعتبرت بعيدة عن الدهاء السياسي[٥]، في مثل تلك الظروف، وأن عليا كانت تعوزه الحنكة السياسية التي هي أميز صفات الحاكم. ويبدو أن هذا الرأي لا يتفق مع الظروف التي كانت سائدة حينذاك، ولم يكن أمام علي الا عزلهم حين نظر في هذا الأمر بمنظار المسلم الورع الذي لا يداهن في دينه، فرأى أن اقرار النظام في الأمصار يقتضي العزل ففعل.

سار عمال علي الى ولاياتهم، فاتجه عثمان بن حنيف الى البصرة((فلم يردّه أحد عن دخولها، ولم يوجد في ذلك لابن عامر رأي ولا حزم ولا استقلال بحرب))[٦]، أما عبيد الله بن عباس((فانطلق الى اليمن، فجمع يعلى بن منية كل شيء من الجباية وخرج به الى مكة فقدمها بالمال ودخل عبيد الله اليمن))[٧]، ومضى قيس بن سعد الى مصر، فاعتزلت عنه فرقة كانوا عثمانية وأبوا أن يدخلوا في طاعة علي الا أن يقتل قاتل عثمان واعتزلت الى خربتا[٨]، ورضي أهل الكوفة بأبي موسى الاشعري أميرا عليهم فبعث الى الخليفة بالمدينة ((بطاعة أهل الكوفة وبيعتهم، وبين الكاره منهم للذي كان والراضي بالذي كان ومن بين ذلك حتى كأن عليا على المواجهة من أمر أهل الكوفة))[٩]. وهكذا أذعنت كل الاقاليم لخلافة

١ــ ابن قتيبة: الامامة والسياسة ج ١ ص ٥١

٢ــ انظر أبو الفداء: المختصر في أخبار البشر ج ١ ص ١٧٢

٣ــ انظر الدينوري: الاخبار الطوال ص ١٤١ تحقيق عبد المنعم عامر، مكتبة عيسى البابي الحلبي ١٩٦٠

٤ــ انظر أبو الفداء: المختصر في أخبار البشر ج ١ ص ١٧٢

٥ــ انظر Nicholson: A Literary History of the Arabs, Page 191. and Saunders: A History of Medieval Islam, Page 64.

٦ــ الطبري: تاريخ ج ٤ ص ٤٤٢

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

علي بن أبي طالب عدا الشام التي ردت قوة من أهلها سهل بن حنيف من تبوك،(١) فعاد أدراجه الى المدينة.

ويظهر أن الخليفة قد أدرك الاخطار التي كانت تنتظره ، وأن أمر الشام لن يستقر الا بالسيف، وأتته الأخبار فدعا طلحة والزبير فقال :((... ان الأمر الذي كنت أحذركم قد وقع وان الذي قد وقع لايدرك الا بامانة ، وانها فتنة كالنار كلما سعرت ازدادت واستعارت))(٢). ومع هذا الادراك فلم يعجل وكتب الى معاوية أن يأخذ البيعة من الناس((وكان رسول أمير المؤمنين الى معاوية سهرة الجهني ، فقدم عليه فلم يكتب معاوية بشيء ورد رسوله))(٣). وآثر التربص والكيد ، حتى كان الشهر الثالث من مقتل عثمان دعا قميصة العبسي ودفع اليه طومارا مختوما عنوانه ((من معاوية الى علي)) وأمره اذا دخل المدينة أن يقبض على الطومار من أسفله وأن يرفعه للناس ثم أوصاه بمايقول ، فلما وصل العبسي المدينة نفذ ما أمر به ، فتهمه الناس ينظرون اليه وقد علموا أن معاوية معترض ومضى مبعوث معاوية فدخل على علي ودفع اليه الطومار الذي لم يكن به كتاب(٤).

نجح معاوية بن أبي سفيان في الاعلان عن معارضته ، ونجح أيضا في استثارة أهل الشام معه حين نصب لهم قميص عثمان على منبر دمشق. وكان النعمان بن بشير الأنصاري قد حمله من المدينة اليه ملطخا بالدم، فاجتمع حوله شيوخ أهل الشام يبكون ويطالبون بالقود من علي نفسه . وحين أبلغ مبعوث معاوية عليا بذلك ثارت السبئية وأرادوا قتله ، فحمته النعرة العصبية العضرية من الموت(٥).

وهكذا ظهر اختلاف الكلمة بوضوح ، ولم يقتصر موقف معاوية على رفض البيعة فحسب ، بل وأتهم عليا بدم عثمان اتهاما باطلا لا أساس له من الصحة(٦). فرأى علي في الحرب حلا حاسما للموقف، ورفض نصيحة بعض اتباعه الذي أشار عليه بالأناة والرفق(٧). وأخذ يستعد للقتال وأمر الناس بالتهيؤ والتجهز والنهوض لحرب أهل الفرقة ((وكتب الى قيس بن سعد أن يندب الناس الى الشأم، والى عثمان بن حنيف والى أبي موسى مثل ذلك))(٨)، وأراد أن يحاصر الشام من ثلاث جبهات .

١ـ انظر أبو الفداء : المختصر في أخبار البشر ج ١ ص ١٧٢

٢ـ ابن الأثير : الكامل ج ٣ ص ٢٠٢ وانظر الطبري : تاريخ ج ٤ ص ٤٤٣

٣ـ الطبري : تاريخ ج ٤ ص ٤٤٣

٤ـ انظر ابن كثير : البداية والنهاية ج ٧ ص ٢٣٠ ، ابن خلدون : العبر ج ٢ ق ٢ ص ١٥٢ ـ ١٥٣

٥ـ انظر البلاذري : أنساب الأشراف ج ص ٨٧ ، الطبري : تاريخ ج ٤ ص ٤٤٤ ، ابن كثير : البداية

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ولكن الأحداث في الحجاز حالت دون تنفيذ هذه الخطة، وكان علي قد ((اشتد على قريش وحال بينهم وبين الخروج))(١)، وسار على منهج ابن الخطاب في حبس أعلام المهاجرين، وانما هيجه على ذلك هرب بني أمية وتفرق القوم. ولم تعجب تلك السياسة قريشا بعد أن اعتادت على لين عثمان وسماحه لهم بالانسياح أنّى شاءوا في الأمصار، فأخذ بعضهم يقول: ((... والله ان عليا لمستفن برأيه وأمره عنا، ولا نراه الا سيكون على قريش أشد من غيره))(٢). وجاء اعلان معاوية ابن أبي سفيان المعارضة لبيعة علي والمطالبة بدم عثمان، فرصة لظهور الانقسام في صفوف أهل الحجاز واختلاف الكلمة بينهم(٣). وغدت مكة موطن المعارضة لخلافة علي من الناقمين على قتلة عثمان، والولاة المعزولين(٤)، ومن رأى اعتزال الفتنة والبعد عن المدينة. وتزعم هؤلاء الزبير بن العوام وطلحة ابن عبيد الله والسيدة عائشة أم المؤمنين.

ولا شك أن أساس الخلاف كان مقتل عثمان((وما يريدون من الطلب بدمه))(٥) فعلي ((أرجأ الأمر في المطالبة بدم عثمان الى اجتماع الناس واتفاق الكلمة، فيتمكن حينئذ من ذلك، ورأى الآخرون ... المطالبة أولا بدم عثمان ثم يجتمعون على امام))(٦).

هذا وقد اغتنم طلحة والزبير فرصة اعلان معاوية بن أبي سفيان الخلاف، فتوجها الى أمير المؤمنين وطلبا منه أن يأذن لهما بالخروج الى مكة، ((فقال لهما: لعلكما تريدان البصرة أو الشام، فاقسما أنهما لا يقصدان غير مكة))(٧). فأذن لهما في الخروج اليها.

وفي مكة كانت السيدة عائشة زوجة الرسول الكريم، والتي حضرت موسم الحج ومن ثم اتجهت الى المدينة بعد أن قضت المناسك(٨)، وفي الطريق أخبرت بمقتل عثمان وبيعة علي، فانصرفت الى مكة وهي تقول((... قتل والله عثمان مظلوما والله لأطلبن بدمه))(٩). فعادت الى مكة حيث أعلنت سخطها الشديد على قتلة عثمان ونزلت على باب المسجد، واجتمع اليها الناس فخطبتهم قائلة: ((يا أيها

١ــ ابن الاثير: الكامل ج ٣ ص ١٩٦
٢ــ الطبري: تاريخ ج ٤ ص ٤٣٧
٣ــ انظر أبو الفداء: المختصر في أخبار البشر ج ١ ص ١٧٢ــ ١٧٣
٤ــ انظر ابن الاثير: الكامل ج ٣ ص ٢٠٧
٥ــ ابن قتيبة: المعارف ص ٢٠٨
٦ــ ابن خلدون: المقدمة ج ٢ ص ٧٢٨
٧ــ المسعودي: مروج الذهب ج ٢ ص ٣٥٧
٨ــ انظر الطبري: تاريخ ج ٤ ص ٤٤٨
٩ــ ابن الاثير: الكامل ج ٣ ص ٢٠٦

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الناس، ان الغوغاء من أهل الأمصار وأهل المياه وعبيد أهل المدينة اجتمعوا أن عاب الغوغاء على هذا المقتول بالأمس الارب واستعمال من حدثت سنة ، وقد استعمل أسنانهم قبله ، ومواضع من مواضع الحمى حماها لهم، وهي أمور قد سبق بها لا يصلح غيرها ، فتابعهم ونزع لهم عنها استصلاحا لهم ، فلما لم يجدوا حجة ولا عذرا خلجوا وبادوا بالعدوان ونبا فعلهم عن قولهم، فسفكوا الدم الحرام واستحلوا البلد الحرام واخذوا المال الحرام واستحلوا الشهر الحرام، والله لأصبح عثمان خير من طباق الأرض أمثالهم ...(١) وبعد أن بينت لهم جور قتلة عثمان ، دعتهم حاشة على القيام بطلب دمه ، فاستجاب بعض الناس لها، كعبد الله بن عامر الحضرمي(٢) وقيل أنه كان أمير عثمان على مكة، ونشط الأمويون وبدأوا يتكلمون ورفعوا رؤوسهم وقام معهم سعيد بن العاص والوليد بن عقبة وسائر بني أمية يفكرون مقتل عثمان ويدعون الى ادراك ثاره(٣) . ثم انضم اليهم عبد الله بن عامر قادما من البصرة بمال كثير ويعلى بن أمية من اليمن ومعه كثير من المال والابل(٤) ثم لحق بهم الزبير بن العوام وطلحة بن عبيد الله قادمين من المدينة . فلما تتامت الجموع بمكة أخذوا يتشاورون فيما يريدون من الطلب بدم عثمان .(٥)

غدت مكة اذن موئل المعارضة في وجه خلافة علي بن أبي طالب وساعد في تجمع المعارضة في مكة كونها حرما آمنا يلجأ اليها الراهب أو الراغب دون أن يخشى بأسا(٦) ومن الواضح أن هذا التجمع المعارض في مكة قد أضطر عليا الى تغيير خططه العسكرية اذ أن واجب القصاص لدم الخليفة القتيل ليس من واجبات الأفراد بل هو من اختصاص الخليفة ، وبالتالي رأى علي أن يحول بينهم وبين الخروج .

ولا بد هنا من الاشارة الى تناقض الروايات حول موقف عائشة بالذات من الأحداث السياسية ، فهي تارة يزعم الرواة تحرض على قتل عثمان(٧) وتارة أخرى تتزعم المطالبين بدمه وتحرض على الأخذ بثأره(٨) . والظاهر أن هذا الموقف قد بولغ فيه وضخم من أطراف ثلاثة : الطرف الأول شيعة أرادوا أن يبطلوا موقفها من مطالبة علي بدم عثمان ، وأن يثبتوا براءة علي من دم الخليفة القتيل ومشاركة عائشة في هجمة قاتليه ،

١- الطبري : تاريخ ج ٤ ص ٤٤٨ - ٤٤٩
٢- انظر ابن كثير : البداية والنهاية ج ٧ ص ٢٣١
٣- انظر الطبري : تاريخ ج ٤ ص ٤٥٠
٤- انظر ابن الاثير : الكامل ج ٣ ص ٢٠٧
٥- انظر ابن قتيبة : المعارف ص ٢٠٨
٦- انظر عن حرمة مكة : الازرقي : اخبار مكة ج ٢ ص ١٢١ - ١٢٦
٧- انظر اليعقوبي : تاريخ ج ٢ ص ١٧٦، ابن سعد : الطبقات ج ٥ ص ٣٦ - ٣٧

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

والطرف الثاني هم قتلة عثمان الذين حمّلوا عائشة وزر الحض على قتله لتبرير جرمهم الذي ارتكبوه ، والطرف الثالث هم أصحاب معاوية بن أبي سفيان الذين أرادوا تخفيف وزرهم في المثلة بأخيهما محمد بن أبي بكر . (١)

أما مطالبتها بدم عثمان فأكبر الظن أنها لم تطالب بدمه فحسب بل أنها كانت ترشح طلحة ابن عبيد الله للخلافة، وصرحت بذلك الى عبد الله بن عباس قائلة : ((قد رأيت طلحة بن عبيد الله قد اتخذ على بيوت الأموال والخزائن مفاتيح ، فان يل يسر بسيرة ابن عمه أبي بكر))، (٢) وحين بويع علي وتمت بيعته ، جاء ذلك مخيبا لآمالها ، وحين أخبرها عبيد بن أبي سلمة أن الناس قد اجتمعوا على بيعة علي ساءها ذلك وقالت : ((ليت هذه انطبقت على هذه ان تم الأمر لصاحبك)) (٣) ورأت لذلك أن تطالب أولا بدم عثمان، ثم يجتمع أهل الحل والعقد على امام، (٤) خاصة وأن البعض كان يرى أن الشورى لم تأخذ مجراها في بيعة علي . (٥)

أنهضت عائشة أهل مكة للمطالبة بدم عثمان، (٦) واشتد ساعدها بمن وصل مكة هاربا أو ساخطا أو معزولا ، واستقر الرأي على الخروج من مكة ودعوة الناس للانضمام اليهم لتحقيق الهدف الذي أعلنوه . (٧)

رأى البعض قتال علي في المدينة، ولكنهم قدّروا أن لا طاقة لهم بحرب أهل المدينة وقالوا : (٨) (٩) ((... ان من معنا لا يقرنون لتلك الفوغاء التي بها))، فقال قائل : نذهب الى الشام فاعترض يعلى ابن منية قائلا : ((... ان معاوية قد سبقكم الى الشام وفيها الجماعة وأنتم تقدمون عليه غدا في فرقة وهو ابن عم عثمان دونكم، أرأيتم ان دفعكم عن الشام أو قال أجعلها شورى ... وأقبح من ذلك أن تأتيا

١ــ انظر عباس محمود العقاد : الصدّيقة بنت الصدّيق ص٩٧ دار المعارف ١٩٦٣

٢ــ الطبري : تاريخ ج ٤ ص ٤٠٧

٣ــ ابن الاثير : الكامل ج ٣ ص ٢٠٦ وانظر اليعقوبي : تاريخ ج ٢ ص ١٨٠

٤ــ انظر ابن خلدون : المقدمة ج ٢ ص ٧٢٨

٥ــ انظر ابن قتيبة : الامامة والسياسة ج ١ ص ٥٩

٦ــ انظر الطبري : تاريخ ج ٤ ص ٤٥١، ابن كثير : البداية والنهاية ج ٧ ص ٢٣١

٧ــ انظر ابن الاثير : الكامل ج ٣ ص ٢٠٨

٨ــ الطبري : تاريخ ج ٤ ص ٤٥٠

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

رجلا في يديه أمر قد سبقكما اليه))[1]، فعدلوا عن الشام التي كفاهم معاوية أمرها الى البصرة.

وزعم لهم عبد الله بن عامر أن له بها صنائع[2] سيقفون بجانبهم ثم أنهم ان غلبوا عليا فلهم بعد ذلك الشام، وان غلبهم علي كان لهم معاوية سندا يستندون اليه . فاستنفروا الناس للخروج معهم. وأعانهم عبد الله بن عامر ويعلى بن منية بالمال والظهر[3]، ونادى مناديهم أنهم شاخصون الى البصرة ((فمن أراد اعزاز الاسلام ، وقتال المحلين والطلب بثأر عثمان وليس له مركب وجهاز فليأته فحملوا ستمائة على ستمائة بعير، وساروا في ألف، وقيل : في تسعمائة من أهل المدينة ومكة، ولحقهم الناس فكانوا في ثلاثة الاف رجل))[4]. وقد رفض عبد الله بن عمر الانضمام لهذه الجموع[5]، وعنّفهم على الخروج بعد البيعة، وأعرب عن رأيه أن الشورى قد كانت وأن عليا قد اختير، ولا يرد بيعته الا من حكموا فيها[6]. ولم يكن لهذا الخروج مبرر لا شمالي تيران حرب أهلية يقتتل فيها المسلمون، وكلّفت الأمة غاليا من الدماء، وعمقت جرح الفرقة والخلاف.

وقعة الجمل.

كانت تلك الأحداث مقدمات موقعة الجمل التي اضطر علي لخوض غمارها على غير حسبان منه ، اذ كان في تلك الفترة منهمكا في اعداد العدة لاخضاع معاوية بن أبي سفيان وأهل الشام، وحين جاءت اليه أخبار خروج عائشة وطلحة والزبير عزم على أن يبدأ بهذا الفتق[7]، وخرج بمن اجتمع عليه من الناس لعله يتمكن من ردهم، فلما وصل الربذة علم أنهم فاتوه[8]، فلبث بها ينتظر الذين تخلفوا عنه بالمدينة.[9]

١ـ ابن قتيبة : الامامة والسياسة ج ١ ص ٥٧ ـ ٥٨

٢ـ انظر المسعودي : مروج الذهب ج ٢ ص ٣٥٧

٣ـ انظر ابن كثير : البداية والنهاية ج ٧ ص ٢٣١

٤ـ ابن الأثير : الكامل ج ٣ ص ٢٠٨

٥ـ انظر الطبري : تاريخ ج ٤ ص ٤٦٠

٦ـ انظر ابن قتيبة : الامامة والسياسة ج ١ ص ٥٩

٧ـ انظر الطبري : تاريخ ج ٤ ص ٤٤٦ ، ٤٥٥، الخضري : محاضرات تاريخ الأمم الاسلامية ج ٢ ص ٥٦

٨ـ انظر المسعودي : مروج الذهب ج ٢ ص ٣٥٨

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

تثاقل كثير من الناس عن الخروج مع الخليفة ، قال الشعبي :((مانهض في تلك الفتنة الا ستة نفر بدريون مالهم سابع))(١) ، وذكر ابن حبيب(٢) بضعة وعشرين رجلا صحابيا شهدوا الجمل وصفين مع علي . أما ابن كثير فقال :((تثاقل عن علي أكثر أهل المدينة ، واستجاب له بعضهم))(٣). ويبدو أن أمر الخروج ومحاربة المسلمين بعضهم بعضا تدشق على الناس اذا كانت هذه أول مرة يقود فيها الخليفة جيشا الى حرب أهلية ضد اخوانه المسلمين(٤)، واشتبه الأمر على الناس، فآثر بعضهم القعود ومنهم صحابيون أمثال : سعد بن أبي وقاص ومحمد بن مسلمة، وعبد الله بن عمر(٥).

أصبح أهل الحجاز نتيجة لذلك ثلاث فرق : فرقة اعتزلت وارتضت السكوت ، وفرقة انضمت الى الخليفة تأتمر بأمره وتقاتل معه ، وفرقة خرجت مع عائشة وطلحة والزبير تقاتل تحت شعار الطلب بدم عثمان(٦). وأصبح حال أهل الحجاز بالتالي يخالف كثيرا حالهم في عهد أبي بكر الصديق الذي حقق باتحادهم الكثير من المجد داخل الحجاز وخارجه . وحين اختلفوا تضعضعت أهمية الحجاز وظهرت بوادر تخليه عن الزعامة، وأدركت الأطراف المعنية ذلك، فتحولت عن الحجاز الى مواطن الرجال والأموال ، فتضاءلت تبعا لذلك ، أهمية الحجاز في أمور السياسة والحرب.

وقد أحس أهل الحجاز أنفسهم بالخطر الذي سيصيب مصرهم فبهوا يطلبون الى علي البقاء في المدينة قائلين : ((يا أمير المؤمنين، لا تخرج منها ، فوالله لئن خرجت منها لا ترجع اليها ولا يعود اليها سلطان المسلمين أبدا))(٧). وصدقت فراسة عبد الله بن سلام صاحب هذا القول فلم يرجع اليها علي ولا الخلافة أبدا .

وعزّ خروج علي من المدينة على الأنصار خاصة الذين اجتمع أشرافهم ، وأقبلوا حتى دخلوا على علي ، فتكلم عقبة بن عامر ، وكان بدريا ، فقال :((يا أمير المؤمنين، ان الذي يفوتك من الصلاة في مسجد رسول الله ،صلى الله عليه وسلم، والسعي بين قبره ومنبره ، أعظم مما ترجو من العراق، فان كنت

١ــ ابن الأثير : الكامل ج ٣ ص ٢٢١

٢ــ المحبر ص ٢٨٩ ــ ٢٩٣

٣ــ البداية والنهاية ج ٧ ص ٢٣٤

٤ــ انظر Lewis, Bernard: The Arabs in History, Page 61.

٥ــ انظر الدينوري : الأخبار الطوال ص ١٤٢ ــ ١٤٣

٦ــ انظر ابن عبد ربه : العقد الفريد ج ٥ ص ٦٥

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

انما تسير لحرب الشام، فقد أقام عمر فينا ، وكفاه سعد زحف القادسية وأبو موسى زحف الأهواز، وليس من هؤلاء رجل الا وشله معك ، والرجال أشباه ، والأيام دول . فقال علي : ان الأموال والرجال بالعراق ، ولأهل الشام وثبة أحب أن أكون قريبا منها))[1] . وليس ببعيد أن يكون لأهل الأمصار دور في حث علي على الخروج من المدينة .[2] وربما أثر رجال العراق الذين تدفعهم النزعة الاقليمية والاتجاه القبلي على الخليفة ليتخذ تلك الخطوة .[3]

ويبدو من قول علي للأنصار أن خروجه من المدينة كان لضرورة عسكرية، فقد أراد اعتراض الخارجين الى العراق وردهم وحين فاتوه قرر اللحاق بهم، كما أراد أن يكون قريبا من الشام حتى لا يؤخذ على حين غرة فرحل الى العراق ليستعين بمالها وجندها على لقاء أهل الشام .

خرج علي الى العراق بجيشه الذي أعده لقتال أهل الشام واخضاعهم،[4] ورتب الجيش فأعطى ابنه محمدا الراية،[5] وجعل عبد الله بن عباس على ميمنة الجيش وعمرو بن أبي سلمة[6] أو عمرو بن سفيان على الميسرة ـ على خلاف في الرواية ـ[7] وأبا ليلى بن عمر بن الجراح على المقدمة،[8] واستخلف على المدينة قثم بن عباس.[9]

أصبح علي في موقف لا يحسد عليه ، خلافة حافلة بالقلاقل من أولها ، عدو يتربص به في الشام، وخارجون عليه في العراق، وأهل المدينة يتثاقلون عن الخروج بجانبه ، وأكثر من هذا أن في جيشه من لا يرى رأيه .[10] ووالية على الكوفة يخذل الناس عنه اذ كره[11] أن يحارب المسلمون بعضهم بعضا .

١ـ الدينوري : الأخبار الطوال ص ١٤٣

٢ـ انظر الطبري : تاريخ ج ٤ ص ٤٥٥

٣ـ انظر عبد العزيز الدوري : مقدمة في تاريخ صدر الاسلام ص ٥٨

٤ـ انظر ابن كثير : البداية والنهاية ج ٧ ص ٢٣٠

٥ـ انظر أبو الفداء : المختصر في أخبار البشر ج ١ ص ١٧٣

٦ـ انظر ابن الأثير : الكامل ج ٣ ص ٢٠٤

٧ـ انظر الطبري : تاريخ ج ٤ ص ٤٤٥

٨ـ المرجع السابق نفس الصفحة

٩ـ ابن الأثير : الكامل ج ٣ ص ٢٠٤

١٠ـ كالحسن بن علي . انظر ابن خلدون : العبر ج ٢ ق ٢ ص ١٥٨

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

واتضح موقف أبي موسى الأشعري ـ والي الكوفة ـ حين أرسل علي الى أهلها يطلب العون والنصرة، (١) وفوجيء رسل علي أن أبا موسى لا يؤيد وجهة نظرهم فحسب بل يخذل الناس محتجا أن الخليفة لا يحارب كفارا بل مسلمين لا يجوز قتالهم قائلا: ((يا أهل الكوفة، أطيعوني تكونوا جرثومة من جراثيم العرب، يأوي اليكم المظلوم، ويأمن فيكم الخائف. أيها الناس ان الفتنة اذا أقبلت شبهت، واذا أدبرت تبينت، وأن هذه الفتنة الباقرة لا يدري من أين تأتي ولا من أين تؤتى، شيموا سيوفكم وانزعوا أسنة رماحكم، واقطعوا أوتار قسيكم، والزموا قصور البيوت أيها الناس، ان النائم في الفتنة خير من القائم، والقائم خير من الساعي (٢))). وناقش أنصار علي من أهل الكوفة أبا موسى الأشعري وقال أحدهم: ((يا أبا موسى هل بايع طلحة والزبير؟ قال: نعم. قال هل أحدث على مايحل به نقض بيعته؟ قال: لا أدري. قال: لا دريت نحن نتركك حتى تدري، هل تعلم أحدا خارجا من هذه الفتنة؟ انما الناس أربع فرق: علي بظهر الكوفة وطلحة والزبير بالبصرة، ومعاوية بالشام، وفرقة بالحجاز لا غناء بها، ولا يقاتل بها عدو. فقال أبو موسى: أولئك خير الناس وهي فتنة. فقال: غلب عليك غشك يا أبا موسى (٣))).

وكانت رسل علي قد وافت الكوفة، (٤) ورأت اصرار أبي موسى في التخذيل عن الامام وأثر ذلك على الناس نصح به الحسن بن علي: ((اعتزل عملنا لا أم لك وتنح عن منبرنا (٥))). ولكن الخطوة الحاسمة جاءت من قبل الأشتر النخعي الذي احتل قصر الامارة وطرد أبا موسى (٦). وقيل أن رسل علي كتبوا اليه انا قد منا ((على رجل غال مشاقق ظاهر الشنآن ... فبعث علي قرظة بن كعب أميرا وعزل أبا موسى (٧))) فاعتزل نفر من أهل الكوفة مايقارب تسعة الاف رجل الى ذي قار (٨) حيث عسكر علي بجنده (٩) هناك استعدادا للمسير الى البصرة التي وقعت تحت سيطرة طلحة والزبير وعائشة وأنصارهم، ذلك أن هؤلاء كتبوا الى

١ـ انظر ابن قتيبة: الامامة والسياسة ج ١ ص ٦٢

٢ـ الدينوري: الأخبار الطوال ص ١٤٥، انظر ابن كثير: البداية والنهاية ج ٧ ص ٢٣٧

٣ـ ابن الأثير: الكامل ج ٣ ص ٢٢٩ ـ ٢٣٠

٤ـ انظر ابن خلدون: العبر ج ٢ ق ٢ ص ١٥٨ ـ ١٦٠

٥ـ الطبري: تاريخ ج ٤ ص ٤٨٦

٦ـ انظر ابن كثير: البداية والنهاية ج ٧ ص ٢٣٧

٧ـ ابن الأثير: الكامل ج ٣ ص ٢٦٠

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أهل البصرة لاستمالتهم ودعوتهم الى الثورة غضبا لمقتل عثمان، ولكن أشراف أهل البصرة وزعماءها لم يرتاحوا لهذه الدعوة وقالوا : ((مالنا ولهذا الحي من قريش؟ أيريدون أن يخرجونا من الاسلام بعد أن دخلنا فيه ؟ ويدخلونا في الشرك بعد ما خرجنا منه ؟ قتلوا عثمان وبايعوا عليا ، لهم ما لهم وعليهم ما عليهم(١))). ثم ردوا ينكرون عليهم خذلهم عثمان ومطالبتهم بدمه .

ولم يثبط هذا الرد عزم القوم على اتيان البصرة، ولم تصغ عائشة لنصيحة أم سلمة زوج الرسول الكريم حين كتبت اليها :((ان عمود الدين لا ينثنى بالنساء ان مال ، ولا يرأب بهن ان انصدع، جهاد النساء غض الأطراف ، وضم الذيول وقصر الوهازة(٢) . ماكنت قائلة لرسول الله صلى الله عليه وسلم لو عارضك ببعض هذه الفلوات ناصة تعسودا من منهل الى منهل ... وأقسم لو قيل لي يا أم سلمة ادخلي الجنة لاستحييت أن ألقى رسول الله صلى الله عليه وسلم هاتكة حجابا ضربه علي(٣)). ولكنها أحست بالندم الشديد حين نبحتها كلاب الحوأب(٤) وأرادت أن تعود أدراجها(٥) ، ولكن تدبير عبد الله بن الزبير فوّت هذه الفرصة وجاءها صائحا :((النجاء النجاء فقد أدركم والله علي بن أبي طالب(٦)) فارتحلوا باتجاه البصرة حتى شارفوها وبلغ أهل البصرة مقدمهم .

أراد والي علي على البصرة ، عثمان بن حنيف، أن يتعرف سبب قدوم القوم فبعث ((عمران بن حصين، وكان رجل عامة، وألزه بأبي الأسود الدؤلي ، وكان رجل خاصة، وقال لهما : انطلقا الى هذه المرأة فاعلما علمها وعلم من معها))(٧).

أدرك مبعوثا الوالي أن لا سبيل غير الحرب وصد القوم عن البصرة ، وبادر أبو الأسود الدؤلي قائلا :(٨)

يابن حنيف قد أتيت فانفر وطاعن القوم وجالد واصبر

١ــ ابن قتيبة : الامامة والسياسة ج ١ ص ٥٨

٢ــ الوهازة : مشية الخفرات. الفيروزآبادي : القاموس المحيط ج ٢ ص ٢٠٣

٣ــ ابن عبد ربه : العقد الفريد ج ٥ ص ٦٢

٤ــ الحوأب: من مياه العرب على طريق البصرة، وقيل موضع بئر : ياقوت : معجم البلدان ج ٢ ص ٣١٤

٥ــ انظر ابن كثير : البداية والنهاية ج ٧ ص ٢٣١ ــ ٢٣٢

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

واختلف موقف أهل البصرة. أما الوالي ومن ناصره فرأوا منعهم حتى يأتي أمير المؤمنين،[1] ورأى بعضهم الاعتزال والقعود،[2] وقال أحد الناس لعثمان بن حنيف: ((ان هذا الأمر الذي تريده يسلم الى شر مما تكره، ان هذا فتق لا يرتق بصدع لا يجبر، فارفق بهم وسامحهم))،[3] فأبى الوالي ولكنه كسر حين علم أن لهم بالبصرة ناصرا.[4] ولم يلبث القوم أن أقبلوا فخرج عثمان بن حنيف اليهم.

نزل طلحة والزبير وعائشة البصرة فاصطف الناس في الطريق يقولون: ((يا أم المؤمنين ما الذي أخرجك من بيتك؟ فلما أكثروا عليها تكلمت بلسان طلق ... وقالت: أيها الناس والله ما بلغ من ذنب عثمان: أن يستحل دمه، ولقد قتل مظلوما، غضبنا لكم من السوط والعصا، ولا نغضب لعثمان من القتل، وان من الرأي أن تنظروا الى قتلة عثمان فيقتلوا به، ثم يرد هذا الأمر شورى على ما جعله عمر بن الخطاب. فمن قائل يقول: صدقت وآخر يقول كذبته فلم يبرح الناس يقولون حتى ضرب بعضهم وجوه بعض))،[5] كما عاب أهل البصرة على طلحة والزبير اخراجهما عائشة دون نسائهما، وقال قائل منهم:[6]

صنتم حلائلكم وقد تم أمكـــــم هذا لعمرك قلة الانصاف

ولم يقتصر الأمر على هذا الاستقبال الفاتر، بل اشتبك معهم عثمان بن حنيف في قتال شديد،[7] حتى اذا عضتهم الحرب بنابها، تحاجز الفريقان وعمدا الى الصلح على أن يكون لعثمان ((دار الامارة ومسجدها وبيت المال، وأن ينزل أصحابه حيث شاءوا من البصرة وأن ينزل طلحة والزبير وأصحابهما حيث شاءوا حتى يقدم علي، فان اجتمعوا دخلوا فيما دخل فيه الناس، وان يتفرقوا يلحق كل قوم بأهوائهم))[8]. الا أن الصلح لم يستمر طويلا وتطورت الأحداث، فجمع طلحة والزبير الرجال في ليلة مظلمة باردة[9] ذات رياح وندى، ((وقصدا المسجد فوافقا صلاة العشاء، وكانوا يؤخرونها، فأبطأ عثمان بن حنيف فقدما عبد الرحمن بن عتاب، فشهر الزط والسيابجة السلاح ثم وضعوه فيهم، فاقتتلوا عليهم فاقتتلوا في المسجد

١ـ انظر ابن الاثير: الكامل ج ٣ ص ٢١٢

٢ـ انظر ابن كثير: البداية والنهاية ج ٧ ص ٢٣٢

٣ـ ابن الأثير: الكامل ج ٣ ص ٢١٢

٤ـ انظر ابن خلدون: العبر ج ٢ ق ٢ ص ١٥٦

٥ـ ابن قتيبة: الامامة والسياسة ج ١ ص ٦٤، وانظر تفصيلات أكثر في الطبري: تاريخ ج ٤ ص ٤٦٣ـ٤٦٥

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وصبروا لهم، فأنا موهم وهم أربعون))[1]. ثم أنهما قبضا على عثمان بن حنيف والي علي ((فنتفوا شعر رأسه ولحيته وحاجبيه وضربوه وحبسوه))[2]، ولم يخلصه من القتل الا خشيتهم غضب الأنصار، ((وقتلوا خمسين رجلا كانوا معه على بيت المال وغير ذلك من أعماله))[3].

ولم يعجب ذلك بعض أهل البصرة فخرجوا في جيش قريب من ثلاثمائة وقدم عليهم حكيم بن جبلة، فبارزوا وقاتلوا فقتل منهم سبعون رجلا وهرب الآخرون، وغضبت لهم عبد القيس كلهم والكثير من بكر ابن وائل[4].

وهكذا تمت السيطرة على البصرة لطلحة والزبير، وتمكنوا من قتل المتهمين في فتنة عثمان ولم يفلت منهم في البصرة الا حرقوص بن زهير الذي منعته عشيرته من بني سعد[5]. وكتبا بذلك كتبا الى: أهل الشام، وأهل الكوفة، وأهل اليمامة وأهل المدينة[6].

الا أن واقع البصرة الفعلي كان الانقسام والاختلاف وتغلب النزعة القبلية، اذ سخط الموالي مقتل الحراس من الزط والسيابجة[7]، وعبد القيس وبكر بن وائل غاضبون لمن قتل منهم أو حرم من العطاء[8]، يضاف لذلك اختلاف طلحة والزبير فيمن يتولى منهما الزعامة، ويؤم الناس في الصلاة[9]. وبعض الأمويين، كمروان ابن الحكم، الذين كانوا معهما يحرضانهما بالتأليب على عثمان[10]، كما أن العشائر التي أحاطت بهم وانضمت اليهم كانت مدفوعة بالغالب في التفافها ذاك بنزعة القبائل في حماية الجار، وامتزلت بنو تميم الفتنة بزعامة الأحنف بن قيس[11].

١ــ الطبري: تاريخ ج ٤ ص ٤٦٨

٢ــ ابن الاثير: الكامل ج ٣ ص ٢١٦، انظر أبو الفداء: المختصر في أخبار البشر ١ ص ١٧٣

٣ــ ابن قتيبة: المعارف ص ٢٠٨

٤ــ انظر ابن كثير: البداية والنهاية ج ٧ ص ٢٣٣ ــ ٢٣٤

٥ــ انظر ابن خلدون: العبر ج ٢ ق ٢ ص ١٥٧

٦ــ انظر ابن الاثير: الكامل ج ٣ ص ٢١٩

٧ــ انظر الطبري: تاريخ ج ٤ ص ٤٧٢

٨ــ انظر ابن الاثير: الكامل ج ٣ ص ٢١٥

٩ــ انظر ابن خلدون: العبر ج ٢ ق ٢ ص ١٥٧

١٠ــ انظر المسعودي: مروج الذهب ج ٢ ص ٣٥٨، اليعقوبي: تاريخ ج ٢ ص ١٨١

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وأمام هذه الجبهة المفككة العمرى عسكريا ، التئم شمل جيش علي في ذي قار ، وحيث أن الخليفة كان يرغب في الاصلاح ويؤثر السلم ، فقد أرسل أحد أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم ، وهو القعقاع بن عمرو الى أهل البصرة وقال له :((الق هذين الرجلين ... فادعهما الى الألفة والجماعة ، وعظّم عليهما الفرقة))(١) . ونجحت سفارة القعقاع ، الى حين وأشرف القوم على الصلح ووضع الحرب .

كان علي في الايام القلائل التي سبقت المعركة منهمكا في اجراء الصلح وحقن الدماء ، والانصاف كان طلحة والزبير وعائشة يشاركونه وجهة نظره(٢) ، اذ لم ((يجدوا أمرا هو أمثل من الصلح ووضع الحرب حين رأوا الأمر قد أخذ في الانقشاع وأنه لا يدرك))(٣) .

ولكن الفئة الباغية على عثمان ، ممن كان في جيش علي ، رأت في الصلح قضاء عليها : ((وبات الذين أثاروا أمر عثمان بشر ليلة وقد أشرفوا على الهلكة ، وباتوا يتشاورون فاجتمعوا على اشعاب الحرب))(٤) . اذ رأوا أن الحرب وحدها هي التي يمكن أن تسدل الستار على جريمتهم في عثمان ابن عفان ، وهكذا افلت الزمام وانتقلت المبادرة الى أيد لم تخش الحرب والقتل في الناس .

نشب القتال في مكان يقال له : الخريبة(٥) ، حين هاجم قتلة عثمان أهل البصرة ، فظنوا أن عليا غدر بهم ، واشتبك الجيشان في حرب شديدة ، أصيب فيها طلحة بسهم قيل : أن مروان بن الحكم رماه به(٦) ، فأودى بحياته . وحمي وطيس القتال حين جاءت عائشة على الجمل في هودج مصفح بالدروع الى ميدان القتال ، فاستماتت الازد وضبة ذودا عن أم المؤمنين ، وقاتلوا قتالا شديدا(٧) ، وغدا جمل عائشة كالراية يلتف حولها المقاتلون من أهل البصرة ، ففطن علي الى ذلك فنادى في أصحابه(٨) :((ويلكم اعقروا الجمل ، فانه شيطان . ثم قال : اعقروه والا فنيت العرب))(٩) . فصمدوا له حتى عقروه ، ((فلما سقط

١ـ الطبري : تاريخ ج ٤ ص ٤٨٨

٢ـ انظر الطبري : تاريخ ج ٤ ص ٤٨٩ ، ٤٩١ ، ٤٩٣ ، ٥٠١ ، ٥٠٥

٣ـ الطبري : تاريخ ج ٤ ص ٥٠٦

٤ـ ابن الاثير : الكامل ج ٣ ص ٢٤٢

٥ـ الخريبة : موضع بالبصرة . ياقوت : معجم البلدان ج ٢ ص ٣٦٣

٦ـ انظر ابن الاثير : أسد الغابة في معرفة الصحابة ج ٣ ص ٦١ ، المطبعة الاسلامية بطهران ١٣٧٧ هـ المسعودي : مروج الذهب ج ٢ ص ٣٦٥ ، الذهبي : دول الاسلام ج ١ ص ٣١

٧ـ انظر الدينوري : الاخبار الطوال ص ١٤٩

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

البعير الى الأرض انهزم من حوله من الناس وحمل هودج عائشة وانه لكالقنفذ من السهام ونادى منادي علي في الناس: انه لا يتبع مدبر ولا يذفف على جريح ولا يدخلوا الدور))[1]. وحمل محمد بن أبي بكر عائشة الى احدى الدور في البصرة.

أقام علي لا يدخل البصرة ثلاثة أيام وصلى على القتلى جميعا من أنصاره وخصومه ، ((وجمع ما كان في العسكر من شيء ، ثم بعث به الى مسجد البصرة، أن من عرف شيئا فليأخذه ، الا سلاحا كان في الخزائن عليه سمة السلطان))[2]. ولم يقسم من ذلك شيء ، فتكلمت السبئية يومئذ ((وطعنوا على علي من وراء وراء ... وقالوا : ماله يحل لنا دماءهم ويحرم علينا أموالهم))[3]، ثم عمد الى بيت مال البصرة فقسمه على الجيش فأصاب الرجل الواحد خمسمائة خمسمائة[4]، فلم يرقهم ذلك اذ ((أعطى الناس بالسوية ولم يفضل أحدا على أحد وأعطى الموالي كما أعطى الصليبة))[5].

كانت موقعة الجمل لعشر خلون من جمادى الآخرة سنة ست وثلاثين[6] ، وارتفع فيها عدد الضحايا من الجيشين فبلغ عشرة الاف[7]، فحزن عليهم الخليفة وتألم لمصرعهم قائلا : شفيت نفسي وقتلت معشري[8]، وروى أنه قال : ((اني لأرجو أن أكون أنا وطلحة وعثمان والزبير ممن قال الله فيهم[9]: ((ونزعنا ما في صدورهم من غل اخوانا على سرر متقابلين))[10]. وكان الزبير بن العوام قد قتل غيلة بوادي السباع[11] حين اعتزل المعركة وانصرف الى الحجاز لكلام سمعه من علي[12] ، وقيل أن الزبير ارتاب مما هو فيه حين علم أن عمار بن ياسر في صفوف جيش علي[13] ، فأشفق أن يكون من الفئة الباغية التي تقتل عمارا فانصرف.

١ـ ابن كثير : البداية والنهاية ج ٧ ص ٢٤٥

٢ـ الطبري: تاريخ ج ٤ ص ٥٣٨

٣ـ ابن الأثير : الكامل ج ٣ ص ٢٥٩

٤ـ انظر الطبري: تاريخ ج ٤ ص ٥٤١

٥ـ اليعقوبي : تاريخ ج ٢ ص ١٨٣

٦ـ ابن الاثير : أسد الغابة في معرفة الصحابة ج ٣ ص ٦١

٧ـ انظر الطبري: تاريخ ج ٤ ص ٥٣٩، ابن كثير: البداية والنهاية ج ٧ ص ٢٤٧

٨ـ انظر الطبري: تاريخ ج ٤ ص ٥٢٧

٩ـ ابن الاثير: أسد الغابة في معرفة الصحابة ج ٣ ص ٦١

١٠ـ سورة الحجر: آية ٤٧

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

كما تجدر ملاحظة معاملة علي بن أبي طالب الحسنة للسيدة عائشة، وتجهيزها بما تحتاج اليه في عودتها للحجاز، وسيّر معها أولاده مسيرة يوم، وشيعها بنفسه مع الناس. وأخرج معها أخاها محمد بن أبي بكر حتى عادت الى الحجاز.(١)(٢)

دخل علي البصرة، وجلس للناس في المسجد فبايعوه ((على راياتهم حتى الجرحى والمستأمنة)).(٣) ورغب في الاقامة بالبصرة لتنظيم شؤونها، ولكن السبئية أعجلته عن المقام، ((فانهم ارتحلوا بغير إذنه، فارتحل في آثارهم ليقطع عليهم أمرا ان أرادوه))(٤). وخلّف على البصرة عبد الله بن عباس أميرا، وولى زياد بن أبيه الخراج وبيت المال.(٥)

ولم تضع معركة الجمل نهاية لمتاعب علي، وفتحت باب العداوة والفرقة بين جند علي أنفسهم من أهل العراق، وشمل الكوفة والبصرة حزن على القتلى الذين بلغ عددهم عشرة آلاف(٦) والذين كان مقتلهم توهينا لقوى علي العسكرية لما ينتظره من حروب كانت هذه المعركة مقدمة لها. وكانت المعركة من نحو آخر سابقة احتدتها الأحزاب في حروبها التي كلفت الأمة مزيدا من الدماء. وعادت على الحجازيين بالخسارة اذ سقط بعض أعلامهم صرعى في ميدان القتال، وتجلى بوضوح ثقل الأعباء السياسي والاقتصادي والعسكري فمن بين سبع فرق ضمها جيش علي كان أهل الحجاز يشكلون منها فرقة واحدة.(٧)

وقعة صفين

واعطى انشغال علي باخضاع البصرة فرصة مواتية لمعاوية بن أبي سفيان للتهيؤ والاستعداد فاستفحل أمره وعظم خطره.

استطاع معاوية بناء قاعدة صلبة يرتكز عليها في الشام ابان ولايته الطويلة عليها، ونجح في استثارة أهل الشام حين علق قميص عثمان الملطخ بالدماء وأصابع نائلة المقطوعة على المنبر ودعاهم للثأر من قتلة الخليفة المظلوم فثاب الناس اليه(٨)، وأخذوا يبكون على عثمان ويتهمون عليا أنه قعد

١ــ انظر المسعودي: مروج الذهب ج ٢ ص ٣٢٨، وابن عبد ربه: العقد الفريد ج ص ٢٧
٢ــ انظر الطبري: تاريخ ج ٤ ص ٥٤٤
٣ــ ابن الاثير: الكامل ج ٣ ص ٢٥٦
٤ــ ابن الاثير: الكامل ج ٣ ص ٢٦٠
٥ــ انظر الطبري: تاريخ ج ٤ ص ٥٤٣

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

عن نصرته وآوى قتلته (١). وكانت تلك المطالبة على أساس قبلي بيّن اذ هي ليست من حق الأقرباء بقدر ماهي من حق الحكومة والتفاف الكثيرين حول معاوية انما يعني قوة تيار الاتجاهات القبلية (٢) في تلك الفترة.

ورغم ادراك علي بن أبي طالب لخطورة موقف معاوية وأهل الشام، الا أنه آثر السلم فبعث جرير ابن عبد الله البجلي ليدعوهم الى الطاعة والجماعة (٣)، وكتب معه كتابا يبين فيه لزوم بيعته لمعاوية ومن قبله وقال ان بيعته تمت في المدينة وبايعه المهاجرون والأنصار ... وليس للشاهد أن يختار ولا للغائب أن يرد (٤). ولم تنجح سفارة جرير بن عبد الله أمام مماطلة معاوية بن أبي سفيان (٥) الذي استطاع الاعتماد على عرب الشام فكانوا له بمثابة الجسد والروح حين عرف كيف يجلب احترامهم له وتأييدهم اياه (٦)، وكان قد نجح أيضا في ضم عمرو بن العاص الى جانبه (٧)، فأشار عليه أن((... يلزم عليا دم عثمان ويقاتله بأهل الشام)) (٨). وليضمن معاوية قوة مركزه، سعى الى تحسين علاقته بالبيزنطيين فعقد الصلح معهم (٩)، ليكون حرا في تحريك الجيش كيفما أراد، وبالتالي حين صدرت أوامر معاوية لأهل الشام بالاستنفار العام، هبوا جميعا لدرجة أن بلاد الشام وحدها أمدت معاوية بجيش يقارب عدديا جيش علي الذي أمده به جميع ولاياته (١٠).

ان فشل سفارة جرير بن عبد الله انما كان يعني أن الاحتكام الى السيف غدا طريق فض الخلاف الوحيد بين الفريقين. فزحف علي بجيوشه شمالا حتى وصل الرقة على نهر الفرات والتقى بمعاوية وجيوشه في سهل صفين، في ذي الحجة سنة ست وثلاثين (١١) (١٢).

١ـ انظر المسعودي: مروج الذهب ج ٢ ص ٣٧٢

٢ـ انظر عبد العزيز الدوري: مقدمة في تاريخ صدر الاسلام ص ٥٨

٣ـ انظر ابن الأثير: الكامل ج ٣ ص ٢٧٦

٤ـ انظر الدينوري: الأخبار الطوال ص ١٥٧

٥ـ انظر الطبري: تاريخ ج ٤ ص ٥٦١

٦ـ انظر دوزي: تاريخ مسلمي أسبانيا ج ١ ص ٤٥ ترجمة حسن حبشي. دار المعارف ١٩٦٣ م

٧ـ انظر ابن كثير: البداية والنهاية ج ٧ ص ٢٥٤

٨ـ الطبري: تاريخ ج ٤ ص ٥٦١

٩ـ انظر البلاذري: فتوح البلدان ص ١٩٠

Saunders: A History of Medieval Islam. Page 64.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وكانت جيوش معاوية قد سبقت الى صفين ، فنزلت أفضل موقع وأخذت شريعة الفرات الوحيدة في تلك المنطقة وحازتها[1] . واستقر رأي معاوية وشيعته على الحيلولة بين جيش علي والماء ، ورأوا ((منعهم الماء الى الليل ، فانهم ان لم يقدروا عليه رجعوا وكان رجوعهم هزيمة))[2] . وعندما أقبل علي وجنوده وجد أنه قد حيل بينهم وبين الماء ، فسعى الى حل سلمي ، وحين فشلت تلك المساعي اشتبك الطرفان في قتال انتهى بهزيمة جند معاوية وسيطرة جند عليّ على الماء . ولكن أمير المؤمنين لم يعامل خصومه بالمثل فأباح لهم الماء[3] ، اذ أن سياسته كانت تصدر عن روح دينيه قوية ، لا دهاء ولا سياسة ، وهو بالتالي لم يكن يتعجل الحرب قبل الاعذار الى خصومه ومناظرتهم .

وتمثل ذلك في مبعوثي علي الى معاوية الذين ناظروه ودعوه الى الطاعة والجماعة ، فلم يجد ذلك نفعا أمام اصرار معاوية على موقفه فاشتبك الجيشان في مناوشات .. ((فأخذ علي يأمر الرجل ذا الشرف فيخرج معه جماعة ، ويخرج اليه من أصحاب معاوية آخر معه جماعة ، فيقتتلان في خيلهما ورجالهما ثم ينصرفان ، وأخذوا يكرهون أن يلقوا بجمع أهل العراق أهل الشام لما يتخوفون أن يكون في ذلك من الاستئصال والهلاك))[4] ، ولم تمط تلك المناوشات نتيجة حاسمة فظل القتال على تلك الصورة مستمرا بقية أيام ذي الحجة ، وربما اقتتلوا في اليوم الواحد مرتين[5] ، ((فلما مضى ذو الحجة تداعى الناس أن يكف بعضهم عن بعض الى أن ينقضي المحرم ، لعل الله أن يجري صلحا واجتماعا ، فكف الناس بعضهم عن بعض))[6] ، ولكن الوئام لم يتحقق ، وفشلت كل محاولات التوفيق بين المتحاربين فعادت الحرب من جديد جذعة كمناوشات متقطعة ، دون نتيجة حاسمة[7][8] .

١ــ انظر ابن الاثير : الكامل ج ٣ ص ٢٨٣

٢ــ المرجع السابق ص ٢٨٤

٣ــ انظر ابن كثير : البداية والنهاية ج ٧ ص ٢٥٦ ــ ٢٥٧

٤ــ الطبري : تاريخ ج ٤ ص ٥٧٤

٥ــ انظر ابن الاثير : الكامل ج ٣ ص ٢٨٧

٦ــ المنقري : وقعة صفين ص ١٩٦ تحقيق عبد السلام محمد هارون ، الطبعة الثانية ٣٨٢ هـ

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أدرك علي بن أبي طالب ، هذه النتيجة، ورأى أن المطاولة في الحرب ليست في صالحه ، فهزم على حسم الموقف في معركة فاصلة وأعد جيشه للقتال، فجعل على ميمنته عبد الله بن بديل وعلى ميسرته عبد الله بن عباس... وعلي في القلب في أهل المدينة بين أهل الكوفة وأهل البصرة، وعظم من معه من أهل المدينة الأنصار، ومعه من خزاعة عدد حسن ومن كنانة وغيرهم من أهل المدينة))[1]. واصطدم الجيشان صداما عنيفا ، وأتيحت الفرصة لأصحاب النبي صلى الله عليه وسلم ممن كان في الجيش علي أن يقاتلوا((بنفس الحمية التي اصطنعوها وقت ارغامهم البدو من المرتدين ـ على اختيار واحد من اثنين : الموت أو الاسلام))[2]، فكان عمار بن ياسر، وهو شيخ جاوز التسعين يقول : هل من رائح الى الله تحت العوالي ، والذي نفسي بيده لنقاتلنهم على تأويله كما قاتلناهم على تنزيله ، والله لو هزمونا حتى يبلغوا بنا سعفات هجر لكنا على الحق وكانوا على الباطل))[3]. واندفع يقاتل حتى قتل ، واشتد القتال فتضعضعت ميمنة جيش علي[4] وهبت القبائل تدافع عن راياتها بحمية قبلية[5]، وقوي أمر أهل العراق وخشي أهل الشام الهلاك أمام شدة الضربات ولم يبق لهم صف الا أهمد[6]، وبات النصر أمام جيش علي وشيكا .

ولكن مكيدة رفع المصاحف أو قمت الفرقة والخلاف بين جند علي ، فأفسدوا على الخليفة رأيه في مواصلة الحرب لتحقيق نصر قريب[7]، ولم يقنعهم قوله :ان أهل الشام مارفعوا المصاحف الا للخديعة والدهاء والمكيدة[8]، وصادفت دعوة أهل الشام قبولا لدى بعض جند علي ، كالأشعث بن قيس الكندي، الذي أقل مايقال فيه أنه لم يكن مخلصا لقضية علي[9]، ومع الأشعث كان بعض القراء الذين غدوا خوارج فيما بعد ، وجهد علي في اقناعهم بوجهة نظره . ولكنهم رفضوا طاعته وصاحوا في وجهه :((ياعلي أجب الى كتاب الله عز وجل اذ دعيت اليه ، والا ندفعك برمتك الى القوم، أو نفعل كما فعلنا بابن عفان))[10].

١ـ الطبري : تاريخ ج ٥ ص ١٥

٢ـ دوزي : تاريخ مسلمي اسبانيا ج ١ ص ٤٧

٣ـ المسعودي : مروج الذهب ج ٢ ص ٣٨١

٤ـ انظر الطبري : تاريخ ج ٥ ص ١٨

٥ـ انظر المنقري : وقعة صفين ص ٤٠٨

٦ـ انظر ابن قتيبة : الامامة والسياسة ج ١ ص ١١١

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وبهكذا هددوا عليا بالموت أو دفعه الى خصومه ان رفض ايقاف القتال والكف عن الحرب، وطلبوا منه أن يبعث الى الاشتر الذي رجا أن يفتح عليه في تلك الساعة .

رضخ علي لمطالب الجند وأرغم على قبول وقف القتال وقد اقترب النصر وانصاع لرأي مخالفيه من جنود جيشه الذين ملّوا القتال فانتهزوا فرصة رفع المصاحف لتحقيق مآربهم . وأفسدوا تدبير الامام عليه ، وكان ذلك نجاحا كبيرا لمعاوية الذي يظهر أنه كان على اتصال ببعض الزعماء في جيش علي .(١)

التحكيم والخـــوارج :

توجه الاشعث بن قيس بإذن علي الى معاوية يستفسر عما أراد برفع المصاحف، فأجاب:((نرجع نحن وأنتم الى ما أمر الله به في كتابه ، تبعثون رجلا ترضون به ونبعث نحن رجلا نرضى به ، ناخذ عليهما أن يعملا بما في كتاب الله لا يعدوانه ثم نتبع ما اتفقا عليه))(٢). واختار معاوية عمرو بن العاص ممثلا له في الحكومة،(٣) فأراد علي أن يختار رجلا في مستوى دهاء عمرو، واقترح عبد الله بن عباس، فقال جنده :((ابن عباس ابن عمك ولا نريد الا رجلا هو منك ومن معاوية سواء))(٤)، فعرض عليهم اسم الاشتر النخعي فقالوا :((وهل سعّر هذه الحرب الا الاشتر))(٥)، ثم اختاروا أبا موسى الاشعري، فقال علي : ((اني لا أرى أن أولي أبا موسى ... فانه ليس لي بثقه ، قد فارقني وخذل الناس عني ثم هرب مني حتى آمنته بعد أشهر))(٦)، وحذرهم أن يخدع القرشي اليمني ، فقالوا وبوازع عصبي محض :((لا والله لا يحكم فيها مضريان حتى تقوم الساعة، ولكن اجعله رجلا من أهل اليمن اذ جعلوا رجلا من مضر))(٧). فرضخ علي لطلبهم، فارسلوا في طلب أبي موسى الاشعري(٨).

١ـ انظر المنقري : وقعة صفين ص٣٠٢ ـ ٣٠٣، ٣٦٦، ٤٠٨، ٤١٠، ٤١٤، ٤٨٦

٢ـ ابن الاثير : الكامل ج ٣ ص٣١٨

٣ـ انظر اليعقوبي : تاريخ ج ٢ ص١٨٩

٤ـ أبو الفداء : المختصر في أخبار البشر ج ١ ص١٧٧

٥ـ الدينوري : الاخبار الطوال ص١٩٢

٦ـ الطبري : تاريخ ج ٥ ص٥١

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ان عدم خضوع القبائل الذين كانوا ((أخبث جند وأعصاه))[١]، لتعليمات الخليفة وآرائه ، وانقسامهم وانعدام الوحدة والتآلف بينهم[٢]، قد قضى على واضطره الى سلسلة من التنازلات عند رغبتهم، من وقف القتال الى تعيين أبي موسى الأشعري، الذي لم يكن ليمثل وجهة نظر علي ، وقد اعتزله ولم ير رأيه ، كل ذلك قد حرم علي من ثمرة الانتصار بسبب حماقة جنوده وعصيانهم[٣] و بالمقابل أتاح نصرا معنويا لمعاوية بن أبي سفيان[٤] . وبالتالي يمكن القول أن صفين كانت بداية النهاية بالنسبة لخلافة علي .

واجتمع ممثلو الطرفين وكتبت بينهم صحيفة سجل فيها اتفاق الطرفين المتنازعين على تحكيم كتاب الله فيما شجر بينهما من خلاف ((فما وجد الحكمان في كتاب الله ، وهما أبو موسى عبد الله بن قيس، وعمرو بن العاص عملا به ، وما لم يجداه في كتاب الله فالسنة العادلة الجامعة غير المفرقة، وأخذ الحكمان من ... ((الطرفين)) .... من العهود والمواثيق أنهما آمنان على أنفسهما وأهليهما والأمة لهما أنصار على الذي يتقاضيان عليه ... ـ وعلى الحكمين ـ ... عهد الله وميثاقه أن يحكما بين هذه الأمة لا يردا ها في حرب ولا فرقة حتى يعصيا ...[٥])) وشهد الشهود ، وكتبت الصحيفة في صفر سنة سبع وثلاثين[٦] .

وتجدر ملاحظة بعض الآثار التي ترتبت على توقيع هذه الصحيفة، وأول ما يلاحظ أن عليا وافق على محو اسم أمير المؤمنين عن نفسه[٧] ، ونزل بذلك من مستوى الخليفة الشرعي الى مستوى معاوية الذي لم يكن أكثر من مطالب بدم عثمان ولا يستند في ذلك الى سند شرعي . ومن ناحية أخرى فقد كانت جميع ولايات الدولة التي تتبع سلطان علي تعادل عمليا ، كما جاء في صحيفة التحكيم، أهل الشام الذين أوفدوا عمرو بن العاص ممثلا، وتمثلت ولايات علي في شخص أبي موسى وليس في ذلك انصاف .

١ـ ابن عبد ربه : العقد الفريد ج ٥ ص ١٠

٢ـ انظر Lewis, Bernard: The Arabs in History. Page 62.

٣ـ انظر سيد أمير علي: مختصر تاريخ العرب ص ٤٦

٤ـ انظر Lewis, Bernard: The Arabs in History. Page 63.

٥ـ ابن الأثير : الكامل ج ٣ ص ٣٢٠

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

كما تجدر من ناحية أخرى ملاحظة أن الروايات التي بين أيدينا هي روايات عراقية، قد تغفل وجهة نظر أهل الشام.

ولم تحدد صحيفة التحكيم موضوع النزاع بين الأطراف المتنازعة تحديدا واضحا، ولكن أثرها على صفوف جيش علي كان واضحا ومنذ البداية، انقسام وفرقة واختلاف. وكانت هذه أخطر من صحيفة التحكيم نفسها، وقد خرج الأشعث بن قيس بالصحيفة يقرأها على الناس حتى مرّ على طائفة من بني تميم، فأقبل عليه عروة بن أدية قائلا: ((ما هذه الدنية يا أشعث وما هذا التحكيم، أشرط أوثق من شرط الله عز وجل، ثم شهر عليه السيف والأشعث مول فضرب به عجز البغلة))(١). ويروى أن عروة هذا كان أول من صاح: ((تحكمون في أمر الله الرجال ؟ لا حكم الا لله))(٢). وكانت هذه الصيحة بداية لظهور الخوارج ذوي المكانة المعروفة في تاريخ صدر الاسلام.

وفشت مقالة عروة بن أدية أو قل أنها وجدت آذانا صاغية في جيش علي، فحين انقلبوا راجعين الى الكوفة، عادوا بشر حال من الفرقة والاختلاف يتشاتمون ويتضاربون بالسياط ويتقاذفون بالتهم(٣)، وفي هذا الصدد يقول فلهوزن(٤): أدرك جند علي في طريقهم الى الكوفة ((أنهم قد خدعوا عن النصر خدعة تمسة، وكان أشدهم ندما أولئك الذين كانوا أول من وقع في شرك الخديعة فأضلوا غيرهم))(٥) فانحاز قسم من الجيش الى حروراء، وبلغ عددهم اثني عشر ألف رجل ولذلك سميت الخوارج حرورية. ويروى أن عليا هو الذي أطلق عليهم الاسم قائلا: ((أنتم الحرورية لاجتماعكم بحروراء))(٦). ورفضوا الدخول مع بقية الجيش الى الكوفة ((وناد ى مناديهم : أن أمير القتال شبث بن ربعي التميمي، وأمير الصلاة عبد الله بن الكواء اليشكري، والأمر شورى بعد الفتح، والبيعة لله عز وجل والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر))(٧). وعرف هؤلاء بالخوارج، أو المحكمة أو الشراة(٨). وشق انقسام الجيش على عليّ فبعث الى

١ــ المبرد : الكامل في اللغة والأدب ج ٣ ص ١٨٠ تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم. مكتبة نهضة مصر.

٢ــ ابن الأثير : الكامل ج ٣ ص ٣٢١

٣ــ انظر المسعودي : مروج الذهب ج ٢ ص ٣٩٤، الطبري : تاريخ ج ٥ ص ٦٣

٤ــ تاريخ الدولة العربية ص ٥٦

٥ــ انظر البغدادي : الفرق بين الفرق ص ٧٥ تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد. مكتبة

محمد علي صبيح. وحروراء : موضع بممدود من الكوفة نصف فرسخ. انظر ياقوت الحموي : معجم

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

المنشقين عبد الله بن عباس،[1] ثم خرج اليهم بنفسه وبيّن لهم أنه قبل التحكيم كارها، وذكرهم بقوله حين أرغموه على وقف القتال وقبول التحكيم، وأضاف أنه اشترط على الحكمين أن يحكما بما في كتاب الله، فان حكما بحكم القرآن فليس لنا أن نخالف، وان أبيا فنحن عن حكمهما برآء[2]، ودعاهم الى دخول الكوفة، فدخلوها جميعا الى حين.

ولم يكن الخوارج وحدهم هم الذين أعلنوا رفضهم التحكيم، فكان ذو والرأي في الكوفة، قاعدة علي، يقولون: ((ان عليا كان له جمع عظيم ففرقه، وحصن حصين فهدمه، فحتى متى يبني مثل ماقد هدم، وحتى متى يجمع مثل ما قد فرق. فلو أنه كان مضى بمن أطاعه اذ عصاه من عصاه، فقاتل حتى يظهره الله أو يهلك، اذن كان ذلك هو الحزم ...))[3].

وفي رمضان سنة سبع وثلاثين توجه الحكمان الى أذرح[4]، وبعث علي ((اربعمائة رجل، عليهم شريح ابن هانيء الحارثي وبعث معهم عبد الله بن عباس، وهو يصلي بهم ويلي أمورهم وأبو موسى الأشعري معهم، وبعث معاوية عمرو بن العاص في اربعمائة من أهل الشأم وتوافوا بأذرح))[5]. وتضطرب الروايات حول مكان اجتماع الحكمين بين دومة الجندل، وأذرح، فأبو مخنف يذكر دومة الجندل[6] كمكان لاجتماع الحكمين[7] في حين أن الزهري يذكر أذرح[8]. ونظرا للثقة التي يتمتع بها الزهري الراوية المدني المشهور، فاننا نميل الى أن الاجتماع تم في أذرح سيما وأن أبا مخنف يذكر المكانين معا وكأنهما مكان واحد[9].

حضر بعض أهل الحجاز الى أذرح ليشهدوا الحكومة ومن هؤلاء عبد الله بن عمر، وعبد الله بن الزبير، والمغيرة بن شعبة، وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام المخزومي، وعبد الرحمن بن عبد يغوث الزهري،

١ـ انظر اليعقوبي: تاريخ ج ٢ ص ١٩١

٢ـ انظر ابن الأثير: الكامل ج ٣ ص ٣٢٨

٣ـ المنقري: وقعة صفين ص ٥٢٩

٤ـ أذرح: بلد في أطراف الشام من أعمال الشراة ثم من نواحي البلقاء وبها كان أمر الحكمين. ياقوت: ج ١ ص ١٢٩ ـ ١٣٠، وانظر الطبري: تاريخ ج ٥ ص ٥٧، ٦٧

٥ـ الطبري: تاريخ ج ٥ ص ٦٧

٦ـ دومة الجندل: حصن وقرى بين الشام والمدينة قرب جبلي طيء. قاله أبو عبيد السكوني. ياقوت: معجم البلدان ج ٢ ص ٤٨٧

٧ـ انظر الطبري: تاريخ ج ٥ ص ٦٧

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وأبي جهم بن حذيفة، وعبد الرحمن بن أبي بكر، أمّا سعد بن أبي وقاص فقد كان على ماء لبني سليم بالبادية فأتاه ابنه عمر فقال :((يا أبي ، التقى الناس بصفين فكان بينهم ما قد بلغك، حتى تخانوا ، ثم حكموا الحكمين : عبد الله بن قيس وعمرو بن العاص، وقد حضر الناس من قريش عندهما ، وأنت من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن أهل الشورى ... ولم تدخل في شيء مما تكره هذه الأمة، فاحضر .. فانك صاحبها غدا))(٣). وهكذا تطور الأمر من محاولة فض النزاع حول مطالبة معاوية بقتل قتلة عثمان الى حكم في أمر الخلافة ولم يكن هذا قطعا في مصلحة علي كخليفة شرعي انعقدت بيعته ولزمت من تأخر عنها (٤). كما تبدو محاولة أهل الحجاز اليائسة للمشاركة في أحداث السياسة الهامة .

والتقى الحكمان، وتداولا في المهمة التي أسندت اليهما ، وبدأ عمرو بن العاص الكلام وأحسن اختيار قضية عثمان موضوعا للحديث (٥)، لعلمه المسبق برأي أبي موسى الذي انساق وراءه فاتفقا أن عثمان قتل مظلوما (٦). وأضاف عمرو : أن معاوية ولي دمه ، ومن حقه أن يطالب بقصاص قاتليه ، ثم تساءل : ((فما يمنعك من معاوية ولي عثمان يا أبا موسى ، وبيته في قريش كما قد علمت))(٧). ولكن أبا موسى رفض عرض عمرو هذا قائلا : انما هذا الأمر لأهل الدين والفضل من المهاجرين الأولين (٨). ورشح للخلافة عبد الله بن عمر قائلا :((ان طاوعتني أحيينا سنة عمر بن الخطاب وذكره بتوليتنا ابنه عبد الله الحبر))(٩). ولا بد هنا من الاشارة الى أن صفات الرجلين الشخصية قد لعبت دورا واضحا في المحاورات كما تجدر ملاحظة مبدأ الخلع الذي انساق اليه أبو موسى الأشعري .

١ــ انظر ابن كثير : البداية والنهاية ج ٧ ص ٢٨٢ ــ ٢٨٣

٢ــ انظر ابن الاثير : الكامل ج ٣ ص ٣٣٠

٣ــ المنقري : وقعة صفين ص ٥٣٨

٤ــ انظر ابن خلدون : المقدمة ج ٢ ص ٧٢٨

٥ــ انظر ابن الاثير : الكامل ج ٣ ص ٣٣١

٦ــ انظر ابن خلدون : العبر ج ٢ ق ٢ ص ١٧٧، المسعودي : مروج الذهب ج ٢ ص ٣٩٧

٧ــ انظر الطبري : تاريخ ج ٥ ص ٦٨

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ويكاد يجمع المؤرخون (١)، على أن الحكمين اتفقا على لم الشعث واصلاح ذات البين بخلع علي ابن أبي طالب ومعاوية بن أبي سفيان، ورد أمر الخلافة شورى بين الناس يختارون لها من شاءوا. وتقدم أبو موسى فاعلن ما اتفقا عليه ثم تلاه عمرو فاقر خلع علي، وثبت معاوية، ونقض العهد الذى أعطاه على نفسه، فهاج الناس وتشاتم الحكمان ثم انفض التحكيم. فأما أبو موسى فتوجه الى مكة وعاد وفد علي اليه، وأما عمرو بن العاص ومن معه من أهل الشام فعادوا الى دمشق، وسلّموا على معاوية بالخلافة (٢).

ويميل بعض المؤرخين المعاصرين الى الاعتقاد بأن الذي جرى فعلا هو خلع الحكمين للزعيمين. ومؤدى ذلك أن عليا وحده هو الذي خلع، اذ لم يكن معاوية خليفة بعد (٣). ويستند هذا الرأي الى رواية أوردها المسعودي (٤) تشير الى اتفاق الحكمين على خلع الرجلين وأنهما كتبا ذلك في صحيفة وختماها جميعا ثم احتفظ بها عمرو. ولكن المسعودي نفسه حين تحدّث عن الحكمين أشار الى اختلافهما عندما خدع عمرو أبا موسى (٥). والشيء المؤكد أن التحكيم لم يكن في صالح علي، وقوى موقف معاوية الذي اكتسب مكانة أكثر شرعية لتحدي خصمه (٦). ولذلك وصف أحد الباحثين حكم الحكمين أنه كان مهزلة (٧).

واذا قيست الأمور بنتائجها أمكن القول: أن الحكمين اخفقا اخفاقا مؤكدا في تحقيق مسعى حقن الدماء وجمع الالفة، وعادت الامة الى حالتها السابقة من الفرقة والاختلاف، وبصورة أشد بانقسام جيش علي وتوالي الفتن في وجه خلافته.

رفض علي قبول ماذهب اليه الحكمان - محقا - وتمسك بالبقاء في منصب الخلافة وبيّن رأيه قائلا: ((ألا ان هذين الرجلين اللذين اخترتموهما حكمين قد نبذا حكم القرآن وراء ظهورهما، وأحييا ما أمات

١- انظر الطبري: تاريخ ج ٥ ص ٦٧ - ٧١، ابن الاثير: الكامل ج ٣ ص ٣٣٢، ابن كثير: البداية والنهاية ج ٧ ص ٢٨٤، الدينوري: الاخبار الطوال ص ٢٠٠ - ٢٠١، المسعودي: مروج الذهب ج ٢ ص ٣٩٨

٢- انظر المنقري: وقعة صفين ص ٥٤٦

٣- انظر فيليب حتي: تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين ج ٢ ص ٣٣ ترجمة كمال اليازجي دار الثقافة بيروت ١٩٥٩م.

٤- انظر المسعودي: مروج الذهب ج ٢ ص ٣٩٧ - ٣٩٨، ٤٠١

٥- انظر المرجع السابق ص ٣٩٨ - ٣٩٩

٦- انظر

...The Arabs in History. Page 63.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

القرآن، واتبع كل واحد منهما هواه بغير هدى من الله ، فحكما بغير حجة بينة ولا سنة ماضية، واختلفا في حكمهما ، وكلاهما لم يرشد ،فبرئ الله منهما ورسوله وصالح المؤمنين))(١). وكانت الحكومة في شهر رمضان سنة سبع وثلاثين هجرية وقيل سنة ثمان وثلاثين هجرية(٢).

وساءت الأحوال بين أتباع علي ، وانتشرت الفتن : من الحرورية ، والخريت بن راشد ، وغارات أهل الشام المتعددة على مناطق نفوذ علي ، وفوق ذلك فوضى وعدم اطاعة الأوامر بين الجند .

النهـــــروان :

واصل الحرورية نقدهم للخليفة بعد عودتهم الى الكوفة(٣)، وطعنوا عليه حين أنفذ رجاله الى أذرح(٤) ، لحضور الحكومة. وأخذوا يقاطعون خطبه صائحين :((لا حكم الا لله))، فيقول : كلمة حق يراد بها باطل(٥)، نعم انه لا حكم الا لله ، ولكن هؤلاء يقولون : لا امرة ، وانه لابد للناس من أمير بر أو فاجر. ورغم أن تصرفات أعاريب بكر وتميم من الخوارج قد أزعجت أنصار علي الا أنه فضل مسالمتهم قائلا :((ان سكتوا عمناهم ، وان تكلموا حججناهم ، وان خرجوا علينا قاتلناهم))(٦).

وسرعان ما اتفق الخوارج فيما بينهم على الخروج من القرية الظالم أهلها(٧)، على حد زعمهم، وأوحت لهم الأحداث ، التي وقعت منذ أواخر خلافة عثمان الى التحكيم، امكانية الثورة على الامام، فأمّروا عبد الله ابن وهب الراسبي واتجهوا الى جسر النهروان وحدانا مستخفين ، وكاتبوا اخوانهم من أهل البصرة، يحثونهم على اللحاق بهم(٨). ثم ((عاثوا في الأرض فسادا وسفكوا الدماء وقطعوا السبل واستحلوا المحارم))(٩).

١ــ الطبري: تاريخ ج ٥ ص ٧٧

٢ــ انظر اليعقوبي : تاريخ ج ٢ ص ١٩٠ ، المسعودي: مروج الذهب ج ٢ ص ٣٩٥

٣ــ انظر الطبري: تاريخ ج ٥ ص ٧٢ ــ ٧٣

٤ــ ابن الأثير: الكامل ج ٣ ص ٣٣٥

٥ــ انظر ابن أبي الحديد : شرح نهج البلاغة ج ١ ص ٤٨٨

٦ــ الطبري: تاريخ ج ٥ ص ٧٢

٧ــ انظر ابن كثير: البداية والنهاية ج ٧ ص ٢٨٦

٨ــ انظر الطبري: تاريخ ج ٥ ص ٧٥

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وحين خرجت الخوارج من الكوفة أتى عليا أصحابه وشيعته وبايعوه قائلين :((نحن أولياء من واليته وأعداء من عاديت))(١)، وبدت الفرقة بين اتباع الخليفة وجنده واضحة للعيان : أنصار له شايعوه وأيدوه وعرفوا باسم الشيعة(٢)، وأعداء له خرجوا عليه وأكفروه(٣) وغلب عليهم اسم الخوارج(٤).

أراد علي أن يستأنف القتال والحرب ضد أهل الشام، حين بلغته نتائج التحكيم، فخطب أصحابه وذكّرهم مخالفتهم له في أمر الحكومة، وأبان لهم فساد حكم الحكمين وأنهما(٥) ((نبذا حكم القرآن وراء ظهورهما))(٦) ثم أمرهم بالاستعداد والتأهب للمسير الى الشام، وكتب الى الخوارج يدعوهم للانضمام الى الجيش قائلا : ((اذا بلغكم كتابي هذا فاقبلوا الينا فانا سائرون الى عدونا وعدوكم ونحن على الأمر الأول الذي كنّا عليه))(٧). وكان المرء يتوقع أن يسارعوا اليه اذ هم الذين أصروا بالأمس على الخروج لقتال أهل الشام ورفضوا التحكيم بعد أن أبرموه جملة وتفصيلا(٨)، ولكنهم في الواقع رفضوا دعوته(٩)، وطالبوه أن يشهد على نفسه بالكفر وأن يتوب كأي كافر لموافقته على التحكيم، وكتبوا اليه : ((انك لم تغضب لربك ، انما غضبت لنفسك، فان شهدت على نفسك بالكفر واستقبلت التوبة نظرنا في مابيننا وبينك))(١٠) فرأى علي أن يدعهم بعد أن يئس منهم.

ولم يمض كثير وقت حتى وصلت الى مسامع الخليفة أنباء افساد الخوارج في الأرض وعلم بمقتل عبد الله ابن خباب بن الأرت وزوجته وقتلوا غيرها من النساء(١١). ((فدعاهم علي الى الحق فامتنعوا وقتلوا كل من أرسله اليهم))(١٢). وكره جند علي أن يسيروا الى الشام ويتركوا عيالهم وأموالهم تحت رحمة الخوارج ، فتوجهوا الى أمير المؤمنين قائلين :((أين نمضي وندع هؤلاء الخوارج يخلفوننا في عيالنا وأموالنا ،

١ـ الطبري : تاريخ ج ٥ ص ٧٦

٢ـ انظر الشهرستاني : الملل والنحل ج ١ ص ١٤٦ تحقيق محمد سيد كيلاني ، مصطفى البابي الحلبي ١٩٦٧ م.

٣ـ انظر المبرد : الكامل في اللغة والأدب ج ٢ ص ١٣٤

٤ـ انظر النوبختي : فرق الشيعة ص ٦ تصحيح هـ ريتر، استانبول ١٩٣١

٥ـ الطبري : تاريخ ج ٥ ص ٧٧ ، وانظر المسعودي : مروج الذهب ج ٢ ص ٤٠٢

٦ـ انظر ابن الاثير : الكامل ج ٣ ص ٣٣٨

٧ـ ابن الاثير : الكامل ج ٣ ص ٣٣٩

٨ـ انظر الاشعري : مقالات الاسلاميين واختلاف المصلين ج ١ ص ١٣، ٦٣ـ٦٤ تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد ١٩٥٠ م

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

سر بنا اليهم فاذا فرغنا من قتالهم رجعنا الى قتال أعدائنا من أهل الشام))[1]. فسار علي بجيشه الى النهروان حيث الخوارج ، وحاول اقناعهم واحتج عليهم[2]، ورفع لهم راية أمان فجعل بعض يتسلل الى الكوفة، واعتزل بعض آخر، ورفض بعض ثالث دعوة علي ، وتنادوا للقتال[3]، فلم ير علي بدا من قتالهم فأوقع بهم ((فكان جملة من قتل من أصحاب علي تسعة، ولم يفلت من الخوارج الا عشرة، وأتى علي على القوم وهم أربعة آلاف))[4]، ورغم ما في هذه الرواية من مبالغة، الا أنه من المؤكد أن قسما كبيرا من الخوارج قد قتل، وفر الآخرون أو اعتزلوا القتال، ودخل قسم منهم الكوفة[5]، وكانت تلك الوقعة سنة ثمان وثلاثين[6]. وكان مع علي بن أبي طالب من أهل الحجاز سبعمائة أو ثمانمائة رجل عليهم قيس بن سعد[7].

اضطراب الأحوال في دولة علي ونهايته .

ولم تضع هزيمة الخوارج النكراء في النهروان حدا لحركتهم ((وكان من نتيجتها أن أصبح الصدع بين الخوارج والجماعة صدعا لا يمكن رأبه مدى الدهر))[8]. كما فتحت المعركة بابا جديدا من أبواب تفرق جند علي عليه بما خلفت في النفوس من حزازات لقتل الخوارج وهم أقارب الجند من أهل الكوفة والبصرة، وحين أمرهم الخليفة أن يواصلوا المسير الى الشام، قالوا : ((يا أمير المؤمنين ، نفدت نبالنا ، وكلت سيوفنا ، ونصلت أسنة رماحنا ، فأرجع بنا الى مصرنا لنستعد بأحسن عدتنا))[9]. ولم يكن ذلك الا تعللا وتخاذلا عن القتال ، فاضطر علي الى العودة بالجيش الى النخيلة((وأمر الناس أن يلزموا عسكرهم ويوطنوا على الجهاد أنفسهم وأن يقللوا زيارة أبنائهم ونسائهم حتى يسيروا الى عدوهم))[10]. وتجدر هنا ملاحظة خضوع علي لجنده ، وباستمرار مما أضاع عليه الفرص العديدة لحسم الأمور في صفين ، وفي التحكيم وقبل للنهروان وبعدها ، وأوقع ذلك عليا في ارباك مستمر ، فما أن وصل النخيلة حتى بدأوا ((يتسللون ويلحقون بأوطانهم فلم يبق معه الا نفر يسير))[11]، من وجوه الناس وترك المعسكر خاليا ((فلما رأى ذلك دخل الكوفة وأنكسر

١ــ ابن الطقطقي : الفخري في الآداب السلطانية والدول الأسلامية ص٩٤ دار صادر بيروت٩٦٦ م
٢ــ انظر اليعقوبي : تاريخ ج ٢ص١٩٢
٣ــ انظر الطبري : تاريخ ج ٥ ص ٨٦
٤ــ المسعودي : مروج الذهب ج ٢ ص ٤٠٦
٥ــ انظر المبرد : الكامل ج ٢ ص ١٢٠
٦ــ انظر الطبري : تاريخ ج ٥ ص ٩٢
٧ــ انظر المرجع السابق ص ٨٥

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

عليه رأيه في المسير))[1]. ومما يصوّر حال جند علي ما حكاه أبو مخنف ، حين قال : ((فمنهم الممتل، ومنهم المكره ، وأقلهم من نشطها))[2].

استيلاء معاوية على مصـــر : واذا كانت الصعاب قد أضعفت موقف علي فهي بالمقابل أتاحت لمعاوية ظروفا مواتية فازداد أمره وقوي خطره اذ كان جيشه على عكس جيش خصمه تماما . فانتهز الفرصة وأنفذ جيشا الى مصر بقيادة عمرو بن العاص سنة ثمان وثلاثين هجرية[3] ، اذ لم يكن لمعاوية ، حين اختلف الناس بالعراق على علي ، :((همّ الا مصر، وكان يهاب أهلها لقربهم منه ، وشدتهم على من كان على رأي عثمان ، وكان يرجو أنه اذا ظهر عليها ظهر على حرب علي لعظم خراجها))[4]. ولا سيما أن عليا ((أغفل أن يشترط على معاوية أن لا يقاتل أهل مصر))[5]، ويسّر على معاوية تنفيذ خططه من كان من أهل مصر على رأيه ومظاهرتهم له بزعامة مسلمة بن مخلد الأنصاري ومعاوية بن حديج الكندي وكانا قد خالفا عليا بمن أطاعهما[6].

والحقيقة أن معاوية كان يتطلع الى مصر منذ وقت أسبق من هذا الوقت حين أدرك ثقلها السياسي والاقتصادي فعندما بعث علي قيس بن سعد أميرا على مصر سنة ست وثلاثين واستقامت أمورها لـــه ((كان أثقل خلق الله على معاوية لقربه من الشام، ومخافة أن يثقل علي في أهل العراق وقيس في أهل مصر فيقع بينهما معاوية))[7]. وازاء ذلك كتب الى قيس يدعوه الى متابعته ويمنيه امرة العراقين ان ظفر وانتصر[8]. فامتنع قيس على معاوية الذي أعمل الحيلة، وكاد قيسا وزعم أنه من شيعته . وقال : لأهل الشام :((لا تسبّوا قيسا ولا تدعوا الى غزوه ، فان قيسا لنا شيعة تأتينا كتبه ونصيحته ـــ سرا ـــ ألا ترون ماذا يفعل باخواتكم النازلين عنده بخربتا ، يجرى عليهم أعطياتهم وأرزاقهم ويؤمّن سربهم ويحسن الى كل راكب يأتيه منهم))[9]. وبلغ ذلك عليا فاتهم قيسا وكتب اليه يأمره بقتال أهل خربتا[10]، فرفض قيس فعزله الخليفة وأمّر مكانه الأشتر الذي لم يلبث أن لاقى حتفه في القلزم[11]، فولّى علـــي

١ـ ابن الاثير : الكامل ج ٣ ص ٣٤٩
٢ـ الطبري : تاريخ ج ٥ ص ٩٠
٣ـ انظر اليعقوبي : تاريخ ج ٢ ص ١٩٤
٤ـ ابن الاثير : الكامل ج ٣ ص ٣٥٤
٥ـ الكندي : ولاة مصر ص ٥٢
٦ـ انظر الطبري : تاريخ ج ٥ ص ٩٩

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

محمد بن أبي بكر فاضطربت عليه البلاد ، اذ لم يكن مثل قيس بن سعد في رأيه ومكانه ، وطمعت فيه العثمانية وأظهروا له المعارضة ، وتثاقل الناس عنه (١).

وفي هذه الظروف قدم جيش معاوية الى مصر بقيادة عمرو بن العاص سنة ثمان وثلاثين للهجرة واشتد القتال بين الفريقين ، وانتهى بتغلب عمرو بن العاص وقتل محمد بن أبي بكر (٢)، ودانت مصر لمعاوية بن أبي سفيان وتحققت أمانيه في الاستيلاء عليها.

وفي الوقت الذي كان معاوية يحقق فيه الانتصار ويستولي على القسم الغربي من الدولة ، كان علي يرقب اختلاف أصحابه عليه بألم بالغ ويصفهم في كتاب لعبد الله بن عباس ويخبره بمقتل محمد بن أبي بكر قائلا: ((قد كنت قمت في الناس في بدئه ، وأمرتهم بغياثه قبل الوقعة ودعوتهم سرا وجهرا ، وعودا وبدءا ، فمنهم من أتى كارها ، ومنهم من اعتل كاذبا ، ومنهم القاعد حالا ..)) (٣).

ويروي ابن الأثير أن عليا أخبر جنده خبر مصر وقصد عمرو اياها وندبهم الى انجادهم وحثهم على ذلك قائلا: ((اخرجوا بنا الى الجرعة ، وهي بين الكوفة والحيرة ، فلما كان الغد خرج الى الجرعة فنزلها بكرة وأقام بها حتى انتصف النهار فلم يأته أحد فرجع)) (٤). فأصبح علي كارها لهم راغبا عن الاقامة بينهم (٥).

ولا شك أن ضعف مركز الخليفة قد ترك أثره على أطراف دولته ((فانتقضت عليه أطرافه ، وخالفه بنو ناجية ، وقدم ابن الحضرمي البصرة ، وانتقض أهل الأهواز وطمع أهل الخراج في كسره ثم أخرجوا سهل بن حنيف من فارس وكان عامل علي عليها)) (٦). كما كان علي يلقى من ولاته وعماله الأمر الشديد فكان يقول : وليت فلانا فأخذ المال ، ووليت فلانا فخانني الى غير ذلك (٧)، ولكن أقوى الضربات التي زعزعت خلافة علي كانت نجاح معاوية في ضم مصر اليه ، وأصبح الأخير اثر ذلك مطلق اليدين لا سيما وقد أمن اعتداء الروم بالهدنة التي عقدها معهم (٨).

١ــ ابن الأثير : الكامل ج ٣ ص ٢٧٣، ٣٥٦

٢ــ انظر الطبري : تاريخ ج ٥ ص ١٠٣

٣ــ الطبري : تاريخ ج ٥ ص ١٠٦

٤ــ ابن الأثير : الكامل ج ٣ ص ٣٥٨

٥ــ انظر الطبري : تاريخ ج ٥ ص ١٠٦

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

شن معاوية الغارات:

ورغم معرفة معاوية بالصعوبات التي كانت تواجه عليا فلم يجرؤ على مهاجمته هجوما عاما ، واكتفى بشن الغارات على بعض المناطق التي كانت تدين بالطاعة لعلي جنى منها أهل الشام مكاسب مادية وأخرى معنوية . ففي سنة ثمان وثلاثين للهجرة وجه عبد الله بن عمرو الحضرمي لاحداث الفزع والاضطراب في البصرة ودعوة القبائل فيها الى الثورة على علي فأجارته بنو تميم (١) . ولم يستطع زياد نائب ابن عباس على البصرة أن يخمد الفتنة فاستمد علي (٢) ، فأرسل جارية بن قدامة التميمي الذي قتل ابن الحضرمي (٣) وأخمد فتنته ، كما وجه معاوية سنة تسع وثلاثين النعمان بن بشير الى عين التمر فأغار على مالك بن كعب الأرحبي عامل علي عليها (٤) ((وأغار الضحاك بن قيس على القطقطانة (٥)))، وسفيان بن عوف الذي أغار على هيت ثم أتى الأنبار فقتلوا صاحب المسلحة في ثلاثين رجلا ((واحتملوا ما كان في الأنبار من الأموال وأموال أهلها ، ورجعوا الى معاوية (٦)))، وسيّر عبد الله بن مسعدة الفزاري الى الحجاز ((فجهز اليه علي خيلا فالتقوا بتيماء وانهزم أصحاب معاوية ولحقوا بالشام (٧)))، وقيل أن نجاة أهل الشام كانت لمداهنة قائد خيل علي وغشه أمير المؤمنين في قومه (٨) . وسار معاوية في جيش لجب حتى بلغ دجلة ثم كر راجعا (٩) .

وتظهر هذه الحملات والغارات التي شنها معاوية ، حال أمير المؤمنين والضعف الذي مني به بين أهل العراق ، فكان كما قال : ((اذا قلت لكم سيروا في الشتاء ، قلتم كيف نغزوا في هذا القر والصر ، واذا قلت لكم سيروا في الصيف قلتم حتى ينصرم عنا حمارة القيظ وكل هذا فرار من الموت)) (١٠) . فكان يرى من خلاف أصحابه واضطراب جنده وتبديل أصحابه مثل مايرى خصمه من طاعة خاصته ونصرة جنده وثبات عهد أصحابه (١١) .

١- انظر ابن كثير : البداية والنهاية ج ٧ ص ٣١٧
٢- انظر ابن خلدون : العبر ج ٢ ق ٢ ص ١٨٢
٣- انظر ابن الأثير : الكامل ج ٣ ص ٣٦٢
٤- انظر ابن كثير : البداية والنهاية ج ٧ ص ٣٢٠
٥- اليعقوبي : تاريخ ج ٢ ص ١٩٥
٦- الطبري : تاريخ ج ٥ ص ١٣٤
٧- أبو الفداء : المختصر في أخبار البشر ج ١ ص ١٧٩
٨- انظر اليعقوبي : تاريخ ج ٢ ص ١٩٧

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ومن أبرز الغارات التي شنها معاوية كانت حملة بسر بن أبي أرطاة الى الحجاز واليمن، فسار حتى قدم المدينة ودخلها دون قتال عندما فرّ منها أبو أيوب الأنصاري عامل علي عليها، فاعتلى بسر منبر النبي صلى الله عليه وسلم ونادى: ((يادينار، يانجار، يازريق! وهذه بطون من الأنصار، شيخي شيخي عهدته هاهنا بالأمس فأين هو ؟))[1]. ويبدو أنه كان يحمّل الأنصار مسئولية تخاذلهم عن نصرة عثمان، وارتكب كثيرا من الآثام، فهدم الدور[2]، ونهب الأموال طبقا لوصاة معاوية له كما ذهب اليعقوبي[3]. ونحن نستبعد أن تصدر مثل هذه الوصاة من معاوية الذي يذكر الثقاة أنه عهد الى بسر بعكس ذلك تماما[4]. كما روي من خطب بسر قوله في أهل المدينة: ((والله لولا ماعهد الي معاوية ما تركت بها محتلما))[5]. ويبدو أن قسوة بسر كانت تصرفا شخصيا ((فسفك الدماء واستكره الناس على البيعة لمعاوية))[6]. وهدم بعض دور بالمدينة كانت لبعض المناصرين لعلي، وكان ذلك سنة أربعين هجرية.

ومضى بسر في حملته الى مكة فلم يرع بها أحدا[7]، ثم مضى الى اليمن وأسرف في القتل[8]. ولم يتورع عن قتل طفلين صغيرين من أبناء عبيد الله بن عباس. وقضى على جماعة كثيرة من شيعة علي، منهم عبد الله بن عبد المدان الحارثي خليفة عبيد الله بن عباس على اليمن[9].

وحين بلغ عليا خبر بسر بن أبي أرطاة وجه جارية بن قدامة السعدي في ألفين ووهب بن مسعود في ألفين، ولم يكد جارية يدنو من اليمن حتى فر منها بسر بن أبي أرطاة الى الشام. وانتهى جارية الى نجران فقتل بها ناسا من شيعة عثمان، ثم سار في أثر بسر حتى وافى مكة حيث علم بمقتل أمير المؤمنين، فطلب من أهلها البيعة لمن بايع له أصحاب علي ففعلوا، وأخذ بيعة أهل المدينة للحسن بن علي، ثم خرج منصرفا الى الكوفة[10].

١ـ ابن الاثير: الكامل ج ٣ ص ٣٨٣
٢ـ انظر ابن كثير: البداية والنهاية ج ٧ ص ٣٢٢
٣ـ انظر تاريخ اليعقوبي ج ٢ ص ١٩٧
٤ـ انظر الطبري: تاريخ ج ٥ ص ١٣٩
٥ـ ابن الاثير: الكامل ج ٣ ص ٣٨٣
٦ـ أبو الفداء: المختصر في أخبار البشر ج ١ ص ١٧٩

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وهكذا فشلت حملة بسر بن أبي أرطاة على الحجاز في تحقيق غرض معاوية بالسيطرة عليها ونجحت قوات الخليفة في استعادتها . وتظهر الحملة ضعف أطراف دولة علي ، وعجز أهل الحجاز عن الوقوف أم جند بسر الذين لم يتجاوزوا ثلاثة آلاف مقاتل ، (١) ذلك أن الحجاز كانت قد خلت من القوة العسكرية التي انتقلت الى الأمصار . وتهيأ لذلك غدت تحتل دورا ثانويا في الصراع الدائر حول الخلافة .

ولم تقتصر الصعوبات التي واجهت خلافة علي على انتزاع مصر وغارات جند معاوية على ولايات الخليفة ، بل تجاوزت ذلك الى فتن داخلية أبرزها فتنة الخريت بن راشد ، سنة ثمان وثلاثين ، والذي خالف الامام بحجة عدم رضوخه لقرار الحكمين ، فسار بمن تبعه الى الأهواز ((وجعلوا لا يمرون ببلد الا انتهبوا بيت ماله)) (٢) . ثم لحق بالبحرين ((وبها جماعة من قومه كثير ، فما زال بهم يسير فيهم ويدعوهم الى خلاف علي ، ويبين لهم فراقه ، ويخبرهم أن الهدى في حربه ، حتى اتبعه منهم ناس كثير ...)) (٣) . ونجح الخريت بن راشد في جمع الناس حوله حين أظهر لكل فريق أنه معهم وعلى رأيهم ، فاذا اجتمع بالخوارج أظهر لهم أنه يرى رأيهم ، واذا اجتمع مع آخرين قال لهم : انه ما كان ينبغي لعلي أن يرفض حكم الحكمين بعد أن قبل مبدأ التحكيم واختار ممثلا عنه ، واذا اجتمع مع الذين امتنعوا عن دفع الزكاة قال لهم : شدوا أيديكم على صدقاتكم ، وأوصاهم أن يدفعوها الى فقرائهم لا الى بيت المال ، وحرض قبائل عبد القيس ومن والاهم من القبائل ، وانضم اليه جماعة من النصارى الذين كانوا قد أسلموا ثم ارتدوا الى النصرانية حين رأوا سفك الدماء بين المسلمين والخلاف بين الجماعة الاسلامية ، فوسوس لهم أن عليا سيضرب أعناقهم لارتدادهم عن الاسلام . (٤)

وتبعت جيوش الخليفة الخريت بن راشد وتمكنت من القضاء عليه وعلى اتباعه (٥) ، فانتهت فتنته بعد أن شغلت جزءا من جهود ووقت الخليفة الذي كانت الأخطار تحيط به من كل جانب ، اذ أشعل الخوارج نيران فتن جديدة بعد النهروان ، فخرج أشرس بن عوف الشيباني في مائتين بالدسكرة ثم سار الى الأنبار ، (٦) ومن تيم الرباب خرج هلال بن علفة ، وخرج من بجيلة الأشهب بن بشر ، وكان أبو مريم السعدي

١ـ انظر الطبري : تاريخ ج ٥ ص ١٣٩

٢ـ اليعقوبي : تاريخ ج ٢ ص ١٩٥

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

التميمي من أكثرهم جرأة وشجاعة، فقدم بمن تبعه من الخوارج حتى قارب الكوفة (١). هذا بجانب ((طمع أهل فارس وأهل كرمان في كسر الخراج ، فغلب أهل كل ناحية على مايليهم وأخرجوا عمالهم)) (٢). وأصبح حال خلافة علي كما وصف : ((كلما حيصت من جانب تهتكت من جانب)) (٣).

ان الاضطرابات التي انتشرت في دولة علي ، وعدم خضوع أتباعه لأوامره وتعليماته ، واستقرار الأحوال وطاعة الجند لدى معاوية بن أبي سفيان، قد شجّعت هذا الأخير على التطلع الى اتخاذ لقب الخليفة ، فبايعه أهل الشام في بيت المقدس (٤). وذكر المسروقي أن معاوية بويع بالخلافة بايلياء سنة أربعين هجرية (٥). كما نقل فلهوزن خبر تنصيب معاوية خليفة عن المؤرخ السرياني الذي قال : ((في عام ٩٧١ من حكم السلوقيين اجتمع كثير من العرب في بيت المقدس ونصّبوا معاوية ملكا ، فصعد معاوية الى جبل الجلجلة، وصلى هناك ثم صعد الى جيتسماني ، ثم هبط الى قبر السيدة مريم وصلّى .... وفي شهر يوليه سنة ٩٧١ اجتمع الأمراء وكثير من العرب وبايعوا معاوية، وصدر الأمر بأن ينادى به ملكا في جميع أنحاء بلاده ، ولكنه لم يحمل تاجا ، كما يحمله ملوك العالم، على أنه أقام عرشه في دمشق، ولم يرد أن يذهب الى مقر النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ)) (٦). ولذلك فانه من الخطأ القول أن خلافة معاوية قد جرت بعد وفاة علي ، بل قبلها ذلك أن شهر يوليه من عام ٩٧١ من حكم السلوقيين (٦٦٠م) يبتدئ في ١٦ صفر سنة ٤٠ هـ، في حين أن الاعتداء على حياة علي جرى في السابع عشر من شهر رمضان من نفس العام (٧).

وقد رد عليّ على بيعة معاوية أن استنفر جيشه ، واستنهضهم لقتال عدوهم ((فبايعه أربعون ألفا من عسكره على الموت لما ظهر ماكان يخبرهم به أهل الشام ...)) (٨) وبينما كان يتجهز للمسير ويعد العدة للحرب والخروج لها ، اغتاله عبد الرحمن بن ملجم يوم الجمعة الخامس عشر أو السابع عشر من رمضان سنة أربعين هجرية (٩).

١ـ انظر ابن الاثير : الكامل ج ٣ ص ٣٧٢ـ ٣٧٣
٢ـ الطبري : تاريخ ج ٥ ص ١٣٧
٣ـ اليعقوبي : تاريخ ج ٢ ص ١٩٦
٤ـ انظر الطبري : تاريخ ج ٥ ص ١٦١
٥ـ تاريخ الدولة العربية ص ٩٦ ـ ٩٧
٦ـ انظر فلهوزن : تاريخ الدولة العربية ص ٩٧

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ان انتقال علي بن أبي طالب الى جوار ربه قد ترك المجال واسعا أمام معاوية بن أبي سفيان لتدعيم موقفه ، وتوطيد أركان دولته . وتحول موقفه من الدفاع عن الشام الى مهاجمة العراق،(١) ثم لم يلبث أن دخل الكوفة في الخامس والعشرين من شهر ربيع الأول سنة احدى وأربعين(٢) . وأخذت له البيعة بحضور الحسن بن علي ،(٣) واجتمع الناس على خليفة واحد . وسمي ذلك العام عام الجماعة . وانتهت بذلك فترة مريرة ، جنى الأمويون ثمارها بوصول زعيمهم معاوية بن أبي سفيان الى سدة الخلافة، وأصبح الحاكم الحقيقي للمسلمين(٤) . وانتقل مركز الحكومة الى دمشق، وحرمت الحجاز من امتيازات الزعامة والصدارة ، تلك التي نعمت بها زمن الرسول الكريم وخلفائه الراشدين باستثناء الخليفة الرابع الذي خرج الى الكوفة لضرورات الحرب المؤقتة، والتي يمكن أن تزول بزوال الفتن . واختلف الحال كثيرا حين استقرت الخلافة بين يدي معاوية بن أبي سفيان .

١ـ روى اليعقوبي : تاريخ ج ٢ ص ٢١٤ أن معاوية سار الى الموصل بعد قتل علي بثمانية عشر يوما .

٢ـ اختلف الرواة في تحديد الشهر الذي تسلّم فيه معاوية الأمر . انظر ابن الأثير : الكامل ج ٣

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الفصل الثاني

قيام الخلافة الأموية بالشام وأثر ذلك في الحجاز

موقف أهل الحجاز من خلافة معاوية بن أبي سفيان

بيعة يزيد بن معاوية ومعارضة أهل الحجاز لها

وفاة معاوية ووصيته الى ابنه يزيد

بوادر ثورة أهل الحجاز على خلافة يزيد بن معاوية

موقف الحسين بن علي

حالة الحجاز بعد مقتل الحسين بن علي

ثورة أهل المدينة ووقعة الحرة

حصار ابن الزبير في مكة ـ الحصار الأول ـ

وفاة يزيد وموقف الجيش الشامي من ابن الزبير

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

بويع الحسن بن علي بالخلافة(١)، في الكوفة بعد وفاة أبيه في معسكر ((مضطرب بين الخوارج والشيعة والموالي والاتباع الذين لايعملون عمل الاتباع طائعين ولايعملون عمل الرؤساء مقتدرين مضطلعين))(٢). وكان الحسن بن علي يدرك تماما واقع حاله بين هؤلاء العسكر، فاشترط عليهم حين بايعوه قائلا : ((.. انكم مطيعون تسالمون من سالمت وتحاربون من حاربت))(٣)، حين رأى منهم فشلا وتواكلا عن الحرب(٤).

ولم يتمكن الحسن من تنظيم دولته التي شملت العراق والحجاز، اذ انتهز معاوية بن أبي سفيان الظروف التي خلفتها وفاة علي، فاقبل بجيوشه واجتاز أرض الجزيرة وأقام في مسكن(٥)، وأخذ ينتظر ما تسفر عنه الأمور في العراق. وازاء ذلك اضطر الحسن الى الخروج لصد أهل الشام، وقدم بين يديه أربعين ألفا وجعل على قيادتهم قيس بن سعد بن عبادة(٦).

ورغم تلك الاستعدادات العسكرية وتحريك جيوش الطرفين، الا أن شوط الحرب لم يبعد بعضه بعيدا، فالحسن كان يفكر في الصلح أكثر من تفكيره في مواصلة الحرب، ورغب في وضع نهاية لها تحقن دماء المسلمين(٧)، سيما وأن الحسن قد مر بتجربة أبيه في الحكم كلها، ونظر فوجد أن قائد الجيش قيس بن سعد بن عبادة(٨)، يخالفه الرأي في السلم ويرغب في مواصلة قتال معاوية. وازاء ذلك ما كان من الحسن بن علي الا أن عزل قيس بن سعد وأسند منصب قيادة الجيش الى عبد الله بن عباس أو أخيه عبيد الله(٩). وحين علم عبد الله بن عباس برغبة الحسن في الصلح كتب الى معاوية : ((يسأله الأمان لنفسه على ما أصاب من مال(١٠)، وغيره، فأجابه الى ذلك))(١١).

ويجدر بنا أن نستعرض الروايات التاريخية التي تناولت تنازل الحسن بن علي عن الخلافة لصالح معاوية بن أبي سفيان خصم والده اللدود.

١- لم يوص علي بالخلافة لأحد، وقال حين سئل عمن يخلفه وهو على فراش الموت : ((لا آمركم ولا أنهاكم، وأنتم أبصر)).
انظر المسعودي : مروج الذهب ج ٢ ص٤١٣، الطبري : تاريخ ج ٥ ص١٤٧

٢ = عباس محمود العقاد : معاوية بن أبي سفيان في الميزان ص١٨٥ دار الكتاب العربي بيروت ١٩٦٦

٣- ابن الأثير : الكامل ج ٣ ص٤٠٢

٤ = انظر الدينوري : الأخبار الطوال ص٢١٦

٥- مسكن : موضع على نهر دجيل عند دير الجاثليق. ياقوت : معجم البلدان ج ٥ ص١٢٧

٦- انظر الطبري : تاريخ ج ٥ ص١٦٤

٧- انظر ابن حجر : الاصابة في تمييز الصحابة ج ٢ ص٢٤٥ تحقيق طه محمد الزيني ١٩٦٨

٨- انظر اليعقوبي : تاريخ ج ٢ ص٢١٤، ابن كثير : البداية والنهاية ج ٨ ص١٤

٩- يستفاد من رواية الزهري الذي انتقل الى جوار ربه قبل قيام الدولة العباسية أن الحسن أمر عبد الله بن العباس(انظر الطبري : تاريخ ج ٥ ص١٥٨) وزعم المؤرخون الذين كتبوا في عهد العباسيين أن الحسن عين عبيد الله بن عباس، وذلك كي ينقذوا سمعة

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وقد أورد الطبري[1] رواية الزهري التي تذكر أن الحسن قد تعرض لطعنة كادت أن تودي بحياته، بعد بيعة أهل العراق له بقليل، فأدت هذه الطعنة - فيما أدت اليه من نتائج - أن أصبح يبغض أنصاره العراقيين، وقويت لديه الأسباب التي دفعته في طريق الصلح. ولم يشرح الزهري الأسباب أو الظروف التي عرضت الحسن للطعن. وتستمر الرواية قائلة: فكاتب الحسن معاوية، وذكر له الشروط التي يريدها للتنازل عن الخلافة، ومن بينها مبلغ كبير من المال، فقد كان الحسن - على حد زعم الرواة - : ((لا يرى القتال، ولكنه يريد أن يأخذ لنفسه ما استطاع من معاوية، ثم يدخل في الجماعة))[2]. وعلى ذلك انتهت المفاوضات بموافقة معاوية على شروط الحسن فتنازل الأخير في شهر ربيع الأول[3] أو شهر ربيع الثاني - على خلاف في الرواية -.

وواضح أن رواية الزهري هذه، تحط من قدر الحسن بن علي، وتظهره بمظهر المتهافت على الصلح في سبيل أن يأخذ لنفسه ما استطاع من معاوية. هذا بالاضافة الى ما ذكرنا من حيث أن هذه الرواية لا تفسر ظروف وأسباب طعن الحسن مما حفزه الى الاستمرار في مساعي الصلح.

وبجانب هذه الرواية، ترد في تاريخ الطبري[4] روايات أخرى تتلخص في أن الحسن خرج بعد أن بايعه الناس حتى نزل المدائن، لملاقاة معاوية وأهل الشام الذين عسكروا في مسكن، وبعث - أي الحسن - قيس بن سعد على مقدمة الجيش في اثني عشر ألفا، لا على الجيش كله كما جاء في الرواية السابقة. وبينما كان الحسن في المدائن نادى مناد في العسكر: ألا ان قيس بن سعد قد قتل، فانفروا. ونتيجة لذلك وقعت بين الجنود فوضى استغلها الحاقدون فنهبوا سرادق الحسن حتى نازعوه بساطا كان تحته. فخرج الحسن حتى نزل المقصورة البيضاء بالمدائن[5]. وفكر بعض اتباعه بالقبض عليه وتسليمه الى معاوية تقربا اليه وطمعا في المال والنفوذ. ومن هناك راسل الحسن معاوية في الصلح وفي تنازله له عن الخلافة، بالرغم من معارضة الحسين ابن علي وعبد الله بن جعفر. فأرسل اليه معاوية: عبد الله بن عامر وعبد الرحمن بن سمرة فصالحهما الحسن على جملة شروط أهمها: أن يأخذ ما في بيت ماله - وكان فيه خمسة الاف ألف - وخراج دارابجرد والا يشتم علي وهو يسمع، ((وعلى أن لا يطالب - معاوية - أحدا من أهل المدينة والحجاز والعراق بشيء مما كان أيام أبيه))[6]. وقبل معاوية تلك الشروط، فتنازل الحسن له عن الخلافة، واعتبر ابن العربي[7] تنازل الحسن هذا عقد منه لمعاوية بالخلافة.

١- انظر الطبري: تاريخ ج ٥ ص١٦٢ - ١٦٤

٢- الطبري: تاريخ ج ٥ ص١٥٨

٣- يروي المسعودي: مروج الذهب ج ٢ ص٤٢٦ أن معاوية دخل الكوفة بعد صلح الحسن لخمس بقين من شهر ربيع الأول سنة احدى وأربعين للهجرة.

٤- انظر الطبري: تاريخ ج٥ ص ١٥٩ - ١٦٠

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أما المؤرخون الذين لهم ميول علوية ، فانهم يسردون قصة تنازل الحسن بن علي عن الخلافة بشكل يخالف الروايات السابقة، ويذكرون أن ذلك التنازل لم يكن عن طيب خاطره وانما كان نتيجة لظروف غادرة تتلخص في أن معاوية كان يدس الى عسكر الحسن من يتحدث أن قيس بن سعد قد صالح معاوية وصار معه، ويوجه الى عسكر قيس من يتحدث أن الحسن قد صالح معاوية . ثم أنه بعث المغيرة بن شعبة وعبد الله بن عامر وعبد الرحمن بن أم الحكم فجاءوا موفدين الى الحسن ، وحين خرجوا من عنده كادوا له ،وأذاعوا : أن الحسن قد أجاب الى الصلح وحقن الله به الدماء وسكّن به الفتنة ، فاضطرب العسكر ولم يشكوا في صدق رسل معاوية ، فوثبوا بالحسن فانتهبوا مضاربه ((حتى انتزعوا مطرفة عن عاتقه)) (٢) فخرج الى المدائن ، وبينما كان في الطريق اليها ، خرج له الجراح بن سنان الأسدي من مكمن اتخذه ، وجرح الحسن بمعول في فخذه (٣) ، فحمله أتباعه الى المدائن ، ((وقد نزف نزفا شديدا ، واشتدت به العلة ، وافترق عنه الناس)) (٤) ، فلم يبق أمامه الا التنازل لما ناله من أهل الكوفة (٥) ،وتوضح هذه الرواية ظروف طعن الحسن بشكل أفضل من رواية الزهري السابقة .

أما معاوية بن أبي سفيان فقد أرسل الى الحسن ، قبل أن تصل اليه شروطه التي أشرنا اليها ،أرسل اليه صحيفة بيضاء مختوم على أسفلها ،وكتب اليه : ((أن اشترط في هذه الصحيفة التي ختمت أسفلها ما شئت فهو لك)) (٦) . فلما أتت الحسن ((اشترط أضعاف الشروط التي سأل معاوية قبل ذلك وأمسكها عنده)) (٧) ، كما أمسك معاوية صحيفة الحسن التي أرسلها اليه وفيها ما رضي به من شروط .

وتم بذلك الصلح ، ودخل معاوية الكوفة في ربيع الأول - أو الآخر أو جمادي الأولى - عام ٤١ هـ (٨) ، وجرت مراسيم البيعة له ((وسمي ذلك العام عام الجماعة (٩) لاجتماع المسلمين فيه بعد الفرقة)) (١٠) ووقف الحسن خطيبا - بأمر معاوية - فقال بعد أن حمد الله : ((أما بعد ،أيها

١ـ انظر مثلا اليعقوبي : تاريخ ج ٢ ص٢١٥
٢ـ الدينوري: الأخبار الطوال ص٢١٧
٣ـ انظر النوبختي : فرق الشيعة ص٢١
٤ـ اليعقوبي : تاريخ ج ٢ ص٢١٥
٥ـ انظر المسعودي : مروج الذهب ج ٢ ص ٤٣٠ - ٤٣١
٦ـ الطبري: تاريخ ج ٥ ص١٦٢
٧ـ ابن الأثير : الكامل ج ٣ ص ٤٠٥
٨ـ انظر دائرة المعارف الاسلامية ج ٢ ص٦٦٥ ترجمة ابراهيم زكي خورشيد سنة ١٩٣٥م

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الناس،فان الله هداكم بأولنا ،وحقن دماءكم بآخرنا ،وان لهذا الأمر مدة ،والدنيا دول ،وان الله تعالى قال لنبيه صلى الله عليه وسلم ((وان أدري لعله فتنة لكم ومتاع الى حين)) (١) .

وتجدر الاشارة الى الأسباب التي دفعت الحسن بن علي الى السير في طريق الصلح وبالتالي التنازل عن الخلافة الى معاوية ،فالحسن الذي عاصر الأحداث والفتن التي أدت الى مقتل عثمان بن عفان ثم مقتل علي بن أبي طالب قد كوّن له رأيا في اعتزال الفتنة ، واصلاح ذات البين بين المسلمين وحقن دمائهم ، لاسيما وهو يتذكر حديث جده النبي صلى الله عليه وسلم حين قال بشأنه : ((ابني هذا سيد ،ولعل الله أن يصلح به بين فئتين من المسلمين)) (٢) . فالحسن اذن كان مهيئا نفسيا لابرام الصلح مع معاوية ، وتحققت النبوءة ،وحقنت الدماء ،وتفرغ المسلمون لجهاد عدوهم ونشر دينهم في مشارق الأرض ومغاربها .

كما أن عدم استقرار الشعب المتقلب الأهواء بالعراق ،والذي حطم آمال الأب أدى بالابن الى التنازل السريع عن الحكم (٣) ،فالحسن لم يكد يتولى الخلافة حتى خذله أتباعه ثم طعنوه (٤) ،فيئس من غدر موازريه العراقيين الذين أسرفوا في الوعود ،ومرهنوا على نكث الوعود ، وحين سئل الحسن عما حمله عما فعل قال : ((كرهت الدنيا ورأيت أهل الكوفة قوما لا يثق بهم أحد أبدا الا غلب ،ليس أحد منهم يوافق آخر في رأي ولا هوى ، مختلفين لا نيّة لهم في خير ولا شر ، لقيت لقي أبي منهم أمورا عظاما ....)) (٥) ، هذا بجانب اساءتهم اليه فهم كما قال : ((يا أهل العراق ، انه سخى بنفسي عنكم ثلاث : قتلكم أبي (٦) ، وطعنكم اياي ، وانتهابكم متاعي)) (٧) .

ثم ان الحسن لم يكد يتولى الخلافة حتى أقبلت جيوش معاوية دون أن تترك له فرصة اعادة تنظيم الجيش والادارة المضطربة ، فما كان منه الا أن خرج للحرب دون أن يعد لها كامل عدتها ، اما معاوية بن أبي سفيان فقد كان في وضع يختلف من حيث التآلف والطاعة بين جنده (٨) ، واقبال الناس عليه ، وازديادهم يوما عن يوم مقابل تفرقهم وادبارهم واختلافهم في عسكر الحسن ،الذي (٩)

١ــ الآية ١١١ من سورة الأنبياء . والنص من : ابن كثير : البداية والنهاية ج ٨ ص١٨ ، وانظر كذلك المقريزي: النزاع والتخاصم فيما بين بني أمية وبني هاشم ص٦٣ تصحيح محمود عرنوس مكتبة الأهرام .

٢ــ البخاري : الصحيح ج ٤ ص٢٤٩ ، دار ومطابع الشعب .

٣ــ انظر سيد أمير علي : مختصر تاريخ العرب ص٦١

٤ــ انظر ابن كثير : البداية والنهاية ج ٨ ص١٦ ،المسعودي: مروج الذهب ج ٢ص٤٣٠

٥ــ ابن الأثير : الكامل ج ٣ ص٤٠٧

٦ــ سخى بنفسه : تركه

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ورثه عن أبيه . مما جعل الحسن يدرك تماما أنه لاقبل له بحرب معاوية فجنح الى الصلح .

ويبدو أن الحسن قد أدرك حقيقة الأمور ، وقدّر ظروفه تقديرا حسنا ، وشعر نتيجة لذلك بعدم قدرته على حرب أهل الشام بين أتباعه الذين يعدونه بالمؤازرة وفي نفس الوقت يراسلون معاوية ويتقربون اليه ((ويلتمسون الأمان لأنفسهم وعشائرهم))(١) . ولذلك أمكن القول أن الحسن أصاب فيما ذهب اليه من اجراء الصلح .

الا أن اقرار الصلح لم ينته دون أن يترك أثرا من سوء تفاهم بين الرجلين ، حين حاول كل منهما أن يتمسك بالشروط التي بين يديه ، فالحسن تمسك بالشروط التي كتبها في الصحيفة التي ختمها معاوية وأرسلها اليه ، وتمسك معاوية كذلك بما بين يديه من شروط كانت قد وصلته من الحسن(٢) . وترك ذلك مجالا واسعا لأن يفسر كل منهما : أنه صالح الآخر بموجب مابين يديه من شروط(٣) . أما معاوية فقد وفى للحسن ببعض الشروط خاصة مايتعلق منها بالناحية المادية ، اذ أن معاوية قد بر الحسن بالمال(٤) ، فعاش في المدينة عيشة من لايحسب للمال حسابا . ولكنه - أي معاوية - لم يف للحسن بشروط أخرى(٥) ، فلم يمتنع عن سب علي من فوق المنابر ، كما أنه حرّض سكان البصرة على طرد عمال الحسن من دار ابجرد ، وقالوا : فيئنا(٦) ، ولم يروا لأحد غيرهم فيه حق ، ولاشك أن موقف أهل البصرة هذا قد تم بموافقة معاوية ورضاه ، اذ لا يعقل أن معاوية كان يعجز عن اسكاتهم لو أراد ذلك .

أما الحسن بن علي فقد بر بوعوده لمعاوية ، وكتب الى قيس بن سعد يأمره بالدخول في طاعة معاوية(٧) ، فكبر ذلك على نفس قيس ، فقام في الناس خطيبا وقال : ((أيها الناس اختاروا الدخول في طاعة امام ضلالة أو القتال مع غير امام . فقال بعضهم : بل نختار الدخول في طاعة امام ضلالة ، فبايعوا معاوية أيضا))(٨) . واجابة الجند لقيس بن سعد تدل على مدى تأثر الناس

---

١ - الأصفهاني : مقاتل الطالبيين ص٦٠

٢ - انظر ابن الأثير : الكامل ج ٣ ص ٤٠٥

٣ - انظر الطبري : تاريخ ج ٥ ص١٦٢ - ١٦٣

٤ - انظر ابن عبد ربه : العقد الفريد ج ١ ص٢٦٨ ، أبو الفداء : المختصر ج ١ ص١٨٣
السيوطي : تاريخ الخلفاء ص١٩٣

٥ - انظر دائرة المعارف الاسلامية ج ٢ص ٦٦٩ ، أبو الفداء : المختصر ج ١ ص١٨٣

٦ - انظر الطبري : تاريخ ج ٥ ص١٦٥

٧ - انظر الدينوري : الأخبار الطوال ص٢١٨

٨ - ابن الأثير : الكامل ج ٣ ص٤٠٧

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

للحرب ، ورغبتهم في وضع حد لها ، وأنها أصبحت بدون جدوى ، مما يؤيد صدق حديث الحسن فيما ذهب اليه .

وقد حاول قيس بن سعد أن يستثير (١) الهمم للمضي في محاربة معاوية ، الا أن الكثيرين من رجاله قد انفضوا من حوله ، وأرسل اليه معاوية بسجل مختوم في أسفله ، وترك له أن يحدد الشروط التي يريدها من أجل (٢) البيعة والدخول في الطاعة . فلم يشترط قيس الا الأمان له ولشيعة علي على ما أصابوا من الدماء والأموال ، (٣) ولم يطلب مالا لشخصه ، فقبل معاوية ذلك منه ، وأعطاه الأمان الذي سأل ، (٤) فدخل قيس ومن معه في طاعة معاوية وكانوا يعدونه من دهاة الناس. (٥)

وقد علق بعض المؤرخين على هذه الحوادث بقوله : ((اعتبر المسلمون انتصار بنى أمية ، وعلى رأسهم معاوية انتصارا للارستقراطية الوثنية التى ناصبت الرسول وأصحابه العداء ، والتى جاهدها رسول الله حتى قضى عليها ، وصبر معه المسلمون على جهادها ومقاومتها حتى نصرهم الله ، فقضوا عليها وأقاموا على انقاضها دعائم الاسلام ، ذلك الدين السمح الذى جعل الناس سواسية في السراء والضراء ، وأزال سيادة رهط كانوا يحتقرون الفقراء ، ويستذلون الضعفاء ويغتزون الأموال ، لذلك لا تدهش اذا كره المسلمون بنى أمية وغطرستهم وكبرياءهم واثارتهم الأحقاد القديمة ، ونزوعهم للروح الجاهلية ، ولا سيما أن جمهور المسلمين كانوا يرون بين الأمويين رجالا كثيرين لم يعتنقوا الاسلام الا سعيا وراء مصالحهم الشخصية)) (٦) ويبدو أنه من الصعب قبول هذا الرأي ، فمن هم المسلمون الذين عنوا بهذا القول تحديدا وأن كفة معاوية كانت تزداد قوة يوما بعد يوم ، وأن الكثيرين وفدوا عليه (٧) وأيدوه ، أما علي فكان في وضع يختلف ، ورأى البعض ((أن بيعته لم تنعقد لافتراق الصحابة أهل الحل والعقد بالآفاق)) (٨) هذا بجانب الذين اعتزلوه وتخلفوا عن بيعته من أهل الحجاز . وأكثر من هذا ذهب الخضرى : ((أن علينا لم نكن محبوبا من شيوخ عصره لاهماله مشورتهم ولشدة اعتداده بنفسه وشدته عليهم شدة لم يعد (٩)

١ـ انظر اليعقوبي : تاريخ ج ٢ ص ٢١٦
٢ـ انظر ابن الأثير : الكامل ج ٣ ص ٤٠٨
٣ـ انظر الطبرى : تاريخ ج ٥ ص ١٦٤
٤ـ انظر ابن خلدون : العبرج ٢ ق ٢ ص ١٨٧
٥ـ انظر ابن الأثير : الكامل ج ٣ ص ٤٠٨
٦ـ انظر Nicholson: A Literary History of the Arabs. page 193.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

لها مايبررها في مثل تلك الظروف)) .

ويبدو أن هذا الرأى يعتمد على تأخر بني أمية في دخولهم الاسلام ، ولعل نيكلسون قد عمم آراء الشيعة على جميع المسلمين ، الشيعة الذين كانوا يكرهون الأمويين ، ويتمنون زوال دولتهم . خاصة وأنه ـ أي نيكلسون ـ ينقل عن اليعقوبي ذي الميول العلوية قول معاوية : أنا أول الملوك . ويعارض فان فلوتن هذا الرأي قائلا ان : ((السواد الأعظم من العرب يرى في حزب بني أمية حزب الدين والنظام)) .

وارتحل الحسن بن علي الى المدينة وأقام بها بعد ابرام الصلح ، ورفض دعوة معاوية له بقتال الخوارج ، وصحبه الى المدينة الحسين بن علي ، وعبد الله بن جعفر بحشمهم .

وأدى تنازل الحسن الى سخط بعض أصحابه وشيعته سواء في الحجاز أم في العراق ، فكان منهم من يقول له : ((ياعار المؤمنين ، فيقول العار خير من النار)) . وقال له آخر ((السلام عليك يامذل المؤمنين ، فقال : لست بمذل المؤمنين ، ولكن كرهت أن أقتلكم على الملك)) .

وهذه الاجابات انما تعني أن الحسن قد رضى كل الرضا عن ابرامه الصلح مع معاوية بن أبي سفيان . ذلك الصلح الذي حقن الدماء ووضع نهاية للحرب الأهلية ، وأعاد توحيد الصفوف الى حين . مما أتاح لمعاوية أن ينصرف الى تنظيم دولته ومنها اقليم الحجاز حيث بدأ عصر جديد من عصور الحكم في الدولة الاسلامية هو العصر الأموي وقاعدته مدينة دمشق .

موقف أهل الحجاز من خلافة معاوية .

اختلف موقف المسلمين من خلافة معاوية بن أبي سفيان بين التأييد والمعارضة . أما المؤيدون فمنهم من بايع عن ايمان كأهل الشام ، ومنهم من كان يسعى لمنفعة مادية يصيبها بايع من أجلها ، ومنهم من بايع خوفا ورهبة كبعض أهل الأمصار خاصة العراق .

ويتلخص رأي مؤيدي خلافة معاوية في أن الخلافة لابد منها ، ثم أنهم رأوا أن الحسن بن علي قد تنازل عن الخلافة له ، وطلب من الناس أن يسمعوا له قائلا : ((اني قد بايعت معاوية

١ ـ انظر Nicholson: A Literary History of The Arabs. Page193

٢ ـ انظر تاريخ اليعقوبي ج ٢ ص ٢٣٢

٣ ـ السيادة العربية والشيعة والاسرائيليات في عهد بني أمية ص ٧١ ترجمة حسن ابراهيم حسن ، مكتبة النهضة المصرية ١٩٦٥م .

٤ ـ انظر ابن عبد ربه : العقد الفريد ج ١ ص ١٤٨

٥ ـ انظر الدينوري : الأخبار الطوال ص ٢١٨

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فاسمعوا له وأطيعوا (١)) ، وفي ذلك ((عقد منه له (٢)) . فأصبح معاوية وليا للأمر ، والناس ملزمون (٣) بالسمع والطاعة له عملا بالآية الكريمة ((يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم (٤)) .

ولكن الحقيقة أن وصول معاوية الى الخلافة قد صوحب بأحداث لامثيل لها في سوابق اختيار الخلفاء الأربعة الراشدين ، ولم ينتخب انتخابا عاما من جميع أهل الحل والعقد في المدينة المنورة . وانما رضي به أهل الشام وبايعوه واعتمد عليهم في تحدي الخليفة ومنازعته ، وتمكن آخر الأمر بفضل قوته من تحقيق أمانيه في تولي الخلافة ، ومن هنا اتخذ الكثيرون من أهل الحجاز موقف المعارضة من خلافة معاوية . ثم أخذت المعارضة بالتدريج ترضى عن معاوية وتسلم الأمر له .

وقد ساعدت صفات معاوية الشخصية في اجتذاب القلوب اليه ، فقد كان كريما باذلا للمال ، محبا للرياسة مشغوفا بها ، وكان يفضل على أشراف رعيته كثيرا ، يغدون عليه بدمشق فيكرم مثواهم ويحسن قراهم ويقضي حوائجهم ... وكان عاقلا في دنياه عالما حليما مكلا قويا جيد السياسة حسن التدبير لأمور الدنيا ، على حد ما ذهب اليه ابن الطقطقى (٥) الذي أضاف ((ومثل هذه السيرة صار خليفة العالم ، وخضع له من ابناء المهاجرين والأنصار كل من يعتقد أنه أولى منه بالخلافة)) . كما وصف الخضري (٦) سياسة معاوية قائلا : ((لم يكن أحد أوفر منه يدا في السياسة صانع رؤوس العرب وقروم مضر بالاغضاء والاحتمال والصبر على الأذى والمكروه ، وكانت غايته في الحلم لاتدرك وعصابته فيه لاتنزع ومرقاته فيه تزل عنها الأقدام)) . فأدهش من تولى أمرهم بحلمه وعلمه (٧) .

ومن هذه السياسة أن معاوية كان يؤمن أن شراء الناس وطاعتهم بالمال خير من قطع أعناقهم بالسيف ، فأغدق الأموال حتى اذا نفد ماليديه كتب الى عمرو بن العاص واليه على مصر : ((ان سؤال أهل الحجاز ، وزوار أهل العراق قد كثروا علي ، وليس عندي فضل من أعطيات الجنود فأعني بخراج مصر هذه السنة (٨)) .

---

١ - ابن حجر : الاصابة في تمييز الصحابة ج ٢ ص ٢٤٦

٢ - ابن العربي : العواصم من القواصم ص ٢٠١

٣ - أولي الأمر : هم الأئمة والأمراء والولاة وطاعتهم ، فيما وافق الحق والعدل وكان فيه للمسلمين مصلحة ، واجبة . انظر الطبري : جامع البيان عن تأويل آي القرآن ج ٥ ص ١٥٠ ومابعدها ، مكتبة مصطفى البابي الحلبي ١٩٥٤م الطبعة الثانية .

٤ - سورة النساء : آية ٥٩

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ولا شك أن هذه العطايا والصلات قد ساعدت في التقريب بين الحاكم والمحكوم، ومن ذلك أن معاوية أغدق الأموال على بني هاشم بالحجاز، وروي أنه قال للحسن بن علي حين وفد عليه بعد عام الجماعة: ((والله لأحبونك بجائزة ما أجزت بها أحدا قبلك ولا أجيز بها أحدا بعدك))(١)، ثم أمر له بمبلغ كبير من المال، فلاغرابة اذن أن سكت الهاشميون وأوصوا - كذلك - شيعتهم بالسكوت قائلين لهم: ((ليكن كل رجل منكم حلسا من أحلاس بيته مادام معاوية حيا))(٢)، كما أن معاوية لم ينس أن يذكرهم فضله عليهم بما وهبهم من أموال كقوله: ((يا بني هاشم، والله ان خيري لكم لممنوح، وان بابي لكم لمفتوح، فلا يقطع خيري عنكم علة، ولا يوصد بابي دونكم مسألة. ولمّا نظرت في أمري وأمركم رأيت أمرا مختلفا، انكم لترون أنكم أحق بما في يدي مني، واذا أعطيتكم عطية فيها قضاء حقكم قلتم: أعطانا دون حقنا وقصر بنا عن قدرنا ...))(٣) فسكوت بني هاشم لا يخلو من معارضة رغم صلات معاوية لهم، اذ كانوا يرون أحقيتهم بالخلافة أكثر من بني أمية الذين نالوها بالقوة.(٤)

ولكن معاوية بن أبي سفيان استطاع أن يكسب القلوب بالرغبة أو الرهبة، أو التهديد وبذل الأموال، فهدأت الأوضاع مما مكّن معاوية من توجيه الجيوش الى الفتوحات ففتحت مدينة القسطنطينية.(٥) ولجأ الى بث القصاص في المساجد والمجتمعات يدعون لدولته وينفرون من أعدائها،(٦) وأثمرت سياسة معاوية تلك مما جعل الناس يركنون الى الهدوء، لاسيما وقد ظهر لهم بوضوح عبث مقاومة الرجل الذي فاز بالخلافة رغما عن معارضة المعارضين.

وقد كان أهل الحجاز من هؤلاء المعارضين، بل من أشدهم معارضة للدولة الأموية ولخلافة معاوية، فأهل الحجاز كانوا يرون أن الخلافة حق المهاجرين الأولين وابنائهم بالشورى، لا في الأمويين الذين ليس لهم سابقة في الاسلام، بل ووقفوا موقف العداء منه وتزعموا الأحزاب لسواده، وأسلم أكثرهم بعد فتح مكة. ثم تزعم معاوية الفئة الباغية ضد خلافة علي حتى وصل الى سدة الحكم، وكان عبد الله بن عمر يقول: ((ما أجد في نفسي من الدنيا الا أني لم أقاتل الفئة الباغية))(٧). وفي هذا الصدد ذكر المقريزي(٨) أن ((ليس لبني أمية سبب الى الخلافة ولا بيتهم وبينها نسب الا أن يقولوا :

١- ابن عبد ربه: العقد الفريد ج ١ ص ٢٦٨
٢- ابن قتيبة: الامامة والسياسة ج ١ ص ١٤٢
٣- ابن عبد ربة: العقد الفريد ج ٤ ص ٨٢
٤- يؤكد تلك النظرة: أن سعد بن مالك دخل على معاوية فقال: ((السلام عليك أيها الملك، فغضب معاوية فقال: ألا قلت: السلام عليك يا أمير المؤمنين؟ قال: ذاك أن كنا أمرناك، انما أنت منتز)). اليعقوبي: تاريخ ج ٢ ص ٢١٧
٥- انظر ابن الأثير: الكامل ج ٣ ص ٤٥٨، ٤٩٧، المسعودي: مروج الذهب ج ٣ ص ٢٤
٦- انظر محمد كرد علي: الاسلام والحضارة العربية ج ٢ ص ١٤٨

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

انا من قريش، فيساوون في هذا الاسم قريش الظواهر، لأن قوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : ((الأئمة من قريش)) (١)، واقع على كل قرشي، ومع ذلك فأسباب الخلافة معروفة، وما يدعيه كل جيل معلوم .. فان كانت انما تنال الخلافة بالوراثة وتستحق بالقرابة وتستوجب بحق العصبية فليس لبني أمية في ذلك متعلق عند أحد من المسلمين . وان كانت لاتنال الا بالسابقة فليس لهم في السابقة قديم مذكور ولا يوم مشهور ... فقد عرفنا كيف كان أبو سفيان في عداوته النبي)) .

وأصبحت الحجاز ـ مهد الاسلام ـ على هامش الامبراطورية (٢)، حين استقرت خلافة معاوية في دمشق، وتحولت من مركز الصدارة بين الأقاليم الاسلامية الى مجرد ولاية، ولم يكن ذلك ليرضى أهل الحجاز الذين كانوا يريدون أن تكون الخلافة في بلادهم . فما دامت الحكومة المركزية في المدينة فالنفوذ الاسلامي هو المسيطر، اذ كان بامكان أصحاب النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ المخلصين أن يحاولوا تنظيم المجتمع الجديد (٣)، حسب تعاليم النبي صلى الله عليه وسلم ـ . ولكن عندما جعل معاوية دمشق عاصمة له تغيرت الأوضاع، وغدت المدينة ـ سياسيا ـ مجرد مكان يقيم فيه من الحكومة الوالي . وأكثر من ذلك أن الحجاز أخذت تدفع خراجها فيحمل في كل سنة شيء من أوساق التمر والحنطة الى دمشق (٤).

وبجانب ذلك ((لم يصل الوئام بين معاوية وبين قريش بوجه عام الى ما كان ينبغي أن يكون عليه)) (٥) فقد كانت بنو مخزوم تتهم معاوية بالايعاز بقتل عبد الرحمن بن خالد بن الوليد، الذي عظم شأنه بالشام، ومال اليه أهلها (٦) ((لما كان عندهم من آثار أبيه خالد بن الوليد، ولغنائه عن المسلمين في أرض الروم وبأسه، حتى خافه معاوية، وخشي على نفسه منه، لميل الناس اليه)) (٧) فأمر معاوية ابن أثال النصراني أن يحتال في قتله، مقابل أن يضع عنه الخراج ماعاش، فتخلص منه ابن اثال عن طريق شربة سم دسها اليه (٨). ورغم أن ابن القتيل ثأر لمقتل أبيه بقتل ابن أثال (٩)، الا

---

١ ـ احمد بن حنبل : المسند ج ٣ ص١٢٩، ١٨٣

٢ ـ انظر ديمومبين : النظم الاسلامية ص٢٨

٣ ـ انظر أرنولد : الخلافة ص١٠ ترجمة جميل معلي . دار اليقظة العربية ١٩٤٦

٤ ـ انظر اليعقوبي : تاريخ ج ٢ ص٢٣٤

٥ ـ فلهوزن : تاريخ الدولة العربية ص١٣٠

٦ ـ انظر المصعب الزبيري نسب قريش ص٣٢٤ ـ ٣٢٥

٧ ـ الطبري : تاريخ ج ٥ ص٢٢٧

٨ ـ انظر ابن الأثير : الكامل ج ٣ ص٤٥٣

٩ ـ انظر الطبري : تاريخ ج ٥ ص٢٢٧ ـ ٢٢٨

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أن ذلك الحادث قد أثر تأثيرا سلبيا في نفوس بني مخزوم تجاه الأمويين حتى قيل : ((أن بني مخزوم كلهم كانوا زبيرية سوى الحارث بن خالد ...)) (١) .

ولم تكن العلاقات وديّة كذلك ، بين معاوية والأنصار الذين كان كثير منهم يؤيد خلافة علي بن أبي طالب ، ويقف ضد معاوية كأبي أيوب الأنصاري (٢) ، كما ((شهد صفين مع علي من أصحاب بدر سبعة وثمانون رجلا ، منهم سبعون من الأنصار)) (٣) ، ووقف قيس بن سعد بن عبادة أحد زعماء الأنصار موقفا معاديا لمعاوية ، وذكر اليعقوبي (٤) أن قيس بن سعد خطب في الناس حين بايعوا معاوية فقال : ((يامعشر الناس لقد اعتضتم الشر من الخير ، واستبدلتم الذل من العز ، والكفر من الايمان ، فأصبحتم بعد ولاية أمير المؤمنين وسيد المسلمين وابن عم رسول رب العالمين ، وقد وليكم الطليق ابن الطليق يسومكم الخسف ويسير فيكم بالعسف)) . وبجانب هذه الدلالات التي تلقي ضوءا على حقيقة العلاقات المتبادلة بين الطرفين ، تبادل الأمويون والأنصار الهجاء المر المقذع في عهد خلافة معاوية (٥) .

وقد أدرك معاوية والأنصار مابينهما من جفاء ، وأفصحت ألسنة الطرفين عن هذه الحقيقة ، انظر مثلا الى أبي قتادة الأنصاري يخاطب معاوية بهذا اللفظ الشديد حين قدم معاوية الى المدينة ولقيه أبو قتادة فقال معاوية : ((تلقاني الناس كلهم غيركم يا معشر الأنصار . قال : لم يكن لنا دواب ، فقال : فأين النواضح ؟ قال : عقرناها في طلبك وطلب أبيك يوم بدر)) (٦) . ومعاوية نفسه يعلم حقيقة موقف الأنصار من ولايته التي لم تسرّهم ، وأنه نال الخلافة بعد أن جالدهم بسيفه ، وعندما قدم المدينة عام الجماعة ، فقام وصعد المنبر ثم قال : ((أما بعد فاني والله ماوليتها بمحبة علمتها منكم ولا مسرّة بولايتي ، ولكني جالدتكم بسيفي هذا مجالدة ...)) (٧) وينسحب هذا القول على أهل المدينة من أنصار وسواهم .

وازاء ذلك سلك معاوية مسلكا خاصا مع الأنصار ، فحين اجتمعت الأنصار عنده يوما ، قال : ((يامعشر الأنصار ، بم تطلبون ما قبلي ؟ فوالله لقد كنتم قليلا ممي كثيرا عليّ ولفللتم حدي يوم صفين حتى رأيت المنايا تلظى في أسنتكم ، وهجوتموني في أسلافي بأشد من وقع الأسنة ، حتى

---

١ ـ الأصفهاني : الأغاني ج ٣ ص ٣١٦ دار الكتب المصرية . انظر المصعب الزبيري : نسب قريش ص ٣٢٧

٢ ـ انظر المسعودي : مروج الذهب ج ٢ ص ٣٥٩

٣ ـ المرجع السابق ص ٣٥٢

٤ ـ تاريخ اليعقوبي ج ٢ ص ٢١٦ ـ ٢١٧

٥ ـ انظر دوزي : تاريخ مسلمي اسبانيا ج ١ ص ٥٣

٦ ـ السيوطي : تاريخ الخلفاء ص ٢٠١

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

اذا أقام الله ما حاولتم ميله ، قلتم : ارع فينا وصية رسول الله صلى الله عليه وسلم(١) ، ولا شك أن مثل هذه المواقف جعلت من الأنصار قوما يعارضون بني أمية ويكرهون حكومتهم كما أثبتت الأحداث التي وقعت فيما بعد .

وقد عزا فان فلوتن(٢) أسباب الجفاء بين معاوية والأنصار الى العداء القديم بين الفريقين ، في حين يرى الجاحظ(٣) أن السبب في ذلك يعود الى استبداد معاوية ((على بقية الشورى وعلى جماعة المسلمين من الأنصار والمهاجرين حين استوى على الملك)) .

ومن الواضح أن وصول معاوية الى الخلافة ، لم يكن يماثل تماما ما اعتاد أهل الحجاز في انتخاب الخلفاء ، يضاف الى ذلك أن ((النوادي الدينية في مكة والمدينة المتمسكة بالأحاديث والسنن النبوية كانت تحس بأن الأمويين نقلوا الخلافة الى حكم زمني متأثر باسباب دنيوية مطبوع بالعظمة وحب الذات(٤))) وبالتالي كانت المعارضة الحجازية ذات تأثير سلبي على الحكومة ، رغم أنها لم تلجأ الى القوة المسلحة في هذا الوقت المبكر من خلافة بني أمية(٥) .

الا أن معاوية بن أبي سفيان قد استطاع أن يتخطى العقبات بما عرف عنه من حلم وأناة ودهاء ، فقد كان : ((حازما شجاعا جوادا حليما سيدا كأنما خلق للملك)) (٦) واتسع صدره فوسع جفاء أهل الحجاز ، فقد قال يوما لقيس بن سعد بن عبادة : ((يا قيس ، والله كنت أود أن تنكشف الحروب التي كانت بيني وبين علي وأنت حي . فقال قيس: والله اني كنت أكره أن تنكشف تلك الحروب وأنت أمير المؤمنين . فلم يقل له شيئا وعلق على ذلك ابن الطقطقي فقال - وهذا من أجمل ما كانوا يخاطبونه به)) (٧) .

ودعمت أهمية الحجاز معاوية بن أبي سفيان أن يختط لادارتها سياسة متميزة تختلف عن سياسته في ادارة سائر الأقاليم الاسلامية ، ونسارع الى القول أن سياسة معاوية في الحجاز قد أثارت مشاعر أهلها ، ومهدت الطريق للأحداث والحركات الثورية التي سنأتي على ذكرها في البحث .

١ - المسعودي : مروج الذهب ج ٣ ص ١٧

٢ - انظر فان فلوتن : السيادة العربية والشيعة والاسرائيليات ص ٦٩

٣ - انظر الجاحظ : رسالة في بني أمية ص ٩٣

٤ - أرنولد : الخلافة ص ١٠ - ١١

٥ - انظر Lewis, Bernard: The Arabsin History. Page 73

٦ - الدياربكري : تاريخ الخميس ج ٢ ص ٢٩٢

٧ - ابن الطقطقي : الفخري في الآداب السلطانية ص ١٠٥

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وقد حرص معاوية على اسناد الحكم في المدن الحجازية الى أقربائه من الأمويين ، ففي سنة اثنتين وأربعين ولى مروان بن الحكم المدينة ، فاستقضى مروان عبد الله بن الحارث بن نوفل .(١) وكان مروان في ولايته على المدينة يجمع أصحاب رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، يستشيرهم ويعمل بما يجمعون له عليه .(٢) أما مكة فقد أسند معاوية حكمها الى خالد بن العاص ابن هشام .(٣) وكان معاوية اذا أراد أن يولي رجلا من بني حرب ولاه الطائف ، فان رأى منه ما يعجبه ولاه مكة معها ، فان أحسن الولاية وقام بما ولى قياما حسنا جمع له معهما المدينة .(٤)

كان هؤلاء بمثابة نواب عن الخليفة ، يشرف كل منهم على أمور ولايته ،(٥) فينظر في الاحكام واليه تقليد القضاة ، ويقبض الصدقات ، ويحمي الدين ، ويقيم حدود الشرع ، ويؤم المسلمين في الصلاة ، ويقود الجيش ، كما أن ولاة الحجاز كانوا يحجون بالناس في معظم الأحيان .(٦) بالاضافة الى اشراف الوالي على الأعمال العمرانية التي يعهد الخليفة بها اليه .(٧)

ويظهر أن اختيار معاوية ولاة الحجاز من بني أمية بالذات ، يعود الى الحرص والخوف من أن يحتذى أقرباؤه طريقته في الوصول الى الخلافة ، فلم يول - في غالب الأحيان - أحدا احدى الأمصار الكبرى ، واكتفى بأن جعل لهم السيطرة والنفوذ في الحجاز ، ذلك الاقليم الفقير ماديا ومشريا ، والذي كان ، ومازال ، يحتل أهمية دينية فائقة .

ولعل معاوية رأى كذلك أن أقرباءه الأمويين خير من يراقب أهل الحجاز اذ هم الأصل على حد تعبيره .(٨) وأن الأمويين بحكم صلتهم بهذا الاقليم سيعاملون سكانه معاملة أرفق وألين مما قد يعاملهم به سواهم من الولاة .

الا أن الملاحظة الهامة هي أن معاوية بن أبي سفيان لم يترك ذوى قرباء الأمويين يتمتعون بحكم الحجاز في هدوء وسكينة ، بل حرص على الايقاع بينهم ، فاتخذ أسلوب نشر الفرقة والخلاف بينهم ، ليصفو له الجو ويبقى أمر الخلافة له بدون منازع .

١- انظر الطبرى : تاريخ ج ٥ ص ١٧٢
٢- ابن سعد : الطبقات الكبرى ج ٥ ص ٤٣
٣- انظر ابن الأثير : الكامل ج ٣ ص ٤٢٠
٤- انظر محمد كرد علي : الاسلام والحضارة العربية ج ٢ ص ١٥٠
٥- انظر جورجي زيدان : تاريخ التمدن الاسلامي ج ١ ص ١٥٤ . فيليب حتي : تاريخ سوريا ج ٢ ص ٨٧ - ٨٨
٦- انظر ابن كثير : البداية والنهاية ج ٨ ص ٨١
٧- انظر الطبري : تاريخ ج ٦ ص ٤٣٥ ، ٤٣٦
٨- انظر ابن الأثير : الكامل ج ٤ ص ٦

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وكنا قد أشرنا الى تأمير معاوية سنة اثنتين وأربعين مروان بن الحكم على المدينة[١]، ثم منحه فدك ترضية واجتذابا له، وليفيظ بذلك آل الرسول صلى الله عليه وسلم[٢]، فسار مروان على السياسة التي رسمت له، وأساء الى أبناء علي[٣] على مسمع أبناء الصحابة مما احفظ قلوبهم[٤]. ولم يقنع ذلك معاوية بن أبي سفيان من عزل مروان وارتجاعه منه فدك[٥]، ثم ولى المدينة سنة تسع وأربعين سعيد بن العاص الذي استقضى أبا سلمة بن عبد الرحمن بن عوف[٦]، وحج سعيد بالناس تلك السنة.

وأثناء ولاية سعيد وفي سنة خمسين، أراد معاوية أن ينقل منبر النبي، صلى الله عليه وسلم، من المدينة وأن يحمل الى الشام[٧]. وقال: ((اني رأيت أن منبر رسول الله صلى الله عليه وسلم وعصاه لا يتركان بالمدينة، وهم قتلة أمير المؤمنين عثمان وأعداؤه[٨])). فطلب العصا وكانت عند سعيد القرظ، وأراد أن ينفذ رغبته، الا أن اعظام الناس هذا الأمر وسخطهم له، جعل معاوية يشعر بخطئه فاعتذر وزاد درجات المنبر ست درجات أخرى[٩].

ولم يلبث معاوية سنة أربع وخمسين أن عزل عامله على المدينة سعيد بن العاص واستعمل مروان بن الحكم للمرة الثانية[١٠]، وقد عمل معاوية على اثارة الشحناء والأحقاد بين الأمويين عن طريق التولية والعزل. فأمر سعيد بن العاص قائلا: ((اهدم دار مروان، فلم يهدمها، فأعاد عليه الكتاب بهدمها، فلم يفعل وولى مروان))[١١]. ثم أمره أن يقبض أموال سعيد بن العاص بالحجاز، وفي رواية أخرى أن يهدم دار سعيد[١٢].

١- انظر البيهقي: المحاسن والمساوئ ص٥٥ دار صادر ١٩٦٠ م، وفدك: بالتحريك وآخره كاف. قرية بالحجاز بينها وبين المدينة يومان وقيل ثلاثة، وبها عين فوارة ونخيل كثيرة. ياقوت: معجم البلدان ج ٤ ص ٢٣٨

٢- انظر اليعقوبي: تاريخ ج ٢ ص ٢٢٣

٣- انظر ابن الاثير: الكامل ج ٣ ص ٤٦٠

٤- انظر دائرة المعارف الاسلامية ج ٢ ص ٦٦٩، كما أن سب علي من فوق المنابر خطوة لم يحالف التوفيق فيها معاوية بن أبي سفيان.

٥- انظر الطبري: تاريخ ج ٥ ص ٢٣١ ، ٢٣٢

٦- انظر ابن الاثير: الكامل ج ٣ ص ٤٦٠

٧- انظر ابن الفقيه: مختصر كتاب البلدان ص ٢٤

٨- الطبري: تاريخ ج ٥ ص ٢٣٩

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

هـم مروان بن الحكم بتنفيذ أوامر معاوية، فأخذ عمالا وسار بهم الى دار سعيد فدارت بينهما محاورة انتهت باعتذار مروان الى سعيد ، وامتنع عن هدم الدار حين رأى كتب معاوية اليه بهدم دار مروان . وكتب سعيد بن العاص الى معاوية معاتبا :((العجب مما صنع أمير المؤمنين بنا في قرابتنا ، أن يضفن بعضنا على بعض ! فأمير المؤمنين في حلمه وصبره على مايكره من الأخبثين ، وعفوه وادخاله القطيعة بيننا والشحناء ، وتوارث الأولاد ذلك، فوالله لو لم نكن بني أب واحد الا بما جمعنا الله عليه من نصر الخليفة المظلوم، واجتماع كلمتنا ، لكان حقا علينا أن نرعى ذلك))[1]. ووصل الكتاب الى الخليفة في دمشق، فرد على سعيد يعتذر اليه ، ثم ما لبث أن عزل مروان بن الحكم وولى الوليد بن عتبة بن أبي سفيان المدينة سنة ثمان وخمسين[2].

اتهم معاوية سياسة التمديل بين الولاة من الأمويين في الحجاز بهدف ايقاع الخلاف والفرقة بينهم[3]، اذ خشي نفوذهم واتحادهم ضده ابنه يزيد من بعده ، فكان يضرب بعضهم ببعض حتى يظلوا بحاجة الى عطف الخليفة وعنايته بهم . كما يبدو أن الأمويين لم يكونوا على وفاق تام فيما بينهم ، حتى قيل أن معاوية ولى زيادا الحجاز حين كتب اليه :((اني قد شغلت شمالي بالعراق ويميني فارغة ... فكتب اليه بولاية الحجاز))[4]. ولكن موت زياد سنة ثلاث وخمسين حال دون ذلك[5].

وتجدر ملاحظة أن سياسة معاوية في تمديل وتغيير الولاة في الحجاز وشدتهم في معاملة السكان[6]، مضافا الى ذلك حقد الحجازيين من تحول الحكومة التي ساهم أباؤهم في بنائها الى حكومة دنيوية، وصفها اليعقوبي[7] الذي تحدث في هذا الصدد فقال :((كان معاوية أول من أقام الحرس والشرط والبوابين في الاسلام، وأرخى الستور، واستكتب النصارى ومشى بين يديه بالحراب، وأخذ الزكاة من الأعطية، وجلس على السرير والناس تحته ، وجعل ديوان الخاتم، وبنى وشيّد البناء، وسخر الناس في بنائه ، ولم يسخر أحد قبله ، واستصفى أموال الناس، فأخذها لنفسه ... وكان معاوية يقول : أنا أول الملوك)). على أننا

١ـ الطبري: تاريخ ج ٥ ص ٢٩٤

٢ـ انظر المرجع السابق ص ٣٠٩

٣ـ انظر ابن الأثير: الكامل ج ٣ ص ٤٩٨

٤ـ انظر اليعقوبي: تاريخ ج ٢ ص ٢٩١، ابن كثير: البداية والنهاية ج ٨ ص ٦٣

٥ـ انظر ابن الأثير: الكامل ج ٣ ص ٤٩٣ ـ ٤٩٤

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

يجب ألا نبالغ في الاعتماد على رواية اليعقوبي ، المعروف بميوله الشيعية . الا أن سياسة معاوية ولاته في الحجاز ومظاهر الملك ، كانت ثغرات ينفذ منها الساخطون على الحكم الأموي وتكوين حزب أو جماعة تعارض الحكومة وتنتقدها .

كما أن بعد الحكومة المركزية قد ساهم في نمو المعارضة الحجازية، ولا سيما أن الأحداث في الأمصار كانت تنتقل الى الحجاز وتترك آثارها الواضحة، فحين أمر معاوية سنة احدى وخمسين بقتل حجر بن عدي (١) أثار مقتله نقمة الكثيرين من أهل الحجاز ، فقد كان ((من أعظم الناس دينا وصلاة))(٢). واتصف حجر ابن عدي بصلابة في العقيدة والمام عميق بأحقية آل البيت (٣) وعندما سمع عبد الله بن عمر وهو في المدينة بمقتله بكى أسفا عليه (٤). ومن الذين تألموا لهذا الحادث السيدة عائشة أم المؤمنين التي أرسلت الى معاوية عبد الرحمن بن الحارث في حجر وأصحابه . فقدم عليه وقد قتلهم . فقال له عبد الرحمن :((أين غاب عنك حلم أبي سفيان ؟ قال : حين غاب عني مثلك من حلماء قومي ، وحملني ابن سمية فاحتملت))(٥). وروي أن عائشة كانت تقول : انها همت أن تثور لولا خوفها الفتنة ، مما هو أشد من قتل حجر (٦).

ولا يعنينا هنا تتبع حركة الشيعة ممثلة بأحد زعمائها حجر بن عدي، وأثر مقتله في أنحاء الدولة الاسلامية خاصة العراق، بقدر ما ترك ذلك من آثار سيئة في نفوس أهل الحجاز ، الذين استفظعوا ذلك الحادث، ورأوا فيه مخالفة للاسلام اذ استباح معاوية لنفسه أن يعاقب الناس بالقتل لمجرد معارضتهم الولاة دون أن يسمع منهم أو يأذن لهم في الدفاع عن أنفسهم، رغم أنهم أرسلوا اليه :((انا على بيعتنا ، لا نستقيلها ولا نقيلها ، وانه انما شهد علينا الأعداء والأظناء))(٧).

وقد كان المصير الذي لاقاه حجر وأصحابه من العوامل التي دفعت حركة التشيع الى الأمام، وزادت في انعكاس أحداث العراق على الحجاز ، فما أن قتل حجر حتى ((خرج نفر من أشراف أهل الكوفة

١ـ انظر عن هذا الحادث الطبري : تاريخ ج ٥ ص ٢٥٣ ـ ٢٧٧

٢ـ ابو الفداء : المختصر في أخبار البشر ج ١ ص ١٨٦

٣ـ انظر الطبري : تاريخ ج ٥ ص ٢٥٤ ، ابن الأثير : الكامل ج ٣ ص ٤٨٥

٤ـ انظر ابن حجر : الاصابة في تمييز الصحابة ج ٢ ص ٢١٨

٥ـ ابن الأثير : الكامل ج ٣ ص ٤٨٧

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الى الحسين بن علي (١). وعنفت معارضة الشيعة واشتدت (٢). ومن الطبيعي أن يتأثر أهل الحجاز بهذا الحادث، وأن يستغل في معارضة الأمويين خاصة وأن الحجاز، غدت في تلك الآونة موئل العناصر التي أقصيت عن الحكم. وحيث أن جوهر الخلاف كان محصورا في دائرة الحكم (٣)، فقد قوي عضد المعارضة الحجازية دون أن تأخذ طريق العنف.

ولكن معاوية بن أبي سفيان حرص على اسكات المعارضين وابعاد خطر الطامعين في الخلافة من أهل الحجاز، سواء أكانوا من أصحاب الرسول الكريم أو أبنائهم، وقد اتخذ هؤلاء مدن الحجاز سيما المدينة المنورة، مركزا لنشاطهم ومقامهم.

نظر معاوية في أهل الحجاز فأدرك أن زعماءهم لا يتعمدون: الحسن والحسين وعبد الله بن الزبير وعبد الله بن عباس وعبد الله بن عمر وعبد الرحمن بن أبي بكر. ولمواجهة هؤلاء النفر اختط لنفسه منهجا سياسيا، واستغل ماعرف عنه من دهاء وحلم للتفريق بينهم من ناحية، ولكسب ودهم أو اسكاتهم على الأقل من ناحية أخرى. وأهتم بشكل خاص بالحسن والحسين ابني علي بن أبي طالب، ذكر الدينوري (٤) اهتمام معاوية بهما فقال: ((لم ير الحسن ولا الحسين طول حياة معاوية منه سوءا في أنفسهما ولا مكروها، ولا قطع عنهما شيئا مما كان شرط لهما ولا تغير لهما عن بر)). اذ أدرك معاوية أن ثقل الرجلين السياسي يتجاوز حدود الحجاز الى العراق حيث الشيعة التي تؤمن بأحقية آل البيت في الخلافة (٥). ويفد بعضهم الى المدينة حيث يقابلون الحسن والحسين ويتحدثون اليهما في مجريات الأحداث السياسية وينقلون عنهم مايسمعون. ولكن لعن علي بن أبي طالب، تلك السياسة التي لم يحالف التوفيق فيها معاوية، قد أحفظ قلوب بني هاشم عليه (٦).

والناظر في سياسة الحلم والدهاء التي اتبعها معاوية يجد أنها قد نجحت، ومال ابناء الصحابة الى الهدوء، ووصل الأمر بالحسن بن علي أن نصح أتباعه ومريديه بالهدوء وحضهم على السمع والطاعة لمعاوية (٧)، ولا يخفى دهاء معاوية السياسي الذي دفع الحسن بن علي لهذا المسلك.

١ـ الدينوري: الأخبار الطوال ص٢٢٤

٢ـ انظر طه حسين: علي وبنوه ص١٩٦ ـ ١٩٧

٣ـ انظر محمد جمال الدين سرور: الحالة السياسية في الدولة العربية الاسلامية ص ١٠٥ الطبعة

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ولفتت سياسة معاوية ، التي اتهمها في معاملة زعماء أهل الحجاز ، أنظار بعض المؤرخين[1]، فنوه بها قائلا :((فلا يزال أشراف قريش مثل عبد الله بن العباس، وعبد الله بن الزبير، وعبد الله بن جعفر الطيار، وعبد الله بن عمر، وعبد الرحمن بن أبي بكر، وأبان بن عثمان بن عفان، وناس من آل أبي طالب ... يفدون عليه بدمشق فيكرم مثواهم ويحسن قراهم، ويقضي حوائجهم، ولا يزالون يحدثونه أغلظ الحديث ويجبهونه أقبح الجبهة ، وهو يداعبهم تارة ويتغافل عنهم أخرى، ولا يعيدهم الا بالجوائز السنية والصلات الجمّة))•

لقد كانت صفات معاوية بن أبي سفيان تلك ، صفات رجل الدولة بعيد النظر الذي يثبت أركان حكمه ، ويسعى الى انشاء دولة أموية مترامية الأطراف، يحكمها بنو أمية من بعده ، كما دلت الأحداث التي وقعت فيما بعد ، وفي سبيل ذلك وهب الأموال والمناصب، وبث العيون لسماع أقوال الناس، فكان له ((عين بالمدينة يكتب اليه بما يكون من أمور الناس وقريش))[2]• وأحسن استخدام الشعراء[3]، وهم أهم وسائل اعلام ذلك العصر، فأعطاهم بسخاء، فانطلقت ألسنتهم بالمديح والثناء على زعيم بني أمية معاوية ابن أبي سفيان[4]•

وازاء ذلك سكتت المعارضة الحجازية باستثناء بعض الأصوات التي كانت ترتفع بين الفينة والأخرى، والسر في ذلك أن أصحاب تلك الأصوات لم يستسيغوا أن تفدو الخلافة ، في عهد معاوية، ((الى بيت كان المسلمون اذ ذاك يرونه أبعد البيوت عن استحقاق هذا الشرف العظيم ... حقا لقد أثبت بنو أمية أنهم جديرون بالمسئولية الكبرى التي حملوها وسّموا دولة الاسلام ، واكسبوها جاها عظيما • ولكن جمهور المسلمين ظل يرى فيهم بيتا غاصبا لسلطان ليس من حقه))[5]• ونجد من أهل الحجاز من دفعته جرأته للتصريح بهذا الواقع كعبد الله بن الزبير الذي قال له معاوية حين حضر مجلسه :((تنازعني هذا الأمر كأنك أحق به مني ! قال : لم لا أكون أحق به منك يامعاوية، وقد اتبع أبي رسول الله ، صلى الله عليه وسلم على الايمان، واتبع الناس أباك على الكفر • فقال معاوية : غلطت يابن الزبير، بعث الله ابن عمي

١ـ ابن الطقطقي : الفخري في الآداب السلطانية ص١٠٤

٢ـ أحمد زكي صفوت: جمهرة رسائل العرب ج ٢ ص ١٨

٣ـ انظر محمد كرد علي : الادارة الاسلامية في عز العرب ص ٨٠

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

نبيا ، فدعا أباك فأجابه ، فما أنت الا تابع لي ضالا كنت أو مهديا))[1] . فعبد الله بن الزبير يرى أن منصب الخلافة انما هو لذوي السابقة في الاسلام ، أما معاوية فكانت حجته تختلف حسب الظروف ، فهو هنا اعتمد على قرابته لبني هاشم . وفي مناسبات أخرى اعتمد على قرابته لعثمان بن عفان . فقد ((قدم معاوية مكة أو المدينة ، فأتى المسجد فتقعد في حلقة فيها ابن عمر وابن عباس وعبد الرحمن بن أبي بكر ، فأقبلوا عليه وأعرض عنه ابن عباس . فقال : وأنا أحق بهذا الأمر من هذا المعرض وابن عمه ، فقال ابن عباس : ولم ؟ ألتقدم في الاسلام أم سابقة مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وآله ، أو قرابة منه ؟ قال : لا ، ولكني ابن عم المقتول ، قال : فهذا أحق به ـ يريد ابن أبي بكر ـ قال : ان أباه مات موتا ، قال فهذا أحق به ـ يريد ابن عمر ـ قال : ان أباه قتله كافر ، قال : فذاك أدحض لحجتك ، أن كان المسلمون عتبوا على ابن عمك فقتلوه))[2] .

ولم يقتنع ابن عباس بحجة معاوية في وصوله الى الخلافة مستندا الى قرابته من عثمان بن عفان ، وشارك زعماء أهل الحجاز ابن عباس في رأيه هذا . كما أن خلافة معاوية لم تحقق كبير نفع الى أبناء عثمان في ادراك ثأرهم وقتل قتلة أبيهم ، وفي محاورة جرت بين أحدهم ومعاوية عبّر سعيد بن عثمان عن رأيهم صراحة حين قال : ((والله لقد اصطنعك أبي حتى بلغت باصطناعه المدى الذي لا تجارى اليه ولا تسامى ، فما شكرت بلاءه ولا جازيته ....))[3] . فولاه معاوية خراسان ترضية له .

وقد لجأ معاوية بن أبي سفيان الى طرق عديدة لكسر شوكة المعارضة الحجازية ، فمن الهبات والصلات الى الاقناع والمناظرة ، الى الترهيب الحار البالغ كالذي ذكر أن الحسن بن علي وعبد الله بن الزبير وفدا عليه فقال للحسن : ((مرحبا وأهلا بابن رسول الله ، وأمر له بثلاثمائة ألف . وقال لابن الزبير : مرحبا وأهلا بابن عمة رسول الله ، وأمر له بمائة ألف))[4] . ثم لجأ الى طريقة أخرى هي الكيد لهم وايقاع الخلاف بينهم ، لتفريق كلمتهم ، فقد ((دخل الحسين بن علي يوما على معاوية ... وعند معاوية جماعة من قريش فيهم ابن الزبير ، فرحب معاوية بالحسين وأجلسه على سريره . وقال : ترى هذا القاعد ـ يعني ابن الزبير ـ فانه ليدرك الحسد لبني عبد مناف . فقال ابن الزبير لمعاوية : قد عرفنا فضل الحسين وقرابته من رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، لكن ان شئت أن أعلمك فضل الزبير على أبيك

---

١ ـ ابن عبد ربه : العقد الفريد ج ٤ ص ٢٢

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أبي سفيان فعلت))[1]. وهكذا نوّت ابن الزبير على معاوية ماهدف اليه .

وكان معاوية بن أبي سفيان قد عرف نفسيات زعماء أهل الحجاز ومقاديرهم ووضع خلاصة هذه المعرفة في وصية حكيمة الى ابنه يزيد فأوصاه قائلا : ((لست أخاف عليك أن ينازعك في هذا الأمر الا أربعة نفر من قريش: الحسين بن علي ، وعبد الله بن عمر ، وعبد الله بن الزبير ، وعبد الرحمن بن أبي بكر ، فأما ابن عمر فانه رجل قد وقذته العبادة ، فاذا لم يبق أحد غيره بايعك ، وأمّا الحسين ابن علي فهو رجل خفيف ولن يتركه أهل العراق حتى يخرجوه فان خرج وظفرت به فاصفح عنه ، فان له رحما ماسّة وحقا عظيما وقرابة من محمد صلى الله عليه وسلم وأما ابن أبي بكر فان رأى أصحابه صنعوا شيئا صنع مثله ، ليس له همة الا في النساء واللهو ، وأما الذي يجثم لك جثوم الأسد ويراوغك مراوغة الثعلب فان أمكنته فرصة وثب فذاك ابن الزبير ، فان هو فعلها بك فظفرت به فقطعه اربا اربا واحقن دماء قومك ما استطعت ... أما ماذكر عن عبد الرحمن بن أبي بكر فليس بصحيح فان عبد الرحمن بن أبي بكر كان قد مات قبل معاوية))[2].

واذا كان حزب أهل الحجاز يطمع في الخلافة ويسعى اليها ، ويرى أحقيته فيها ، يقف موقف المعارضة من حكومة معاوية ، فلماذا لم يثر الحجازيون ويعلنوا العصيان المسلح ؟ الواقع أن أهل الحجاز لم يستطيعوا أن يشنوا حربا أو يرفعوا راية عصيان ضد معاوية ، فالدولة الأموية مازالت في عنفوان قوتها لا سيما وأن طريقة وصول معاوية الى الخلافة والقوة التي أظهرها خلال الحرب الأهلية ماتزال عالقة بالنفوس.

وكان معاوية كذلك قد ((أوسع الناس من أخلاقه وأفاض عليهم من بره وعطائه وشملهم باحسانه ، مما اجتذب به القلوب واستدعى به النفوس))[3] وكان ذلك كذلك اضافة الى اهتمامه بشؤون الحجاز ((الذي أصابه اهمال كبير منذ أن نشبت الحرب الأهلية فعزز الزراعة بمشروعات واسعة لتحسين طرائق الحراثة))[4] وفي هذا الصدد ذكر أن معاوية : ((أحيا موات الأرضين ، واحتفر الآبار للسقيا ، وأقام أسدادا للانتفاع بالمياه وسارت

١ـ ابن عبد ربه : العقد الفريد ج ٤ ص ١٥

٢ـ ابن الأثير : الكامل ج ٤ ص٦ وانظر الطبري : تاريخ ج ص٣٢٢ ، ٣٢٣

٣ـ المسعودي : مروج الذهب ج ٣ ص ٣٦

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أسرته ومعاصروه على طريقته ، فشهدت الحجاز قرنا من الارتقاء .... مع أن طبيعة الحجاز قاسية غير ملائمة، ولكن الخليفة العاقل ما أحب لأهل الحجاز أن يعيشوا من العطايا والصدقات ومواسم الحج، لأنها موارد غير طبيعية في المعاش))(١). ولا شك أن سياسة معاوية هذه قد أعطت ثمارها ، حتى قال عبد الله ابن الزبير :((لله در ابن هند ، ان كنا لنفرقه وما الليث على براثنه بأجرأ منه . فيتفارق لنا ، وان كنا لنخدعه ، وما ابن ليلة من أهل الأرض بأدهى منه فيتخادع لنا ، والله لوددت أنا متعنا به مادام في هذا الجبل حجر وأشار الى أبي قبيس))(٢). أما ابن عباس فقد قال : ((ما رأيت أحدا أخلق للملك من معاوية كان ليرد الناس منه على أرجاء واد رحب))(٣). وخلاصة القول أن معاوية استطاع أن يجعل أهل الحجاز يركنون الى الهدوء ويعترفون بزعامته .

ولم يتوان أهل الحجاز ، في ظل حكومة معاوية، عن تأدية واجباتهم . فاستجابوا لنداء الجهاد حين دعاهم معاوية سنة تسع وأربعين لحرب الروم، وسيّر الجيش بقيادة ابن يزيد(٤) لغزو القسطنطينية، واشترك في هذا الجيش من زعماء أهل الحجاز : ((ابن عباس وابن عمر، وابن الزبير، وأبو أيوب الأنصاري وغيرهم))(٥) . فاوغلوا في بلاد الروم ونجح الجيش الاسلامي في القضاء على حركات المردة، واستطاع أسطوله أن يحاصر القسطنطينية حصارا شديدا بالرغم من استخدام الروم للنار الاغريقية ضد سفن المسلمين(٦). وفي تلك الغزوة توفي أبو أيوب الأنصاري فدفن بالقرب من سور القسطنطينية ورجع يزيد بالجيش الى الشام(٧).

وقد أراد معاوية من تلك الغزوة أن تحقق غرضين في آن واحد ، أولاهما غزو الروم في عقر دارهم . والغرض الثاني يتلخص في أن معاوية كان يريد أن يهيئ الناس خاصة زعماء أهل الحجاز للعمل تحت امرة يزيد ، تحقيقا للهدف الذي كان يراود مخيلته في ترشيح ابنه وليا للعهد وتولي الخلافة من بعده .

١ـ محمد كرد علي : الادارة الاسلامية في عز العرب ص ٨٠

٢ـ ابن كثير : البداية والنهاية ج ٨ ص ١٣٦

٣ـ الطبري : تاريخ ج ٥ ص ٣٣٧

٤ـ انظر ابن عبد ربه : العقد الفريد ج ٤ ص ٣٦٩، الطبري: تاريخ ج ٥ ص ٢٣٢

٥ـ ابن الأثير : الكامل ج ٣ ص ٤٥٩

٦ـ انظر نبيه عاقل : دراسات في تاريخ الامبراطورية البيزنطية ج ١ ص ١٢٠ دمشق ١٩٦٧

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

بيعة يزيد بن معاوية :

تركت بيئة الشام التي عاش فيها معاوية بن أبي سفيان فترة طويلة أميرا ثم خليفة في دمشق أثرها في حياته . فقد أعجب بما شاهده أو سمعه عن نظام وراثة الملك عند الروم أو سواهم . فكان يستطلع الأخبار((يستمر الى ثلث الليل في أخبار العرب وأيامها والعجم وملوكها وسياستها لرعيتها ، وسير ملوك الأمم وحروبها ومكايدها وسياستها لرعيتها وغير ذلك من أخبار الأمم السالفة ... ثم يدخل فينام ثلث الليل ، ثم يقوم فيقعد فيحضر الدفاتر فيها سير الملوك وأخبارها والحروب والمكايد فيقرأ ذلك عليه غلمان له مرتهون .. يفعل ما وصفنا في كل يوم))(٢).

وقد تأثر معاوية في فترة مبكرة من امارته ببيئة بلاد الشام ، فكان يروح في موكب ويغدو في مثله . وحين انتقده عمر بن الخطاب عندما قدم الى الشام ، قال :((يا أمير المؤمنين ، ان العدو بها قريب منا ، ولهم عيون وجواسيس فأردت .... أن يروا للاسلام عزا))(٣).

ففير غريب اذن أن يفكر معاوية في نقل نظام الحكم الوراثي الى دولته ، خاصة وأن نقل هذا النظام له مايبرره ـ من وجهة نظر معاوية ـ من عدة وجوه(٤) ، وقد أدرك أن العامل الأساسي في تفرق كلمة المسلمين ، انما يعود الى المنافسة على منصب الخلافة وتولي الحكم . فحين توفي الرسول الكريم ، اختلف المسلمون من بعده في اجتماع السقيفة(٥) ، كما تنازعوا بعد وفاة عمر ولم يصل عثمان الى الخلافة الا بعد مناقشات ومشاحنات عنيفة(٦) . وانقسم الناس بعد مقتله ، فكانت الفتنة ، وكان النزاع المسلح والحروب الطويلة ، حتى استقر أمر الخلافة أخيرا لمعاوية بن أبي سفيان ، ففتح باب الشورى لانتخاب من سيخلفه سيؤدي الى تمزق المجتمع الاسلامي من جديد .

أما نظام توريث الملك في حد ذاته ، فقد كان يخالف ما ألفه العرب سواء في الجاهلية أو صدر الاسلام ، مما أوجب على معاوية أن يلتزم جانب الحكمة والحذر في اخراج هذه الفكرة الى حيز التنفيذ .

١ـ انظر عن مدة حكم معاوية الطبري : تاريخ ج ٥ ص ٣٢٤ ـ ٣٢٥

٢ـ المسعودي : مروج الذهب ج ٣ ص ٣١

٣ـ الطبري : تاريخ ج ٥ ص ٣٣١

٤ـ انظر Saunders: A History of Medieval Islam . Page 70

٥ـ انظر ابن هشام : السيرة ج ٢ ص ٦٥٦

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وقد رأى معاوية بثاقب بصره أن يحل قضية الخلافة قبل وفاته ، ورأى أن يأخذ البيعة لابنه يزيد من وجوه الناس وسادا تهم البارزين ، كما أخذها لنفسه منهم من قبل لأن بيعة الناس كانت يومذاك لـــه وحده ، ولا يحق له أن يجعلها لابنه من بعده ، وكان كثيرون من زعماء المعارضة الحجازية يمنّون أنفسهم بموت معاوية للخلاص منه ، فتعود الأمور كما كانت شورى بين المسلمين . ولكن معاوية فوّت عليهم الفرصـــة حين اعتزم عقد بيعة يزيد .

وقد اعتبر كثير من المسلمين دعوة معاوية الى مبايعة ابنه يزيد بدعة ليس لها سابقة عند العرب، وعدّوا ذلك تقليدا لملوك الفرس والروم (١)، ذلك أن العرب في الجاهلية وصدر الاسلام كانوا جماعة شورى، حتى أنه في كثير من الأحيان كان ابن السيد المتوفى ينحّى عن رئاسة القبيلة وتسلم الرئاسة الى رجل آخـــر اذا لم تجتمع بابن الرئيس المتوفى صفات السيد المطلوبة . كما أن الاسلام لم يقل بتوريث الملك، وعد حق الرئاسة حقا يشترك فيه جميع الناس وللجماعة فقط حق اختيار الخليفة والموافقة عليه بالبيعة (٢) .

على أنه من الانصاف أن نقول أن بعض المسلمين من مؤيدي معاوية كان يقول برأي يخالف الرأي سالف الذكر ، وفي عرفهم أنه مادام سيد القبيلة أو قائد الجيش يسمي خلفه قبل وفاته ، في ساحة القتال ، فانه من حق الخليفة أو الأمير أن يختار شخصا يتولى القيادة من بعده ، ويظهر أن ذلك لم يكن موجودا . بمعنى أن يختار ولي الأمر للبيعة ابنه قبل وفاته (٣) ، كما أنه ليس في الاسلام من يقول بمنع أن يكون ابن الأمير أميرا (٤) ، ولذلك فان تفكير ولي الأمر في أن يختار وليا للعهد يبدو أمرا ممكنا . ويرى ابن خلدون أن الامام لا يتهم في هذا الأمر، وان عهد الى أبيه أو ابنه لأنه مأمون على النظر لهم في حياته ، خلافا لمن قال باتهامه في الولد والوالد ، أو لمن خصص التهمة بالولد دون الوالد ، فانه بعيد عن الظّنة في ذلك كله ، وخصص ذلك قائلا :((لاسيما اذا كانت هناك دامية تدعو اليه من ايثار مصلحة أو توقع مفسدة ، فتنتفي الظنة عند ذلك رأسا ، كما وقع في عهد معاوية لابنه يزيد وان كان فعل معاوية مع وفاق الناس له حجـــة في الباب)) . ولكن الحوادث على أرض الحجاز أكّدت أن المفسدة وقعت فعلا في مطلع خلافة يزيد حين أصر معاوية على اختياره وخالفه بعض زعماء الأمة الاسلامية .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وقد فضل معاوية ابنه يزيد لعدة أسباب منها أنه أدرك أهمية القوة العسكرية التي ستكون تحت تصرفه ، وأهمية((مراعاة المصلحة في اجتماع الناس واتفاق أهوائهم باتفاق أهل الحل والعقد عليه حينئذ من بني أمية ، اذ بنو أمية يومئذ لايرضون سواهم ، وهم عصابة قريش وأهل الملة أجمع وأهل الغلب منهم ، فآثره بذلك دون غيره ممن يظن أنه أولى بها ، وعدل عن الفاضل الى المفضول حرصا على الاتفاق واجتماع الأهواء الذي شأنه أهم عند الشارع ...))(١) ومنها أن معاوية لم يكن مقتنعا بجدوى الشوري ، ورأى ((أنه لم يشتت بين المسلمين ولا فرق أهواءهم ولا خالف بينهم الا الشورى التي جعلها عمر الى ستة نفر ... فلم يكن رجل منهم الا رجاها لنفسه ، ورجاها له قومه ، وتطلعت الى ذلك نفسه ..))(٢) ، وعلى حد تعبيره ، لو أن عمر استخلف عليهم كما استخلف أبو بكر ماكان في ذلك اختلاف . ولما كان غير مقتنع بالشورى التي سنها أمامه عمر بن الخطاب لم يكن لا الاختيار ، ونظر فرأى أن المرشحين للخلافة هم من أبناء الصحابة . فقال : ((انه لم يبق الا ابني وأبناؤهم فابني أحب الي من ابنائهم))(٤) .

بدأت فكرة البيعة ليزيد تظهر الى الوجود سنة تسع وأربعين ، ويروى أن المغيرة بن شعبة علم أن((معاوية أراد أن يعزله عن الكوفة ويستعمل عوضه سعيد بن العاص))(٥) . فأراد أن يبقى في الامارة بالتقرب الى معاوية ، فذهب الى دمشق فقابل معاوية فاستعفى من الولاية . ثم مضى الى يزيد ونصحه قائلا : ((انه قد ذهب أمهان أصحاب النبي ، صلى الله عليه وسلم ، وكبراء قريش وذوو أسنانهم ، وانما بقي أبناؤهم وأنت من أفضلهم وأحسنهم رأيا وأعلمهم بالسنة والسياسة ، ولا أدري مايمنع أمير المؤمنين أن يعقد لك البيعة . قال : أو ترى ذلك يتم ؟ قال نعم))(٦) . وهكذا وسوس له بالبيعة .

وحين أخبر يزيد أباه بذلك ، استدعى المغيرة بن شعبة ، واستوضحه الخبر ، فشجعه المغيرة بن شعبة قائلا : ((يا أمير المؤمنين ، قد علمت ما لقيت هذه الأمة من الفتنة والاختلاف ، وفي عنقك الموت ، وأنا أخاف ان حدث بك حدث أن يقع الناس في مثل ما وقعوا فيه بعد قتل عثمان ، فاجعل للناس بعدك علما

١ـ انظر ابن العربي : العواصم من القواصم ص ٢١٥

٢ـ ابن خلدون : المقدمة ج ٢ ص ٧٢٣

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

يغزعون اليه واجعل ذلك يزيد ابنك))[١]. فسر معاوية وأقسم على المغيرة بن شعبة ليعودنّ الى عمله[٢]، تقديرا ومكافأة منه له من نحو، وليسعى في بيعة يزيد مع من يشق اليه[٣] في ذلك من نحو آخر.

وقد أصاب المغيرة بفكرته تلك ما كان يريد معاوية ويحب وربما أن فكرة البيعة قد ساورت معاوية قبل المغيرة، فانتهز هذه الفرصة وشجعه كلام المغيرة على اخراج تلك الفكرة الى حيز التنفيذ. ومن الطريف أن المغيرة بن شعبة، صاحب فكرة البيعة، علّق على نتائج زيارته لدمشق قائلا: ((وضعت رجل معاوية في غرز غيّ لا يزال فيه الى يوم القيامة))[٤].

أخذ معاوية بن أبي سفيان يمهد لفكرة البيعة، وكان مطمئنا الى تأييد أهل الشام ووقوفهم الى جانبه، ولم يخش الا معارضة أهل الحجاز وأهل العراق. أما العراق فأمره سهل هيّن، وكما قال المغيرة: ((أكفيك أهل الكوفة، ويكفيك زياد أهل البصرة، وليس بعد هذين المصرين أحد يخالفك))[٥]. وكان بامكان معاوية الاعتماد على هذين الرجلين ــ المغيرة وزياد ــ في تحقيق ما أراد. أما بلاد الحجاز فكانت في وضع يغاير بلاد العراق فهي موطن الصحابة وأبنائهم ومنهم من كان يرشح نفسه للخلافة. كما مرت بهم تجارب وسوابق اختيار الخلفاء الراشدين. يضاف الى ذلك أن الحجاز كانت مهبط العادات والتقاليد العربية، مما حمل أهلها على الوقوف موقف المعارضة الشديدة لبيعة يزيد.

وكان أول نجاح حققه معاوية لبيعة يزيد في الكوفة، التي عاد المغيرة بن شعبة اليها وذاكر من يثق اليه ومن يعلم أنه شيعة لبني أمية، أمر البيعة، وبذل الأموال فأجابوا الى بيعته. فبعث منهم وفدا برئاسة ابنه موسى الى دمشق ((وقدموا على معاوية فزيّنوا له بيعة يزيد ودعوه الى عقدها. فقال معاوية: لا تعجلوا باظهار هذا وكونوا على رأيكم))[٦]. وقوي عزم معاوية على اظهار بيعة يزيد وكتب الى زياد يستشيره قبل أن يعلن للناس ماعزم عليه.

وكان زياد يرى التريث ويتخوف من نفرة الناس من صفات يزيد، فبعث الى عبيد بن كعب النميري ــ أحد

١ــ ابن قتيبة: الامامة والسياسة ج ١ ص ١٤٢

٢ــ انظر اليعقوبي: تاريخ ج ٢ ص ٢٢٠

٣ــ انظر الطبري: تاريخ ج ٥ ص ٣٠٢

٤ــ السيوطي: تاريخ الخلفاء ص ٢٠٥ ــ ٢٠٦

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

شقاقه ـ فاستشاره قائلا: ((. . . ان أمير المؤمنين كتب الي يزعم أنه قد عزم على بيعة يزيد ، وهو يتخوف نفرة الناس ويرجو مطابقتهم ، ويستشيرني ، وعلاقة أمر الاسلام وضمانه عظيم ، ويزيد صاحب رسلة وتهاون[1] مع ما قد أولع به من الصيد ، فألق أمير المؤمنين مؤديا عني ، فأخبره عن فعلات يزيد ـ وقل له ـ : رويدك بالأمر فأتمن أن يتم لك ماتريد ، ولا تعجل فان دركا في تأخير خير من تعجيل عاقبته الفوت))[2].

وكان عبيد بن كعب يعرف مايريده زياد ، ولكنه رأى أن الصواب غير ماأشار اليه به ، فقال لزياد : أفلا غير هذا ؟ فقال زياد : فما هو ؟ فقال عبيد : لا تفسد على معاوية رأيه ، ولا تبغض اليه ابنه ، ودعني ألاقي يزيد فأخبره أن أمير المؤمنين كتب اليك يستشيرك في البيعة له ، وأنك تتخوف خلاف الناس عليه لهنات ينقمونها منه ، وأنك ترى له ترك ما ينقم منه ، لتستحكم الحجة على الناس ويتم ماتريد ، وأضاف قائلا لزياد : وتكون قد نصحت يزيد وأرضيت أمير المؤمنين[3].

وقد أعجبت الفكرة الوالي فأوفد عبيد بن كعب الى دمشق ، فقدم على يزيد فذكر ذلك ، فكف عن كثير مما كان يصنع[4]. كما حمل عبيد الى معاوية كتاب زياد ، يشير عليه بالتؤدة ونصحه ألا يعجل في هذا الأمر[5]. فقبل معاوية ذلك ، ولبث ينتظر الظرف الملائم .

ويرى البعض أن معاوية رأى أن الحسن بن علي هو الحائل بينه وبين ماأراد من تولية يزيد العهد ، فأراد أن يرجئ موضوع البيعة ليخلو له الجو من هذا المنافس الذي يحتل منزلة سامية ، لما له من قرابة ، في قلوب المسلمين تفوق منزلة يزيد . فدس اليه من سمه لتخلو له الطريق[6]. وتصبح الأوضاع أكثر ملائمة للاعلان عما اعتزم .

ويذكر بعض المؤرخين[7] أن الحسن بن علي مات مسموما ، وأن زوجته جعدة بنت الأشعث بن قيس هي التي دست الى زوجها السم ويروي السيوطي[8] أن يزيد بن معاوية بعث اليها أن تدس السم اليه كي يتزوجها ففعلت . فلما مات الحسن بعثت الى يزيد تسأله الوفاء بوعده لها . فبعث اليها : انا لم نرضك للحسن أفنرضاك لأنفسنا . أما الأصفهاني[9] فقد اتهم معاوية بن أبي سفيان نفسه بأنه هو الذي دبر أمر الحسن

١ـ الرسلة : الكسل . الفيروز آبادي : القاموس المحيط ج ٣ ص ٣٩٥

٢ـ الطبري : تاريخ ج ٥ ص ٣٠٢

٣ـ انظر الطبري : تاريخ ج ٥ ص ٣٠٢ ـ ٣٠٣

٤ـ انظر ابن كثير : البداية والنهاية ج ٨ ص ٧٩

٥ـ انظر ابن الاثير : الكامل ج ٣ ص ٥٠٦

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

اذ ((أرسل الى ابنة الأشعث اني مزوجك بيزيد ابني ، على أن تسمي الحسن بن علي ، وبعث اليها بمائة ألف درهم فقبلت وسمت الحسن . فسوغها المال ولم يزوجها ابنه)) . وأبو الفرج الأصفهاني مصروف بميوله الشيعية .

أما ابن الأثير (١) فذكر أن جعدة بنت الأشعث بن قيس الكندي سمت زوجها ، ولكن ابن الأثير لا يذكر السبب الذي دفعها الى فعلتها . مما يترك المجال واسعا لاحتمال أسباب أخرى غير التي ذكرت. وقد ذكر الرواة أن الحسن بن علي كان كثير الزواج والطلاق، فلعل هذه المرأة أدركت أن زوجها يضمر له أو لها أمرا ، فتخلصت منه لغرض (٢) ولا يستبعد أن تعمل ذلك امرأة من أسرة الأشعث فأزاحت عن غير قصد حجر عثرة من طريق معاوية .

كانت وفاة الحسن سنة خمسين على خلاف في الرواية (٣) . ودفن بالبقيع الى جانب أمه فاطمة الزهراء ، وذلك أن مروان بن الحكم ، جمع بني أمية وشيعتهم وحال دون دفن الحسن بن علي بجوار قبر جده (٤) صلى الله عليه وسلم ، وصلى عليه سعيد بن العاص وهو يومئذ (٥) أمير المدينة .

وقد دافع ابن العربي (٦) عن معاوية بن أبي سفيان، ودفع التهمة عنه قائلا :((فان قيل قد دس على الحسن من سمه . قلنا : هذا محال من وجهين : أحدهما أنه ما كان ليتقي من الحسن بأسا وقد سلم الأمر . الثاني : انه أمر مغيب لا يعلمه الا الله ، فكيف تحملونه ، بغير بينة، على أحد من خلقه في زمان متباعد لم نشق فيه بنقل ناقل ، بين أيدي قوم ذوي أهواء، وفي حال فتنة وعصبية، ينتسب كل واحد الى صاحبه مالا ينبغي فلا يقبل منها الا الصافي ، ولا يسمع فيها الا من العدل العصم)) .

ويناقض هذا الاتهام ماهو معروف (٧) عن حلم معاوية وحسن تدبيره ، كما أنه كصحابي كان يعرف أن للحسن رحما ماسة وحقا عظيما . وكذلك لم يكن الحسن نفسه ليقطع بمن سقاه السم، وحين سأله الحسين أن يخبره عمن سقاه رفض قائلا :((لئن كان صاحبي الذي أظن لله أشد نقمة ، وان لم يكنه ما أحب أن تقتل

١ـ انظر الكامل ج ٣ ص ٤٦٠

٢ـ انظر الذهبي : المنتقى من منهاج الاعتدال ص ٢٦٦

٣ـ انظر ابن حجر : الاصابة في تمييز الصحابة ج ٢ ص ٢٤٦

٤ـ انظر الدينوري : الأخبار الطوال ص ٢٢١

٥ـ انظر المصعب الزبيري : نسب قريش ص ٤٠

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

بي بريئا))[1]. فالأمر لا يعدو الظن اذن. وقد قال صلى الله عليه وسلم :((اياكم والظن، فان الظن أكذب الحديث))[2]. وطالما أننا لا نملك الأدلة فانه من الصعب أن نصدر حكما بادانة معاوية أو ابنه بهذه القضية. ولا نستطيع موافقة الشيعة في آرائهم المتعلقة بوفاة الحسن بن علي.

الا أن وفاة الحسن قد أفسحت الطريق أمام معاوية فخلت من أقوى المنافسين. وكان ذلك حافزا قويا دفع معاوية أن يمضي في فكرة البيعة ليزيد قدما ،لا سيما وقد تتابعت السنوات والأحداث، فكبرت سنه ، وخاف بالتالي أن يعجل عن قصده ،فرأى أن يحل هذه القضية قبل وفاته ، ومن الملاحظ أنه لا خلاف حول فكرة البيعة ، وانما تركز الخلاف حول شخص المرشح للخلافة.

وحين أصبحت الظروف مواتية أخرج معاوية فكرة البيعة ليزيد الى حيز التنفيذ . واختلف المؤرخون في تعليل الأسباب التي دفعت معاوية الى تنفيذ فكرته. فالطبري[3] وابن الاثير[4] جعلا من وفاة زياد سنة ثلاث وخمسين السبب الرئيسي في ذلك. أما ابن قتيبة[5] فقد ذكر أن موت الحسن بن علي كان هو الذي شجع معاوية فحين ((أتاه الخبر أظهر فرحا وسرورا حتى سجد وسجد من كان معه)). كما ذكر أن معاوية كان لا يستطيع أن يأخذ البيعة ليزيد في حياة الحسن ، فقد سكت أهل الحجاز في خلافة معاوية لاعتقادهم أن الخلافة ستكون شورى بين المسلمين بعد وفاته . وأن الحسن بن علي كان من أقوى المرشحين لها ، كما أن معاوية لا يستطيع أن ينقض عهده ، في جعل الأمر شورى من بعده[6]. مادام الحسن على قيد الحياة. فلما مات الحسن رأى أنه في حل من نقض العهد الذي عقده معه ، يدعم ذلك قول الأحنف ابن قيس لمعاوية :((ان أهل الحجاز وأهل العراق لا يرضون بهذا أبدا ،ولا يبايعون ليزيد ماكان الحسن حيا ـ ثم أشار الى قوة الحسن العسكرية قائلا : ـ ان وراء الحسن خيولا جيادا وأذرعا شدادا وسيوفا حدادا ، ان تدن له شبرا من غدر تجد وراءه باعا من نصر))[7]. أما وقد مات الحسن فقد تهيأت الظروف ليسير معاوية قدما في تحقيق الأمل الذي راود مخيلته ، فاشتد عزمه على عقد البيعة . وهذا مانميل اليه .

١ـ ابن كثير : البداية والنهاية ج ٨ ص ٤٢ ، و ابن الجوزي : صفة الصفوة ج ١ ص ٣٢١

٢ـ البخاري: الصحيح ج ٤ ص ٥، الذهبي : المنتقى من منهاج الاعتدال ص ٢٦٦

٣ـ انظر الطبري: تاريخ ج ٥ ص ٣٠٣

٤ـ انظر ابن الأثير : الكامل ج ٣ ص ٥٠٦

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

موقف أهل الحجاز من بيعة يزيد ٠

رغب معاوية في توطئة الأمر لابنه في الحجاز عامة، وفي المدينة ـ عاصمة الاسلام الأولى ـ خاصة ٠ والتي كان يبايع فيها الخلفاء، وكان بها رجالات الاسلام وعليهم المعول في اقرار البيعة وقبولها ٠

لذلك عرض معاوية فكرة البيعة على رجالات المدينة في كتاب أرسله الى مروان بن الحكم عامله على المدينة، جاء فيه :((اني قد كبرت سني ، ودق عظمي ، وخشيت الاختلاف على الأمة بعدي، وقد رأيت أن أتخير لهم من يقوم بعدي، وكرهت أن أقطع أمرا دون مشورة من عندك، فاعرض ذلك عليهم وأعلمني بالذي يردون عليك))(١)٠ وقد لاقت الفكرة قبولا من أهل الحجاز حين عرضها عليهم مروان بن الحكم ٠ وقال الناس:((أصاب ووفق وقد أحببنا أن يتخير لنا فلا يألو))(٢)٠

فنقل مروان موافقة الناس وقبولهم الى معاوية الذي أرسل اليه كتابا آخر يقول فيه : انه عوّل على أخذ البيعة لابنه يزيد ، فقسراه مروان على الناس فماج القوم وثاروا في وجهه ، وكانت سابقة لم يسبق اليها معاوية ومن هنا احتج الناس وعبّر عن رأيهم عبد الرحمن بن أبي بكر حين قال :((ما الخيار أردتما لأمة محمد ، ولكنكم تريدون أن تجعلوها هرقلية كلما مات هرقل قام هرقل))(٣)٠ فكتب مروان الى معاوية :((ان قومك قد أبوا اجابتك الى بيعة ابنك فاراً رأيك))(٤)٠

ولم يكن موقف مروان بن الحكم وهو والي المدينة من هذه المعارضة مخلصا كل الاخلاص في الدفاع عن رأي الحكومة ممثلة في شخص الخليفة، ولم ترقه فكرة بيعة يزيد فأبى من ذلك(٥)٠ اذ كان يتطلع الى منصب الخلافة بعد معاوية، ويحسب نفسه ((أقدر عليها من يزيد لما اشتهر به من نقص وعبث٠٠٠))(٦) فكان أن عزله معاوية وأمّر سعيد بن العاص٠

١ـ ابن الأثير : الكامل ج ٣ ص ٥٠٦

٢ـ المرجع السابق بنفس الصفحة

٣ـ نفسه : بنفس الصفحة

٤ـ ابن قتيبة : الامامة والسياسة ج ١ ص ١٥١

٥ـ انظر المرجع السابق بنفس الصفحة

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

والشيء الهام هو أن معارضة أهل المدينة اشتدت وقويت وأنكرت بيعة يزيد رغم سياسة تفييز الولاة ، وكان ممن تزعم تلك المعارضة وقادها : عبد الرحمن بن أبي بكر والحسين بن علي ، وعبد الله ابن الزبير، وعبد الله بن عمر، وعبد الله بن عباس(١) ولكن معاوية لم يتراجع.

نظر معاوية الى هذه المعارضة، ورغب في التخفيف من أثرها باللين والسياسة والمال من جهة، وأن يحصرها ويمنع انتشارها الى الأمصار من جهة أخرى، فكتب الى عماله أن يمهدوا لبيعة يزيد في الأمصار، وأن يوفدوا اليه الوفود ، فكان ممن قدم عليه : محمد بن عمرو بن حزم من المدينة، والأحنف ابن قيس في وفد من أهل البصرة(٢) وخطب معاوية في الناس، فعظم أمر الاسلام وحرمة الخلافة وحقها ، وما أمر الله به من طاعة أولي الأمر. ثم ذكر يزيد وصفاته وعلمه بالسياسة وعرض ببيعته . وكان قد أوعز من قبل الى الضحاك بن قيس الفهري كي يتكلم بعده ، ويدعوه الى بيعة يزيد ويحثه عليها . فقام الضحاك ابن قيس فقال : ((يا أمير المؤمنين انه لا بد للناس من وال بعدك، وقد بلونا الجماعة والألفة فوجدناهما أحقن للدماء، وأصلح للدهماء، وآمن للسبل ، وخيرا في العاقبة، والأيام عوج ورواجع والله كل يوم في شأن، ويزيد ابن أمير المؤمنين في حسن هديه وقصد سيرته على ما علمته وهو من أفضلنا علما وحلما . وأبعدنا رأيا ، فوله عهدك واجعله لنا علما بعدك وملجأ نلجأ اليه ونسكن في ظله))(٣). ثم قام عمرو بن سعيد الأشدق فتكلم بنحو من ذلك، ثم قام يزيد بن المقنع العذري فقال : هذا أمير المؤمنين، وأشار الى معاوية، فان هلك فهذا ، وأشار الى يزيد ، ومن أبى فهذا وأشار الى سيفه(٤).

الا أن بعض أعضاء الوفود التي قدمت الى معاوية لم يرض عن هذه السياسة . فالأحنف بن قيس أجاب معاوية بلباقة وحملّه كامل مسئولية بيعة يزيد قائلا حين سئل عن رأيه :((ماتقول يا أبا بحر ؟ فقال : نخافكم ان صدقنا ونخاف الله ان كذبنا(٥)، وأنت يا أمير المؤمنين أعلم بيزيد في ليله ونهاره ، وسره وعلانيته

١ـ انظر الطبري : تاريخ ج ٥ ص ٣٠٣

٢ـ انظر ابن الأثير : الكامل ج ٣ ص ٥٠٧

٣ـ المرجع السابق نفس الصفحة .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ومدخله ومخرجه ، فان كنت تعلمه لله تعالى وللأمة رضى فلا تشاور فيه . وان كنت تعلم فيه غير ذلك، فلا تزوده الدنيا وأنت صائر الى الآخرة، وانما علينا أن نقول سمعنا وأطعنا))[1].

وكان وقع هذه الكلمات شديدا على الحاضرين الذين تفرقوا يحكون قول الأحنف، وعلق عليها رجل من أهل الشام قائلا: ((ماندري ماتقول هذه المعدية العراقية، وانما عندنا سمع وطاعة وضرب وازدلاف))[2].

يصدق الشامي في وصف تأييد أهل الشام المطلق لسياسة معاوية والوقوف في جانبه ، كما اتسم موقف أهل العراق بالحذر ، أما الذين أعلنوا معارضتهم وسخطهم فهم أهل الحجاز . فمحمد بن عمرو بن حزم الذي حضر من أهل المدينة فقد ((خلا به معاوية فقال له : ماترى في بيعة يزيد ؟ فقال : يا أمير المؤمنين، ماأصبح اليوم على الأرض أحد هو أحب الي رشدا من نفسك سوى نفسي ، وان يزيد لأصبح غنيا في المال وسيطا في الحسب، وان الله سائل كل راع عن رعيته ، فاتق الله وانظر من تولي أمر أمة محمد . فأخذ معاوية بهر حتى تنفس الصعداء، وذلك في يوم شاته ثم قال : يا محمد ، انك امرؤ ناصح قلت برأيك ولم يكن عليك الا ذاك ـ وأضاف قائلا ـ : انه لم يبق الا ابني وأبناؤهم فابني أحب الي من أبنائهم))[3].

هذه خلاصة رواية ابن الأثير[4] عن الوفود التي جاءت الى دمشق ، والتي أراد معاوية أن تعلن رضاها وقبولها ببيعة يزيد . يؤيد بعض هذه الأخبار التي ذكرها ابن الأثير مارواه أبو جعفر الطبري[5] عن دور المغيرة بن شعبه في اقتراح بيعة يزيد كما روى أن عبيد بن كعب النميري أيد هذا الاقتراح وطلب من زياد ألا يعارض.

يتفق الطبري وابن الأثير في ايراد أمر بيعة يزيد في حوادث سنة ست وخمسين . الا أن الطبري لايذكر خبر اجتماع وفود الأمصار بدمشق لمبايعة يزيد ـ كما يروي ابن الأثير ـ ولكنه ، أي الطبري، يذكر أن وفدا من أشراف أهل البصرة قدم الى دمشق برئاسة عبيد الله بن زياد سنة تسع وخمسين[6]، يظهر

١ـ ابن الأثير : الكامل ج ٣ ص ٥٠٨ وانظر ابن كثير : البداية والنهاية ج ٨ ص ٨٠

٢ـ انظر ابن عبد ربه : العقد الفريد ج ٤ ص ٣٧٠

٣ـ ابن الأثير : الكامل ج ٣ ص ٥٠٨

٤ـ ابن عبد ربه : العقد الفريد ج ٥ ص ١١١

٥ـ الكامل في التاريخ ج ٣ ص ٥٠٣ ـ ٥٠٧

٦ـ تاريخ الرسل والملوك ج ٥ ص ٣٠١ ـ ٣٠٢

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

((أن حكاية مجيء هذا الوفد البصري صارت فيما بعد حكاية أعمّ، فأصبحت تذكر بالنسبة لوفود أخرى تقدم تاريخها))[1]. الا أنه لا يستبعد عن حنكة معاوية وبصيرته ، أن يظهر للناس أن بيعة يزيد وكأنها جاءت نتيجة لالحاح ورجاء الوفود التي قدمت اليه ، وهذا أكثر انسجاما مع ما نعرفه عن مزاج معاوية وحسن تدبيره وسياسته[2]. فكان ((يعطي المقارب ويداري المباعد ويلطف به حتى استوثق له أكثر الناس))[3]. وبايعة أهل الشام وأهل العراق.

أما أمر أهل الحجاز ، فقد أهمّ معاوية بن أبي سفيان، اذ أخفق واليه مروان بن الحكم باعادة الكرة، فكتب الى سعيد بن العاص ـ الوالي الجديد ـ أن يدعو أهل المدينة الى بيعة يزيد ؛ وأن يكتب اليه بمن سارع ممن لم يسارع الى البيعة[4]. ورأى سعيد بن العاص أن يأخذ الناس بالشدة والحزم، اذ خشي أن يلاقي مصير سلفه مروان في العزل . وازاء ذلك استجاب لدعوته بعض الناس قبلها بعضهم مقابل ما أغدق عليهم معاوية من مال ، وقبلها البعض الآخر من قناعة حين رأى أن البيعة أصبحت أمرا لا مفر منه ، ولا بد من وجود خليفة يجتمع عليه الناس ويدبر شؤونهم اذ الخلافة في الحقيقة ((خلافة من صاحب الشرع في حراسة الدين وسياسة الدنيا به))[5]. ويبعد عنهم شبح الفتنة التي قاسوا منها الكثير.

ورفض آخرون بيعة يزيد وتزعم هؤلاء نفر من بني هاشم، وابن الزبير، فكتب سعيد الى معاوية يخبره بحال أهل الحجاز قائلا : ((انك أمرتني أن أدعو الناس لبيعة يزيد ابن أمير المؤمنين، وأن اكتب اليك بمن سارع ممن أبطأ ، وأن أخبرك أن الناس عن ذلك بطاء ، ولا سيما أهل البيت من بني هاشم، فانه لم يجبني منهم أحد ، وبلغني عنهم ما أكره ، وأما الذي جاهر بعداوته وابائه لهذا الأمر، فعبد الله بن الزبير، ولست أقوى عليهم الا بالخيل والرجال أو تقدم بنفسك، فترى رأيك في ذلك والسلام))[6]. وبذلك اقترح سعيد بن العاص على معاوية بن أبي سفيان اقتراحين لاخضاع زعماء أهل الحجاز ، اما أن ينفذ اليهم

١ـ فلهوزن : تاريخ الدولة العربية ص ١٣٨

٢ـ ابن الاثير : الكامل ج ٣ ص ٥٠٨

٣ـ انظر ابن قتيبة : الامامة والسياسة ج ١ ص ١٥٣

٤ـ ابن خلدون : المقدمة ج ٢ ص ٦٨٨

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الجيوش لارغام هؤلاء بالقوة على قبول البيعة واما أن يقدم بنفسه الى المدينة ليقنعهم بالحجة والبيان أو يفعل مايراه ملائما .

وأراد معاوية أن يأخذ بيعة هؤلاء الزعماء دون اكراه حتى لاينقضونها بعد وفاته . فأعمل فكره وتولى أمر بيعة أهل الحجاز بنفسه بعد أن عجز ولاته في احراز تقدم ملموس بهذا الشأن، وكتب الى كل من: ابن عباس، وعبد الله بن جعفر، وابن الزبير، والحسين بن علي ، كتبا دعاهم فيها للبيعة وذكرهم فضله عليهم (١). وطلب من سعيد بن العاص أن يبعث برد ودهم عليها اليه . وقد أجمع أولئك الزعماء على نقض دعوته ، وكان مما كتب ابن الزبير :

ولو رمت ما ان قد عزمت وجدتني ... عزيز عرين يترك القرن أكتما

وأقسم لولا بيعة لك لم أكن ... لانقضها لم تنج مني مسلما

وعندما رأى معاوية صلابة ما أجابوه به من الخلاف لامره ، والكراهية لبيعة يزيد انتهز فرصة موسم الحج ، فخرج الى الحجاز علّه يتمكن من أخذ بيعة أهلها بنفسه . مستغلا أثر وجوده شخصيا في التأثير على زعماء المعارضة الحجازية .

قدم معاوية بن أبي سفيان الى الحجاز سعيا لتنفيذ رغبته الملحة في أخذ البيعة ليزيد ، وحين اقترب من المدينة خرج الناس الى لقائه ، فأساء لقاء زعمائهم واشتد عليهم وظن أن الشدة يمكن أن تثني معارضتهم لصالحه ، وكان الحسين بن علي أول من لقيه منهم ، فنظر اليه معاوية وقال :((لا مرحبا ولا أهلا ! بدنة يترقرق دمها والله مهريقه ! قال : مهلا فاني والله لست بأهل لهذه المقالة ! قال : بلى ولشر منها))(٢). وعندما لقيه عبد الله بن الزبير قال : ((لا مرحبا ولا أهلا ! خب ضب(٣) لطعمة ، يدخل رأسه ويضرب بذنبه ويوشك والله أن يؤخذ بذنبه ويدق ظهره))(٤). ثم أمر أن ينحى عن طريقه ، فضرب الحراس وجه راحلته . وفعل مثل ذلك بعبد الرحمن بن أبي بكر وعبد الله بن عمر .

١ـ انظر ابن قتيبة : الامامة والسياسة ج ١ ص ١٥٤ ـ ١٥٥

٢ـ ابن الأثير : الكامل ج ٣ ص ٥٠٨

٣ـ خب ضب: خدّاع مراوغ. انظر ابن منظور : لسان العرب ج ١ ص ٥٤٠

٤ـ ابن الأثير : الكامل ج ٣ ص ٥٠٨

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وأقبل هؤلاء معه وهو لا يلتفت اليهم حتى دخل المدينة، ورفض أن يأذن لهم في الدخول عليه ٠ فاضطروا الى الخروج من المدينة الى مكة ، فلم يثن رحيلهم معاوية عما اعتزم ، فوقف يخطب الناس بالمدينة ، وذكر يزيد ابنه فمدحه وأضاف قائلا: من أحق منه بالخلافة في فضله وعقله وموضعه ؟ وحذر المعارضين قائلا: وما أظن قوما بعنتهين حتى تصيبهم بوائق تجتث أصولهم وقد أنذرت ان أفنت النذر، ثم انشد متمثلا:(١)

قد كنت حذرتك آل المصطلق ... وقلت يا عمرو أطعني وانطلق

انك ان كلفتني مالم أطق ... سامك ما سرك مني من خلق

دونك ما استسقيته فاحس وذق

وهنا ملاحظة جديرة بالاعتبار في رواية ابن الاثير هي أن معاوية قد ترك سياسة الحلم واللين واتخذ أسلوب الشدة والحزم، فأنذر هذا الانذار القاسي ليسمع به الداني والقاصي ٠ كما أنه مدح ابنه وتجاوز عن عيوبه ، مدفوعا بعاطفة الابوة ((ورأى أنه لذلك أهلا، وذاك من شدة محبة الوالد للولد))(٢)٠

ودخل معاوية على السيدة عائشة أم المؤمنين، وكانت قد بلغها أنه قد هدد بقتل النفر المعارضين ان لم يجيبوه الى بيعة يزيد ، فشكاهم اليها فوعظته وقالت ((بلغني أنك تتهددهم بالقتل ٠ فقال : يا أم المؤمنين هم أعز من ذلك ولكني بايعت ليزيد وبايعه غيرهم أفترين أن أنقض بيعة قد تمت ؟ قالت: فارفق بهم فانهم يصيرون الى ما تحب ان شاء الله))(٣)٠

مكث معاوية بالمدينة ماشاء الله له ، ثم خرج الى مكة وفي نيته أن يرفق بهؤلاء النفر من زعماء أهل الحجاز، استجابة لنصيحة أم المؤمنين ، ورغبة منه في استدراجهم الى البيعة بالحلم واللين، وعندما لقيه وهو في طريقه الى مكة الحسين بن علي أكرمه وبره وكذلك فعل باصحابه ومنحهم الهبات والصلات ((فلا يمضي يوم الا ولهم صلة، ولا يذكر لهم شيئا حتى قضى نسكه وحمل أثقاله وقرب مسيره))(٤)٠

أما أولئك النفر، زعماء المعارضة الحجازية ، فلم يحيدوا عن موقفهم ومعارضتهم ، وقال بعضهم لبعض: لا تخدعوا، فما صنع بكم معاوية هذا الصنيع لحبكم ، وانما فعل ذلك لما يريد منكم، فأعدوا له جوابا ٠

١ــ ابن الأثير: الكامل ج ٣ ص ٥٠٨ ــ ٥٠٩

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

واتفقوا على أن يكون المتحدث باسمهم عبد الله بن الزبير[1]. فدعاهم معاوية الى مجلسه وقال :((قد علمتم سيرتي فيكم، وصلتي لأرحامكم وحملي ماكان منكم، ويزيد أخوكم وابن عمكم، وأردت أن تقدموه باسم الخلافة، وتكونوا أنتم تعزلون وتؤمرون وتجبون المال وتقسمونه لايعارضكم في شيء من ذلك))[2].

ويبدو أن معاوية ، بقوله هذا ، قصد الى كسب قلوب أولئك النفر لا أكثر. لانه هو نفسه يعلم أن تنفيذ ذلك أمر مستحيل ، فكيف لنا أن نتصور أنهم سوف يعزلون ويأمرون ويجبون المال ويقسمونه بدون معارضة من يزيد في شيء من ذلك؟ ثم اذا كان معاوية يريد ذلك حقا ، فلماذا هذا السعي والجهد والترحال ليكون ابنه خليفة بالاسم ولا شيء له من الأمر؟ هذه علامات استفهام نضعها على رواية ابن الأثير، الذي أضاف[3] أنه على الرغم من عرض معاوية الا أن القوم سكتوا ولم يجيبوا رغم أن معاوية قد ألح عليهم للحصول على اجابة.

ولما لم يجب أحد منهم التفت معاوية الى ابن الزبير وقال له : هات لعمري انك خطيبهم. فقال : نعم ، نخيرك بين ثلاث خصال. قال: اعرضهن ، فقال : تصنع كما صنع رسول الله، صلى الله عليه وسلم، أو كما صنع أبو بكر، أو كما صنع عمر. فقال بدهاء ما صنعوا؟ قال : قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولم يستخلف أحدا ، فارتضى الناس أبا بكر. قال : ليس فيكم أحد مثل أبي بكر وأخاف الاختلاف. قال : صدقته فاصنع كما صنع أبو بكر فانه عهد الى رجل من قاصية قريش ليس من بني أبيه فاستخلفه ، وان شئت فاصنع كما صنع عمر جعل الأمر شورى في ستة نفر ليس فيهم أحد من ولده ولا من بني أبيه. قال : هل عندك غير هذا ؟ قال : لا. وكانت هذه هي تجربة أهل الحجاز في الحكم لخصها ابن الزبير وتمسك بها الآخرون ولذلك أجابوا حين ألتفت اليهم معاوية قائلا : وأنتم ؟ فقالوا : قولنا قوله.

أدرك معاوية أن سياسة الحلم وبذل الأموال لم تعد تجدي نفعا ، فرأى أن يحيد عن هذه السياسة الى سياسة الشدة والحزم. فقال لهم : ((اني قد أحببت أن أتقدم اليكم ، انه قد اعذر من أنذر، اني

١ـ انظر ابن الأثير : الكامل ج ٣ ص ٥٠٩ ـ ٥١٠

٢ـ المرجع السابق ص ٥١٠

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

كنت أخطب فيكم فيقوم الي" القائم منكم فيكذبني على رؤوس الناس فأحمل ذلك وأصفح ، وائي قائم بمقالة فأقسم بالله لئن رد علي" أحدكم كلمة في مقامي هذا لا ترجع اليه كلمة غيرها حتى يسبقها السيف الى رأسه ، فلا يبقين رجل الا على نفسه))(١). ثم دعا صاحب حرسه بحضرتهم وقال له : أقم على رأس كل رجل من هؤلاء رجلين معكل واحد سيف ، فان ذهب رجل منهم يرد" علي كلمة بتصديق أو تكذيب فليضرباه بسيفيهما . ثم خرج وخرجوا معه ورقي المنبر ، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : ان هؤلاء الرهط سادة المسلمين وخيارهم ، لا يبتز أمر دونهم ، ولا يقضى الا عن مشورتهم وانهم قد رضوا وبايعوا ليزيد فبايعوا على اسم الله . (٢)

بايع الناس اذا كانوا يتربصون بيعة هؤلاء النفر ، ثم ركب معاوية رواحله وانصرف الى المدينة ، فلقي الناس أولئك النفر فقالوا : زعمتم أنكم لا تبايعون ، فلم أرضيتم وأعطيتم وبايعتم . قالوا : والله ما فعلنا فقالوا : ما منعكم أن تردوا على الرجل ؟ قالوا : كادنا وخفنا القتل .

وفي المدينة بايع معاوية أهلها ، أما عبد الله بن عمر ، فقد بايع وهو يقول : ((أبايعك على أني أدخل فيما تجتمع عليه الأمة ، فوالله ، لو اجتمعت على حبشي لدخلت معها))(٣). ثم غادر معاوية الحجاز عائدا الى الشام ، حيث بدأ سياسة جديدة تنطوي على مجافاة بني هاشم .

هذا ملخص رواية ابن الأثير عن كيفية حصول معاوية بن أبي سفيان على بيعة أهل الحجاز ، وهي رواية متناقضة مما يدفع الباحث الى الشك في صحتها ، وأنها كما قيل : ((رواية صنعت صنعا ماهرا))(٤) اذ كيف يمكن أن نتصور ظهور معاوية ـ وهو المعروف بالدهاء والحلم والسياسة ـ بهذا المظهر المنيف ، فيخرج من الشام بصحبة ألف من الجند ليحصل على بيعة نفر من الزعماء لا يتجاوزون الخمسة أو يجبرهم على البيعة ، ثم يظهر أمامهم عنيفا شديدا وبسيء استقبالهم ، وبعد ذلك يتراجع عن هذا الموقف فيصلهم بعطاء ، فلا يمضي يوم الا ولهم صلة ، ورغم ذلك كله لا يحصل منهم على نتيجة ايجابية ، ويعود دون مبايعتهم لابنه يزيد ، زاعما للناس أنهم قد بايعوا (٥) .

١ـ انظر ابن الاثير : الكامل ج ٣ ص ٥٠٩ ـ ٥١١

٢ـ انظر المرجع السابق نفس الصفحات

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وتجدر الاشارة كذلك الى أن روايات المصادر الموثوقة لا تشير الى هذا الحادث. فالطبري[1] يذكر أنه ((لما مات زياد دعا معاوية بكتاب فقرأه على الناس باستخلاف يزيد، ان حدث به حدث الموت فيزيد ولي عهد، فاستوسق[2] له الناس على البيعة ليزيد غير خمسة نفر)).

وعندما قدم معاوية الى الحجاز، أرسل الى النفر الممتنعين عن البيعة كلا على انفراد، وأفهم كلا منهم أنه يتزعم المعارضين، فكان يقول للرجل منهم: ((قد استوسق الناس لهذا الأمر غير خمسة نفر من قريش أنت تقودهم، يابن أخي! فما اربك الى الخلاف؟[3])). فأنكر كل منهم ذلك ووعد أن يبايعه اذا بايع الآخرون. وتتفق هذه الرواية مع حنكة معاوية ودهائه السياسي.

أما رواية ابن الاثير فتختلف، مع أنه من غير المستبعد أن يقدم معاوية الى الحجاز، وكذلك لا تستبعد حجة زعماء المعارضة، ولكن المستبعد تناقض رواية ابن الاثير ((فالكلمات والمناظر المسرحية التي قد زينت بها القصة لا تجعلها أقرب الى التصديق. ويبدو أن كل الرواية لا تعدو أن تكون ظلا قد ارسل مقدما للحوادث التي وقعت في أول خلافة يزيد[4])).

أما ابن قتيبة[5] فيروى أن: معاوية قدم المدينة حاجا حين أظهر القوم الخلاف لأمره والكراهية لبيعة يزيد ((فلما أن دنا من المدينة خرج اليه الناس يتلقونه مابين راكب وماش وخرج النساء والصبيان، فلقيه الناس على حال طاقتهم وما تسارعوا به في الفوت والقرب فلان لمن كافحه، وفاوض العامة بمحادثته وتألفهم جهده، مقاربة ومصانعة. ليستميلهم الى مادخل فيه الناس... حتى اذا كان بالجرف لقيه الحسين بن علي وعبد الله بن عباس، فقال معاوية: مرحبا بابن بنت رسول الله .. ثم انحرف الى الناس فقال: هذا ان شيخا بني عبد مناف، وأقبل عليهما بوجهه وحديثه فرحب وقرب، وجعل يواجه هذا مرة وصاحبه هذا أخرى حتى ورد المدينة)). ثم تتفق روايتا الطبري وابن قتيبة في محادثة معاوية للنفر

١ـ تاريخ الرسل والملوك: ج ٥ ص ٣٠٣

٢ـ استوسق له الناس: اجتمعوا على رأيه

٣ـ الطبري: تاريخ ج ٥ ص ٣٠٣، ٣٠٤

٤ـ فلهوزن: تاريخ الدولة العربية ص ١٤٠

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الممتنعين كلا على انفراد ، ويبدو أن معاوية قدم الحجاز في موسم الحج ، ولكنه سلك مسلكا يتفق مع طبعه وشيمته ((وهو السيد الحليم ذو السن))(١). لا كما جاء في رواية ابن الاثير التي تتنافى مع طباع معاوية التي طبع عليها (٢).

على أي حال حصل معاوية بن أبي سفيان على بيعة أهل الحجاز دون بعض أبنساء الصحابة ، وجعل هؤلاء النفر شوكة دائمة في جنب الدولة الأموية ، ولن تعود الأمور الى نصابها الا بعد أن تسيل الدماء ، ويرمى البيت بالمجانيق ، ويحرق بالنار ، كما سنوضح فيما بعد .

عاب كثيرون على معاوية اختياره ابنه يزيد رغم ما اتصف به من لهو ولعب دون سائر أبناء الصحابة ، مخالف السنة التي سنها الخلفاء الراشدون لتولي الخلافة . فهو أول من قرر المبدأ الوراثي في الحكم الاسلامي ((واستمرت هذه السابقة الوراثية في الخلافة على هذا الشكل حتى الأزمنة الأخيرة من العصر العباسي))(٣).

وكان معاوية مدفوعا باختياره يزيد بعاطفته الأبوية ((ورأى أنه لذلك أهلا وذاك من شدة محبة الوالد لولده ، ولما كان يتوسم فيه من النجابة الدنيوية وسيماء أولاد الملوك ، ومعرفتهم بالحروب وترتيب الملك والقيام بأبهته ، وكان ظن أن لا يقوم أحد من أبناء الصحابة في هذا المعنى ولهذا قال لعبد الله بن عمر فيما خاطبه به : اني خفت أن أذر الرعية من بعدي كالغنم المطيرة ليس لها راع))(٤). هذه العاطفة التي يمكن أن تكون قد حجبت عنه عيوب ابنه ، وغطت عنه فضل الآخرين دينا وسياسة . ولا ريب فقد أراد أن يجني ابنه ثمار جهوده التي بذلها حتى دانت له الخلافة .

حاول معاوية أن يمرر ما أقدم عليه قائلا : ((اللهم ان كنت انما عهدت ليزيد لما رأيته من فضله فبلغه ما أملت وأعنه ، وان كنت انما حملني حب الوالد لولده وانه ليس لما صنعت به أهلا فاقبضه قبل أن يبلغ ذلك))(٥). ثم ألا يمكن أن يفسر دعاء معاوية هذا على أنه شعر بعظيم مسئوليته في اختيار يزيد ، فأراد أن

١ــ فلهوزن : تاريخ الدولة العربية ص١٤

٢ــ انظر عن صفات معاوية ابن كثير : البداية والنهاية ج ٨ ص١٢٤ ــ ١٢٥ ، الطبري : تاريخ ج ٥ ص ٣٣٦ ــ ٣٣٧

٣ــ أرنولد : الخلافة ص ٩ Arnold: The Caliphate, Page 22

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

يبرأ الى الله من هذه التيمية ! .

وشارك الأمويون أنفسهم في توجيه النقد واللوم الى معاوية ، فهو لم يختر أحدا من أبنا[illegible] بدل يزيد ، فغضب سعيد بن عثمان بن عفان وصارح معاوية قائلا : ((يا أمير المؤمنين، علام تهايـــــع ليزيد وتتركني ، فوالله لتعلم أن أبي خير من أبيه وأمي خير من أمه ، وأنا خير منه ، وانك انما نلت ما أنت فيه بأبي)) (١) . فاسترضاه معاوية وولاه خراسان (٢) طمعة وصلة رحم ، فخرج سعيد بن عثمان راضيا مادحا .

والتف بعض الأمويين حول شيخهم مروان بن الحكم الذي كان يرى أن بني حرب بن أمية أخذوا الخلافة باسم عثمان . وكان يرى أنه أقرب لعثمان منهم كما أنه كان أكثر رجالا منهم (٣) . وبالتالي كان يطمع أن يكون الخليفة المقبل بعد معاوية، لكبر سنه ومنزلته في بني أمية خاصة وأن العبدأ القبلي ((يعترف بالسيادة في فخذ أو عائلة، ولكنه لا يقبل الوراثة، ويراعي مسألة السن والحنكة والنفوذ والكرم، ويؤكد أن تكون الرئاسة لأقدر أفراد القبيلة أو البيت بدون ضرورة لتوريثها الابن)) (٤) . ولكن معاوية أهمل مروان ابن الحكم ولم يعهد اليه ، فغضب وخرج في أهل بيته وناس كثير من قومه ، ووقف بجانبه أخواله من بني كنانة فجاء حتى نزل دمشق .

دخل مروان بن الحكم في وفد كبير على معاوية، ووقف خطيبا فقال : ((.... وأيم الله لولا عهود مؤكدة، ومواثيق معقدة، لأقمت أود وليها ، فأقم الأمر يا ابن أبي سفيان وأعدأ من تأمر الصبيان، وأعلم أن لك في قومك نظرا ، وأن لهم على مناواتك وزرا)) (٥) .

كان وقع هذه الكلمات شديدا على معاوية ، وابكه كظم غيظه بحلمه ، فأخذ بيد مروان وقال : ((... فأنت نظير أمير المؤمنين بعده ، وفي كل شدة عضده ، واليك عهد عهده ، فقد وليتك قومك، وأعظمنا في الخراج سهمك وأنا مجيز وفدك ومحسن رفدك، وعلى أمير المؤمنين غناك، والنزول عند رضاك)) (٦) .

١ـ ابن قتيبة : الامامة والسياسة ج ١ ص ١٦٤ وانظر الطبري : تاريخ ج ٥ ص ٣٠٥

٢ـ انظر ابن الأثير : الكامل ج ٣ ص ٥١٢ .

٣ـ انظر المصعب الزبيري : نسب قريش ص ١٠

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فأسكتت الأموال مروان بن الحكم وأرضته .

ولا ريب أن تحول الخلافة من نظام شورى وانتخابي الى نظام وراثي ملكي بدا لأهل الحجاز بما فيهم الأمويين أمرا غريبا لم يسبق اليه أحد قبل معاوية في الاسلام في أن يعين وليا للعهد وهو مازال في كرسي الحكم . وعبّر عن هذه الغرابة ابن الزبير قائلا :((... أتريد أن تبايع ليزيد ؟ أرأيت ان بايعناه أيكما نطيع؟ أنطيعك أم نطيعه ؟ ان كنت ملت الخلافة فاخرج منها ، وبايع ليزيد فنحن نبايعه))(١). فكثر الجدل بينهما ، حتى قال معاوية لابن الزبير : والله ماأراك الا قاتلا نفسك، ولكأني بك قد تخبطت في الحبالة .

وقد علق سيد أمير علي على بيعة يزيد فقال :((... أبوا — أي أبناء الصحابة — النزول على رأيه — رأي معاوية — رغم الشروط السخية التي عرضها عليهم فتقوّت بهم قلوب أهل الحجاز ، واشتدت عزائمهم، وقد كان لعبد الله بن الزبير الذي يسميه معاوية ثعلب قريش عين ترنو الى الخلافة . أما الباقون فكانوا يبغضون يزيد لهنات ينقمونها عليه))(٢).

ان نجاح معاوية في تطبيق نظام الوراثة في الحكم وادخال هذه الفكرة الغريبة على التراث العربي جعل الناس مختلفين بين مؤيدين ومعارضين، كانوا ومازالوا . لذلك فالأجدر أن ننظر في عمل معاوية هذا هل أخطأ فيه أم أصاب.

والذي يظهر أن معاوية كان مصيبا في فكرة تعيين خليفة له من بعده ((وحضور أكابر الصحابة لذلك وسكوتهم عنه دليل على انتفاء الريب فيه ، فليسوا ممن يأخذهم في الحق هوادة، وليس معاوية ممن تأخذه العزة في قبول الحق))(٤). وانه مادام لم توضع قاعدة عامة لانتخاب الخلفاء ، وانما الأمر مجرد اجتهاد ، ولم يعين أهل الحل والعقد الذين يرجع اليهم الاختيار طريقة محددة لايجوز الخروج عنها في اختيار الخلفاء ، فمن الحكمة اذن أن يختار الخليفة ولي عهده قبل أن يموت. لأن ذلك، لو

١ــ ابن قتيبة : الامامة والسياسة ج ١ ص ١٦٢

٢ــ مختصر تاريخ العرب والتمدن الاسلامي ص ٧٠

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أخلص الخلفاء في اختيار الصالح المناسب، يهدد الاختلاف الذى هو خطر على الأمة ويفرق كلمتها وينشر جهودها ويجعل بأسها بين أبنائها شديدا .

وفكرة تعيين ولي للعهد لم تكن أمرا مرفوضا حتى من المعارضين الذين قبلوا أن يختار معاوية لهم وليا للعهد قبل أن يعرض عليهم مروان بن الحكم اسم يزيد بالذات.(١)

ان معاوية مع عظيم سلطانه ، وقوة الدولة في عهده ، لم يهمل السعي للحصول على موافقة المسلمين ، كما يلاحظ أنه عمل عدة سنوات حتى تستقر البيعة ليزيد ، واستعمل في سبيل ذلك الدهاء والعطاء والحزم والشدة ، كما أنه قام برحلات تجشم فيها عناء السفر رغم تقدمه في السن سعيا وراء تحقيق هدفه . ولكنه استهان بأولئك النفر الذين لم يرضوا بيعة يزيد ، وهم من زعماء الأمة الذين يتطلعون لولاية أمر المسلمين ولم يهتم بمعارضتهم . وادعى على رؤوس الأشهاد ـ ان صحت رواية ابن الأثير ـ(٢) أنهم قد بايعوه ! وهذا أمر غير لائق بمقام الخليفة . مما ترتب عليه نتائج محزنة وقعت في خلافة يزيد .

وكذلك كان أكثر الذين طمعوا في الخلافة أو رشحوا أنفسهم لها أو رشحهم الناس هم من ابناء الخلفاء ، ويزيد ابن خليفة ، وقد ولى الحسن الخلافة بعد أبيه .(٣) فوصول الابن الى سدة الحكم ليس أمرا مرفوضا تماما لو حاز رضى الأمة . أما الشيعة فقد أسرفت في انتقاد معاوية لتوليته ابنه ، ويبدو هذا الانتقاد الشديد وقد خالف تماما ما تصر عليه الشيعة أشد الاصرار، في وجوب حصر الخلافة في آل علي بن أبي طالب ، يتناقلونها ويتوارثونها ((وقالوا : بامامته ـ أى علي بن أبي طالب ـ وخلافته نصا ووصية ، اما جليا واما خفيا ، واعتقدوا أن الامامة لا تخرج من أولاده ، وأن خرجت ، فبظلم يكون من غيره أو بتقية من عنده))(٤). ولما قامت دولة بني العباس، الذين أطاحوا بالحكم الأموي، ساروا على نفس خطة معاوية ، فجعلوا الخلافة حقا من حقوقهم ولا يجوز خروجها من أسرتهم الى أي أسرة أخرى مهما علت وضرب الأمويون والعباسيون بذلك ((عادة العرب في اعتبار السلطان من حق القبيلة في جملتها))(٥) عرض الحائط.

١ـ انظر ابن الأثير : الكامل ج ٣ ص ٥٠٦

٢ـ انظر المرجع السابق ص ٥٠٤

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وقد أتهم معاوية بأنه سن في الاسلام سنة الملك المنحصر في أسرة واحدة معينة بعد أن كان أساسه الشورى ويختار من عامة قريش وقالوا : ان سنة معاوية تدعو في الغالب الى انتخاب غير الأفضل الأليق من الأمة وتجعل في أسرة الخلافة الترف والانغماس في الشهوات والملاذ والرفعة على سائر الناس(١) الا أن هذا الاتهام يمكن الرد عليه بان طريقة معاوية في تعيين خلف له ـ فيما لو سلمت القلوب ـ كان يمكن أن تصلح أمر الأمة الاسلامية وتلم شعثها وتقضي بالتالي على أطماع الذين يرنون الى الخلافة .

واذا نظرنا الى اتساع الدولة الاسلامية ، وصعوبة المواصلات بين أمصارها ، وعدم وجود جماعة معينة ، كمجلس الأمة أو مجلس الشعب اليوم ، يرجع اليها في انتخاب الخليفة ، أقول اذا نظرنا في هذه الأمور أدركنا أن الاختلاف والانقسام لا بد حاصل . وانه لو رضي الناس عن أسرة معينة واحدة ودانوا لها بالطاعة واعترفوا بأحقيتها الخلافة ، لأمكن أن يكون هذا خير مايفعل لحسم الاختلاف والحفاظ على وحدة الأمة . وقد كان الأمويون آنذاك يسيطرون على الحكومة ، كما كانوا أهل العصبية فيها(٢) ، يلتف حول زعيمهم معاوية الناس . فلو قدر لرجل آخر أن يلي الخلافة بعد معاوية كعبد الله بن الزبير أو الحسين بن علي ، فانه سوف يعزل الولاة ويبعد المقربين من معاوية ، مما قد يؤدي الى تكرار الحروب والدماء التي أريقت في الفترة السابقة .

الا أن معاوية قد اندفع بعاطفته كأب في اختيار ابنه ليرث ملكه ويجني ثمار جهوده ، وهذا مما يؤخذ عليه ، ولو أراد الخير والصلاح لعامة المسلمين لكان من بني أمية من هو أفضل وأصلح وأتقى من يزيد . ونقل الطبري(٣) أن أربع خصال كن في معاوية ، لو لم يكن فيه منهن الا واحدة لكانت موبقة ((انتزاؤه على هذه الأمة بالسفهاء حتى ابترها أمرها بغير مشورة منهم وفيهم بقايا الصحابة وذو الفضيلة ، واستخلافه ابنه بعده ... وادعاؤه زيادا ... وقتله حجرا ...)) .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

والخلاصة أن ما أقدم عليه معاوية كان أمرا لا بد منه لظروف الدولة وتطورات المجتمع يومذاك .

كما أن هذه الخطوة التي خطاها معاوية تدل على سداد رأيه وبعد نظره ، واجتهاد معاوية في اختيار ولي للعهد عمل ينطوي على الحكمة وكان يمكن أن يترك نتائج عظيمة لو سلك مسلك أبي بكر الصديق، الذي اختار رجلا من قاصية قريش لا يمت اليه بقرابة قريبة .

وصية معاوية الى ابنه يزيد :

مرض معاوية بدمشق مرضه الأخير في رجب سنة ستين هجرية (١) ، وشعر بقرب وفاته ودنو أجله ، فأراد أن يوصي ابنه وولي عهده ، وأن يرسم خطوطا عريضة للسياسة التي أراد أن يتبعها خلفه ، وحيث أن يزيد كان غائبا عن دمشق أثناء مرض أبيه (٢) ، استدعى معاوية الضحاك بن قيس الفهري ومسلم بن عقبة المري، وأمرهما أن يؤديا عنه وصيته الى يزيد (٣) .

استهل معاوية وصيته (٤) ببيان فضله وجهوده الى ولي عهده فقال :((يابني اني قد كفيتك الشد والترحال ، ووطأت لك الأمور ، وذللت لك الأعداء ، وأخضعت لك رقاب العرب، وجمعت لك مالم يجمعه أحد))(٥) . ونال أهل الحجاز اهتمام معاوية في وصيته فقال :((وأعلمه أني آمره في أهل الحجاز أن يكرم من قدم عليه منهم ، ويتعهد من غاب عنه من أشرافهم فانهم أصله))(٦) . وعشيرته وطلب أن يكرم الوافدين عليه منهم ((فانهم لمن وراءهم))(٧) .

أما العراق فقد شعر معاوية بالثورة التي تجيش في نفوس أهلها ، ضد يزيد ، فأوصاه بالرفق بهم ومداراتهم والتجاوز عن زلاتهم قائلا :((وأنظر أهل العراق، فان سألوك أن تعزل عنهم كل يوم عاملا فافعل ، فان عزل عامل أحب الي من أن تشهر عليك مائة ألف سيف))(٨) . أما أهل الشام فقد أوصى يزيد

١ـ انظر الطبري : تاريخ ج ٥ ص ٣٢٣ ـ ٣٢٤

٢ـ انظر الدينوري : الأخبار الطوال ص ٢٢٥

٣ـ انظر ابن عبد ربه : العقد الفريد ج ٤ ص ٣٧٢

٤ـ انظر نص وصية معاوية في الطبري : تاريخ ج ٥ ص ٣٢٣

٥ـ ابن الأثير : الكامل ج ٤ ص ٦

٦ـ الدينوري : الأخبار الطوال ص ٢٢٦

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أن يعتمد عليهم في توطيد ملكه والقضاء على أعدائه بهم ، اذ كانوا جندا مخلصين لبني أمية، فأوصاهم[1] أن يعرف لهم حقهم[2] قائلا :((وانظر أهل الشام فليكونوا بطانتك وعيبتك، فان رابك من عدوك شيء فانتصر بهم فاذا أصبتهم فاردد أهل الشام الى بلادهم فانهم ان اقاموا بغير بلادهم تغيرت أخلاقهم[3])).

ثم أراد معاوية أن يحذر ابنه من الطامعين في الخلافة ، فعدد لهم له وحلل نفسياتهم تحليلا دقيقا ، ثم أوصاه بما يجب عليه أن يفعل ازاء تصرفاتهم المرتقبة، أما الحسين بن علي فقد وصفه بأنه رجل خفيف وأن أهل العراق غير تاركيه حتى يخرجوه . وطلب من يزيد أن يصفح عنه اذا خرج ((فان له رحما ماسة وحقا عظيما وقرابة من محمد))[4]. أما عبد الله بن الزبير فقد كان أكثر دهاء من أقرانه ، فان أمكنته فرصة وثب ووصفه معاوية بأنه يجثم جثوم الأسد ويروغ مراوغة الثعلب، وانه ان خرج فظفرت به فقطعه اربا اربا الا ((أن يلتمس منك صلحا ، فان فعل فاقبل منه ، واحقن دماء قومك بجهدك، وكف عاديتهم بنوالك وتغمدهم بحلمك))[5]. أما عبد الله بن عمر فرجل قد وقذته العبادة، وبالتالي لن يكون كبير خطر اذا بايع الناس. وقبل أن معاوية ذكر عبد الرحمن بن أبي بكر في وصيته لابنه قائلا : ((فان رأى ـ أي عبد الرحمن ـ أصحابه صنعوا شيئا صنع مثله))[7]. ويبدو أن ما جاء على لسان معاوية عن عبد الرحمن كان من تلفيق الرواة ، اذ أن عبد الرحمن بن أبي بكر كان قد توفي قبل وفاة معاوية بعامين. وذكر ابن كثير[8] أنه توفي سنة ثمان وخمسين هجرية .

أراد معاوية بهذه النصائح أن يلخص في وصيته لابنه يزيد حالة الأمصار الاسلامية، ونزعاتها في كلمات وجيزة ليتخذ منها يزيد دستورا ومنهاجا وليستفيد من خبرة أبيه وتجاربه في الحكم كأمير ثم كخليفة مدة تقارب الأربعين عاما . ووصف لابنه بعض زعماء الحجاز وصفا يدل على صدق بصيرته ومدى معرفته بالرجال .

١ـ انظر ديمومبين : النظم الاسلامية ص ٢٦
٢ـ انظر ابن كثير : البداية والنهاية ج ٨ ص ١١٥
٣ـ ابن الأثير : الكامل ج ٤ ص ٦
٤ـ الطبري : تاريخ ج ٥ ص ٣٢٣
٥ـ الدينوري : الأخبار الطوال ص ٢٢٦
٦ـ انظر الطبري : تاريخ ج ٥ ص ٣٢٣

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وعندما انتقل معاوية الى جوار ربه خرج الضحاك بن قيس فصعد المنبر وقد وضع أكفان معاوية على يديه ، فقال بعد أن حمد الله وأثنى عليه :((ان معاوية كان عود العرب، وحد العرب، قطع الله عزوجل به الفتنة، وملكه على العباد ، وفتح به البلاد ألا انه قد مات فهذه أكفانه ، فنحن مدرجوه فيها ومدخلوه قبره ، ومخلون بينه وبين عمله ، ثم هو البرزخ الى يوم القيامة))(١).

ثم أرسل الضحاك بن قيس الى يزيد من يخبره بوجع معاوية ، وكان قد صلى عليه ، فلما وصل الخبر الى يزيد الذى كان بحوارين قال يرثي أباه (٢) :

جاء البريد بقرطاس يخب به ... فأوجس القلب من قرطاسه فزعا

فمادت الأرض أو كادت تميد بنا ... كأن أغبر من أركانها انقطعا

أودى ابن هند وأودى المجد يتبعه ... كانا جميعا فماتا قاطنين معا

ثم أقبل يزيد وقد دفن معاوية ، فأتى قبره ، فصلى عليه ، ودعا له . وبدأ عهد جديد هو عهد خلافة يزيد بن معاوية، الذي لم يكن بعيد النظر كأبيه ، ولم يتقيد بوصاته اليه فيما يتعلق بالحجاز فأخذت الأحداث فيها تسير بسرعة نحو الحرب الأهلية .

بوادر ثورة أهل الحجاز على خلافة يزيد بن معاوية:

ولي يزيد بن معاوية الخلافة في رجب سنة ستين (٣)، وكان قد ولد في السنة السادسة والعشرين هجرية (٤)، حين كان أبوه أميرا على الشام لعثمان بن عفان . ونشأ يزيد نشأة تختلف عن نشأة أبيه فشب وسط مظاهر الملك والترف، التى كانت بعيدة عن مظاهر الحجاز، وكان أبوه يطمح في أن يرث يزيد منصبه ، فولاه امارة الحج والصائفة، وأرسله قائدا للجيش الذي غزا القسطنطينية (٥)((ولم تكن تعوز يزيد ابن معاوية الهمة ولا الذكاء لمواصلة أعمال أبيه))، كما ذكر ابن طولون (٦) أنه ((كان في يزيد خصال محمودة من الكرم والحلم والفصاحة والشعر والشجاعة .... وكان كذلك فيه اقبال على الشهوات))

١ـ الطبرى : تاريخ ج ٥ ص ٣٢٧ ـ ٣٢٨

٢ـ انظر ابن الأثير : الكامل ج ٤ ص ٩

٣ـ انظر المرجع السابق ص ١٤

٤ـ انظر ابن كثير : البداية والنهاية ج ٨ ص ١٤٦

٥ـ دائرة المعارف الاسلامية ج ٢ ص ٦٧١

Lewis, Bernard: The Arabs in History ... Page 66

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الا أن الظروف والاحداث التي وقعت في خلافته قد شوهت الى حد كبير سمعته ، ووصف بأنه صاحب طرب وجوارح وكلاب وقرود وفهود ومنادمة على الشراب))(١). ورأى زياد ابن أبيه ، أن يزيد ((صاحب رسلة وتهاون، مع ماقد أولع به من الصيد))(٢). ولا تقارن هذه الصفات بصفات الخلفاء قبله ، فلا غرابة أن تطور موقف أهل الحجاز من الخلافة الأموية وفي أشهر قليلة ، بعد وفاة معاوية ، فرفع أعداء الأمويين رؤوسهم ضد يزيد(٣) ، فأعلنوا الثورة التي لم تخمد نيرانها الا في عهد عبدالملك بن مروان سنة ثلاث وسبعين .

وقد اهتم يزيد بن معاوية منذ أن ولي الخلافة، أن يأخذ البيعة من الأمصار الاسلامية، فلبت نداءه وبايعه الناس باستثناء نفر من أبناء الصحابة تزعموا أهل الحجاز ((فلم تكن ليزيد همة الا بيعة هؤلاء النفر))(٤)، ورأى أن بيعتهم تضمن ولاء أهل الحجاز . فكتب الى الوالي الأموي على المدينة، الوليد ابن عتبة بن أبي سفيان كتابا أخبره بموت معاوية بن أبي سفيان، وقال :((أما بعد ، فان معاوية كان عبدا من عباد الله ، أكرمه الله واستخلفه وخوله ومكّن له فعاش بقدر ومات بأجل، فرحمه الله فقد عاش محمودا ومات برا تقيا والسلام))(٥).

كما كتب الى الوالي كتابا آخرا لم يكن سوى ((صحيفة كأنها أذن فأرة))(٦) أمره فيه أن يأخذ البيعة من أولئك النفر الذين تزعموا أهل الحجاز ولم يبايعوه من قبل . فقال :((أما بعد فخذ حسينا وعبد الله ابن عمر وعبد الله بن الزبير بالبيعة أخذا شديدا ليست فيه رخصة ولا هوادة حتى يبايعوا ، والسلام))(٧).

وفوجيء الوليد بن عتبة بخبر وفاة معاوية وكبر عليه الأمر(٨)، وقدر عظم المسئولية التي أصبح منوطا به أن يتحملها لمواجهة الظرف: الذي خلفته وفاة معاوية ،ففكر وقرر أن يشرك مروان بن الحكم معه في المشورة(٩)، رغم أن العلاقات كانت سيئة بين مروان بن الحكم والوليد بن عتبة منذ أن ولي الوليد المدينة . وكان مروان بن الحكم شيخ الأمويين في الحجاز ،وتجمعه مع الوالي مصلحة مشتركة، هي مصلحة البيت

١ــ المسعودي: مروج الذهب ج ٣ ص ٦٧
٢ــ الطبري: تاريخ ج ٥ ص ٣٠٢
٣ــ انظر Saunders: A History of Medieval Islam. Page 70
٤ــ الدينوري: الأخبار الطوال ص ٢٢٧
٥ــ الطبري: تاريخ ج ٥ ص ٣٣٨
٦ــ المرجع السابق نفس الصفحة

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الأموي الحاكم .

بعث الوليد بن عتبة الى مروان بن الحكم وأطلعه على كتابي يزيد بن معاوية اليه ، فأبدى مروان أسفه لوفاة معاوية وترحم عليه . ثم تشاور الرجلان فيما عساهما أن يفعلاه ، اذ أن مصلحة بني أمية عامة كانت تفرض عليهما أن يتناسيا مابينهما من جفاء ، وأن يعملا بالتالي على توطيد الأمور وتحقيق رغبة يزيد بن معاوية في أخذ البيعة من أولئك النفر الذين لم يبايعوا في حياة معاوية بن أبي سفيان .

ورأى مروان بن الحكم أن يشتد الوليد بن عتبة على أولئك النفر وقال :((فاني أرى أن تبعث الساعة الى هؤلاء النفر فتدعوهم الى البيعة والدخول في الطاعة، فان فعلوا قبلت منهم ، وكففت عنهم ، وان أبوا قدمتهم فضربت أعناقهم قبل أن يعلموا بموت معاوية، فانهم ان علموا بموت معاوية وثب كل امرئ منهم في جانب، وأظهر الخلاف والمنابذة، ودعا الى نفسه لا أدري، أما ابن عمر فاني لا أراه يرى القتال، ولا يحب أن يولى على الناس، الا أن يدفع اليه هذا الأمر عفوا))(١).

فقبل الوليد بن عتبة رأي مروان بن الحكم في دعوة الحسين بن علي وعبد الله بن الزبير الى البيعة، لا سيما وقد تركزت عليهما الأنظار باعتبار أنهما زعيما المعارضة، وأكثر أهل الحجاز خطرا على الحكومة، فأرسل اليهما الوليد بن عتبة غلاما حدثا ، هو عبد الله بن عمرو بن عثمان(٢)، يستدعيهما اليه ، فوجدهما في المسجد وهما جالسان(٣) . ولم يكن الوليد في مثل تلك الساعة يجلس للناس، مما جعلهما يستريبان في دعوة الوليد والدافع اليها وهداهما تفكيرهما أن وفاة معاوية لا بد وأنها هي التي جعلت الوالي يستدعيهما ليبايعا للخليفة الجديد قبل أن يذيع في الناس خبر وفاة معاوية(٤) .

وتدبر عبد الله بن الزبير والحسين بن علي أمرهما ، واتفقا أن يذهب الحسين الى دار الوالي رغم خشية ابن الزبير، ليستطلع الأمر . وذهب الحسين محترسا واصطحب معه أهله ورجاله(٥) وحين انتهى الى باب الوليد قال لهم :((اني داخل، فان دعوتكم أو سمعتم صوتا قد علا فاقتحموا علي بأجمعكم، والا فلا تبرحوا حتى أخرج اليكم))(٦).

١ـ الطبري : تاريخ ج ٥ ص ٣٣٨ ـ ٣٣٩

٢ـ انظر ابن كثير : البداية والنهاية ج ٨ ص ١٤٧

٣ـ انظر ابن الأثير : الكامل ج ٤ ص ١٤

٤ـ انظر الدينوري : الأخبار الطوال ص ٢٢٧

٥ـ انظر المرجع السابق ص ٢٢٧

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

دخل الحسين على الوليد بن عتبة وعنده مروان بن الحكم، فأقرأه الوليد كتاب يزيد ونعى له معاوية. ثم دعاه الى البيعة. فقال الحسين : انا لله وانا اليه راجعون، ورحم الله معاوية وعظّم لك الأجر((أما البيعة فان مثلي لا يبايع سرا ولا يجتزأ بها مني سرا فاذا خرجت الى الناس ودعوتهم للبيعة ودعوتنا معهم كان الأمر واحدا))(١).

واقتنع الوالي بأقوال الحسين وسمح له بالانصراف، ولكن تصرفات الوليد بن عتبة مع الحسين لم ترق لمروان بن الحكم، فلام الوليد بشدة على اضاعة هذه الفرصة، ورأى حمل الحسين حتى يبايع والا فليس له الا القتل. أما الوليد بن عتبة فقد خالف مروان رأيه ، وقال :((ويحك أتشير علي أن أقتل الحسين، فوالله مايسرني أن لي الدنيا وما فيها ـ وأني قتلت حسينا ان قال لا أبايع ـ(٢) وما أحسب أن قاتله يلقى الله بدمه الا خفيف الميزان يوم القيامة))(٣). رغم أن الوليد ينتمي للحزب الأموي ويمثل السلطة الحاكمة في الحجاز.

أما عبد الله بن الزبير، فقد وعد الوليد بن عتبة بالحضور اليه ، ولكنه أسرع الى داره فكمن فيها متحرزا بأصحابه وأنصاره من أهل المدينة(٤). فبعث الوليد في طلبه عدة مرات ، يمد ابن الزبير رسل الوليد كل مرة بالحضور. فلما استحثوه قال : والله لقد استوبت بكثرة الارسال وتتابع هذه الرجال، فلا تعجلوني حتى أبعث الى الأمير من يأتيني برأيه وأمره . فبعث اليه أخاه جعفر بن الزبير، فقال : رحمك الله ! كف عن عبد الله فانك قد أفزعته وذعرته بكثرة رسلك، وهو آتيك غدا ان شاء الله ، فمر رسلك فلينصرفوا عنا، فبعث الوالي اليهم فانصرفوا(٥).

وازاء هذا الالحاح الذي أبداه الوليد ، وتشدد رسله في الطلب، وخوف عبد الله بن الزبير من لقائه أو ما سيترتب على هذا اللقاء، رأى أن يغتنم فرصة انصراف جند الوالي عنه ، فابتعد عن المدينة مرتحلا الى مكة(٦). حيث يتوفر له جو ملائم من الأمن والطمأنينة بجوار بيت الله الحرام، وصحبه في

١ـ ابن الأثير : الكامل ج ٤ ص ١٥

٢ـ المرجع السابق ص ١٦

٣ـ ابن قتيبة : الامامة والسياسة ج ١ ص ١٧٥ ـ ١٧٦

٤ـ انظر الدينوري: الأخبار الطوال ص ٢٢٨، الطبري : تاريخ ج ٥ ص ٣٤٠

٥ـ انظر الطبري: تاريخ ج ٥ ص ٣٤٠

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

رحيله أخوه جعفر بن الزبير ، فسلكا طريقا جانبيا وتجنبا الطريق الأعظم[1]، ففشلت رسل الوليد في القبض على ابن الزبير[2]، فوصل وأخوه مكة، ولم يكرر الوليد المحاولة اذ انشغل بالحسين[3]، فنزل ابن الزبير مكة[4]((وعليها عمرو الاشدق بن سعيد بن العاص بن أمية . فقال : أنما أنا عائذ))·

تفرغ الوليد بن عتبة بعد رحيل ابن الزبير للحسين بن علي ، فبعث الرسل اليه ،فاستمهلهم الحسين الى الصبح ، وحزم أمره ، وقرر أن يحذو حذو ابن الزبير، فرحل في الليلة التي تلت رحيل ابن الزبير، وصحبه بنوه واخوته ، وبنو أخيه وجل أهل بيته الا محمد بن الحنفية[5]، فانه أقام بالمدينة، ونصح أخاه قائلا :((يا أخي أنت أحب الناس الي وأعزهم علي، ولست أدخر النصيحة لأحد من الخلق أحق بها منك، تنح ببيعتك عن يزيد وعن الأمصار ما استطعت وابعث رسلك الى الناس وادعهم الى نفسك فان بايعوا لك حمدت الله على ذلك، وان أجمع الناس على غيرك لم ينقص الله بذلك دينك ولا عقلك ولا تذهب به مروءتك ولا فضلك، اني أخاف أن تأتي مصرا وجماعة من الناس فيختلفوا عليك، فمنهم طائفة معك، وأخرى عليك، فيقتتلون فتكون لأول الأسنة))[6].

أخلص محمد بن الحنفية الود لأخيه الحسين، فنصحه هذه النصيحة، رغم أنه لم يخرج معه ولم ير رأيه . ولكن الحسين لم يعمل بهذه النصيحة فوقع فيما حذره أخوه .

أما عبد الله بن عمر فلم يكن موجودا في المدينة حين جاءها نعي معاوية، وعندما عاد اليها لبث ينتظر حتى جاءت البيعة من البلدان، فتقدم الى الوليد بن عتبة فبايعه[7] . وتألم عبد الله بن عباس حين بلغته وفاة معاوية، وروي أنه قال :((لله در ابن هند ! ماكان أجمل وجهه ، وأكرم خلقه ، وأعظم حلمه ! فقطع عليه الكلام رجل من أصحابه وقال : أتقول هذا فيه ! قال : ويحك ! انك لا تدري من مضى عنك ، ومن بقي عليك وستعلم))[8]، ورغم تحفظه على ولاية يزيد فقد بايع[9]، وكان الرأي أن تجتمع كلمة الأمة

١ـ انظر البلاذري : أنساب الأشراف ج ٤ ق ٢ ص١٣
٢ـ انظر ابن الأثير : الكامل ج ٤ ص١٦
٣ـ انظر الطبري : تاريخ ج ٥ ص ٣٤١
٤ـ البلاذري : أنساب الأشراف ج ٤ ق٢ ص١٣
٥ـ انظر الدينوري : الأخبار الطوال ص٢٢٨

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

دون اراقة دماء، ولكن الأحداث التي تلت من بعد غيّرت هذا الرأي تماما .

أثار اخفاق الوليد بن عتبة في الحصول على بيعة الحسين وابن الزبير أثار غضب يزيد بن معاوية، كما أن مروان بن الحكم كتب اليه يذكر ضعف الوالي ووهنه وادهانه[1]، فعزله يزيد وأمّر أمويا آخر هو عمرو بن سعيد بن العاص والي مكة[2]، وكان ذلك في رمضان سنة ستين، وقيل في ذي القعدة . فدخل عليه أهل المدينة ((قد خلوا على رجل عظيم الكبر مفوه))[3].

واتبع عمرو بن سعيد سياسة الشدة والعنف، ليتجنب مصير سلفه الوليد . وولى على الشرط مصعب بن عبد الرحمن بن عوف، ((ثم أمره بهدم دور بني هاشم ومن كان في حيزهم والشدة عليهم وبهدم دور بني أسد بن عبد العزى والشدة عليهم))[4]. انتقاما لرفض الحسين بن علي وعبد الله بن الزبير بيعة يزيد . وحين رفض مصعب بن عبد الرحمن تنفيذ أوامر الوالي قائلا :((أيها الأمير ، انه لا ذنب لهؤلاء ولست أفعل))[5]، عزله عمرو وولى عمرو بن الزبير وكان ((شديد العداوة لأخيه عبد الله))[6] شرطته .

وكان عمرو بن الزبير عند حسن ظن الوالي وتنفيذ سياسته ((فأرسل الى نفر من أهل المدينة فضربهم ضربا شديدا لهواهم في أخيه عبد الله منهم أخوه المنذر بن الزبير وابنه محمد بن المنذر، وعبد الرحمن بن الأسود بن عبد يغوث ، وعثمان بن عبد الله بن حكيم بن حزام، ومحمد بن عمار بن ياسر وغيرهم))[7].

وفي مكة بدأ يظهر دهاء عبد الله بن الزبير ، فبعد أن وجد الأمان والاطمئنان أخذ يكتسب عطف الناس، وأعلن أنه عائذ بالبيت، حتى اذا استأنس من نفسه القوة والتف حوله عدد من الناس أخذ يناوئ الأمويين ((فلم يكن يصلي بصلاتهم ولا يفيض بافاضتهم، كان هو وأصحابه في ناحية ثم يفيض بهم وحده ويصلي بهم وحده))[8].

١ـ انظر البلاذري : أنساب الأشراف ج ٤ ق٢ ص١٩

٢ـ انظر ابن كثير : البداية والنهاية ج ٨ ص١٤٨

٣ـ الطبري : تاريخ ج ٥ ص ٣٤٣، وانظر ص ٣٤٦

٤ـ المصعب الزبيري : نسب قريش ص٢٦٨

٥ـ المرجع السابق نفس الصفحة

٦ـ الطبري : تاريخ ج ٥ ص ٣٤٣

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وعندما علم ابن الزبير باضطهاد أنصاره بالمدينة ، لم يثنه ذلك عما اعتزم واتخذ خطوة أكثر جرأة من الخطوة السابقة فمنع نائب عمرو بن سعيد على مكة : الحارث بن خالد المخزومي أن يصلي بالناس.(١)

وذكر البلاذري أن يزيد بن معاوية أرسل الى الحجاز عدة مبعوثين لاقناع ابن الزبير بالبيعة(٢) ولكنهم باءوا بالفشل ، فاستشاط يزيد غضبا . ((فحلف يزيد ألا يقبل منه حتى يؤتى به في جامعة))(٣).

ثم توالت الأخبار الى مسامع يزيد عن منع ابن الزبير الحارث بن خالد المخزومي أن يصلي بالناس ، فأرسل الى عمرو بن سعيد بن العاص أن يبعث الى مكة جيشا ، فاختار عمرو بن سعيد عمرو بن الزبير لما بين الأخوين من بغضاء ومشاحنة(٤). وظن الوالي أنه سيتمكن من اخضاع ابن الزبير ويضع في عنقه جامعة كبير بيمين يزيد .

ولم يرض أهل الحجاز عن هذه الحملة ، كما استاء الأمويون أنفسهم من فكرة ارسال جيش الى مكة . وعارض مروان بن الحكم هذه الحملة وتقدم الى عمرو بن سعيد قائلا : ((لا تغزو مكة واتق الله ، ولا تحل حرمة البيت وخلوا ابن الزبير فقد كبر ، هذا له بضع وستون سنة ، وهو رجل لجوج ، والله لئن لم تقتلوه ليموتن ، فقال عمرو بن الزبير : والله لنقاتلنه ولنغزونه في جوف الكعبة على رغم أنف من رغم ، فقال مروان : والله ان ذلك ليسوءني))(٥)، وبالاضافة الى ذلك فان غزو ابن الزبير في مكة كان عملا ينطوي على كثير من الخطورة من وجهة نظر أهل الحجاز فحاولو منع الغزو وجاء أبو شريح الخزاعي الى عمرو بن سعيد فقال له : ((لا تغزو مكة فاني سمعت رسول الله ، صلى الله عليه وسلم يقول : انما أذن لي بالقتال فيها ساعة من نهار ثم عادت كحرمتها بالأمس . فقال له عمرو : نحن أعلم بحرمتها منك أيها الشيخ))(٦). وامام اصرار السلطة على الغزو تحلب الناس على ابن الزبير ((من نواحي الطائف يعاونونه ويدفعون عن الحرم ، وشخص المسور بن مخرمة من المدينة الى مكة .... وقدم عليه مصعب بن عبد الرحمن بن عوف

١ـ انظر ابن كثير : البداية والنهاية ج ٨ ص ١٤٩

٢ـ انظر أنساب الأشراف ج ٤ ق ٢ ص ١٩ ـ ٢٠

٣ـ الطبري : تاريخ ج ٥ ص ٣٤٤

٤ـ انظر أبو الفداء : المختصر في أخبار البشر ج ١ ص ١٨٩

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وعبيد بن عمير، وعبد الله بن صفوان، بن أمية بن خلف الجمحي))[1]. وانضم لابن الزبير قوم ممن نزل حول مكة[2].

كانت وجهة نظر الحكومة أن الذي يحل الحرم من ألحد فيه[3]، فمضى الوالي في اعداد الجيش من أهل العطاء والديوان وقوم من موالي الأمويين فبلغ عددهم ألفين[4]، وجلّهم يهوى هوى ابن الزبير[5]. وخرج بهم عمرو بن الزبير غير عابئ بأخوته لعبد الله ولشعور الجند وعامة أهل الحجاز حتى نزل بالأبطح، وسار قسم آخر من جيشه بقيادة أنيس بن عمرو الأسلمي حتى نزل بذي طوى[6]. ولم يكن تقسيم جيش الحكومة القليل العدد في صالحها. ثم أرسل عمرو الى أخيه :((بر يمين يزيد ... حتى أجعل في عنقك جامعة من فضة لا ترى ولا يضرب الناس بعضهم بعضا فانك في بلد حرام))[7].

الا أن عبد الله بن الزبير تشجع بمن انضم اليه وعزم على المضي في موقفه، فتصدى للقوات الحكومية فأرسل((عبد الله بن صفوان الى أنيس بن عمرو وهو بذي طوى، فلاقاه في جمع كثير من أهل مكة وغيرهم من الأعوان، فهزم أنيس بن عمرو ومن معه وقتلوا مدبرهم وأجهزوا على جريحهم، وسار مصعب ابن عبد الرحمن الى عمرو))[8] واستطاع مصعب أن يلحق الهزيمة بجيش عمرو الذي تفرق عنه أصحابه، فبقي وحيدا فأخذ أسيرا وسجن في سجن عارم ـ سجن بمكة[9] ـ واقتص منه عبد الله بن الزبير بكل من ضرب في المدينة. الا المنذر بن الزبير وابنه فانهما قد أسقطا حقيهما عنه، ولكنه مات تحت السياط[10]. وحقق ابن الزبير أول الانتصارات ضد الحكومة التي كان موقفها في الحجاز ـ كما تدل الحملة ـ جد ضعيف.

وسوف استعرض ما وصل اليه شأن ابن الزبير، بعد أن استعرض تطورات موقف الحسين بن علي السريعة والتي فطّت على غيرها لأهميتها.

١ـ البلاذري: أنساب الأشراف ج ٤ ق٢ ص ٢٥

٢ـ انظر الطبري: تاريخ ج ٥ ص ٣٤٥

٣ـ انظر فلهوزن: تاريخ الدولة العربية ص١٤٧

٤ـ انظر ابن كثير: البداية والنهاية ج ٨ ص ١٤٩

٥ـ انظر البلاذري: أنساب الأشراف ج ٤ ق٢ ص ٢٣ ـ ٢٤

٦ـ انظر الطبري: تاريخ ج ٥ ص ٣٤٤

٧ـ ابن الأثير: الكامل ج ٤ ص ١٩

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

موقف الحسين بن علي :

يحتل الحسين بن علي مكانة مرموقة في قلوب الناس، فما أن قدم مكة حتى أقبل عليه الناس مرحبين به فكانوا : ((يفدون اليه ويقدمون عليه ويجلسون حواليه ويستمعون كلامه))(١). فكان لا يعدل به أهل الحجاز أحدا، ويتداعى اليه الناس من المعتمرين وأهل الآفاق وأهل مكة(٢). وذلك لقرابة الحسين القريبة من رسول الله صلى الله عليه وسلم وتدينه الشديد(٣).

وأدرك ابن الزبير ((أن أهل الحجاز لا يبايعونه ولا يتابعونه أبدا ما دام حسين بالبلد ، وأن حسينا أعظم في أعينهم وأنفسهم منه ، وأطوع في الناس منه))(٤). فعرف خطورة وجود الحسين بن علي في مكة عليه ، فأخذ يبحث عن طريق تقربه الى قلوب الناس، فلاذ بالكعبة ، وقام يصلي بجوارها ، فيطيل السجود ويكثر من ذكر الله والتسبيح بحمده ، فأعجب الناس ممن كان يأتي الكعبة بصلاحه وتقواه ، وكان اذا قيل ما الرجل ؟ عرف بالعبادة والاقدام(٥). وفي نفس الوقت حرص ابن الزبير على ابقاء علاقات الود والصداقة مع حفيد النبي عليه الصلاة والسلام، فأخذ يفد الى الحسين ويستمع الى أحاديثه ((ولا يزال يشير عليه بالرأي، وهو أثقل خلق الله على ابن الزبير))(٦). ورأى أن أهل الحجاز يقبلون على الحسين بن علي ((يجتمعون عنده حلقا حلقا))(٧). وكانوا قبل قدوم الحسين يتحلقون اليه ، ثم انفضوا من حوله فساءه ذلك اذ كان يرشح نفسه لأمر عظيم.

وفي الوقت الذي كانت تجري فيه الأمور على هذا النحو في الحجاز ، حين أصبحت مكة المكرمة موطن المعارضة ضد خلافة يزيد بن معاوية ، وتركزت الأنظار حول شخصي الحسين بن علي وعبد الله بن الزبير، رأت شيعة العراق في الكوفة أن الفرصة أضحت سوانحية لاحياء الخلافة العلوية، واعادة حاضرة الدولة الى مدينتهم كما كانت في عهد خلافة علي بن أبي طالب.

١ـ ابن كثير : البداية والنهاية ج ٨ ص ١٥١
٢ـ انظر ابن الاثير : الكامل ج ٤ ص ٢٠
٣ـ انظر اليعقوبي : تاريخ ج ٢ ص ٢٤٧
٤ـ الطبري : تاريخ ج ٥ ص ٣٥١
٥ـ انظر الزبير بن بكار : جمهرة نسب قريش وأخبارها ص ٦٤

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

اجتمعت الشيعة في منزل أحد زعمائهم سليمان بن صرد الخزاعي وذكروا مسير الحسين الى مكة (١) وتأبيه من بيعة يزيد (٢)، فكتبوا اليه يسألونه القدوم عليهم ((انه ليس علينا امام فاقبل لعل الله أن يجمعنا بك على الحق. والنعمان بن بشير في قصر الامارة لسنا نجتمع معه في جمعة، ولا نخرج معه الى عيد ، ولو قد بلغنا أنك قد أقبلت الينا أخرجناه حتى نلحقه بالشأم ان شاء الله)). ثم تتابعت الكتب حتى بلغت ((نحوا من مائة وخمسين صحيفة)) (٣) (٤).

كان أصحاب هذه الكتب رجالا بارزين من القبائل ، ومن اليمانية على وجه التخصيص. وكانت القبائل اليمانية في الكوفة من أكبر القبائل عددا وأهمية (٥). وصادفت هذه الدعوة قبولا في نفس الحسين الذي تاق لتولي الخلافة، ورأى أنه خير من يزيد بن معاوية وهو بالتالي أحق منه بالخلافة (٦).

كتب الحسين بن علي الى أهل الكوفة وأعلمهم بوصول كتاباتهم اليه ، وأخبرهم أنه موفد اليهم ابن عمه وثقته ، مسلم بن عقيل بن أبي طالب وقال :((وأمرته أن يكتب الي بحالكم وأمركم ورأيكم ، فان كتب الي أنه قد أجمع رأي ملئكم وذوي الفضل والحجى منكم على مثل ماقدمت علي به رسلكم وقرأت في كتبكم أقدم عليكم وشيكا ان شاء الله ، فلعمري ما الامام الا العامل بالكتاب، والآخذ بالقسط والدائن بالحق والحابس نفسه على ذات الله)) (٧).

وهكذا سارع الحسين في الاستجابة لطلب شيعته ، واحتاط لنفسه ، قليلا، بارسال ابن عمه ليختبر له حالهم ويصدق مقالتهم ويعرف أهواءهم، وأمره بتقوى الله وكتمان أمره وأضاف:((اشخص الى الكوفة، فان رأيت منهم اجتماعا على ما كتبوا، ورأيته أمرا ترى الخروج معه ، فاكتب الي برأيك)) (٨).

امتثل مسلم بن عقيل لأمر الحسين بن علي ومضى الى الكوفة رغم الصعوبات التي واجهته ، فقدمها ونزل على المختار بن أبي عبيد الثقفي (٩). وأخذت الشيعة تجتمع عليه وأكثروا من ذلك حتى علم مكانه (١٠). فقام

١ـ انظر ابن الاثير : الكامل ج ٤ ص ٢٠
٢ـ ابن الطقطقى : الفخري في الآداب السلطانية ص ١١٤
٣ـ الطبري: تاريخ ج ٥ ص ٣٥٢
٤ـ ابن الاثير : الكامل ج ٤ ص ٢٠
٥ـ انظر فلهوزن: الخوارج والشيعة ص ١٦٠ ترجمة عبد الرحمن بدوي، النهضة المصرية ١٩٥٨
٦ـ انظر ابن الاثير : الكامل ج ٤ ص ٨٥
٧ـ الطبري: تاريخ ج ٥ ص ٣٥٣

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

النعمان بن بشير والي الكوفة وكان ـ حليما ناسكا يحب العافية ـ فصعد المنبر وخطب أهل الكوفة (١) قائلا: ((اني لم اقاتل من لم يقاتلني ، ولا أثب على من لا يثب علي ، ولا أشاتمكم ولا أتحرش بكم ولا آخذ بالقرف ولا الظنة ولا التهمة . ولكنكم ان أبديتم صفحتكم لي ، ونكثتم بيعتكم ، وخالفتم امامكم ، فوالله الذي لا اله غيره لأضربنكم بسيفي ما ثبت قائمه في يدي ، ولو لم يكن لي منكم ناصر . أما أني أرجو أن يكون من يعرف الحق منكم اكثر ممن يرديه الباطل))(٢). ورغم ذلك فقد اجتمع من أهل الكوفة على امرة الحسين والبيعة له اثنا عشر ألفا(٣).

علم يزيد بالحالة في الكوفة، وكتب اليه أحد صنائع الأمويين ، عبد الله بن مسلم بن سعيد الحضرمي بالخبر فقال : ((ان كانت لك بالكوفة حاجة ، فابعث اليها رجلا قويا ينفذ أمرك ويعمل مثل عملك في عدوك (٤) ، فان النعمان بن بشير رجل ضعيف أو هو يتضعف)). فاستشار يزيد سرجون ، مولى لمعاوية، وكان من الدهاة الذين يؤخذ برأيهم فأشار عليه أن يعهد الى عبيد الله بن زياد بامارة الكوفة، فأخذ يزيد برأيه وجمع الكوفة والبصرة لعبيد الله بن زياد ((وأمره بطلب مسلم بن عقيل وبقتله أو نفيه))(٥).

جاء عبيد الله الى الكوفة وقد تنكر وخفي أمره فاعتقد الناس أنه الحسين، فكانوا يقولون له :((مرحبا بك يا ابن رسول الله صلى الله عليه وسلم، قدمت خير مقدم))(٦). ودلت هذه المقالة عما وصل اليه حال الناس بالكوفة، فخطب عبيد الله الناس وأنذرهم بسوطه وسيفه (٧). ان خالفوا أمره ، وسلك فيهم طريق الشدة ، فأخذ الناس أخذا شديدا . وطلب اليه عرفاء الأحياء ، وكلفهم أن يكتبوا له أسماء الغرباء ومن في أهل الكوفة من الحرورية وأن يخبروه بالذين دأبهم الخلاف والشقاق. واضاف أن كل عريف منهم مسئول عما يظهر في منطقة عرافته من شغب وفتن ، وأظهر لهم أن كان من يخالف هذه التعليمات سيصلب على باب داره (٨).

١ـ انظر الطبري: تاريخ ج ٥ ص ٣٥٦

٢ـ المرجع السابق ص ٣٥٥ ـ ٣٥٦

٣ـ انظر المسعودي: مروج الذهب ج ٣ ص ٥٤، ابن كثير: البداية والنهاية ج ٨ ص ١٥٢

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

علم عبيد الله بن زياد أن مسلما يختفي في دار هانئ بن عروة ، وأن الشيعة تجتمع اليه هناك، فأعمل الحيلة حتى جاء اليه هانئ بن عروة، والذي لم يجد الى الانكار سبيلا، فنصح ابن زياد ، في جرأة ظاهرة، أن يشخص بأهل بيته الى الشام سالمين بأموالهم، اذ جاء حق من هو أحق من حقه وحق يزيد ، فاغتاظ عبيد الله بن زياد فصبحه ثم قتله (١) .

وحين علم بذلك مسلم بن عقيل ، دعا اليه الشيعة، فاجتمع اليه منهم خلق كثير، فصبأهم وأقبل الى قصر الامارة وأحاط به ، وامتلأ المسجد والسوق من الناس ضد ابن زياد (٢) ، الذي لم يكن معه الا ثلاثون رجلا من الشرطة، وعشرون آخرون من الأشراف (٣) . فتحصن في داخل القصر، وطلب من الاشراف أن يبيتوا للثائرين النتائج الخطيرة التي تترتب على خروجهم ويخوفوهم الحرب ، ويحذروهم عقوبة السلطان ، ((وأن يعنوا أهل الطاعة ويخذلوا أهل المعصية لـه فائمر ذلك ـ حتى أن المرأة لتأتي ابنها وأخاها فتقول انصرف ان الناس يكفونك)) (٤) .

تضاءلت جموع مسلم بن عقيل ، فلم يبق معه الا ثلاثون رجلا انفضوا كسواهم من حوله بالتدريج ((فلم ير منهم أحدا ، ولم يصب انسانا يدله على الطريق)) (٥) ، فحار في أمره ليقضي الله أمرا كان مفعولا (٦) ، فاختفى في دار لبني كندة ، وسرعان ما كشف ابن زياد مكان اختفائه ، فأمر بقتله وصلبه . فكان ((أول قتيل صلبت جثته من بني هاشم)) (٧) ، وكانت هذه النتيجة أول دلائل فشل ثورة الحسين بن علي . كما بعث ابن زياد برأسي مسلم وهانئ بن عروة الى يزيد في دمشق والذي كتب الى عبيد الله بن زياد : ((أما بعد ، فانك لم تعد وأن كنت كما أحب عملت عمل الحازم وصلت صولة الشجاع الرابط الجأش، فقد أغنيت وكفيت وصدقت ظني بك ، ورأيي فيك .... وانه قد بلغني أن الحسين بن علي قد توجه نحو العراق، فضع المناظر والمسالح ، واحترس على الظن وخذ على التهمة ، غير الأ تقتل الا من قاتلك،

١ـ انظر المسعودي : مروج الذهب ج ٣ ص ٥٧

٢ـ انظر الأصفهاني : مقاتل الطالبيين ص ١٠١

٣ـ انظر الطبري : تاريخ ج ٥ ص ٣٦٩

٤ـ أبو الفداء : المختصر في أخبار البشر ج ١ ص ١٨٩ ـ ١٩٠

٥ـ الدينوري : الأخبار الطوال ص ٢٣٩

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

(١)
واكتب الي في كل ما يحدث من الخبر))، وهكذا شجع يزيد ابن زياد على فعلته وأخبره برضاه عنه وأمره أن يستمد للقاء الحسين بن علي الذي كان قد أقبل نحو العراق فعلا.

وكان مما شجع الحسين على القدوم كتاب مسلم بن عقيل الذي كتب يقول :((ان الرائد لا يكذب أهله ، وقد بايعني من أهل الكوفة ثمانية عشر ألف رجل فاقدم، فان جميع الناس معك، ولا رأي لهم في آل أبي سفيان))، فخرج من مكة في الثامن من ذي الحجة سنة ستين هجرية، رغم محاولات الكثيرين لاقناعه بالعدول عن الخروج ، فرفض النصائح وأصر على الخروج ، وفي طريقه الى العراق علم في الثعلبية بمقتل مسلم بن عقيل .

وكان لهذا النبأ رنة أسى وحزن في نفس الحسين وصحبه ، وكان موقف شورى ... فرأى فريق من صحب الحسين أن لا قبل لهم بالحرب وأشاروا على الحسين أن يعود الى الحجاز . ورفض الفريق الآخر ، وتزعم هؤلاء بنو عقيل من أقارب مسلم، ورأوا أن يثأروا لمسلم أو الموت في سبيل ذلك . وتغلبت العاطفة على العقل ، فكان أن اقرهم الحسين على رأيهم قائلا : لا خير في الحياة بعدكم .

أما ابن زياد فقد أرسل عمر بن سعد بن أبي وقاص ((في أربعة الاف))من أهل الكوفة لقتال الحسين بن علي الذي كان في تسعين شخصا مابين رجل وامرأة وطفل وقاتل الحسين في كربلاء حتى قتل في العاشر من محرم سنة احدى وستين هجرية .

وهكذا انتهت ثورة الحسين بن علي بالفشل ولكنها تركت آثارا عظيمة في النفوس خاصة عند الشيعة، ورأى البعض أن مقتله كان أعظم فاجعة من قتل علي لأن قتل الحسين ((كان جهارا من ملأ وتجمع وعصبية وكان على يدي قوم يدعون الاسلام فكان أشنع)). كما كان هذا الحادث بداية لشعور وطني لدى الموالي من الفرس، أحسن العباسيون فيما بعد استغلاله لتقويض دعائم دولة بني أمية .

١ـ الطبري : تاريخ ج ٥ ص ٣٨٠ ـ ٣٨١
٢ـ الدينوري : الأخبار الطوال ص ٢٤٣
٣ـ انظر أبو الفداء : المختصر في أخبار البشر ج ١ ص ١٩٠
٤ـ الثعلبية : من منازل طريق مكة من الكوفة بعد الشقوق وقبل الخزيمية، وهي ثلثا الطريق ياقوت: معجم البلدان ج ٢ ص ٧٨
٥ـ انظر ابن الاثير : الكامل ج ٤ ص ٤٢
٦ـ انظر ابن كثير : البداية والنهاية ج ٨ ص ١٦٩
٧ـ انظر ابن قتيبة : المعارف ص ٣٥١، الطبري : تاريخ ج ٥ ص ٤١٠

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ولا شك أن أهل الكوفة يتحملون وزرا كبيرا من جرم قتله ، اذ ((اغتر بهم وخرج اليهم فلما بلغ كربلاء غدروا به ، وصاروا مع عبيد الله بن زياد يدا واحدة عليه ، حتى قتل الحسين وأكثر عشيرته ..))(١).

يؤخذ على الحسين تسرعه في تصديقهم بعد أن خبرهم في حياة أبيه وأخيه ويصدق قول الزهري في هذا الصدد :((أهلك أهل هذا البيت المجلة))(٢)، حقا لقد دعته الشيعة الى العراق لاقامة خلافة علوية ، ولكنهم كما وصفهم ابن عباس قائلا للحسين : (أتسير الى قوم قد قتلوا أميرهم ، وضبطوا بلادهم ، ونفوا عدوهم ؟ فان كانوا قد فعلوا ذلك فسر اليهم ، وان كانوا انما دعوك اليهم وأميرهم عليهم قاهر لهم ، وعماله تجبي بلادهم ، فانهم انما دعوك الى الحرب والقتال ، ولا آمن عليك أن يغروك ويكذبوك ويخالفوك ويخذلوك ، وأن يستنفروا اليك فيكونوا أشد الناس عليك))(٣). وهذا ما حصل تماما ، ويؤيد رأينا في تسرع الحسين جوابه لابن عباس :((يابن عم اني والله لأعلم أنك ناصح مشفق ولكني قد أزمعت وأجمعت على المسير))(٤). أي أنه أزمع على المسير مع اقتناعه بصدق نصيحة ابن عباس.

لم تكن الظروف ملائمة لثورة الحسين بن علي ، فلم يتحمس لها أهل الحجاز ولم ينضموا اليه ، بل تنبأ عبد الله بن عمر بنتائجها مسبقا حين قال :((لا تخرج فان رسول الله صلى الله عليه وسلم ، خيره الله بين الدنيا والآخرة ، فاختار الآخرة ، وانك بضعة منه ولا تنالها — يعني الدنيا — واعتنقه وبكى وقال : استودعك الله من قتيل))(٥).

اعتمد الحسين في ثورته أساسا على أهل الكوفة، وحرص على الخروج من الحجاز ، رغم اخلاص أهلها له والتفافهم حوله وهم الذين أشفقوا عليه من الخروج وحذروه منه وأشار عليه ذوو الرأي منهم والمحبة له بعدم الخروج الى العراق وأمره بالمقام بمكة، وأبان عبد الله بن مطيع فائدة استعانة الحسين بأهل الحجاز قائلا :((... فأياك أن تقرب الكوفة فانها بلدة مشئومة بها قتل أبوك وخذل أخوك واغتيل بطعنة

١ــ البغدادي : الفرق بين الفرق ص ٢٦

٢ــ الأصفهاني : مقاتل الطالبيين ص ١٤٣

٣ــ الطبري : تاريخ ج ٥ ص ٣٨٣

٤ــ المرجع السابق ص ٣٨٤

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

كادت تأتي على نفسه ، الزم الحرم فانك سيد العرب لا يعدل بك أهل الحجاز أحدا ويتداعى اليك الناس من كل جانب))[1]. وفي نفس المعنى تحدث أبو بكر بن هشام للحسين قائلا :((كان أبوك أقدم سابقة، وأحسن في الاسلام أثرا، وأشد بأسا ، والناس له أرجى ومنه أسمع وعليه أجمع، فسار الى معاوية والناس مجتمعون عليه الا أهل الشام وهو أعز منه ، فخذلوه وتثاقلوا عنه ، حرصا على الدنيا ورضنا بها ، فجرعوه الغيظ ، وخالفوه ، حتى صار الى ما صار اليه من كرامة الله ورضوانه ، ثم صنعوا بأخيك بعد أبيك ما صنعوا ، وقد شهدت ذلك كله ورأيته ، ثم أنت تريد أن تسير الى الذين عدوا على أبيك وأخيك تقاتل بهم أهل الشام وأهل العراق ، ومن هو أشد منك وأقوى والناس منه أخوف وله أرجى ، فلو بلغهم مسيرك اليهم لاستطفوا الناس بالأموال ، وهم عبيد الدنيا ، فيقاتلك من وعدك أن ينصرك، ويخذلك من أنت أحب اليه ممن ينصره[2]))[2]. ولكن الحسين ضرب بكل هذه النصائح عرض الحائط. ورفض البقاء في الحجاز أو التوجه الى اليمن البعيدة عن مركز الحكومة والأنسب لاعلان الثورة في مناعة حصونها وكثرة شعابها ، واستطاعة الحسين بثّ دعاته في الأمصار وهو بعيد عن أيدي السلطة، وبذلك أشار عليه ابن عباس حين قال :((ان أهل العراق قوم غدر، فلا تقربنهم انت بهذا البلد فانك سيد أهل الحجاز ، فان كان أهل العراق يريدونك كما زعموا ، فاكتب اليهم فلينفوا عدوهم، ثم أقدم عليهم، فان أبيت الا أن تخرج فسر الى اليمن فان بها حصونا وشعابا ، وهي أرض عريضة طويلة، ولأبيك بها شيعة، وأنت عن الناس في عزلة فتكتب الى الناس وتوسل وتبث دعاتك، فاني أرجو أن يأتيك عند ذلك الذي تحب في عافية))[3]. وذهبت نصائح أهل الحجاز مع الريح أمام اصرار الحسين على الخروج الى الكوفة.

هذا ولم يهتم الحسين بن علي باحكام تنظيم ثورته احكاما يساهم في احراز النصر لها ، وكأن الأمر شيئا عاديا ، لا أكثر، كما أغفل جانب الاعلام الضروري لمثل حركته ، وخرج ثائرا وجلّ اعتماده على قرابته من النبي الكريم، ومزاعم الشيعة في الكوفة الموصوفين بالغدر والمخل[4]. أما الحكومة فكانت سياستها تختلف تماما . أما أشراف الناس فقد أعظمت رشوتهم وملأت غرائرهم فغدوا البا واحدا على الحسين. أما سائر الناس فقد تمكنت الحكومة من جعلهم يشهرون سيوفهم على الحسين رغم أن قلوبهم كانت معه[5]. وفعلا

١ـ ابن الاثير : الكامل ج ٤ ص ١٩ ـ ٢٠

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

سقط الحسين وصحبه قتلى تلك السيوف وتبعوا مسلم بن عقيل الذي دعا بمرارة قائلا :((اللهم أحكم بيننا وبين قوم غرونا وكذبونا ثم خذلونا وقتلونا))(١).

ويكاد يجمع رأي أهل الحجاز على أن خروج الحسين الى الكوفة عملا غير معقول البتة، ورأوا فيه عملا انتحاريا معروفة نتائجه مسبقا، فجاءت نصائحهم متفقة مع هذا الرأي . ولم يكن للحسين بن علي من الشوكة مايمكنه من هزيمة الأمويين((فرأى الحسين أن الخروج على يزيد متعين من أجل فسقه لا سيما من له قدرة على ذلك وظنها من نفسه بأهليته وشوكته ، فأما الأهلية فكانت كما ظن وزيادة . وأما الشوكة فغلط يرحمه الله فيها ، لأن عصبية مضر كانت في قريش وعصبية قريش في عبد مناف وعصبية عبد مناف انما كانت في بني أمية، تعرف ذلك لهم قريش وسائر الناس ولا ينكرونه))(٢).

والواقع أن مكة لم تعد تصلح لأن تكون بؤرة نشاط سياسي اذا ما قورنت بالأمصار الأخرى، ولم يكن باستطاعة الحسين البقاء فيها ماشاء ، وأحس هو نفسه بهذا حين قال :((والله لايدعوني حتى يستخرجوا هذه العلقة من جوفي(٣) ، فخرج من مكة على عجل حتى لا يؤخذ(٤) ، وقد دلت الأحداث التي تلت على صدق حدسه ، حين أرسل الدولة الأموية الجيوش الى مكة للقضاء على ابن الزبير، وكان الحسين يكره أن تستحل حرمة مكة بسببه(٥) .

وهذه النهاية المؤلمة التي لحقت بابن بنت الرسول صلى الله عليه وسلم هزت مشاعر الناس هزا عنيفا ، وصفها صاحب الفخري قائلا(٦) :((هذه قضية لا أحب بسط القول فيها استعظاما لها واستفظاعا ، فانها قضية لم يجر في الاسلام أعظم فحشا منها . ولعمري أن قتل أمير المؤمنين عليه السلام، هو الطامة الكبرى، ولكن هذه القضية جرى فيها من القتل الشنيع والسبي أو التمثيل ما تقشعر له الجلود ...)). ولم يقتصر

١ــ المسعودي : مروج الذهب ج ٣ ص ٦٠

٢ــ ابن خلدون : المقدمة ج ٢ ص ٧٣١

٣ــ ابن كثير : البداية والنهاية ج ٨ ص ١٦٩

٤ــ انظر الطبري : تاريخ ج ٥ ص ٣٨٦

٥ــ انظر ابن الأثير : الكامل ج ٤ ص ٣٨

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الحاق الجند الأموي الأذى بالحسين بن علي بل تعداه الى أطفاله ونسائه حتى ((كانت المرأة لتنازع ثوبها عن ظهرها حتى تغلب عليه فيذهب به منها))(١). وقد ترك دم الحسين أثرا واضحا في حركة التشيع فنمت هذه الحركة وازداد أتباعها ، ((بل يصح القول أن الحركة الشيعية ولدت في العاشر من محرم))(٢).

وكانت السلطة الحاكمة تنظر الى الحسين بن علي كثائر ((مرق من الدين وخالف الامام))(٣). فعاملته على أساس أن حركته استهدفت تقويض كيانها . ولكن مهما كانت المبررات التي تذرعت بها السلطة ، فمقتل الحسين كان أمرا يثير ثائرة النفوس(٤)، ويتحمل يزيد بن معاوية قسطا من مسئولية مقتل الحسين ، وحمله عبيد الله بن زياد كامل المسئولية قائلا : ((أما قتلي الحسين فانه خرج على امام وأمة مجتمعة ... فان كان ذلك خطأ كان لازما ليزيد))(٥). ولا يعفي ذلك عبيد الله بن زياد من مسئوليته في تلك المحنة حين أصرّ على محاربة الحسين الذي عرض عليه ثلاثة حلول قائلا : ((... تتركني أرجع كما جئته وان أبيت هذه فسيّرني الى الترك أقاتلهم حتى أموت ، وان أبيت هذه فابعث بي الى يزيد لأضع يدي في يده))(٦). فرفضها ابن زياد وبالتالي يحكم التاريخ بحق بادانة الأمويين وولاتهم وارتكابهم هذه الجريمة التي تعد من فعلات يزيد بن معاوية الموكدة لفسقه ، والحسين فيها شهيد مثاب، وقد غلط ابن العربي حين قال : ماخرج اليه أحد الا بتأويل ، ولا قاتلوه الا بما سمعوا من جده صلى الله عليه وسلم، ما معناه أن الحسين قتل بشرع جده ، وهو غلط حملته عليه الغفلة من اشتراط الامام العادل(٩).

وظهر الندم من السلطة على فعلتها ، وحاول يزيد بن معاوية أن يحسن لذوي الحسين الذين أخذوا الى دمشق بعد مقتله(١٠). وروي أنه قال لعلي بن الحسين : ((ان أحببت أن تقيم عندنا فنصل رحمك فعلت

١ـ الطبري : تاريخ ج ٥ ص ٤٥٣
٢ـ فيليب حتي : تاريخ العرب مطول ج ١ ص ٢٥٣
٣ـ ابن الاثير : الكامل ج ٤ ص ٦٧
٤ـ انظر فلهوزن : الخوارج والشيعة ص ١٥٨ ـ ١٥٩
٥ـ الدينوري : الأخبار الطوال ص ٢٨٤
٦ـ البيهقي : المحاسن والمساوئ ص ٦١ دار صادر بيروت ١٩٦٠
٧ـ انظر الطبري : تاريخ ج ٥ ص ٤١٤
٨ـ انظر العواصم من القواصم ص ٢٣٢
٩ـ انظر ابن خلدون : المقدمة ج ٢ ص ٧٣٣

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وان أحببت وصلتك وردتك الى بلدك ، قال : بل تردني الى المدينة ، فردّه ووصله))(١).

حالة الحجاز بعد مقتل الحسين :

وفي الحجاز كان لهذا الحادث وقع سيء وفظيع ، في نفوس الناس وكان أحد الأسباب التي غذت الثورة في الحجاز ضد خلافة بني أمية(٢). وتحول الغضب الى حقد ، ((وشعرت الحجاز بالألم العميق الذي أوجبه يوم كربلاء في قلوب المسلمين الصادقين))(٣). حين أعلم الوالي الأموي بالمدينة الناس وقامت نساء بني هاشم يبكين الحسين وصحبه . ودخل الناس على عبد الله بن جعفر يعزونه بابنيه اللذين قتلا مع الحسين ، فكان أبوهما يقول :((... والله انه لما يسخي بنفسي عنهما ويهوّن علي المصاب بهما أنهما أصيبا مع أخي وابن عمي مواسيين له صابرين معه))(٤).

ونجح عبد الله بن الزبير في استغلال هذا الحادث المؤلم لمصلحة دعوته وتأليب الناس ضد خلافة يزيد بن معاوية وهاجمه بشدة في أخلاقه وسجاياه واقباله على الملذات ، وبكى حسينا واستبكى الناس عليه ، ومدحه وأطنب في مدحه ، وسبّ أهل الكوفة ولامهم على تخاذلهم عن نصرة الحسين وخلص الى القول :((أفبعد الحسين نطمئن الى هؤلاء القوم ونصدق قولهم ونقبل لهم عهدا ! لا ، ولا نراهم لذلك أهلا))(٥).

يظهر أن ابن الزبير أراد أن يستغل مشاعر الناس وحزنهم على الحسين للوصول الى الخلافة ، فكانت مناسبة شنع فيها على يزيد وألهب مشاعر الناس ضده لمصلحة ابن الزبير نفسه .

امتاز ابن الزبير بالدهاء السياسي أكثر من الحسين بن علي ، وقد شجعه على الخروج من الحجاز الى العراق حين رأى أن الناس لا يعدلونه به ، ودخل على الحسين وقال :((ما أدري ما تركنا لهؤلاء القوم ونحن أبناء المهاجرين ، وولاة هذا الأمر دونهم ، أخبرني ماتريد أن تصنع ؟ فقال الحسين والله لقد حدثت نفسي باتيان الكوفة ، ولقد كتب الي شيعتي بها وأشرافها بالقدوم عليهم ، واستخير الله ، فقال ابن الزبير : أما لو كان لي بها مثل شيعتك ما عدلت عنها))(٦). وتناسى ابن الزبير نصيحته هذه حين قتل الحسين ، وكأنه وضع نفسه موضع المطالب بدمه .

١ـ المصعب الزبيري : نسب قريش ص ٥٨

٢ـ انظر جورنيبام : حضارة الاسلام ص ٢٤٥ وكذلك :
Lowie, Bernard: The Arabs in History. Page 67

٣ـ انظر الذهبي : دول الاسلام ج ١ ص ٢٩ ، دائرة المعارف العثمانية بالهند ١٣٦٤ هـ .

٤ـ سيديو : تاريخ العرب العام ص ١٤٦ ترجمة عادل زعيتر مكتبة عيسى البابي الحلبي ١٩٦٩

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وقد اتجه الناس بأبصارهم الى عبد الله بن الزبير بعد مقتل الحسين بن علي ، وعلا أمره حين انتصر على جيش الوالي الأموي ((وان جل أهل مكة وأهل المدينة قد كانوا مالوا اليه وهووه وأعطوه الرضا ، ودعا بعضهم بعضا سرا وعلانية)) (١). وبلغت أعمال ابن الزبير الى مسامع يزيد بن معاوية في دمشق كما ذكرت. فاستشاط غضبا وأقسم الا يقبل بيعة عبد الله بن الزبير الا اذا أتى اليه وفي عنقه جامعة (٢)، ثم خفف من حدته وأراد حتى لا يحنث بيمينه وأن يداريه في نفس الوقت فأرسل اليه سلسلة من فضة حملها ((اليه ابن عطاء الأشعري وسعد وأصحابهما ليأتوه به فيها ، وبعث معهم برنس خز ليلبسوه عليها لئلا تظهر للناس)) (٣).

جاء الوفد الى الحجاز ، والتقى رجاله بمروان بن الحكم في المدينة وأخبروه بسبب قدومه ، فأظهر لهم مروان أن الهدف الذي جاءوا من أجله اهانة لابن الزبير لن يقبلها وطلب اليهم أن يعودوا من حيث أتوا . لكن الوفد أصر على تنفيذ رغبة يزيد وواصلوا طريقهم الى مكة حيث التقوا بابن الزبير فأسمعهم من قوارص الكلم مايليق بانسان يرشح نفسه لمنصب الخلافة . ورفض تنفيذ ماجاءوا من أجله . فانتشر الخبر ((وعلا أمر ابن الزبير بمكة ، وكاتبه أهل المدينة ، وقال الناس: أما اذا هلك الحسين ... فليس أحد ينازع ابن الزبير)) (٤). فتطلعت اليه أبصار أهل الحجاز .

والملاحظة الهامة هنا هي أنه في سائر الروايات التي ترد في تاريخ الطبري (٥) والاغاني (٦) عن حوادث سنة احدى وستين للهجرة ، وعن هذا الحادث بالذات مايدل على أن يزيد بن معاوية كان يريد مسالمة ابن الزبير خاصة وأهل الحجاز عامة ، وأنه أراد أن يستميله اليه بالحسنى . كما أنه من المهم أن نلاحظ أن فريقا من أهل المدينة ومن بني أمية أيضا شجعوا ابن الزبير ، اما نكاية بأهل الشام الذين استأثروا بخيرات العاصمة وأصبحوا أصحاب المكانة الأولى في الدولة لانتقال مركز الثقل السياسي الى بلادهم ، وبالتالي اضعاف مركز المدينة . واما نكاية بيزيد نفسه الذي أصبح خليفة وهو شاب صغير .

١ـ الطبري: تاريخ ج ٥ ص ٤٧٨

٢ـ انظر البلاذري: أنساب الأشراف ج ٤ ق ٢ ص ١٩ ـ ٢١

٣ـ ابن الأثير: الكامل ج ٤ ص ٩٩

٤ـ الطبري: تاريخ ج ٥ ص ٤٧٥

٥ـ انظر المرجع السابق ص ٤٧٤ ـ ٤٧٧

٦ـ الأصفهاني: الاغاني ج ١ ص ٣٢ ـ ٣٥ طبعة دار الثقافة ببيروت ١٩٥٥

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وحرم من الخلافة شيوخ بني أمية كمروان بن الحكم مثلا الذي بعث ولديه مع ممثلي يزيد بن معاوية الى ابن الزبير وأمرهما أن يتعرضا اليه ويتمثلا بأبيات من الشعر تظهر أن قبول السلسلة علامة ذل وضعف.(١)

حقق ابن الزبير انتصارات جزئية ضد خلافة يزيد من انتصاره على قوات والي المدينة الأموي الى رفض دعوة رسل يزيد بالقدوم عليه وفي عنقه سلسلة الى نجاحه في الظهور بمظهر المدافع عن حق أهل الحجاز في الخلافة. ثم جمع اليه ((وجوه أهل تهامة والحجاز فدعاهم الى بيعته ، فبايعوه جميعا . وامتنع عليه عبد الله بن عباس ومحمد بن الحنفية))(٢).

كانت دعوة ابن الزبير حتى مقتل الحسين بن علي سرية ، فطلب منهم مريدوه وأتباعه بعد رثائه للحسين أن يظهر أمره ((وثار اليه أصحابه وقالوا : أظهر بيعتك ، فانك لم يبق أحد اذ هلك الحسين ينازعك هذا الأمر ، وقد كان يبايع سرا ويظهر أنه عائذ بالبيت))(٣). فرأى ألا يجيبهم الى اقتراحهم هذا ، ورأى فيه عجلة تسبب له الكثير من المتاعب ، خاصة وأن عمرو بن سعيد الوالي الأموي كان من أشد الناس على ابن الزبير وأصحابه مع الرفق بهم والمداراة لهم(٤) وسيكون اعلان البيعة تحديا سافرا للسلطة الحاكمة لن تسكت عنه أبدا .

تمسك عبد الله بن الزبير بلقب العائذ بالبيت ، وأتاح له مكوثه في مكة مجالا واسعا للنشاط بين المسلمين الذين يغدون لزيارة البيت الحرام ، ويسر له الاتصال بأهل الحجاز ودعوتهم اليه ، والتفافهم حوله . ولم يفكر في الخروج الى مصر من الأمصار الاسلامية حيث الرجال والأموال ((وزعموا أن الذي دعا عبد الله بن الزبير الى التعوذ بالبيت شيء سمعه من أبيه حين سار من مكة الى البصرة ، وذلك أن الزبير التفت الى البيت بعد ما ودع وتوجه يريد الركوب ، فأقبل على ابنه عبد الله وقال : أما والله ما رأيت مثلها طالب رغبة أو خائف رهبة))(٥). ووقعت كلمات الزبير بن العوام في آذان واعية فتمسك بها ونفذها ابنه عبد الله .

١ـ انظر الابيات في الطبري : تاريخ ج ٥ ص ٤٧٦ منها :

فخذها فليست للعزيز بخطة وفيها مقال لامرئ متذلل

٢ـ الدينوري : الأخبار الطوال ص ٢٦٤

٣ـ ابن الاثير : الكامل ج ٤ ص ٩٩

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

علم يزيد بن معاوية بنقمة أهل الحجاز لمقتل حفيد النبي صلى الله عليه وسلم، ونما الى علمه ما كان يدبر ابن الزبير وما كان من معالاة أكثر الناس ومراسلتهم له (١)، فاستشار يزيد جلساءه في ذلك، فهوّنوا عليه أمر أهل الحجاز، وقالوا: ان عمرو بن سعيد لو شاء لتمكن من القبض على ابن الزبير، وبعث به اليك لترى في أمره ما ترى. (٢) فجاءت هذه النصيحة لصالح ابن الزبير اذ عزل يزيد عن الحجاز عمرو ابن سعيد المتشدد على ابن الزبير وولي الحجاز الوليد بن عتبة سنة احدى وستين، (٣) وكان الوليد هو صاحب الرأي آنف الذكر.

ويظهر أن الوليد لم يكن مخلصا في هذه النصيحة، فهو لم ينس أنه كان واليا على المدينة المنورة فترة طويلة نسبيا في عهد معاوية، وأن يزيد عزله لاتهامه للتساهل مع الحسين بن علي وعبد الله بن الزبير، وتاقت نفسه للحكم فاتهم عمرا بالتساهل مع أهل الحجاز عامة، وفي مناهضة ابن الزبير خاصة. لاسيما وأن الأخبار التي كانت ترد من الحجاز تؤيد وجهة نظر الوليد بن عتبة في اتهام عمرو بن سعيد.

خرج عمرو بن سعيد الى الشام، ودافع عن نفسه أمام يزيد ضد الاتهامات التي وجهت اليه في عدم تشدده على ابن الزبير فقال: ((كنت أرفق به لآخذه، ولو كان معي جند لناهضته على أني قد اجتهدت. فقال يزيد: أشد ما أنكرت عليك أنك لم تكتب الي تسألني أن أمدك بأهل الشام اذا لم يكن فيمن أنهضت معك الى ابن الزبير كفاية وكانوا غير أولي عدد وعدة)). (٤) وفي هذا تصوير واضح لهيبة السلطة الحاكمة في الحجاز.

أما الوليد بن عتبة فقد أراد أن يبرهن للخليفة على قدرته ومهارته في اخضاع أهل الحجاز للدولة الأموية، فحج بالناس في ذلك العام ـ سنة ٦١ هـ (٥)، وأعاد ابن ربيعة العامري على قضائه (٦)، وجد واجتهد في طلب ابن الزبير الذي امتنع عليه حين أدرك أغراض الوالي الجديد، فكان كلما طلبه الوليد (٧) ((لا يجده الا محترزا ممتنعا))، خاصة وأن الظروف قد أربكت السلطة الحاكمة، وتعقدت الأمور حين

١ـ انظر البلاذري: أنساب الأشراف ج ٤ ق٢ ص ٣٠ ـ ٣١، الاصفهاني: الاغاني ج ١ ص ٢٤ طبعة الهيئة المصرية العامة.

٢ـ انظر ابن الاثير: الكامل ج ٤ ص ١٠٠

٣ـ انظر الطبري: تاريخ ج ٥ ص ٤٧٧، خليفة بن خياط: تاريخ قسم ١ ص ٢١٩ تحقيق سهيل زكار دمشق ١٩٦٧ م.

٤ـ البلاذري: أنساب الأشراف ج ٤ ق٢ ص ٢٩

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ثار نجدة بن عامر الحنفي بالخوارج باليمامة بعد مقتل الحسين،[1] وأصبح الوليد بن عتبة بين ناريـن : نار الخوارج ، ونار ابن الزبير واتباعه لا سيما وأن نجدة كان يعادي الأمويين ، وفي نفس الوقت يلقى ابن الزبير ويحادثه ويكثر من ذلك حتى ظن أكثر الناس أن نجدة سيبايع ابن الزبير.[2]

الا أن خطط الوليد تجاه ابن الزبير أزعجت هذا الأخير، فلجأ الى المكر والحيلة في مقارعة بني أمية ، بعد الذي رآه من شدة الوليد بن عتبة الذي حكم المدينة من قبل وخبر سكانها ووقف على أحوال الحجاز . فكتب ابن الزبير الى يزيد : ((انك بعثت الينا رجلا أخرق لا يتجه لأمر رشد ولا يرعوي لعظة الحكيم، فلو بعثت الينا رجلا سهل الخلق لين الكف ، رجوت أن يسهل به من الأمور ما استوعر منها وأن يجتمع ما تفرق ، فانظر في ذلك فان فيه صلاح خواصنا وعوامنا ان شاء الله تعالى))[3].

قبل يزيد بن معاوية اقتراح ابن الزبير لتغيير الوالي . وهذا القبول يؤيد ماذهبت اليه من قبل في رغبة يزيد في مسالمة أهل الحجاز ، فعزل الوليد بن عتبة وعين مكانه عثمان بن محمد بن أبي سفيان . وهو كما وصف ((فتى غر حدث غمر لم يجرب الأمور ، ولم يحنكه السن، ولم تضرسه التجارب، وكان لا يكاد ينظر في شيء من سلطانه ولا عمله))[4]. وجاء تعيينه في مصلحة ابن الزبير فنمت حركته وازدهرت دعوته وتدنت هيبة الحكومة وتشجع أهل المدينة على عصيان الوالي ومخالفة أوامره[5].

يظهر أن يزيد حين عيّن ولاته بالحجاز ، انما قصد تغيير سياسته فيها ، فأراد أن يستبدل سياسة العنف والشدة التي انتهجها عمرو بن سعيد والوليد بن عتبة ، بسياسة جديدة تقوم على اللين والحكمة والحلم، وأراد بهذه السياسة أن يتألف أهل المدينة ويدفع نفوذ الطامعين في الخلافة . ولكن الوالي الذي عين لتنفيذ تلك السياسة ، عثمان بن محمد ، لم يكن كفوءا للقيام بهذه المهمة التي تتطلب رجلا مجربا للأمور حكيما عارفا بدخائل النفوس، ضرسته التجارب وأحكمته.

بدأ عثمان بن محمد سياسته بأن أرسل الى دمشق وفدا من أشراف أهل المدينة من المهاجرين والأنصار على السواء[6] ((كانوا من ذوي الكلمة المسموعة عند الناس))[7]، وظن الوالي أن تكريم يزيد لهم سوف

١ـ انظر الطبري: تاريخ ج ٥ ص ٤٧٩

٢ـ انظر ابن الأثير: الكامل ج ٤ ص ١٠٢

٣ـ ابن كثير: البداية والنهاية ج ٨ ص ٢١٥ ـ ٢١٦

٤ـ الطبري: تاريخ ج ٥ ص ٤٧٩ ـ ٤٨٠

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

يستل الحقد من نفوسهم، وأنه سيقنصهم بأحقيته الخلافة بفضل ما للمال من قوة الاقناع، فيعودون الى المدينة ، شاكرين فضل الخليفة وذاكرين أياديه البيضاء عليهم، ويصبحون بالتالي لسانا ناطقا ومعبرا عن رغبات يزيد ، ومناهضة خصومه بالحجاز . الا أن عكس ذلك تماما هو الذى حدث، فكان أن عجل ارسال هذا الوفد في تطور الحوادث على أرض الحجاز ... فكانت وقعة الحرة ، وحصار مكة الأول .

ثورة أهل المدينة ووقعة الحرة .

(١)

وفي سنة اثنتين وستين للهجرة قدم وفد أهل المدينة على الخليفة يزيد بدمشق ، وتألف الوفد من رجال يمثلون الرأي العام لأهل المدينة، وكان أعضاء الوفد ((المنذر بن الزبير بن العوام، وعبد الله ابن أبي عمرو بن حفص بن المغيرة المخزومي ، وعبد الله بن حنظلة الغسيل ابن أبي عامر الأنصاري في آخرين من الأشراف)) (٢). وهؤلاء الأعضاء منهم من يؤيد حركة ابن الزبير، وكلهم يخالف بني أمية وينقمون عليهم لاغتصابهم الحكم .

اغتنم يزيد بن معاوية هذه الفرصة ، فأراد أن يتألف أهل المدينة بالمال ، فأكرم أعضاء الوفد وأجزل لهم العطاء، فأعطى عبد الله بن حنظلة مائة ألف درهم ، وكان معه ثمانية بنين، فأعطى كل رجل منهم عشرة آلاف درهم سوى كسوتهم وحملانهم (٣)، كما أجاز المنذر بن الزبير بمائة الف نظير أصحابه من أولئك الوفد (٤). ولكن لا المال ولا الاكرام استطاع أن يمدد ما في النفوس، أو يحدث تغييرا في الاتجاهات. فما أن خرج القوم من عند يزيد ، ووصلوا المدينة ، حتى بادروا الى هجائه أشد ما يكون الهجاء، وأخذوا في التشهير به قائلين : ((أنا قدمنا من عند رجل ليس له دين، يشرب الخمر، ويعزف بالطنابير، ويضرب عنده القيان، ويلعب بالكلاب، ويسامر الخراب والفتيان ، وانا نشهدكم أنا قد خلعناه ، فتابعهم الناس)) (٥).

وقد أضرت هذه الشتائم بالحكم الأموي المزعزع بالحجاز ، وتزعم عبد الله بن حنظلة الهجوم على يزيد ،

١ـ انظر ابن الأثير : الكامل ج ٤ ص ١٠٢ ـ ١٠٣ .

٢ـ البلاذرى : أنساب الأشراف ج ٤ ق ٢ ص ٣١

٣ـ انظر خليفة بن خياط : تاريخ ق ١ ص ٢٨٩

٤ـ انظر ابن كثير : البداية والنهاية ج ٨ ص ٢١٦

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فكان يقول لأهل المدينة :((جئتكم من عند رجل لو لم أجد الا بنيّ هؤلاء لجاهدته بهم، وقد أعطاني وأكرمني وماقبلت منه عطاءه الا لأتقوى به ، فخلعه الناس وبايعوا عبد الله بن حنظلة الغسيل على خلع يزيد وولوه عليهم))(١).

أما المنذر بن الزبير فلم يتوجه الى المدينة مباشرة ، بل ذهب الى البصرة لزيارة عبيد الله بن زياد لصداقة كانت تربطه بأبيه زياد ،فأكرمه ابن زياد وبره ووصله(٢) . وعندما علم يزيد بما فعل وفد أهل المدينة ووفقهم الهدائي منه ، أرسل الى ابن زياد بحبس المنذر كي يمنع وصوله الى المدينة(٣) . ومع اخلاص عبيد الله بن زياد لبني أمية، الا أنه كره أن يسجن ضيفه فسرحه الى الحجاز، فما أن وصل اليها حتى ضم صوته الى أصوات زملائه في سب يزيد والتشهير به وتحريض الناس على الثورة ضده، قائلا : ((ان يزيد والله لقد أجازني بمائة ألف درهم، وانه لا يمنعني ماصنع الي أن أخبركم خبره ، وأصدقكم عنه ، والله انه ليشرب الخمر، وانه ليسكر حتى يدع الصلاة، وعابه بمثل ماعابه به أصحابه الذين كانوا معه وأشد))(٤). فازداد الهياج والتمرد في النفوس.

وتتلخص أسباب ثورة أهل المدينة على حكومة يزيد بن معاوية في أمور أبرزها فسوق يزيد الذي وصف بأنه ((صاحب طرب وجوارح وكلاب وقرود وفهود ومنادمة على الشراب))(٥). ورغم المبالغة في صفات يزيد هذه ، الا أنه كان دون ابن الزبير منافسه والمعروف بالعبادة والتقوى(٦) ، والذي كان يدعو الناس لبيعته على أساس كتاب الله وسنة نبيه وسيرة الخلفاء الصالحين . وفي نفس الوقت يتشبه بسيرة عمر بن الخطاب ويجعل مثله الدرة(٧) . لكسب قلوب أهل الحجاز الى جانبه . وشتان بين هذا والصفات التي أذيعت عن يزيد بن معاوية .

والأمر الثاني أن أهل الحجاز عامة وأهل المدينة خاصة قد غاظهم قتل الحسين، فعجل ذلك في ثورتهم ، وخلعهم يزيد ، اذ كانوا يرون في قتل الحسين انتهاكا لحرمة الاسلام(٨) ، ولا عجب فان فداحة

١ـ ابن الاثير : الكامل ج ٤ص ١٠٣
٢ـ انظر البلاذري : أنساب الاشراف ج ٤ ق٢ ص٣١
٣ـ انظر ابن الاثير : الكامل ج ٤ ص١٠٣
٤ـ الطبري : تاريخ ج ٥ ص ٤٨١
٥ـ المسعودي : مروج الذهب ج ٣ ص ٦٧، البلاذري :أنساب

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

النكبة ، والأسلوب الفظ الذي اتبع في قتل هؤلاء الأبرار الأطهار كان ذا أثر عميق ، وجرحا بالغا في النفوس ، وكانت صدمة لأهل الحجاز وللصالحين منهم خاصة ، وجعل الناس يتحدثون أن سلطان يزيد قد أمعن في الخلاف عن أمر الله ، فلم تصبح طاعته لازمة ، بل أصبح الخروج عليه واجبا حيث يمكن الخروج عليه (١) .

والأمر الثالث أن عبد الله بن الزبير كان على اتصال بأهل المدينة ، ودعتهم دعاته الى نصرته والوقوف الى جانبه ، ويذهب البعض (٢) أن أهل المدينة اجتمعوا على بيعة ابن الزبير . وانهم ثاروا على والي يزيد وطردوا الأمويين من المدينة بإذن ابن الزبير وبفضل دعاته وعلى رأسهم عبد الله بن مطيع (٣) .

هذا الى جانب حقد أهل الحجاز على الأمويين الذين اتخذوا دمشق عاصمة لدولتهم ، فحرموا الحجاز من أبهة الخلافة والسلطان ، فجاءت حركة أهل الحجاز وثورتهم لاسترداد مجدهم السليب .

وعندما وصلت أقاويل وفد أهل المدينة في يزيد اليه وبلغته دعوتهم أهل المدينة الى نقض بيعته ، آثر مسالمتهم ورغب ألا يبادئهم الحرب والقتال وبعث اليهم رجلا أنصاريا هو النعمان بن بشير (٤) ليحذرهم الفتنة ويدعوهم الى الطاعة والجماعة ، وكان يزيد بن معاوية قد قال له :((أنت الناس وتومك فافثأهم عما يريدون ، فانهم ان لم ينهضوا في هذا الأمر لم يجتريء الناس على خلافي ، وبها من عشيرتي من لا أحب أن ينهض في هذه الفتنة فيهلك)) (٥) . وجهد النعمان بن بشير في تحقيق المهمة التي جاء من أجلها ، وأوضح لأهل المدينة أنهم لا يستطيعون مقاومة جند الشام . الا أن أهل المدينة رفضوا أن يسمعوا له فيما أشار به عليهم ، فعاد الى دمشق وقد أخفق في مهمته . ولم يؤثر كتاب يزيد الى أهل المدينة الذي حمله النعمان بن بشير اليهم شيئا وجاء فيه :((. . . . أما بعد فقد أنظرتكم حتى لا نظرة ورفقت بكم حتى عجزت عندكم وحملتكم على رأسي ثم على عيني ثم على نحري ، وأيم الله لئن وضعتكم تحت قدمي لأطأنكم وطأة أجعلكم بها أحاديث تؤثر مع أحاديث عاد وثمود)) (٦) .

١ـ انظر طه حسين : علي وبنوه ص ٢٤٦

٢ـ انظر البلاذري : أنساب الأشراف ج ٤ ق ٢ ص ٣٠

٣ـ انظر المسعودي : مروج الذهب ج ٣ ص ٦٩ ، الذهبي : المنتقى من منهاج الاعتدال

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ورغم هذا التهديد القاسي لم يرعو أهل المدينة بل((دعوا الى الرضى والشورى وأمّروا على قريش عبد الله بن مطيع العدوي، وعلى الأنصار عبد الله بن حنظلة الغسيل وعلى قبائل المهاجرين معقل ابن سنان الأشجعي))(١). ووثبوا على الوالي الأموي عثمان بن محمد بن أبي سفيان، ومن بعد ينتهم من الأمويين وموالميهم ومن عرف بالميل اليهم من قريش وغيرها من الناس فحصروهم واضطروهم الى اللجوء والتحصن في دار مروان بن الحكم، شيخ بني أمية بالحجاز، وأورد الطبري(٢) هذه الحادثة في حوادث سنة ثلاث وستين وقدّر عدد المحصورين بما يقارب الالف رجل.

واضطر الأمويون في المدينة لطلب الغوث والنصرة من بني عمومتهم بدمشق، وأرسل مروان بن الحكم الى يزيد يستنجده ويطلب المون منه، وحمل كتاب مروان الى يزيد عبد الملك بن مروان، وأعطاه الى رجل يسمى حبيب بن كرة وطلب اليه أن يسرع في الذهاب الى الشام والعودة منها، وقال له: ((قد أجلتك اثنتي عشر ليلة ذاهبا واثنتي عشر ليلة مقبلا، فوافني لاربع وعشرين ليلة في هذا المكان. تجدني أن شاء الله في هذه الساعة جالسا أنتظرك))(٣). وكان نص كتاب الأمويين الى يزيد مايلي: ((بسم الله الرحمن الرحيم، أما بعد، فانه قد حصرنا في دار مروان بن الحكم، ومنعنا العذب، ورمينا بالجبوب(٤)، فياغوثاه، ياغوثاه!))(٥).

حمل مبعوث بني أمية في المدينة كتابهم الى يزيد، ووجده جالسا على كرسي يشكو مرضا يقال أنه النقرس(٦). وحين قرأ يزيد رسالتهم اليه ثار غضبه(٧)، وتأكد لديه أن سياسة اللين والتسامح لم تعد تجدي نفعا لدى أهل الحجاز، وتبعا لذلك رأى أن يأخذهم بسياسة الحزم والشدة وقال متمثلا:

قد بدلوا الحلم الذي من سجيتي ... فبدلت قومي غلظة بليان(٨)

١ــ خليفة بن خياط: تاريخ ق ١ ص ٢٨٩ ــ ٢٩٠

٢ــ انظر الطبري: تاريخ ج ٥ ص ٤٨٢ ــ ٤٨٣

٣ــ الطبري: تاريخ: ج ٥ ص ٤٨٢

٤ــ الجبوب: الأرض الغليظة

٥ــ الطبري: تاريخ ج ٥ ص ٤٨٢

٦ــ النقرس: وجع في مفاصل الكعبين وأصابع الرجلين. الفيروز آبادي: القاموس ج ٢ ص ٢٦٥

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ثم قال : أيكون بنو أمية ألف رجل ؟ فقال حبيب بن كرة : بلى والله وأكثر . قال : فما أستطاعوا أن يقاتلوا ساعة من نهار . (١) وفي هذا سخرية من بني أمية الموجودين بالحجاز والذين آثروا أن يوضعوا تحت حصار أهل المدينة على أن يقاتلوا . وبالرغم من ذلك فقد آثر يزيد أن ينجد بني عمومته المحاصرين وأن يخضع المتمردين، فأجمع رأيه على بعث الجيش الى الحجاز . فتقدم اليه عبد الله بن جعفر بن أبي طالب فكلمه فيهم ورققه عليهم قائلا :((انما تقتل بهم نفسك . فقال له : فأنا أبعث أول جيش وآمرهم أن يمروا بالمدينة الى ابن الزبير ، فانه قد نصب لنا الحرب ، ويجعلونها طريقا ولا يقاتلهم . فان أقرّ أهل المدينة بالسمع والطاعة تركهم وجاز الى ابن الزبير، وان أبوا أن يقروا قاتلهم)) . (٢) فأرسل اليهم عبد الله بن جعفر ان اقنعوا السلامة والأمن ولا تعرضوا لجنده ودعوهم يعضون عنكم، فأبوا أن يفعلوا ذلك وصمموا على الحرب وأخذوا في الاستعداد لها .

طلب يزيد بن معاوية من عمرو بن سعيد بن العاص أن يتجهز لغزو الحجاز ونجدة بني أمية المحاصرين في المدينة واخضاع العصاة من أهلها ، الا أن عمرو بن سعيد رفض طلب يزيد ، وأشار الى ضبطه الحجاز حين كان واليا عليها ، فكافأه الدولة على ذلك بالعزل ، وانه لا يريد الآن أن تراق دماء أهل الحجاز على يديه ، وأشار على يزيد أن يتولى حرب أهل الحجاز رجل غير قريب النسب اليهم . (٣)

حينئذ لم يجد يزيد بدّا من أن يعهد بهذه المهمة الى رجل من سادات العرب من غير قريش، ومن المخلصين للبيت الاموي الحاكم هو مسلم بن عقبة المري . (٤) فعهد اليه بقيادة الجيش المتوجه الى الحجاز . ويعود ترشيح مسلم بن عقبة لتولي هذه المهمة بالثقة التي أولاها اياه يزيد ، خاصة وقد ((ثبتت كفايته وثبت اخلاصه وصدق نصيحته)) (٥) لبني أمية في مناسبات سابقة . وروي أن معاوية أوصى ابنه قائلا :((ان لك من أهل المدينة يوما ، فان فعلوها فارمهم بمسلم بن عقبة، فانه رجل

١ـ انظر البلاذري : أنساب الاشراف ج ٤ ق٢ ص٣٣، ابن كثير : البداية والنهاية ج ٨ ص٢١٨

٢ـ ابن سعد: الطبقات الكبرى ج ٥ ص ١٤٥

٣ـ انظر الطبري : تاريخ ج ٥ ص ٤٨٣

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

قد عرفنا نصيحته))[1]. أما مسلم بن عقبة فقد قبل تولي المهمة بعد الحاح يزيد عليه .

تردد كثير من أهل الشام في الانضمام الى جيش مسلم بن عقبة ، فأراد أن يستميلهم وأن يغريهم بالمال ، فأرسل مناديه فنادى :((أن سيروا الى الحجاز على أخذ أعطياتكم كملا ومعونة مائة دينار توضع في يد الرجل من ساعته ، فانتدب لذلك اثنا عشر ألف رجل))[2].

أوصى يزيد بن معاوية قائد الجيش مسلم بن عقبة ، ورسم له خطة يتبعها ، وسياسة يلتزم بها فقال :((ان حدث بك حدث فاستخلف الحصين بن نمير السكوني ـ وأضاف ـ ادع القوم ثلاثا ، فان أجابوك والا فقاتلهم ، فاذا ظفرت عليهم فانهبها ثلاثا ، وكل ما فيها من مال أو دابة أو سلاح أو طعام فهو للجند ، فاذا مضت الثلاث فاكفف عن الناس))[3]. ولم تكن هذه الاقوال في صالح الدولة ، لا دينا ولا سياسة .

وخرج يزيد بن معاوية يستعرض الجيش فقال :

أبلغ أبا بكر اذا الليل سرى ... وهبط القوم على وادي القرى[4]

عشرون ألفا بين كهل وفتى ... أجمع سكران من القوم ترى[5]

وكان أبو بكر عبد الله بن الزبير يسمي يزيد بالسكران[6]، ويتضح من هذين البيتين أن هدف الحملة الأول كان ابن الزبير ، ولعل يزيد ذكر العشرين ألفا للوزن الشعري ، فقد أسلفنا أن الجيش كان من اثنى عشر ألف رجل بين كهل وفتى .

ولم يكن أهل المدينة ومن انضم اليهم على وفاق تام فيما بينهم ، ويلمح المرء ذلك بوضوح حين استعملوا أكثر من قائد عليهم ، وروي أن ابن عباس قيل له وهو بالطائف :((استعمل أهل المدينة عبد الله بن مطيع على قريش وعبد الله بن حنظلة على الأنصار ، فقال : أميران ، هلك القوم))[7].

١ـ خليفة بن خياط : تاريخ ق ١ ص ٢٩٠

٢ـ الطبري : تاريخ ج ٥ ص ٤٨٣

٣ـ ابن الأثير : الكامل ج ٤ ص ١١٢ ـ ١١٣

٤ـ وادي القرى : واد بين المدينة والشام من أعمال المدينة ، كثير القرى . ياقوت : معجم البلدان ج ٥ ص ٣٤٩

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وفي تلك الأثناء كان أهل المدينة قد رفضوا الحصار عن بني أمية وسمحوا لهم بالخروج منها ، بعد أن أخذوا عليهم العهود والمواثيق بأن لا يساعدوا عدوهم وأن لا يفشوا سرهم (١) ، فتوجهت جموع الأمويين الذين كانوا محاصرين نحو الشام (٢).

و تجدر الاشارة الى موقف علي بن الحسين ـ الذي اعتزل الفتنة ، وعندما رآها تشتد خرج الى ينبع (٣) ، وقبل أن يضم اليه حرم مروان بن الحكم لصداقة قديمة تربط بين الرجلين . ولعل أحداث كربلاء الدامية هي التي جعلته يتخذ هذا الموقف .

والتقت جموع الأمويين المطرودين من المدينة بجيش مسلم بن عقبة في وادي القرى ، فطلب منهم المشورة وسألهم أخبار الناس وراءهم ، فأبى بعضهم نصحه نظرا للمواثيق التي قطعها عليهم أهل المدينة (٤) ، فأثار ذلك غضب مسلم وكاد أن يبطش بهم . روى ابن الأثير أن مسلم بن عقبة دعا عمرو بن عثمان بن عفان أول الناس فقال له : ((خبرني ما وراءك وأشر عليّ . فقال : لا أستطيع ، قد أخذ علينا العهود والمواثيق أن لا ندل على عورة ولا نظاهر عدونا ، فانتهره وقال : والله لولا انك ابن عثمان لضربت عنقك ، وأيم الله لا أقيلها قرشيا بعدك)) . وحين أخبر عمرو بن عثمان أصحابه طلب مروان بن الحكم من ابنه عبد الملك أن يدخل قبله لعله يجتريء به عنه .

نقض عبد الملك بن مروان العهود والمواثيق التي قطعها الأمويون لأهل المدينة ، فقال لمسلم بن عقبة ((أرى أن تسير بمن معك ، فتتكب هذا الطريق الى المدينة حتى اذا انتهيت الى أدنى نخل بها نزلت فاستظل الناس في ظله ، وأكلوا من صقره (٥) حتى اذا كان الليل أذكيت الحرس الليل كله عقبا بين أهل العسكر حتى اذا أصبحت صليت بالناس الغداة ، ثم مضيت بهم ، وتركت المدينة ذات اليسار ، ثم أدرت بالمدينة حتى تأتيهم من قبل الحرة مشرقا ، ثم تستقبل القوم فاذا استقبلتهم وقد أشرقت عليهم وطلعت الشمس طلعت بين أكتاف أصحابك فلا تؤذيهم وتقع في وجوههم فيؤذيهم حرها ويصيبهم أذاها

١ـ انظر ابن كثير : البداية والنهاية ج ٨ ص ٢١٩

٢ـ انظر المسعودي : مروج الذهب ج ٣ ص ٦٩

٣ـ انظر الطبري : تاريخ ج ٥ ص ٤٨٥

٤ـ الكامل في التاريخ : ج ٤ ص ١١٣ ـ ١١٤

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

يبرون مادمتم مشرقين من ائتلاق بيضكم وحرابكم، وأسنة رماحكم وسيوفكم ودروعكم وسواعدكم مالا ترونه أنتم بشيء من سلاحهم مادأموا مغربين ، ثم قاتلهم واستعن بالله عليهم ، فان الله ناصرك، اذ خالفوا الامام، وخرجوا من الجماعة))(١). وكانت نصائح عبد الملك بن مروان -هذه- قد كشفت لقائد الجيش الأموي بعض الحقائق الهامة عن وضع المدينة -هدف الجيش الأول- ونصحه بخطة للقتال والمحاصرة تساعد في انجاز مهمة الجيش هناك ، فسر مسلم بن عقبة بذلك، ولشهد هذه النصائح لعبد الملك ((بما كان يتمتع به من مواهب الذكاء وسداد الرأي والخبرة حتى بالحرب...))(٢).

وصل جيش الأمويين الى المدينة في شهر ذي الحجة سنة ٦٣ هـ الموافق آب -أغسطس سنة ٦٨٣م،(٣) ومسكر في موقع يقال له الحرة(٤) في الجهة الشرقية الشمالية من المدينة ، وكان أن أرسل قائد الجيش الى أهل المدينة أنذارا قال فيه :((ان أمير المؤمنين يزعم أنكم الأصل ، واني أكره اراقة دمائكم، واني أجلكم ثلاثا فمن ارعوى وراجع الحق قبلنا منه وانصرفت عنكم وسرت الى هذا المحل الذي بمكة، وان بيتم كنا قد أعذرنا اليكم))(٥).

ومضت الأيام الثلاثة التي ضربها لهم مسلم فدعاهم مرة ثانية الى المسالمة والطاعة ، وقال لهم : ((ياقوم ان أمير المؤمنين يكره اراقة دمائكم ولقد استدامكم منذ زمان لانكم أصله ، فاتقوا الله في أنفسكم فشتموه وشتموا يزيد ، وفجروه ، وقالوا : بل نحارب ثم نحارب))(٦).

وهكذا صمم أهل المدينة على الحرب واعتقدوا أن كثرتهم وتحصيناتهم، ستعنصمهم من الجيش الأموي،(٧) وامعانا في التصميم على الحرب زادوا في التحصينات وحفروا خندقا في الجانب الشمالي من المدينة، وقسموا أنفسهم أربعة أرباع، فالناس الذين تجمعوا حول الخندق كان يقودهم عبد الرحمن بن زهير بن عبد عوف ، وكان عبد الله بن مطيع على ربع آخر، وهم قريش، في جانب المدينة . أما معقل بن سنان الأشجعي فكان على

١- الطبري: تاريخ ج ٥ ص ٤٨٥ - ٤٨٦

٢- محمد ضياء الدين الريس: عبد الملك بن مروان والدولة الأموية ص ٨٢

٣- انظر بروكلمان : تاريخ الشعوب الاسلامية ص ١٥٥

٤- حرة واقم : احدى حرتي المدينة وهي الشرقية منهما . ياقوت: معجم البلدان ج ٢ ص ٢٤٩

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

المهاجرين من رجال القبائل ، أما عبد الله بن حنظلة الغسيل الأنصاري فكان أمير جماعتهم، وقد قاد أعظم تلك الأرباع وأكثرها عددا وهم الأنصار[1]، وعلى الموالي يزيد بن هرمز[2].

تقدم أهل المدينة الى الحرة ((بجموع كثيرة وبهيئة لم ير مثلها))[3]، فهابهم الجند ، وانتهوا الى عسكر مسلم بن عقبة ، وهو راكب حصانه ، وفي رواية أخرى ، أنه كان مريضا يوم القتال . وأنه أمر أن يوضع سريره بين الصفين ، واستطاع المهاجمون المدنيون أن يخترقوا صفوف أهل الشام وأن يضعضعوا جمعهم[4]. وحين رأى مسلم ذلك وقف بين الناس وصاح بصوت عال جهوري مشجعا وحاثا جنده على الاستبسال . وأثناء القتال ((أقبلت طائفة من أهل الشام، فدخلوا المدينة من قبل بني حارثة وهم الذين قالوا[5] : = ان بيوتنا عورة = ، فلم يشعر القوم وهم يقاتلون من يليهم، الا وأهل الشام يضربونهم من أدبارهم))[6].

وقد نجح الجيش الأموي آخر الأمر بالحاق الهزيمة بأهل المدينة، ((وقتل كثير من أشراف الأنصار ومن قريش[7]، كان من بينهم عبد الله بن حنظلة[8] ، ومحمد بن عمرو بن حزم[9] ، والفضل بن عباس بن ربيعة ابن الحارث بن عبد المطلب ، ورضخت مدينة الرسول صلى الله عليه وسلم للاحتلال العسكري الأموي، حين أضحت عاجزة عن الدفاع عن نفسها أمام قوات يزيد ، وإلى هذا أشار أحد زعماء ثورة أهل المدينة، عبد الله بن مطيع، وقد شهد الحرة وحصار ابن الزبير، قال : ((كنا نقول لو أقاموا شهرا ما قتلوا منا شيئا ، فكنت أعجب كل العجب أن ابن الزبير لم يصلوا اليه ثلاثة أشهر، وقد أخذوا عليه بالمضايق وضيقوا المنجنيق وفعلوا به الأفاعيل ، ولم يكن مع ابن الزبير أحد يقاتل له حفاظا الا نفير يسير وقوم آخرون من الخوارج . وكان معنا يوم الحرة ألفا رجل كلهم ذو حفاظ فما استطعنا أن نحبسهم يوما الى الليل))[10].

١ـ انظر ابن الأثير : الكامل ج ٤ ص ١١٥

٢ـ انظر البلاذري : أنساب الأشراف ج ٤ ق ٢ ص ٣٥

٣ـ خليفة بن خياط: تاريخ ق ١ ص ٢٩١

٤ـ انظر الطبري : تاريخ ج ٥ ص ٤٨٨

٥ـ سورة الأحزاب : آية ١٣

٦ـ الدينوري : الأخبار الطوال ص ٢٦٥

٧ـ انظر قوائم باسماء قتلى الحرة في تاريخ خليفة بن خياط القسم الأول ص ٢٩٣ ومابعدها .

انظر البيهقي : المحاسن والمساوئ ص ٦٥ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أورد الطبري[1]: ثلاث روايات عما تم بعد ذلك ، الأولى من هذه الروايات منسوبة الى أبي مخنف زعيم المدرسة التاريخية العراقية ، جاء فيها :((... وأباح مسلم المدينة ثلاثا يقتلون الناس ويأخذون الأموال ..))وذلك تنفيذا لوصية يزيد الى مسلم بن عقبة . والرواية الثانية منسوبة الى عوانة بن الحكم وجاء فيها : ((دعا الناس مسلم بن عقبة بقباء الى البيعة ...)) ، أي أن مسلما دعا الناس الى بيعة يزيد ففعلوا ، أما من عارضه فقد قتله ، وقتل كذلك المشاغبين الذين هيجوا العامة . ونلاحظ أن عوانة ابن الحكم لا يتطرق الى ذكر اباحة المدينة أياما ثلاثة .

والرواية الثالثة وردت على لسان وهب بن جرير ، وخالفت كذلك رواية أبي مخنف سالفة الذكر في استباحة المدينة ، واستهل وهب روايته بوصية معاوية الى ابنه يزيد فقال :((ان لك من أهل المدينة يوما ، فان فعلوا فارمهم بمسلم بن عقبة فانه رجل قد عرفت نصيحته)). ثم تحدث وهب عن ثورة أهل المدينة وخطتهم العسكرية فقال :((وقد بعث أهل المدينة الى كل ماء بينهم وبين الشام ، فصبوا فيه زقا من قطران وعوّر)). ولم تنجح هذه الاستراتيجية اذ نزلت الأمطار ولم يستق الجيش الشامي بدلو حتى ورد المدينة ، ((فخرج اليهم أهل المدينة بجموع كثيرة وهيئة لم ير مثلها ...)) ، ثم بين وهب ماذا حدث بعد هزيمة أهل المدينة وأضاف : ((فدخل مسلم بن عقبة المدينة فدعا الناس للبيعة على أنهم عبيد ليزيد بن معاوية ، يحكم في دمائهم وأموالهم وأهليهم ما شاء))[2].

وبالتالي فاننا نرى أن المبالغة في اباحة مسلم بن عقبة المدينة ثلاثة أيام يمكن أن يتسرب اليه الشك ، فحين انتصر الجند الأموي ارتكبوا بعض الآثام ، ولكن الجيش لم يقتل جميع الأشراف ولا بلغ القتلى عشرة آلاف ... خصوصا وأن أمر الاباحة والاسراف في معاملة أهل المدينة يتنافى مع ما نعرفه من أخبار سابقة نصّت على أمر يزيد لقائد جيشه مسلم بن عقبة ، بالترفق بأهل المدينة[3]، ولذلك حاول مسلم مسالمتهم وعدم اللجوء الى العنف معهم الا أنهم رفضوا دعوته وأصروا على الحرب ، فاشتبك معهم في قتال انتهى بهزيمتهم .

وبجانب الروايات الثلاث التي أوردها الطبري ، ذكر ابن الأثير أن مسلم أباح المدينة ((ثلاثا يقتلون الناس ، ويأخذون المتاع والأموال ، فافتزع ذلك من بها من الصحابة ... ودعا مسلم الناس الى البيعة ليزيد

١ـ تاريخ الرسل والملوك ج ٥ ص ٤٩١ ـ ٤٩٥

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

على أنهم خول له يحكم في دمائهم وأموالهم وأهليهم من شاء فمن امتنع عن ذلك قتله))• في حين أن ابن قتيبة،(١) والسمهودي،(٢) والسيوطي،(٣) قد صوروا واقعة الحرة وكأنها مجزرة، وذلك لميلهم الظاهر الى السخط على بني أمية، أو لاعتمادهم على رواة من الناقمين على الحكم الأموي ولخصوروايا تهم أن مسلم ابن عقبة قتل في هذه الوقعة بقايا المهاجرين والأنصار وخيار التابعين، وهم ألف وسبعمائة ، وقتل من أخلاط الناس عشرة آلاف سوى النساء والصبيان، وقتل بالمدينة من حملة القرآن سبعمائة رجل، ومن قريش سبعة وتسعون ...

ولا شك أن مسلم بن عقبة قد أساء الى أهل المدينة، وأفرط في القسوة عليهم • وأنزل بهم ضربة موجعة مؤلمة، ولكن المبالغة في تصوير هذه الاساءة أمر مرفوض وتنفيه الحقائق التاريخية ، ولا نغفل تردد مسلم ابن عقبة في قبول تولي قيادة الجيش الذي أسندت اليه قيادته لاخضاع أهل الحجاز • كما أنه عندما قدم الى المدينة أراد أن يسالم أهلها فعرض عليهم السلم فعملا وأجلهم ثلاثا ، ثم عاد وكرر العرض من جديد ، وعندما أبوا وأصروا اضطر لمقاتلتهم • هذه أمور تلقي مزيدا من الضوء على تصرفات قائد الجيش الأموي في المدينة وتساند ماذهبت اليه من رفض المبالغة في الاباحة •

على أننا لا نبرئ مسلما مما ارتكبت يداه من الاثم ، اذ نظر الى أهل المدينة على أنهم خارجون على الامام واجماع الأمة ـ من وجهة نظر الدولة ـ ومسلم منفذ لأوامر يزيد بن معاوية الذى ((أخطأ خطأ فاحشا في قوله لمسلم بن عقبة أن يبيح المدينة ثلاثة أيام، وهذا خطأ كبير فاحش مع ما انضم الى ذلك من قتل خلق من الصحابة وأبنائهم))•(٤) وبالتالي يشارك قائد جيشه في تحمل ما ارتكب من آثام • ومسلم ابن عقبة كان خادما لرؤسائه ينفذ أوامرهم، ولم يزد على ذلك شيئا من الحنكة ورجاحة العقل، وحين أمره أسياده بقمع ثورة أهل المدينة الذين كانوا من وجهة نظر الدولة عصاة يحاولون سلب السلطة وتقويض عرش يزيد • نفذ أوامرهم وظن مسلم أنه عمل صالحا بقتل أهل المدينة وقال :((اللهم اني لم أعمل عملا قط بعد شهادة أن لا اله الا الله ، وأن محمد عبده ورسوله ، أحب الي من قتلي أهل المدينة، ولا أرجى عندي في الآخرة))•(٥)

١ـ الامامة والسياسة ج ١ ص ١٨٥

٢ـ وفاء الوفا ج ١ ص ١٢٦

٣ـ تاريخ الخلفاء ص ٢٠٩

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وحركة أهل المدينة وثورتهم كانت مظهرا لصراع بين فئتين، تريد كل منهما أن تكون الخلافة من نصيبها، واعتقد أهل المدينة أن بني أمية، مغتصبون للخلافة، ولا حق لهم فيها، فعملوا على استخلاص الخلافة منهم، والاستمتاع بخيراتها في مدينتهم.

أما وقد انتصر الجيش الأموي، فكان يجدر به أن يحترم ذكرى رسول الله صلى الله عليه وسلم، في مدينته المنورة، اذ لا مبرر للقسوة التي أظهرها الجند في معاملة السكان وقد تم اخضاعهم. وكان (١) يجدر بيزيد أن يرسم لقائد جيشه حدودا لا يتعداها، اذا كان صادق النية ـ كما ذكر البعض ـ في المحافظة على حرمة مدينة النبي صلى الله عليه وسلم.

ارتكب أهل المدينة بعض الأخطاء التي ساهمت في سرعة انتصار الجيش الأموي عليهم، ذلك أنهم اخرجوا بني أمية من المدينة وطردوهم منها، (٢) وهؤلاء الأمويون الذين يعرفون المواقع العسكرية الهامة في المدينة قدموا مساعدتهم لمسلم بن عقبة وأرشدوه الى أسهل الطرق للتغلب على الثائرين، (٣) كما أن اخراج أهل المدينة لهم جعلهم ينضمون للجيش المهاجم، وحجتهم في ذلك كما قال مروان بن الحكم: ((أنا والله ماض مع مسلم الى المدينة فمدرك ثأري من عدوي، ومن أخرجني من بيتي وفرّق بيني وبين أهلي)). (٤)

كان يجدر بأهل المدينة أن يعملوا على تحقيق الوحدة الداخلية بين السكان بتحريضهم جميعا على المشاركة في الثورة تحقيقا لمصلحة عامة، فيتحمل كل منهم القدر المناسب من المسئولية. وقد سعى زعماء أهل المدينة من الثائرين في هذا المسعى، ولكنهم فشلوا فبعض أهل الحجاز كان يرفض فكرة الثورة أساسا، ومن هؤلاء زعماء يسمع قولهم ولهم أثر في الرأي العام، فعبد الله بن عمر بن الخطاب حين خلع أهل المدينة يزيد بن معاوية، جمع حشمه وولده وقال: ((اني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم

١ـ انظر البيهقي: المحاسن والمساوئ ص ٦٤

٢ـ انظر السمهودي: وفاء الوفا ج ١ ص ١٢٩

٣ـ انظر اليعقوبي: تاريخ ج ٢ ص ٢٥٠، البلاذري: أنساب الأشراف ج ٤ ق ٢ ص ٣٤

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

يقول ـ ينصب لكل غادر لواء يوم القيامة ـ وانا قد بايعنا هذا الرجل على بيع الله ورسوله ، واني لا أعلم غدرا أعظم من أن نبايع رجلا على بيع الله ورسوله ثم ننصب له القتال . واني لا أعلم أحدا منكم خلعه ولا بايع في هذا الأمر الا وكانت الفيصل بيني وبينه (٢)))، ولم يقتصر موقف ابن عمر هذا على ولده وحشمه بل خذل الناس عن الاشتراك في الثورة، فقد ذهب الى عبد الله بن مطيع فقال : اطرحوا لأبي عبد الرحمن وسادة . فقال :((اني لم آتك لأجلس أتيتك لأحدثك حديثا سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقوله : من خلع يدا من طاعة، لقي الله يوم القيامة لا حجة له ، ومن مات وليس في عنقه بيعة، مات ميتة جاهلية (٣))). وواضح ما لهذا القول من أثر في النفوس خاصة الأتقياء .

كما أن علي بن الحسين لم يدخل في شيء مما دخل فيه الناس وخرج من المدينة (٤) . أما محمد بن الحنفية فقد دافع عن يزيد بن معاوية، وأنكر ما نسب اليه أهل المدينة من تهم شرب الخمر، وترك الصلاة وتمدى حكم الكتاب، وقال :((ما رأيت منه ما تذكرون، وقد حضرته وأقمت عنده، فرأيته مواظبا على الصلاة، متحريا للخير، يسأل عن الفقه ، ملازما للسنة . ـ فقالوا : ـ فان ذلك كان منه تصنعا لك . فقال : وما الذي خاف مني أورجا حتى يظهر الي الخشوع، أفأطلعكم على ما تذكرون من شرب الخمر ، لئن كان أطلعكم على ذلك انكم لشركاؤه ، وان لم يكن أطلعكم فما يحل لكم أن تشهدوا بما لم تعلموا . قالوا : انه عندنا لحق وان لم نكن رأينا ، فقال لهم : أبى الله ذلك على أهل الشهادة فقال = الا من شهد بالحق وهم يعلمون (٥) = ولست من أمركم في شيء (٦))). وقد جهد أهل المدينة في اقناعه بالانضمام الى الثورة ، وعرضوا عليه أن يتولى القيادة وقالوا :((فلعلك تكره أن يتولى الأمر غيرك . فنحن نولك أمرنا . قال : ما أستحل

١ـ البخاري : صحيح ج ٨ ص ٩٩ ـ كتاب الفتن ـ وانظر صحيح مسلم : ج ٦ ص ٢٢ كتاب الامارة .

٢ـ ابن العربي : العواصم من القواصم ص ٢٢٤ ـ ٢٢٥ .

٣ـ صحيح مسلم ج ٣ ص ١٤٧٨ كتاب الامارة

٤ـ انظر ابن كثير : البداية والنهاية ج ٨ ص ٢١٩

٥ـ سورة الزخرف : آية ٨٦

٦ـ ابن كثير : البداية والنهاية ج ٨ ص ٢٣٣

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

قال على ماتريد ونتي عليه تابعا ولا متبوعا))[1]. ولم ينفع تذكير أهل المدينة لابن الحنفية قتال أبيه معاوية. فقال :((جيئوني بمثل أبي أقاتل على مثل ما قاتل عليه))[2] ، وعندما يئس أهل المدينة من نصرته لهم رجوه أن يأمر أبنيه أبا القاسم والقاسم بالقتال معهم فرفض قائلا :((لو أمرتهما قاتلت. قالوا : فقم معنا مقاما تحض الناس فيه على القتال. قال : سبحان الله ! آمر الناس بما لا أفعله ولا أرضاه ؟ اذن ما نصحت لله في عباده))[3]. وغير خاف ما لهذه المواقف من أثر على العامة، خاصة وقد جرى بين محمد وبين أصحاب ابن الزبير في هذا الشأن قول كثير، حتى أرادوا اكراهه على ذلك، فخرج الى مكة[4]، وكان هذا أول ما هاج الشر بينه وبين ابن الزبير.

والمراقب لأهل المدينة وموقفهم العسكري، وقد قسموا أنفسهم الى أربعة أقسام وعلى كل قسم أمير يتصرف في غياب قيادة عليا توجه المعركة وتسيرها ، يدرك أن الفشل ملازم حتما لهؤلاء المبعثرين أمام الجيش الأموي النظامي والذي جهز بمدد وعدة كافية وهذا ما ذهب اليه ابن عباس حينما بلغه أن أهل المدينة ((استعملوا عبد الله بن مطيع على قريش وعبد الله بن حنظلة على الأنصار. فقال ـ أي ابن عباس ـ : أميران ! هلك القوم))[5].

وقد علق الخضري[6] ، على موقف أهل المدينة واعلانهم الثورة على يزيد فقال :((وان الانسان ليعجب من هذا التهور الغريب والمظهر الذي ظهر به أهل المدينة في قيامهم وحدهم بخلع خليفة في امكانه أن يجرد عليهم من الجيوش مالا يمكنهم أن يقفوا في وجهه ولا يدري ما الذي كانوا يريدونه بعد خلع يزيد أيكونون مستقلين عن بقية الأمصار الاسلامية لهم خليفة منهم يلي أمرهم، أم حمل بقية الأمة على الدخول في أمرهم، وكيف يكون هذا وهم منقطعون عن بقية الأمصار ولم يكن معهم في هذا الأمر أحد من الجند الاسلامية))[7].

١ـ ابن كثير : البداية والنهاية ج ٨ ص ٢٣٣

٢ـ المرجع السابق نفس الصفحة

٣ـ نفسه بنفس الصفحة

٤ـ أنظر الأصفهاني : الاغاني ج ١ ص ٢٥ طبعة الهيئة المصرية العامة ١٩٧٠ م

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

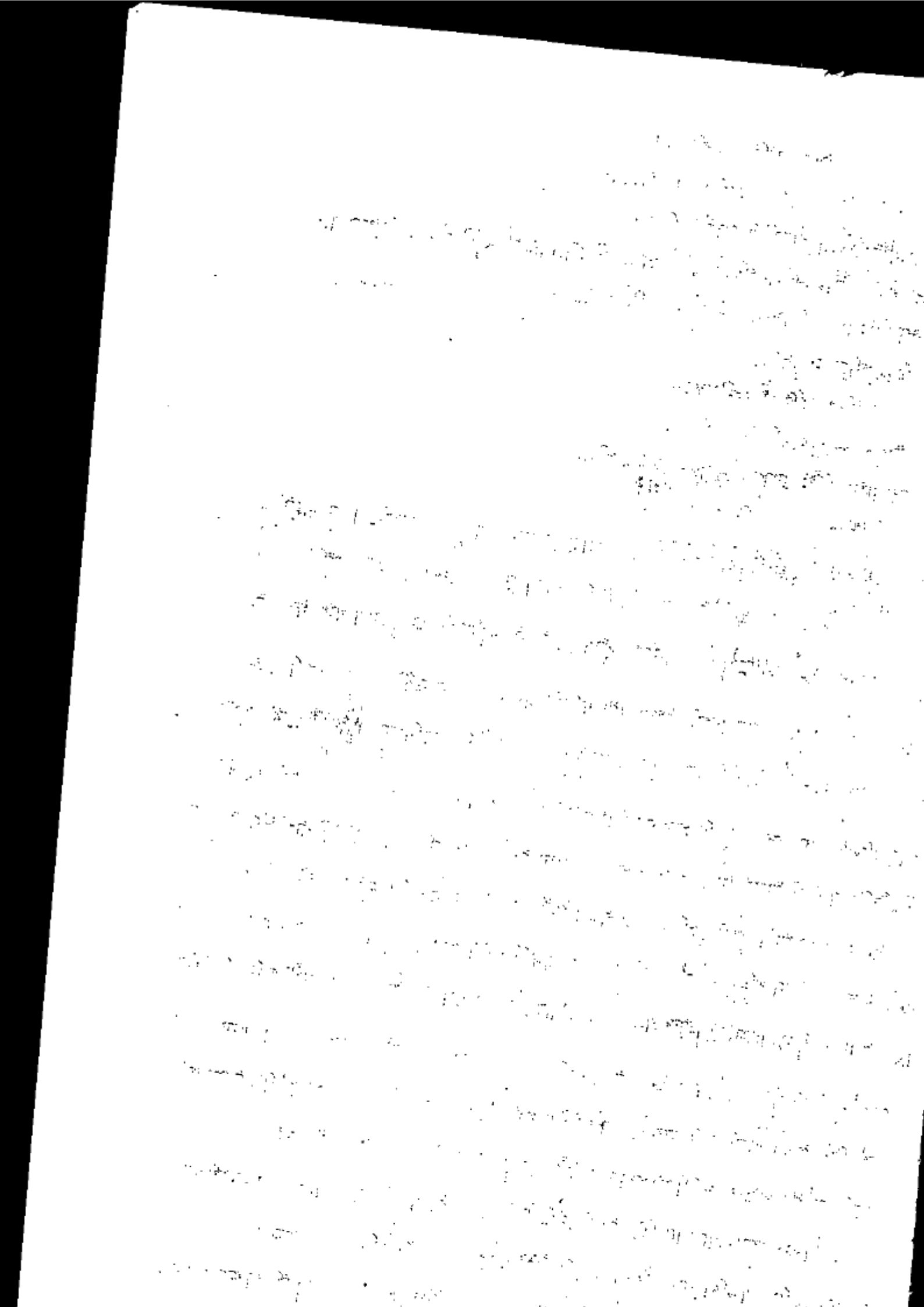

ومما تجدر الاشارة اليه موقف عبد الله بن الزبير من غزو الجيش الأموي لأهل المدينة مع أنه كان غرضا لجيش مسلم بن عقبة، ويشارك أهل المدينة في عداء الحكومة والخروج على سلطانها فلم يحرك ساكنا لنصرتهم والوقوف الى جانبهم في محنتهم، وذلك لعدم التنسيق بين الطرفين واعتماد خطة موحدة لمواجهة عدوهم .

وهذا قصور من أهل المدينة وابن الزبير يسر بالتالي انتصار الجيش الأموي بسهولة. ويحلو لبعض المستشرقين (١)، ومن شايعهم أن يصورا واقعة الحرة وكأنها صدى لواقعة بدر، كما يحلو لهم أن يزيد قد ثأر بهذه المعركة لمقتل الخليفة عثمان بن عفان، وللهزائم التي مني بها جده أبو سفيان على يد أهل المدينة حين حاربوه ، وهم تحت راية محمد صلى الله عليه وسلم، ثم يغلو بعض هؤلاء حتى يشكك في اسلام بني أمية ، ولذلك ـ حسب رأيهم ـ انتهز الأمويون فرصة ثورة المدينة ليحولوها الى دمار، فأنزلوا بأهلها الآلام والأهوال ((وبذلك كان رد فعل العباديء الجنبية قاسيا فظا شديد الوطأة على العباديء الاسلامية، ولم ينهض الأنصار قط من هذه الضربة القاضية، فامحت قوتهم الى الأبد ، وبقيت مدينتهم قرونا من الزمن مهجورة الا من الكلاب التي أخذت تعرح فيها ، وما حولها من الحقول والبساتين مرتعا للزنام، اذ مضت غالبية سكانها تنشد وطنا جديدا وبخاصة أقل قسوة في أجواء مناسبة ... أما الذين بقوا منهم فكانوا في مطارح يد البلوى، فلم يدع الأمويون فرصة تمر الا اغتنموها لتحقيرهم واهانتهم واظهار مقتهم الشديد لهم وانزال الآلام والأهوال بهم)) (٢).

وأقوال كهذه لا يمكن الركون اليها ، ففيها أغلاط تتناول الأسس التي قامت عليها الأحداث، وما (٣) أصاب المدينة في موقعة الحرة لم يغير من وضعها تغييرا جذريا فهي لم تدمر ولم يهجرها أهلها ، بل عاد اليها حتى من كان يسكنها من بني أمية الذين أخرجوا منها - كما بقيت المدينة مقرا لاجتماع الصحابة والتابعين ورجال الفقه والحديث. (٤) وقامت فيها قصور الأغنياء وبساتينهم وسكنها القواد والولاة بعد أن

١ـ انظر دوزي : تاريخ مسلمي اسبانيا ج ١ ص ٧٣ ـ ٧٤

٢ـ دوزي: تاريخ مسلمي اسبانيا ج ١ ص ٧٣ ـ ٧٤ ، الذي اعتمد على رواية أوردها السمهودي في وفاء الوفا ج ١ ص ١٢٦ ، وليس لهذا القول نصيب من الصحة ، ويتهين مما ذكره الطبري:

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

يقول ـ ينصب لكل غادر لواء يوم القيامة ـ وانا قد بايعنا هذا الرجل على بيع الله ورسوله ، واني لا أعلم غدرا أعظم من أن نبايع رجلا على بيع الله ورسوله ثم ننصب له القتال . واني لا أعلم أحدا منكم خلعه ولا بايع في هذا الأمر الا وكانت الفيصل بيني وبينه))[٢]، ولم يقتصر موقف ابن عمر هذا على ولده وحشمه بل خذل الناس من الاشتراك في الثورة، فقد ذهب الى عبد الله بن مطيع فقال : اطرحوا لأبي عبد الرحمن وسادة . فقال:((اني لم آتك لأجلس أتيتك لأحدثك حديثا سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقوله : من خلع يدا من طاعة، لقي الله يوم القيامة لا حجة له ، ومن مات وليس في عنقه بيعة، مات ميتة جاهلية[٣]))

وواضح ما لهذا القول من أثر في النفوس خاصة الأتقياء .

كما أن علي بن الحسين لم يدخل في شيء مما دخل فيه الناس وخرج من المدينة . أما محمد بن الحنفية فقد دافع عن يزيد بن معاوية، وأنكر ما نسب اليه أهل المدينة من تهم شرب الخمر، وترك الصلاة وتعدى حكم الكتاب، وقال :((ما رأيت منه ما تذكرون، وقد حضره وأقمت عنده فرأيته مواظبا على الصلاة، متحريا للخير، يسأل عن الفقه ، ملازما للسنة . ـ فقالوا : ـ فان ذلك كان منه تصنعا لك . فقال : وما الذي خاف مني أورجا حتى يظهر الي الخشوع، أفأطلعكم على ما تذكرون من شرب الخمر ، لئن كان أطلعكم على ذلك انكم لشركاؤه ، وان لم يكن أطلعكم فما يحل لكم أن تشهدوا بما لم تعلموا . قالوا : انه عندنا لحق وان لم نكن رأينا ، فقال لهم : أبى الله ذلك على أهل الشهادة فقال = الا من شهد بالحق وهم يعلمون[٥] = ولست من أمركم في شيء[٦]))[٤]. وقد جهد أهل المدينة في اقناعه بالانضمام الى الثورة ، وعرضوا عليه أن يتولى القيادة وقالوا :((فلعلك تكره أن يتولى الأمر غيرك . فنحن نولك أمرنا . قال : ما أستحل

١ـ البخاري : صحيح ج ٨ ص ٩٩ ـ كتاب الفتن ـ وانظر صحيح مسلم : ج ٦ ص ٢٢ كتاب الامارة .

٢ـ ابن العربي : العواصم من القواصم ص ٢٢٤ ـ ٢٢٥

٣ـ صحيح مسلم ج ٣ ص ١٤٧٨ كتاب الامارة

٤ـ انظر ابن كثير : البداية والنهاية ج ٨ ص ٢١٩

٥ـ سورة الزخرف: آية ٨٦

٦ـ ابن كثير : البداية والنهاية ج ٨ ص ٢٣٣

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

(١)
...ال على ما تريد وننني عليه تابعا ولا متبوعا))• ولم ينفع تذكير أهل المدينة لابن الحنفية قتال أبيه
(٢)
...ماوية • فقال :((جيئوني بمثل أبي أقاتل على مثل ما قاتل عليه)) ، وعندما يئس أهل المدينة من
نصرته لهم رجوه أن يأمر أبنيه أبا القاسم والقاسم بالقتال معهم فرفض قائلا :((لو أمرتهما قاتلت •
قالوا : فقم معنا مقاما تحض الناس فيه على القتال • قال : سبحان الله ! آمر الناس بما لا أفعله ولا
(٣)
...ضاه ؟ اذن ما نصحت لله في عباده))• وغير خاف ما لهذه المواقف من أثر على العامة، خاصة
وقد جرى بين محمد وبين أصحاب ابن الزبير في هذا الشأن قول كثير، حتى أرادوا اكراهه على ذلك،
(٤)
فخرج الى مكة، وكان هذا أول ما هاج الشر بينه وبين ابن الزبير •

والمراقب لأهل المدينة وموقفهم العسكري، وقد قسموا أنفسهم الى أربعة أقسام وعلى كل قسم أمير
...تصرف في غياب قيادة عليا توجه المعركة وتسيرها ، يدرك أن الفشل ملازم حتما لهؤلاء المبعثرين
...أمام الجيش الأموي النظامي والذي جهز بمدد وعدة كافية وهذا ما ذهب اليه ابن عباس حينما بلغه
...ن أهل المدينة ((استعملوا عبد الله بن مطيع على قريش وعبد الله بن حنظلة على الأنصار • فقال —
(٥)
...ي ابن عباس— : أميران ! هلك القوم))•

(٦)
وقد علق الخضري ، على موقف أهل المدينة واعلانهم الثورة على يزيد فقال :((وان الانسان ليعجب
من هذا التهور الغريب والمظهر الذي ظهر به أهل المدينة في قيامهم وحدهم بخلع خليفة في امكانه
أن يجرد عليهم من الجيوش مالا يمكنهم أن يقفوا في وجهه ولا يدري ما الذي كانوا يريدونه بعد خلع
يزيد أيكونون مستقلين عن بقية الأمصار الاسلامية لهم خليفة منهم يلي أمرهم، أم حمل بقية الأمة على الدخول
في أمرهم، وكيف يكون هذا وهم منقطعون عن بقية الأمصار ولم يكن معهم في هذا الأمر أحد من الجند
الاسلامية))•

١ــ ابن كثير : البداية والنهاية ج ٨ ص ٢٣٣

٢ــ المرجع السابق نفس الصفحة

٣ــ نفسه بنفس الصفحة

٤ــ أنظر الأصفهاني : الأغاني ج ١ ص ٢٥ طبعة الهيئة المصرية العامة ١٩٧٠ م

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

المهاجرين من رجال القبائل ، أما عبد الله بن حنظلة الغسيل الأنصاري فكان أمير جماعتهم ، وقد قاد أعظم تلك الأرباع وأكثرها عددا وهم الأنصار[1] ، وعلى العوالي يزيد بن هرمز[2] .

تقدم أهل المدينة الى الحرة ((بجموع كثيرة وبهيئة لم ير مثلها))[3] ، فهابهم الجند ، وانتهوا الى معسكر مسلم بن عقبة ، وهو راكب حصانه ، وفي رواية أخرى ، أنه كان مريضا يوم القتال . وأنه أمر أن يضع سريره بين الصفين ، واستطاع المهاجمون المدنيون أن يخترقوا صفوف أهل الشام وأن يضعضعوا جمعهم[4] . وحين رأى مسلم ذلك وقف بين الناس وصاح بصوت عال جمهوري مشجعا وحاثا جنده على الاستبسال . وأثناء القتال ((أقبلت طائفة من أهل الشام ، فدخلوا المدينة من قبل بني حارثة وهم الذين قالوا[5] : = ان بيوتنا عورة = ، فلم يشعر القوم وهم يقاتلون من يليهم ، الا وأهل الشام يضربونهم من أدبارهم))[6] .

وقد نجح الجيش الأموي آخر الأمر بالحاق الهزيمة بأهل المدينة ، ((وقتل كثير من أشراف الأنصار ومن قريش[7] ، كان من بينهم عبد الله بن حنظلة[8] ، ومحمد بن عمرو بن حزم ، والفضل بن عباس بن ربيعة ابن الحارث بن عبد المطلب[9] ، ورضخت مدينة الرسول صلى الله عليه وسلم للاحتلال العسكري الأموي ، حين أضحت عاجزة عن الدفاع عن نفسها أمام قوات يزيد ، والى هذا أشار أحد زعماء ثورة أهل المدينة ، عبد الله بن مطيع ، وقد شهد الحرة وحصار ابن الزبير ، قال : ((كنا نقول لو أقاموا شهرا ما قتلوا منا شيئا ، فكنت أعجب كل العجب أن ابن الزبير لم يصلوا اليه ثلاثة أشهر ، وقد أخذوا عليه بالمضايق ونصبوا المنجنيق وفعلوا به الأفاعيل ، ولم يكن مع ابن الزبير أحد يقاتل له حفاظا الا نفير يسير وقوم آخرون من الخوارج[10] . وكان معنا يوم الحرة ألفا رجل كلهم ذو حفاظ فما استطعنا أن نحبسهم يوما الى الليل)) .

١ـ انظر ابن الأثير : الكامل ج ٤ ص ١١٥

٢ـ انظر البلاذري : أنساب الأشراف ج ٤ ق ٢ ص ٣٥

٣ـ خليفة بن خياط : تاريخ ق ١ ص ٢٩١

٤ـ انظر الطبري : تاريخ ج ٥ ص ٤٨٨

٥ـ سورة الأحزاب : آية ١٣

٦ـ الدينوري : الأخبار الطوال ص ٢٦٥

٧ـ انظر قوائم بأسماء قتلى الحرة في تاريخ خليفة بن خياط القسم الأول ص ٢٩٣ وما بعدها .

انظر البيهقي : المحاسن والمساوئ ص ٦٥ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ومما تجدر الاشارة اليه موقف عبد الله بن الزبير من غزو الجيش الأموي لأهل المدينة مع أنه كان غرضا لجيش مسلم بن عقبة، ويشارك أهل المدينة في عداء الحكومة والخروج على سلطانها فلم يحرك ساكنا لنصرتهم والوقوف الى جانبهم في محنتهم، وذلك لعدم التنسيق بين الطرفين واعتماد خطة موحدة لمواجهة عدوهم.

وهذا قصور من أهل المدينة وابن الزبير يسر بالتالي انتصار الجيش الأموي بسهولة. ويحلو لبعض المستشرقين (١)، ومن شايعهم أن يصورا واقعة الحرة وكأنها صدى لواقعة بدر، كما يجدو لهم أن يزيد قد ثأر بهذه المعركة لمقتل الخليفة عثمان بن عفان، وللهزائم التي مني بها جده أبو سفيان على يد أهل المدينة حين حاربوه، وهم تحت راية محمد صلى الله عليه وسلم، ثم يغلو بعضهم فلا حتى يشكك في اسلام بني أمية، ولذلك ـ حسب رأيهم ـ انتهز الأمويون فرصة ثورة المدينة ليحولوها الى دمار، فأنزلوا بأهلها الآلام والأهوال ((وبذلك كان رد فعل العباد ية الجنية قاسيا فظا شديد الوطأة على العباد يه الاسلامية، ولم ينهض الأنصار قط من هذه الضربة القاتلة، فامحت قوتهم الى الأبد، وبقيت مدينتهم فترة من الزمن مهجورة الا من الكلاب التي أخذت تعرح فيها، وفاما حولها من الحقول والبساتين مرتعا للغزلان، اذ مضت غالبية سكانها تتشد وطنا جديدا يبضما أتيل قسوة في أجواء مناسبة ... أما الذيـن بقوا منهم فكانوا في مطارح يد البلوى، فلم يدع الأمويون فرصة تمر الا اغتنموها لتحقيرهم واهانتهم واظهار مقتهم الشديد لهم وانزال الآلام والأهوال بهم)) (٢).

وأقوال كهذه لا يمكن الركون اليها، ففيها أغلاط تتناول الأسس التي قامت عليها الأحداث، وما (٣) أصاب المدينة في موقعة الحرة لم يغير من وضعها تغييرا جذريا فهي لم تدمر ولم يهجرها أهلها، بل عاد اليها حتى من كان يسكنها من بني أمية الذين أخرجوا منها. كما بقيت المدينة مقرا لاجتماع الصحابة والتابعين ورجال الفقه والحديث. (٤) وقامت فيها قصور الأغنياء وبساتينهم وسكنها القواد والولاة بعد أن

١ـ انظر دوزي : تاريخ مسلمي اسبانيا ج ١ ص ٧٣ ـ ٧٤

٢ـ دوزي: تاريخ مسلمي اسبانيا ج ١ ص ٧٣ ـ ٧٤، الذي اعتمد على رواية أوردها السمهودي في وفاء الوفا ج ١ ص ١٢٦ ا، وليس ليشذا القول نصيب من الصحة، ويتبين مما ذكره الطبري:

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

اعتزلوا أعمالهم، فقد ت ملتقى كبار الرجال ومشاهير الشخصيات. وقامت فيها بجانب ذلك، نهضة فنية شملت الغناء والموسيقى، فكيف يمكن أن تكون كذلك، وهي خالية مهجورة من السكان بزعم دوزي!؟ (١)

الذي صور واقعة الحرة وكأنها أصابت الأنصار وحدهم لرغبة بني أمية في الانتقام من أولئك الذين نصروا محمدا ـ صلى الله عليه وسلم ـ ضد جد يزيد بن معاوية بن أبي سفيان في حين أن أهل المدينة الذين ثاروا ضد الأمويين لم يكونوا من الأنصار فحسب بل ومن المهاجرين سواء من قريش أو غيرها من القبائل . وحين خلع أهل المدينة يزيد بن معاوية كان الذين خلعوه من المهاجرين والأنصار على حد سواء . وكل مافي الأمر أن أهل الحجاز أصبحوا جبهة معارضة تخالف الحكومة وتحاربها، وكان الأمويون في الحجاز مترددين، ((ولم يريدوا أن يفسدوا علاقتهم بالثوار))(٢)، وهذا من جملة الأسباب التي جعلت مسلم بن عقبة يغضب عليهم ولا يثق بهم حتى أنه كان يدعو عمرو بن عثمان بن عفان بالخبيث ابن الطيب ويعلق على مواقفه بقوله : اذا ظهر المدينة قال : أنا رجل منكم واذا ظهر أهل الشام قال : أنا ابن أمير المؤمنين عثمان بن عفان .(٣)

أما التشكيك في اسلام أهل الشام وفي ايمان يزيد وبني أمية بالاسلام فهو غلو ليس له مايبرره ، فعرب الشام اعتنقوا الاسلام كغيرهم من القبائل العربية ولا نستطيع أن نفرق في مقدار صدق الإيمان بين عرب الشام وعرب العراق وعرب مصر وغيرهم ، ويبدو أن مساندة أهل الشام ليزيد بن معاوية والوقوف الى جانبه لم تكن لعداوة بينهم وبين أهل الحجاز، وانما كانت للحفاظ على مركز الثقل السياسي في بلادهم فضلا عن الاغراء المادي الذي أغراهم به مسلم بن عقبة . كما أنه من المستبعد أن يكون بنو أمية، وعلى رأسهم يزيد بن معاوية، الذين أعزهم الاسلام وأعطاهم أعلى المراكز السياسية والقيادية أن يكونوا من الحاقدين على الاسلام وعلى الذين دافعوا عنه مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، وذلك أمر منطقي، فالاسلام مهد لهم سبل السيادة وأكرمهم بأن جعل لهم دولة مترامية الأطراف، ماكانوا ليحلموا بها في فترة الجاهلية .

١ـ انظر المسعودي : مروج الذهب ج ٣ ص٦٧

٢ـ فلهوزن : تاريخ الدولة العربية ص ١٥٩

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وبذلك يتبين أن النزاع الذي قام بين أهل الحجاز و أهل الشام، والذي كانت معركة الحرة مظهرا من مظاهره ، لم يكن نزاعا دينيا ، بل كان نزاعا سياسيا تركز حول منصب الخلافة ؛ وتمتد جذور ذلك النزاع الى زمن معاوية بن أبي سفيان، وتشاء ظروف يزيد السيئة أن ينفجر الموقف في عهده ، وأن يكون هو الرجل الذي كتب على يديه أمر انهائه .

حصار ابن الزبير في مكة :

بعد أن فرغ مسلم بن عقبة من تأديب أهل المدينة واخضاعهم الى الحكم الأموي ، توجه الى مكة واستخلف على المدينة روح بن زنباع الجذامي .(١)

وفي أواخر المحرم من سنة أربع وستين وصل الجيش الأموي الى المشلل ،(٢) حيث اشتدت وطأة المرض على قائد الجيش الذي شعر بدنو أجله ، فدعا اليه حصين بن نمير السكوني ، وعهد اليه بقيادة الجيش ،(٣) بناء على وصية يزيد بن معاوية . وأوضح مسلم للحصين أنه لا يثق به قائلا :((.... لو كان هذا الأمر الي ما وليتك هذا الجند ، ولكن أمير المؤمنين ولاك))،(٤) ثم أراد أن يضع خلاصة تجاربه تحت تصرف الحصين بن نمير فأوصاه قائلا :((ان هذا الحي من قريش قوم لم يمكنهم قط رجل من أذنيه الا غلبوه على رأيه .... فلا تمكنهم من أذنيك ... أسرع وعجل الوقاع وعم الأخبار ...))،(٥) وواضح أن سياسة الأمويين في تلك الفترة كانت تنص على عدم الاعتماد على القرشيين لما بدا منهم من ميل للمطالبة بالخلافة ومخالفة بني أمية .

وعلم عبد الله بن الزبير بقدوم الجيش الأموي لمحاربته ، فتحصن في مكة وأحكم مراصدها ، واتخذ أهبة الاستعداد للمقاومة ((وخطب الناس وحرضهم على قتال أهل الشام، ودعاهم الى بيعته ، فبايعه أهل مكة على القتال ، وأتاه فل أهل الحرة فصار في بشر كثير))(٦) .

١ـ انظر السمهودي وفاء الوفا ج ١ ص ١٣٦

٢ـ المشلل : جبل يهبط منه الى قديد من ناحية البحر . ياقوت: معجم البلدان ج ٥ ص ١٣٦

٣ـ انظر ابن كثير : البداية والنهاية ج ٨ ص ٢٢٤

٤ـ ابن الأثير : الكامل ج ٤ ص ١٢٣

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وقد أبدى المسلمون سخطهم على الحكم الأموي لقدوم هذا الجيش ليغزو مكة والكعبة، وانتهاك حرمة البلد الحرام. واتخذ الساخطون خطوة عملية لمنع هذا الجيش من تحقيق أهدافه، فقدموا بشكل تحديات للدفاع عن مكة، فجاء أهل المدينة ممن نجوا من قبضة مسلم بن عقبة، كما جاءت الخوارج بقيادة نجدة بن عامر الحنفي (١) الذي ثار ضد الحكم الأموي باليمامة.

كما أقبل الخوارج الأزارقة من العراق يريدون مؤازرة ابن الزبير والدفاع عن البيت الحرام، فقبل مساعدتهم، رغم مخالفتهم له في المبادئ (٢). وانضم الى ابن الزبير شخصية من شخصيات ذلك العصر هو المختار بن أبي عبيد الثقفي (٣)، ولما وقعت الحرب قاتل معه قتالا شديدا. كما روي أن النجاشي أرسل ((جماعة من الحبش للدفع عن الكعبة وأعان ابن الزبير بهم، فضمهم الى أخيه مصعب بن الزبير فكانوا يقاتلون معه ...)) (٤).

بدأ القتال بين الجيشين: جيش ابن الزبير والجيش الأموي، وخرج المنذر ابن الزبير فبارز رجلا من أهل الشام، فضرب كل واحد منهما الآخر ضربة أدت الى موته واستمر القتال بين الجيشين بقية المحرم، وشهر صفر كله، حتى اذا مضت ثلاثة أيام من شهر ربيع الأول سنة أربع وستين هجرية، رمى أهل الشام البيت بالمجانيق وحرقوه بالنار (٥)، اذ اتخذه ابن الزبير حصنا، فكانت مدة الحصار التي فرضها الحصين بن نمير أربعة وستين يوما (٦) (٧).

وقبل أن نمضي في تتابع الأحداث التي تلت بعد ذلك، لابد أن نقف قليلا لمناقشة قضية حرق الكعبة، ورمي الجيش الشامي لها بالمجانيق، وورد هذا الخبر في رواية منسوبة الى عوانة بن الحكم (٨)، ذكر فيها أن جيش الأمويين ((قذفوا البيت بالمجانيق، وحرقوه بالنار وأخذ يرتجزون ويقولون:

١ـ انظر الشهرستاني: الملل والنحل ج ١ ص ١٢٥
٢ـ انظر ابن الأثير: الكامل ج ٤ ص ١٦٥
٣ـ انظر المصعب الزبيري: نسب قريش ص ٢٦٩، الطبري: تاريخ ج ٥ ص ٥٧٥، ٥٧٦
٤ـ البلاذري: أنساب الأشراف ج ٤ ق ٢ ص ٥١
٥ـ انظر ابن الأثير: الكامل ج ٤ ص ١٢٤
٦ـ انظر خليفة بن خياط: تاريخ قسم ١ ص ٣١٦
٧ـ انظر الطبري: تاريخ ج ٥ ص ٤٩٨

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

خطارة مثل الفنيق المزبـــد ترمي بها أعواد هذا المسجد)).

ويبدو أن رواية عوانة بن الحكم هذه ليس لها نصيب من الصحة . وذلك لعدة أمور منها أن أبا مخنف زعيم المدرسة التاريخية العراقية وراوية الأحداث التي وقعت في تلك الفترة الزمنية لا يذكر أي شيء عن هذا الحريق لا سيما سبب الاحتراق ومسببه ، خاصة وأن أمر حرق الكعبة هذا لو تم فعلا نتيجة رمي مجانيق الجيش الأموي لما أغفله أبو مخنف! .

ثم أننا نجد بجانب رواية عوانة بن الحكم روايات أخرى تخلو من اتهام الجيش الأموي بتهمة الحرق، فالواقدي (١)، يذكر أن سبب حرق الكعبة كان بسبب شررة حملتها الريح حين ((كانوا يوقدون حول الكعبة، فأقبلت شررة هبت بها الريح ، فاحترقت ثياب الكعبة ، واحترق خشب البيت ...)) ومفهوم من هذه الرواية أن الذين كانوا يوقدون حول البيت هم اتباع ابن الزبير، ولا علاقة للجيش الأموي ، تبعا لذلك بالحريق .

كما وردت رواية تشير الى أن الشررة التي أصابت الكعبة جاءت من امرأة أرادت ((أن تجمر الكعبة، فطارت شررة من المجمرة في استارها فاحترقت))، (٢) ونجد خبرا آخر ذكر فيه عروة بن أذينة أن الذي تسبب في الحريق كان رجلا من أصحاب عبد الله بن الزبير، قال عروة بن أذينة :((قدمت مكة مع أمي يوم احترقت الكعبة قد خلصت اليها النار، ورأيتها مجردة من الحرير، ورأيت الركن قد اسود وانصدع في ثلاثة أمكنة، فقلت: ما أصاب الكعبة ؟ فاشاروا الى رجل من أصحاب عبد الله بن الزبير، قالوا : هذا احترقت بسببه أخذ قبسا في رأس رمح له فطيرت الريح به ، فضربت أستار الكعبة ما بين الركن اليماني والأسود)). (٣)

أما المدائني (٤)، فقد حمّل ابن الزبير نفسه مسئولية الحرق، ذلك أنه هو الذي أخذ القبس في ليلة ظلماء لينظر الى ما حوله خشية أن يكون وصل اليه أحد من الجيش الأموي، فأطارت الريح القبس فتسبب في احتراق الكعبة، وقال:((كان سبب بناء ابن الزبير الكعبة لما احترقت أن أهل الشام لما حاصروه سمع اصواتا بالليل فوق الجبل فخاف أن يكون أهل الشام قد وصلوا اليه ، وكانت ليلة ظلماء ذات ريح شديد

١ـ الطبري: تاريخ ج ٥ ص ٤٩٨

٢ـ العمري: مسالك الأبصار في ممالك الأمصار ج ١ ص ٩ تحقيق أحمد زكي ، دار الكتب ١٩٢٤

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

صاعق وبرق، فرفع نارا على رأس رمح لينظر الى الناس فأطارتها الريح فوقعت على أستار الكعبة، واستطالت فيها وجهد الناس في اطفائها، فلم يقدروا وأصبحت الكعبة تتهافت)).

ونلاحظ في هذه الروايات باستثناء رواية عوانة بن الحكم، اجماعا على تبرئة الجيش الأموي من مسئولية الحرق، وان اختلفت الروايات في الأسباب التي أدت اليه.

وتبقى قضية الشعر الذي استشهد به عوانة بعد أن ذكر حرق الكعبة، فليس للنار فيه ذكر، ويشير على الأغلب الى محاصرة الكعبة من قبل الحجاج بن يوسف في عهد عبد الملك بن مروان، حين رماها أهل الشام بالحجارة، وكان منهم رجل خثعمي ينشد ذلك البيت من الشعر[1]. وبذلك يمكن أن نستخلص أن عوانة بن الحكم اما أن يكون قد التبس عليه الأمر، وفاته أن يميز بين الحادثتين، واما أن يكون له غرض من نسبة حرق الكعبة الى أهل الشام، وبالتالي ان حادث الحرق قد وقع فعلا، وانه كان قضاء وقدرا على يد ابن الزبير أو أحد اتباعه، وأن ابن الزبير تركها على حالها ((ليراها الناس محترقة يحرضهم على أهل الشام))[2].

استمر الجيش الأموي يحاصر ابن الزبير في مكة حصارا شديدا[3]، ((وكان عبد الله بن عمير الليثي، قاضي ابن الزبير، اذا تواقف الفريقان قام على الكعبة، فنادى بأعلى صوته: ياأهل الشام! هذا حرم الله الذي كان مأمنا في الجاهلية يأمن فيه الطير والصيد، فاتقوا الله ياأهل الشام! فيصيح الشاميون: الطاعة الطاعة! الكرة الكرة! الرواح قبل المساء....))[4].

وأثناء الحصار كان يزيد بن معاوية قد توفي في الرابع عشر من ربيع الأول سنة أربع وستين[5]، بعد أن خلف وراءه آثارا سيئة في الحجاز، من قتل بعض أهل المدينة وأفاضل الناس يوم الحرة، وقتل الحسين بن علي وأهل بيته، ثم حاصر ابن الزبير واستخف بحرمة الكعبة[6].

... انظر البلاذري: أنساب الأشراف ج ٥ ص ٣٥٩

١ ـ انظر المناقشة التي أجراها فلهوزن: تاريخ الدولة العربية ص ١٦٢، ١٦٣

٢ ـ ابن الأثير: الكامل ج ٤ ص ١٢٤

٣ ـ انظر ابن عبد ربه: العقد الفريد ج ٤ ص ٣٩٢ ـ ٣٩٣

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ووصل خبر وفاة يزيد الى مسامع عبد الله بن الزبير قبل أن يعلم بذلك قائد الجيش الأموي حصين بن نمير[1]. فانتهز ابن الزبير تلك الفرصة ليضعف الروح المعنوية عند الجند الشامي فناداهم قائلا:

((ياأهل الشام لماذا تقاتلون وقد هلك طاغيتكم، فجعلوا لايصدقون حتى قدم عليهم ثابت بن المنقع النخعي ... وهو من أهل الكوفة، وكان صديقا للحصين فأخبره بهلاك يزيد))[2]. فصدقوا مقالة ابن الزبير بعد أن ظنوه قد مكر بهم، وعندما تأكد لديهم نبأ وفاة يزيد انفضّوا وذلوا[3]. وترك هذا النبأ أثرا سيئا في نفوسهم لوفاة خليفتهم الذي يحاربون من أجله، وكان هذا الخبر حافزا لقائد الجيش الأموي أن يفكر في بيعة ابن الزبير أمام الظروف الجديدة فجرت بينه وبين ابن الزبير اتصالات ومراسلات فأرسل اليه ابن الزبير عبد الله بن عروة. فلم ترق هذه الفكرة أهل الشام، فقالوا للحصين: ان صاحبك — يعنون مسلم بن عقبة — قد عهد اليك أن لا تمكن قرشيا من أذنك، ولا تسمع منه شيئا، الا أن الحصين رفض نصيحتهم قائلا[4]: نسمع منه وننظر مايقول ومايعرض فان جاءنا بشيء ممن نحب قبلناه. فكانت بداية لتطور موقف الجيش الشامي من ابن الزبير.

موقف الجيش الشامي من عبد الله بن الزبير:

وازاء الظروف الجديدة التي طرأت على الموقف بوفاة يزيد بن معاوية، فكر الحصين بن نمير في حقن الدماء، وأن يتناسى ما فات لمصلحة الجيش والمسلمين اذ رأى أن عبد الله بن الزبير من خيرة المسلمين[5] الذين ترشحهم صفاتهم لتولي الخلافة فقد كان((عفيفا في الاسلام، قارئا للقرآن، صوّاما قواما))[6] لاسيما وأنه ابن حواري رسول الله صلى الله عليه وسلم، وابن أسماء ذات النطاقين.

وحتى يحقق الحصين بن نمير هذه الافكار التي راودت مخيلته، بعث الى ابن الزبير قائلا:((موعد

١ـ انظر ابن كثير: البداية والنهاية ج ٨ ص ٢٢٦

٢ـ البلاذري: أنساب الأشراف ج ٤ ق٢ ص ٥١

٣ـ انظر السيوطي: تاريخ الخلفاء ص ٢٠٩

٤ـ انظر الزبير بن بكار: جمهرة نسب قريش واخبارها ص ٢٦٣ ـ ٢٦٤

٥ـ انظر الدينوري: الأخبار الطوال ص ٢٦٨

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ما بيننا وبينك الليلة الأبطح ، فالتقيا ، فقال له الحصين : ان يك هذا الرجل قد هلك فانت أحق الناس بهذا الأمر ، هلّم فلنبايعك ، ثم أخرج معي الى الشأم ، فان هذا الجند الذين معي هم وجوه أهل الشام وفرسانهم فوالله لايختلف عليك اثنان . ـ ثم بيّن الحصين الشروط التي يشترطها لذلك ، فأضاف :((وتؤمن الناس وتهدر هذه الدماء التي كانت بيننا وبينك والتي كانت بيننا وبين أهل الحرة))(١).

وقد شارك جند الشام قائدهم في رأيه ذلك أنهم فقدوا حماستهم في القتال ولم يعد لهم امام يقاتلون من أجله وباسمه والبيعة باعناقهم ملزمة لهم مادام يزيد حيا . أما وأن يزيد قد مات دون أن يأخذ البيعة منهم لأحد من بعده ، فلم يعد للأمويين من بيعة في أعناقهم . كل هذه الأمور شجعت أهل الشام أن يعرضوا على ابن الزبير البيعة له .

لكن هذا العرض لم يلق قبولا من طرف ابن الزبير ورد على الحصين بن نمير ردا قاسيا وكان مما قال : ((أنا لا أهدر الدماء والله لاأرضى أن اقتل بكل رجل منهم عشرة منكم))(٢).

أمام هذا الاصرار من ابن الزبير رأى الحصين أن يحاول التفاهم معه بطريقة سرية فجعل يكلمه سرا وهو يجهر بالقول :((لا والله لا أفعل))(٣) ، وكان وقع ذلك على الحصين سيئا فقال :((من زعم يا ابن الزبير أنك داهية فهو أحمق ، تكلمك سرا وتكلمني علانية ، أدعوك الى أن استخلفك فترفع الحرب وتزعم أنك تقاتلنا))(٤).

وهكذا فوت ابن الزبير على نفسه الفرصة لينال بيعة الجيش الشامي بعد أن أصبح الطريق ممهدا أمامه ، وأنه كان يستطيع الوصول الى الخلافة لو أنه استمع الى ما أشار به الحصين بن نمير والذي تضمن(ألا يختلف عليه اثنان)(٥) ، خاصة وأن أمر بني أمية مرتبك بالشام نفسها ، فقد مات يزيد بن معاوية(٦) ،

١ـ الطبري : تاريخ ج ٥ ص ٥٠٢

٢ـ ابن الاثير : الكامل ج ٤ ص ١٢٩

٣ـ الطبري : تاريخ ج ٥ ص ٥٠٢

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وخلفه ابنه معاوية الثاني الذي كان صغير السن، ضعيف الشخصية.

خرج الجيش الأموي من مكة واتجه نحو المدينة، فشعر ابن الزبير انه قد تسرع حين رفض اقتراحات الحصين بن نمير، فأرسل الى قائد الجيش العائد الى الشام يقول: ((أما أن أسير الى الشام فلست فاعلا وأكره الخروج من مكة. ولكن بايعوا لي هناك فاني مؤمنكم وعادل فيكم))(١). الا أن الحصين رأى أن الدعوة لابن الزبير أمر غير عملي اذا لم يقدم بنفسه الى الشام، فأرسل اليه: ((أرأيت ان لم تقدم بنفسك ووجدت هناك أناسا كثيرا من هذا البيت يطلبونها يجيبهم الناس فما أنا صانع؟))(٢).

وانتهت المفاوضات بين ابن الزبير وقائد الجيش الأموي الذي وصل الى المدينة، حيث اجتاز أهلها عليهم، ((فمنعوا عامل المدينة الصلاة وتراضوا بسعد القرظ فصلى بالناس))(٣). وبلغ الحصين ابن نمير ((أنهم على محاربته ثانيا))(٤). فقام فيهم روح بن زنباع الجذامي خطيبا فقال: ((يا أهل المدينة، ماهذا الايعاد الذي توعدوننا؟ انا والله ما دعوناكم الى كلب لمهايضة رجل منهم، ولا الى رجل من بلقين، ولا الى رجل من لخم أو جذام، ولا غيرهم من العرب والموالي، ولكن دعوناكم الى هذا الحي من قريش، يعني بني أمية، ثم الى طاعة يزيد بن معاوية، وعلى طاعته قاتلناكم...))(٥)، واضطر أهل الشام، امام العداوة التي أظهرها لهم أهل المدينة الى التجمع في معسكرهم وعدم التفرق حتى خرجوا الى الشام(٦).

كان موقف ابن الزبير من عرض الحصين عليه محل نقد المؤرخين، الذين عابوا على ابن الزبير ذلك الموقف، فعلق سعيد أمير(٧) على ذلك قائلا: ((... ولو كان قد غادر مكة وسار الى الشام

١ـ الطبري: تاريخ ج ٥ ص ٥٠٢

٢ـ المرجع السابق نفس الصفحة.

٣ـ البلاذري: أنساب الأشراف ج ٤ ق ٢ ص ٥١

٤ـ الدينوري: الأخبار الطوال ص ٢٦٨، ابن كثير: البداية والنهاية: ج ٨ ص ٢٢٦

٥ـ المسعودي: مروج الذهب ج ٣ ص ٨٣

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

لا ستطاع أن يقوض دعائم تلك الأسرة، ويستخلص الخلافة لنفسه ولكنه بدلا من ذلك اكتفى بمكة وحدها فأتاح للأمويين فرصة ليوحدوا كلمتهم ويلموا شعثهم)). أما ابن الاثير(١) فقد قال :((ولو خرج معهم ابن الزبير لم يختلف عليه أحد)). كما ذكر الطبري(٢) هذا المعنى قائلا :((.. وأن عبد الله والله لو سار معهم حتى يدخل الشام ما اختلف عليه منهم اثنان ..)).

ومن المؤرخين(٣) من يرى أن ابن الزبير قد أصاب في رفضه دعوة الحصين بن نمير حيث أن ((أهل الشام لا يدينون بالولاء الا للأمويين، وليس لابن الزبير في الشام عصبية وأنصار يعتمد عليهم. كما أن بلاد الحجاز كانت قد عانت كثيرا من الحكم الأموي، وناصر الحجازيون ابن الزبير لأنه أصبح المعارض الوحيد للحكم الأموي، فماذا يكون موقفهم منه لو رأوه يسير مع الأمويين الى حاضرتهم وعلى رأس جيشهم، لا شك أنهم كانوا يتخلون عنه، فيفقد بذلك أنصاره وجنده)).

ويظهر أن هذا الرأي يخالف الحقائق التاريخية التي يرويها المؤرخون، اذ أن أهل الشام كانوا في تلك الآونة(٤) منقسمين على أنفسهم: فريق له هوى في ابن الزبير نفسه يؤيدونه ويناصرونه، ويدعون الناس لمبايعته. والفريق الآخر تباينت الآراء بين أعضائه واختلفت حتى قبل أن شيخ بني أمية، مروان ابن الحكم، رأى أن ينطلق الى الحجاز فيبايع عبد الله بن الزبير، وقتله عبيد الله بن زياد عن ذلك قائلا: ((استحييت لك مما تريد! أنت كبير قريش وسيدها تصنع ما تصنعه))(٥).

ولعل أهل الحجاز الذين كانوا يسعون لاسقاط حكم بني أمية الذين كرهوهم(٦)، لن يعارضوا في خروج ابن الزبير الى الشام ليقضي على المعارضين هناك، حتى يستتب له الأمر ويبايعه الناس وتهدأ الأوضاع. ثم أن ابن الزبير بالخيار حين يعود الى الحجاز فيتخذ مكة أو المدينة حاضرة لدولته. وبالتالي فاننا نرى أن ابن الزبير حين أصر على البقاء في مكة قد أضاع على نفسه فرصة ذهبية فريدة.

١ـ الكامل في التاريخ ج ٤ ص ١٢٠
٢ـ تاريخ الرسل والملوك ج ٥ ص ٥٠٢
٣ـ انظر علي حسني الخربوطلي : الدولة العربية الاسلامية ص ٢٠٧
٤ـ انظر المسعودي : مروج الذهب ج ٣ ص ٨٢

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الفصل الثالث

حالة الحجاز السياسي في عهد الخلفاء الأمويين من بني مروان

ابن الزبير يبسط نفوذه على الأمصار الاسلامية

موقف أهل الحجاز من خلافة عبد الله بن الزبير

نهاية خلافة عبد الله بن الزبير

اخضاع بلاد الحجاز لسيطرة الأمويين

الحالة السياسية في الحجاز بعد مقتل ابن الزبير

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ابن الزبير يبسط نفوذه على الأمصار الاسلامية :

خلف يزيد بعد وفاته ابنه معاوية بن يزيد (١)، ويعرف بمعاوية الثاني، وكان شابا ضعيفا غلب عليه الزهد والتقشف (٢). وكان يعتقد أن جده معاوية بن أبي سفيان سلب علي بن أبي طالب حقه في الخلافة، وبالتالي لم يكن لابيه يزيد حق في الامارة، وأمر بعد ولايته فنودي: الصلاة جامعة، ثم صعد المنبر وحمد الله واثنى عليه وقال: ((أيها الناس ... ان جدي معاوية بن أبي سفيان نازع أمر من كان أولى به منه في القرابة برسول الله، وأحق في الاسلام .... فركب منكم ما تعلمون، وركبتم منه مالا تنكرون، حتى أتته منيته، وصار رهنا بعمله، ثم قلد أبي ... فركب هواه، واستحسن خطأه، فاخلقه الأمل، وقصر عنه الأجل ....)). وفي رواية أخرى (٣) أنه (٤) أضاف :((... اني قد نظرت في أمركم فضعفت عنه، فابتغيت لكم رجلا مثل عمر بن الخطاب رحمه الله حين فزع اليه أبو بكر فلم أجده، فابتغيت لكم ستة في الشورى، مثل ستة عمر، فلم أجدها فأنتم أولى بأمركم، فاختاروا له من أحببتم، ثم دخل منزله، ولم يخرج الى الناس وتغيب حتى مات)).

وخطبة معاوية الثاني هذه، التي أظهر فيها أنه زاهد عن الخلافة، فأعلن بالتالي تنازله عنها، قد كفت المعارضين للدولة الأموية، وعلى رأسهم أهل الحجاز بزعامة ابن الزبير مئونة مهاجمتها، فقد أظهر أن جده وأباه لاحق لهما في الخلافة، وأنهما مغتصبان لها، فتنازل هو عنها، واحتج قائلا: ((فوجدت ذلك لا يسعني فيما بيني وبين ربي، أن أتقدم على قوم فيهم من هو خير مني، وأحقهم بذلك، وأقوى على ما قلدته ...)). ولم يعين من يخلفه (٥)، كما أنه عجز أن يحدد طريقة لاختيار خليفة من بعده (٦). وكانت أيام معاوية الثاني، بعد أن ولي الخلافة قصيرة، فلم يمكث الا أربعين يوما حتى مات.

وشعر الأمويون بحرج الموقف، وخشوا ألا يعهد لأحد منهم بالخلافة، فيتيح بذلك فرصة مواتية

١ـ انظر المسعودي: مروج الذهب ج ٣ ص ٧٢

٢ـ انظر ابن كثير: البداية والنهاية ج ٨ ص ٢٣٧

٣ـ اليعقوبي: تاريخ ج ٢ ص ٢٥٤

٤ـ الطبري: تاريخ ج ٥ ص ٥٣٠ ـ ٥٣١

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

للطامعين في الخلافة ، وعندها ستضطرب الأمور ويشعر الناس بحاجتهم الى خليفة ينقذهم مما هم فيه ، فيقدمون على بيعة ابن الزبير زعيم أهل الحجاز . فتفوت الأمويين الفرصة ، لذلك توجهوا الى معاوية ابن يزيد ، وطلبوا اليه أن يعهد الى واحد منهم بالخلافة فرفض (١) . ولذا يمكن قبول رواية الطبري (٢) ، أنه حين أبى أن يستخلف أحدا ((دس اليه فسقي سما ، وقال بعضهم طعن)) .

وقد تولى مقاليد الأمور في دمشق الضحاك بن قيس الفهري بعد وفاة معاوية الثاني . وكان الضحاك يدعو سرا الى بيعة ابن الزبير (٣) ، الذي علا شأنه نظرا لتغير الظروف لمصلحته اذ كانت وفاة معاوية الثاني وعدم عهده لأحد من أفراد بيته ، سببا في اضطراب أحوال بني أمية وارتباكهم في الشام .

وفي الحجاز انفرد عبد الله بن الزبير بتزعم أهلها لاسقاط خلافة بني أمية ، فقد ركن عبد الله ابن عمر ، وعبد الله بن عباس ، ومحمد بن الحنفية الى الهدوء والطاعة ، منذ أن نجح الوالي الأموي في أخذ بيعتهم ليزيد بن معاوية (٤) ، فخلا الجو ليتزعم ابن الزبير أهل الحجاز الذين مقتوا خلافة التعيين والوراثة ، ونقموا على الأمويين سياستهم الاقتصادية حين اشتروا أجود الأراضي بأبخس الأثمان في الحجاز ، انظر الى أهل المدينة يقولون للوالي الأموي : ((قد علمت أن هذه الأموال كلها لنا ، وأن معاوية آثر علينا في عطائنا ... حتى مضى الزمان ، ونالتنا المجاعة ، فاشتراها منا بجزء من مائة من ثمنها)) (٥) . كما نظروا الى أعطيات الخلفاء الأمويين لهم على انها دون حقهم بكثير ، وعبر عبد الله بن عباس عن هذا الرأى بوضوح حين كتب الى يزيد : ((فلعمري ما توفينا مما في يديك من حقنا الا القليل ، وانك لتحبس عنا منه العريض الطويل)) (٦) .

كما أن صفات عبد الله بن الزبير الشخصية قد ساعدته في اكتساب محبة المسلمين والظفر بتأييدهم خاصة ماعرف به من الصلاح والتقوى ، اذ ((... قسم عبد الله الدهر ثلاث حالات : فليلة قائم حتى الصباح ،

١ــ انظر البلاذري : أنساب الأشراف ج ٤ ــ ف٢ ص٦٥

٢ــ تاريخ الرسل والملوك ج ٥ ص ٥٣١ ، ٦١٠ ، وانظر ابن كثير : البداية والنهاية ج ٨ ص ٢٣٨

٣ــ انظر ابن الاثير : الكامل ج ٤ ص ١٤٥

٤ــ انظر الطبري : تاريخ ج ٥ ص ٣٤٣

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وليلة راكع حتى الصباح ، وليلة ساجد حتى الصباح))[1]. فلا غرابة اذن أن يعلو شأن ابن الزبير وأن يتطلع اليه الناس كحقيق بالخلافة . فأخذ يدعو الناس الى بيعته علنا ، وتسمى بأمير المؤمنين[2] سنة أربع وستين هجرية بعد موت يزيد بن معاوية[3].

وقد كانت الظروف جد مواتية لاعلان خلافة ابن الزبير ، ولم يشعر هو بذلك فحسب بل شاركه الناس في هذا الشعور فمالوا اليه قائلين : ((هو رجل كامل السن وقد نصر أمير المؤمنين عثمان وهو ابن حواري رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأمه بنت أبي بكر بن أبي قحافة ، وله فضل في نفسه ليس لغيره[4])) .

سارع أهل الحجاز الى بيعة ابن الزبير[5] على ((كتاب الله وسنة نبيه وسيرة الخلفاء الصالحين))[6] . وبدأ يتقبل بيعة أهل مكة ، ((وكان القيم بأمر بيعة ابن الزبير بمكة عبد الله بن مطيع العدوي))[7] ، وتلا ذلك بيعة أهل المدينة ، الذين كانوا كأهل مكة في التسابق الى بيعة ابن الزبير . ورأى أهل الحجاز في بيعة ابن الزبير خلاصا من الحكم الأموي لا سيما وأن ذكرى المعارك التي خاضوها ضده مازالت ماثلة في أذهانهم . كما أن بيعة ابن الزبير هي في الواقع عودة بالخلافة الى اقليمهم .

وأراد عبد الله بن الزبير أن يرضي مشاعر أهل الحجاز خاصة أهل المدينة ، فكتب الى عامله على المدينة عبيدة بن الزبير أن ينفي الأمويين منها[8] . فنفذ عبيدة بن الزبير أمر أخيه ، وأبعد الأمويين بعيالهم ونسائهم فرحلوا الى الشام[9] . ولكن نفي الأمويين وان أرضى أهل الحجاز ، الا أنه أضرّ بمصالح ابن الزبير ضررا بالغا ، اذ أتاح لهؤلاء الأمويين أن يفروا من قبضته ، وأن يخرجوا عن دائرة مراقبته ، كما أن خروجهم آنذاك أتاح لهم فرصة مناسبة ، فاشتركوا بفعالية في الأحداث الجارية حين حزموا أمرهم وتدبروا شئونهم ، والتفوا

١ــ ابن الاثير : الكامل ج ٤ ص ٣٦٠
٢ــ انظر اليعقوبي : تاريخ ج ٢ ص ٢٥٥
٣ــ انظر خليفة بن خياط : تاريخ ق ١ ص ٣٢٣
٤ــ البلاذري : أنساب الأشراف ج ٤ ق ٢ ص ٦٥
٥ــ انظر الدينوري : الأخبار الطوال ص ٢٦٤
٦ــ البلاذري : أنساب الأشراف ج ٤ ق ٢ ص ٥٨
٧ــ المسعودي : مروج الذهب ج ٣ ص ٨٤
٨ــ انظر الطبري : تاريخ ج ٥ ص ٥٣٠

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

حول شيخهم مروان بن الحكم، الذي أصبح منافسا عظيم الخطر على ابن الزبير . وأشار اليعقوبي[1] الى ذلك فقال :((أخرج ابن الزبير بني أمية من المدينة، وأخذ مروان بالخروج ، فأتى عبد الملك ابنه ، وهو عليل مجدّر، فقال له : يابني ان ابن الزبير قد أخرجني ! قال : فما يمنعك أن تخرجني معك؟ قال : كيف أخرجك وأنت على هذا الحال ؟ قال : لفني في القطن، فان هذا رأي لم يتعقبه ابن الزبير . فخرج وأخرج عبد الملك، وتعقب ابن الزبير الرأي ، فعلم أنه قد أخطأ، فوجه يردهم ففاتوه)). فكان اخراج بني أمية من الحجاز ضعفا في تدبير ابن الزبير ورأيه[2] .

ولعل ابن الزبير لم يكترث كثيرا باخراج الأمويين من الحجاز ، فقد ((أطاعه أهل الحجاز واليمن والعراق وخراسان ... ولم يبق خارجا عنه الا الشام ومصر فانه بويع بهما معاوية بن يزيد ، فلم تطل مدته ، فلما مات أطاع أهلهما ابن الزبير وبايعوه . ثم خرج مروان بن الحكم فغلب على الشام ثم مصر))[3].

وتجدر ملاحظة أن نفوذ ابن الزبير انتشر في الأمصار الاسلامية المختلفة دونما حرب أو قتال . ففي العراق رأى أهلها خليفتين، أحدهما عبد الله بن الزبير في الحجاز ، وثانيهما مروان بن الحكم الذي بويع له في الشام[4]، فكان عليهم أن يختاروا الدخول في طاعة واحد منهما ، اما مبايعة عبد الله بن الزبير والاعتراف بزعامة الحجاز وبقاء حاضرة الدولة فيها ، واما مبايعة مروان بن الحكم، مما يعني استمرار الحكم الأموي المعروف في العراق، ذلك الحكم الذي عانوا منه الكثير على أيدي زياد وابنه عبيد الله . وازاء ذلك اختار أهل العراق أهون الأمرين فبايعوا عبد الله بن الزبير كما سيأتي . والواقع أن الأحداث التي جرت في كل من البصرين العراقيين : البصرة والكوفة، قد لعبت دورا بارزا في أحداث تلك الفترة . اذ ما أن انتشر نبأ وفاة يزيد حتى تبعه انتشار الفوضى في أقاليم الدولة وظهرت الفتن واستشرى أمر العصبية القبلية ، مما أدى الى سقوط عهد الحكم السفياني .

وفي مدينة البصرة انقسم الناس الى شيع وتنازعت القبائل فيها ، من الأزد وربيعة وتميم وقيس[5]. وكان

١- تاريخ اليعقوبي ج ٢ ص ٢٥٥

٢- انظر أبو الفداء : المختصر في أخبار البشر ج ١ ص ١٩٣

٣- السيوطي : تاريخ الخلفاء ص ٢١٢

٤- انظر ابن كثير : البداية والنهاية ج ٨ ص ٢٤١

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

يحكم مدينة البصرة ، حين توفي يزيد بن معاوية ، عبيد الله بن زياد الذي أصيب حكمه بصدمة عنيفة نتيجة الوفاة . فخفت قبضته ، ولانت سيطرته ، لاضطراب الموقف ، ولم يعد الوالي يجد خليفة يستند اليه في حكمه وسلطانه ، ويستمد منه القوة اذا اشتدت عليه الأمور .(١)(٢)

لذلك رأى عبيد الله بن زياد أن يستبد في حكمه الى حب أهل العراق وتأييدهم فبدأ يتقرب اليهم . وسعى أن يجمع كلمتهم ويوحدهم حتى ينجلي أمر الخلافة ، وبادر فجمع الناس في مسجد البصرة ، وخطبهم ودعاهم أن يختاروا رجلا يتولى أمرهم وقيادة جماعتهم ، فكان أن أظهر المجتمعون موافقتهم على أن يبقى عبيد الله بن زياد في منصب الامارة . ولكن أهل البصرة لم يلبثوا بعد أن خرجوا من مكان الاجتماع أن أخذوا يمسحون أكفهم التي بايعوا بها عبيد الله ، بباب الدار وبالحيطان علامة على رفضهم هذه البيعة قائلين :((أيظن ابن مرجانة أننا ننقاد له في الجماعة والفرقة !))(٣) .

وازاء ذلك واجماع الناس من أهل البصرة على نبذ طاعته وكرههم له ، رأى أن ينجو بحياته ، فخرج هاربا الى الشام ، حيث لعب دورا بارزا في الأحداث التي جرت هناك(٤) .

الا أن خروج ابن زياد من البصرة لم يقض على متاعب أهلها لاشتعال نيران العصبية القبلية بين القبائل القيسية واليمانية ، وتزايد خطر الخوارج الذين خافهم الناس خوفا شديدا(٥) . ثم اتفقوا على اختيار عبد الله بن الحارث الهاشمي أميرا عليهم(٦) ، ولكنه كان ضعيف الشخصية ، كما أن امارته على البصرة لم تمتد الى القضاء على الفوضى فيها ، فعزلوه وفي ((أقل من ستة أشهر أقاموا عليهم نحوا من أربعة أمراء من بينهم))(٧) .

وفي غمرة هذه الفوضى ظهر رجل في سوق البصرة ودعا الناس الى بيعة العائذ بالبيت عبد الله ابن الزبير ، وقال :((أيها الناس هلموا الي ، أدعكم الى مالم يدعكم اليه أحد ، أدعوكم الى العائذ

١ـ انظر المسعودي : مروج الذهب ج ٣ ص٨٤

٢ـ انظر الطبري : تاريخ ج ص٥٠٧

٣ـ ابن الأثير : الكامل ج ٤ ص١٣٢

٤ـ انظر الدينوري : الأخبار الطوال ص ٢٧٠

٥ـ انظر المرجع السابق نفس الصفحة

٦ـ انظر الطبري : تاريخ ج ٥ ص ٥١٤

٧ـ ابن كثير : البداية والنهاية ج ٨ ص٢٣٨

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

بالحرم ...)). فلاقت هذه الدعوة قبولا في البصرة فكتب أهلها الى ابن الزبير يعلمونه أنه أمام لهم (١) ويسألونه أن يوجه اليهم رجلا من قبله يتولى الأمر، فبعث الى أنس بن مالك فولاه الصلاة عليهم (٢) ووافق على اختيارهم المهلب بن أبي صفرة لمحاربة الخوارج (٣)، الذين عاثوا في أرض البصرة فسادا (٤). وجدير بالذكر أن الحكم الزبيري لم يستقر تماما في هذه المدينة، حتى أرسل ابن الزبير أخاه مصعبا واليا عليها (٥).

أما مدينة الكوفة، فقد رفض أهلها دعوة ابن زياد اليهم لينضموا الى أهل البصرة في مبايعته أميرا على المدينتين (٦). بل أنهم حصبوا مبعوثيه الذين حملوا رسالته اليهم (٧). وعزلوا نائبه على الكوفة عمرو بن حريث، وقالوا: ((الحمد لله الذي أطلق أيماننا، لا حاجة لنا في بني أمية، ولا في امارة ابن مرجانة .. انما البيعة لأهل الحجر — يعني أهل الحجاز — فخلع أهل الكوفة ولاية بني أمية، وامارة ابن زياد، وأرادوا أن ينصبوا لهم أميرا الى أن ينظروا في أمرهم)) (٨).

اختار بعض الناس عمر بن سعد بن أبي وقاص (٩) ليتولى أمرهم، الا أن هذا الاختيار لم يلق قبولا اذ اعترضت النساء على هذه التولية لاشتراك عمر بن سعد في حادث مقتل الحسين، فخرجن باكيات وأثر ذلك في نفوس الشيعة، فاسرعوا الى عزل عمر بن سعد، واختاروا عامر بن مسعود القرشي (١٠)، أميرا عليهم، فالوا الى بيعة خليفة الحجاز، وكتبوا اليه بذلك، فقبل منهم وأقر اختيارهم عامر بن مسعود أميرا. فمكث في الامارة مايقارب ثلاثة أشهر. ثم لم يلبث ابن الزبير أن عزله وولى على الكوفة عبد الله بن يزيد الأنصاري على الصلاة، وابراهيم بن محمد بن طلحة على الخراج (١١).

١ — الطبري: تاريخ ج ٥ ص ٥٠٧
٢ — انظر الدينوري: الأخبار الطوال ص ٢٧٠
٣ — انظر ابن كثير: البداية والنهاية ج ٨ ص ٢٣٩
٤ — انظر ابن الأثير: الكامل ج ٤ ص ١٩٦
٥ — انظر المرجع السابق ص ١٣٢
٦ — انظر البلاذري: أنساب الأشراف ج ٤ ق ٢ ص ٩٢
٧ — انظر الطبري: تاريخ ج ٥ ص ٥٢٣
٨ — المسعودي: مروج الذهب ج ٣ ص ٨٤ — ٨٥
٩ — انظر الطبري: تاريخ ج ٥ ص ٥٢٤

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وهكذا بسط ابن الزبير نفوذه على مصر العراق ، وأخذ يرسل ولاته الى تلك البلاد ، واكتملت سيطرته وامتد نفوذه ، واجتمعت تحت حكمه ((العراق والحجاز واليمن وبعث الى مصر فبايعه أهلها ، وبايع له في الشام سرا الضحاك بن قيس ٠٠ وكاد يتم له الأمر بالكلية))(١) ٠

وكان ابن الزبير قد أرسل الى مصر دعاته ، ونجح هؤلاء في استغلال حالة الفوضى التي سادت البلاد بعد وفاة يزيد بن معاوية ، وغياب الحكومة المركزية ، فتمكن دعاة ابن الزبير من كسب بعض المؤيدين ، فتوجه كثير منهم الى مكة وأعلنوا بيعتهم لابن الزبير ، فبعث عبد الرحمن بن جحدم الفهري واليا عليهم من قبله ، فقدم معه :((جماعة كثيرة من الخوارج ، وأظهروا دعوة عبد الله بن الزبير بمصر ، ودعوا الناس لبيعته ، فتابعهم الناس والجند على ما في قلوبهم من الحب في الباطن لبني أمية))(٢) ٠ خاصة وأن أهل مصر قد رأوا أن الأمر استتب لابن الزبير في معظم الأمصار الاسلامية ٠

وقد استمر ابن جحدم الفهري يحكم مصر باسم ابن الزبير تسعة أشهر(٣) ، الى أن أخرجه منها مروان ابن الحكم ، وأخضعها مرة أخرى للحكم الأموي سنة أربع وستين(٤) ٠

وهكذا بايعت الأمصار الاسلامية جميعها ((عدا اقليم الأردن))(٥) عبد الله بن الزبير أميرا للمؤمنين ، وهي بذلك قد بايعت بيعة عامة تمت برضى المسلمين واجماع معظمهم ، وأرسل ابن الزبير ولاته الى تلك الأمصار(٦) ، وأبدى الناس رضاهم عن هؤلاء الولاة ٠ وكان من المنتظر ، تمهيدا لذلك ، أن تنتهي قضية الخلافة لصالح أهل الحجاز ٠ ولكن الأحداث التي جرت في تلك الآونة في بلاد الشام ، قلبت الأوضاع تماما ، ودقت أول مسمار في نعش الخلافة الزبيرية الحجازية ٠

١ـ أبو الفداء : المختصر في أخبار البشر ج ١ ص ١٩٣

٢ـ ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ج ١ ص ١٦٥ ، دار الكتب المصرية ١٩٣٦ م

٣ـ انظر الكندي : ولاة مصر ص ٦٤ تحقيق حسين نصار بيروت ١٩٥٩ م ٠

٤ـ انظر ابن الأثير : الكامل ج ٤ ص ١٥٤

٥ـ انظر البلاذري : أنساب الأشراف ج ٤ ق ٢ ص ٥٩ ، الطبري : تاريخ ج ٥ ص ٥٣٠

٦ـ انظر البلاذري : أنساب الأشراف ج ٤ ق ٢ ص ٥٩

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

انقسم الناس في الشام الى فريقين : فريق تزعمه حسان بن مالك بن بحدل الكلبي بالاردن (١)، وهذا الفريق كان يهوى هوى بني أمية ويدعو لدولتهم، وفي نفس الوقت يحرصون على بقاء الخلافة في بلادهم، وقد قال بعضهم لبعض: ((ان الملك كان فينا أهل الشام، فانتقل عنا الى الحجاز، لا نرضى بذلك))(٢).

أما الفريق الثاني فقد تزعمه الضحاك بن قيس الفهري (٣)، وهذا الفريق يرغب لاعتبارات شتى في بيعة ابن الزبير، ويدعو الناس اليها سرا (٤)، وكان مما يمنعهم من اظهار دعوتهم الى ابن الزبير أن بني أمية كانوا كثرا في دمشق ، ولهم اتباع كثيرون في بلاد الشام كذلك، ومع أن بلاد الشام كانت معقل الحكم الاموي الا أن النفوذ الزبيري تغلغل اليها .

ومن الملاحظ أن ثقل الأطراف المناوئة للدعوة الزبيرية قد دفع الضحاك بن قيس الى كتمان أمر الدعوة خشية القلاقل واقتصر على النشاط السري، ومع ذلك أدرك حسان بن مالك نوايا الضحاك، فكتب اليه كتابا عظم فيه حق بني أمية ، وذكره الطاعة والجماعة وحسن بلاء الأمويين عنده ، وصنيعهم اليه ، ثم دعاه الى التمسك بطاعتهم ، وذكر ابن بحدل في كتابه ابن الزبير وشتمه ، ووصفه بأنه منافق قد خلع خليفتين . ثم أضاف طالبا من الضحاك بن قيس أن يقرأ كتابه الذي أرسله اليه على الناس (٥).

أرسل حسان بن مالك رجلا من بني كلب وحمله كتابه الى الضحاك بن قيس، وفي نفس الوقت أعطاه نسخة أخرى من الكتاب ، وأمره أن يسلم الكتاب للضحاك، فاذا رفض قراءته على الناس فليقرأ هو النسخة التي معه . وكتب حسان بن مالك الى بني أمية يطلب منهم أن يحضروا ذلك (٦). فلما كان يوم الجمعة، صعد الضحاك بن قيس المنبر ، وحدث ما توقع حسان فلم يقرأ الضحاك كتابه على الناس. فلما رأى رسول ابن بحدل ذلك أخرج النسخة التي كانت معه وقرأها على الناس. فلما سمعها الناس الذين كانوا في المسجد انقسموا وهاجم بعضهم ((فقام بعضهم الى بعض في المسجد ، فاقتتلوا ، قيس تدعو الى ابن الزبير ونصرة الضحاك ، وكلب تدعو الى بني أمية ثم الى خالد بن يزيد ويتعصبون ليزيد .....

١ــ انظر اليعقوبي : تاريخ ج ٢ ص ٢٥٥

٢ــ ابن عبد ربه : العقد الفريد ج ٤ ص ٣٩٤

٣ــ انظر ابن كثير : البداية والنهاية ج ٨ ص ٢٣٩

٤ــ انظر ابن قتيبة : المعارف ص ٣٥٣، أبو الفداء : المختصر في أخبار البشر ج ١ ص ١٩٣

٥ــ انظر الطبري : تاريخ ج ٥ ص ٥٣١ ــ ٥٣٢، البلاذري : أنساب الأشراف ج ٥ ص ١٣٢ ــ ١٣٣

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وكان من الأجناد ناس يهوون هوى بني أمية، وناس يهوون هوى ابن الزبير))(١).

ومما زاد في خطورة موقف الأمويين انقسامهم ودخول دعوة ابن الزبير عقر بلادهم، وتنبه لذلك الحصين بن نمير فقال للأمويين: ((نراكم في اختلاط فاقيموا أميركم قبل أن يدخل عليكم شأمكم فتكون فتنة عمياء صمّاء))(٢).

وقد شجع هذا الانقسام الضحاك بن قيس فاشتد في معاملة المعارضين له ، وأمر بحبس الذيـــن أيدوا مقالة حسان بن مالك بن بحدل ، ولكن هذا الأمر لم يتم اذ حالت بنو كلب دون تنفيذه ، بل واعتدوا على رجل من حزب الضحاك لأنه أثنى على ابن الزبير علانية، وقد عرف هذا اليوم عند أهل الشام باسم يوم جيرون(٣).

ويظهر أن الضحاك بن قيس ندم على تصرفاته تلك فبعد هذا الحادث بأيام بعث الى بني أمية خلوا عليه قصر الامارة ، فاعتذر اليهم وقال : انه لا يريد أن يقوم بعمل يكرهونه ، وطلب اليهم أن يكاتبوا ابن بحدل وأن يطلبوا اليه أن يسير من الأردن الى الجابية(٤) ليلتقوا هناك حتى يعملوا بالاتفاق معه على بيعة رجل منهم(٥). ورضيت بنو أمية باقتراحات الضحاك ، وظنوا(٦) أن الأمر سينتهي الى اتفاق بينهم وبينه ، فكتب الأمويون الى حسان بن مالك بن بحدل يخبرونه ، ثم خرج الأمويون ومعهم بعض الناس الى الجابية(٧)، أن الضحاك بن قيس مالبث أن غيّر رأيه ، إثر مجيء رجل من القبائل القيسية يدعى ثور بن معن السلمي(٨) ، ونقل هذا الرجل الى الضحاك غضب القبائل القيسية عليه ، اذا ما أظهر لينا تجاه بني أميـة، وإلغاء القبائل اليمانية أعداء القبائل القيسية . وكان مما قال((انك دعوتنا الى بيعة ابن الزبير فأجبناك ،

---

١ ـ الطبري: تاريخ ج ٥ ص ٥٣٣

٢ ـ ابن الأثير: الكامل ج ٤ ص ١٤٥

٣ ـ انظر ابن كثير: البداية والنهاية ج ٨ ص ٢٤٠

٤ ـ الجابية قرية من أعمال دمشق قرب مرج الصفر في شمال حوران. ياقوت: معجم البلدان ج ٢ ص ٩١

٥ ـ انظر الطبري: تاريخ ج ٥ ص ٥٣٣ ـ ٥٣٤

٦ ـ انظر البلاذري: أنساب الأشراف ج ٥ ص ١٣٣

٧ ـ انظر البلاذري: ج ٥ ص ١٣٤

٨ ـ انظر ابن الأثير: الكامل ج ٤ ص ١٤٧

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وأنت الآن ذاهب الى هذا الأعرابي ليستخلف ابن اخته خالد بن يزيد بن معاوية . فقال له الضحاك وما الرأي؟ قال : الرأي أن نظهر ما كنا نسر وأن ندعو الى طاعة ابن الزبير ونقاتل عليها من أباها))(١).

فأخذ الضحاك بما اقترح عليه ثور بن معد السلفي ، ومال بمن معه من الناس حين سار يريد الجابية للقاء حسان بن مالك ، فعطفهم ، ثم أقبل يسير حتى نزل بمرج راهط(٢) ، وأظهر البيعة لابن الزبير وخلع بني أمية ، وبايعه على ذلك معظم أهل دمشق من أهل اليمن وغيرهم(٣) .

ولم يقتصر الأمر في الشام على مبايعة الضحاك بن قيس لابن الزبير ، بل ((بايع له بحمص النعمان ابن بشير الأنصاري ، وبايع له بقنسرين زفر بن الحارث الكلابي))(٤) ، كما بايع له في فلسطين نائل بن قيس وأخرج الوالي الأموي روح بن زنباع منها(٥) ، أما الاقليم الوحيد الذي بقي أهله على ولائهم للأمويين فكان الأردن(٦) ، بزعامة حسان بن مالك بن بحدل .

دعا حسان بن مالك أهل الأردن الى طاعة بني أمية ، فقالوا :((نحن نبايعك على أن نقاتل من خالفك من الناس ، وأطاع ابن الزبير))(٧) . ولكنهم اشترطوا عليه أن يجنبهم ابني يزيد بن معاوية : عبد الله وخالدا فانهما حديثة أسنانهما وهم كما قالوا : فانا نكره أن يأتينا الناس بشيخ ونأتيهم بصبي(٨) .

وحين وصل الأمويون وأنصارهم الى الجابية جعل حسان بن مالك يصلي بهم والناس يتشاورون ، وانقسمت آراؤهم الى ثلاث فئات : فئة منهم رأت أن مروان بن الحكم هو الشخصية المنشودة فهو ((ابن عم عثمان أمير المؤمنين وشيخ قريش وسنها))(٩) . ورأوا فيه مرشحا ينافسون به ابن الزبير .

١ـ ابن كثير : البداية والنهاية ج ٨ ص ٢٤٠

٢ـ مرج راهط : موضع بنواحي دمشق . ياقوت : معجم البلدان ج ص ١٠١

٣ـ انظر الطبري : تاريخ ج ٥ ص ٥٣٥

٤ـ أبو الفداء : المختصر في أخبار البشر ج ١ ص ١٩٣

٥ـ انظر الطبري : تاريخ ج ٥ ص ٥٣١

٦ـ انظر ابن عبد ربه : العقد الفريد ج ٤ ص ٣٩٣

٧ـ الطبري : تاريخ ج ٥ ص ٥٣١ ـ ٥٣٢

٨ـ انظر ابن الأثير : الكامل ج ٤ ص ١٤٨

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أما الفئة الثانية فقد رأت أن خالد بن يزيد بن معاوية هو المرشح المناسب ((وانه معدن الملك ومقر السياسة والرئاسة))(١)، كما أن خلافته تحقق مصالحهم وكانوا يقولون :((هذا الغلام الذي نحسن ولدنا أباه وهو ابن اختنا ... فانه يحملنا على رقاب العرب غدا))(٢). أما الفئة الثالثة فقد رأت أن ترشح للخلافة عمرو بن سعيد بن العاص(٣).

وبعد جدال طويل عنيف اتفقت الفئات الثلاث على أن يتولى مروان بن الحكم الخلافة ومن بعده خالد بن يزيد بن معاوية ثم عمرو بن سعيد بن العاص. على أن تكون امارة دمشق لعمرو وامارة حمص لخالد. وعلى هذا الأساس بايعوا مروان بن الحكم بالخلافة في الثالث من ذي القعدة سنة أربع وستين للهجرة(٤)، فعزم مروان أن يقضي على أنصار ابن الزبير في الشام، فتوجهت جموع المجتمعين في الجابية نحو مرج راهط.

ولم يكن الضحاك بن قيس هو الوحيد في مرج راهط من مؤيدي الحركة الزبيرية، بل جاءت اليه الامدادات العسكرية من النعمان بن بشير والي حمص، ومن زفر بن الحارث الكلابي والي قنسرين(٥)، ومن ناتل بن قيس والي فلسطين(٦).

والطريف في الأمر أن جيش الضحاك بن قيس كان على رأي واحد، وكل رجاله يريدون ابن الزبير خليفة، ومع ذلك كتب لهم الفشل، وأن بني أمية واتباعهم كانوا من أهواء متفرقة وبينهم ملاسنات ومشاحنات ومع ذلك كان النجاح حليفهم.

وقد جعل مروان على ميمنته عمرو بن سعيد بن العاص، وعلى ميسرته عبيد الله بن زياد، وتألف

١ـ البلاذري: أنساب الأشراف ج ٥ ص ١٢٩

٢ـ الطبري: تاريخ ج ٥ ص ٥٣٦

٣ـ انظر اليعقوبي: تاريخ ج ٢ ص ٢٥٥ ـ ٢٥٦

٤ـ انظر ابن كثير: البداية والنهاية ج ٨ ص ٢٤١

٥ـ انظر اليعقوبي: تاريخ ج ٢ ص ٢٥٦

٦ـ انظر ابن الأثير: الكامل ج ٤ ص ١٤٩

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

هذا بجانب أن بعض أهل الحجاز قد غضبوا على ابن الزبير حين أعلن خلافته إثر وفاة يزيد بن معاوية ، ورأوا في هذا الاعلان تسرعا منه ، اذ كان الأجدر به أن ينتظر حتى يدعوه الناس اليها عن شورى . وقال أحدهم : ((يابن الزبير ماسفكنا الدماء ولا قتلنا الناس الا في ملكك، قال : فمن تبايعون سواي؟ قال : فهلا انتظرت حتى نكون نحن ندعوك؟))(١).

نهاية خلافة عبد الله بن الزبير :

أصبحت أغلب أقاليم العالم الاسلامي ترفع راية ابن الزبير، وتدين بالطاعة له . وغدا هذا هو واقع أقاليم الدولة الاسلامية بعد وفاة يزيد بن معاوية، سيما وأنه لم يكن على رأس البيت الأموي رجل قوي يستطيع أن يركب هذه الموجة، ويستعيد ولاء القبائل وضمها في وحدة تجتمع تحت لوائه . وقد كان هذا هو الحال حين جرت وقعة مرج راهط، والتي كانت بداية للأحداث التي قلبت تلك الأوضاع لصالح البيت الأموي. وسيخسر ابن الزبير هذه الجولة، رغم كل الفرص التي كانت أمامه قبل قليل .

ذلك أن مروان بن الحكم تابع نشاطه بعد أن تمت سيطرته على بلاد الشام، ورأى أن يهتدي بمصر، فهو لم يكن ليستطيع أن يهاجم الحجاز رأس الحركة الزبيرية، في البداية، أو العراق التي كانت مركز الشيعة أعداء الحكم الأموي(٢). أما مصر فقد كانت منذ مصرع عثمان بن عفان، بعيدة عن مجريات الأحداث، ويميل أهلها ـ في الباطن ـ للأمويين، رغم خضوع البلاد للزبيريين(٣).

جرد مروان جيشا بقيادته الى مصر، لطرد عبد الرحمن بن جحدم عامل ابن الزبير عليها(٤)، ونشط ابن جحدم لحرب مروان بن الحكم وهيأ الجيوش لقتاله(٥)، الا أن الهزيمة حلت بأنصار ابن الزبير(٦)، ودخل مروان مصر في جمادى الأولى سنة خمس وستين للهجرة(٧)، وبنى الدار البيضاء بها لتكون مقرا له .

١ـ خليفة بن خياط: تاريخ قسم ١ ص ٣٢٤

٢ـ انظر علي حسني الخربوطلي : تاريخ الدولة العربية الاسلامية ص ٢٣٤

٣ـ انظر ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ج ١ ص ١٦٥

٤ـ انظر ابن الاثير : الكامل ج ٤ ص ١٥٤

٥ـ انظر الكندي: ولاة مصر ص ٦٤

٦ـ انظر البلاذري: أنساب الأشراف ج ٥ ص ١٤٩

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وبعد أن تقبل مروان بيعة الناس في مصر ، عين ابنه عبد العزيز واليا عليها ،[١] وعاد الى دمشق وبالقرب منها بلغه أن ابن الزبير قد بعث أخاه مصعبا الى فلسطين ،[٢] فأرسل اليه عمرو بن سعيد ابن العاص الذي تمكن من التغلب على قوات ابن الزبير ، وعاد عمرو هو الآخر الى دمشق حيث ملأ نصره هذا نفسه بالأماني ،[٣] وأخذ يتحدث للناس بأن الخلافة ستكون له بعد مروان .

أما مروان بن الحكم فما أن وصل الي سدة الحكم حتى عمل مافي وسعه للابقاء على سلطانه ، وعلى توريث هذا السلطان لأولاده من بعده . وما كان زواجه من أم خالد بن يزيد[٤] الا خطوة أولى في هذا السبيل . واستطاع بهذا الزواج السياسي أن يستميل آل يزيد وأن يتخلص بالتالي من مرشحهم للخلافة ، ولم يلبث فترة وجيزة حتى خلعه من ولاية العهد ، وطلب من الناس أن يعقدوا البيعة لابنيه عبد الملك وعبد العزيز من بعده ،[٥] ففعلوا .

وهكذا نجح مروان بن الحكم في توريث الخلافة وحصرها في أسرته . فقد كان كبير السن وموته كان متوقعا في أي وقت وكان ذلك كي لايتفرق الأمويون كما سلف أيام خلافة ابن الزبير اذا ماكانت متبقية لمروان .

ويظهر أن التوفيق الذي حالف مروان بن الحكم في مرج راهط ، وبسط النفوذ الأموي على مصر ونجاح جيش بني أمية في التصدي لجيش مصعب بن الزبير الذي وجهه أخوه عبد الله الى فلسطين .[٦] قد أغراه لاسترداد أمصار أخرى من ابن الزبير وعماله . فأرسل سنة خمس وستين جيشا بقيادة حبيش بن دلجة الى المدينة المنورة .[٧] وكان عليها جابر بن الأسود بن عوف واليا من قبل ابن الزبير ، فأصابه الرعب حين علم بقدوم الجيش الأموي فأسرع بالفرار .[٨]

١ــ انظر المسعودي : مروج الذهب ج ٣ ص ٨٨

٢ــ انظر ابن كثير : البداية والنهاية ج ٨ ص ٢٥٦

٣ــ انظر ابن الأثير : الكامل ج ٤ ص ١٨٩ ــ ١٩٠

٤ــ انظر ابن عبد ربه : العقد الفريد ج ٥ ص ٣٩٨

٥ــ انظر الطبري : تاريخ ج ٥ ص ٦٠٩

٦ــ انظر ابن الأثير : الكامل ج ٤ ص ١٥٤

٧ــ انظر اليعقوبي : تاريخ ج ٢ ص ٢٥٦

٨ــ انظر الطبري : تاريخ ج ٥ ص ٦١١ ــ ٦١٢

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وقبل أن يصل الجيش الأموي الى المدينة، شعر عامل ابن الزبير على البصرة، الحارث بن أبي ربيعة بحرج الموقف اذا تمكن هذا الجيش من الاستيلاء على المدينة، فسارع الى ارسال جيش لمساعدة أهل الحجاز في مقارعة جيش ابن دلجة،(١) فاضطر الجيش الأموي الى تغيير خطته العسكرية فانثنى لمحاربة القادمين من البصرة. وارسل عبد الله بن الزبير العباس بن سهل بن سعد الساعدي الى المدينة أميرا وأمره أن يسير في طلب الجيش الأموي.(٢)

وفي الربذة التقى الجيشان(٣): جيش ابن الزبير، وجيش الأمويين ((وغدوا الى القتال فقتل حبيش ومن معه من أهل الشام، وتحصن من أهل الشام خمسمائة رجل على عمود الربذة وهو الجبل الذي عليها .... وأحاط بهم عباس بن سهل فقال: انزلوا على حكمي، فنزلوا على حكمه، فضرب أعناقهم أجمعين))(٤).

وهكذا فشل جيش مروان بن الحكم في تحقيق غرضه من غزو المدينة، أما أهل المدينة فقد أصابهم السرور لذلك الانتصار، وجعلوا يقولون لقائد ابن الزبير: ((شفيت النفوس وثأرت لنا بقتلى أهل الحرة))(٥).

وحين دخل يزيد بن سنان ـ قاتل حبيش بن دلجة ـ المدينة كان عليه ثياب بيض فاسودت مما مسحه الناس، ومما صبوا عليه من الطيب.(٦) وكان ذلك سنة خمس وستين.

كما مني الجيش الأموي في تلك الفترة بفشل آخر في جبهة العراق حين سيّر مروان عبيد الله بن زياد على رأس جيش الى الجزيرة ومحاربة زفر بن الحارث الذي كان عاملا لابن الزبير على قنسرين ثم اضطره الأمويون الى الهرب الى قرقيسيا،(٧) وكان مروان قد أصدر تعليماته الى ابن زياد أن يقضي على زفر، فاذا فرغ منه توجه الى العراق فانتزعها من ولاة ابن الزبير، وشجعه على حربه بان وعده امارة العراق

١ـ انظر ابن الأثير: الكامل ج ٤ ص ١٩٠

٢ـ انظر الطبري: تاريخ ج ٥ ص ٦١٢

٣ـ انظر البلاذري: أنساب الأشراف ج ٥ ص ١٥٠

٤ـ ابن قتيبة: الامامة والسياسة ج ٢ ص ١٥

٥ـ البلاذري: أنساب الأشراف ج ٥ ص ١٥٤

٦ـ انظر ابن الأثير: الكامل ج ٤ ص ١٩١

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

قائلا: ((ان غلبت على العراق فأنت أميرها))[١]. وفي الطريق الى قرقيسيا علم ابن زياد بوفاة مروان بن الحكم، وتولي ابنه عبد الملك مقاليد الأمور[٢].

وقد بعث عبد الملك الى عبيد الله بن زياد يقرّه على ما ولاه مروان قبل وفاته[٣]، فتقدم عبيد الله ابن زياد نحو العراق هادفا أن يطرد ولاة ابن الزبير عنها. الا أنه جد من الأمور ما اضطره الى تغيير خطته، ذلك أن التوابين ظهروا في الميدان كأعداء جدد لبني أمية.

والتوابون هم شيعة الكوفة الذين ((تلاقوا بالتلاوم والتنادم حين قتل الحسين فلم يغيثوه ورأوا انهم قد أخطأوا خطأ كبيرا، بدعاء الحسين اياهم ولم يجيبوه، ولمقتله الى جانبهم فلم ينصروه، ورأوا انهم لا يغسل عنهم ذلك الجرم الا قتل من قتله أو القتل فيه))[٤]. وندم هؤلاء على موقفهم من الحسين[٥]، وتابوا وسموا أنفسهم بالتالي ((التوابين)). وعندما علم هؤلاء بقدوم ابن زياد نحو العراق، اغتنموا الفرصة، وخرجوا الى قتاله بقيادة سليمان بن صرد الخزاعي[٦].

وفي عين الوردة، التقى جيش ابن زياد والذي كان يقوده الحصين بن نمير السكوني بالتوابين وقبل أن تبدأ المعركة، طلب الجيش الأموي من التوابين أن يبايعوا عبد الملك بن مروان، ودعوهم الى الجماعة. فرد أصحاب سليمان بن صرد وطالبوا بخلع عبد الملك وتسليم ابن زياد اليهم، وأضافوا قائلين: انهم سيخرجون أصحاب ابن الزبير من العراق[٧]. ثم يرد الأمر الى أهل بيت النبي[٨].

أبى كل فريق دعوة الفريق الآخر، فاحتكم الفريقان الى السيف، وانتهت معركة عين الوردة باخفاق التوابين، وقتل عدد كبير منهم في شهر ربيع الثاني سنة خمس وستين[٩].

١- اليعقوبي: تاريخ ج ٢ ص ٢٥٧

٢- انظر الطبري: تاريخ ج ٥ ص ٦١١

٣- كانت وفاة مروان بن الحكم غير طبيعية، اذ أن أرملة يزيد بن معاوية انتقمت منه لاساءته الى ابنها خالد بن يزيد الذي أقصي عن ولاية العهد، فخنقت زوجها مروان بان فطت وجهه بوسادة وضغطت عليها حتى كتمت أنفاسه. وكان ذلك في شهر رمضان سنة ٦٥ هـ. انظر ابن كثير: البداية والنهاية ج ٨ ص ٢٥٧

٤- المسعودي: مروج الذهب ج ٣ ص ٩٣

٥- انظر ابن الأثير: الكامل ج ٤ ص ١٧٧

٦- انظر المرجع السابق ص ١٨١

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

واستمر ابن زياد في زحفه نحو بلاد العراق. وكان المختار بن أبي عبيد الثقفي قد ظهر حينذاك بالكوفة، وزعم للشيعة أنه وزير وداعية محمد بن علي بن أبي طالب.(١) كما نجح في أن يجمع حوله فلول التوابين الذين نجوا من معركة عين الوردة.(٢) وأعلن للشيعة أن سيثأر لمقتل الحسين، وانه سوف يقتل المسئول عن قتله، عبيد الله بن زياد، ثم وثب في الكوفة بتأييد الشيعة وأخرج منها عامل ابن الزبير،(٣) ولم يلبث طويلا حتى فتك بالذين اشتركوا في قتل الحسين كشمر بن ذي الجوشن وعمر بن سعد وابنه حفص وغيرهم.(٤)

والواقع أن حركة المختار كانت تتلخص في رغبته في أن يكون له ذكر نابه بين العرب، ولخص ذلك بقوله ((انما أنا رجل من العرب رأيت ابن الزبير انتزى على الحجاز، ورأيت نجدة انتزى على اليمامة ومروان على الشام، فلم أكن دون أحد من رجال العرب، فأخذت هذه البلاد، فكنت كأحدهم))(٥).

انشغل جيش عبيد الله بن زياد بمحاصرة زفر بن الحارث الكلابي، ولما لم يتمكن من احراز نصر ملموس، توجه الى الموصل في طريقه الى الاستيلاء على العراق، فتصدّى له ابراهيم بن الأشتر،(٦) قائد جيش المختار، والتقى به على شاطئ الخازر،(٧) وتمكن جيش المختار من احراز النصر، وقتل عبيد الله ابن زياد، وأرسل ابراهيم بن الأشتر رأسه الى المختار، كما قتل الحصين بن نمير، وعدد من كبار رجالات الشام سنة ٦٧ هـ.

ولم يهنأ المختار بهذا الظفر طويلا، اذ أن مصعب بن الزبير والي البصرة لأخيه عبد الله،(٨) لم يلبث أن هاجم المختار، واضطره بعد معركتين داميتين أن يعتصم في قصر الكوفة، حيث حاصرته قوات ابن الزبير بقيادة مصعب، ودافع المختار وجنوده عن أنفسهم دفاعا دام أربعة أشهر، قتل بعدها المختار في رمضان سنة ٦٧ هـ.(٩)

١ـ انظر النوبختي: فرق الشيعة ص ٢٤
٢ـ انظر الطبري: تاريخ ج ٦ ص ٨
٣ـ انظر اليعقوبي: تاريخ ج ٢ ص ٢٥٨ ـ ٢٥٩ وانظر ابن قتيبة: المعارف ص ٣٥٦
٤ـ انظر ابن قتيبة: المعارف ص ٤٠١، ابو الفداء: المختصر ج ١ ص ١٩٤ ـ ١٩٥
٥ـ الطبري: تاريخ ج ٦ ص ١٠٧
٦ـ انظر ابن الاثير: الكامل ج ٤ ص ٢٦١
٧ـ الخازر: نهر بين اربل والموصل ثم بين الزاب الأعلى والموصل. ياقوت: معجم البلدان ج ٢ ص ٣٧٠

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ولا بد لنا من ملاحظة أن انتصار جيش المختار على الجيش الأموي ، قد وفر على ولاة ابن الزبير أن يلتقوا بذلك الجيش، كما أن هذا الانتصار قد جعل هؤلاء الولاة يقفون وجها لوجه أمام المختار بن أبي عبيد الثقفي . فبدأ الصراع بين الفريقين ، وانتهى أخيرا بانتصار ولاة ابن الزبير، وجعل هذا الصراع على أرض العراق بين الفئات المتنافسة، عبد الملك بن مروان تقرير العين((وترك الأحزاب العراقية تحترب ويفند بعضها بعضا))(١). وسوف تقابل الجيوش الأموية مصعب بن الزبير وقد أنهكت قواه مما سهل أمر القضاء عليه .

أما مصعب بن الزبير ، فقد بسط النفوذ الزبيري على العراق بعد أن قتل المختار ((وغدا سلطان ابن الزبير في العراق وما بين النهرين لا ينازعه فيه أي منازع ، كما قدمت اليه خراسان طاعتها))(٢)، الا أن هذا الحكم لم يكن موطد الأركان، فقد أصبح عبد الملك بن مروان ، بعد توليه الخلافة في الشام خصما لدودا وعنيدا للخلافة الزبيرية، خاصة وقد امتاز برجاحة العقل والقدرة على تصريف الأمور، وكان ثابت الجأش لا تزعزعه الشدائد ، ورجل لديه هذه الصفات جدير بأن يتخلص من العقبات التي كانت تحيط به فواجهها بشجاعة مكنته من الانتصار .

ومن أهم الأحداث التي واجهت عبد الملك بن مروان ، وهو يعد العدة للصراع مع ابن الزبير، ثورة عمرو بن سعيد بن العاص الذي كان يطمع في تولي الخلافة، حسب الاتفاقية التي أبرمها الأمويون وأنصارهم(٣) في الجابية، وما اتخذوا فيها من قرارات ، يومذاك لصالح عمرو بن سعيد .

والواقع أن عمرو بن سعيد هذا قد بذل كثيرا من الجهد لتدعيم خلافة مروان، وظن أن مروان سيكافئه فيعهد اليه الخلافة، وعندما قوى مركز مروان نقض اتفاقية الجابية وعهد الى ابنيه عبد الملك وعبد العزيز، مما ولد المرارة والحقد في نفس عمرو بن سعيد ، فانتهز فرصة خروج عبد الملك بن مروان لقتال مصعب بن الزبير بالعراق سنة ٦٩ هـ ، فأعلن عمرو الثورة في دمشق انتقاما من آل مروان، وأخرج عبد الرحمن بن أم الحكم منها وكان خليفة عبد الملك عليها(٤) . الا أن عبد الملك عاد بسرعة الى دمشق واستطاع في حملة

١ــ سيديو : تاريخ العرب العام ص ١٤٨

٢ــ سيد أمير علي : مختصر تاريخ العرب والتمدن الاسلامي ص ٨٠

٣ــ انظر المسعودي : مروج الذهب ج ٣ ص ١٠٢

٤ ــ انظر خليفة بن خياط : تاريخ ق ١ ص ٣٣٧

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

مشهورة أن يحتز رأس عمرو بن سعيد (١).

وبعد أن اطمئن عبد الملك بن مروان الى سلامة الجبهة الداخلية، وأمن حدود بلاده الشمالية بالهدنة مع امبراطور بيزنطة، حزم أمره (٢) لانهاء الصراع مع ابن الزبير، واخضاع الاقاليم التي تتبع سلطانه، وكانت الخطوة الأولى في هذا الصدد العراق، التي غدت ظروفها مواتية لانتزاعها من ولاة ابن الزبير.

وقد حرص ابن الزبير على بقاء العراق خاضعا لنفوذه، ودفعه هذا الحرص أن يبعث اليها رجلا على جانب من الدهاء والمقدرة، خاصة وأن العراق قد ماجت بالفتن، وانتزى المختار بن أبي عبيد على الكوفة (٣)، وهدد الحركة الزبيرية هناك، فعزل ابن الزبير الحارث بن أبي ربيعة عن حكم البصرة، وعهد الى أخيه مصعب بامارتها وتنفيذ الخطة التي رسمها له.

ولا بد من الاشارة الى أن حالة العراق في ظل الحكم الزبيري، والأحداث التي وقعت أثناء ذلك جعلت البلاد مفككة ضعيفة، فكانت لقمة سائغة أمام جيوش أهل الشام.

قدم مصعب بن الزبير الى البصرة واتجه الى المسجد، وخطب الناس خطبة أبان فيها عن السياسة التي يريد اتباعها، والتي كانت تنطوي على الحزم والشدة، فقال: ((يا أهل البصرة بلغني أنكم تلقبون أمراءكم (٤)، وقد لقبت نفسي بالجزار))(٥).

وفي تلك الأثناء كان المختار بن أبي عبيد قد انتهج سياسة أغضبت أشراف أهل الكوفة العرب، فقد اعتمد على الموالي وقربهم اليه، فحاول أشراف أهل الكوفة معارضته فيما انتهج من سياسة أهدرت حقوقهم، فتوجه اليه أحد زعمائهم شبث بن ربعي بالشكوى قائلا: ((عمدت الى موالينا، وهم في أفاء الله علينا وهذه البلاد جميعا، فأعتقنا رقابهم، نأمل الأجر في ذلك والثواب والشكر، فلم ترض لهم بذلك حتى جعلتهم شركاءنا في فيئنا))(٦). ولم تجد تلك الشكوى شيئا، فقدم أشراف الكوفة على مصعب بن الزبير في البصرة يشكون المختار ويستنكرون سياسته فيهم، ويطلبون من والي أمير المؤمنين، عبد الله بن الزبير أن يكفيهم المختار.

١ــ انظر الطبري: تاريخ ج ٦ ص ١٤٠ ــ ١٤٥
٢ــ انظر ابن الاثير: الكامل ج ٤ ص ٣٠٦
٣ــ انظر الطبري: تاريخ ج ٦ ص ٩٣

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

استجاب مصعب بن الزبير لطلب هؤلاء الأشراف ، فأرسل الى المهلب بن أبي صفرة، يستدعيه من فارس ((فقدم بجموع كثيرة وأموال عظيمة))[١]، وتقدم مصعب لحرب المختار، واحتشدت جيوشه عند الجسر الأكبر بالقرب من البصرة، ولجأ الى وسيلة في الحرب مؤثرة فقد أرسل عبد الرحمن بن مخنف الى الكوفة ، ليثبط الناس عن تأييد المختار، كما أناط به مصعب مهمة أخرى، هي الدعوة الى بيعة ابن الزبير سرا[٢].

ولم تفت استعدادات مصعب العسكرية المختار بن أبي عبيد ، فتنبه لها واستعد لمواجهة جيش مصعب، فجمع جنده[٣] ، وندب أتباعه الى الخروج مع أحمر بن شميط.

وصل مصعب بن الزبير على رأس جيشه الى الكوفة ، والتقى الجمعان في اشتباك عنيف، انتهى بانتصار مصعب وصرع أحمر بن شميط قائد جيش المختار، وعندما علم المختار بأنباء هذه الهزيمة خرج بنفسه للقاء جيش ابن الزبير، والتقى به عند حروراء وجرى القتال بين الجيشين، وحمي الوطيس فانهزم جيش المختار وتراجع الى الكوفة، حيث تحصن في قصر الامارة. ففرض مصعب عليهم الحصار ، وأصبح دفاع المختار وجنوده بدون جدوى[٤].

وحين تمكن مصعب منهم أسرف في القتل ، مما أثار مشاعر البعض خاصة الشيعة ضد الحركة الزبيرية روى اليعقوبي[٥] أن المختار ((لم يزل يقاتلهم أشد قتال يكون حتى قتل، ودخل أصحابه الى القصر فتحصنوا ، وهم سبعة الاف رجل ، فأعطاهم مصعب الأمان ... فخرجوا على ذلك ، فقدمهم رجلا رجلا فضرب أعناقهم ، فكانت احدى الغدرات المذكورة في الاسلام)). أو هي هكذا اعتبرت من وجهة نظر الشيعة في وقت كان مصعب في حاجة ماسة لاستمالتهم وتأييدهم اياه في حربه المقبلة مع الأمويين، فكان قتله لهم في غير صالحه.

كما نجد أن بعض أهل الحجاز قد استنكروا هذا الحادث بشدة، فقد لقي مصعب عبد الله بن عمر، فسلم عليه وقال :((أنا ابن أخيك مصعب. فقال ابن عمر : أنت القاتل سبعة الاف من أهل القبلة في غداة

١ـ ابو الفداء : المختصر في أخبار البشر ج ١ ص ١٦٥

٢ـ انظر ابن الاثير : الكامل ج ٤ ص ٢٦٨

٣ـ انظر البلاذري : أنساب الأشراف ج ٥ ص ٢٥٣

٤ـ انظر الطبري : تاريخ ج ٦ ص ١١٤ ـ ١١٦

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

واحدة غير ما بدا لك . فقال مصعب : انهم كانوا كفرة فجرة . فقال : والله لو قتلت عدتهم غنما من تراث أبيك لكان ذلك سرفا))[1] .

كما أن قضاء مصعب على شخص المختار لم يكن نهاية المطاف لحركته ، بل أنها تركت آثارا سياسية لعبت دورا واضحا في التاريخ الاسلامي ، وآثارا دينية في نفوس الكثيرين من الشيعة ، بجانب الجراحات والحزازات التي خلفتها في أهل العراق ، وكانت تلك الحرب بلا شك في مصلحة الأمويين حيث أخذ أهل العراق ((يقتتلون ويفني بعضهم بعضا))[2] . فلم يلبث مصعب طويلا بهذه الجبهة حتى اضطر لدخول صراع جديد مع الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان الذي كان في وضع يختلف اختلافا بيّنا عن وضع مصعب بن الزبير .

كان عبد الله بن الزبير يعلم أن عبد الملك بن مروان قد تخلص من المشاكل الداخلية ، وأنه بالتالي سيبدأ العمل على انتزاع العراق من أيدي ولاته ، خاصة وقد أذعنت بلاد الشام ومصر بالطاعة للمروانيين . ولم يبق بيد ابن الزبير من الأمصار الكبرى سوى الحجاز والعراق . وفي العراق انهكت قوى ابن الزبير في محاربة الخوارج والمختار بن أبي عبيد ، وكان المرء يتوقع أن يسارع عبد الله بن الزبير الى امداد أخيه بالأموال والرجال كي يتمكن من مقارعة الأمويين . ولكن عبد الله بن الزبير بدل ذلك عزل أخاه مصعبا في سنة سبع وستين هجرية وولى ابنه حمزة بن عبد الله البصرة[3] . فأساء بذلك الى الموجود الزبيري في العراق .

ولم يكن حمزة بن عبد الله كفوءا لتحمل المسئولية التي ألقيت على عاتقه ، فقد كان ((من أضعف الناس وأقلهم علما بالأمر))[4] . كما وصفه بعض المؤرخين بقوله[5] : ((.... وكان حمزة جوادا مخلطا يجود أحيانا حتى لا يدع شيئا يملكه ، ويمنع أحيانا مالا يمنع مثله ، وظهر منه بالبصرة خفة وضعف .

ولا شك أن عزل مصعب قد أضعف مركز ابن الزبير في العراق التي تحتاج الى حاكم قوي لا خفة فيه ولا ضعف ، لديه من القدرة والحنكة مايعيد الى البلاد وحدتها وقوتها ويستعد للهجوم الأموي

١ــ ابن الاثير : الكامل ج ٤ ص ٢٧٨

٢ــ فلهوزن : تاريخ الدولة العربية ص ١٨٣

٣ــ انظر ابن كثير : البداية والنهاية ج ٨ ص ٢٩٣ .

٤ــ اليعقوبي : تاريخ ج ٢ ص ٢٦٤

٥ــ ابن الاثير : الكامل ج ٤ ص ٢٧٩

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

المرتقب خاصة وأن مصعبا كان يتمتع بحسن السيرة والحزم السياسي على عكس ابن أخيه حمزه الذي قال فيه أبوه :((... أبعده الله إ أردت أن أباهي به بني مروان فنكص))(١) اذ خيب الابن ظن الاب فاحتمل مالا كثيرا من مال البصرة ثم أضاعه في المدينة حين جحده الرجال الذين استودعهم اياه .(٢)

ولم يحسن حمزة بن عبد الله التصرف في الولاية التي أسند اليه حكمها ، مما أوغر صدور زعماء أهل البصرة عليه حين قصر بهم فكتبوا الى خليفتهم بمكة المكرمة وسألوه عزل حمزة فاستجاب لطلبهم .(٣)

وأعاد الى العراق أميرا أخاه مصعبا ،(٤) بعد أن حكم حمزة ، الذى قارب السنة ، مال خلالها بعض زعماء العراق الى بني مروان .(٥) وبدأ عبد الملك يتأهب للحرب ويستعد لها .

نصح عبد الملك المقربون اليه ألا يخرج بنفسه لقتال مصعب وأشاروا عليه أن يولي غيره هذه المهمة قائلين :((ياأمير المؤمنين ، لو أقمت مكانك وبعثت على هؤلاء الجيوش رجلا من أهل بيتك ثم سرحته الى مصعب))(٦) ولم ترق الفكرة عبد الملك بن مروان فاصر على قيادة الجيش بنفسه قائلا :((ان لا يقوم بهذا الأمر الا قرشي له رأي . ولعلي أبحث من له شجاعة ولا رأي له . واني بصير بالحرب شجاع بالسيف ان احتجت اليه .(٧) ومصعب شجاع من بيت شجاعة ولكنه لا علم له بالحرب يحب الخفض ومعه من يخالفه ومعي من ينصح لي))(٨) . وتهدو خبرة عبد الملك بن مروان بأمور الملك وثقته بنفسه واقدامه واضحة في قوله هذا .

تقدم عبد الملك نحو العراق سنة احدى وسبعين هجرية ، وفي الطريق اليها حقق خطوة نحو النصر حين نجح في ضم القبائل القيسية اليه بزعامة زفر بن الحارث بالجزيرة .(٩)

١ــ الطبري : تاريخ ج ٦ ص ١١٨

٢ــ انظر ابن الاثير : الكامل ج ٤ ص ٢٧٩

٣ــ انظر ابن كثير : الهداية والنهاية ج ٨ ص ٢٩٣

٤ــ انظر الطبري : تاريخ ج ٦ ص ١١٩

٥ــ انظر ابن الاثير : الكامل ج ٤ ص ٣٢٣

٦ــ الطبري : تاريخ ج ٦ ص ١٥٧

٧ــ الخفض : الدعة . الفيروز آبادي : القاموس ج ٣ ص ٣٤١

٨ــ ابن الاثير : الكامل ج ٤ ص ٣٢٣

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وعندما علم مصعب بن الزبير بتحركات عبد الملك بن مروان العسكرية، خرج حتى نزل باجميرا (١)، والتقى الخصمان عند دير الجاثليق. واستطاع عبد الملك أن يستفيد من الخصومات داخل جيش مصعب، الذي كانت تتناسمه عصبيات مختلفة، كما كان بالجيش بعض الشيعة الذين ساءهم قتل المختار واتباعه بالكوفة (٢)، ومازالوا حاقدين على الحكم الزبيري. وبعد معركة حامية قتل ابراهيم بن الأشتر قائد مصعب الشجاع والباسل (٣)، ودارت الدائرة على مصعب نفسه وأدرك أن هزيمته بدت وشيكة بعد أن خذله العراقيون (٤) ((وتخلى عنه من كان معه من مضر واليمن)). ولكن مصعبا فضل أن يموت بشرف وشجاعة نادرة المثال، واقتدى به ابنه عيسى الذي كان بجواره، وقال الأب لابنه : يابني، اركب أنت ومن معك إلى عمك بمكة، فأخبره بما صنع أهل العراق، ودعني فاني مقتول. الا أنه عز على عيسى أن يترك أباه، فقال : والله لا أخبر قريشا عنك أبدا، ولكن ان أردت فألحق بالمصرة فهم على الجماعة، أو الحق بأمير المؤمنين (٥).

أصر مصعب على الاستمرار فقال لابنه :((والله لا تتحدث قريش أني فررت بما صنعت ربيعة من خذلانها حتى أدخل الحوم منهزما. ولكن أقاتل، فان قتلت فلعمري ما السيف بعار وما الفرار لي بعادة ولا خلق ولكن ان أردت أن ترجع فارجع فقاتل. فرجع فقاتل حتى قتل (٦))).

ورغم أن عبد الملك بن مروان قد عرض الأمان على مصعب بن الزبير (٧)، إلا أنه رفض أمان عبد الملك واستمر يقاتل حتى النهاية (٨). ووصف ابن الأثير هذه النهاية قائلا :((ترك الناس مصعبا وخذلوه، حتى بقي في سبعة أنفس، واثخن مصعب بالرمي، وكثرت الجراحات فيه، فعاد الى عبيد الله بن زياد بن ظبيان

١ــ باجميرا : موضع دون تكريت. انظر ياقوت: معجم البلدان ج ١ ص ٣١٤

٢ــ انظر الدينوري: الأخبار الطوال ص ٣١٣

٣ــ انظر ابن واصل الحموي: تجريد الأغاني القسم ٢ ج ٢ ص ٢٠١٢

٤ــ المسعودي: مروج الذهب ج ٣ ص ١٠٧

٥ــ انظر ابن خلدون: العبر ج ٣ ص ٣٤

٦ــ الطبري: تاريخ ج ٦ ص ١٥٨

٧ــ كان عبد الملك يحب مصعبا حبا شديدا، وكان خليلا له قبل الخلافة، فقال لأخيه محمد : اذهب اليه فامنه فجاءه فقال : يامصعب قد أمنك ابن عمك على نفسك وولدك ومالك وأهلك فرفض مصعب

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فضربه مصعب فلم يصنع شيئا لضعفه بكثرة الجراحات وضربه ابن ظبيان فقتله : وقيل : بل نظر اليه زائدة بن قدامة الثقفي ، فحمل عليه فطعنه وقال : يالثارات المختار فصرعه))• وروي أن قاتل مصعب رفض قبض مكافأة عبد الملك له ، قائلا :((اني لم اقتله على طاعتك، انما قتلته على وتر صنعه بي))(١)•

وبمقتل مصعب تحققت الانتصارات لعبد الملك بن مروان، فتوجه الى الكوفة حين هرع اليه أهلها يبايعون، وارتقى منبر الكوفة، وخطب الناس فوعد المحسن وتوعد المسيء وقال :((ان عبد الله بن الزبير لوكان خليفة كما يزعم لخرج فآسى بنفسه ، ولم يغرز ذنبه في الحرم، ثم قال : اني قد استعملت عليكم بشر بن مروان، وأمرته بالاحسان الى أهل الطاعة والشدة على أهل المعصية، فاسمعوا له واطيعوا))(٢)•

وخرج العراق نهائيا من قبضة ابن الزبير، وخضع مرة أخرى لسلطة الأمويين الذين حرصوا على تحقيق هذه الغاية، وهيأوا لها الأسباب، فقد حشد عبد الملك بن مروان كل امكانياته الحربية لمعركة — كما تصورها — فاصلة• فعبأ قوى الشام في صفوفه ، وجمعها حول شخصه • وظهر في جيشه رجال ساعدوه على تحقيق رغبته • ذكر ابن قتيبة(٣) أن عبد الملك حين أراد الخروج الى مصعب جعل يستنفر أهل الشام فيبطئون عليه ، فقال له الحجاج بن يوسف ، وكان يومذاك في حرس أبان بن مروان، ياأمير المؤمنين سلطني عليهم، فأعطاه ذلك، فكان لا يمر على بيت رجل من أهل الشام تخلف الا أحرق عليه بيته ، فلما رأى ذلك أهل الشام خرجوا •

أما مصعب بن الزبير فقد كان في وضع يختلف ، ويبدو أنه استهان بقوة خصمه ، اذ كان عليه أن يحشد كل امكانياته الحربية من عدد وعدة ، ولكنه بعشر خيرة قادته وجنده في ميادين شتى متباعدة• وأورد الطبري(٤) صورة ذلك قائلا :((... أخبر ابن خازم بمسير مصعب الى عبد الملك ،

١ــ الطبري: تاريخ ج ٦ ص ١٥٩
٢ــ انظر ابن خلدون : العبر ج ٣ ص ٣٤
٣ــ الطبري: تاريخ ج ٦ ص ١٦٤
٤ــ الامامة والسياسة ج ٢ ص ٣٥
٥ــ تاريخ الرسل والملوك ج ٦ ص ١٥٨

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فقال : أمعه عمر بن عبيد الله بن معمر ؟ قيل : لا ، استعمله على فارس. قال : أمعه المهلب بن أبي صفرة ؟ قيل :لا استعمله على الموصل . قال : أمعه عباد بن الحصين ؟ قيل : لا استعمله على البصرة . فقال : وأنا بخراسان .

خذيني فجريني جعار وأبشري بلحم امرئ لم يشهد اليوم ناصره)) .

وهكذا كانت القوى الزبيرية موزعة على الأمصار، وقادة مصعب الأكفاء بعيدين عنه ، وانشغل المهلب بن أبي صفرة بحرب الخوارج (١) ، ذلك أن مصعبا كان مضطرا لمحاربة الخوارج (١) ، فأراد أن يؤمن جيشه وتحاشى أن يقع بين فكي كماشة، جيش عبد الملك يحاربه ويغزوه ، وجيش الخوارج ينشر الفزع ويعيث الفساد في الأرض. وأهم من هذا أن أهل البصرة كانوا في فزع من الخوارج (٢) ، وغاراتهم الشديدة . ولذلك أصروا على مصعب أن يقاتل الخوارج ، وخشي مصعب ان هو رفض طلبهم (٣) ، أن يثير مخاوفهم وسخطهم في وقت هو في مسيس الحاجة الى مؤازرتهم لحرب الجيش الأموي . وذكر أنه عندما ((سار عبد الملك الى العراق ... وبلغ مصعبا مسيره وهو بالبصرة، أرسل الى المهلب وهو يقاتل الخوارج يستشيره ، وقيل : بل أحضره عنده ، فقال لمصعب : اعلم أن أهل العراق قد كاتبوا عبد الملك وكاتبهم فلا تبعدني عنك . فقال له مصعب : ان أهل البصرة قد أبوا أن يسيروا حتى أجعلك على قتال الخوارج (٤) وهم قد بلغوا سوق الأهواز ، وأنا أكره اذ سار عبد الملك الي أن لا أسير اليه . فاكفني هذا الثغر)) .

فعاد المهلب الى قتال الخوارج ، وخسر مصعب كفاءة هذا القائد الشجاع مما أسهم في هزيمته .

ولم يقتصر وضع مصعب على ذلك فحسب ، بل غدر زعماء المصريين به (٥) ، ومالوا الى عبد الملك وكتبوا اليه أن سر الينا . ثم انه حين اقبل نحوهم كتب الى رؤساء أهل العراق، وكبار أنصار (٦)

١ــ انظر الدينوري : الأخبار الطوال ص ٢٧٥

٢ــ انظر البلاذري : أنساب الأشراف ج ٥ ص ٣٣٥

٣ــ انظر ابن الأثير : الكامل ج ٤ ص ٣٢٤

٤ــ ابن الأثير : الكامل ج ٤ ص ٣٢٤

٥ــ انظر الدينوري : الأخبار الطوال ص ٣١١

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

مصعب، ومناهم بالمناصب العالية والصلات ، وحق عليهم قول الأحنف بن قيس يصفهم لمصعب: ((لا تثق بأهل العراق عدوا ، فانهم كالموسة تريد كل يوم بصلا ، وهم يريدون كل يوم أميرا))(١)، فاخفى كل منهم كتاب عبد الملك اليه ، الا ابراهيم بن الاشتر(٢)، قائد مصعب المخلص . الذي أبى حتى أن يفتح الكتاب وينظر مافيه ، بل هرع بكتاب عبد الملك الى مصعب، وعرضه عليه ، وحذره من خيانة رؤساء جنده وأشار عليه أن يضرب أعناق المشتبه بهم، أو على الاقل فليحبسهم حتى تنجلي نتيجة المعركة، ولكن مصعبا أبى ذلك أيضا(٣). فخانه العراقيون وخذلوه حين بدأت المعركة، ورفضوا تنفيذ أوامره . فقد قال مصعب لقطن ابن عبد الله الحارثي :((قدم خيلك أبا عثمان . فقال : أكره أن تقتل مذحج في غير شيء . فقال لحجار ابن أبجر : يا أبا أسيد قدم خيلك . قال : الى هؤلاء الاتتان! قال : ماتتأخر اليه أنتن! فقال لمحمد بن عبد الرحمن بن سعيد مثل ذلك، فقال : ما فعل أحد هذا فافعله . فقال مصعب : يا ابراهيم ولا ابراهيم لي اليوم ... !))(٤).

والواقع أن أهل العراق لم يهمهم الا استقلال بلادهم(٥)، وحين أدركوا حقيقة قوة عبد الملك بن مروان رأوا أن يخلدوا للهدوء والسلام(٦)، طلبا للعافية والسلامة، اذ لم يكن لهم رغبة في القتال ((وهم لم يكونوا قط قد تعودوا التزام النظام والطاعة ، ولم يتعلموا من الحروب الحزبية المروّعة التي وقعت بينهم فيما السنين السابقة على ذلك، ولم يكن عندهم شيء من الوفاء السياسي والحربي))(٧). ولم تؤثر صيحة قيس بن الهيثم في نفوسهم شيئا حين صاح فيهم : ((ويحكم لا تدخلوا أهل الشام عليكم! فوالله لئن تطعموا بعيشكم ليضيقن عليكم منازلكم . والله لقد رأيت سيد أهل الشام على باب الخليفة يغرر ان أرسله في حاجة، ولقد رأيتنا في الصوائف وان زاد أحدنا على عدة أجمال، وأن الرجل من وجوههم ليغزو على فرسه وزاده خلفه))(٨).

١ــ البلاذري : أنساب الأشراف ج ٥ ص ٣٤٠

٢ــ انظر ابن كثير : البداية والنهاية ج ٨ ص ٣١٥

٣ــ انظر الطبري : تاريخ ج ٦ ص ١٥٧

٤ــ ابن الأثير : الكامل ج ٤ ص ٣٢٦

٥ــ انظر علي حسني الخربوطلي : تاريخ العراق ص ١٥٦

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وبالرغم من هذه النصيحة، فقد مال الناس الى الصلح وعدم القتال، وخير من يمثل هذا الموقف زفر بن الحارث الذي ولاه عبد الله بن الزبير على قنسرين، فهرب تحت ضغط السيف الأموية الى قرقيسيا(١)، فحاصره عبد الملك، ثم هادنه وبايعه زفر وأرسل ابنه الهذيل في جند عبد الملك لقتال مصعب بن الزبير(٢).

وكان يجدر بعبد الله بن الزبير أن يسارع في امداد أخيه مصعب بالعون، لا سيما وقد قيل عنه رغم شجاعته وبسالته أنه قليل الدراية بالفنون الحربية(٣)، سيما وأن الصراع على العراق أمر لـــه خطوره. فقد كان العراق أحد القطرين الهامين اللذين بقيت فيهما سلطة ابن الزبير، ونظرا لهذه الاعتبارات أصرّ عبد الملك بن مروان على الخروج للحرب بنفسه لاستخلاص العراق من يد ابن الزبير الذي اتخذ موقفا بعيدا غريبا للباحث، اذ يتوقع أن يقوم عبد الله بن الزبير ببذل ما يملك لاعداد الجيوش وارسالها الى مصعب الذي كان يواجه أعباء ثقيلة بالعراق، ولكن ابن الزبير لم يقم بأية خطوة عملية في هذا الصدد، بل انه أساء الى وجوه أهل العراق وانصرافهم عنه حين وفدوا اليه مع مصعب الذي قال: ((يا أمير المؤمنين، قد جئتك برؤساء أهل العراق وأشرافهم، كل مطاع في قومه، وهم الذين سارعوا الى بيعتك، وقاموا بأحياء دعوتك، ونابذوا أهل معصيتك، وسعوا في قطع عدوك، فأعطهم من هذا المال. فقال عبد الله بن الزبير: جئتني بعبيد أهل العراق وتأمرني أن أعطيهم من مال الله؟ لا أفعل، وأيم الله لوددت أني أصرفهم كما تصرف الدنانير بالدراهم عشرة من هؤلاء برجل من أهل الشام، قال: فقال رجل منهم: علقناك وعلقت أهل الشام، ثم انصرفوا عنه وقد يئسوا مما عنده، لا يرجون رفده، ولا يطمعون فيما عنده، فاجتمعوا وأجمعوا رأيهم على خلعه، فكتبوا الى عبد الملك بن مروان أن أقبل الينا))(٤).

١ـ انظر أبو الفداء: المختصر في أخبار البشر ج ١ ص ١٩٤

٢ـ انظر ابن الاثير: الكامل ج ٤ ص ٣٤٠

٣ـ انظر الطبري: تاريخ ج ٦ ص ١٥٧

٤ـ ابن قتيبة: الامامة والسياسة ج ٢ ص ٢٠، ابن عبد ربه: العقد الفريد ج ٤ ص ٤٠٦

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أما الامويون فقد اجتذبوا الناس اليهم بالأموال الضخمة حين منحوها كصلات واعطيات، والناس — كما يقال — عبيد الدرهم والدينار، ولذلك سهل على عبد الملك بن مروان أن يستميل اليه بعض زعماء أهل العراق الذين خيب بخل ابن الزبير آمالهم فانحازوا الى الامويين.

كما تجدر ملاحظة نقمة الشيعة على الحكم الزبيري في العراق، وكان الكثيرون منهم يعيشون بها، وقد هزهم مقتل الحسين بن علي هزا عنيفا[1]، فأخذوا يتكتلون ضد بني أمية ثم ناصروا ابن الزبير وأيدوه، ولكن شيعة العراق هؤلاء آلمهم أن ابن الزبير لم يطالب بثأر الحسين بن علي بل أساء الى عشيرته الاقربين في الحجاز[2]، كما أن الحكم الزبيري لم يساند حركة التوابين مساندة ايجابية.

ثم ظهر على المسرح السياسي المختار بن أبي عبيد الثقفي، وزعم للناس أنه وزير وأمين محمد ابن الحنفية[3]، وأعلن أن هدفه هو الاخذ بثأر الحسين، فقتل عمر بن سعد، وشمر بن ذي الجوشن، وعبيد الله بن زياد، وسواهم ممن شرك في دم الحسين[4]، فناصرته الشيعة والتفت حوله، وزادت مناصرتهم له، حين وضع برنامجه موضع التنفيذ، وتوالت الأحداث، وتمكن مصعب بن الزبير من قتل المختار، كما قتل كثيرا من اتباعه بعد أن أمنهم[5]. وترك ذلك أثرا عميقا في نفوس الشيعة، حتى قيل أن قاتل مصعب كان واحدا منهم وأنه صاح حين قتله: بالثارات المختار[6].

كما تجاوز أثر قتل المختار وأصحابه العراق الى الحجاز نفسها، وكنت قد أشرت الى قول ابن عمر، أما عبد الله بن عباس فلم ترقه تصرفات مصعب بن الزبير القاسية، وروي أن ابن الزبير نقل اليه نبأ قتل المختار، فقال: ألم يبلغك قتل الكذاب؟ فقال ابن عباس: ومن الكذاب؟ قال: ابن أبي عبيد. فقال: قد بلغني قتل المختار.

فقال ابن الزبير: كأنك نكرت تسميته كذابا ومتوجع له. قال: ((ذاك رجل قتل قتلتنا وطلب ثأرنا وشفى غليل صدورنا وليس جزاؤه منا الشتم والشماتة))[7].

١ــ انظر سيد أميرعلي: مختصر تاريخ العرب ص ٧٤

٢ــ انظر اليعقوبي: تاريخ ج ٢ ص ٢٦٢

٣ــ انظر الطبري: تاريخ ج ٦ ص ١٤

٤ــ انظر ابن قتيبة: المعارف ص ٤٠١

٥ــ انظر المسعودي: مروج الذهب ج ٣ ص ٩٩

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وهكذا تكاتفت ظروف عديدة ساهمت في تفرق أنصار الحركة الزبيرية عنها في بلاد العراق، مما أدى الى انهيار هذه الحركة في تلك البلاد ووقوعها في قبضة عبد الملك بن مروان، وكان ذلك توهينا شديدا لخلافة ابن الزبير الذي أصبح أمر القضاء عليه مسألة وقت ليس الا .

اخضاع بلاد الحجاز لسيطرة الأمويين :

كان انتصار عبد الملك بن مروان على مصعب بن الزبير بالعراق ايذانا بغروب شمس خلافة ابن الزبير في الحجاز، ذلك أن هذا الانتصار أدى الى استقرار الأمور في معظم الأمصار الاسلامية ، فدانت بالطاعة لبني أمية واعترفت بخلافتهم، وبقي الحجاز يرفع راية الثورة بزعامة عبد الله بن الزبير، ولم يستمر ذلك طويلا حتى خضعت الحجاز للأمويين، بعد أن كاد أمر الخلافة أن يتم لها قبل قليل .

وتحول أنصار عبد الله بن الزبير بتحول الموقف السياسي ، حين أدركوا أن نجم خليفتهم في طريقه الى الأفول ، فسارع بعضهم يعلن مبايعته لعبد الملك وتناسى هؤلاء بيعتهم بالأمس لابن الزبير، ومالوا (١) الى عبد الملك بن مروان الذي رجحت كفته ، وقال بعضهم :((رضينا بذلك ـ يعني ابن الزبير ـ اذا كان (٢) ولي أمورنا . ونرضى بهذا ـ يعني عبد الملك ـ كما رضينا بذاك)) . (٣)

أما عبد الله بن الزبير فقد تألم لصرع أخيه الذي كان ساعده الأيمن في خلافته ، وواحدا من أبرز قادته ، وكان قتله ضربة شديدة لخلافة ابن الزبير الذي وقف خطيبا (٤) ، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : ((الحمد لله الذي له الخلق والأمر يؤتي الملك من يشاء وينزع الملك ممن يشاء ويعز من يشاء ويذل من يشاء)) . ثم بين لسامعيه أن صاحب الحق، لابد وأن ينصره الله ، ولو انفض الناس من حوله . فقال :((... وانه لم يذلل الله من كان الحق معه وان كان فردا ، ولم يعزز من كان وليه الشيطان وحزبه وان كان الناس معه طرا)) . ثم نقل الى سامعيه خبر مقتل مصعب، وقد حاول أن يخفف من وطأة هذا النبأ في نفوس الناس، فقال :((ألا وانه قد أتانا من العراق خبر أحزننا وأفرحنا ، أتانا قتل مصعب رحمه الله ، وأما الذي أفرحنا فعلمنا أن قتله شهادة، وأما الذي أحزننا فان لفراق الحميم لوعة

١ـ انظر الطبري : تاريخ ج ٦ ص ١٦٨

٢ـ انظر ابن الأثير : الكامل ج ٤ ص ٣٣٤ ـ ٣٣٥

٣ـ الطبري : تاريخ ج ٦ ص ١٦٦

٤ـ انظر نص الخطبة في ابن كثير : البداية والنهاية ج ٨ ص ٣٢٢ ـ ٣٢٣

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

يجدها حميمه عند المصيبة، يرعوي بعدها ذو الرأي الجميل الى الصبر وكريم العزاء، وما عصب الا عبد من عبيد الله وعون من أعواني)). ثم انتقل ابن الزبير فعاب أهل العراق على تخاذلهم، فقال: ((ألا وان أهل العراق أهل الغدر والنفاق أسلموه وباعوه بأقل الثمن، فان يقتل فانا والله ما نموت على مضاجعنا كما تموت بنو أبي العاص، والله ما قتل منهم رجل في زحف في الجاهلية ولا الاسلام، وما نموت الا قعصا بالرماح، وموتا تحت ظلال السيوف))، وهكذا افتخر على أعدائه بنسبي أبي العاص بالشجاعة والموت.

أما عبد الملك بن مروان فقد تطلّع الى اخضاع الحجاز نفسها بعد أن دانت العراق لحكمه، ذلك أن بلاد الحجاز تحتل مكانا مرموقا في نظر الطامعين في الخلافة، ومن ناحية أخرى كان الحجازيون لا يعترفون بخلافة عبد الملك ولا مروان قبله، بل هما خارجان على الخلافة الشرعية التي يمثلها ابن الزبير، وقد اعتبروا ((أن مروان لا يعد في أمراء المؤمنين، بل هو باغ خارج على ابن الزبير، وأما ابن الزبير فانه استمر بمكة خليفة الى أن تغلب عبد الملك))(١).

ولذلك شرع عبد الملك في ارسال جيوشه الى الحجاز للقضاء على الحركة الزبيرية واخضاع أهل الحجاز، وشرع في تحقيق الحلم الذي راود أباه من قبل في اخضاع الحجاز الى حكم بني أمية، وكنت قد أسلفت أن مروان بن الحكم بعث جيشا الى الحجاز بقيادة حبيش بن دلجة. وحين تولى عبد الملك الخلافة قام بعدة محاولاته فكان أن أرسل عروة بن أنيف على رأس جيش يتكون من ((ستة آلاف من أهل الشام، وأمره أن لا ينزل على أحد وأن لا يدخل المدينة))(٢). ففعل القائد الأموي ما أمره عبد الملك، وكان على المدينة الحارث بن حاطب فولّى الادبار هربا. وأخذ ((ابن أنيف يدخل فيصلي الجمعة بالناس ثم يعود الى معسكره فأقام وأصحابه شهرا لا يبعث اليهم ابن الزبير أحدا ولم يلقوا كيدا))(٣). ثم أمره عبد الملك بالعودة الى الشام. ويظهر ذلك بوضوح ضعف ابن الزبير العسكري في الحجاز.

وولى عبد الله بن الزبير عاملا جديدا على المدينة هو سليمان بن خالد الزرقي من الأنصار. وبعث عبد الملك جيشا بقيادة عبد الملك بن الحارث بن الحكم، في أربعة آلاف الى المدينة(٤)، فلما

١- السيوطي: تاريخ الخلفاء ص ٢١٢.
٢- البلاذري: أنساب الأشراف ج ٥ ص ٣٥٥

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

نزل الجيش الأموي أول عمل ابن الزبير مما يلي الشام هرب عماله ، وسار عبد الملك بن الحارث حتى وادي القرى. ومن هناك أرسل خيلا تمكنت من قتل سليمان بن خالد الزرقي عامل ابن الزبير، فولى مكانه جابر بن الأسود بن عوف الزهري.(١)

أرسل عامل ابن الزبير على المدينة جيشا بقيادة أبي بكر بن أبي قيس لملاقاة جيش الأمويين الذي نزل قديد. ونجح أبو بكر في الحاق الهزيمة بالجيش الأموي وأسر عددا كبيرا منهم، ثم قتل هؤلاء الأسرى.(٢) فبعث عبد الملك بن مروان جيشا بقيادة طارق بن عمرو وأمره أن ((ينزل بين أيلة ووادي القرى، فيمنع عمال ابن الزبير من الانتشار ، ويحفظ مابينه وبين الشام ويسد خللا ان ظهر له))(٣). ونجح طارق بن عمرو في تنفيذ أوامر عبد الملك، كما انتصر على جيش ابن الزبير، ثم انشغل عبد الملك بن مروان في جبهة العراق بقتال مصعب بن الزبير، حتى اذا قضى عليه وأخضع العراق ، أنفذ الحجاج بن يوسف الثقفي(٤) للقضاء على ابن الزبير الذي ظهر ضعفه العسكري من خلال الغزوات الأموية السابقة.

أما لماذا اختار عبد الملك بن مروان الحجاج بن يوسف لتولي قيادة الجيوش الأموية المتجهة الى الحجاز، فلعل مرد ذلك ((أن عبد الملك لما أراد الرجوع الى الشام ، قام اليه الحجاج بن يوسف فقال : يا أمير المؤمنين، اني رأيت في منامي أني أخذت عبد الله بن الزبير فسلخته ، فابعثني اليه وولني قتاله ، فبعثه في جيش كثيف من أهل الشام))(٥). ويظهر أن هناك أسبابا أخرى دفعت عبد الملك الى هذا الاختيار ، ذلك أن خروج عبد الملك بنفسه الى الحجاز لا يخلو من مغامرة غير مضمونة العواقب ، فالوضع في العراق بقيادة مصعب بن الزبير يختلف عن الوضع في الحجاز بقيادة عبد الله ابن الزبير. وقد كنت أشرت الى ظروف العراق التي أدت الى انتصار الأمويين، أما الحجاز فقد كانت في ظروف تختلف ، فهي موئل الحاقدين على الحكم الأموي ، وهم قد عارضوا بشدة فكرة توارث الخلافة والملك وحصرهما في أسرة بني أمية، أو من الذين تألموا لنقل الأمويين حاضرة الخلافة من الحجاز الى

١ــ انظر البلاذري: أنساب الأشراف ج ٥ ص ٣٥٦

٢ــ انظر ابن الاثير: الكامل ج ٤ ص ٣٤٩

٣ــ البلاذري: أنساب الأشراف ج ٥ ص ٣٥٦

٤ــ انظر المسعودي: مروج الذهب ج ٣ ص ١١٠

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الشام ، كما أن بعض أهل الحجاز لا زالوا يذكرون قتلاهم في وقعة الحرة أو حصار مكة الأول ، ويشاركهم عامة أهل الحجاز حقدهم على بني أمية الذين أبتوروا عن قتل الحسين بن علي ، وغزو البيت الحرام .

كما أن عبد الملك لا بد وأن يكون قد أدرك أن الجيش الذي سيوجهه لقتال عبد الله بن الزبير لا بد وأنه سيغزو مكة ، ويحاصر ابن الزبير في الكعبة ، فرأى ألا يتحمل هذه المسئولية الخطيرة ، وأن يلقيها على كاهل الحجاج بن يوسف الثقفي ، الا أن ذلك لا يعفيه من تهمات أعمال جيشه في الحجاز ، اذ كان ((عبد الملك ينكر رمي البيت في أيام يزيد بن معاوية ، ثم أمر بذلك فكان الناس يتعجبون منه ويقولون خذل في دينه))(١) .

تكاثفت هذه الأسباب مجتمعة فجعلت عبد الملك يعدل عن قيادة الجيش الزاحف الى الحجاز فخرج الحجاج بن يوسف في ألفين من جند الشام ، في جمادى الأولى سنة اثنتين وسبعين (٢) (٣) . ويروى أن الهيثم بن الأسود النخعي قال لعبد الملك بن مروان : ((يا أمير المؤمنين ، أوص هذا الغلام الثقفي بالكعبة ، وحره أن لا ينفر أطيارها ، ولا يهتك أستارها ، ولا يرمي أحجارها وأن يأخذ على ابن الزبير بشعابها وفجاجها وأنفاقها حتى يموت فيها جوعا أو يخرج عنها مخلوعا . فقال عبد الملك للحجاج : افعل ذلك واجتنب الحرم وانزل الطائف))(٤) .

وقد تجنب الحجاج بن يوسف العرور في المدينة ، تجنبا لما قد يبديه أهلها تجاه الجيش الأموي الذي يدخر كل جهوده لاخضاع ابن الزبير أولا . فسلك الحجاج الطريق الى مكة ، فوصل الطائف وبها نزل ، وهي البلدة التي تربطه بأهلها من ثقيف وشائج القربى ، ولم تبد أية مقاومة ضد الجيش الأموي .

بدأ الحجاج بن يوسف في مناوشة جند ابن الزبير ليقف على قوته الحقيقية ، ويختبر مدى امكانية حشد القوات المعادية ((فكان يبعث البعوث الى عرفه في الخيل ، ويبعث ابن الزبير بعثا ، فيقتتلون هناك ، فكل ذلك تهزم خيل ابن الزبير وترجع خيل الحجاج بالظفر))(٥) .

١ـ البلاذري : أنساب الأشراف ج ٥ ص ٣٦٠

٢ـ انظر ابن الأثير : الكامل ج ٤ ص ٣٤٩

٣ـ انظر الطبري : تاريخ ج ٦ ص ١٧٤

٤ـ البلاذري : أنساب الأشراف ج ص ٣٥٧ ، ابن قتيبة : المعارف ص ٣٩٦ ـ ٣٩٧

٥ـ الطبري : تاريخ ج ٦ ص ١٧٤

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وأحدثت تلك الانتصارات الجزئية الفزع في نفوس اتباع ابن الزبير، وفي نفس الوقت بثت الطمأنينة في نفوس أهل الشام، وتشجع الحجاج فطلب من عبد الملك أن يأذن له في مهاجمة ابن الزبير بمكة، فكتب اليه :((انك يا أمير المؤمنين متى تدع ابن الزبير يعمل فكره ويستجيش ويجمع أنصاره وتثوب اليه فلاله كان في ذلك قوة له ، فائذن لي في معاجلته (١)) خاصة وأن ظروف ابن الزبير قد ساءت((فانه قد كلت شوكته ، وملّت جماعته ، وتفرق عنه عامة أصحابه (٢))• ولم ينس الحجاج أن يطلب الامدادات المسكرية من عبد الملك بن مروان (٣)•

أذن عبد الملك للحجاج بمحاصرة ابن الزبير، وأرسل الى طارق بن عمرو أن يلحق بالحجاج في مكة، ((فقدم المدينة في ذي القعدة سنة اثنتين وسبعين ،وأخرج عامل ابن الزبير عنها ••• وقدم طارق على الحجاج في سلخ ذي الحجة في خمسة آلاف (٤))•

زحف الجيش الأموي الى مكة فحاصر ابن الزبير وظفر بجبل أبي قبيس (٥) في ذي القعدة سنة ٧٢ هـ، في الوقت الذي كان المسلمون يستعدون فيه لاداء فريضة الحج لذلك العام• وحج الحجاج بن يوسف بالناس، الا أنه لم يستطع الطواف حول الكعبة حيث تحصن ابن الزبير الذي لم يتمكن هو الاخر من آداء فريضة الحج نظرا للحصار المضروب حواليه (٦)•

وعندما اقترب موسم الحج من نهايته أخذ الجيش الأموي يقذف الكعبة بالحجارة((غير مبال بحرمتها وقد سيتها (٧))، فتضايق الناس وأرسل عبد الله بن عمر الى الحجاج ينهاه عن رمي الكعبة قائلا :((اتق الله واكفف هذه الحجارة عن الناس فانك في شهر حرام وبلد حرام، وقد قدمت وفود الله من اقطار الأرض ليؤدوا فريضة الله ، ويزدادوا خيرا ،وان المنجنيق قد منعهم عن الطواف فاكفف عن هذا الرمي حتى يقضوا مايجب عليهم بمكة (٨))•

١ــ الدينوري : الأخبار الطوال ص ٣١٤

٢ــ ابن كثير : البداية والنهاية ج ٨ ص ٣٢٥

٣ــ انظر البلاذري : أنساب الأشراف ج ٥ ص ٣٥٩

٤ــ ابن الأثير : الكامل ج ٤ ص ٣٥٠

٥ــ انظر المسعودي : مروج الذهب ج ٣ ص ٢ ١١• ابو قبيس : جبل مطل على المسجد يصعد اليه من الصفا في درج انظر المقدسي : أحسن التقاسيم ص ٧٤

٦ــ انظر ابن عبد ربه : العقد الفريد ج ٤ ص ٤١٤ ــ ٤١٥

٧ــ انظر بروكلمان : تاريخ الشعوب الاسلامية ص ١٣٤

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ورأى الحجاج صوابا في دعوة ابن عمر فاستجاب لها ، وأبطل الرمي حتى فرغ الناس من موسم الحج ، ثم أخذ في تنفيذ تهديده لأهل مكة وضرب الكعبة بالمنجنيق،(١) وقد أقبل الشتاء فأخذت السماء تبرق وترعد ، ونزلت صاعقة على جيش الحجاج وقتلت نفرا من الجند ممن كانوا يتولون الرمي .(٢) فأصابت الرهبة والخوف أهل الشام ، وظنوا هذه الصاعقة غضبا من الله عليهم لانتهاكهم حرمة البلد الحرام في الأشهر الحرم وأمسكوا عن رمي الحجارة بالمنجنيق .(٣) فأقبل عليهم الحجاج يحثهم على مواصلة الرمي ويشجعهم على القتال قائلا :((يا أهل الشام لا تنكروا هذا ، فاني ابن تهامة ، هذه صواعق تهامة ، هذا الفتح قد حضر فأبشروا ، ان القوم يصيبهم مثل ما أصابكم ، فصمقت من الغد فأصيب من أصحاب ابن الزبير عدة . فقال الحجاج : ألا ترون أنهم يصابون وأنتم على الطاعة ، وهم على خلاف الطاعة(٤))) . وقد أثرت كلمات الحجاج في رفع معنويات جنوده ، فاشتدوا في القتال .

وفي تلك الأثناء تحلب الناس الى ابن الزبير من الحجاج وغيرهم للقتال بجانبه اعظاما للبيت وحرمته ((وقدم عليه قوم من الأعراب تقمقع وفاضهم(٥) وقالوا : قدمنا لنقاتل معك فأعنا على قتال أعدائك . فاذا مع كل امرئ منهم سيف كأنه شفرة قد خرج من غمده . فقال : يا معشر الأعراب لا قربكم الله ، فوالله ان سلاحكم لرث وان حديثكم لغث وانكم لعيال في الجدب وأعداء في الخصب(٦))) . فخرجوا من عنده وتركوه .

وحين اشتد على ابن الزبير واصحابه الحصار(٧) ، خرج كثيرون منهم الى الحجاج بن يوسف وطلبوا الأمان ، فاسرع الحجاج وأجابهم لهذا الطلب ليشجع غيرهم على نبذ القتال وينفرد بالتالي بابن الزبير الذي أصبح موقفه محفوفا بالمخاطر((فلم تزل الحرب بين ابن الزبير والحجاج حتى كان قبيل مقتله وقد تفرق عنه أصحابه ، وخرج عامة أهل مكة الى الحجاج في الأمان ... وقد تفرق عنه أصحابه وخذله

١— انظر أبو الفداء : المختصر في أخبار البشر ج ١ ص ١٩٦

٢— انظر اليعقوبي : تاريخ ج ٢ ص ٢٦٦ ، ابن كثير : البداية والنهاية ج ٨ ص ٣٢٩

٣— انظر البلاذري : أنساب الأشراف ج ٥ ص ٣٦٢

٤— الطبري : تاريخ ج ٦ ص ١٨٧

٥— الوفاض : جمع وفضة : وهي خريطة الراعي لزاده وأداته والجعبة من أدم .
الفيروز آبادي : القاموس المحيط ج ٢ ص ٣٦١

٦— البلاذري : أنساب الأشراف ج ٥ ص ٣٦٠ ، ابن الأثير : الكامل ج ٤ ص ٣٥١

٧— انظر الدينوري : الأخبار الطوال ص ٣١٥

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

من معه خذلانا شديدا ، وجعلوا يخرجون الى الحجاج حتى خرج اليه نحو من عشرة آلاف))[1]. اذ ظهر لهم أن غلبة الحجاج باتت قاب قوسين .

وبالرغم من ذلك صمد ابن الزبير و معه عدد من أهل الحجاز بشجاعة أمام جند الشام وطال أمد الحصار الى مايقارب سبعة أشهر[2]، رغم معرفة النتيجة المؤلمة المرتقبة .

وجمع ابن الزبير أصحابه للمشاورة فيما آل اليه حالهم وقال :((ماترون ؟ فقال رجل من بني مخزوم من آل بني ربيعة : والله لقد قاتلنا معك حتى لانجد مقيلا، ولئن صبرنا معك مانزيد على أن نموت ، وانما هي احدى خصلتين : اما أن تأذن لنا فناخذ الامان لانفسنا ، واما أن تأذن لنا فنخرج . فقال ابن الزبير : لقد كنت عاهدت الله أن لايمايعني أحد فاقيله بيعته الا ابن صفوان . فقال ابن صفوان : أما أنا فاني أقاتل معك حتى أموت بموتك وانها لتأخذني الحفيظة أن أسلمك في مثل هذه الحالة، وقال له رجل آخر اكتب الى عبد الملك بن مروان . فقال له : كيف اكتب: من عبد الله أمير المؤمنين الى عبد الملك بن مروان ؟ فوالله لايقبل هذا أبدا ، أم اكتب : لعبد الملك بن مروان أمير المؤمنين من عبد الله بن الزبير ؟ فوالله لأن تقع الخضراء على الغبراء أحب الي من ذلك))[3].

كما أشفق عروة بن الزبير على أخيه فخرج الى الحجاج ورجع الى أخيه فقال له :((هذا خالد بن عبد الله بن خالد بن أسيد وعمرو بن عثمان بن عفان يعطيانك أمان عبد الملك على ما أحدثت أنت ومن معك، وأن تنزل أي البلاد شئت لك بذلك عهد الله وميثاقه))[4]. فرفض عبد الله بن الزبير ذلك رفضا باتا ، فقال عروة : ((يا أمير المؤمنين ، قد جعل الله لك أسوة . فقال عبد الله : من هو أسوتي ؟ قال : الحسن بن علي بن أبي طالب، خلع نفسه وبايع معاوية .... قال: ياعروة قلبي اذن مثل قلبك، والله لو قبلت ماتقولون ما عشت الا قليلا، وقد أخذت الدنية ، وما ضربة بسيف الا مثل ضربة بسوط، لا أقبل شيئا مما تقولون))[5].

١ــ الطبري : تاريخ ج ٦ ص ١٨٨

٢ــ انظر أبو الفداء : المختصر في أخبار البشر ج ١ ص ١٩٦

الطبري : تاريخ ج ٦ ص ١٩٢

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

كان اصرار ابن الزبير على رفض الاقتراحات التي عرضت عليه انما يعني الموت وقد شعر هو نفسه بقرب نهايته ، فدخل على أمه أسماء بنت أبي بكر بعد أن خذله الناس وتخلوا عن نصرته ، ودار بين الأم وابنها حديث مؤثر هذا نصه (١) ((فقال : يا أمه ، خذلني الناس حتى ولدي وأهلي ، فلم يبق معي الا اليسير ممن ليس عنده من الدفع أكثر من صبر ساعة ، والقوم يعطونني ما أردت من الدنيا ، فما رأيك ، فقالت: أنت والله يابني أعلم بنفسك ، ان كنت تعلم أنك على حق وإليه تدعو فامض له ، فقد قتل عليه أصحابك ولا تمكن من رقبتك يتلعب بها غلمان أمية ، وان كنت انما أردت الدنيا فبئس العبد أنت ! أهلكت نفسك وأهلكت من قتل معك ، وان قلت: كنت على حق فلما وهن أصحابي ضعفت ، فهذا ليس فعل الأحرار ولا أهل الدين ، وكم خلودك في الدنيا ! القتل أحسن ، فدنا ابن الزبير فقبل رأسها وقال : هذا والله رأيي ، والذي قمت به داعيا الى يومي هذا ما ركنت الى الدنيا ، ولا أحببت الحياة فيها ، وما دعاني الى الخروج الا الغضب لله أن تستحل حرمه ، ولكني أحببت أن أعلم رأيك فزدتني بصيرة مع بصيرتي ، فانظري يا أمة فاني مقتول من يومي هذا ، فلا يشتد حزنك ، وسلمي الأمر لله ، فان ابنك لم يتعمد اتيان منكر ولا عملا بفاحشة ولم يجر في حكم الله ولم يغدر في أمان ، ولم يتعمد ظلم مسلم ولا معاهد ، ولم يبلغني ظلم عن عمالي فرضيت به بل أنكرته ، ولم يكن شيء آثر عندي من رضا ربي ، اللهم اني لا أقول هذا تزكية مني لنفسي أنت أعلم بي ، ولكن أقوله تعزية لأمي لتسلو عني ، فقالت أمه : اني لأرجو من الله أن يكون عزائي فيك حسنا ان تقدمتني ، وان تقدمتك ففي نفسي اخرج حتى أنظر الى ما يصير أمرك ، قال : جزاك الله يا أمه خيرا ، فلا تدعي الدعاء لي من قبل وبعد ، فقالت : لا أدعه أبدا ، فمن قتل على باطل فقد قتلت على حق ، ثم قالت: اللهم ارحم طول ذلك القيام في الليل الطويل ، وذلك النحيب والظمأ في هواجر المدينة ومكة وبرّه بأبيه وبي ، اللهم قد سلمته لأمرك فيه ، ورضيت بما قضيت ، فاثبني في عبد الله ثواب الصابرين الشاكرين)).

ولا شك أن كلمات أسماء بنت أبي بكر قد بثت في نفس ابنها الطمأنينة وشجعته (٢) على المضي في القتال ، فخرج الى أصحابه وحمل حملة شديدة على أعدائه فقتل منهم خلقا .

١ — انظر نص ذلك الحديث كاملا في الطبري : تاريخ ج ٦ ص ١٨٨ — ١٨٩

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وعندما رأى الحجاج أن الناس لا يقدمون على ابن الزبير غضب وترجل وأقبل يسوقهم أمامه ، ثم جعل أهل كل بلد في ناحية معينة كي يصدق الجند في حربهم، ولا يفرون أمام حملات ابن الزبير وأحكم ذلك ، وقسم أهل الشام على أبواب المسجد ((فكان لأهل حمص حصار الباب الذي يواجه باب الكعبة ، ولأهل دمشق باب بني شيبة، ولأهل الاردن باب الصفا ، ولأهل فلسطين باب بني جمح ، ولأهل قنسرين باب بني سهم، وعلى كل باب قائد ومعه أهل تلك البلاد ، وكان الحجاج وطارق بن عمرو في ناحية الأبطح))(١).

ورغم تنظيم الحجاج للناس على أبواب المسجد واجراءاته العسكرية الشديدة فقد كان ابن الزبير ((يحمل في هذه الناحية ، ومرة في هذه الناحية، فكأنه أسد في أجمة ، مايقدم عليه الرجال ، فيعدو في أثر القوم وهم على الباب حتى يخرجهم))(٢). حتى ظن أهل الشام أنه لا يقتل(٣).

وهكذا استهل ابن الزبير في القتال والدفاع وضرب لمن معه من الجند أروع مثال . ولكن جند الشام تكاثروا عليه (٤) ، وغلبت الكثرة الشجاعة، وقد وقف خطيبا في اللحظات الأخيرة من حياته يشجع أنصاره قائلا: ((ألقوا أغماد السيوف، وليصن كل رجل منكم سيفه كما يصون وجهه ، لا ينكسر سيف أحدكم فيقعد كالمرأة، ولا يسأل رجل منكم : أين عبد الله ؟ من يسأل عني فاني في الرعيل الأول .

ثم أنشأ يقول :

يارب أن جنود الشام قد كثروا ... وعتكوا بن حجاب البيت أستارا

يارب اني ضعيف الركن مضطهد ... فابعث اليّ جنودا منك أنصارا))(٥).

وتكاثر عليه جند الشام ((فحمل عليهم حتى بلغ بهم الحجون، فرمي بآجرة فأصابته في وجهه))(٦) فاقتحم أهل الشام عليه ((فما فهموا قتله حتى سمعوا جارية تبكي وتقول : وا أمير المؤمنيناه ! فحزوا رأسه وذهبوا به الى الحجاج))(٧). وقد سقط ابن الزبير صريعا يوم الثلاثاء لثلاث عشرة بقيت من جمادى الآخرة سنة ٧٣ هـ(٨). وكان لمقتله رنة حزن وأسى في مكة والحجاز .

١ــ ابن كثير : البداية والنهاية ج ٨ ص ٣٣١

٢ــ الطبري : تاريخ ج ٦ ص ١٩٠

٣ــ انظر المرجع السابق نفس الصفحة

٤ــ انظر اليعقوبي : تاريخ ج ٢ ص ٢٦٦

٥ــ المسعودي : مروج الذهب ج ٣ ص ١١٤

٦ــ الطبري : تاريخ ج ٦ ص ١٩٢

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وبالغ الحجاج بن يوسف في التنكيل بعبد الله بن الزبير فأمر بصلبه منكسا (١)، ليثير الرعب في قلوب أهل الحجاز، الا أن فعلة الحجاج أثارت العطف والشفقة على ابن الزبير، والسخط على الحجاج. ورثى له حتى الذين خالفوه أثناء خلافته، وعندما سمع عبد الله بن عمر تكبير أهل الشام لمقتله قال: ((لمن كبّر من الأخيار لمولده أكثر ممن كبّر من الأشرار لقتله، وكان أول مولود ولد بالمدينة من ابناء المهاجرين (٢)).

ووقف الحجاج بن يوسف يبرر ما أقدم عليه حين بلغته نقمة الناس عليه فقال: ((يا أهل مكة، بلغني اكباركم واستفظاعكم قتل ابن الزبير، ألا وان ابن الزبير كان من أخيار هذه الامة حتى رغب في الخلافة، ونازع فيها أهلها، فخلع طاعة الله واعتصم بحرم الله ولو كان شيء مانع العصاة لمنعت آدم حرمة الجنة، لأن الله خلقه بيده، ونفخ فيه من روحه وأسجد له ملائكته، وأباحه كرامته، وأسكنه جنته، فلما أخطأ أخرجه من الجنة بخطيئته، وآدم أكرم على الله من ابن الزبير، والجنة أعظم حرمة من الكعبة (٣))). وليس تبرير الحجاج هذا بمقنع، اذ كان ابن الزبير ـ كما رأى أحد أهل الحجاز ـ ((... صوّاما قواما وصولا للرحم ـ وأضاف ابن عمر ـ أما والله ان قوما أنت شرهم لنعم القوم (٤))).

وقد طلبت أسماء بنت أبي بكر من الحجاج بن يوسف أن يسمح لها بدفنه فرفض. ودارت بينهما محادثة عاصفة، سخر فيها الحجاج من عبد الله، فقالت أسماء: اني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: يكون في ثقيف مبير وكذاب. فأما الكذاب فهو المختار بن أبي عبيد، وأما المبير فأنت. فانصرف وهو يقول: مبير المنافقين، مبير المنافقين. قالت: بلى عمودهم (٥). ثم لم تلبث أوامر عبد الملك بن مروان أن جاءت بالسماح لأمه بدفنه فدفنته (٦). وأخذ الحجاج البهمة لعبد الملك بن مروان من أهل مكة، كما نقض بناء الكعبة الذي كان ابن الزبير قد بناه، وأعاد البناء كما كان من قبل (٧).

١ـ انظر ابن خلدون: العبر ج ٣ ص ٣٩
٢ـ البلاذري: أنساب الأشراف ج ٥ ص ٣٦٩
٣ـ ابن عساكر: التاريخ الكبير ج ٤ ص ٥٠
٤ـ ابن الأثير: الكامل ج ٤ ص ٣٥٧
٥ـ انظر البلاذري: أنساب الأشراف ج ٥ ص ٣٦٩
٦ـ انظر ابن خلدون: العبر ج ٣ ص ٣٩

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

رحل الحجاج الى المدينة، اذ أسند عبد الملك بن مروان اليه حكمها بالاضافة الى مكة، فأقام بالمدينة أربعة أشهر ((يتعبث بأهل المدينة ويتعنتهم وبنى بها مسجدا في بني سلمة فهدمه ينسب اليه ، واستخف فيها بأصحاب رسول الله ،صلى الله عليه وسلم ، فختم في أعناقهم))(١). والسبب في ذلك، من وجهة نظر الحجاج ، أن أهل المدينة لم ينصروا عثمان بن عفان، فكان ممن ختم في أعناقهم بالرصاص : مالك بن أنس، وسهل بن سعد بن عبادة، وجابر بن عبد الله ، استخفافا بهم، كما يفعل بأهل الذمة(٢). ولم تطل مدة حكم الحجاج في الحجاز ، فقد عزله عبد الملك بن مروان عنها بعد ثلاث سنين وعهد اليه بولاية العراق بعد موت بشر بن مروان بالبصرة(٣).

وبمقتل عبد الله بن الزبير تحققت أماني الأمويين عامة، وعبد الملك بن مروان خاصة في القضاء على ذلك المنافس الذي أراد أن يقيم في الحجاز خلافة تحقق آمال أهلها في أن تضد و بلادهم مركز الخلافة وملتقى الوافدين . الا أن عوامل عديدة تضافرت لتقضي على خلافة ابن الزبير الذي بقي في الحجاز طيلة مدة خلافته والتي دامت تسع سنين وثلاثة أشهر وأياما(٤).

والحجاز بلد قليل الموارد الاقتصادية بالقياس الى الأمصار الاسلامية الأخرى كمصر أو العراق. وبالتالي فهي عاجزة عن تزويد ابن الزبير بحاجته من المال والرجال . كما أن استيلاء الأمويين على العراق قد حرم ابن الزبير مما كان يأتيه منها من الامدادات ، فلما حاصره الحجاج قلت الاقوات وغلت الأسعار ((وأصاب الناس مجاعة شديدة حتى ذبح فرسه وقسم لحمها في أصحابه ، وبيعت الدجاجة بعشرة دراهم والعدد الذرة بعشرين درهما))(٥). مما جعل جند ابن الزبير وأهل مكة يعيشون في ضنك اقتصادي أثناء الحصار، مما اضطر ابن الزبير أن يجري لاتباعه نصف صاع من تمر ، فتثاقلوا عنه(٦). في حين أن الجند الشامي كانت أوضاعه الاقتصادية التموينية تختلف فقد ((كانت الميرة تحمل الى أهل الشام من عند عبد الملك،

١— الطبري : تاريخ ج ٦ ص ١٩٥

٢— انظر ابن الأثير : الكامل ج ٤ ص ٣٥٩

٣— انظر المسعودي : مروج الذهب ج ٣ ص ١١٥

٤— انظر ابن قتيبة : المعارف ص ٣٥٦

٥— ابن الأثير : الكامل ج ٤ ص ٣٥٢

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

السويق والكعك والدقيق لا تفتر حتى أخصبوا))[1].

هذا بجانب أن بعض أهل الحجاز لم تكن قلوبهم مع ابن الزبير، وامتناع زعماء بني هاشم أمثال محمد بن الحنفية، وعبد الله بن عباس عن بيعته[2]، دفع أنصارهم من أهل الحجاز أن يقفوا من الدفاع عن ابن الزبير موقفا سلبيا. ((وكانت الحجاز بعد أن انصرفت عنه العناصر السياسية الى الشام والعراق مأوى الطبقة الارستقراطية التي مالت الى حياة اللهو والمجون لتدفق الثروة عليها))[3]. فكان نجاح دعوة ابن الزبير نجاحا ضئيلا لديهم.

وقد نقل علي بن أبي طالب حاضرة دولته الى الكوفة، ووصف العراق بأنها موطن الرجال والأموال، فخرج اليها وترك الحجاز. وعندما ولي معاوية بن أبي سفيان الخلافة جعل حاضرته دمشق، مما يعني أن الحجاز لم تعد تصلح لأن تكون مركزا للدولة الاسلامية التي أصبحت مترامية الأطراف بعد موجة الفتوحات الاسلامية المظفرة.

وكانت الفرصة قد سنحت لعبد الله بن الزبير، ولكنه أضاعها عندما عرض عليه الحصين بن نمير قائد الجيش الأموي بعد وفاة يزيد بن معاوية أن يخرج الى الشام حيث يبايعه الناس هناك بالخلافة فأبى ذلك[4]. وكان يجدر بابن الزبير أن يغتنم فرصة اختلاف أهل الشام وانقسام بني أمية بعد وفاة معاوية بن يزيد خاصة وأن القبائل القيسية بزعامة الضحاك بن قيس الفهري قد استجابت لدعوته، وحملت السلاح لنصرته في وجه بني أمية. ليحسم الموقف بالتدخل العسكري للقضاء على النفوذ الأموي المتزعزع هناك.

الا أن ابن الزبير تنعم بالبقاء في الحجاز، وأراد أن يعيد لتلك البلاد مجدها السابق في السيادة والنفوذ، كما كان عليه الحال أزمان الرسول الكريم وأبي بكر وعمر وعثمان، فاقتصر بالتالي على البقاء في مكة، مما يرضي مطامح أهل الحجاز، ولم يفكر بالخروج الى مصر آخر كالعراق مثلا.

ولم يهتم ابن الزبير بالدعوة الزبيرية والدعاية لها كثيرا، فقد مكث بالحجاز، وترك أمر الدعوة اليه والدعاية لخلافته الى أنصاره ومريديه كالضحاك بن قيس، وزفر بن الحارث في الشام. وقد فشلا في تحقيق النصر، وكانت وقعة مرج راهط نهاية لآمالهما وآمال عبد الله بن الزبير في السيطرة على بلاد الشام.

١ـ البلاذري: أنساب الأشراف ج ٥ ص ٣٦٠

٢ـ انظر الدينوري: الأخبار الطوال ص ١٤٣

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وفي العراق اعتمد ابن الزبير على شخصيات مثل عبد الله بن يزيد ، وابراهيم بن محمد بن طلحة ، ثم على أخيه مصعب وابنه حمزة بن عبد الله ، وقد انمكست تصرفات هؤلاء الولاة على الدعوة الزبيريـــة ، وكل اساءة صدرت عنهم الى الناس جعلتهم يعارضون خلافة ابن الزبير بل وانفضوا عنها الى اعدائها .

وكانت السياسة الحكيمة تقضي أن يتولى ابن الزبير أمر الدعوة لخلافته بنفسه ويتألف الناس حول شخصه ، خاصة حين تهيأت الظروف لذلك في العراق .

وأهمل ابن الزبير سلاح الشعر والشعراء ، الذين أغدق الأمويون عليهم الأموال فأخذت ألسنة الشعراء تلهج بحمد الأمويين والثناء عليهم . وفي نفس الوقت تهجو ابن الزبير لتقتيره واحجامه عـــن بذل الأموال والصلات لهم ، (١) ولا نجد من الشعراء من أخلص لابن الزبير سوى عبيد الله بن قيس الرقيـــات ، (٢) الذي كان على علاقة وطيدة بمصعب بن الزبير .

وقع الحصار الأموي لابن الزبير زمن الحج ، وقدم الجيش الأموي ونزل بالطائف ، وغدا واضحا أن هذا الجيش لابد وأن يقدم على حصار ابن الزبير ، فكان يجدر به أن يغتنم الفرصة فيجمع الناس من حوله ، ويثير حماسة الحجاج للدفاع عن بيت الله الحرام في الأشهر الحرم ، خصوصا وأن اقتصاديات مكة كانت محدودة ، ولا تكفي المؤن فيها لحصار طويل .

وكنا نتوقع أن يتخذ أهل الحجاز خطوة حاسمة حازمة فيتصدّوا للجيش الأموي قبل أن يغزوهم في عقر دارهم ، أو على الاقل ، أن ينحاز ابن الزبير بمن معه الى المدينة التي كانت تتمتع باستراتيجيـــة أفضل من مكة ، ثم أن أهلها سينضمون اليه لحقدهم على الحكم الأموي وثأرا لقتلاهم في وقعة الحرة .

ولكن ابن الزبير أهمل كل هذه الأمور ، ولبث في مكة حتى فرض الأمويون الحصار عليها ، فقلت المؤن وساهم وجود الحجاج في نفادها وقلتها ، واصبح من الصعب أن يتحمل السكان هذه الحالة القاسية ، فخرج عدد كبير منهم وانضم الى الجيش الأموي ((وأخبر أن بني سهم مالوا برايتهم الى الحجـــاج فدخلوا في أمانه)) . (٣) ومن هنا يظهر أن ابن الزبير ، بالرغم من الصفات الحميدة الكثيرة التي كان يتصف بها ،

١ــ انظر البلاذري : أنساب الأشراف ج ٥ ص ١٩٤ ، ١٩٧ ، ٣٧٨ ، المسعودي : مروج الذهب ج ٣ ص ٧٥ ، ٨٤

٢ــ انظر سمير القلماوي : أدب الخوارج في العصر الأموي ص ١٤٨ طبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٤٥ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

كان قليل الدراية بفنون السياسة والقتال مما سهّل أمر القضاء عليه .

كما أن ابن الزبير لم يتمكن من كسب ولاء الأحزاب الاسلامية لحركته وخلافته كالخوارج والشيعة فالخوارج شنوا حربا شديدة على ولاة ابن الزبير بالعراق،(١) واستنفذت حربهم كثيرا من جهد ولاة ابن الزبير حتى أن عبد الملك بن مروان عندما أقبل نحو العراق، كان أمهر قادة ابن الزبير كالمهلب بن أبي صفرة بعيدين عن ميدان القتال ومشغولين بحرب الخوارج،(٢) ولو نجح عبد الله بن الزبير في مهادنة الخوارج أو تمكن من استمالتهم اليه ووجههم نحو العدو المشترك، لأمكن له أن يخفف من شدة الهجمات الأموية على الاقل . ولكن ابن الزبير أصر على عثمانيته ، مما أثار حفيظة الخوارج فتفرقوا عنه في وقت كان في أمس الحاجة الى الاعوان والانصار للوقوف في وجه الحجاج بن يوسف ، فقد ((كان مع ابن الزبير قوم قدموا مع ابن عديس من مصر ثم صاروا خوارج ذوو شجاعة وبأس فقاتلوا معه دافعين عن البيت معظمين لحرمته ، وكانت لهم نكاية في أهل الشام، فبلغه عنهم مايقولون في عثمان رضي الله تعالى عنه ، فقال : والله ما أحب أن استظهر على عدوي بمن يبغض عثمان ولا بأن ألقى الله الا ناصرا له ، وجعل يماكرهم ، فقالوا : والله ما نرى أن نقاتل مع رجل يكفر أسلافنا ، وما قاتلنا الا لحرمة هذا البيت وأن نردها شورى، فتفرقوا عنه فاختل عسكره وعريت مصافه ودنا منه عدوه حتى قاتلوه في جوف المسجد . فقال عبيد بن عمير : عجبا لك ولما صنعت لهؤلاء القوم، وهم أهل البلاء الحسن والاثر الجميل ، هلا سكت عنهم واحتملتهم الى أن يصنع الله مايشاء وتضع الحرب أوزارها ، وقد قلت : لو أن الشياطين أعانتني على هؤلاء القوم لقبلتهم، وقد كان رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، يستعين في حربه بالمنافقين واليهود))(٣) .

ولم تكن علاقات ابن الزبير بالشيعة بأحسن من علاقاته بالخوارج ، فقد بدأ المختار حياته السياسية جنديا من جنود ابن الزبير، وحارب في صفوف جيشه خلال حصار مكة الاول في عهد يزيد بن معاوية(٤) . وكان المختار قد بايع ابن الزبير على شروط معلومة حددت وقبلها ابن الزبير، وكان قد اشترط من جملة هذه الشروط : أن لايقضي ابن الزبير أمرا بدون استشارته وأن يوليه أفضل عمله ،(٥) وكان المختار يطمع في تولي حكم مصر من الأمصار(٦) . وعندما اشتد ساعد ابن الزبير رفض تحقيق أطماع المختار بن أبي عبيد ،

١ — الشهرستاني : الملل والنحل ج ١ ص ١١٨ — ١١٩

٢ — انظر الطبري : تاريخ ج ٦ ص ١٦٨

٣ — البلاذري : أنساب الأشراف ج ٥ ص ٣٦١

٤ — انظر ابن كثير : البداية والنهاية ج ٨ ص ٢٩٠

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

نكث عهده وتناسى وعوده له . فتحول اخلاص المختار له الى حرب عليه (١) ، فوثب على ولاة ابن الزبير بالكوفة ونجح في السيطرة عليها ، وانشغل مصعب بن الزبير في مناهضة المختار من الاستعداد لمواجهة الجيوش الأموية التي التقت بالقوات الزبيرية وقد أضعفت قواها بعد صراعها مع المختار وشيعة الكوفة . في حين أن الأمويين احتفظوا بكامل قواهم العسكرية فهزموا مصعبا واستولوا على العراق ثم تقدمت جيوشهم لاجتياح الحجاز . وكذلك الهاشميون الذين نظر المسلمون اليهم نظرة احترام باعتبار أنهم آل الرسول صلى الله عليه وسلم، وبالتالي كانوا يرون أنهم أحق بالخلافة من الأمويين أو من ابن الزبير قد وقف زعماؤهم موقف المعارضة من خلافة ابن الزبير، (٢) فناصبهم العداء مما نفّر قلوب شيعتهم واتباعهم من الحركة الزبيرية ، وبادلوا عبد الله بن الزبير عداء بعداء .

ووقف الموالي من ابن الزبير موقفا عدائيا ، وعبّر أحدهم عن خيبة أمل الموالي بهذين البيتين :

ان الموالي أمست وهي عاتبة ... على الخليفة تشكو الجوع والحصرا (٣)

اخوانكم ان بلاد حل ساحتكم ... ولا ترون لنا في غيره نسبا (٤)

ولعل مرد ذلك ما عرف عن ابن الزبير من بخل وتقتير (٥) ، فلم ينل منه الموالي ((لشحه بالدنيا على سائر الناس)) (٦). وظهر هذا الشح في أحرج الأوقات وأشدها حاجة للبذل والعطاء، وعندما فرض الحجاج بن يوسف الحصار على مكة ، وطال أمد الحصار عانى الناس من قلة الغذاء والمؤن . وبقي ابن الزبير قسي تلك اللحظات الحرجة حريصا على الأموال ضنينا بها حتى على أعوانه وجنوده . فضاق الناس ذرعا بذلك فقد ((غلت الأسعار ... وأصاب الناس مجاعة شديدة ... وان بيوت ابن الزبير لمملوءة قمحا وشعيرا وذرة وتمرا . وكان أهل الشام ينتظرون فناء ما عنده ، وكان يحفظ ذلك ولا ينفق منه الا مايمسك الرمق، ويقول : أنفس أصحابي قوية مالم يغن . فلما كان قبيل مقتله تفرق الناس عنه ، وخرجوا الى الحجاج بالأمان، خرج من عنده نحو عشرة آلاف ، وكان ممن فارقه ابناه حمزة وخبيب)) (٧). وهكذا ساهم سوء تصرف ابن الزبير الاقتصادي في تفرق الناس عنه وخذلانهم اياه .

١— انظر المسعودي : مروج الذهب ج ٣ ص ٩٨

٢— انظر اليعقوبي : تاريخ ج ٢ ص ٢٦٢ ، ابن عبد ربه : العقد الفريد ج ٤ ص ٤١٣

٣— حربه حربا : سلب ماله . الفيروز آبادي : القاموس المحيط ج ١ ص ٥٥

٤— البلاذري : أنساب الأشراف ج ٥ ص ١٨٨

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ولا شك أن ابن الزبير كان على جانب كبير من الصفات الحسنة والأخلاق الحميدة، عدا ميلـــه[1] الى التقتير اذ اعتقد أنه سيحقق آماله بما عرف عنه من الصلاح والصدق والوفاء والتقوى والصيام والقيام. ولم يلتفت الى ما سوى ذلك لترسيخ جذور خلافته في الأرض ببذل المال واعطاء الصلات والهبات.

وقد اعترف عبد الملك بن مروان وهو على فراش الموت بجدارة ابن الزبير للخلافـة، وبتقواه وورعه، ونسب اخفاق دعوته الى بخله وتقتيره فقال: ((ما أعلم مكان أحد أقوى على هذا الأمر مني، وان ابـن الزبير لطويل الصلاة كثير الصيام ولكن لبخله لا يصلح أن يكون سائسا))[2].

وبخضوع الحجاز للحكم الأموي، دخلت البلاد في عهد جديد من التبعية للشام، بعد أن حلم أهلها بالمجد، وسعوا في سبيل ابقاء مركز الثقل السياسي في بلادهم. وهزم ابن الزبير الذي بسط سلطانه على الحجاز والعراق ومصر والشام عدا الأردن. ودامت خلافته ما يزيد على تسع سنين (٦٤ ـ ٧٣هـ) ثم انهار حكمه ولم تقم له قائمة.

وقد كان لهذه الهزيمة التي مني بها الحكم الزبيري أثر عميق بالحجاز، ذلك أن الهزيمة لـم تصب شخص عبد الله بن الزبير فحسب[3]، ولكنها هزيمة ذلك الاقليم الذي حمل لواء الثـورة ضد بني أمية، فترة من الزمـن. وكانت تلك المحاولة آخر المحاولات التي بذلها أهل الحجاز لاسترداد نفوذهـــم السياسي في العصر الأموي.

وقد شهدت الحجاز أثناء خلافة ابن الزبير بعض الاصلاحات العمرانية، كان أبرزها إعادة بناء الكعبة سنة خمس وستين هجريه حين كثرت على ابن الزبير الأموال[4]، فأراد اعادة بنائها وكانت قـد مالت حيطانها لما أصابها أثناء حصار ابن الزبير الأول من قبل الحصين بن نمير[5]، خاصة وقد صعب ترميمها، اذ ربما تنهار الجدران على من فيها في أي وقت فقد غدت ((الكعبة متوهنة ترتج من أعلاها الـــى اسفلها))[6]. وكان من الضروري ضمان سلامة هذه الجدران، فقد كانت الكعبة ومازالت قبلة آلاف الحجاج المسلمين كل عام حيث يتزاحمون ويتدافعون للطواف والتبرك بها، فكيف يكون ذلك وهي متداعية الجدران.

١ـ انظر ابن كثير: البداية والنهاية ج ٨ ص ٣٣٤ ـ ٣٣٧

٢ـ الطبري: تاريخ ج ٦ ص ٤٢٢

٣ـ انظر حسن ابراهيم حسن: تاريخ الاسلام ج ١ ص ٤١٦

٤ـ انظر الدينوري: الأخبار الطوال ص ٢٨٧ ـ ٢٨٨

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ولذلك أمر ابن الزبير بهدمها حتى ألحقت بالأرض((ولف الحجر الأسود في حرير وجعله في تابوت وختم عليه واستودعه الحجبة مع جميع ماكان مغلقا في الكعبة من ذهب وجوهر))(١). وطاف الناس من وراء الأساس أثناء تجديد البناء(٢).

وقد رغب ابن الزبير في بناء الكعبة على الشكل الذي كان الرسول الكريم يريد أن يبنيها عليه حين قال لعائشة :((لولا حدثان قومك بكفر لنقضت الكعبة ولأدخلت فيها الحجر، فان قومك قصرت بهم النفقة. ولجعلت لها بابا شرقيا وبابا غربيا يدخل الناس من أحدهما ويخرجون من الآخر، ولألصقت بابها بالأرض، فان قومك رفعوا بابها ليدخلوا من شاؤا ويمنعوا من شاؤا))(٣). وهكذا فعل ابن الزبير الذي بذل قصارى جهده في اتمام البناء حسب الصورة التي رويت له ، وطلب من((صنعاء الفسيفساء التي كان بناها أبرهة الحبشي في كنيسته التي اتخذها هناك ومعها ثلاث أساطين من رخام فيها وشي منقوش قد حشي النقش السندروس وأنواع الألوان من الأصباغ فمن رآه ظنه ذهبا))(٤). واحتاج الى الحجارة فأخبره رجال من أهل العلم في مكة بمقلع قريش الذي أخذت منه الحجارة ، فأمر ونقل اليه قدر مايحتاج من ذلك المقلع(٥).

شرع ابن الزبير في الهدم ، فهدمها حتى أفضى الى قواعد ابراهيم، ثم أعاد البناء وأدخل الحجر في البناء حتى رفعها ، وجعل لها بابين ، بابا شرقيا وبابا غربيا ، وصيّر على كل باب مصراعين، وكان على بابها الأول مصراع واحد ، وجعل طول البابين أحد عشرة ذراعا وكان ارتفاعها في السماء ثماني عشرة ذراعا ، فجعلها ابن الزبير تسعا وعشرين ذراعا(٦). ولم يرفعها عن الأرض بل جعلها مستوية مع وجه الارض(٧).

١ـ الدينوري : الأخبار الطوال ص٢٨٨

٢ـ انظر اليعقوبي : تاريخ ج ٢ ص ٢٦٠، البلاذري : أنساب الأشراف ج ٤ق٢ ص ٥٦

٣ـ ابن كثير : البداية والنهاية ج ٨ ص ٢٥٠

٤ـ المسعودي : مروج الذهب ج ٣ ص ٨٣

٥ـ انظر الأزرقي : أخبار مكة ج ١ ص ٢٠٥

٦ـ ذكر الأزرقي : أخبار مكة ج ١ ص ٢٠٩، أن ابن الزبير بناها تسعا وعشرين ذراعا في السماء.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ولم يسلم عمل ابن الزبير هذا من النقد ، فقد هالت جرأة ابن الزبير على هدم الكعبة بعض المسلمين ((فاجتمع اليه الناس وأبو ذلك ، فأبى الا هدمها))(١). وخشي البعض الآخر أن ينزل بهم العذاب لهدمها ، فخرجوا من مكة الى منى فأقاموا بها ثلاثا ولما لم يكن الا الخير عادوا(٢). وخشي ابن عباس أن يقتدي بابن الزبير من يأتي بعده(٣) ، فلا تزال تهدم وتبنى فيتهاون الناس في حرمتها(٤).

ولكن الذي أثار غضب قريش حقيقة أن عبد الله بن الزبير تولى هو أو أحد أولاده ، وضع الحجر الأسود بمكانه ، على خلاف في الروايات ، وقالوا : والله ماهكذا فعل رسول الله ، ولقد حكمته قريش فجعل لكل قبيلة نصبا(٥).

وقد بقي بناء ابن الزبير للكعبة الى أن حاصرت الجيوش الأموية مكة وقضت على ابن الزبير. وتم للأمويين اخضاع الحجاز ، فأمر عبد الملك بن مروان عامله عليها ، الحجاج بن يوسف ، بنقض بناء الكعبة الذي بناه ابن الزبير ، فأعاد الحجاج بناءها كما كانت قبل التجديد ((فهدم الكعبة وأخرج الحجر من البيت وبنى البيت على ماكان عليه في زمن النبي صلى الله عليه وسلم))(٦). وسد الباب الغربي(٧). ويبدو أن عبد الملك قد تسرع في هذا الأمر اذ لم يكن قد سمع بالحديث النبوي عن عائشة والذي عمل ابن الزبير على أساسه ، ((فكان عبد الملك يقول : كذب ابن الزبير على عائشة في أن الحجر من البيت فلما قيل له : قال غير ابن الزبير أنها روت ذلك عن رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، قال : وددت أني تركته وما يحمل))(٨).

١ـ المقدسي : أحسن التقاسيم ص ٧٤

٢ـ انظر الأزرقي : أخبار مكة ج ١ ص ٢٠٥

٣ـ انظر البلاذري : أنساب الأشراف ج ٤ ق٢ ص ٥٥

٤ـ انظر الأزرقي : أخبار مكة ج ١ ص ٢٠٤

٥ـ انظر البلاذري : أنساب الأشراف ج ٤ ق٢ ص ٥٦ ، اليعقوبي : تاريخ ج ٢ ص ٢٦٠ ، الأزرقي : أخبار مكة ج ١ ص ٢٠٨

٦ـ أبو الفداء : المختصر ج ١ ص ١٩٧ ، ابن قتيبة : المعارف ص ٣٥٦ ، العمري : مسالك الأبصار ج ١ ص ١٩٧

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الحالة السياسية في الحجاز بعد مقتل ابن الزبير :

أخضع الحجاج بن يوسف بلاد الحجاز للحكم الأموي ، ورأى عبد الملك بن مروان مكافأة قائده فعهد اليه بالولاية على ((مكة واليمن واليمامة)) تقديرا لجهوده على تفانيه في خدمة الأمويين ، ((وماد ار الشهر دورة حتى ولاه الحجاز جميعه))(١)(٢)(٣). وعزل طارق بن عمرو عن المدينة وضمها لحكم الحجاج .

بدأ الحجاج بمكة فبايعه أهلها لعبد الملك بن مروان ، وأمر بكنس المسجد الحرام من الحجارة والدماء ، وجهد في تسكين أهلها وتهدئة نفوسهم وتبرير أعماله الحربية ، فخطب الناس ووصف ابن الزبير أنه كان من خيار الأمة ثم انه رغب في الدنيا ونازع الخلافة أهلها ، فاستحق ذلك العصير اذ ((خلع طاعة الله وألحد في حرم الله ، ولو كانت مكة شيئا يمنع القضاء لمنعت آدم حرمة الجنة وقد خلقه الله بيده ونفخ فيه من روحه وأسجد له ملائكته وعلّمه أسماء كل شيء فلما عصاه أخرجه الله من الجنة وأهبطه الى الارض وآدم أكرم على الله من ابن الزبير))(٤)(٥). وظن الحجاج أن يمحو بجبروته وخطبه ما ارتكبت يداه .

وقد تشدد الحجاج في معاملة آل الزبير وآل علي ، ولم ينج عروة بن الزبير ومحمد بن الحنفية ، الا بأوامر عبد الملك بن مروان نفسه الذي كتب بهذا الشأن الى الحجاج ، وأوصاه قائلا : ((جنبني دماء آل بني أبي طالب ، فاني رأيت آل حرب لما تهجموا بهالم ينصروا))(٦)(٧)(٨). وأقام الحجاج سنة ٧٣هـ الحج للناس .

وفي سنة ٧٤ هـ نقض بناء ابن الزبير للكعبة وأعادها على بنائها الاول (٩)(١٠).

وقد رحل الحجاج بن يوسف الى المدينة ، ولبث بها شهرا أو شهرين ، فأساء الى أهلها

---

١ ـ الطبري : تاريخ ج ٦ ص ١٩٤

٢ ـ دوزي : تاريخ مسلمي اسبانيا ج ١ ص ١١١

٣ ـ انظر البلاذري : أنساب ج ص ٣٧٣ يذكر ابن الأثير : الكامل ج ٤ ص ٣٦٥ أن عزل طارق كان سنة ٧٤ هـ

٤ ـ انظر ابن الأثير : الكامل ج ٤ ص ٣٥٨

٥ ـ ابن كثير : البداية والنهاية ج ٨ ص ٣٣٢

٦ ـ انظر الزبير بن بكار : جمهرة نسب قريش ص ٢٧٤ ـ ٢٧٥

٧ ـ انظر المسعودي : مروج الذهب ج ٣ ص ١١٦ ، البلاذري : أنساب الأشراف ج ٥ ص ٣٧١

٨ ـ اليعقوبي : تاريخ ج ٢ ص ٣٠٤

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

واستخف بهم، ولم ينس قط أنهم قتلة أمير المؤمنين عثمان،(١) وكان ممن ختم في أعناقهم أو أيديهم جابر بن عبد الله ، وأنس بن مالك ، وسهل بن سعد اذلالا لهم(٢) كما يفعل بأهل الذمة.

ولم تطل ولاية الحجاج بن يوسف على الحجاز ، فما أن توفي بشر بن مروان حتى عهد اليه عبد الملك بولاية العراقين(٣) سنة خمس وسبعين من الهجرة . ولما خرج الحجاج من المدينة قال : ((الحمد لله الذي أخرجني من أم نتن أهلها أخبث أهل ، أفشه لأمير المؤمنين وأحسده له على نعمته ، والله لولا ما كان يأتيني من كتب أمير المؤمنين فيهم لجعلتها مثل جوف الحمار أعواد يعوذون بها ورمة قد بليت يقولون منبر رسول الله وقبر رسول الله . فبلغ جابر بن عبد الله قوله فقال : ان أمامه ما يسوءه قد قال : فرعون ما قال ثم أخذه الله بعد أن أنظره))(٤)، ولعل هذه الأقوال تفصح عما انحدر اليه بعض ولاة الدولة الأموية ، حين فداهم أحدهم خدمة أسياده والنظر الى مصلحتهم بغض النظر عن كل الاعتبارات الأخرى. وعلى هذا الأساس يمكن تفسير اشتطاط وعسف الحجاج بأهل الحجاز لحقده عليهم لموقفهم من بني أمية .

والواقع أن قسوة المعاملة لم تقتصر على الولاة فحسب، بل شارك عبد الملك بن مروان نفسه في الشدة على أهل الحجاز، فعندما قدم الى الحجاز سنة خمس وسبعين حاجا ، وقف خطيبا في أهل المدينة فقال :((... نحن نعلم أنكم لا تحبوننا أبدا وأنتم تذكرون يوم الحرة، ونحن لا نحبكم أبدا ونحن نذكر مقتل عثمان))(٥). وأضاف : ((ألا وأني لا أداوي هذه الأمة الا بالسيف حتى تستقيم لي قناتكم ، وانكم تحفظوننا أعمال المهاجرين الأولين ولا تعملون مثل أعمالهم ، وانكم تأمروننا بتقوى الله وتنسون ذلك من أنفسكم، والله لا يأمرني أحد بتقوى الله بعد مقامي هذا الا ضربت عنقه))(٦).

غير أن انتصار عبد الملك على معارضيه بالقوة المسلحة وشدته عليهم بعد ذلك، لم يقض على الأسباب التي أدت الى المشاكل التي من أجلها ظهرت المعارضة اذ أخذت عوامل التذمر طريقها خفيا ، وظلت جماهير الناس وفي مقدمتهم أهل الورع والتقوى معارضة للدولة الأموية .

١ــ انظر البلاذري : أنساب الأشراف ج ٥ ص ٣٧٣
٢ــ انظر الطبري : تاريخ ج ٦ ص ١٩٥
٣ــ انظر ابن قتيبة : الامامة والسياسة ج ٢ ص ٢٥
٤ــ البلاذري : أنساب الأشراف ج ٥ ص ٣٧٤، وانظر ابن الأثير : الكامل ج ٤ ص ٣٥٩
٥ــ المسعودي : مروج الذهب ج ٣ ص ١٢٢
٦ــ ابن الأثير : الكامل ج ٤ ص ٣٩١ ــ ٣٩٢

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وبعد رحيل الحجاج بن يوسف الى العراق، أمر عبد الملك على المدينة يحيى بن الحكم بن أبي العاص[١]، ثم وليها أبان بن عثمان سنة ست وسبعين هجرية[٢]، ثم استعمل عبد الملك عليها هشام ابن اسماعيل المخزومي سنة اثنتين وثمانين[٣]، الى أن وليها عمر بن عبد العزيز في خلافة الوليد بن عبد الملك سنة سبع وثمانين[٤].

استهل عمر بن عبد العزيز ولايته بأن دعا اليه فقهاء المدينة للاستعانة بهم في أمور ولايته، ودعاهم أن يكونوا أعوانا لادارته في الحق قائلا: ((اني انما دعوتكم لأمر تؤجرون عليه، وتكونون فيه أعوانا على الحق، ما أريد أن أقطع أمرا الا برأيكم أو برأي من حضر منكم، فان رأيتم أحدا يتعدى، أو بلغكم عن عامل لي ظلامة، فاحرج الله على من بلغه ذلك الا بلغني))[٥]. ذلك أن عمر بن عبد العزيز أراد أن يتخذ الشورى منهجا لادارة الولاية التي أسند اليه حكمها. وقد كان عمر بن عبد العزيز مثالا يحتذى في الورع والتقوى، ولعل دعوته الى فقهاء المدينة لمساعدته على الحق انبثقت من هذه الصفة الدينية، وروي أن أنس بن مالك قال: ((ماصليت وراء امام بعد رسول الله، صلى الله عليه وسلم أشبه صلاة برسول الله من هذا الفتى ـ يعني عمر بن عبد العزيز ـ وهو أمير على المدينة))[٦]. فأراد[٧] أن تتفق ادارته مع صلاحه وتقواه، مما أرض أهل المدينة فخرجوا وهم يحمدونه ويجزونه خيرا.

وفي ولاية عمر بن عبد العزيز على المدينة، ضرب الوليد بن عبد الملك البعث على أهلها[٨] فخرج منهم ألف وخمسمائة. وضآلة هذا العدد انما تدل على أن العناصر السياسية النشيطة كانت قد خرجت من المدن الحجازية الى الأمصار. فخلت البلاد أو كادت من العناصر العسكرية النشطة التي كانت لها في مجدها السابق.

١ـ انظر الطبري: تاريخ ج ٦ ص ٢٠٢

٢ـ انظر ابن الأثير: الكامل ج ٤ ص ٤١٨

٣ـ انظر المرجع السابق ص ٤٧٦

٤ـ انظر ابن كثير: البداية والنهاية ج ٩ ص ٧١

٥ـ الطبري: تاريخ ج ٦ ص ٤٢٧ ـ ٤٢٨

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ومن الاصلاحات التي تمت في ولاية عمر بن عبد العزيز حفر الآبار بالمدينة والتي تمت باشارة من الوليد بن عبد الملك، والذي أمر لها بقوّام يقومون عليها، وأن يسقي أهل المسجد النبوي منها.

الا أن أعظم تلك الاصلاحات العمرانية التي تمت في ذلك العهد، كانت تجديد عمارة مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم. اذ كتب الوليد بن عبد الملك في شهر ربيع الأول سنة ثمان وثمانين هجرية الى عمر بن عبد العزيز ((يأمره بادخال حجر أزواج النبي، صلى الله عليه وسلم، في مسجد رسول الله، صلى الله عليه وسلم، وأن يشترى ما في نواحيه حتى يكون مائتي ذراع في مائتي ذراع ويقول له: قدم القبلة ان قدرت، وأنت تقدر لمكان أخوالك وأنهم لا يخالفونك، فمن أبى فقوّموا ملكه قيمة عدل وأهدم عليهم وادفع الأثمان اليهم، فان لك في عمر وعثمان أسوة))(١)(٢).

وحين عرض عمر بن عبد العزيز هذا الأمر على أهل المدينة وافقه على التجديد معظم الناس، وأجاب القوم الى الثمن، فابتدئ العمل وأخذ الفعلة في هدم بيوت زوجات النبي الكريم وشرع عمر في البناء، وشمر عن ازاره واجتهد في ذلك، وأرسل اليه الوليد فعولا كثيرة(٣)، وكتب الوليد الى ملك الروم: ((انا نريد أن نعمر مسجد نبينا الأعظم، فأعني فيه بصناع وفسافسا - فسيفساء - فبعث اليه باحمال وبضعة وعشرين صانعا، فيهم عشرة يعدلون مائة، وثمانين ألف دينار))(٤)(٥).

وجاء تجديد عمارة المسجد متفقا مع رفاه الدولة الأموية التي كانت قد بلغت أوج مجدها في عهد الوليد بن عبد الملك. ويستفاد من الروايات التي ذكرها السمهودي(٦)، أن المسجد كان يضيق بالمصلين يوم الجمعة فحلّت زيادة البناء هذه المشكلة.

وحين صار عمر بن عبد العزيز الى جدار القبلة دعا مشيخة من أهل المدينة من قريش والأنصار والعرب والموالي فقال لهم: تعالوا احضروا بنيان قبلتكم، لا تقولوا غيّر عمر قبلتنا. فجعل لا ينزع حجرا

١- انظر اليعقوبي: تاريخ ج ٢ ص ٢٨٤

٢- ابن الأثير: الكامل ج ٤ ص ٥٣٢

٣- انظر الطبري: تاريخ ج ٦ ص ٤٣٥

٤- انظر ابن كثير: البداية والنهاية ج ٩ ص ٧٥

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الا جعل مكانه حجرا.[1] وبناه بالحجارة المنقوشة المطابقة وقصّة[2] بطن نخل وعمله بالفسيفساء والمرمر وجعل سقفه بالساج وماء الذهب وعمل الأساس بالحجارة ، وجعل عمد المسجد من حجارة حشوها عمد الحديد والرصاص.[3]

وحج الوليد بن عبد الملك سنة احدى وتسعين هجرية بعد أن فرغ عمر بن عبد العزيز من بناء المسجد ، فجعل الوليد يطوف في المسجد وينظر الى بنائه[4] ، فأعجب به ((وقسّم الوليد بالمدينة رقيقا كثيرا عجما بين الناس وآنية من ذهب وفضة وأموالا))[5]. وأقام الحج للناس تلك السنة. وغدت الحجاز تنعم بأمن وعافية مما ابتليت به الأمصار الأخرى كالعراق من الفتن والقلاقل ، وأخذت فلول ثوار العراق تتجه الى الحجاز فرارا من سيف الحجاج بن يوسف المسلول ، فكان عمر بن عبد العزيز يجيرهم ويحميهم.[6]

وبالرغم من ذلك لم تتطفىء المعارضة الحجازية تماما ، فأخذ عمر بن عبد العزيز خبيب بن عبد الله ابن الزبير فضربه ومات من ضربته تلك.[7] كما أن سعيد بن المسيب رفض في عهد خلافة عبد الملك بن مروان أن يبايع للوليد وسليمان فضربه الوالي الأموي مائة سوط.[8]

ولم يلبث الوليد بن عبد الملك أن عزل عمر بن عبد العزيز سنة ثلاث وتسعين هجرية وذكر الطبري[9] أن سبب العزل كان ((أن عمر بن عبد العزيز كتب الى الوليد يخبره بعسف الحجاج أهل عمله بالعراق واعتدائه عليهم وظلمه لهم بغير حق ولا جناية — وحين بلغ الحجاج ذلك كتب الى الوليد : ان أقبلي من من العراق أهل العراق وأهل الشقاق قد جلوا من العراق ولجئوا الى المدينة ومكة وأن ذلك وهن)) وذكر

١ــ انظر السمهودي : وفاء الوفا بأخبار دار المصطفى ج ٢ ص ٥٢٠

٢ــ القصة : بفتح القاف وتشديد الصاد : الجص

٣ــ انظر السمهودي : وفاء الوفا ج ٢ ص ٥١٩ .

٤ــ انظر الطبري : تاريخ ج ٦ ص ٤٦٥

٥ــ انظر ابن الاثير : الكامل ج ٤ ص ٥٥٥ ، الطبري : تاريخ ج ٦ ص ٤٦٦

٦ــ انظر عبد الحميد العبادي : صور من التاريخ الاسلامي ص ١٥٩ الاسكندرية ١٩٤٨

٧ــ انظر المصعب الزبيري : نسب قريش ص ٢٣٩

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

السيوطي[١] سببا آخر فقال : ان الوليد بن عبد الملك أراد أن يعزل أخاه سليمان من ولاية العهد ، وأن يبايع ابنه ، فأطاعه كثير من الناس رغبة أو رهبة . ورفض عمر بن عبد العزيز موافقة الوليد على ذلك قائلا : في أعناقنا بيعة، وأصر على موقفه . فانقلب عليه الوليد ، وكاد أن يفتك به لولا شفاعة بعض الناس. فأطلقه واكتفى بعزله عن عمله . ويبدو أن رواية الطبري أكثر صدقا ، يؤيد هذا الرأي أفعال الولاة الذين خالفوا عمر بن عبد العزيز وسعيهم لتحقيق رغبة الحجاج في اخراج أهل العراق من الحجاز .

ولّى الوليد المدينة عثمان بن حيان المري فأخذ من بها من أهل العراق فحبسهم وعاقبهم ، ثم بعث بهم في جوامع الى الحجاج بن يوسف ، ((ولم يترك بالمدينة أحدا من أهل العراق تاجرا ولا غير تاجر[٢]))، ولم تقتصر شدة الوالي الأموي في المدينة على العراقيين فحسب ، بل تجاوزتهم الى أهل الحجاز أنفسهم ، فخطبهم قائلا : ((أيها الناس ، انا وجدناكم أهل غش لأمير المؤمنين في قديم الدهر وحديثه ، وقد ضوى اليكم من يزيدكم خبالا ، أهل العراق هم أهل الشقاق والنفاق ... فاني والله لا أوتى بأحد آوى أحدا منهم أو أكراه منزلا ، ولا أنزله الا هدمت منزله وأنزلت به ماهو أهله ... ان عندي يا أهل المدينة خبرة من الخلاف والله ما أنتم باصحاب قتال ، فكونوا من أحلاس بيوتكم وعضوا على النواجذ ، فاني قد بعثت في مجالسكم من يسمع فيبلغني عنكم ، انكم في فضول كلام غيره ألزم لكم فدعوا عيب الولاة[٣])).

ويتضح من خطبة عثمان بن حيان المري نظرة السلطة الحاكمة الى أهل المدينة الذين بقوا محل اتهام وعدم ثقة السلطة بهم ، فبادلوها العداء وأطلقوا على الوالي الأموي الخبيث[٤] لما ظهر لهم منه .

أما خالد بن عبد الله القسري فولي مكة للوليد بن عبد الملك ((فأخرج من بها من أهل العراق كرها وتهدد من أنزل عراقيا أو آجره دارا))[٥] ، وبقي خالد على ولاية مكة للوليد ثم ((أقرّه سليمان عليها حتى ولي زمانا فأحدث أشياء بمكة منها ماذمّ الناس عليه ومنها ما أخذوا به .... فأما الأشياء التي نسكوا بها من فعله فالتكبير في شهر رمضان حول البيت وادارة الصف حول البيت والتفرقة بين الرجال

---

١ انظر تاريخ الخلفاء ص ٢٢٩ — ٢٣٠

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

والنساء في الطواف والتشهد الخالدي. وأما الأشياء التي ذمّوه عليها فعمله البركة عند زمزم والركن والمقام لسليمان بن عبد الملك وألحمل على قريش بمكة واظهار العصبية عليهم))[1].

والواقع أن مثل هؤلاء الولاة انما كانوا خدما للسلطة الحاكمة وكل مايهم الواحد منهم تنفيذ أوامر الخليفة كالذي روى أن خالد بن عبد الله القسري خطب أهل مكة فقال: ((يأيها الناس .... عليكم بالطاعة ولزوم الجماعة واياكم والشبهات فاني والله ما أوتى بأحد يطعن على امامه الا صلبته في الحرم. ان الله جعل الخلافة منه بالموضع الذي جعلها فسلموا وأطيعوا ولا تقولوا كيت وكيت. انه لا رأي فيما كتب به الخليفة أو رآه الا امضاؤه))[2]. ولم يكن لتلك الشدة مبررات ضرورية، اذ الملاحظ أن حركة عبد الله بن الزبير كانت آخر الحركات السياسية الهامة التي شارك فيها أهل الحجاز لاستعادة الحكم والتخلص من بني أمية. فدار صراع سياسي انتهى بهزيمة أهل الحجاز فمالوا الى الهدوء والسكينة.

الا أن الاحساس بالظلم دفع بعض أهل الحجاز الى الثورة، وكان اعتمادهم على عناصر غير حجازية. فقد كانت ((حياة بني أمية في بلاطهم وبين حاشيتهم لا تحقق من كل الوجوه ما كان ينتظره الأتقياء من رؤساء الدولة الاسلامية من كبت النفس والهوى والابتعاد عن متع هذه الحياة وزينتها))[3].

وهذا ما حمل علماء الدين وأهل الورع والتقوى على مناهضة الأمويين خاصة من أهل مكة والمدينة، ((الذين كان الأمويون أبعد الناس عن الارتياح اليهم))[4].

ولا شك أن الاحداث الدامية التي وقعت في العهد الأموي على أرض الحجاز، ومارافق ذلك من دماء وآلام كان لها أثر عميق في نفوس أهل الحجاز ويظهر ذلك بوضوح في ثورة زيد بن علي على هشام بن عبد الملك.

وقد كانت الحجاز دار مقام العلويين منذ أن قتل الحسين بن علي في كربلاء، وليس للحسين عقب الا من علي بن الحسين الأصغر[5]، الذي بقي على قيد الحياة بعد حادث استشهاد أبيه وأهل بيته،

١ــ الفاكهي: المنتقى في أخبار أم القرى ص ٣٦ مكتبة خياط بيروت ١٩٦٤

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وقد عاد علي بن الحسين الى المدينة ولم يشترك في أحداث الحجاز السياسية في ذلك العهد ورأى (١) (٢) (٣)
اعتزالها ، وعرف بين الناس بالورع والتقوى والصلاح فسمي زين العابدين والسجاد . وكان خيرا فاضلا ووقف من الدولة الأموية موقفا سلميا ، اذ كان يرى الأخذ بالتقية فكان يقول :((التارك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر كنابذ كتاب الله وراء ظهره ، الا أن يتقي تقاة، قيل وما تقاه ؟ قال : يخاف جبارا (٤)
عنيدا ، يخاف أن يفرط عليه أو أن يطغى)). ولكن ابنه زيدا لم يأخذ بهذه السياسة، فكان ((يحدث (٥)
نفسه بالخلافة ، ويرى أنه أهل لذلك)).

وحانت الفرصة لزيد حين قدم على هشام بن عبد الملك في خلافته سنة احدى وعشرين ومائة (٦)
للهجرة ، فلم يحسن هشام استقباله وقال له : ((لقد بلغني يازيد أنك تذكر الخلافة وتتمناها ، ولست (٧)
هناك وأنت ابن أمة)). ثم اتهمه بوديعة عنده لخالد بن عبد الله القسري أمير العراق السابق، فبعث بزيد الى يوسف بن عمر والي العراق لهشام، فاستحلفه أن ليس عنده مال لخالد بن عبد الله وخلّى (٨)
سبيله .

وأقام زيد بالكوفة أربعة أشهر أو خمسة رغم أوامر الوالي اليه بالخروج منها ، وكانت الشيعة تختلف اليه ، فنصحه داود بن علي ألا يغتر بهم، فتوجه الى المدينة . ولكن الشيعة اتبعوه الى العقبية ورجوه أن يعود معهم وقالوا : ((نحن أربعون ألفا ، ان رجعت الى الكوفة لم يتخلف عنك (٩)
أحد ، وأعطوه المواثيق والأيمان المغلظة)).

وصادفت دعوة أهل الكوفة قبولا من زيد بن علي فعاد معهم رغم النصائح الجادة والمخلصة (١٠)
التي وجهت اليه ، فلما رجع الى الكوفة أقبلت الشيعة تختلف اليه ((يبايعونه حتى أحصى ديوانه (١١)
عشر ألفا من أهل الكوفة)).

١ــ انظر ابن كثير : البداية والنهاية ج ٩ ص ١٠٤

٢ــ انظر المسعودي : مروج الذهب ج ٣ ص ١٦٠

٣ــ انظر ابن قتيبة : المعارف ص ٢١٥

٤ــ ابن سعد : الطبقات ج ٥ ص ٢١٣ ــ ٢١٤

٥ــ ابن الطقطقي : الفخري في الآداب السلطانية ص ١٣٢

٦ــ انظر ابن الاثير : الكامل ج ٥ ص ٢٣٢

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وعندما أعلن زيد بن علي الثورة لم تغن عنه كثرة أتباعه شيئا ، فتخاذلوا عنه ، وتكررت مأساة الحسين بن علي في شخص حفيده ، ولم تجد الأيمان المغلظة التي قطعها الشيعة لزيد شيئا ، فانتهت حركته بالفشل والقتل سنة اثنتين وعشرين ومائة (١) . وهرب ابنه يحيى بن زيد الى خراسان حيث أعلن الثورة (٢) سنة ١٢٥ هـ ، فانتهت نفس نهاية ثورة أبيه (٣) بالكوفة .

ولم يشترك أهل الحجاز في ثورة زيد بن علي ، الا أنها نالت تأييدهم الأدبي مما حمل هشام ابن عبد الملك على منع أهل مكة وأهل المدينة أعطياتهم سنة (٤) . ثم ردها عليهم الوليد بن يزيد .

وتركت ثورة زيد بن علي أثرها في الأحداث السياسية ، فإليه تنسب الشيعة الزيدية (٥) ، وهم الذين ساقوا الامامة في أولاد فاطمة رضي الله عنها ، ومن مذهبهم جواز امامة المفضول مع قيام الأفضل (٦) . وقد ذهب زيد نفسه الى هذا الرأي حين سأله أتباعه قائلين :((رحمك الله ما تقولك في أبي بكر وعمر ؟ قال زيد : رحمهما الله وغفر لهما . ما سمعت أحدا من أهل بيتي يتبرأ منهما ولا يقول فيهما الا خيرا . قالوا : فلم تطلب بدم أهل هذا البيت الا أن وثبا على سلطانكم فنزعاه من أيديكم (٧))) .

أما هو فعلل خروجه على الأمويين بظلمهم ودعا أتباعه الى كتاب الله وسنة نبيه والى السنن أن تحيا والى البدع أن تطفأ (٨) ، ففارقه قوم ونكثوا بيعته فسماهم زيد الرافضة .

وبجانب ذلك مهدت ثورة زيد وأبنه يحيى الطريق أمام دعوة العباسيين ، وساعدت في تهيئة الظروف للقضاء على الدولة الأموية ، فما أن قتل زيد حتى تحركت الشيعة بخراسان ، ((وظهر أمرهم ، وكثر من يأتيهم ويميل معهم ، وجعلوا يذكرون للناس أفعال بني أمية وما نالوا من آل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، حتى لم يبق بلد الا فشا فيه هذا الخبر وظهرت الدعاة ... (٩))) . وأفلح دعاة العباسيين في

١ـ انظر ابن خلدون : المقدمة ج ٢ ص ٧٠٤

٢ـ انظر ابن كثير : البداية والنهاية ج ٩ ص ٣٣٠ ـ ٣٣١

٣ـ انظر الطبري : تاريخ ج ٧ ص ٢٣٠

٤ـ انظر الأصفهاني : الأغاني ج ٧ ص ٢١ ، ٢٢ طبعة دار الكتب المصرية

٥ـ انظر الشهرستاني : الملل والنحل ج ١ ص ١٥٤

٦ـ انظر المرجع السابق ص ١٥٤ ـ ١٥٥

٧ـ الطبري : تاريخ ج ٧ ص ١٨٠ ـ ١٨١

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

استغلال دماء آل البيت فنشروا دعوتهم في خراسان، مطالبين بالحكم للرضى من آل محمد • ويبولغ في أفعال بني أمية الذين تدل النصوص التاريخية على أن أنهم قتلوا الحسين وزيد بن علي لأنهما خالفاهم وطالبا بالخلافة، أما بعد ذلك فكان الأمويون يعاملون الهاشميين معاملة حسنة (١) • والهاشميون مسؤولون عما أصابهم من احباط الى حد كبير (٢) •

وفي أواخر عهد الدولة الأموية وفي خلافة آخر خلفائها مروان بن محمد ، تعرضت الحجاز لغزو الخوارج الأباضية واحتلالهم للبلاد الحجازية •

وقد ظهر الخوارج الأباضية بحضرموت في جنوب الجزيرة العربية بقيادة عبد الله بن يحيى •

اذ كان أبو حمزة المختار بن عوف الأزدي يفد من البصرة في موسم الحج ((يدعو الناس الى خلاف مروان ابن محمد)) (٣) • ولم يزل يختلف في كل سنة حتى وافى عبد الله بن يحيى الموسم أواخر سنة ثمان وعشرين ومائة، وعندما سمع أقوال أبي حمزة قال له :((يارجل أسمع كلاما حسنا وأراك تدعو الى حق، فانطلق معي فاني رجل مطاع في قومه)) (٤) •

فخرج أبو حمزة معه الى حضرموت (٥) وفي بداية سنة ١٢٩ هـ بويع عبد الله بن يحيى خليفة للخوارج ، ولقب بطالب الحق، واستولت قواته على حضرموت (٦) • ثم زحفت الى اليمن واستولت على صنعاء بعد الحاق الهزيمة بالوالي الأموي •

وفي سنة ١٢٩ هـ خرج أبو حمزة الى مكة (٧) في سبعمائة رجل من قبل عبد الله بن يحيى ، فوافاها في موسم الحج • وكان على الموسم في ذلك العام عبد الواحد بن سليمان بن عبد الملك والي المدينة، ومكة والطائف (٨) • وعندما علم عبد الواحد بخلاف الخوارج مروان وآل مروان والتبرؤ منهم ، راسلهم في الهدنة حتى ينتهي موسم الحج •

١ـ انظر شوقي ضيف : التطور والتجديد في الشعر الأموي ص ٩٧

٢ـ انظر سيديو : تاريخ العرب العام ص ١٧٦

٣ـ الطبري : تاريخ ج ٧ ص ٣٤٨

٤ـ ابن الأثير : الكامل ج ٥ ص ٣٥١

٥ـ انظر فلهوزن : الخوارج والشيعة ص ١٣٨

٦ـ انظر اليعقوبي : تاريخ ج ٢ ص ٣٣٩

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وعندما انتهى الموسم خرج عبد الواحد بن سليمان الى المدينة وترك مكة فاستولى الخوارج عليها.(١)
من المدينة أرسل الوالي الأموي جيشا ضد أبي حمزة بقيادة عبد العزيز بن عبد الله بن عمرو بن عثمان.

وفي هذا الجيش عدد كبير من رجالات قريش الذين لم يكونوا كأسلافهم ، فقد ((كانوا مترفين ليسوا بأصحاب حرب))(٢). وليست عليهم سيماء المقاتلين الحقيقيين.(٣)

وفي صفر سنة ١٣٠ هـ التقى الجيشان بقديد(٤) ، حيث سعى الخوارج الى اقناع أهل المدينة أن يخلوا لهم الطريق بالحسنى لمحاربة الأمويين عدوهم المشترك، وأرسل أبو حمزة الى أهل المدينة قائلا: ((اننا والله ما لنا بقتالكم حاجة، دعونا نمض الى عدونا))(٥). فأبى عليه عبد العزيز بن عبد الله وأصر على قتالهم، فوثب عليهم أبو حمزة وثبة نكراء، ((فقتل من أهل المدينة من قريش خلقا كثيرا))(٦). وفتكت الخوارج بالأسرى ((ونصبت الحرورية بقديد لواء فقالوا : من دخل تحته فهو آمن، فدخل الناس تحته فأقبل يأخذ بعضهم بعضا ويتعلق بعضهم ببعض فامتدوا كالحبل شبيها بالقطار، أولهم تحت اللواء وآخرهم هناك — وأشار بيده الى ناحية قاصية — قال : فما فعلوا ولا آمنوهم ، ونظروا الى من كان تحت اللواء وقد روا حوزته ومقدار ظل اللواء فتركوهم وقتلوا البقية صبرا ممن تنأى عن ظل اللواء وحوزته))(٧).

ولم يفلت من أهل المدينة الا الشريد . وغدت طريق المدينة مفتوحة أمام الخوارج ، كما أن عبد الواحد ابن سليمان قد ترك المدينة أمام زحف الخوارج الى الشام(٨) ، فدخلوها بدون قتال.

وقف أبو حمزة الخارجي خطيبا في أهل المدينة وأبان لهم أن((ماضيهم كله يقضي عليهم أن يكونوا على وفاق مع الخوارج))(٩). وقال : ((يا أهل المدينة ، سألناكم عن ولاتكم هؤلاء ، فأساتم لعمر الله فيهم القول ، وسألناكم : هل يقتلون بالظن؟ فقلتم لنا : نعم. وسألناكم : هل يستحلون المال

١ — انظر ابن الأثير : الكامل ج ٥ ص ٣٧٤
٢ — المرجع السابق ص ٣٨٨
٣ — انظر فلهوزن : الخوارج والشيعة ص ١٣٩
٤ — قديد : موضع بقرب مكة . انظر ياقوت : معجم البلدان ج ٤ ص ٣١٣
٥ — ابن الأثير : الكامل ج ٥ ص ٣٨٨
٦ — ابن كثير : البداية والنهاية ج ١٠ ص ٣٥، وانظر المصعب الزبيري : نسب قريش ص ٢٥٠

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

Loading...

Loading...

Loading...

Loading...

Loading...

Loading...

وقضى على دولتـــه (١).

وهكذا تخلص أهل الحجاز من خطر الخوارج بفضل سيوف جند الشام. وخضع أهل الحجـاز من جديد للدولة الأموية، التي كانت رغم انتصاراتها على الخوارج ، تلفظ أنفاسها الأخيرة، ولم تلبث أن تهاوت أمام ضربات جيوش العباسيين. فبدأ عهد جديد ، وقامت دولة بني العباس سنة ١٣٢ هـ. وسبقت الأحداث أهل الحجاز، ولم يبق لهم الا مكانة بلادهم الدينية السامية لوجود الحرمين بيـــن ظهرانيهم. وهذا المركز الديني جعل الحكام ينظرون الى الحجاز باهتمام على اعتبار أن امتلاكهـا يعطي للحاكم قوة ويضفي عليه شرعية.

١ـ انظر ابن كثير: البداية والنهاية ج ١٠ ص ٣٦ ـ ٣٧

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الفصل الأول

مظاهر الحياة العلمية

تمهيد

أثر المسجد في الحياة العلمية

العلوم الدينية

أ ـ القراءات

ب ـ التفسير

جـ ـ الحديث

د ـ الفقه

التاريخ (السيرة والمغازي)

الأدب والفن

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

Loading...

Loading...

Loading...

Loading...

Loading...

Loading...

Loading...

Loading...

Loading...

Loading...

Loading...

Loading...

Loading...

Loading...

Loading...

ونال زيد بن ثابت شهرة واسعة في المدينة((فما كان عمر ولا عثمان يقدمان على زيد بن ثابت أحدا في القضاء والفتوى والفرائض والقراءة))(١). وكان محل ثقة عمر بن الخطاب الذي استعمله على القضاء وفرض له رزقا ، وقيل أنه كان يستخلفه في كل سفر يسافره . وروي أن ابن عمر وجماعة ممن عاش بعده بالمدينة من الصحابة انما كانوا يفتون بمذهب زيد بن ثابت، وما كانوا أخذوا عنه مما لم يكونوا حفظوا فيه عن رسول الله ، صلى الله عليه وسلم، قولا(٢).

وكان عمر بن الخطاب يرسل الرجال النابهين الى الامصار لتعليم الناس السنن(٣)، وحين ذكر زيد بن ثابت رفض عمر قائلا :((لم يسقط علي مكان زيد ، ولكن أهل البلد يحتاجون الى زيد فيما يحدون عنده فيما يحدث لهم مالا يجدون عند غيره))(٤)، فبقي زيد بن ثابت ظاهرا بين علماء المدينة في القضاء والفتوى والقراءة والفرائض في عهد : عمر وعثمان وعلي في مقامه بالمدينة، وبعد ذلك خمس سنين حتى بلي معاوية، فكان كذلك أيضا ، حتى توفي زيد سنة خمس وأربعين(٥). وخلف العديد من طلاب العلم كان منهم ابن عباس الذي أخذ لزيد بن ثابت بالركاب قائلا : هكذا نفعل بعلمائنا وكبرائنا تقديرا لمكانته(٦).

أما عبد الله بن عمر فقد اشتهر بصفته محدثا ثبتا((ولم يكن أحد من أصحاب رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، اذا سمع من رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ حديثا احذر أن لا يزيد فيه ولا ينقص منه ولا ولا ... من عبد الله بن عمر بن الخطاب))(٧). ودفعته الحيطة والحذر الى الاقلال من الفتوى. وذكر نافع أن رجلا سأله مسألة فطأطأ رأسه حتى ظن الناس أنه لم يسمع مقالته اذ لم يرد عليه . فقال الرجل يرحمك الله أما سمعت مسألتي ، فقال : ((كأنكم ترون أن الله تعالى ليس بسائلنا عما تسألوننا عنه . اتركنا يرحمك الله حتى نفهم في مسألتك فان كان لها جواب عندنا والا أعلمناك أنه لا علم لنا به))(٨).

١ـ ابن سعد : الطبقات ج ٢ ص ٣٥٩

٢ـ ابن القيم الجوزية : اعلام الموقعين ج ١ ص ٦ ١ـ١٧

٣ـ انظر القاضي عياض: ترتيب المدارك وتقريب المسالك ج ١ ص ٦٣

٤ـ ابن سعد : الطبقات ج ٢ ص ٣٥٩ ـ ٣٦٠

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ومن أشهر التابعين من أهل المدينة كان سعيد بن المسيب ((فقيه أهل المدينة غير مدافع)) (١)، الذي قصر اهتمامه على الفقه ولم يشترك في الأحداث السياسية في الحجاز ولكنه رفض البيعة لبعض الخلفاء فتعرض للأذى والجلد (٢).

ومن الطبقة الثانية عروة بن الزبير بن العوام، وكان من أعلم أهل المدينة ومن أكثرهم ورعا (٣)، وتوفي في نفس السنة التي توفي فيها سعيد بن المسيب سنة اربع وتسعين هجرية. ومن رجال الطبقة الثانية أيضا القاسم بن محمد بن أبي بكر، وسالم بن عبد الله بن عمر، وعبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود، وسواهم (٤).

وعن هذه الطبقة أخذ عمر بن عبد العزيز وأبو بكر بن محمد بن عمرو بن حزم، ومن مشهوري الطبقة الرابعة محمد بن مسلم بن شهاب الزهري، الذي وصفه مالك بن أنس قائلا :((ما أدركت بالمدينة فقيها محدثا غير واحد، هو ابن شهاب الزهري)) (٥). وعن عراك بن مالك، حين سئل من أفقه أهل المدينة قال : ((أما أعلمهم بقضايا رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقضايا أبي بكر وعمر وعثمان، وأفقههم فقها وأعلمهم بما مضى من أمر الناس فسعيد بن المسيب، وأما أغزرهم حديثا فعروة بن الزبير، ولا تشاء أن تجثو من عبيد الله بن عبد الله بحرا الا فجرته، قال عراك: فاعلمهم عندي جميعا ابن شهاب فانه جمع علمهم الى علمه)) (٦).

وكان ابن شهاب من أسبق العلماء الى تدوين العلم (٧)، فحفظ فقه علماء المدينة وحديثهم، كما روي أنه جمع كتابا في المغازي (٨)، وتوفي سنة ١٢٤ هـ (٩). واتصل بالخلفاء الأمويين، وقال فيه عمر بن

١- ياقوت: معجم البلدان ج ٢ ص ٣٥٤

٢- انظر ابن كثير : البداية والنهاية ج ٩ ص ١٠١

٣- انظر ابن سعد : الطبقات ج ٥ ص ١٧٩، ١٨٠، ١٨١، ابن كثير : البداية والنهاية ج ٩، ص ١٠١ - ١٠٢

٤- انظر ابن الجوزي : صفة الصفوة ج ٢ ص ٤٩، ٥٠، ٥٧.

٥- ابن سعد : الطبقات ج ٢ ص ٣٨٨

٦- ابن الجوزي : صفة الصفوة ج ٢ ص ٧٨

٧- انظر ابن كثير : البداية والنهاية ج ٩ ص ٣٤٤

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

عبد العزيز : أنه لم يبق أحد أعلم بسنة ماضية منه (١) ، وأنجبت هذه المدرسة من الطبقة السادسة مالك ابن أنس امام دار الهجرة .

هؤلاء الأجلاء وأمثالهم كونوا حركة علمية جليلة في صدر الاسلام بالحجاز، غلب عليها الطابع الديني : كعلوم القرآن من تفسير وقراءات ، وحديث الرسول صلى الله عليه وسلم، وسنته ورواية ذلك . واستنباط الأحكام الفقهية والفتاوي الشرعية لما يجد الناس من مشاكل وما يعرض لهم من أحداث . اذ الدين في ذلك العصر ((ملك على الناس نفوسهم، ورأوا فيه سبب وحدتهم وعلة نهضتهم ... فهو عزهم في الدنيا ورجاؤهم في الآخرة (٢)) .

ولأهل الحجاز أهمية خاصة في هذه العلوم سيما أهل المدينة، اذ اليها كانت الهجرة، وبها عاش النبي الكريم، ونزل القرآن، وأحل الحلال وحرم الحرام، وما بيّن الرسول ، صلى الله عليه وسلم، الذي حضهم على طلب العلم ، ثم قام من بعده أتبع الناس له من أمته ، فما نزل بهم مما علموا أنفذوه ، وما لم يكن عندهم فيه علم سألوا عنه ، ثم أخذوا باقوى ما وجدوا في اجتهادهم ، ولحداثة عهدهم ، وان خالفهم مخالف أو قال برأي مغاير تحروا الحق فاتبعوه ، ثم كان التابعون من بعدهم يسلكون تلك السبيل ويتبعون تلك السنن (٣) .

وفيما يلي سأتناول الحركة العلمية في الحجاز ممثلة بالعلوم الدينية التي كانت أقوى الحركات العلمية في ذلك العصر وأكثرها نشاطا وأشدها استقطاب علماء، وتنوعت فشملت قراءة القرآن وتفسيره والحديث والفقه . وسأتبع ذلك بدراسة نشأة علم التاريخ (السيرة والمغازي) ثم الأدب والفن في الحجاز . ونظرا لأهمية المسجد في الحياة الاجتماعية عامة والحياة العلمية خاصة، فقد تناولت أثر المسجد في الحياة العلمية في مقدمة هذه العلوم .

---

(١) انظر ابن الجوزي : صفة الصفوة ج ٢ ص ٧٨

(٢) أحمد أمين : فجر الاسلام ص ١٩٤

(٣) انظر ابن القيم الجوزية : اعلام الموقعين ج ٣ ص ٧٥، القاضي عياض : ترتيب المدارك

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أثر المسجد في الحياة العلمية.

عنى المسلمون بالمسجد منذ زمن مبكر، فقد كان المسجد الجامع هو المركز الديني والثقافي والاجتماعي للجماعة، ومما يظهر ذلك بوضوح ، أن الرسول صلى الله عليه وسلم بادر الى انشاء مسجدة بالمدينة المنورة حين وصلها مهاجرا من مكة.(١) فكان مركز العلم والثقافة بجانب كونه مكان العبادة ومعهد التعليم ودار القضاء.(٢) ولم يكن جامع المدينة مكان صلاة فحسب بل وكذلك مركزا للحياة السياسية والاجتماعية، فكان يستقبل النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ فيه سفراء القبائل ، ويسير أعمال الدولة، ويعطي التعليمات الدينية والسياسية، ولم ينته دور الجامع في الحياة السياسية بوفاة النبي ـ الكريم فعلى نهجه سار أبو بكر ((ومن منبر المدينة أعلن عمر أمام المجتمعين توقف الجيوش الاسلامية عن التقدم في فارس ودعا الناس للتطوع. ومن المنبر أيضا ألقى الخليفة عثمان خطابا يدافع عن نفسه ضد الحملات الموجهة على أساليبه في الادارة)).(٣) وكذلك فعل من جاء بعدهم من الخلفاء أو من كانوا ينيبونهم في ولاية المدينة.

والنشأة الاسلامية للعلوم جعلتها وثيقة الصلة بالمسجد فاتخذه علماء التفسير والفقه والحديث والمغازي مكانا حيث تحلق حولهم مريدو العلم ومحبوه يأخذون عن أساتذتهم وينهلون من علمهم.(٤) وكان هؤلاء العلماء من المشهورين ((فليس كل من أحب أن يجلس في المسجد للحديث والفتيا جلس حتى يشاور فيه أهل الصلاح والفضل وأهل الجهة من المسجد فان رأوه لذلك أهلا جلس ـ و يقول مالك بن أنس ـ وما جلست حتى شهد لي سبعون شيخا من أهل العلم أني لموضع لذلك)).(٥) واذا كان العلماء في المسجد على مثل هذه الدرجة العلمية العالية، فان حلقاتهم كانت تحظى بحرمة خاصة ((فيمنع الناس في الجوامع والمساجد من استطراق حلق الفقهاء والقراء صيانة لحرمتها)) وهيبة للعلماء فيها.(٦)

وكانت المساجد في ذلك العصر مفتوحة يقصدها من يأنس في نفسه الكفاءة لتعليم الناس ولم يكن على المدرس بطبيعة الحال أن يعلم موضوعا بذاته في الغالب ، بل كان يعظ الناس بما يعرف ويفتيهم

١ـ انظر السمهودي : وفاء الوفا بأخبار دار المصطفى ج ١ ص ٣٢٢ وما بعدها بيروت ٣٧٤ هـ

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

لم يستطع الى ذلك سبيلا ، وظل العلماء يقصدون المساجد ليؤدوا هذا الواجب، دون انتظار من يحثهم على الذهاب، وظل الناس يلتفون حولهم ويأخذون عنهم من غير أن تتدخل الحكومة في ذلك، فقد عد هذا العمل غير داخل في دائرة سلطانها مادام المعلم غير معين منها ولا يتقاضى من الدولة أجرا على عمله ، فترك له أن يدرس ماشاء وقتما شاء، ولكن هذا الحال تغير حين أخذت الدولة العباسية فيما بعد ترتب في المساجد أشخاصا للتدريس والفتيا.

وقد لعبت المساجد دورا كبيرا في النهضة العلمية بالحجاز وبجانب المسجد النبوي ومسجد قباء بالمدينة كان المسجد الحرام بمكة الذي عظّمه المسلمون وأجلوه ، وحين استخلف النبي صلى الله عليه وسلم عتاب بن أسيد على مكة خلف معه معاذ بن جبل يفقه الناس في الدين ويعلمهم القرآن، وبقي المسجد يؤدي دوره العلمي في العصر الأموي فكان مكان حلقات دروس العلماء، كابن عباس الذي كان يدرس في البيت الحرام ويعلم التفسير والحديث والفقه والأدب وتلاه تلاميذه كعطاء بن أبي رباح ومجاهد بن جبر.

وفي المدينة إتخذ الرسول الكريم من مسجده منارة علم وهداية، وتحلق حوله أصحابه يتلقون منه أمور دينهم، ويحضهم على طلب العلم قائلا: ((من دخل مسجدنا هذا ليتعلم خيرا أوليعلمه كان كالمجاهد في سبيل الله ومن دخل لغير ذلك كان كالناظر الى ماليس له)). فنمت هذه الحركة، واشتهر كثير من علماء المدينة من الصحابة والتابعين، وتعددت الحلقات التعليمية في المسجد الواحد، كالذي روي أن معاوية بن أبي سفيان قدم مكة أو المدينة فأتى المسجد فقعد في حلقة فيها ابن عمر وابن عباس وعبد الرحمن بن أبي بكر، كما روى أبو اسحاق قائلا: ((كنت أرى الرجل في ذلك الزمان وانه ليدخل يسأل عن الشيء فيدفعه الناس من مجلس الى مجلس حتى يدفع الى مجلس سعيد بن المسيب ...)). فكثر العلم

١- انظر أحمد شلبي : تاريخ التربية الاسلامية ص٢١٣ مكتبة النهضة المصرية ١٩٦٦
٢- انظر الماوردي : الاحكام السلطانية ص١٨٨ - ١٨٩
٣- انظر الكتاني : التراتيب الادارية ج ١ ص ٤٣
٤- انظر الازرقي : أخبار مكة ج ٢ ص٦٠

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

في أواخر عصر الصحابة والتابعين وفدا الحجاز حقيقا بالارتحال اليه فضلا عن كونه محل النسك (١) والعبادة.

وكثرت المساجد وزاد انتشارها بمرور الزمن تلبية لحاجات الجماعة الاسلامية، وفي الحجاز تضعف أهمية المسجد النبوي العلمية في العصر الاموي، فكان عمر بن عبد العزيز يكتب الى أهل الأمصار يعلمهم السنن ويكتب الى أهل المدينة يسألهم عما مضى ويعمل بما عندهم (٢).

وتنوعت الوظائف التي كانت تؤدى في المسجد الذي كان بمثابة ناد يتوجه اليه الراغبون في العلم كالفقه والتفسير والحديث وكذلك كان من الفقهاء من يناقش في الشعر داخل المسجد ولا يرى غضاضة في ذلك اذ كان الشعر يومذاك جزءا من ثقافة العصر، روى عبد الجابر بن سعيد المساحقي عن أبيه قال :((دخلت مسجد رسول الله ، صلى الله عليه وسلم مع نوفل بن مساحق ، فأنشد على يدي، اذ مررنا بسعيد بن المسيب في مجلسه وحوله جلساؤه ، فسلمنا عليه فرد علينا ، ثم قال لنوفل: يا أبا سعيد من أشعر صاحبنا أم صاحبكم ؟ يريد عبد الله بن قيس أو عمر بن أبي ربيعة ..... فلما انقضى مابينهما من ذكر الشعر جعل سعيد يستغفر الله ويعقد بيده .. فقال البكري في حديثه عن عبد الجبار قال مسلم : فلما انصرفنا قلت لنوفل : أتراه استغفر الله من انشاد الشعر في مسجد رسول الله ، صلى الله عليه وسلم، فقال كلا إ هو كثير الانشاد والاستنشاد للشعر فيه ولكن أحب ذلك للفخر بصاحبه (٣)). وكانت أحيانا تعقد في المسجد جلسات تخصص لانشاد الشعر قال اليربوعي : ((قال ابراهيم بن محمد بن أبي وقاص الزهري : قدم الفرزدق في امارة أبان بن عثمان (٧٥ ــ ٨٢ هـ)، فأتاني والفرزدق وكثير لجلوس في المسجد نتناشد الأشعار اذ طلع علينا غلام شخت في ثوبين ممصرين ...)). مثل هذا المجلس كان لدرس الشعر وروايته ونقده والتعصب لشاعر وتفضيله على آخرين، وقيل لسعيد (٥) ابن المسيب فقيه أهل المدينة، هاهنا نساك يعيبون انشاد الشعر. قال : نسكوا نسكا أعجميا . كما

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

كان عبيد الله بن عبد الله بن عتبة أحد فقهاء المدينة المعدودين ، ينظم الشعر وينشده (١) .

ووجد القصص طريقة أيضا الى المسجد حين اختاره القصاص مكانا لسرد قصصهم فيجلس القاص بالمسجد ويلتف حوله الناس فيروى لهم القصص والتاريخ التي تمتزج فيها العبرة بالتسلية (٢) ((ولا يعتمد فيها على الصدق بقدر مايعتمد على الترغيب والترهيب)) . روى اليعقوبي (٣) أن الحسن بن علي ((مر يوما وقاص يقص على باب مسجد رسول الله ، فقال الحسن : ما أنت؟ فقال : أنا قاص يا ابن رسول الله ، قال : كذبته محمد القاص . قال الله عزوجل : فاقصص القصص (٤) قال فأنا مذكر . قال : كذبته محمد المذكر . قال له عز وجل : ((فذكر انما أنت مذكر)) (٥) ، قال : فما أنا ؟ قال : المتكلف من الرجال)) . ورغم كره الحسن للقصاص الا أن ((القصص في الاسلام قديم فيحكى عن عمر بن الخطاب أنه أجاز لتميم الداري أو لعبيد بن عمير أن يقص على الناس، وفي عهد معاوية ندب رجالا من الصالحين لوعظ الناس وتقوية دينهم برواية القصص الدينية ورضي عن ذلك علماء الدين، ونجد القصاص أحيانا في صفوف المقاتلين يحرضونهم على القتال ويحمسونهم)) (٦) .

وقد خدم القصاص في عهد الراشدين غاية دينية ، أما في عهد معاوية فكان يستخدم القصاص لتثبيت دعائم دولته فكان يولي ((رجلا على القصص ، فاذا سلم من صلاة الصبح جلس وذكر الله عز وجل وحمده ومجده وصلى على النبي صلى الله عليه وسلم ودعا للخليفة ولأهل ولايته وحشمه وجنوده ودعا على أهل حربه وعلى المشركين كافة)) (٧) .

ومن القصاص الذين كان يقصون في المدينة تميم الداري، وسلمان أبو عبد الله الأغر مولى لجهينة (٨) روى عن أبي سعيد الخدري وأبي هريرة (٩) .

١ــ انظر ابن سعد : الطبقات ج ٥ ص ٢٥٠
٢ــ أحمد أمين : فجر الاسلام ص ١٥٩
٣ــ تاريخ اليعقوبي : ج ٢ ص ٢٢٧
٤ــ سورة الاعراف : آية ١٧٦

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وأول من قص بمكة كان عبيد بن عمير بن قتادة . وقيل أن أول من قص كان الأسود بن سريع التميمي وكان من الصحابة ويذكر في قصصه الموت(١) أما عبيد بن عمير فقد برع في القصص المؤثرة وذكر سعد(٢) أن عبد الله بن عمر سمعه فبكى حتى لثقت لحيته وجبهه من دموعه .

ولم يكن هذا العصر عصر تخصص دقيق بالمعنى الحرفي للكلمة، فالمفسرون والمحدثون والفقهاء كانوا يستعينون بالشعر على فهم معاني القرآن والحديث، والمؤرخون والقصاص يستمدون معلوماتهم من القرآن والحديث، وكذلك كانت الدروس بالمسجد فيها تفسير وفيها حديث وفيها فقه وفيها لغة، روى السيوطي(٣) أن عبد الله بن عباس(٤) كان يجلس يفتاء الكهنة وقد اكتنفه الناس يسألونه عن تفسير القرآن فجاءه نافع بن الأزرق ونجدة بن عويمر فقالا : انا نريد أن نسألك عن أشياء من كتاب الله فتفسرها لنا ، وتأتينا بمصادقة من كلام العرب فان الله تعالى يقول انما انزل القرآن((بلسان عربي مبين))(٥)، فأجابهما ابن عباس عما سألاه مستشهدا بأبيات من الشعر .

والخلاصة أن دور المسجد العلمي كان كبيرا فاتخذ كمعهد للدراسة والعلم كالذي روى أن ربيعة الرأي كان يجلس في المسجد النبوي فيأتيه مالك والحسن بن زيد وأشراف أهل المدينة ويحدق الناس به(٦) وكانت حلقته وافرة . وبجانب ذلك اتخذ المسجد مكان تحدث وتشاور في أمور المجتمع ، وتذاع فيه أوامر الخلفاء والولاة فلا غرابة أن حظيت المساجد بالاهتمام من الحكام —كما أشرت— ويرى محمد علي(٧) أن المسجد الجامع كان((هو المجمع والمجلس والمحكمة وديوان المال والمدرسة وكل ماله علاقة بالسلطان والسكان)).

١— انظر ابن رسته : الأعلاق النفسية ص ١٩٤

٢— الطبقات ج ٤ ص ١٦١، ١٦٢

٣— انظر أحمد أمين : فجر الاسلام ص ٦٤

٤— الاتقان في علوم القرآن ج ١ ص ١٢٠

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أ- القراءات.

منذ أن نزل القرآن العظيم على النبي الكريم وهو محط أنظار المسلمين ومحل عنايتهم. وشاءت حكمة الله تعالى أن ينزل القرآن منجما يتدرج مع الأحداث والوقائع والمناسبات الفردية والاجتماعية التي تعاقبت على المسلمين في حياة الرسول صلى الله عليه وسلم والذي كان يعلّم الناس القرآن ويقرئ الصحابة (١) (٢) ((من كان يصلح لذلك ويستحفظهم اياه)).

روى الصحابة القرآن عن رسول الله -عليه الصلاة والسلام- ونقلوه عنه بالتواتر مع اختلاف (٣) في القراءة، عن عروة بن الزبير أن المسور بن مخرمة وعبد الرحمن بن عبد القاري حدثاه أنهما سمعا عمر بن الخطاب يقول : ((سمعت هشام بن حكيم يقرأ سورة الفرقان في حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم، فاستمعت لقراءته ، فاذا هو يقرؤها على حروف كثيرة لم يقرئنيها رسول الله صلى الله عليه وسلم -فكدت أساوره في الصلاة، فتصبرت حتى سلّم، فلما سلّم لببته بردائه ، ، فقلت: من أقرأك هذه السورة التي سمعتك تقرؤها ؟ قال أقرأنيها رسول الله ،صلى الله عليه وسلم ،فقلت: كذبت فوالله ان رسول الله ، صلى الله عليه وسلم لهو أقرأني هذه السورة التي سمعتك تقرؤها ، فانطلقت به أقوده الى رسول الله، صلى الله عليه وسلم، . فقلت: يارسول الله اني سمعت هذا يقرأ سورة الفرقان على حروف لم تقرئنيها ، وأنت أقرأتني سورة الفرقان. فقال رسول الله -صلى الله عليه وسلم : ارسله ياعمر، اقرأ ياهشام، فقرأ عليه القراءة التي سمعتها يقرؤها . فقال رسول الله -صلى الله عليه وسلم : هكذا أنزلت. ثم قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم : اقرأ ياعمر، فقرأت القراءة التي أقرأني رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فقال رسول الله -صلى الله عليه وسلم ، هكذا أنزلت. ثم قال : رسول الله -صلى الله عليه وسلم- ان هذا القرآن انزل على سبعة أحرف فاقرؤا ماتيسر منه)).(٤)

١- انظر السيوطي : الاتقان في علوم القرآن ج ١ ص ٣٩-٤٠ مكتبة مصطفى البابي الحلبي ١٩٥١ م

٢- الزنجاني : تاريخ القرآن ص١٣ مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٣٥

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ولعل السعة للناس في الحروف كانت[١] ((لعجزهم عن أخذ القرآن على غير لغاتهم لأنهم كانوا أميين لا يكتب الا القليل منهم، فلما كان يشق على كل ذي لغة أن يتحول الى غيرها من اللغات ولو رام ذلك لم يتهيأ له الا بمشقة عظيمة، فوسّع لهم من اختلاف الألفاظ اذ كان المعنى متفقا فكانوا كذلك[٢]))٠

والذي يهمنا أن النبي الكريم كان يقرئ أصحابه القرآن ، ثم قام هؤلاء بنشره بعد أن حفظوه ((فكان كل حافظ ينشر ما حفظه ويعلمه للأولاد والصبيان و الذين لم يشهدوا النزول ساعة الوحي من أهل مكة والمدينة ومن حولهم من الناس[٣]))٠ كما أن الصحابة لم يكونوا على درجة واحدة في قراءة القرآن، سيما وأن الأمية كانت منتشرة، فكان اختلاف في بعض الألفاظ وكيفيات الحروف في آدائها[٤]٠ يضاف الى هذا أن القرآن المكتوب كان خلوا مما يدل على أشكال الحروف من حيث النقط والشكل ٠

واشتهر من أهل الحجاز بالقراءة من الصحابة : عبد الله بن مسعود ، وسالم مولى أبي حذيفة ومعاذ بن جبل ، وأبي بن كعب[٥] الذي علا ذكره في القراءة ، واعترف له الصحابة بهذه الميزة ، ووصفه عمر بن الخطاب قائلا : ((أبي أقرؤنا))٠ كما روى ابن سعد[٦] أن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال لأبي ابن كعب: ((أمرت أن أعرض عليك القرآن ٠٠٠ قال : سماني الله لك ؟ فقال : نعم فذرفت عيناه))، ووصفه ابن الجزري[٧] قائلا : ((أبي بن كعب ـ سيد القراء بالاستحقاق وأقرأ هذه الأمة على الاطلاق، قرأ على النبي صلى الله عليه وسلم القرآن العظيم، وقرأ عليه النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ بعض القرآن

١ـ اختلف العلماء في المقصود بالأحرف السبعة ٠ انظر السيوطي : الاتقان في علوم القرآن ج ١ ص ٤٥ـ٤٦، وانظر كذلك مناقشة الدكتور صبحي الصالح لهذا الموضوع في : مباحث في علوم القرآن ص ١٠١ـ١١٤٠

٢ـ القرطبي : الجامع لاحكام القرآن ج ١ ص ٣٧ نشر دار الكتاب العربي بالقاهرة ١٩٦٧

٣ـ الزنجاني : تاريخ القرآن ص ١٧

٤ـ انظر ابن خلدون : المقدمة ج ٣ ص ١١٢٨

٥ـ انظر السيوطي : الاتقان في علوم القرآن ج ١ ص ٧٠

٦ـ ابن سعد : الطبقات الكبرى ج ٢ ص ٣٤١ وانظر نص الحديث في صحيح مسلم ج ١ ص ٥٥ ٠

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

للارشاد والتعليم)). وكان الرسول الكريم ، قد نصت قراءة أبي بن كعب قائلا : ((أقرأ أمتي أبيّ بن كعب))[1]. وقرأ عليه القرآن من الصحابة :((ابن عباس وأبو هريرة وعبد الله بن السائب، ومن التابعين عبد الله بن عياش بن أبي ربيعة، وعبد الله بن حبيب أبو عبد الرحمن السلمي وأبو العالية الرياحي))[2]. ثم انتهت الرئاسة في القراءة الى زيد بن ثابت ولا يفهم من هذا ألا يكون أحد في ذلك الوقت شاركهم في حفظ القرآن، فقد زاد عدد الحفاظ زيادة مستمرة مع الزمن فقتل منهم في غزوة بئر معونة وحدها سبعون رجلا كان يقال لهم القراء[3]. أو حملة القرآن[4].

وفي عهد عثمان بن عفان اشتهر عدد من الصحابة بالقراءة بين الناس في الأمصار كالمقداد ابن الأسود في حمص، وعبد الله بن مسعود في الكوفة، وأبو موسى الأشعري في البصرة[5]. وظهر الاختلاف بين الناس في غزوة أرمينية سنة ثلاثين حول القراءة . فأمر عثمان زيد بن ثابت وعبد الله بن الزبير وسعيد بن العاص وعبد الرحمن بن الحرث بن هشام بكتابة الصحف التي كانت عند حفصة بنت عمر في مصحف واحد، وأرسل الى كل مصر مصحفا[6]. وعثمان ولا شك قد وفق لأمر عظيم ورفع الاختلاف بين الناس وجمع كلمتهم حول مصحف واحد.

واستمرت العناية بقراءة القرآن، فأخذ التابعون عن الصحابة ما تلقوه عن النبي الكريم ومن هؤلاء التابعين في المدينة ((ابن المسيب وسالم وعمر بن عبد العزيز وسليمان وعطاء ابنا يسار ومعاذ بن الحارث المعروف بمعاذ القاري وعبد الرحمن بن هرمز الأعرج وابن شهاب الزهري ومسلم بن جندب وزيد بن أسلم))[7]

١ـ البخاري : الصحيح ج ٦ ص ٢٢٩ ـ ٣٢٠، ابن سعد : الطبقات ج ٢ ص ٣٤١

٢ـ ابن الجزري : غاية النهاية في طبقات القراء ج ١ ص ٣١

٣ـ انظر السيوطي : الاتقان في علوم القرآن ج ١ ص ٧٠، ابن الأثير : الكامل ج ٣ ص ١١٢

٤ـ انظر اليعقوبي : تاريخ ج ٢ ص ١٣٥

٥ـ انظر ابن الأثير : الكامل ج ٣ ص ١١١

٦ـ انظر المحب الطبري : الرياض النضرة ج ٣ ص ٤٢، الزركشي : البرهان في علوم القرآن ج ١ ص ٢٣٦

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وكان مسلم بن جندب قاص مسجد النبي صلى الله عليه وسلم بالمدينة، فكان امام أهلها وقارئهم، وقال فيه عمر بن عبد العزيز: ((من سرّه أن يسمع القرآن غضا فليسمع قراءة مسلم بن جندب))[1].

وقد أخذ القراءة من هؤلاء آخرون اشتهر منهم في المدينة أبو جعفر يزيد بن القعقاع ثم شيبة بن نصاح ثم نافع بن أبي نعيم[2].

ونافع بن عبد الرحمن بن أبي نعيم، أحد القراء السبعة الاعلام، أخذ القراءة عرضا عن جماعة من تابعي أهل المدينة، وكان يقول: قرأت على سبعين من التابعين وروى القراءة عنه مالك بن أنس واسحاق بن محمد وسواهما. ((وأقرأ الناس دهرا طويلا ... وانتهت اليه رياسة القراءة بالمدينة وصار الناس اليها، وقال أبو عبيد: والى نافع صارت قراءة أهل المدينة وبها تمسكوا .... وقال ابن مجاهد كان نافع عالما بوجوه القراءات متبعا لآثار الائمة الماضين ببلدة))[3]. وشهد مالك بن أنس والليث بن سعد بنبوغ نافع في القراءة وامامته فيهما. وكانت وفاته سنة ١٦٩ هـ[4].

من القراء

أما في مكة المكرمة فقد اشتهر في القراءة من التابعين: ((عبيد بن عمير وعطاء بن أبي رباح وطاووس ومجاهد وعكرمة وابن أبي مليكة))[5]. وانتهت رياسة القراءة فيها الى عبد الله بن كثير[6]، ولم يزل هو الامام المجتمع عليه في القراءة بمكة حتى توفي سنة ١٢٠ هـ، ولقي كثيرا من الصحابة والتابعين، وأخذ القراءة عن عبد الله ابن السائب فيما قطع به الحافظ أبو عمرو الداني، وروى عنه القراءة اسماعيل بن عبد الله، واسماعيل بن مسلم وجرير بن حازم والحارث بن قدامة وعبد الملك بن جريج وآخرون[7].

١- الجاحظ: البيان والتبيين ج ٢ ص ١

٢- انظر السيوطي: الاتقان ج ١ ص ٧٣

٣- ابن الجزري: غاية النهاية في طبقات القراء ج ٢ ص ٣٣٠، ٣٣١، ٣٣٢

٤- انظر الزنجاني: تاريخ القرآن ص ٥٨

٥- السيوطي: الاتقان ج ١ ص ٧٣

٦- انظر السيوطي: الاتقان في علوم القرآن ج ١ ص ٧٣

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ووصف السيوطي[1] هؤلاء القراء من أهل الحجاز قائلا :((اعتنوا بضبط القراءة أتم عناية حتى صاروا أئمة يقتدى بهم ويرحل اليهم))٠

واشتهرت في العصر العباسي قراءات سبع ومما يدل على أهمية وفضل قراء أهل الحجاز أنه لم تقبل قراءة أحد من القراء الا اذا ثبت أخذه عمن فوقه بطريق المشافهة والسماع حتى يتصل الاسناد بالصحابي الذى أخذ عن الرسول الكريم ٠

وتأتي أهمية القراءات من حيث أنها المرحلة الأولى لتفسير القرآن، اذ أن اختلاف القراءة سيؤدي الى اختلاف تفسيرها ففي الأشكال المختلفة من القراءات ترى أول محاولات التفسير ٠ قال مجاهد :((لو كنت قرأت قراءة ابن مسعود لم احتج الى أن أسأل ابن عباس عن كثير من القرآن مما سألت))[2] ومن الطبيعي أن يؤدي اختلاف التفسير الى اختلاف الأحكام التي تستنبط من الآيات[3]٠

ونحن بهذه العجالة السريعة قد أشرنا الى اشتغال أهل الحجاز بقراءات القرآن التي كانت تدور في العصر الأموي حول المصحف العثماني ٠ وهو المصحف الذى جمع الناس عليه خليفة المسلمين عثمان بن عفان حين صمم على رفع الخطر الذي أوشك أن يقع في كلام الله في أشكاله واستعمالاته[4] ٠ ووضعت في هذا العصر الأسس التي اعتمدت فيما بعد حين أخذ المصنفون يصنفون[5] في القراءات والقراء، ونشير هنا الى أن هذه الحركة ظهرت في الحجاز في وقت مبكر ، وعلى القراء من أهل الحجاز تتلمذت الأمصار الأخرى، يؤيد

١ــ الاتقان ج ١ ص ٧٣

٢ــ انظر صحيح الترمذي بشرح أبي بكر بن العربي ج ١١ ص ٦٨ الطبعة الأولى ١٩٣١ ــ ١٩٣٤ م وكانت قراءة ابن مسعود تفسر القرآن، فمثلا قرأ ابن مسعود الآية ٥٠ من سورة آل عمران((وجئتكم بآية من ربكم فاتقوا الله وأطيعون)) قرأها ابن مسعود ((وجئتكم بآية من ربكم فاتقوا الله من أجل ماجئتكم به وأطيعون فيما دعوتكم اليه))٠ جولد تسهير : مذاهب التفسير الاسلامي ص ١٨ ترجمة عبد الحليم النجار ١٩٥٥ م٠

٣ــ ((اختلاف القراءات يظهر الاختلاف في الأحكام)) ، السيوطي : الاتقان ج ٢ ص ١٧٣

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

هذا الرأي النظرة السريعة في سلسلة الروايات للقراءات المشهورة والتي ترتقي الى أهل الحجاز . الذين كانت بلادهم يومذاك جديرة أن يرحل اليها طالبو العلم ، الذي لم يقتصر على جانب واحد بل شمل جوانب متعددة كان من بينها التفسير .

— التفسير .

تبدأ بداية التفسير مع نزول القرآن الكريم على الرسول — عليه الصلاة والسلام — الذي كان يؤدي الرسالة ويعلم الصحابة . قال أبو عبد الرحمن السلمي : ((حدثنا الذين كانوا يقرأون القرآن كعثمان بن عفان وعبد الله بن مسعود وغيرهما أنهم كانوا اذ تعلموا من النبي صلى الله عليه وسلم عشر آيات لم يتجاوزها حتى يعلموا ما فيها من العلم والعمل (١))) ويقتضي هذا فهم تلك الآيات وتفسيرها .

ولم يكن الرسول — صلى الله عليه وسلم — يفسر القرآن برأيه فقد ((كان الوحي ينزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم ويحضره جبريل بالسنة التي تفسر ذلك)) (٢) . ومع ذلك فقد اقتصر تفسيره على آيات معدودات . عن عائشة أنها قالت : ((ما كان النبي صلى الله عليه وسلم يفسر شيئا من القرآن الا آيا تعد ، علمهن اياه جبريل)) (٣) . وذلك أن التفسير ((أربعة أوجه وجه تعرفه العرب من كلامها ، وتفسير لا يعذر أحد بجهالته وتفسير تعرفه العلماء وتفسير لا يعلمه الا الله)) (٤) ، وهذا الأخير يظهر أنه هو المقصود من حديث عائشة المذكور اذ لا يعقل أن يترك النبي — الكريم — للناس بيان ما أنزل اليهم وهو المكلف بالتبليغ عن ربه اذ قال تعالى = وأنزلنا اليك الذكر لتبين للناس ما نزل اليهم ولعلهم يتفكرون (٥) = وكان يتلقى هذا التفسير بالوحي .

نزل القرآن بلسان عربي مبين ((وانه لتنزيل رب العالمين ، نزل به الروح الأمين ، على قلبك لتكون من المنذرين ، بلسان عربي مبين)) (٦) ، والقوم أولوا فصاحة وبيان ، وجاءت معجزة الله تعالى تتحداهم

١ — السيوطي : الاتقان ج ٢ ص ١٧٦

٢ — القرطبي : الجامع لاحكام القرآن ج ١ ص ٣٩

٣ — الطبري : جامع البيان ج ١ ص ٢٧

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

في فصاحتهم وبيانهم فكانوا في حاجة لمعرفة((محكمة ومتشابهه وحلاله وحرامه ، وعامه وخاصه، ومجمله ومفسره ، وناسخه ومنسوخه ، وظاهره وباطنه وتأويل آيه وتفسير مشكله))(١). ونزول القرآن بلغة العرب لا يقتضي بالضرورة أنهم كانوا جميعا يتساوون في فهم مفرداته وتراكيبه . ومن هنا نشأت الحاجة الى التفسير منذ زمن النبي -صلى الله عليه وسلم -ومن بعده الخلفاء الراشدين . ثم أخذ الاهتمام بالتفسير يزداد حتى بلغ مرتبة عالية في العصور اللاحقة .

ومن الطبيعي أن يكون الصحابة بعد وفاة الرسول -عليه الصلاة والسلام -هم جملة علوم الاسلام يؤهلهم لذلك صحبتهم للنبي ومعاصرتهم نزول القرآن، ومناسبات التنزيل . ولكنهم لم يكونوا في درجة واحدة في فهم معاني الآيات، فكانوا كما وصفهم الرسول -صلى الله عليه وسلم -حين قال :((مثل ما بعثني الله به من الهدى والعلم كمثل الغيث الكثير أصاب أرضا فكان منها نقية قبلت الماء فأنبتت الكلأ والعشب الكثير، وكانت منها أجادب أمسكت الماء فنفع الله بها الناس فشربوا وسقوا وزرعوا ، وأصابت منها طائفة أخرى انما هي قيعان لا تمسك ماء ولا تنبت كلأ ...))(٢).

واشتهر من الصحابة بالتفسير عشرتهم ((الخلفاء الأربعة ،وابن مسعود ، وابن عباس وأبيّ بن كعب، وزيد بن ثابت وأبو موسى الأشعري، وعبد الله بن الزبير . أما الخلفاء فأكثر من روي عنه منهم علي ابن أبي طالب والرواية عن الثلاثة نزرة جدا ، وكان السبب في ذلك تقدم وفاتهم))(٣). كما ورد شيء من التفسير عن غير هؤلاء العشرة كأبي هريرة وأنس بن مالك وعبد الله بن عمر، وجابر بن عبد الله والسيدة عائشة، الا أن ماروي عنهم في التفسير كان قليلا بالنسبة الى العشرة السابقين .

وهؤلاء المفسرون منهم من عاش في العصر الأموي أو أخذ عنه التابعون ممن عاشوا في الحجاز في تلك الفترة .

١- الطبري: جامع البيان ج ١ ص ٤

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وأجدر هؤلاء جميعا بلقب المفسر هو عبد الله بن عباس الذي شهد له الرسول عليه الصلاة والسلام بالعلم ودعا له قائلا: ((اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل))(١)، وقيل فيه : ((نعم ترجمان القرآن ابن عباس))(٢).

كان عبد الله بن عباس واسع الاطلاع يحدث الناس عن القرآن وحروفه وتفسير القرآن وتأويله وعن الحلال والحرام والفقه وعن الفرائض وما أشبهها وعن العربية والشعر والغريب من الكلام. وبهرت كلماته أحد الذين سمعوه فقال : لو أن قريشا كلها فخرت بذلك لكان لها فخرا(٣). ولم يصل ابن عباس الى هذه المكانة العلمية الا بالجد في طلب العلم والسعي اليه(٤).

وتلقى عن الصحابة نفر من التابعين من أهل الحجاز ، فظهرت في مكة طبقة من المفسرين وفي المدينة أخرى بالاضافة لما انتشر في الأمصار. فكان من أعلم الناس بالتفسير : أهل مكة، لأنهم أصحاب ابن عباس كمجاهد وعطاء بن أبي رباح وعكرمة مولى ابن عباس، وسعيد بن جبير وطاووس وغيرهم، وكذلك كان في الكوفة أصحاب ابن مسعود ، وعلماء أهل المدينة في التفسير مثل زيد بن أسلم الذي أخذ عنه ابنه عبد الرحمن بن زيد ومالك بن أنس(٥).

ولا يعني التفسير في الحجاز في تلك الفترة تفسير جميع آيات كتاب الله كالتفاسير التي بين أيدينا اليوم. فقد ((أنزل القرآن على أربعة أحرف : حلال وحرام لا يعذر أحد بالجهالة به وتفسير يفسره العرب، وتفسير تفسره العلماء، ومتشابهه لا يعلمه الا الله ، ومن ادعى علمه سوى الله فهو كاذب))(٦). فالحلال والحرام بيّن يستطيع فهمه عامة الناس. وأما تفسير العرب فهو المعنى من قول ابن عباس: ((الشعر ديوان العرب، فاذا خفي علينا الحرف من القرآن الذي أنزله الله بلغة العرب، رجعنا الى ديوانها فالتمسنا

١ـ ابن سعد : الطبقات ج ٢ ص ٣٦٥

٢ـ الطبري : جامع البيان ج ١ ص ٤٠

٣ـ انظر ابن الجوزي : صفة الصفوة ج ١ ص ٣١٥، ابن كثير : البداية والنهاية ج ٨ ص ٣٠٢

٤ـ انظر ابن سعد : الطبقات ج ٢ ص ٣٦٨

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

معرفة ذلك منه))[1]. ولا سيما أن ملكات العرب اللغوية حينذاك لا يرجع فيها الى نقل ولا كتاب[2].

ولم يكن كل التفسير في هذه الفترة مدونا ، وكان الاعتماد في التفسير على القرآن أو السنة أو كلام الصحابة، فالأول مثل قوله تعالى : ((والسماء والطارق وما أدراك ما الطارق النجم الثاقب[3])) ، فان ((النجم الثاقب)) تفسير وبيان لكلمة الطارق التي قبلها . والثاني مثل تفسير الرسول صلى الله عليه وسلم، الظلم بالشرك في الآية ((الذين آمنوا ولم يلبسوا ايمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون[4])). مستدلا عليه من قول الله تعالى ((ان الشرك لظلم عظيم[5]))، والثالث مثل ماصح وروده عن الصحابة رضوان الله عليهم من تفسير القرآن الكريم لأنهم شاهدوا الوحي وعاينوا من أسباب النزول مايكشف لهم النقاب عن معاني الكتاب ، ولهم من سلامة فطرتهم وصفاء نفوسهم وعلو كعبهم في الفصاحة والبيان مايمكنهم من الفهم الصحيح لكلام الله تعالى . ولذلك أطلق بعضهم القول بأن تفسير الصحابي الذي شهد الوحي والتنزيل له حكم المرفوع[6]. كما اقتصر التفسير على توضيح المعنى الذي فهموه بأخصر لفظ كقولهم في ((غير متجانف لاثم))[7]، غير متعرض لمعصية . فان زادوا على ذلك فما عرفوه من أسباب النزول .

كذلك كان من ((التفسير بالمقتضى من معنى الكلام والمقتضب من قوة الشرع وهذا هو الذي دعا به النبي صلى الله عليه وسلم لابن عباس، حيث قال : اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل، والذي عناه علي بقوله : الا فهما يؤتاه الرجل في القرآن))[8]. ومن الأمور البدهية أن يختلف الأفراد في الفهم ، وبالتالي في تفسير الآيات التي لم يرد فيها عن الرسول صلى الله عليه وسلم نقل .

١ـ السيوطي : الاتقان ج ١ ص ١١٩

٢ـ انظر ابن خلدون : المقدمة ج ٣ ص ١١٣١

٣ـ سورة الطارق : آية ١

٤ـ سورة الأنعام : آية ٨٢

٥ـ سورة لقمان : آية ١٣

٦ـ انظر السيوطي : الاتقان ج ٢ ص ١٧٩، ابو زيد شلبي : تاريخ الحضارة الاسلامية والتفسير

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ولذلك اختلف الاجتهاد بين الصحابة والتابعين في التفسير ، وامتنع بعض العلماء عن القول في التفسير منهم سالم بن عبدالله ، والقاسم بن محمد ، (١) وعن أبي يزيد أنه قال :((كنا نسأل سعيد بن المسيب عن الحلال والحرام ، وكان أعلم الناس واذا سألناه عن تفسير آية من القرآن، سكت كأن لم يسمع)). (٢)

وكره هؤلاء أن يتحدث في التفسير من لم يستكمل أدواته كأن ((يقول فيه برأيه من غير معرفة منه بأصول العلم وفروعه)). (٣)

ولئن ذهب بعض العلماء في الحجاز مذهب التشدد في التفسير، فقد رأى البعض الآخر في التفسير واجبا دينيا عليهم القيام به ، اذ حث سبحانه وتعالى على الاعتبار بما في الآيات القرآنية من المواعظ والاعتبار ((كتاب أنزلناه اليك مبارك ليدبروا آياته وليتذكر أولوا الالباب)) (٤)، وهذا يستلزم قيام العلماء بالتفسير وتبيين أوامر الله ونواهيه للناس. فظهر علماء للتفسير في المدينة، وآخرون في مكة التفوا حول ابن عباس الذي روي أن أحد تلاميذه مجاهد بن جبر قال :((عرضت القرآن على ابن عباس ثلاث عرضات أقفه على كل آية أسأله كيف أنزلت وكيف كانت)) (٥)، وجمع سفيان بن عيينة فيما بعد أقوال من تقدمه من مفسري مكة وصنف في التفسير. (٦)

وفي عهد التابعين الذين أخذوا عن الصحابة وسمعوا منهم، تشعب التفسير الى تفسير مأثور وتفسير بالرأي.

أما التفسير بالمأثور ، وهو ما أثر عن الرسول الكريم وكبار الصحابة، فقد سار العلماء في التفسير على نفس الطريقة التي لجأوا اليها في نقل الأحاديث النبوية بل كان هذا النوع من التفسير جزءا من الحديث أو فرعا من فروعه. (٧)

١- انظر الطبري : جامع البيان ج ١ ص ٣٧

٢- الطبري : جامع البيان ج ١ ص ٣٨

٣- السيوطي : الاتقان ج ٢ ص ١٧٩

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ومن أمثلة التفسير بالمأثور ماروي عن النبي —صلى الله عليه وسلم ، لما نزلت هذه الآيـة : (١)
((الذين آمنوا ولم يلبسوا ايمانهم بظلم اولئك لهم الأمن وهم مهتدون)) شق ذلك على الناس فقالوا : يـا رسول الله ، وأينا لا يظلم نفسه • قال : انه ليس الذي تعنون، ألم تسمعوا ما قال العبد الصالح : ان (٢)
الشرك لظلم عظيم، انما هو الشرك)) أو كالذي روي أنه —صلى الله عليه وسلم ، فسر الصلاة الوسطى بصلاة العصر •

واتسع هذا النوع من التفسير بمرور الزمن بما دخل عليه من الاختلاف حتى روي أن الشافعـي (٣)
كان يقول : ((لم يثبت عن ابن عباس في التفسير الا شبيه بمائة حديث)) على كثرة المرويات عن ابن عباس في هذا الصدد • ومما يدل على دخول الوضع في هذا الباب أنك ترى في الآية الواحدة تفسيرين متناقضين، لا يمكن أن يصدرا عن رسول الله كالذي روي عن أنس قال : سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قول (٤)
الله :((والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة))• قال القنطار ألف أوقية • وعن أبي هريرة أنه قال : القنطار اثنا عشر ألف أوقية • (٥)

وكلما بعد الناس عن عصر الرسول عليه الصلاة والسلام والصحابة تزايد الغموض، فاحتاج المشتغلون بالتفسير من التابعين الى أن يكملوا بعض هذا النقص فزادوا في التفسير بمقدار ما زاد من غموض، ثم جاء من بعدهم فأتموا تفسير القرآن تباعا • معتمدين على ما عرفوه من لغة العرب ومناحيهم في القول وعلى ملمح لديهم من الأحداث التي حدثت في عصر نزول القرآن وغير ذلك من أدوات ووسائل البحث• وهذا هو التفسير (٦)
بالرأي •

١— سورة الانعام : آية ٨٢

٢— السيوطي : الاتقان ج ٢ص ١٩٣

٣— المرجع السابق ص ١٨٩

٤— سورة آل عمران : آية ١٤

٥— السيوطي : الاتقان ج ٢ص ١٩٢

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

والتفسير بالرأي يحتاج المفسر فيه الى معرفة القرآن أولا ، فما أجمل منه في مكان فقد فسر في موضع آخر ، والى معرفة السنة فان لم يجده في السنة رجع الى أقوال الصحابة فانهم أدرى بذلك ، وتفسير الصحابي الذي شهد الوحي والتنزيل له حكم المرفوع(١) عن سفيان بن عيينة عن ابن أبي يزيد قال : ((كان ابن عباس اذا سئل عن الأمر فان كان في القرآن أخبر به ، وان لم يكن في القرآن وكان عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أخبر به ، فان لم يكن في القرآن ولا عن رسول الله وكان عن أبي بكر وعمر أخبر به ، فان لم يكن في شيء من ذلك اجتهد رأيه))(٢) وساعده في ذلك تضلعه في اللغة العربية حتى وصف بأنه هو الذي نمّى طريقة التفسير اللغوي للقرآن(٣) .

الا أن الحرص على عدم التفسير لا يعود الى عدم المعرفة باللغة ، وانما خشي هؤلاء أن يقولوا في القرآن برأيهم كالقاسم بن محمد بن أبي بكر ، وسالم بن عبد الله بن عمر وغيرهما(٤) خاصة وان اختلاف الآراء يؤدي الى اختلاف المعاني ومن قبيل ذلك : قولهم في الطور في الآية ((واذ أخذنا ميثاقكم ورفعنا فوقكم الطور))(٥) فمجاهد يفسر الطور بالجبل مطلقا ، وابن عباس بجبل بعينه ، وآخر يقول : ان الطور ما انبت من الجبال فأما ما لم ينبت فليس بطور . فهذا اختلاف في الرأي لا اختلاف في المنقول .

وفي عصر الصحابة والتابعين على حد سواء تأثر التفسير بالاسرائيليات فقد قصّ الله على رسوله في القرآن قصص الأنبياء والماضين وضرب الأمثال ، وكانت ترد أحيانا موجزة مختصرة ، والنفس البشرية بطبعها ميالة الى حب الاستطلاع ، فوجد المسلمون ضالتهم فيمن أسلم من أهل الكتاب الذين حملوا معهم

١ــ انظر السيوطي : الاتقان ج ٢ ص ١٧٦

٢ــ ابن سعد : الطبقات ج ٢ ص ٨٨

٣ــ انظر جولد تسهير : مذاهب التفسير الاسلامي ص ٩٠

٤ــ انظر ابن سعد : الطبقات ج ٢ ص ٣٨١

٥ــ سورة البقرة من الآية ٦٣

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ثقافتهم الدينية السابقة اذ ((أن العرب لم يكونوا أهل كتاب ولا علم وانما غلبت عليهم البداوة والأمية ·

واذا تشوقوا الى معرفة شيء مما تتشوق اليه النفوس في أسباب المكونات وبدء الخليقة وأسرار الوجود فانما يسألون عنه أهل الكتاب قبلهم ويستفيدونه منهم))(١)· وكان ابن عباس لا يرى غضاضة في الرجوع الى أهل الكتاب والأخذ عنهم(٢) في الأمور التي لا تمس أصول العقيدة كالملاحم وبدء الخليقة وما شابه ذلك· وهي مما لا يخالف كتاب الله وسنة رسوله ، ومما لا يصدق ولا يكذب ، وقد روى البخاري(٣) أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال :((لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم))·

وغالب ما يروى من الاسرائيليات يكاد يقتصر على أربعة رجال : عبد الله بن سلام ، وكعب الأحبار ، ووهب بن منبه وعبد الملك بن عبد العزيز بن جريج(٤)·

أما عبد الله بن سلام فقد كان من علماء اليهود المعدودين بالمدينة ، ثم اشتهر من بين الصحابة بالعلم ، وروي أن معاذ بن جبل عدّه رابع أربعة يطلب عندهم العلم(٥)، ويظهر أنه جمع الى ثقافته الاسلامية ما كان يعرف من الثقافة اليهودية ، ومزج بينهما ، ونقل عنه المفسرون كثيرا(٦)·

وكان كعب الأحبار كذلك من اليهود الذين أسلموا ، وكان من الذين يحدثون عن أهل الكتاب ، وكان ممن قرأ الكتب القديمة(٧)· أما وهب بن منبه ((صاحب الأخبار والقصص فكانت له معرفة بأخبار الأوائل وقيام الدنيا واحوال الأنبياء وسير الملوك، وذكر عنه أنه كان يقول : قرأت من كتب الله تعالى اثنين وسبعين كتابا))(٨)·

١ــ ابن خلدون : المقدمة ج ٣ ص ١١٣١

٢ــ انظر جولد تسهير : مذاهب التفسير الاسلامي ص ٨٦

٣ــ البخاري : الصحيح ج ٣ ص ٢٢٧

٤ــ انظر ابن خلدون : المقدمة ج ٣ ص ١١٣٢

٥ــ انظر ابن سعد : الطبقات ج ٢ ص ٣٥٢

٦ــ انظر محمد حسين الذهبي : التفسير والمفسرون ج ١ ص ١٨٦

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أما ابن جريج فأصله رومي نصراني وقطب الاسرائيليات في عهد التابعين . وقد روي عن ابن جريج أجزاء كثيرة في التفسير عن ابن عباس منها الصحيح ، ومنها ماليس بصحيح ، وذلك أنه لم يقصد الصحة فيما جمع بل روى ماذكر في كل آية من الصحيح والسقيم .(١)

وقد كان لتلك الطائفة من الاسرائيليات أثر سيء في التفسير حينما توسع التابعون في الأخذ من أهل الكتاب، فكثرت على عهدهم الروايات الاسرائيلية ووجد كثير من القصص الخيالي طريقة الى التفسير .(٢)

ج — الحديث .

تأتي أهمية الحديث والعناية به من حيث أنه الأصل الثاني من أصول التشريع الاسلامي ، ولذلك اشتدت عناية المسلمين بالحديث ((فحفظوا عن نبيهم كل أقواله وأفعاله وأحواله ، وهو المبلغ عن ربه والمبيّن لشرعه ، والمأمور باقامة دينه))(٣) .

وعندما أنزل الله تعالى ((وأنزلنا اليك الذكر لتبين للناس ما نزّل اليهم))(٤) نبه المؤمنين الى مكانة السنة في التشريع ، فان أقوال الرسول وأفعاله تبيّن المراد من القرآن اذ تفصل ما أجمله ، وتقيد ما أطلقه ، وتخصص فيه ألفاظ العموم ، وتعين مالم يعينه من المقادير والحدود والجزئيات . وكان ((البيان منه صلى الله عليه وسلم على ضربين : بيان لمجمل ما في الكتاب كبيانه للصلوات الخمس في مواقيتها وسجودها وركوعها وسائر أحكامها ، وكبيانه لمقدار الزكاة ووقتها وما الذي تؤخذ منه الأموال ، وبيانه لمناسك الحج ، قال عليه الصلاة والسلام اذ حج بالناس: ((خذوا عني مناسككم)) وروى ابن المبارك عن عمران بن حصين أنه قال لرجل : انك أحمق ، أتجد الظهر في كتاب الله أربعا لايجهر فيها بالقراءة ، ثم عدد عليه الصلاة والزكاة ونحو هذا ، ثم قال : أتجد هذا في كتاب الله تعالى مفسرا ! ان كتاب الله تعالى أبهم هذا ، وان السنة تفسر هذا))(٥) .

١ — انظر السيوطي : الاتقان ج ٢ ص ١٨٨

٢ — انظر جولد تسيهر : مذاهب التفسير الاسلامي ص ٧٧

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وفي بعض الأحيان كانت السنة تتفرد بالتشريع كالذي روي أن عبد الرحمن بن يزيد رأى رجلا محرما في موسم الحج قد ارتدى ثوبا مخيطا، فأرشده الى نزع ثيابه والأخذ بسنة النبي صلى الله عليه وسلم في لباس الاحرام، فقال الرجل لعبد الرحمن أئتني بآية من كتاب الله تنزع ثيابي ، فاستدل عبد الرحمن بآية((وما أتاكم الرسول فخذوه ، وما نهاكم عنه فانتهوا))(١). فنزع الثوب المخيط لم يرد صريحا في كتاب الله تعالى ، وانما ورد في سنة النبي صلى الله عليه وسلم(٢). وكذلك وردت أحكام أخرى لم يرد لها ذكر في القرآن الكريم(٣). ورسول الله يحض الناس على التمسك بالكتاب والسنة جنبا الى جنب في حجة الوداع قائلا: ((أيها الناس.. قد تركت فيكم ما ان اعتصمتم به فلن تضلوا أبدا أمرا بيّنا كتاب الله وسنة نبيه))(٤).

ثم انه بهذا الشأن أمر المسلمين أمرا عاما بالتبليغ عنه فقال:((ليبلغ الشاهد الغائب، فان الشاهد عسى أن يبلغ من هو أوعى له منه))(٥).

هذه المكانة السامية للسنة النبوية كانت محط عناية أهل الحجاز وسواهم من المسلمين ((فحفظوها وبلغوها عنه ، وهم صحابته الحواريون الذين وعوها وأدّوها ناصحين محسنين))(٦). ومن الحجازيين الذين اشتهروا من الصحابة برواية الحديث كان أبو هريرة (ت ٥٩ هـ) الذي(٧) كان من الحفاظ المواظبين على صحبة رسول الله صلى الله عليه وسلم في كل وقت .....))(٨).

اشتهر ابو هريرة بحفظ الحديث وروايته ، فقد حدث ابو الزعيزعة كاتب مروان بن الحكم فقال :((ان مروان دعا أبا هريرة وأقعده خلف السرير، وجعل مروان يسأل ، وجعلت أكتب عنه ، حتى اذا كان عند رأس

١ـ سورة الحشر : آية ٧

٢ـ انظر ابن عبد البر : جامع بيان العلم ج ٢ ص ١٨٩

٣ـ انظر القرطبي : الجامع لأحكام القرآن ج ١ ص ٣٩ ـ ٤١

٤ـ ابن هشام : السيرة القسم الثاني ص ٦٠٤

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الحول دعابه وأقعده من وراء حجاب، فجعل يسأله عن ذلك الكتاب فما زاد ولا نقص ولا قدم ولا أخر))[1]. وذكر ابن سعد أن حفظ أبي هريرة للحديث كان ببركة النبي صلى الله عليه وسلم[2].

وقد انتقد بعض الناس من معاصري أبي هريرة اكثاره من رواية الحديث فرد عليهم قائلا: ((ان الناس يقولون أكثر أبو هريرة ولولا آيتان في كتاب الله ماحدثت حديثا ثم يتلو: ان الذين يكتمون ما أنزلنا من البينات... الى قوله الرحيم. ان اخواننا من المهاجرين كان يشغلهم الصفق بالاسواق، وان اخواننا من الانصار كان يشغلهم العمل في أموالهم، وان أبا هريرة كان يلزم رسول الله صلى الله عليه وسلم بشبع بطنه ويحضر مالا يحضرون ويحفظ مالا يحفظون))[3]. وبالاضافة الى الصحبة والحفظ كان أبو هريرة أحرص شيء على سماع الحديث، وروي أنه قال: ((قلت يارسول الله من أسعد الناس بشفاعتك يوم القيامة؟ فقال: لقد ظننت يا أبا هريرة أن لايسألني عن هذا الحديث أحد أول منك لما رأيت من حرصك على الحديث...))[4].

ثم قام أبو هريرة بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم بدور كبير في رواية الحديث فروي عنه نحو من ((ثمانمائة رجل أو أكثر من أهل العلم من الصحابة والتابعين وغيرهم))[5]. ومن أعلام هؤلاء عبد الله بن عمر، وعبد الله بن عباس، وجابر بن عبد الله، وأنس بن مالك وسعيد بن المسيب وعكرمة وعطاء بن أبي رباح ومجاهد بن جبر وسواهم[6].

أما عبد الله بن عمر بن الخطاب - ت ٧٣ هـ - فقد كان شديد الاحتياط والتوقي لدينه في الفتوى، بينما كان جيد الحديث ومن أكثر الصحابة تتبعا لآثار الرسول صلى الله عليه وسلم[7]. يجمع الحديث ويتحرى الفاظ النبي الكريم بدقة ((فلم يكن أحد من أصحاب رسول الله، صلى الله عليه وسلم اذا سمع من رسول الله صلى الله عليه وسلم حديثا أحذر أن لايزيد فيه ولاينقص منه ولا ولا.. من عبد الله بن عمر بن الخطاب))[8]،

١- ابن كثير: البداية والنهاية ج ٨ ص ١٠٦

٢- انظر الطبقات الكبرى ج ٢ ص ٣٦٢، البخاري: الصحيح ج ١ ص ٤١

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وروى عنه كثيرون منهم سعيد بن المسيب والحسن البصري وابن شهاب الزهري وابن سيرين ونافع وعطاء ومجاهد وطاووس وعكرمة وآخرون.(١)

ومن أهل الحجاز الذين اشتهروا برواية الحديث كانت السيدة عائشة (ت ٥٨ هـ) التي كانت من أعلم الناس، يسألها الاكابر من أصحاب رسول الله(٢) صلى الله عليه وسلم في الفرائض والسنن وأسباب النزول. كما مكنتها علاقتها بالرسول كزوجة أن تروي عنه في المسائل التي لم يتيسر للصحابة الاطلاع عليها. ومن أشهر الذين أخذوا عنها سعيد بن المسيب وعلقمة بن قيس ومسروق بن الأجدع، وعائشة بنت طلحة، وعمرة بنت عبد الرحمن وحفصة بنت سيرين والقاسم بن محمد بن أبي بكر وعروة بن الزبير بن العوام.

ويطول بنا المقام اذا أردنا أن نتحدث عن أعلام الصحابة والتابعين الذين عاشوا بالحجاز في هذا العصر ورووا أحاديث الرسول الكريم خاصة وقد كثر الصحابة. عن أبي زرعة((قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم عن مائة ألف وأربعة عشر ألفا من الصحابة ممن روى عنه وسمع منه. فقيل له : يا أبا زرعة، هؤلاء أين كانوا ؟ وأين سمعوا منه ؟ قال : أهل المدينة وأهل مكة ومن بينهما والأعراب ومن شهد معه حجة الوداع. كل رآه وسمع منه بعرفة))(٣). واذا كان ذلك كذلك، فقد كان لهؤلاء الصحابة تابعون أكثر منهم عددا أخذوا عنهم ونقلوا علمهم. وأهل الحجاز على رأس هؤلاء في العناية بالحديث ورواته ، وأنهم ساهموا في ارساء الأسس التي شاد عليها علماء الحديث فيما بعد. ومما يؤيد هذه النظرة سلاسل المحدثين التي تزخر بها كتب الحديث، فأصح الأسانيد عن أبي هريرة : ابن شهاب عن سعيد بن المسيب عنه ، وأصح أسانيد السيدة عائشة ماروواه يحيى بن سعيد عن عبيد الله بن عمر بن حفص عن القاسم بن محمد عنها أو ماروواه الزهري أو هشام بن عروة عن عروة بن الزبير عنها. مما يوضح أن الطبقة من المحدثين تأخذ عن الطبقة التي قبلها ، وأهل الحجاز أكثر رواية للحديث لأن المدينة كانت دار الهجرة وماوى الصحابة ومن انتقل من أهلها الى الامصار كان شغلهم بالجهاد أكثر.(٤)

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

التشدد في رواية الحديث

... والتشدد في رواية الحديث ظاهرة كانت سائدة زمن الصحابة والتابعين، فكان يبلغ من ورع البعض أن يتهيب رواية الحديث. عن عبد الرحمن بن أبي ليلى أنه قال: ((أدركت مائة وعشرين من أصحاب رسول الله، صلى الله عليه وسلم، فما كان منهم محدث الا ود أن أخاه كفاه الحديث ولا مفت الا ود أن أخاه كفاه الفتوى))(١).

وكان عمر بن الخطاب يتشدد في قبول رواية الحديث كالذي روي عن أبي سعيد الخدري قال: ((كنت في مجلس من مجالس الأنصار اذ جاء أبو موسى كأنه مذعور، فقال: أستأذنت على عمر ثلاثا فلم يؤذن لي فرجعت، فقال ما منعك؟ قلت استأذنت ثلاثا فلم يؤذن لي فرجعت، وقال: رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا استأذن أحدكم ثلاثا فلم يؤذن له فليرجع، فقال: والله لتقيمن عليه ببينة. أمنكم أحد سمعه من النبي صلى الله عليه وسلم، فقال أبي بن كعب: والله لا يقوم معك الا أصغر القوم. فكنت أصغر القوم فقمت معه فأخبرت عمر أن النبي صلى الله عليه وسلم قال ذلك))(٢).

وطلب عمر بن الخطاب البينة التي تمثلت بالشاهد انما هي للتشدد في رواية الحديث، خاصة وأنه كان يرى أن يشغل المسلمون أنفسهم بالقرآن، فنهى عن الاكثار من رواية الحديث(٣). ولو كان عمر يتصرف تصرفا شخصيا لوجد من يقول: لا - ولكن عمله نال رضا الصحابة وموافقتهم حرصا على قول الرسول صلى الله عليه وسلم: ((من كذب علي متعمدا فليتبوأ مقعده من النار)). هذا الى أنهم كانوا يخشون أن يوضع حديث النبي الكريم على غير مواضعه(٤). كما تجدر ملاحظة أن هذا التشدد في الرواية لا يعني ترك الحديث كلية، وانما القصد التثبت والتأكد لما للحديث من أهمية تشريعية وليحمل هذا العلم من كل خلف عدوله(٥).

١- متز: الحضارة الاسلامية في القرن الرابع الهجري ج ١ ص ٣٢٠ ترجمة محمد عبد الهادي ابو ريده، ١٩٥٧م

٢- البخاري: الصحيح ج ٩ ص ٦٧

٣- انظر ابن عبد البر: جامع بيان العلم ج ٢ ص ١٢٠

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وفي العصر الأموي حدثت ظروف جديدة ، اذ انتقل كبار الصحابة الذين كانوا يتشددون في الرواية الى الدار الآخرة، وحدثت أمور تقتضي معرفة حكم الاسلام فيها ، فكان الناس يستفتون ذوي العلم فيفتونهم بما كانوا يحفظون من الحديث النبوي مما استوجب شدة الاستفراق والدرس لمواجهة الحاجات المتطورة روى ابن خلكان أن الزهري ـ ت ١٢٤ هـ ـ ((كان اذا جلس في بيته وضع كتبه حوله ، فيشتغل بها عن كل شيء من أمور الدنيا)) (١). والزهري هو أحد أجلاء التابعين من أهل المدينة.

وشهد هذا العصر وضع أحاديث على الرسول الكريم نتيجة للظروف السياسية والاجتماعية التي كانت تمر بها الأمة حينذاك. وحظيت أحاديث أهل الحجاز بمكانة سامية عما يروى في الأمصار خاصة ((الأحاديث المدنية، التي هي أم الأحاديث النبوية، وهي أشرف أحاديث أهل الأمصار)) (٢).

وقد كانت الظروف السياسية والاجتماعية قد قسمت المسلمين الى فرق متنافرة، وانضوت الأمم المفتوحة تحت لواء الاسلام، ومنهم من كان ايمانه لا يتجاوز حنجرته ، فبدأ الوضع يأخذ طريقه الى الحد

روى مسلم عن ابن عباس أنه قال : ((انا كنا نحدث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم اذ لم يكن يكذب عليه فلما ركب الناس الصعب والذلول تركنا الحديث عنه)) (٣). وفي رواية أخرى أن بشيرا العدوي جاء الى ابن عباس فجعل يحدث ويقول : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم، فجعل ابن عباس لا يأذن لحديثه ولا ينظر اليه فقال : يا ابن عباس: مالي لا أراك تسمع لحديثي ؟ أحدثك عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا تسمع. فقال ابن عباس : انا كنا مرة اذا سمعنا رجلا يقول : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ابتدرته أبصارنا . وأصغينا اليه بآذاننا ، فلما ركب الناس الصعب والذلول ، لم نأخذ من الناس الا ما نعرف)) وعن أبي الزناد عن أبيه قال : ((أدركت بالمدينة مائة كلهم مأمون، ما يؤخذ عنهم الحديث. يقال :ليس من أهله)) (٤).

١ـ انظر وفيات الأعيان ج ٤ ص ١٧٧-١٧٨

٢ـ ابن القيم الجوزية :أعلام الموقعين ج ٢ ص ٢٩٩

٣ـ مسلم : الصحيح م ١ ص ١٣

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ومثل هذه الأقوال تطورت الى التجريح والتعديل وبه تم نقد الرواة والتمييز بينهم ومعرفة الأحاديث الصحيحة من الموضوعة . روى سفيان بن عيينة عن هشام بن حجير عن طاووس قال : ((أتي ابن عباس بكتاب فيه قضاء علي فمحاه الا قدر ، وأشار سفيان بن عيينه بذراعه))(١) . يريد أن ما محاه ابن عباس كان مكذوبا فيه على علي بن أبي طالب وأن القدر الذي أبقاه هو الصحيح فحسب . وجعل علماء الجرح والتعديل همهم نخل الأحاديث والبحث عن حال الرواة من التابعين فما بعدهم واهتموا بالاسناد وصاروا يسألون عنه بعد أن كان الناس يتلقون الحديث دون اسناده فما وجدوه عند أهل السنة أخذوه وما وجدوه عند أهل البدع فلا يؤخذ حديثهم .(٢)

على أن هذا العصر الذي بدأ فيه الاهتمام بالسنة والحديث لم يكن عصرا مطبوعا بطابع الوضع وأن الأساس الأول للحديث لم يكن قائما على الاختلاق ، وانه لا صحة لما ذهب اليه المستشرقون قديما وحديثا من بناء على سوء الظن والشك وجنح اليه بعض الكتاب المسلمين الذين تابعوهم ، والواقع أنه قد بدأت السنة والحديث ثابتة الأركان صحيحة البنيان .(٣)

تدوين الحديث .

تركزت عناية المسلمين أول الأمر على كتاب الله قراءة وتدبرا وكتابة ، أضف الى ذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يوجههم الى القرآن والعناية به . واتخذ كتبة يكتبون آيات الله البيّنات عند نزولها . أما الحديث فلم يحظ بمثل هذا التدوين ، بل نهى الرسول الكريم عن كتابته قائلا : ((لا تكتبوا عني ، ومن كتب عني غير القرآن فليمحه ، وحدثوا عني ولا حرج ، ومن كذب علي متعمدا فليتبوأ مقعده من النار))(٤) . ويظهر أن هذا الحديث كان في فترة مبكرة حين كان يخاف التباسه بآيات القرآن .(٥) ولذلك كان تعويل الصحابة في حفظ الحديث انما كان الاستظهار في الصدور وعلى ملكة الحفظ التي اعتادها العرب كوسيلة غالبة في

١ــ صحيح مسلم ج ١ ص ١٤

٢ــ انظر صحيح مسلم ج ١ ص ١٥ ــ ١٦

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

تحصيل ثقافة عصرهم .

ويبدو أنه بجانب الخوف من التباس الحديث بالقرآن كانت أسباب أخرى حالت دون التوسع في كتابة الحديث كقلة الكاتبين القارئين وندرة أدوات الكتابة بجانب انصراف الناس كلهم للعناية بكتاب الله العزيز . وليس في هذا توكيد للزعم الشائع أن كتابة الحديث لم تكن في القرن الأول الهجري، وأن العلماء حفظوه دون أن يكتبوه . اذ أن نهي النبي الكريم عن كتابة الحديث قد نسخ بأحاديث أخرى دلت على الإباحة ومن ذلك ((أن خزاعة قتلوا رجلا من بني ليث عام فتح مكة بقتيل منهم قتلوه . فأخبر بذلك النبي صلى الله عليه وسلم فركب راحلته فخطب فقال : ان الله حبس عن مكة القتل أو الفيل - شك أبو عبد الله - وسلّط عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم والمؤمنين ألا وانها لم تحل لأحد قبلي ولم تحل لأحد بعدي ألا وانها حلت لي ساعة من نهار ألا وانها ساعتي هذه حرام لا يختلى شوكها ولا يعضد شجرها ولا تلتقط ساقطتها الا لمنشد ، فمن قتل فهو بخير النظرين : اما أن يعقل واما أن يقاد أهل القتيل . فجاء رجل من أهل اليمن، فقال : اكتب لي يارسول الله . فقال : اكتبوا لأبي فلان ...))[1] . ليس هذا فحسب بل نجد من الصحابة من كان يدون أحاديث الرسول لنفسه في حياته صلى الله عليه وسلم، فكان عبد الله بن عمرو ابن العاص قد كتب عن النبي عليه الصلاة والسلام، علما كثيرا ، وكان يعترف له أبو هريرة بالاكثار من العلم ويقول : فانه كان يكتب عن النبي - صلى الله عليه وسلم ، وكنت لا أكتب))[2] .

وجاءت كتابة عبد الله بن عمرو بعد استئذان النبي الكريم في كتابة ما يسمع منه ، فأذن له ، فكان عبد الله يسمي صحيفته تلك : الصادقة[3] . وكذلك كان عبد الله بن عباس يكتب الأحاديث النبوية فقد حدث موسى بن عقبة قال : ((وضع عندنا كريب حمل بعير أو عدل بعير من كتب ابن عباس قال : فكان علي بن عبد الله بن عباس اذا أراد الكتاب كتب اليه : ابعث الي بصحيفة كذا وكذا . قال : فينسخها فيبعث اليه باحداهما))[4] .

١- البخاري : الصحيح ج ١ ص ٣٨ - ٣٩

وهكذا فكتابة الحديث في حياة الرسول عليه الصلاة والسلام ـ كانت أمرا واقعا ، ولكنها لم تكن شائعة، حتى اذا جاء عهد الخلفاء الراشدين لم يتغير الحال كثيرا من حيث التدوين، وكانت الظاهرة المميزة هي التشدد في الرواية . فأبو بكر لم يعط الجدة سدس الميراث حتى شهد المغيرة بن شعبة ومحمد بن مسلمة أن الرسول أعطاها السدس(١) . وأشرت فيما سبق الى مواقف مماثلة وقفها عمر بن الخطاب .

وقد راودت فكرة كتابة الحديث أذهان زعماء الصحابة، فأبو بكر كتب الحديث عن الرسول صلى الله عليه وسلم قالت عائشة : ((جمع أبي الحديث عن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم وكانت خمسمائة حديث فبات ليلته يتقلب كثيرا ... فلما أصبح قال : أي بنيه : هلمي الأحاديث التي عندك فجئته بها فدعا بنار فحرقها))(٢) . وعمر بن الخطاب عدل عن كتابة السنن بعد أن عزم على تدوينها واستشار في ذلك الصحابة فأشار عليه عامتهم بذلك، فلبث عمر شهرا يستخير الله في ذلك شاكا فيه ، ثم أصبح يوما وقد عزم الله له فقال : اني كنت قد ذكرت لكم من كتاب السنن ماقد علمتم ، ثم تذكرت ، فاذا اناس من أهل الكتاب قبلكم، كتبوا مع كتاب الله كتبا فأكبوا عليها ، وتركوا كتاب الله ، واني والله لا ألبس كتاب الله بشيء أبدا ، فترك كتاب السنن))(٣) . وعلى ذلك فعدم كتابة الحديث من وجهة نظر المتشددين انما تعود الى خوفهم من أن تفضل العناية بالحديث الناس عن كتاب الله الكريم واستمرت هذه النظرة عند بعض العلماء في العصر الأموي(٤) .

ويجد المرء بجانب هؤلاء الذين كرهوا الكتابة، علماء آخرين استساغوا الكتابة بل ومنهم من حض عليها ، فكان لجابر بن عبد الله الصحابي الأنصاري (ت ٧٨ هـ)(٥) صحيفة فيها طائفة من أحاديث الرسول وسننه(٦)

---

١ ـ انظر ابو زيد شلبي : تاريخ الحضارة الاسلامية والفكر الاسلامي ص ١٦٧

٢ ـ الذهبي : تذكرة الحفاظ ج ١ ص ٥ طبعة الهند ١٩٥٥

٣ ـ الخطيب البغدادي : تقييد العلم ص ٥٠ حققه يوسف العش دمشق ١٩٤٩ م .

٤ ـ انظر ابن عبد البر : جامع بيان العلم ج ١ ص ٧٦ وما بعدها طبعة المكتبة السلفية بالمدينة .

٥ ـ ابن حبان البستي : كتاب مشاهير علماء الأمصار ص ١١

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وتتلمذ عليه من أهل الحجاز سليمان بن قيس اليشكري، ومحمد بن الحنفية (ت ٨١ هـ)[1]، ومحمد بن علي ابن الحسين بن علي بن أبي طالب (ت ١١٤ هـ) وسواهم. وروى عبد الرحمن بن حرملة قال: ((كنت سيء الحفظ فرخص لي سعيد بن المسيب في الكتاب))[2]. أما مجاهد بن جبر ت ١٠٣ هـ فكان يصمد بالناس الى غرفته فيخرج اليهم كتبه فينسخون منها[3].

وتعود كراهة البعض للكتابة في ذلك العصر الى حرصهم على تجنب الخلط أحيانا بين الآراء الخاصة والسنة ونجد سعيد بن جبير (ت ٩٤ هـ)، ينقل عن ابن عباس روايتين بهذا الشأن نهى في الأولى عن كتابة العلم وقال: ((انما ضل من كان قبلكم بالكتب))[4]. وفي الرواية الثانية يحض على الكتابة قائلا: ((خير ما قيد به العلم الكتاب))[5]. ويظهر أن النهي هنا أريد به الآراء الشخصية في حين أن العلم ينصرف الى سنة النبي -صلى الله عليه وسلم- والا لما سارع سعيد بن جبير الى الحرص على كتابة الحديث من ابن عباس. وذكر عثمان بن حكيم عن سعيد بن جبير ((انه كان يكون مع ابن عباس فيستمع منه الحديث فيكتبه في واسطة الرحل فاذا نزل نسخه))[6].

وقد بقي تدوين الحديث عملا فرديا، فمن أراد كتابة السنن فعل، كالذي روي عن عبد الرحمن ابن أبي الزناد عن أبيه قال: ((كنا نكتب الحلال والحرام وكان ابن شهاب يكتب كل ما سمع فلما احتيج اليه علمت أنه أعلم الناس))[7]. أما من كره التدوين فاعتمد على الحفظ والرواية الشفهية.

١- ابن قتيبة: المعارف ص ٢١٦

٢- ابن عبد البر: جامع بيان العلم ج ١ ص ٧٢

٣- انظر الخطيب البغدادي: تقييد العلم ص ١٠٥

٤- انظر ابن الاثير: الكامل ج ٤ ص ٥٧٩

٥- ابن عبد البر: جامع بيان العلم ج ١ ص ٦٥

٦- الخطيب البغدادي: تقييد العلم ص ١٠٣

٧- ابن عبد البر: جامع بيان العلم ج ١ ص ٧٢

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ودخل تدوين الحديث طورا جديدا حين آلت الخلافة الى عمر بن عبد العزيز فتبنى أمر التدوين وكتب الى عامله على المدينة أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم :((أن انظر ما كان من حديث رسول الله ، صلى الله عليه وسلم أو سنة ماضية أو حديث عمرة بنت عبد الرحمن فاكتبه فاني خفت دروس العلم وذهاب أهله))(١). وكانت عمرة بنت عبد الرحمن ، وعروة بن الزبير ، والقاسم بن محمد بن أبي بكر من أنجب تلاميذ عائشة ومن أكثر الناس رواية لأحاديث الرسول الكريم عنها .

واشترك ابن شهاب الزهري في جمع السنن في الدفاتر(٢) وقام الخليفة بارسال نسخ منها الى الأمصار عن سعيد بن زياد مولى الزبير قال :((سمعت ابن شهاب يحدث سعد بن ابراهيم ، أمرنا عمر بن عبد العزيز بجمع السنن فكتبناها دفترا دفترا فبعث الى كل أرض له عليها سلطان دفترا))(٣)، وتم الجمع كما ترى، وأرسلت نسخ من الدفاتر الى الأمصار، فلا محل اذن للشك الذي أبداه بعض الباحثين،(٤) حول جمع الحديث والسنن(٥). وهذه السنن التي جمعت كانت لا تخلو من فتاوي الصحابة والتابعين .

كان عمر بن عبد العزيز يخشى ذهاب العلم بوفاة أهله ، فرأى أن يحفظه بتدوينه ، وأشار الزهري الى سبب آخر حين قال :((لولا أحاديث تأتينا من قبل المشرق ننكرها لا نعرفها ما كتبت حديثا أذنت في كتابة))(٦). وقول الزهري : ماكتبت حديثا ولا أذنت في كتابته يناقض ما هو معروف عن حرصه على الكتابة لنفسه(٧). والأهم من هذا أن كتابة الحديث للأمراء دفعت العلماء الا يمنعوا أحدا من المسلمين الكتابة(٨).

ان العناية بالعلوم الدينية لم تقتصر على اهتمام أهل الحجاز فحسب وانما شاركهم أناس من أهل الأمصار الاسلامية، وكان دور أهل الحجاز في هذه العلوم دورا طليعيا رائدا أتمه العلماء في العصر العباسي ، وعنوا بتأليف المسانيد خالية من فتاوي الصحابة كمسند أحمد بن حنبل ، كما دونت السنة مرتبة على أبواب .

١- ابن سعد : الطبقات ج ٢ ص ٣٨٧

٢- انظر ابن عبد البر : جامع بيان العلم ج ١ ص ٧٦

٣- ابن عبد البر : جامع بيان العلم ج ١ ص ٧٦

٤- انظر أحمد أمين : ضحى الاسلام ج ٢ ص ١٠٦ - ١٠٧، الطبعة الأولى ، لجنة التأليف والترجمة

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

د - الفقـــــه

نشأ الفقه نشأة طبيعية تدرجت مع الرسالة الاسلامية لمواجهة وتنظيم حاجات المجتمع، وكان التشريع يستمد من القرآن والسنة في العهد النبوي ، فما لم ينزل فيه الوحي بآيات تشريعية صدرت فيه سنة الرسول الذي كان يؤدي الرسالة ويقضي بين الصحابة ويفتيهم فيما يوجهون اليه من مسائل .

ولم يكن الرســـول الكريم بجانب نبوته يغفل رأي الصحابة أو يستبد دونهم بالرأي، بل نجده ، صلى الله عليه وسلم، يستشيرهم في المعارك فكانوا يجتهدون بآرائهم فيأخذ بعضهم، ومن الأمثلة على ذلك أنه بعد غزوة الأحزاب قال للصحابة :((لا يصلين أحد العصر الا في بني قريظة ، فتخوف ناس فوت الوقت دون بني قريظة . وقال آخرون لا نصلي العصر الا حيث أمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم، وان فاتنا الوقت فما عنف واحدا من الفريقين، وفي هذا من الفقه تصويب المجتهدين .(١)

واستمر الحال كذلك حين انتقل النبي الى الدار الآخرة، وطرأت أمور على الدولة والناس واجبها الصحابة بالنظر في كتاب الله وسنة نبيه الكريم، ثم كانوا ، ان لم يجدوا نصا يقضون باجتهادهم ورأيهم ، واستعانوا على ذلك بالشورى بينهم لأن ((الصحابة كلهم لم يكونوا أهل فتيا ، ولا كان الذين يؤخذ عن جميعهم ، وانما كان ذلك مختصا بالحاملين للقرآن العارفين بناسخه ومنسوخه ومتشابهه ومحكمه وسائر دلالته بما تلقوه من النبي صلى الله عليه وسلم، أو ممن سمعه منهم من عليتهم))(٢) .

هذا بجانب اختلاف حظوظ الصحابة في الصحبة ورواية الحديث، والفقه شديد الارتباط بالحديث، بل ظل الفقه جزءا من الحديث حتى استقل علما قائما بذاته . ولكنه على استقلاله ما انفك شديد الارتباط بحديث الرسول صلى الله عليه وسلم .

وقد اشتغل بعض أهل الحجاز في العصر الأموي بالفقه على منهاج مثالي نظري، لا تلتزم الحكومة بتطبيقه التزاما كاملا، ولا يمت كثيرا للحالة العملية الواقعة في العصر الأموي . ((وكان سعيد بن المسيب وأصحابه يذهبون الى أن أهل الحرمين أثبت الناس في الفقه وأصل مذهبهم فتاوي عبد الله بن

(١) انظر القرطبي : الجامع لأحكام القرآن ج ١٤ ص ١٣٨

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

عائشة وابن عباس وقضايا قضاة المدينة فجمعوا من ذلك مايسره الله لهم ثم نظروا فيها نظر اعتبار فيما كان منها مجمعا عليه بين علماء المدينة فانهم يأخذون عليه بنواجذهم، وما كان فيه اختلاف فانهم يأخذون بأقواها وأرجحها اما بكثرة من ذهب اليه منهم أو لموافقته بقياس قوي أو تخريج صريح بالكتاب والسنة أو نحو ذلك، واذا لم يجدوا فيها حفظوا منهم جواب المسألة خرجوا من كلامهم وتتبعوا الاقتضاء فحصل لهم مسائل كثيرة في كل باب من أبواب الفقه))(١). ويتضح من هذا أن مرتبي الفقه انما حلقات الدروس مستقلا عن الخلفاء الأمويين الذين لم يبذلوا محاولة في صبغ تشريعهم صبغة رسمية(٢).

وقد تباينت وجهات نظر علماء أهل الحجاز في المسائل الفقهية فانقسموا الى فريقين، فريق منهم يسأل أفتى بما يصرف من الكتاب أو السنة ثم يتوقف عندهما ولا يتجاوزهما الى رأي يدلي به كالذي روي عن رجلا سأل ابن عمر عن مسألة فطأطأ رأسه ولم يجبه حتى ظن الناس أنه لم يسمع مسألته ، فقال له : الله تعالى أما سمعت مسألتي . قال : بلى ولكنكم كأنكم ترون أن الله ليس بسائلنا عما تسألوننا عنه ، أتركنا الله حتى نتفهم في مسألتك فان كان لها جواب عندنا والا أعلمناك أنه لا علم لنا به))(٣). وعلى نفس هذا سار ابنه سالم بن عبد الله الذي سأله رجل عن شيء فقال : لم أسمع في هذا شيئا . فقال له الرجل : بلي أصلحك الله برأيك، قال : لا ، ثم أعاد عليه فقال : اني أرضى برأيك فقال سالم : اني لعلي أخبرك تذهب فأرى بعدك رأيا آخر غيره فلا أجدك(٤).

وامتاز أهل الحجاز بالتشدد والتمسك بالكتاب والسنة واعتماد الفقه في الغالب عليهما كالذي روي عن ابراء أنه قال : ((أدركت عشرين ومائة من الأنصار من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، يسأل أحدهم عن المسألة ما منهم رجل الا ود أن أخاه كفاه ـ وفي رواية أخرى ـ فيردها هذا الى هذا وهذا الى هذا حتى يرجع الى الأول))(٥)، ولعل مرد هذا التشدد كان ظهور الوضع في الحديث ((والواضعون

ـ الدهلوي : حجة الله البالغة ج ١ ص ١١٤ ـ ١١٥، المطبعة الخيرية ١٣٢٢ هـ

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أقسام كثيرة منهم زنادقة ومنهم متعبدون يحسبون أنهم يحسنون صنعا ، يضعون أحاديث فيها ترغيب وترهيب وفي فضائل الأعمال ليعمل بها))(١).

هذا وقد نحا بعض فقهاء أهل الحجاز منحى عمليا ورفض الاجابة عن المسائل التي لم تكن كالذي روي عن مسروق قال : ((سألت أبي بن كعب عن مسألة فقال ، يا ابن أخي أكان هذا ؟ قلت: لا . قال : فأجمنا حتى يكون ، فاذا كان اجتهدنا لك رأينا))(٢).

أما الفريق الثاني من فقهاء أهل الحجاز فكان لا يخالف الفريق الأول في الاعتماد على الكتاب والسنة ، واذا لم يجد هؤلاء نصا أفتوا بآرائهم وهم أهل الرأي والقياس ، ورغم أن هذا الأسلوب اشتهرت به العراق الا أن ذلك لم يمنع أن يشتهر به رجال من علماء أهل الحجاز كربيعة الذي نسب الى الرأي فقيل ربيعة الرأي وهو ((من فقهاء أهل المدينة وحفاظهم وعلمائهم بأيام الناس وفصحائهم وعنه أخذ مالك الفقه))(٣). خاصة وأن الفقيه في تلك الفترة لم يكن يعتمد في اجتهاده واستنباطه على قواعد مقرره واضحه المعالم والحدود ، وانما كان اعتماد الفقهاء على ما لمسوه من روح التشريع في فترة الوحي مما كون عندهم ذوقا فقهيا موحدا في تفهم مرامي التشريع ومقاصده .

وسلك التابعون في الفقه طرق الصحابة ((اذ هم متابعون لمن قبلهم ضرورة لدينهم واقتدائهم وهكذا الى الجيل العاشرين لفعل النبي صلى الله عليه وسلم الآخذين ذلك عنه))(٤). بمعنى أن كل جيل كان يتلقى عن الجيل السابق ويأخذ عنه ، وذكر ابن الجوزي خمس طبقات من التابعين المشهورين بالعلم في المصر الأموي ، وروى ابن القيم الجوزية ((الدين والفقه انتشر في الأمة عن أصحاب ابن مسعود ، واصحاب زيد بن ثابت وأصحاب عبد الله بن عمر ، وأما أهل مكة فعلمهم عن أصحاب ابن عباس وأما أهل العراق فعلمهم عن أصحاب ابن مسعود ... وقد قيل أن ابن عمر وجماعة ممن عاشوا بعده بالمدينة من أصحاب رسول الله (٥).

١ـ ابن سعد : الطبقات ج ٣ ص ٥٠٠

٢ـ ابن حبان البستي : كتاب مشاهير علماء الأمصار ص ٨١

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

انما كانوا يفتون بمذهب زيد بن ثابت وما كانوا أخذوا عنه ، مما لم يكونوا حفظوا فيه عن رسول الله شيئا))٠

ومن الذين تتلمذوا على زيد بن ثابت كما ذكر ابن المديني : ((الذين يذهبون مذهبه في الفقه ويقومون بقوله الاثني عشر : قبيصة بن ذؤيب ، وخارجة بن زيد ، وأبان بن عثمان وسليمان بن يسار ، وكان ممن يقول بقوله ، ممن لا يثبت له لقاء ، مثل هؤلاء الأربعة سعيد بن المسيب ، و عروة بن الزبير ، وعبد الملك ابن مروان ، وعبيد الله بن عتبة وابو سلمة بن عبد الرحمن ، وأبو بكر بن عبد الرحمن بن الحارث ، وسالم ابن عبد الله ، والقاسم بن محمد))٠ (١)

ولزيد بن ثابت شهرة واسعة بالفرائض التي يحتاجها القضاء بشكل خاص ولعل قضاء زيد كان مدونا ، ومما يدل على أن بعض الأحكام كانت مكتوبة ما ذكره سوار حين قال : ((قلت لربيعة بن أبي عبد الرحمن : من أين أخذتم اليمين مع الشاهد ؟ فقال : وجد في كتاب سعد بن عبادة))٠ (٢)

وكذلك اشتهرت السيدة عائشة التي كانت ((مقدمة في العلم والفرائض والأحكام والحلال والحرام ، وكان من الآخذين عنها الذين لا يكادون يتجاوزون قولها المتفقهين بها القاسم بن محمد بن أبي بكر (٣) ابن أخيها ، وعروة بن الزبير ابن اختها اسماء))٠ كما أخذت عنها في الحديث عمرة بنت عبد الرحمن (٤) ٠

واشتهر في مكة عطاء بن أبي رباح ت ١١٤ هـ ، وطاووس بن كيسان ت ١٠١ هـ وعمرو بن دينار ت ١٢٦ هـ ، وعكرمة مولى ابن عباس ت ١٠٧ ، وهم من أصحاب ابن عباس وتلاميذه ، ثم أبو الزبير المكي ، وعبد الله بن خالد بن أسيد بن أبي العيص بن أمية ، وعبد الله بن طاووس ثم من بعدهم طبقة (٥) أخرى كابن جريج وسفيان بن عيينة ٠

على أن شهرة فقهاء المدينة في العصر الأموي قد فاقت شهرة فقهاء مكة ، وظهر سبعة أعلام من الفقهاء في المدينة ذكرهم الشاعر بقوله :

١ـ ابن عساكر : التاريخ الكبير ج ٤ ص ٤٤٨

٢ـ وكيع : أخبار القضاة ج ٢ ص ٦٨ تعليق عبد العزيز مصطفى المراغي ٠ المكتبة التجارية الكبرى ١٩٤٧ ١

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

اذا قيل من في العلم سبعة أبحـــر روايتهم ليست عن العلم خارجة

فقل هم عبيد الله عروة قاســـــم سعيد ابو بكر سليمان خارجـــه (١)

جمع أبو الزناد في ((كتاب رأي الفقهاء السبعة من أهل المدينة وما اختلفوا فيه)) (٢). روي أن يحيى بن سعيد ت ١٤٣ هـ قال : ((أهل العلم أهل توسعة، وما برح المفتون يختلفون فيحلل هذا ويحرم هذا، فـــلا يعيب هذا على هذا ولا هذا على هذا، وان المسألة لترد على أحدهم كالجبل فاذا فتح له بابها قال : ما أهون هذه)) (٣). والاختلاف بين الفقهاء أمر طبيعي ومنطقي .

وكذلك اشتهر من أهل الفتوى في الحجاز أبان بن عثمان ، وسالم ونافع وأبو سلمة بن عبد الرحمن بن عوف وعلي بن الحسين المعروف بزين العابدين واشتهر بعد هؤلاء أبو بكر بن محمد بن عمرو بن حزم ، ومحمد بن المنكدر وابن شهاب الزهري .

ووصف الدهلوي هؤلاء الفقهاء فقال : أما ((سعيد بن المسيب فانه كان أحفظهم لقضايا عمر وحديث أبي هريرة ومثل عروة وسالم وعطاء بن يسار وقاسم وعبيد الله بن عبد الله والزهري ويحيى بن سعيد وزيد بن أسلم وربيعة أحق بالأخذ من غيره عند أهل المدينة لما بينّه النبي صلى الله عليه وسلم في فضائل المدينة ولأنها مأوى الفقهاء ومجمع العلماء في كل عصر ولذلك ترى مالكا يلازم محجتهم)) (٤).

وكان سعيد بن المسيب يحتل مكانة مرموقة بين الفقهاء ، بل هو فقيههم ووصف بالجريء (٥). روى أبو اسحاق قال : ((كنت أرى الرجل في ذلك الزمان وانه ليدخل يسأل عن الشيء فيدفعه الناس عن مجلس الى مجلس حتى يدفع الى مجلس سعيد بن المسيب كراهية الفتيا ، وكانوا يدعونه : سعيد بن المسيب الجريء)) (٦).

١ــ ابن القيم الجوزية : أعلام الموقعين ج ١ ص ١٨ وهؤلاء هم : سعيد بن المسيب ، وعروة بن الزبير والقاسم بن محمد ، وخارجة بن زيد ، وأبو بكر بن عبد الرحمن بن حارث بن هشام، وسليمان بن يسار وعبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود .

٢ــ ابن النديم : الفهرست ص ٢٢٥

٣ــ جولد تسهير : العقيدة والشريعة في الاسلام ص ٣١٥

٤ــ الدهلوي : حجة الله البالغة ج ١ ص ١١٥

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وتوفي سعيد سنة ٩٤ هـ ، بعد أن عاصر أحداث الحجاز السياسية وتعرض فيها للأذى حين اتخذ موقف المعارضة من الأمويين وابن الزبير (١).

وكرّس سعيد بن المسيب حياته للفقه ، فكان فقيه أهل المدينة غير مدافع (٢) وجمع ما تقدمه من الآثار في المدينة وروي أنه قال : ((ما بقي أحد أعلم بكل قضاء قضاه رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا أبو بكر وعمر مني)) (٣).

ومن الموالي كان سليمان بن يسار مولى ميمونة بنت الحارث، زوج النبي الكريم وقد ولي سوق المدينة لعمر بن عبد العزيز وهو يومذاك والي المدينة للوليد بن عبد الملك وروى عن العديد من علماء أهل الحجاز (٤)، وتوفي سنة ١٠٧ هـ . أما خارجة بن زيد بن ثابت فقد كان من فقهاء أهل المدينة المعدودين، ويبدو أنه استفاد من علم أبيه ، فكان الناس يستفتونه في قسمة المواريث من الدور والنخل والأموال ، وكان من يكتب للناس الوثائق (٥).

وامتاز عروة بن الزبير بكتابته الفقه في الكتب، عن هشام بن عروة قال : ((أحرق أبي يوم الحرة كتب فقه كانت له ، قال فكان يقول بعد ذلك : لأن تكون عندي أحب الي من أن يكون لي مثل أهلي ومالي)) (٦). وأما عبيد الله بن عبد الله بن عتبة فكان من الفقهاء والقراء على ما كان يرجع اليه من العقل والأدب والمعرفة بأيام الناس (٧).

وكان عمر بن عبد العزيز يعجب بالقاسم بن محمد وبعلمه في السنة فكان يقول : ((لو كان لي من الأمر شيء لوليت القاسم بن محمد)) (٨).

١ـ انظر ابن الاثير : الكامل ج ٤ ص ٨٢.

٢ـ انظر ياقوت : معجم البلدان ج ٢ ص ٣٥٤

٣ـ ابن سعد : الطبقات ج ٥ ص ١٢٠

٤ـ انظر المرجع السابق ص ١٧٤ـ ١٧٥

٥ـ انظر ابن عساكر : التاريخ ج ٥ ص ٢٤ـ٢٥

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

هؤلاء وأمثالهم من علماء أهل الحجاز ساهموا في الحركة العلمية الدينية وأدوا دورا واضحا في تطور الفقه في عصرهم .

التاريخ (السيرة والمغـــازي) .

تتصل نشأة السيرة والمغازي اتصالا وثيقا بدراسة الحديث، فحين أخذ أهل الحجاز يجمعون الحديث ويتحرونه للاهتداء به والاعتماد عليه في التشريع، توفرت لهم أثناء ذلك مادة تاريخية تتعلق بسيرة الرسول الكريم، والغزوات التي اشترك فيها والسرايا التي بعث بها .

وفي الحديث النبوي اشارات الى ولادة النبي عليه الصلاة والسلام ، وطفولته ونشأته وبعثته ومقاومة قريش لدعوته وهجرة المسلمين الى الحبشة، (١) ثم يثرب . وغير ذلك من الأخبار التي تناولت جميع نواحي السيرة ، ومن هنا كان الاشتغال بعلم المغازي والسير جزءا من العلوم الدينية ومكملا لها ، (٢) ويظهر ذلك بوضوح من عناية الفقهاء المحدثين كعروة بن الزبير ، وابن شهاب الزهري ، وسواهما بالتاريخ .

والنشأة الدينية لأوائل المؤرخين المسلمين جعلتهم يهتمون بالمغازي والسيرة تلبية لشعور ديني عميق ، كما كانت تتم العلوم الدينية التي مهروا فيها ، خاصة وقد توفرت لهم مادة تاريخية دسمة اثناء تعمقهم في دراسات الفقه وتفسير القرآن والحديث. (٣) هذا بجانب الاشارات المتعددة للتاريخ الماضي من قصص الأنبياء والمرسلين التي وردت في القرآن الكريم، وذكر حوادث الأمم والشعوب السالفة ، للتأكيد على العبرة الدينية والخلقية التي تنطوي عليها ، وسيرة الرسول الكريم مثل كامل للمسلمين يقتدون بهـــا ، فلا تقتصر أهمية التاريخ اذن على كونه علما فحسب بل تجاوزتها الى دوره ومكانته في التربية الاسلاميـــة . (٤)

وكذلك كثيرا ما كان القرآن يعالج الأحداث الجارية خاصة في السور والآيـــات المدنية، والمفسر الذي يريد أن يشرح تلك الآيات مضطر الى الحصول على بعض المعرفة التاريخية . (٥)

١ــ انظر الطبري : تاريخ ج ٢ ص ٢٩١، ٣٢٨

٢ــ انظر محمد عبد الغني حسن : علم التاريخ عند العرب ص ١٦ مؤسسة المطبوعات الحديثة ١٩٦١ م

٣ــ انظر نور الدين حاطوم : المدخل الى التاريخ ص ١٦٥ دمشق ١٩٦٤ م .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وبالتالي كان التاريخ من المهام الفكرية الأولى التي عني بها المسلمون العرب[1]، ولكن بداية التأليف في السيرة والمغازي قبل ابن اسحاق لم تكن ذات منهج متكامل[2]، وانما كانت أحاديث تروى بطريقة الاسناد، فيسأل بعض الناس عالما ممن اشتهر بالحفظ والرواية عن حادثة أو غزوة معينة فيجيب العالم سائله بمقدار مايعرف كالذي روي أن حكيم بن حزام دخل على مروان بن الحكم، في ولايته على المدينة، فرحب به وأجلسه في صدر المجلس[3]، ثم سأله قائلا: حدّثنا حديث بدر. قال خرجنا حتى نزلنا الجحفة وقد يكون السؤال مكتوبا ويرسل من بلد لآخر، فكان عبد الملك بن مروان يكتب الى عروة سائلا عن أخبار بدر، فكتب اليه عروة بن الزبير: ((أما بعد، فانك كتبت الي في أبي سفيان ومخرجه تسألني كيف كان شأنه، كان من شأنه أن أبا سفيان بن حرب أقبل من الشام[4] ...)). ثم أورد عروة أخبار غزوة بدر، بهذه المغازي التي تعني لغويا غزوات الرسول وخروبه[5]، تناولت في الحقيقة سيرة النبي جميعها.

ومن المشهورين بعنايتهم بالمغازي من أهل الحجاز كان أبان بن عثمان (ت ١٠١ ـ ١٠٥ هـ)[6]، وعروة بن الزبير (ت٩٤ هـ) وشرحبيل بن سعد[7] (ت١٢٣ هـ) وعبد الله بن أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم (ت ١٣٠ ـ ١٣٥ هـ)[8]، وعاصم بن عمر بن قتادة بن النعمان الأنصاري (ت ١٢٠ هـ)، ومحمد بن مسلم بن عبيد الله بن عبد الله بن شهاب الزهري (ت ١٢٤ هـ) والمعروف بابن شهاب الزهري. ثم أنجبت مدرسة المدينة التاريخية اثنين من أعلام السيرة والمغازي هما موسى بن عقبة (ت ١٤١ هـ)، ومحمد بن اسحاق (ت ١٥١ هـ)، الذي اشتهر شهرة واسعة في العصر العباسي.

١ـ انظر فيليب حتي: تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين ج ٢ ص ١٠٧

٢ـ انظر هوروفتس: المغازي الأولى ومؤلفوها صفحات ص ي و من المقدمة.

٣ـ انظر الطبري: تاريخ ج ٢ ص ٤٤٢ ـ ٤٤٣

٤ـ انظر المرجع السابق ص ٤٢١

٥ـ انظر هوروفتس: المغازي الأولى ص ٢

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وأبان بن عثمان واحد من المشهورين في الفقه والحديث ، وتوفرت له أثناء ذلك مجموعة أحاديث عن المغازي رواها عنه أحد تلاميذه هو المغيرة بن عبد الرحمن الذي وصفه ابن سعد (١) قائلا: ((كان ثقة قليل الحديث ، الا مغازي رسول الله ، صلى الله عليه وسلم أخذها من أبان بن عثمان، فكان كثيرا ما تقرأ عليه ويأمرنا بتعليمها)). واذا كان ذلك كذلك فلا بد أنها كانت صحائف فيها مجموعة أخبار تتعلق بالسيرة العطرة ، ومع ذلك فاننا ((لا نجد بين المؤرخين من نقل أو روى عن أبان بن عثمان، ويبدو أنه كان يمثل مرحلة انتقال بين دراسة الحديث ودراسة المغازي)) (٢).

أما عروة بن الزبير فقد أحرز شهرة أوسع ، واعتبر من رواد دراسة المغازي وتدوينها بل ((يقال أنه أول من صنف فيها)) (٣). ومكنت البيئة الجغرافية والاجتماعية التي عاش فيها عروة من التلقي عن أعلام مدرسة المدينة ، كما أتاحت له الاطلاع على كثير من الأخبار عن أيام الرسول صلى الله عليه وسلم الأولى ، عرفها من والديه ومن خالته عائشة أكثر من غيرها (٤) ، كما روى الحديث عن عمة بنت عبد الرحمن وأسامة بن زيد وعبد الله بن عمرو بن العاص، وأبي هريرة وعبد الله بن عباس وبشير بن أبي مسعود الأنصاري وآخرين (٥) ، وكانت المدينة في تلك الفترة تمثل المركز الثقافي الأول في بلاد الاسلام.

وقد تاقت نفس عروة الى العلم فكان يقول :((منيتي الزهد في الدنيا والفوز بالجنة في الآخرة وأن أكون ممن يروي عنه هذا العلم)) (٦). ولم يشارك أخويه عبد الله ومصعب في طموحهما وتطلعاتهما السياسية ، بل كرس حياته للعلم فنبغ كأحد الفقهاء السبعة المعدودين في المدينة (٧).

ونال عروة ثقة معاصرين، فوصفه الزهري قائلا :((كان عروة بحرا لا ينزف ولا تكدره الدلاء)) وكان عمر بن عبد العزيز يقول :- ما أحد أعلم من عروة)) (٨). ولم يقتصر علم عروة على الرواية بل تجاوزها

١- الطبقات الكبرى ج ٥ ص ٢١٠.
٢- عبد العزيز الدوري: بحث في نشأة علم التاريخ عند العرب ص ٢١ بيروت ١٩٦٠
٣- حاجي خليفة: كشف الظنون ج ٢ ص ١٧٤٧ طبعة استانبول ١٩٤١ م.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الى التدوين، وأحرق يوم الحرة كتب فقه كانت له ، فهو قد دوّن الفقه ودون بعض الأخبار عن حوادث الصدر الأول من الاسلام، فوصل الينا بعض رسائله المدونة في كتب ابن اسحاق والواقدي والطبري.(١)

وقد ربطت عروة صلات بالأمويين، فوفد على عبد الملك بن مروان الذي كان يجلّ عروة ويحترمه منذ أن كانا يجتمعان معا في مسجد المدينة، وكذلك وفد عروة على الوليد بن عبد الملك ، وأجاب على أسئلة البلاط الأموي ، حين سئل عن حوادث تتعلق بفترة الرسالة.(٢) ورغم هذه الصلات فقد كان عروة يرى اعتزال أهل الجور ويجلس في المسجد النبوي مع علي بن الحسين فيتذاكران جور من جار من الأمويين والمقام معهم ، وهما لا يستطيعان تغيير ذلك ، ويخافان أن تحلّ عقوبة الله بهما لسكوتهما.(٣)

وفيما يلي بعض الأمثلة لمغازي عروة بن الزبير مع ملاحظة أنه اتبع طريقة المحدثين في اسناد الأخبار الى رواتها الذين نقل عنهم ، الا أنه قد أغفل الاسناد في بعض الروايات.(٤) فكان مما تناول بدء الوحي : ((بعث رسول الله ، صلى الله عليه وسلم، وهو ابن أربعين سنة)).(٥) ((وأول ما بدئ به رسول الله صلى الله عليه وسلم من النبوة حين أراد الله كرامته ورحمة العباد به الرؤيا الصادقة، لا يرى رسول الله صلى الله عليه وسلم رؤيا في نومه الا جاءت كفلق الصبح ... وحبب الله تعالى اليه الخلوة، فلم يكن شيء أحب اليه من أن يخلو وحده)).(٦) ثم ذكر عروة نزول الوحي على الرسول الكريم وهو يتعبد بغار حراء، ونزول الآيات الأولى ، وأثر ذلك على الرسول وحديثه مع خديجة التي انطلقت به الى ورقة بن نوفل فتنبأ للرسول باخراج قومه اياه ،(٧) كما أورد عروة خبر الملكين اللذين لقيا الرسول عليه الصلاة والسلام.(٨)

١ــ انظر هورفتس : المغازي الأولى ومؤلفوها ص ١٩

٢ــ انظر ابن قتيبة : المعارف ص ٢٢٢ ، ابن كثير : البداية والنهاية ج ٩ ص ١٠٢

٣ــ انظر الطبري : تاريخ ج ٢ ص ٣٢٨

٤ــ انظر ابن سعد : الطبقات ج ٥ ص ١٨١

٥ــ انظر الطبري : تاريخ ج ٢ ص ٢٩١، ٣٤٣ ، ٤٣١ ، ٦١١ ، ج ٣ ص ٣٦، ٨٢

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ببطحاء مكة وشقّا بطنه وقلبه وأخرجا مغمز الشيطان وعلق الدم من جوفه ، وجعلا خاتم النبوة بين كتفيه ، وفي رسالة الى عبد الملك بن مروان ذكر عروة بداية الدعوة وموقف قريش منها والهجرة الى الحبشة ثم تزايد مقاومة قريش للدعوة ومالقيه الرسول الكريم من أذيتهم ، ونقل ابن اسحاق عن عروة خروج أبي بكر من مكة حين رأى تظاهر قريش على الرسول صلى الله عليه وسلم وأصحابه ، وعودة أبي بكر في جوار ابن الدغنة سيد الأحابيش.

كما تناول عروة في أجوبته لعبد الملك خبر الهجرة الى المدينة ، وأشار في رواياته الى نزول الآية : ((وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله ، فان انتهوا فان الله بما يعملون بصير)). مما يؤكد الصلة بين العلوم الدينية والأخبار في هذه المرحلة المبكرة . كما ذكر عروة المرض الذي أصاب بعض المسلمين في المدينة والأشعار التي قيلت في ذلك .

وفي المغازي ذكر عروة أخبار سرية عبد الله بن جحش وغزوة بدر ، التي وردت في كتاب موجه الى عبد الملك بن مروان ، وغزوة بني قينقاع ، وأن جبريل نزل بهذه الآية ((وأما تخافن من قوم خيانة فانبذ اليهم على سواء)) ، فسار اليهم الرسول الكريم بهذه الآية ، وغزوة الخندق وغزوة بني قريظة ، وغزوة

١ـ انظر الطبري : تاريخ ج ٢ ص ٣٠٥
٢ـ انظر المرجع السابق ص ٣٢٨ ـ ٣٢٩
٣ـ نفسه ص ٣٤٣
٤ـ ابن هشام السيرة ق ١ ص ٣٧٢
٥ـ انظر الطبري : ج ٢ ص ٣٦٦
٦ـ سورة الأنفال : آية ٣٩
٧ـ انظر البلاذري : فتوح البلدان ص ١١ ، ابن هشام : السيرة ف ١ ص ٥٨٨ ـ ٥٨٩
٨ـ انظر الطبري : تاريخ ج ٢ ص ٤١٠ ـ ٤١١
٩ـ المرجع السابق ص ٤٢١
١٠ـ نفسه ص ٤٨٠

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

بني المصطلق وزواج الرسول من جويرية بنت الحارث[١]، وصلح الحديبية وغزوة مؤته في جمادى الأولى سنة ثمان[٢]، وفتح مكة[٣]، وغزوة حنين[٤]، ثم غزوة الطائف وحصار المسلمين لها[٥].

كما ذكر عروة بعض رسائل النبي صلى الله عليه وسلم الى عدة جهات، ككتابه الى أهل هجر[٦]، وكتابه الى أبناء عبد كلال[٧]، وكتابه الى أهل اليمن[٨]، وكتابه الى المنذر بن ساوي[٩]، وكتابه الى ثقيف[١٠]، وكتابه الى أهل أيلة[١١]، وكتابه الى خزاعة[١٢]، وكتابه الى زرعة بن ذي يزن[١٣]، وكتابه الى عبد الله بن جحش[١٤].

وتناول عروة بعض أخبار الفترة الأخيرة من حياة الرسول الكريم[١٥]، وأشار الى خروج الأسود العنسي في حياة النبي صلى الله عليه وسلم، وفي رسالة الى الوليد بن عبد الملك ذكر أن الرسول صلى الله عليه وسلم لم يتزوج أخت الأشعث بن قيس[١٦][١٧].

١ــ انظر الطبري: تاريخ ج ٢ ص ٦١٠

٢ــ انظر المرجع السابق ص ٦٢٥، البلاذري: فتوح البلدان ص ٤١، ابن هشام: السيرة ق ٢ ص ٣٧٣

٣ــ انظر الطبري: تاريخ ج ٣ ص ٥٥ــ٥٦

٤ــ انظر المرجع السابق ص ٧٠

٥ــ نفسه ص ٨٢

٦ــ انظر البلاذري: فتوح البلدان ص ٩٦، ابن سلام: كتاب الأموال ص ٢٨٧

٧ــ انظر ابن سلام: الأموال ص ٣٨

٨ــ المرجع السابق ص ٣٩

٩ــ نفسه ص ٣٠

١٠ــ نفسه ص ٢٧٦

١١ــ نفسه ص ٢٨٧

١٢ــ نفسه ص ٢٨٨

١٣ــ انظر البلاذري: فتوح البلدان ص ٨٣

١٤ــ انظر الطبري: تاريخ ج ٢ ص ٤١٠

١٥ــ انظر المرجع السابق ج ٣ ص ١٩٤

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وأورد عروة بعض أخبار حكم الخلفاء الراشدين ، فذكر عزم أبي بكر على اتمام بعث أسامة رغم ردة القبائل وحرج وضع المسلمين ،(١) كما أشار الى ردة القبائل وفصل خبر ردة اليمامة ،(٢) وذكر رفض أبي بكر مشورة عمر بعزل خالد بن الوليد ،(٣) وبين الطرق التي سلكتها الجيوش الاسلامية الى حرب الروم بالشام ،(٤) وذكر خبر أجنادين وتاريخ المعركة وانتصار المسلمين فيها ،(٥) واشارة لوقعة اليرموك ،(٦) وأخرى لوقعة القادسية ،(٧) ومرض أبي بكر وتاريخ وفاته(٨) وأورد خبر عن قدوم عمر بن الخطاب الى أيلة في طريقه الى القدس.(٩)

وتمثل هذه الروايات أقدم المدونات التي حفظت ووصلت الينا من كتابات المؤرخين عن حوادث خاصة في حياة النبي عليه الصلاة والسلام ـ وبعض الروايات التي تتعلق بفترة حكم الخلفاء الراشدين ، الا أنها مجرد خطوط أولية تتباين في التفصيل ، ففي حين أن بعضها لا يمدو اشارات عابرة نرى البعض الآخر متصلا متسلسلا كما في حديث عروة عن بدر والحديبية وفتح مكة.(١٠)

وهكذا تتضح أهمية جهود ودراسات عروة بن الزبير على بداية تكوين المدرسة التاريخية في المدينة ، حين أفرد الأحاديث التي تتعلق بالسيرة والمغازي من الأحاديث النبوية الشريفة التي تيسرت له أثناء الدراسة وعبر عن فكرة تاريخية نمت واتسعت على أيدي تلاميذه من مدرسة المدينة.

ومن عني بالمغازي والسيرة من أهل الحجاز شرحبيل بن سعد مولى بني خطمه المدنيين وروي عن زيد بن ثابت وأبي هريرة وأبي سعيد الخدري ،(١١) وذكر أن شرحبيل هذا دون قوائم باسماء المهاجرين الـــى

١ـ انظر الطبري : تاريخ ج ٣ ص ٢٢٥
٢ـ انظر البلاذري : فتوح البلدان ص ١٠٧
٣ـ انظر الطبري : تاريخ ج ٣ ص ٣٩١
٤ـ انظر المرجع السابق نفس الصفحة
٥ـ انظر نفسه ص ٤١٧ ـ ٤١٨
٦ـ انظر نفسه ص ٥٧١
٧ـ انظر نفسه ص ٥٠٥

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

المدينة وأسماء الرجال الذين اشتركوا في وقعتي أحد وبدر،(١) واختلط شرحبيل في أواخر حياته ، وكان ذلك من أسباب عدم الاحتجاج برواياته وبالتالي لم تصلنا عنه في كتب المؤرخين روايات تذكر.(٢)

ومن الأنصار الذين اهتموا بالمغازي والسيرة كان عبد الله بن أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم أحد شيوخ ابن اسحاق ـ صاحب السيرة ـ في المدينة،(٣) واهتم عبد الله بالتاريخ السنوي للحوادث،(٤) وجمع غزوات النبي ـ صلى الله عليه وسلم مرتبة على السنين ونقلها عنه ابن اسحاق،(٥) والى جانب الروايات الشفوية التي جمعها عبد الله بن أبي بكر عن المغازي،(٦) فقد عنى بالوثائق المدونة ككتاب النبي عليه الصلاة والسلام الى الحارث بن عبد كلال ونعيم بن عبد كلال والنعمان قيل ذي رعين وهمدان ومعافر،(٧) وكتابه ، صلى الله عليه وسلم ، الى عمرو بن حزم حين بعثه الى أهل نجران ليفقههم في الدين ،(٨) وجاء اهتمام عبد الله بن أبي بكر بن حزم بالمغازي من خلال اهتمامه بحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم، اذ لم يكن التخصص بمعنى الكلمة الضيق قد ظهر بعد ، ويظهر أن عبد الملك بن محمد بن أبي بكر بن حزم،(٩) ابن أخي عبد الله قد تأثر برويات عمه في المغازي ، فالف عبد الملك كتاب المغازي.(١٠) كما نقلت عن عبد الله هذا أخبار كثيرة ذكرها ابن اسحق والواقدي وابن سعد والطبري.(١١)

واشتهر كذلك عاصم بن عمر بن قتادة بن النعمان الانصاري بأنه صاحب السير والمغازي، وعرف

١ـ انظر هوروفتس: المغازي الاولى ومؤلفوها ص٢٦

٢ـ انظر ابن سعد : الطبقات ج ٥ ص٣١

٣ـ انظر هوروفتس: المغازي الاولى ص٣٧

٤ـ انظر مثلا الطبري: تاريخ ج ٣ ص ٢٧ عن عبد الله بن أبي بكر((في سنة ثمان من الهجرة توفيت زينب ابنة رسول الله ، صلى الله عليه وسلم)).

٥ـ انظر المرجع السابق ص ١٥٢ ـ ١٥٣

٦ـ نفسه ص ٩٠، ٩٣

٧ـ نفسه ص١٢٠

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

عمر بن عبد العزيز مكانة عاصم بن عمر العلمية في المغازي والسيرة، وحين وفد عليه أمره أن يجلس في مسجد دمشق فيحدث الناس بالمغازي ومناقب الصحابة ففعل ثم رجع الى المدينة (١)، حيث كان يحدث سامعيه حتى وفاته، كما نقل عنه ابن اسحاق في السيرة (٢) والواقدي في المغازي (٣)، ونجد من الأخبار التي أوردها عاصم ابن عمر رواياته عن اسلام الأنصار وبيعة العقبة (٤)، واشارة الى معركة بدر (٥)، والفتنة التي أدت الى قتل عثمان (٦). ويصرح عاصم بن عمر قائلا بأسانيده (٧)، ولكنه كان كذلك يحذف السند كثيرا، فسلك نحو الاسناد شيخه بمسلك عبد الله بن أبي بكر (٨).

ويعود الدور الأول في نشأة مدرسة التاريخ ـ السيرة والمغازي ـ في المدينة الى ابن شهاب الزهري (٩)، الذي كان قد اشتغل في شبابه بجمع الحديث في المدينة وتلقى علومه على شيوخها كسعيد بن المسيب الذي كان هو (١٠) وابنه محمد بن سعيد من أعلم الناس بالأنساب في جماعة من أهل الفضل والفقه (١١). كما جالس عبد الله بن ثعلبة بن صعير العذري وتعلم منه الأنساب، وتلقى العلوم الدينية عن كثير بن الاضافة الى سعيد بن المسيب كأبي سلمة بن عبد الرحمن، وعبيد الله بن عبد الله بن عتبة، وعروة بن الزبير، وكان يرى هؤلاء ((أربعة بحور للعلم)) (١٢).

واشتهر الزهري بأنه كان من أحفظ أهل زمانه (١٣)، كما كان يكثر شرب العسل ليعين ذاكرته على

١ــ انظر ابن حجر: تهذيب التهذيب ج ٥ ص ٥٣

٢ــ انظر ابن هشام: السيرة ق ١ ص ٥٢٣، ٥٢٦

٣ــ انظر هوروفتس: المغازي الأولى ص ٤٩

٤ــ انظر ابن هشام: السيرة ق ١ ص ٤٢٨

٥ــ انظر المرجع السابق ص ٤٤٦

٦ــ انظر نفسه ص ٦٢٥

٧ــ انظر الطبري: تاريخ ج ٤ ص ٣٥٩

٨ــ انظر هوروفتس: المغازي الأولى ومؤلفوها ص ٤٩

٩ــ انظر بروكلمان: تاريخ الأدب العربي ج ١ ص ٢٥٤

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الحفظ ، وساعده على ذلك أنه كان يدوّن مايسمع من أحاديث على ألواح كانت معه[٢] ، ويبدو أنه كان يدوّن العلم منذ فترة مبكرة من حياته العلمية، قال صالح بن كيسان :((اجتمعت أنا والزهري ونحن نطلب العلم، فقلنا نكتب السنن، قال : وكتبنا ما جاء عن النبي صلى الله عليه وسلم، قال : ثم قال : نكتب ما جاء عن الصحابة فانه سنة، قال : قلت : انه ليس بسنة فلا نكتبه ، قال : فكتب ولم أكتب فأنجح وضيعت))[٣] وهكذا فأنت ترى أن صالح بن كيسان يرى في كتابة الزهري سبب تفوقه عليه .

والزهري علم مشهور عند رواة الحديث، ومما يدلل على مكانته العالية في هذا الشأن قول مالك ابن أنس حين قال : ((ان هذا الحديث دين فانظروا عمن تأخذون دينكم والله لقد أدركت هاهنا وأشار الى مسجد رسول الله ،صلى الله عليه وسلم ، سبعين رجلا ، كلهم يقول : قال فلان : قال رسول الله ، صلى الله عليه وسلم فلم آخذ عن أحد منهم حرفا لأنهم لم يكونوا من أهل هذا الشأن، ولقد قدم علينا محمد بن شهاب الزهري، وهو شاب فازدحمنا على بابه لأنه كان من أهل هذا الشأن))[٤].

واشتهر الزهري بسعة معارفه في ذلك العصر ، ولفتت تلك السعة نظر الليث بن سعد فقال : ((ما رأيت عالما قط أجمع من ابن شهاب، ولو سمعته يحدث في الترغيب والترهيب لقلت: مايحسن غير هذا ، وان حدث عن الأنبياء وأهل الكتاب قلت: لايحسن الا هذا ، وان حدث عن الاعراب والأنساب ، قلت: لايحسن الا هذا ، وان حدث عن القرآن والسنة كان حديثه بدعا جامعا))[٥].

وقد عني الزهري باهتمام بجمع الحديث والأخبار، فكان يأتي المجالس ((فيستنثل ويشدّ ثوبه عند صدره ويسأل عمّا يريد))[٦]. وساعده في الجمع ذاكرته القوية وعنايته بالتدوين فخلّف لنا أخبارا

١- انظر ابن كثير : البداية والنهاية ج ٩ ص ٣٤٢، الذهبي : تذكرة الحفاظ ج ١ ص ١١٠

٢- انظر ابن كثير : البداية والنهاية ج ٩ ص ٣٤١

٣- ابن سعد : الطبقات ج ٢ ص ٣٨٨ - ٣٨٩

٤- ابن الجوزي: صفة الصفوة ج ٢ ص ٧٢

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

تتعلق بالسيرة والمغازي أشار اليها حاجي خليفة[1] بقوله : ومنها -أي المصنفات في المغازي - مغازي محمد بن مسلم الزهري ، كما ذكر السخاوي[2] أن الزهري روى المغازي عن عروة بن الزبير. ويرى الدوري[3] أن الزهري استعمل تعبيري (السيرة) و(المغازي) في دراساته .

والروايات التي وصلتنا عن الزهري في كتب المؤرخين تشير الى أنه تناول في دراساته فترة ما قبل الرسالة، فذكر أخبار الأنبياء السابقين ، كاليوم الذي خلق فيه آدم[4]. وخبر نوح وتقسيم الأرض بين أولاده أثلاثا[5]، وبعض الأخبار الأخرى عن الأنبياء[6]، كخبر ابراهيم حين هم بذبح ابنه اسحاق[7] ، كما وردت بعض الروايات عن فترة ماقبل الرسالة كمشاهد النبي عليه الصلاة والسلام ، التي شهدها قبل الاسلام : كبناء الكعبة وحلف الفضول وخروجه في تجارة لخديجة بنت خويلد ثم زواجه منها[8] ، كما أشار الزهري الى بعض دلائل النبوة[9]. وحين تناول فترة الرسالة ذكر الحوادث الهامة في الفترة المكية كبدء نزول الوحي[10]، ومحاولات الرسول نشر الاسلام بين القبائل مثل كندة وبني عامر بن صعصعة خلال المواسم والهجرة الى الحبشة[11] ووفد قريش الى النجاشي لاقناعه بالتخلي عن المسلمين[12]، وفشل الوفد في مسعاه ، كما ذكر مقاطعة قريش لبني هاشم ووفاة أبي طالب وبيعة العقبة[13] وانتشار الاسلام في المدينة[14].

١- كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون ج ٢ ص ١٧٤٧

٢- الاعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ ص ٨٨

٣- بحث في نشأة علم التاريخ ص ٨١

٤- انظر الطبري : تاريخ ج ١ ص ١١٤

٥- المرجع السابق ص ١٩٣

٦- انظر ابن كثير : البداية والنهاية ج ١ ص ٣٤٨

٧- انظر الطبري : تاريخ ج ١ ص ٢٦٥

٨- انظر السخاوي : الاعلان بالتوبيخ ص ٨٨، ابن سيد الناس: عيون الأثر في فنون المغازي والشمائل والسير ج ١ ص ٤٧ ، ٥١ نشر مكتبة القدسي بالقاهرة ١٣٥٦ هـ.

٩- انظر الطبري : تاريخ ج ٢ ص ١٩١، ٢٩٦- ٢٩٧.

١٠- انظر ابن هشام : السيرة ق ١ ص ٢٣٤

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وحظيت أحداث الفترة المدنية من حياة الرسول الكريم بعناية الزهري، فحدد تاريخ قدوم النبي الى المدينة في شهر ربيع الأول (١) واصابة بعض المهاجرين بالحمى فيها ، وبعض المعلومات عن موقف عبد الله بن أبي (٢)، وتحويل القبلة الى الكعبة (٣) وفرض الصيام وزكاة الفطر.

أما المغازي فقد ذكر الزهري منها : سرية عبد الله بن جحش، وغزوة بدر ضمن اسناد جمعي ، وغزوة بني قينقاع (٤) وغزوة أحد ، وغزوة الخندق وصلح الحديبية، وفتح مكة (٥) وغيرها من الغزوات.

وتحدث الزهري عن علاقات المسلمين باليهود وتدهور تلك العلاقات ومقتل كعب بن الأشرف وابن أبي الحقيق (٦) اليهوديين ، واخراج قبيلة بني النضير اليهودية وتاريخ ذلك (٧)، وغزوة بني قريظة بعد الخندق مباشرة، (٨) وفتح خيبر ((فكانت مما أفاء الله على رسوله صلى الله عليه وسلم)). ومن الأمور التي تعرض لها الزهري فرض الجزية على ((أهل تيماء وجرش)) وبعث خالد بن الوليد الى دومة الجندل (٩).

ومن جوانب حياة الرسول الكريم ذكر الزهري قدوم وفد كندة على النبي صلى الله عليه وسلم ورسائله الى هرقل والى كسرى (١٠)، كما أشار الى بعض أزواج النبي وبعض أسمائه ومرضه الأخير ووفاته ، وأمر الوفاة ، وبيعة أبي بكر (١١).

هذه بعض الروايات في السيرة والمغازي مما وصل الينا عن الزهري ، والتي سلك فيها مسلك المحدثين في الاسناد ، وكان عمرو بن دينار يقول : ((ما رأيت أحدا أنص للحديث من الزهري)) (١٢). وشملت الروايات التاريخية التي جمعها الزهري حياة النبي الكريم ، وتناول أحداث فترة حكم الخلفاء الراشدين ،

١ــ انظر الطبري: تاريخ ج ٢ ص ٣٨٨ وانظر رواية الزهري عن خروج الرسول الكريم الى المدينة في ابن هشام : السيرة ق ١ ص ٤٨٩
٢ــ انظر ابن هشام : السيرة ق ١ ص ٥٨٨، ٥٩٠
٣ــ انظر ابن سيد الناس : عيون الأثر ج ١ ص ٢٣١، ٢٣٦ وما بعدها
٤ــ انظر الطبري: تاريخ ج ٢ ص ٤١٠، ٤٢٧، ٤٨٠، ٤٩٩، ٥٦٥، ٥٧٢، ٦٢٠، ٦٢١، ٦٢٨
٥ــ انظر ابن هشام : السيرة ق ٢ ص ٣٩٠، ٣٩٩
٦ــ انظر المرجع السابق ص ٢٧٣، الطبري: تاريخ ج ٢ ص ٤٩٦
٧ــ انظر البلاذري: فتوح البلدان ص ١٨، ٢٠، ٢١

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فروى حديث السقيفة وبيعة أبي بكر، وخطابه في اليوم التالي لبيعته ، ووصف حياته بعد الانتخاب ، وطلب فاطمة والعباس ميراثهما من رسول الله صلى الله عليه وسلم، وجواب أبي بكر لهما.(١) كما روى تدوين عمر بن الخطاب الديوان ومقدار الفروض والاعطيات التي فرضها ، كما أشار الى سن عمر عند وفاته وبعض خطبه.(٢) وحين تعرض لأحداث فترة حكم عثمان تناول الفتنة بالتفصيل.(٣) وأورد خبر بيعة علي بن أبي طالب وخروج طلحة والزبير الى مكة، ومفاوضتهما مع السيدة عائشة واجتماع رأيهم على المسير الى العراق ، ووقعة الجمل والمفاوضات التي سبقتها.(٤) ثم روى روايات عن النزاع بين علي بن أبي طالب ومعاوية بن أبي سفيان ، ووقعة صفين ، والتحكيم، ونجاح خطط معاوية للاستيلاء على مصر.(٥) ثم أشار الى بيعة الحسن بن علي وتنازله عن الخلافة لصالح معاوية بن أبي سفيان ، كما وردت اشارات من روايات قليلة للزهري عن فترة الحكم الأموي كالذي ذكر أنه كتب لجده أسنان الخلفاء ، فكان مما كتب من ذلك : وفاة يزيد بن معاوية وهو ابن تسع وثلاثين(٦) ، كما ذكر مدة ملك الوليد بن عبد الملك.(٧) وسار الزهري بروايته التاريخية خطوة هامة حين اتخذ الاسناد الجمعي كقوله :((عن علقمة بن وقاص الليثي ، وعن سعيد بن المسيب ، وعن عروة بن الزبير، وعن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة، قال الزهري: كل حدثني ببعض هذا الحديث))(٨). ثم يقدم خبرا متصلا متسلسلا، كما أنه كان يكثر من الآيات القرآنية التي تتصل بما يورد من أخبار ،(٩) ويورد بعض أشعار المشتركين في الحوادث التي يرويها ،(١٠) اذ كان الشعر حينذاك جزءا من ثقافة العصر.

١- انظر الطبري: تاريخ ج ٣ ص ٢٠٣- ٢٠٧، ٢١٠، ٤٣٢، ٢٠٧-٢٠٨

٢- انظر البلاذري: فتوح البلدان ص ٥٥٠ -٥٥٢

٣- انظر الطبري: تاريخ ج ٤ ص ١٩٧، ٢١٤، ٢١٥

٤- انظر البلاذري: أنساب الأشراف ج ٥ ص ٢٥، ٢٦، ٢٧، ٣٨، ٨٨، ٩٦

٥- انظر الطبري: تاريخ ج ٤ ص ٤٢٩، ٤٥٢، ٥٠٨، ٥٥٢، ج ٥ ص ٥٧ - ٥٨، ٩٤

٦- انظر الطبري: تاريخ ج ٥ ص ١٥٨، ١٦٢، ٤٤٩

٧- انظر الطبري: تاريخ ج ٦ ص ٤٩٥

٨- انظر المرجع السابق ج ٢ ص ٦١١

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وبجانب السيرة اهتم الزهري بالأنساب ، وأشرت فيما سبق الى أخذه الأنساب عن سعيد ابن المسيب وعبد الله بن ثعلبة، ومهر فيها ((فان حدث عن الاعراب والأنساب ، قلت : لا يحسن لا هذا))، (١) وهذه الشهرة في الأنساب جعلت خالد بن عبد الله القسري يطلب منه أن يكتب له النسب ، قال المدائني أخبرني ابن شهاب بن عبد الله قال :((قال لي خالد بن عبد الله القسري: اكتب لي النسب ، فبدأت بنسب مضر فمكثت فيه أياما ، ثم أتيته فقال : ما صنعت ؟ فقلت : بدأت بنسب مضر وما أتممته . فقال : اقطعه ، قطعه الله مع أصولهم، واكتب لي السيرة، فقلت له فانه يمر بي الشيء من سير علي بن أبي طالب ... فأذكره ، فقال : لا ، الا أن تراه في قعر الجحيم (٢))). ونقل ابن اسحاق عن الزهري نسب النعمان بن المنذر كما أخذ عنه (٣) في النسب مصعب الزبيري (٤).

ويظهر فضل الزهري في المغازي والسيرة بتدوينه للروايات التي جمعها ، فقد كان من أوائل الذين دونوا العلم، (٥) وفي داره أزعجت الكتب زوجته ، وكانت أشد عليها من ثلاث ضرائر كما روي (٦) أن أحمالا من علم الزهري وجدت في خزانة الكتب الأموية بعد مقتل الوليد بن يزيد . (٧) اذ كان الزهري على صلات وثيقة بالأمويين ، (٨) وقدم عليهم في دمشق، فاستقضاه يزيد بن عبد الملك، وأدب بني هشام بن عبد الملك.

ومن الذين تلقوا من الزهري موسى بن عقبة ومحمد بن اسحاق ،وهما من الموالي الذين تلقوا العلم في المدينة وكتبا في المغازي.

أما موسى بن عقبة (ت ١٤١ هـ) (٩) فقد وصفه ابن كثير بأنه صاحب المغازي، ونقل عنه ابن أخيه

١- ابن كثير : البداية والنهاية ج ٩ ص ٣٤٢
٢- الاصفهاني : الاغاني ج ٢٢ ص ١٥ طبعة الهيئة المصرية العامة
٣- انظر ابن هشام : السيرة ق ١ ص ١١
٤- انظر المصعب الزبيري : نسب قريش ص ٣
٥- انظر ابن كثير : البداية والنهاية ج ٩ ص ٣٤٥
٦- انظر ابن خلكان : وفيات الاعيان وأنباء أبناء الزمان ج ٤ ص ١٧٨
٧- انظر ابن كثير : البداية والنهاية ج ٩ ص ٣٤٤

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

اسماعيل بن ابراهيم بن عقبة المغازي، كما نقل عنه ابن كثير مقاطعة قريش لبني هاشم وعرض الرسول عليه (١)
الصلاة والسلام نفسه على القبائل في المواسم، وبيعة العقبة الاولى، وأول دخول النبي الكريم المدينة، وقتلى بدر، وخروج النبي صلى الله عليه وسلم بأصحابه في أثر أبي سفيان بعد أحد. ونقل الطبري رواية (٢)
موسى بن عقبة عن الرهط الذين طالبوا عمر بن الخطاب بزيادة أعطياتهم ورد عمر عليهم. ورواية عن الفتنة (٣)
في عهد عثمان. وموسى بن عقبة ((يستخدم الوثائق الأصلية، فهو يذكر رسالة وجهها النبي الى المنذر (٤)
ابن ساوي بالنص ــ كما يذكر أيضا ــ حقائق مؤرخة سنويا، ويستشهد بالقصائد من وقت لآخر ولكن ذلك (٥)
نادر)). ووصفت مغازيه بأنها من أصح المغازي. (٦)

وأخيرا أنجبت مدرسة المدينة التاريخية محمد بن اسحاق (ت ١٥١ هـ) أحد أعلام السيرة والمغازي، والذي علا ذكره في العصر العباسي الأول حين كتب المغازي وقدمها الى أبي جعفر المنصور، وتناول (٧)
حياة ابن اسحاق وانتاجه التاريخي العديد من الباحثين.

والخلاصة أن أهل الحجاز من خلال دراساتهم الدينية أوجدوا هذا اللون من العلم، أعني السيرة والمغازي، فشبت وثيقة الصلة بالعلوم الدينية، واتبع المؤرخون طريقة المحدثين في اسناد رواياتهم ثم أخذ بعضهم يخفل الاسناد أو يجمع الأسانيد ويورد خبرا واحدا متسلسلا من الأخبار التاريخية التي أخذت تجمع بين الآية والحديث والخبر التاريخي، وشواهد من أبيات الشعر أحيانا. ثم أخذت الأخبار تنفصل شيئا فشيئا عن العلوم الدينية، وأفردت بالتدوين في فترة مبكرة نسبيا، ولا شك أن جهود أهل الحجاز قد فتحت الطريق أمام الآخرين، وساعدت على وضع الدراسات التاريخية على أساس ثابت. وأدت الى حفظ الروايات التاريخية الأولى من الضياع فوصلت الينا في كتب ابن هشام والواقدي والبلاذري والطبري، وسواهم، وان لم تخل تماما من الوضع.

١ــ انظر ابن سعد: الطبقات ج ٥ ص ٤١٨

٢ــ انظر ابن كثير: البداية والنهاية ج ٣ ص ٨٤، ١٤٠، ١٤٩، ١٩٩، ٣٠٠، ج ٤ ص ٤٨

٣ــ انظر الطبري: تاريخ ج ٤ ص ٢١٣

٤ــ انظر المرجع السابق ص ٣٣٧

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الأدب والفن في الحجاز

كانت الحجاز كما أشرت من أهم مراكز الحياة العلمية الدينية في العصر الأموي من درس للقرآن الكريم وتحر للحديث النبوي واهتمام بالتشريع وعناية بالسيرة والمغازي وتبدو شخصية أهل الحجاز في هذه الميادين العلمية واضحة مميزة بين أمصار الدولة الاسلامية .

الا أن الحركة الدينية لم تكن هي الظاهرة الوحيدة التي تلفت النظر فحسب ، بل ((قويت الحياة الأدبية قوة خاصة ممتازة في العصر الأموي في الحجاز)) (١) . وكان الأدب والفن ثمرة حياة خصبة متحضرة عاشها أهل الحجاز ، حياة غنية بالترف والمال والفراغ الذي يسره استخدامهم أبناء الفرس والروم وبناتهم من الرقيق والموالي . والسياسة الأموية التي أغفلت في الغالب اشراك أهل الحجاز في تولي تبعات قيادية في أمور السياسة والادارة (٢) .

ان ظهور الأمويين على مسرح السياسة وتوليهم الخلافة كان مدعاة لتطور الأدب : الشعر والنثر في أمصار الدولة المختلفة ومنها الحجاز حيث أخذت الاحزاب الاسلامية المتنافرة تطاحن وتناضل بالقول والسيف لتحقيق أغراضها ، وغذى الأدب ونماه أن الأمويين استخدموا سلاحي السيف والكلمة ، واستعانوا بكثير من الشعراء على اختلاف قبائلهم وبطونهم (٣) . لتثبيت دعائم الحكم الأموي . ومن هنا نجد الأدب في جانب من جوانبه يصور حال الصراع السياسي في ذلك العصر ، ويعبر عن وجهات النظر التي كانت مطروحة في الساحة يومذاك .

ورغم أن الشعر كان أهم الفنون الأدبية ، الا أننا سنشير الى نماذج من نثر أهل الحجاز ، والتي نوهنا اليها فيما تقدم من البحث سواء في الخطب السياسية ، أو نثر العلماء من تفسير ومغازي . وقد لاحظ بروكلمان (٤) ((أن اسلوب النثر الديني الذي جاء به محمد ، صلى الله عليه وسلم ، في القرآن كان موضع تقديس العرب على أنه كلام الله ومن ثم لم يجرؤ أحد على مضاهاته والنسج على منواله .... فبقي التعبير

١ــ طه حسين : حديث الأربعاء ج ١ ص ٢٩٦ دار المعارف بمصر

٢ــ انظر ابن خلدون : المقدمة ج ٢ ص ٦٥٩

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

من مشاعر الحياة القومية دارجا في قوالب الشعر المتوارثة، وان بدا تسجيل قليل ، وفي حالات متفرقة، للمأثورات الدينية والأخبار السياسية في دوائر ضيقة نحسب)).

وازدهرت الخطابة دينية كانت أم سياسية ، فخطب المسجد يحتاجها كل اسبوع. أما القصاص فكانوا يقصون في المساجد ويمزجون قصصهم عن الماضين بآيات من القرآن وأحاديث الرسول الكريم، ويعظون الناس كعبيد بن عمير الليثي (١)، وقد روي أن عبد الله بن عمر كان يسمع قصه ، ومن المشهورين بالقص مسلم بن جندب، وكان قاص مسجد النبي عليه الصلاة والسلام بالمدينة، وكان امام أهلها وقارئهم، وقال فيه عمر بن عبد العزيز (٢) : من سرّه أن يسمع القرآن غضا فليسمع مسلم بن جندب. واشتهر كذلك أبو حازم سلمة بن دينار، ومن مواعظه ماروى ابن عبد ربه (٣) حين حج سليمان بن عبد الملك، فلما قدم المدينة للزيارة بعث الى أبي حازم الأعرج .... ((فلما دخل قال : تكلم يا أبا حازم، قال : فيم أتكلم يا أمير المؤمنين ؟ قال : في المخرج من هذا الأمر. قال : يسير ان أنت فعلته . قال : وماذاك ؟ قال : لا تأخذ الأشياء الا من حلها، ولا تضعها الا في أهلها ... قال عظني أبا حازم. قال : اعلم أن هذا الأمر لم يصر اليك الا بموت من كان قبلك، وهو خارج من يديك بمثل ما صار اليك. ..)) (٤)

وتحدث الجاحظ في أكثر من موضع من كتابة البيان والتبيين عن تصرف الخطباء الدينيين في الألفاظ والأساليب، وكيف أنهم صفوها ورووها ونخلوها نخلا. على أن الخطب الدينية التي وصلت الينا من ذلك العصر قليلة بالقياس الى الوثوق في صحتها .

أما الخطابة السياسية فقد تأثرت الى حد كبير بالأحداث السياسية التي وقعت بالحجاز أو تأثرت بها ، واتخذت وسيلة للتعبير عن الرأي السياسي ، فتولي الأمويين السلطة، وخروج أهل المدينة عليهم، وحركة عبد الله بن الزبير، والحركات العلوية، وسيطرة الخوارج على الحجاز أواخر العصر الأموي، كلها

١ـ انظر الجاحظ: البيان والتبيين ج ٢ ص ١

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

مناسبات سياسية استدعت الخطباء واستشارتهم فوقفوا يخطبون ويدعون الى الجماعة أو الثورة أو بيان مثالب الأمويين ؛ ومن الأمثلة على تلك الخطب السياسية خطبة معاوية بن أبي سفيان حين قدم المدينة عام الجماعة فصعد المنبر وقال :((أما بعد ، فاني والله ماوليتها بمحبة علمتها منكم ولا مسرة بولايتي ، ولكنني جالدتكم بسيفي هذا مجالدة ... ؛ فان لم تجدوني خيركم فاني خير لكم ولاية وان لم تجدوني أقوم بحقكم كله فاقبلوا مني بعضه ، فان أتاكم مني خير فاقبلوه ، فان السيل اذا زاد عني ؛ واذا قل أغنى ، واياكم والفتنة فانها تفسد المعيشة وتكدر النعمة))(١). وتتلخص خطبة معاوية بالدعوة الى القبول بالأمر الواقع ودعوة أهل الحجاز الى البعد عن الفتنة ، وسلك الخلفاء الأمويون وولاتهم هذا المسلك نفسه وقرنوا الترهيب بالترغيب ، فقد خطب عبد الملك الناس في المدينة فقال بعد أن حمد الله وأثنى عليه : ((أما بعد ؛ فاني لست بالخليفة المستضعف ـ يعني عثمان ـ ولا بالخليفة المداهن ـ يعني معاوية ، ولا بالخليفة المأفون ـ يعني يزيد ـ ألا واني لا أداوي هذه الأمة الا بالسيف حتى تستقيم لي قناتكم ، وانكم تحفظونا أعمال المهاجرين الأولين ، ولا تعملون مثل أعمالهم ، وانكم تأمروننا بتقوى الله وتنسون ذلك من أنفسكم ، والله لا يأمرني أحد بتقوى الله بعد مقامي هذا الا ضربت عنقه))(٢). ومن الخطباء الأمويين المشهورين معاوية بن أبي سفيان وابنه يزيد ، وسعيد بن العاص وابنه عمرو بن سعيد(٣) وسواهم . والواقع ان المهارة الخطابية لم تقتصر على الأمويين من أهل الحجاز ، روى أن عمر بن عبد العزيز قال : ((ما كلمني رجل من بني أسد ، الا تمنيت أن يمد له في حجته حتى يكثر كلامه فأسمعه))(٤).

وشهدت الحجاز أنماطا أخرى من الخطب السياسية ، فخطيب أهل المدينة في وقعة الحرة يدعو الناس الى نقض بيعة يزيد بن معاوية قائلا :((قدمنا من عند رجل ليس له دين يشرب الخمر ويضرب بالطنابير ويعزف عنده القيان ويلعب بالكلاب ويسمر عنده الخراب ، وهم اللصوص وانا نشهدكم أنا قد خلعناه))(٥). وعلى

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وعلى هذا المنوال سارت الأحزاب الأخرى كخطبة الحسين بن علي حين أحاطت به خيل عبيد الله بن زياد (١). وكان من خطباء بني هاشم غير الحسين عبد الله بن عباس. قالوا : خطبنا بمكة وعثمان محاصر خطبة لو شهدتها الترك والديلم لأسلمت (٢). وكان من خطبائهم الذين لا يجارون زيد بن علي ، وعبد الله بن الحسن وعبد الله بن معاوية (٣).

أما الحزب الزبيري فكان من خطبائه عبد الله بن الزبير نفسه وأوردت كتب الأدب والتاريخ العديد من خطبه (٤). وكذلك كان مصعب بن الزبير خطيباً مفوهاً خطب أهل البصرة خطبة جعلها كلها آيات من القرآن الكريم، وذكر أن الحارث بن عبد الله بن أبي ربيعة كان أحد خطباء الحزب الزبيري وهو من وجوه قريش (٥) ورجالهم (٦). وكنت قد أشرت الى خطبة أبي حمزة الخارجي حين استولى على المدينة (٧). وبذلك كانت السياسة أحد بواعث الخطابة وسبب من اسباب ازدهارها .

ويتضح من هذه الخطب السياسية أنها كانت وسيلة لنقد الخصوم واستمالة الناس لحزبهم والانضمام الى جانبهم ، ويستغل الخطيب مهارته في البلاغة والبيان لتحقيق مسعاه . وليس غريبا أن تشتهر الخطابة في ندى أهل الحجاز وهم الذين ذكرهم الله ببلاغة المنطق ورجاحة الأحلام وصحة العقول (٨).

وبجانب الخطب السياسية وجدت الكتابة التاريخية التي تمثلت في عناية أهل الحجاز بالسيرة والمغازي، وأشرت فيما سبق الى كتابات بعض هؤلاء كعروة بن الزبير الذي أحرق يوم الحرة بعض كتبه ، والزهري المحدث الفقيه المؤرخ .

ويجد الباحث كذلك لونا آخر من النثر الفني تمثل في الرسائل السياسية كرسالة عبد الله بن الزبير الى يزيد بن معاوية حين ولي الوليد بن عتبة على المدينة، فكتب اليه سنة ٦٢ هـ قائلا :((انك بعثت

١ــ انظر الطبري : تاريخ ج ٥ ص ٤٢٤ــ٤٢٥
٢ــ انظر الجاحظ: البيان والتبيين ج ١ ص ٢٢٠
٣ــ نفسه ج ١ ص ٢٣٤
٤ــ انظر مثلا الطبري : تاريخ ج ٥ ص ٤٧٤، ابن الأثير : الكامل ج ٤ ص ٣٣٥، ابن عبد ربه : العقد الفريد ج ٤ ص ١٧٠ــ ١٧١
٥ــ انظر نص الخطبة في ابن الأثير : الكامل ج ٤ ص ٢٦٧

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الينا رجلا أخرق، لا يعجبه لأمر رشد، ولا يرعوي لعظة الحكيم، ولو بعثت الينا رجلا سهل الخلق، لين الكنف، رجوت أن يسهل من الأمور ما استوعر منها، وأن يجتمع ما تفرق، فانظر في ذلك، فان فيه صلاح خواصنا وعوامنا ان شاء الله والسلام))[1]. ومثل هذا النمط من الرسائل يجمع جزالة التعبير والايجاز والبعد عن التكلف.

على أن أهم فنون الأدب في العصر الأموي كان الشعر الذي شهد نهضة واسعة في الحجاز، وظهر شعراء كثيرون أمثال عمر بن أبي ربيعة، والأحوص، وعبيد الله بن قيس الرقيات، وجميل بن معمر، وكثيّر عزة، وأبو صخر الهذلي وسواهم.

وكما أثرت السياسة في النثر، كان تأثيرها في الشعر أوضح، فكان لكل حزب من الأحزاب السياسية شاعر ينطق باسمه، ويدافع عن حزبه، ويعبر عن آرائه، أو يكون بوقا لتحقيق غايات زعمائه. انظر مثلا حين همّ معاوية بتنصيب ابنه يزيد وليا للعهد، أوعز الى مسكين الدارمي برغبته فنظم ابياتا منها:

اليك أمير المؤمنين رحلتها ... تثير القطا ليلا وهن هجود

اذا المنبر الغربي خلّ مكانه ... فان أمير المؤمنين يزيد[2]

واذا ذكر الشعر السياسي في الحجاز تبادر الى الذهن عبيد الله بن قيس الرقيات (ت ٨٥ هـ) الذي وضع أكثر شعره في خدمة السياسة[3]، وهو زبيري الهوى[4]، ومن أنصار مصعب بن الزبير المتحمسين[5]، وكان الشاعر يلازم مصعبا أكثر من أخيه عبد الله ومدحه قائلا:

انما مصعب شهاب من الله ... تجلت عن وجهه الظلماء

ملكه ملك قوة ليس فيه ... جبروت ولا به كبرياء

وعبيد الله بن قيس الرقيات قرشي حقد على الأمويين إذ أقاموا ملكهم خارج الحجاز، واتخذوا القبائل اليمنية سندا لهم، ولذلك ناصر الشاعر الحركة الزبيرية بسيفه ولسانه، ومع ذلك كان يعتز بقرشيته

١- الطبري: تاريخ ج ٥ ص ٤٧٩

٢- ابن قتيبة: الشعر والشعراء ج ١ ص ٥٤٤ تحقيق احمد محمد شاكر، دار المعارف ١٩٦٦ م

٣- انظر بروكلمان: تاريخ الأدب العربي ج ١ ص ٩٢

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

يحن الى العهد الذي كانت فيه قريش وحدة متحدة، لم تتفرق كلمتها وتختلف أهواؤها ويقتل من زعمائها عثمان وعلي والزبير وطلحة ثم الحسين بن علي ثم تقتل الحرة، وتفرقت كلمتها وطمعت القبائل في ملكها، وشاركت قبائل لخم وجذام وعك وحمير اليمانية الأمويين في ملكهم فقال :

حبذا العيش حين قومي جميع ... لم تفرق أمورها الأهواء

قبل أن تطمع القبائل في ملـ ... ـك قريش وتشمت الأعداء

نحن منا النبي الأمي والصديق ... منا التقي والخلفاء

والزبير الذي أجاب رسول الله ... في الكرب والبلاء بلاء

ليس لله حرمة مثل بيت ... نحن حجابه عليه العلاء

حرقته رجال لخم وعك ... وجذام وحمير وصداء

كيف نومي على الفراش ولما ... يشمل الشام غارة شعواء

أنا عنكم بني أمية مزور ... وأنتم في نفسي الأعداء

إنا قتلى بالطف قد أوجعتني ... كان منكم لئن قتلتم شفاء

والقصيدة في ستين بيتا اخترت منها هذه الأبيات التي تبين زبيرية الشاعر وكرهه الأمويين، وختمها بتحسره على مقتل الحسين بن علي وصحبه القرشيين في ضواحي الكوفة.

وفي شعر ابن قيس الرقيات نجد صورا أخرى للأحداث السياسية الهامة التي وقعت في الحجاز فحين علم بوقعة الحرة وبمقتل أناس من أهل بيته نظم قصيدة حزينة رثى أقاربه وتوجع عليهم وتوعد بني أمية فقال :(٢)

ان الحوادث بالمدينة قد ... أوجعنني وقرعن مروتيه(٣)

كيف الرقاد وكلما هجعت ... عيني ألم خيال اخوتيه

تبكي لهم أسماء معولة ... وتقول ليلى : وارزيتيه

والله أبرح في مقدمة ... أهدي الجيوش علي شكتيه

حتى أفجعهم باخوتهم ... وأسوق نسوتهم بنسوتيه

---

١ ـ انظر ديوان عبيد الله بن قيس الرقيات ص ٨٨ ـ ٩٦

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وقد بقي ابن قيس الرقيات وفيّا لمصعب بن الزبير، ورثاه في شعره أكثر من مرة كقوله :

لقد أورث المصرين خزيا وذلّـــة قتيل بدير الجاثليق مقيـــم
تولى قتال المارقين بنفســـــه وقد أسلماه مبعد وحميم (١)

وكان هذا الشاعر قد اتخذ من الغزل وسيلة سياسية ليغيظ خصومه الأمويين، فتغزل بأم البنين زوجة الوليد بن عبد الملك، ففاظ زوجها وعمها عبد الملك وأباها عبد العزيز بن مروان. سيما وأن القصيدة كانت في مدح مصعب، فأهدر الأمويون دمه ، وكاد يهلك لولا شفاعة عبد الله بن جعفر، وأم البنين التي احتاط لنفسه من غضبها فذكر أن قصته معها كانت من قبيل الرؤيا. ومن القصيدة هذه الأبيات: (٢) (٣)

الى أم البنين متـــى يقربها مقربهـــــا
أتتني في المنـــــام فقلت هذا حيـــن أعقبهـــــا
لمصعب عنـــد جند القتـــول أكرهـــا وأطيبهـــا

وعندما انتصر الأمويون بقيادة عبد الملك بن مروان ، استتر عبيد الله سنة بالكوفة، ثم زار عبد الملك بدمشق فعفا عنه . وسار أخيرا الى مصر ، ومدح عبد العزيز بن مروان بحلوان. وانضم الى جانبه حين لم عبد الملك بتنحيته عن ولاية العهد ، وتنصيب الوليد بن عبد الملك مكانه . فدافع عبيد الله عن حق عبد العزيز في الخلافة قائلا : (٤)

يخلفك البيض من بنيك كمـــا يخلف عود النضار في شعبـــه
ليسوا من الخروع الضعاف ولا أشباه عيدانه ولا غربه
نحن على بيعة الرسول التـــي أعطيت في عجمه وفي عربـــه (٥)

وبجانب عبيد الله بن قيس الرقيات في هواه الزبيري، كان شعراء آخرون قد وفدوا على آل الزبير، ومدحوهم سواء في الحجاز أم في العراق. (٦) الا أنه لم يصل أحدهم الى ما وصل اليه ابن قيس الرقيـــات

١ــ انظر ديوان عبيد الله بن قيس الرقيات ص ١٩٦

٢ــ انظر ابن قتيبة : الشعر والشعراء ج ١ ص ٥٣٩ ، الأصفهاني : الاغاني ج ٥ ص ٨٢ طبعة دار الكتب

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

في التعبير عن وجهة النظر الزبيرية والدفاع عنها . ومن هؤلاء الشعراء اسماعيل بن يسار النسائي وأخوه ابراهيم وهما من موالي تيم بن مرة، تيم قريش. وكان اسماعيل بن يسار أشهر من أخيه ابراهيم في قول الشعر، وكان منقطعا الى آل الزبير[1]. فلما أفضت الخلافة الى عبد الملك بن مروان وفد اليه مع عروة بن الزبير ومدحه ومدح الخلفاء من ولده بعده . وعاش معمرا طويلا الى أن أدرك آخر سلطان بني أمية ولم يدرك الدولة العباسية[2]. وكان اسماعيل بن يسار مبتلى بالمعصية للعجم والفخر بهم[3]، والى جانب هذين الشاعرين شاع أن كثيرا من شعراء مضر كانوا زبيرية، فلم يكن((عبد الملك بن مروان يسمع من شعراء مضر ولا يأذن لهم لأنهم كانوا زبيرية))[4]. ومن شايع ابن الزبير من شعراء ذلك المصر أبو دهبل الجمحي[5] (ت ٦٣ هـ).

أما بنو هاشم فقد تحزب لهم كثيّر عزة، وهو كثيّر بن عبد الرحمن بن أبي جمعة من خزاعة، (ت ١٠٥ هـ)[6]، وعلى الاقل أنه بدأ حياته السياسية شيعيا[7]، وكان يحب آل البيت ويؤمن بحقهم السياسي، وعندما حبس عبد الله بن الزبير محمد بن الحنفية، قال كثيّر في ذلك لابن الزبير[8]:

تخير من لاقيت أنك عائذ ... بل العائذ المظلوم في سجن عارم

وكان كثير عزة في تشيعه على مذهب الكيسانية الذين ادعوا حياة محمد بن الحنفية ولم يصدقوا خبر وفاته وفي ذلك قال كثير[9]:

ألا ان الائمة من قريش ... ولاة الحق أربعة سواء

علي والثلاثة من بنيه ... هم الأسباط ليس بهم خفاء

١- انظر المصعب الزبيري: نسب قريش ص ٢٤٧

٢- انظر بروكلمان: تاريخ الأدب العربي ج ١ ص ٢٣٩

٣- انظر الأصفهاني: الاغاني ج ٤ ص ٤٠٨، ٤٢٤ طبعة دار الكتب المصرية

٤- الأصفهاني: الاغاني ج ٨ ص ٦٦ طبعة دار الكتب .

٥- انظر البلاذري: أنساب الأشراف ج ٥ ص ١١٩، ٣٧٧

٦- انظر ابن قتيبة: الشعر والشعراء ج ١ ص ٥٠٣

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فسبط سبط ايمان وبـــر وسبط غيبه كـــربلاء

وسبط لا يذوق الموت حتى يقود الخيل يقدمها اللواء

تغيب لا يرى فيهم زمانـا برضوى عنده عسل وماء

ورغم شيعية كثير فقد انحاز الى جانب الأمويين فمدحهم، شأنه شأن كثير من الشعراء ، رهبة من السيف أو طمعا في المال (١) . وتحوي كتب الأدب من مدحه الكثير للأسرة المروانية .

ومن أخلص للأمويين من الشعراء الحجازيين، أبو العباس الأعمى ، أحد موالي بني الديل فكان ((مائلا لبني أمية مدآحا لهم)) (٢) ، وهجا الزبيريين ورماهم بالبخل واللؤم (٣) وكان مما قال في ابن الزبير (٤) :

مازال في سورة الأعراف يدرسها حتى بدا لي مثل الخز في اللين

لو كان يطنك شهرا قد شبعت وقد أفضلت فضلا كثيرا للمساكيـــن (٥) .

كان أبو صخر الهذلي مواليا لبني أمية متعصبا لهم وله فيهم مدائح وحبسه ابن الزبير في سجن عارم (٦) لكلام سمعه منه .

وهكذا كان في الحجاز شعر سياسي يمثل الأحزاب الزبيرية، والشيعية والأموية وآخر يفخر بالهجم ويتعصب لهم .

ومن قبيل الشعر السياسي ما وصف بالهجاء السياسي (٧) ، كالذي روي أن يزيد بن معاوية قال لكعب بن جعيل التغلبي الشاعر : ان عبد الرحمن بن حسان قد فضح عبد الرحمن بن الحكم وفلة وفضحنا فأهج الأنصار . فقال له كعب: أرادتي أنت الى الشرك ؟ لا أهجو قوما نصروا رسول الله ، صلى الله عليه وسلم، وآووه ، ولكني أدلك على غلام منا نصراني مايبالي أن يهجوهم، كافر شاعر كأن لسانه ثور (٨) لسان قال : ومن هـو

١ــ انظر ابن قتيبة : الشعر والشعراء ج ١ ص ٥٠٥، ٥١٦

٢ــ الكتبي : فوات الوفيات ج ١ ص ٢٣٨ تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد ، مكتبة النهضة المصرية ١٩٥١

٣ــ انظر الأصفهاني : الأغاني ج ١٦ ص ٣٠٢، ٣٠٥ ط. دار الكتب

٤ــ انظر أحمد الشايب: تاريخ الشعر السياسي ص ٢٤٦ مكتبة النهضة المصرية ١٩٦٦

٥ــ انظر الأصفهاني : الأغاني ج ١ ص ٢٤ ط. الهيئة المصرية العامة

٦ــ انظر المرجع السابق ج ٤ ص ١١٢ــ ١١٣ ط. الهيئة المصرية العامة

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

قال الأخطل، فدعاه وأمره بهجائهم فقال:

ذهبت قريش بالسماحة والندى واللؤم تحت عمائم الأنصار (١)

ففضبت الأنصار، وغضب النعمان بن بشير، فدخل على معاوية وأنشده قصيدة في الدفاع عن الأنصار مطلعها: معاوية الا تعطنا الحق تعترف لحي الأزد مشدودا عليها العمائم (٢)

ومن قبيل التعصب والهجاء السياسي ماذكر أن سديف الشاعر كان شديد التعصب لبني هاشم، وظهر ذلك في أيام بني أمية، فكان يخرج الى أحجار صفا في ظهر مكة، يقال لها صفي السباب، ويخرج مولى لبني أمية معه يقال له سباب فيتسابان ويتشاتمان، ويذكران المثالب والمعايب، ويخرج معهما من سفهاء الفريقين من يتعصب لهذا ولهذا، فلا يبرحون حتى تكون بينهم الجراح والشجاج، ولم تزل تلك المصيبة بمكة حتى شاعت في العامة والسفلة، فكانوا صنفين يقال لهما السديفية والسبابية طول أيام بني أمية (٣).

والى جانب الشعر السياسي برع بعض أهل الحجاز في ألوان أخرى من ألوان الشعر كان أبرزها الغزل، وشعراء هذا اللون كثيرون من أهل الحجاز الذين اختلفت مذاهبهم الشعرية لاختلاف بيئاتهم فتجد الغزل في شعر جميل بثينة وقيس بن ذريح عفيفا، وغزلا يمثل لهو الحواضر وعبث شعرائها في شعر عمر والأحوص والعرجي وغيرهم من شعراء مكة والمدينة، وغدا هذا اللون من الشعر فنا يقصد لذاته لا لشيء آخر.

وجميل بن عبد الله بن معمر من بني عذرة (ت ٨٢ هـ) (٤)، شاعر فصيح مقدم (٥)، وكان كثير عزة يروي شعره ويقدمه على نفسه قائلا: وهل علم الله عز وجل ما تسمعون الا منه (٦). وكان جميل يحاصر عند الملك ابن مروان الذي ازدحم الشعراء على بابه يمدحونه، ولكن جميلا لم يمدح أحدا قط وقصر شعره في بثينة (٧)

١ - انظر ابن قتيبة: الشعر والشعراء ج ١ ص ٤٨٤، الجاحظ: البيان والتبيين ج ١ ص ٤٧

٢ - الأصفهاني: الأغاني ج ١٦ ص ٤٥ نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب

٣ - انظر المرجع السابق ص ١٣٥

٤ - انظر المرجع السابق ج ٨ ص ٩٠

٥ - انظر الزركلي: الأعلام ج ٢ ص ١٣٤

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

التي نسب اليها فقيل جميل بثينة. وتفننت بادية الحجاز بشعره في عصر الأمويين. ومثله قيس بن ذريح الذي طلق امرأته لبنى فتهمتها نفسه(١) وندم على طلاقها، واشتد وجده(٢) فصاغ ذلك شعرا رقيقا مؤثرا.

ولكن زعيم شعراء الغزل الحجازيين جميعا بلا منازع هو عمر بن عبد الله بن أبي ربيعة المخزومي(٣). وبنو مخزوم قومه بطن من أشراف قريش. أما أبوه عبد الله فقد كان من التجار الموسرين في مكة ومن أكثرهم مالا(٤). أما أخوه الحارث بن عبد الله فقد كان رجلا ((شريفا كريما ديّنا وسيدا من سادات قريش))(٥). وولد عمر بن أبي ربيعة سنة ثلاث وعشرين، ومات وقد قارب السبعين أو جاوزها(٦)، أي أنه توفي في خلافة الوليد بن عبد الملك(٨٦ ـ ٩٦ هـ).

وكانت الحجاز في تلك الفترة بيئة مترفة، كثر فيها المال، واكتظت بجواري الروم والفرس، وشاع فيها الغناء والموسيقى، وتوفر لبعض فتياتها الفراغ حين أصبحت مخدومة يخدمها الأجانب ويهيئون لها هذه الفئة حياتها(٧). ومن الطبيعي أن تؤثر تلك الظروف في حياة ابن أبي ربيعة وشعره.

ووهب عمر بن أبي ربيعة حياته للشعر، ولم يكن يمدح الرجال، وخلص الى الغزل يتفنن فيه ما شاء، حتى عد شعره ضررا على الآداب. قال ابن جريج: ما دخل على العواتق في مجالسهن شيء أضر عليهن من شعر عمر بن أبي ربيعة، ولهشام بن عروة قول يشابه هذا القول(٨).

وشهرة عمر بن أبي ربيعة جاءت من النسيب الذي أراده الشعراء فأخطأته، كما ذهب الفرزدق الشاعر(٩) الى عد عمر أنسب الناس، وأوصف الشعراء لربات الجمال(١٠) وكان يقيم بمكة، فاذا آن وقت الحج

١ـ انظر ابن عبد ربه: العقد ج ٧ ص ١١٨

٢ـ ابن قتيبة: الشعر والشعراء ج ٢ ص ٦٢٨ تحقيق أحمد محمود شاكر، دار المعارف ١٩٦٧

٣ـ انظر الاصفهاني: الاغاني ج ١ ص ٦٦ ط. الهيئة المصرية العامة

٤ـ انظر المرجع السابق ص ٦٩

٥ـ نفسه ص ٧١

٦ـ نفسه ص ٧٦

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

((يقدم فيعتمر في ذي القعدة ويحل ويلبس الحلل والوشي ، ويركب النجائب المخضوبة بالحناء عليها القطوع (١) ، والديباج ويسهل لمته ، ويلقى العراقيات فيما بينه وبين ذات عرق محرماته ويتلقى المدنيات الى مر ، ويتلقى الشاميات الى الكديد (٢)))، وكثر غزله فتغزل بفاطمه بنت عبد الملك، وعائشة بنت طلحة (٣) ، وسكينة بنت الحسين (٤) ، ولبابة بنت عبد الله بن عباس (٥) ، وزينب بنت موسى الجمحي (٦) ، وتغزل باحدى بنات محمد بن الاشعث الكندي (٧) وغيرهن من نساء مكة والمدينة والعراق والشام .

وقد لاحظ بروكلمان (٨) أن عمر بن أبي ربيعة ((وهب فن الغزل حياة قوية)) . ويتجلى هذا بوضوح اذ جعل الغزل غرضا يقصد لذاته ، وجعل قصائده قصصا غرامية قصيرة ، وبلغ في هذا شهرة واسعة حتى قيل :((اذا أعجزك أن تطرب القرشي فغنه غناء ابن سريج في شعر عمر بن أبي ربيعة فانك قصه)) (٩) .

وبجانب عمر بن أبي ربيعة كان من شعراء الغزل بالحجاز : الحارث بن خالد المخزومي (١٠) ، والأحوص عبد الله بن محمد (١١) (توفي حوالي سنة ١٠ اهـ) ، والعرجي عبد الله بن عمر بن عمرو بن عثمان (١٢) (ت ٢٠ اهـ)، ونصيب مولى عمر بن عبد العزيز (١٣) (ت ١٠٨ هـ) وسواهم .

ويظهر أن نمو الموسيقى في هذا العصر بالحجاز وازدهار الغناء قد شد من أزر الغزل الغنائي ، فراجت سوق الشعر والغناء ، ووجد كل لون منهما حاجته في اللون الآخر ، ونما ذلك في كنف أهل

١ــ القطوع: جمع قطع وهو الطنفسة يجعلها الراكب تحته وتغطي كتفي البعير .
٢ــ انظر الأصفهاني : الاغاني ج ١ ص ٢٢٩ ط. الهيئة المصرية العامة
٣ــ انظر ديوان عمر بن أبي ربيعة : ص ٥٠ ، ٥١ شرح محمد محي الدين عبد الحميد ، الطبعة الثالثة ١٩٦٥ ، المكتبة التجارية الكبرى .
٤ــ الأصفهاني : الاغاني ج ١ ص ١٦٨
٥ــ انظر المرجع السابق ص ٢١٥ ، ديوان عمر ص ٥٦
٦ــ انظر ديوان عمر بن أبي ربيعة ص ١٨
٧ــ انظر الأصفهاني : الاغاني ج ١ ص ٩٢
٨ــ تاريخ الأدب العربي ج ١ ص ١٩١
٩ــ انظر الاصفهاني : الاغاني ج ١ ص ٢٩٣
١٠ــ انظر المرجع السابق ص ١٦٠ ، ٣٩٢
١١ــ انظر المرجع السابق ج ٤ ص ٢٤٦ــ ٢٤٧ ط. دار الكتب

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الحجاز وفي ظل وارف من خصب نفوسهم • وظهر في الشعر شيء من الاثم والعبث كالذي ذكر في شعر الأحوص بن محمد الأنصاري الذي ما زال به اسرافه في اللهو والتعرض لأهل المدينة ووُلاتها حتى عذّب ونفي من المدينة أيام خلافة سليمان بن عبد الملك، وكالمرجي في الطائف ومكة وقد كان فساتكا مسرفا في الفتك والتعرض لولاة مكة والسخط على خلفاء دمشق حتى عذب وحبس وماتفي السجن(١)(٢)•

وليس معنى هذه الاشارة السريعة الى فني الشعر السياسي والشعر الغزلي أن فنون الشعر التقليدية الأخرى كالمديح والهجاء والرثاء والفخر قد اختفت في هذا العصر بل أن المغريات المادية كانت تدفع الشعراء ـ ومن بينهم الحجازيين ـ دفعا الى أبواب بني أمية كما فعل كثيّر عزة في مدح عبد الملك بن مروان(٣)• وعبيد الله بن قيس الرقيات الذي قال في مدح عبد الملك(٤):

مانقموا من بني أمية الا ... أنهم يحلمون ان غضبوا

وأنهم معدن الملوك فلا ... تصلح الا عليهم العرب

وعناية الخلفاء من بني أمية بالشعر والشعراء رفدت سوق الشعر الرائجة وكان لرغبة هؤلاء الخلفاء في غرض الشعر أو سماعة وقدرتهم على فهمه ونقده وتشجيعهم الشعراء ورعايتهم لهم واحسانهم اليهم بأجزل العطاء كان لهذا كله أثر كبير في رقي الشعر ورواجه وانتشاره ، واقبال عامة الناس عليه من قادة وولاة وأئمة وفقهاء وسوقة وأمراء(٥)•

وخلاصة القول أن العصر الأموي شهد لاسباب شتى رواج سوق الشعر وكثر الشعراء في الحجاز كثرة ملحوظة، يشهد على صحة ذلك ما ذكرته كتب الأدب العديدة من أخبار الشعراء وأشعارهم • وحسبنا أننا أشرنا الى ازدهار الشعر في الحجاز ابان عهد دولة الأمويين •

١ـ انظر الاصفهاني : الاغاني ج ٤ ص ٢٣٣ ـ ٢٣٤

٢ـ انظر المرجع السابق ج ١ ص ٤١٧، ٤٢٤ ط• الهيئة المصرية العامة

٣ـ انظر أحمد الربيعي : كثيّر عزة حياته وشعره ص ١٥٨ دار المعارف ١٩٦٧

٤ـ ديوان عبيد الله بن قيس الرقيات ص ٤ ـ ٥

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الفصل ـ الغنـــاء .

من أشهر الفنون التي انتشرت في مدن الحجاز خلال العصر الأموي كان الغناء الذي انتشر انتشارا واسعا وتطورت فنونه على امتداد العصر، واشتهر أهل الحجاز بذلك فعدوا ((أهل معازف ولهو ومداعبة))(١). وتبدى اعجاب أهل الحجاز بالغناء حتى قيل : ان الغناء لاينكره عالمهم ولا يدفعه عابدهم(٢).

وقد كان علماء أهل الحجاز يفضلون الغناء والشعر ويتسامحون بشأنهما على عكس علماء أهل العراق، روي أن عبدالله بن عمر العمري خرج حاجا ، فرأى امرأة جميلة تتكلم بكلام رفث فيه ، فأدنى ناقته منها ثم قال : ياأمة الله ، ألست حاجة ، أما تخافين الله ، فسفرت عن وجه يبهر الشمس حسنا ثم قالت : بل ياعم فانني ممن عناه العرجي بقوله : من اللاء لم يحججن يبغين حسبة

ولكن ليقتلن البريء المغفـــلا

قال : فقلت لها : فاني أسأل الله ألا يعذب هذا الوجه بالنار. قال : وبلغ سعيد بن المسيب قولـــه ، فقال : أما والله لو كان من بعض بغضاء العراق لقال لها : أعزبي قبحك الله ! ولكنه ظرف عباد أهـــل الحجاز(٣).

وفي هذا العصر تفوق الغناء الحجازي على الغناء العراقي والغناء الشامي ووجد في ظرف أهـــل الحجاز ورقة شعورهم وبساطة أموالهم وتحضر بداوتهم وفراغ أوقاتهم سوقا نفقت ورونقه وشهرته .

ووجد المغنون ضالتهم المنشودة في الشعر الغزلي كشعر عمر بن أبي ربيعة، والعرجي والأحوص ونصيب وجميل بثينة وكثير عزة وغيرهم فيلحنون(٥) على الشعراء في أن ينظموا لهم الأشعار فكان ابن سريج والغريض المغنيان الكبيران في ذلك العصر يرافقان عمر بن أبي ربيعة(٦) ويصنعان الألحان في شعره حتى قيل ((اذا أعجزك أن تطرب القرشي ففنه غناء ابن سريج في شعر عمر بن أبي ربيعة فانك ترقصه(٧)))

١ـ ابن الفقيه : مختصر كتاب البلدان ص ١٥٢ نشر دي غويه ١٨٨٥

٢ـ انظر الأصفهاني : الأغاني ج ٨ ص ٢٢٥ ط. دار الكتب المصرية .

٣ـ المرجع السابق ج ١ ص ٤١٧ ط. الهيئة المصرية العامة

٤ـ انظر أحمد أمين : فجر الاسلام ص ١٧٦ ـ ١٧٧

٥ـ انظر الأصفهاني : الأغاني ج ١ ص ١٥٧، ٢٦٦

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وأكثر ما كان يغني به معبد شعر الأحوص[١] ويبدو أن شعراء الغزل أفادوا واستفادوا كذلك ، أفادوا المغنين بقصائد قصيرة خفيفة الأوزان[٢]، واستفادوا أنفسهم حين اضطروا لمجاراة المغنين فنما هذا اللون الشعري.

وتطورت الموسيقى الحجازية وبلغت درجة عالية ، واحتشد في مدن الحجاز جمع كاثر من المغنين والمغنيات أمثال ابن سريج ، وابن مسجح ومعبد وابن محرز والغريض وابن عائشة وطويس وجميلة وعزة الميلاء وحبابة وسلامة والزرقاء وسواهم وظهرت في المدن الحجازية طوائف منهم، مغنون في مكة ومغنون في المدينة فكان ابن سريج والغريض واساتذتهما وتلاميذهما بمكة، ومعبد وجميلة واساتذتهما وتلاميذهما الذين يأخذون منهما في المدينة.

واشتهرت المدينة شهرة واسعة في هذا العصر بالغناء، فقد سبقت الى الثراء من الفتوح وسبقت أيضا الى اتخاذ الرقيق، وقد كانت عاصمة الدولة الاسلامية فأسرعت اليها هذه الموجه من موجات الترف[٣].

وشارك أهل المدينة مواليهم المغنين حتى قيل : ما منهم شريف ولا دني يتحاشى عن الغناء، وروي أن مالك بن أنس غنّى في عرس ابن حنظلة الغسيل[٤] ، فساد الغناء مختلف طبقات المجتمع الحجازي حتى قيل أن عمر بن عبد العزيز كان يتغنى قبل أن تناله الخلافة[٥].

وقد لعب الموالي دورا بارزا في تطوير الأغاني الحجازية، وذكر ابن عبد ربه[٦] أن أول من غنى في الاسلام الغناء الرقيق طويس، مولى بني مخزوم، وعلّم ابن سريج والدلال ونومة الضحى، وذكر الكتبي[٧]، أنه كان يضرب بطويس المثل في الحذق والغناء. وروى الأصفهاني[٨] أن عبد الله بن عامر اشترى اماء

١ــ انظر ابن عبد ربه : العقد الفريد ج ٧ ص ٧٥

٢ــ انظر شوقي ضيف: التطور والتجديد في الشعر الأموي ص ١٠٥

٣ــ انظر شوقي ضيف: الشعر والغناء في المدينة ومكة ص ٦٤ ــ ٦٥ دار الثقافة بيروت ١٩٦٧

٤ــ ابن عبد ربه : العقد الفريد ج ٧ ص ٩ــ١٠

٥ــ انظر الجاحظ : رسائل ج ٢ ص ١٦٠

٦ــ انظر العقد الفريد ج ٧ ص ٢٤

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

صناجات وأتى بهن المدينة فكان لهن يوم في الجمعة يلعبن فيه ، وسمع الناس منهن، فأخذ سائب خاثر، مولى بني ليث، عنهن، وهو أول من عمل العود بالمدينة ،وأخذ عن رجل فارسي ، كان يغني بالفارسية ويعرف بنشيط، فصنع مثل غنائه بالعربية . وفي مكة من ابن مسجح ، مولى بني جمح بالفرس وهم يبنون المسجد الحرام في أيام عبد الله بن الزبير، فسمع غناءهم بالفارسية فقلبه في شعر عربي وقيل أنه انما سمع الغناء عن الفرس لما أمر معاوية ببناء دوره بمكة التي يقال لها الرقط، وقد كان حمل اليها البنائين من الفرس(١).

وحين اختلط هذا الجيل من الموالي والسبايا والرقيق بالمجتمع الحجازي المترف ، بان أثرهم واضحا في مظاهر الحياة الاجتماعية المختلفة ومنها الغناء الذي انتشر انتشارا واسعا لفت نظر رواة المسعودي(٢) فقال : إنه في أيام يزيد بن معاوية ظهر الغناء بمكة والمدينة واستعملت الملاهي .

واذن فهناك صلة مؤكدة بين الغناء العربي الحجازي الذي شاع في العصر الأموي، وبين الغناء الأجنبي الفارسي والرومي ، على أنه ينبغي ألا نبالغ في هذه الصلة فنزعم أن العرب نقلوا نظريتهم الغنائية في هذا العصر من لدن الأجانب(٣) ، حقا انهم تأثروا بهم ولكنهم لم يذوبوا في غناء غيرهم .

وكثرت مجالس الطرب والغناء واتخذ لهذه المجالس هيئة خاصة، وفي بعض الأحيان زيا خاصا كالذي روى أبو الفرج(٤) في أخبار جميلة المغنية اذ ((جلست يوما ولبست برنسا طويلا، وألبست من كان عندها برانس دون ذلك ... ثم قامت جميلة ورقصت وضربت بالعود وعلى رأسها البرنس وعلى عاتقها بردة يمانية وعلى القوم أمثالها ، وقام ابن سريج يرقص ومعبد والغريض وابن عائشة ومالك وفي يد كل واحد منهم عود يضرب به على ضرب جميلة ورقصها ، فغنت وغنى القوم على غنائها ... ثم دعت بثياب مصبغة ووفرة شعر ... فوضعتها على رأسها ودعت للقوم بمثل ذلك فلبسوا ، ثم ضربت بالعود وتعشت وتعشى القوم خلفها وغنت وغنوا بغنائها بصوت واحد)) . فالغناء مصحوب بالرقص وترديده فرقة كبيرة خلف المغنية،

١ـ النويري : نهاية الأرب في فنون الأدب ج ٤ ص ٢٣٩ ـ ٢٤٠ نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب

٢ـ مروج الذهب ج ٣ ص ٦٧

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وبلغت هذه الفرقة أحيانا خمسين نفرا تضرب على الأوتار أثناء الغناء[1] وفي بيت جميلة كان يجتمع مغنو مكة والمدينة كابن سريج والغريض وابن مسجح وسلم بن محرز ومعبد وابن عائشة ويحكّمونها بينهم[2]، ليس هذا فحسب بل قصدها البعض وجلست لتعليم الجواري، فكثرن في بيتها، وكانت تقول: قد كسبت لموالي مالم يخطر لهم ببال[3]. وجميلة نفسها كثيرا ما هيأت مجلس غناء لعبد الله بن جعفر[4]، وعمر بن أبي ربيعة، والعرجي وصحبهم من الشعراء[5]. وشيء يقرب من هذا بلغته عزّة الميلاء في المدينة حتى زعموا أنها كانت أول من فتن أهل المدينة بالغناء، وكانت اذا جلست جلوسا عاما فكأن الطير على رؤوس أهل مجلسها، وكان عبد الله بن جعفر وعمر بن أبي ربيعة وابن أبي عتيق يغشونها في منزلها فتغنيهم[6].

ولم يقتصر الأمر على مجالس الغناء الخاصة، فكان الناس يخرجون خارج المدن يستمتعون بالغناء، كما فعل أهل المدينة حين خرجوا الى العقيق وغناهم ابن عائشة[7].

وبلغت شهرة المغنين في المدينة مسامع خلفاء دمشق، فاستدعى الخلفاء الأمويون المغنين من الحجاز[8]. فكان الوليد بن يزيد يقول: ((لقد اشتقت الى معبد)) فيوجه الى معبد بالبريد، فيؤتى به ليسمعه في قصره، واذا وفدوا عليهم في دمشق أجزلوا لهم العطاء، كالذي فعل معاوية وابنه يزيد بسائب خاثر[9]، ويزيد بن عبد الملك عندما أجاز الغريض جائزة سنية[10]، وعبد الملك بن مروان وصلته لسعيد ابن مسجح[11]، والوليد بن عبد الملك الذي أشار الى بعض الخدم فقطوا ابن سريج بالخلع، ووضعوا بين يديه كيس الدنانير وبدر الدراهم[12]. فخلفاء الأمويين شجعوا الغناء وساعدوا على ازدهاره.

١ـ انظر الاصفهاني: الاغاني ج ٨ ص ٢١٨
٢ـ انظر النويري: نهاية الارب ج ٥ ص ٤٢
٣ـ انظر الاصفهاني: الاغاني ج ٨ ص ١٨٧
٤ـ انظر المرجع السابق ص ١٩٧، ٢٢٧
٥ـ انظر نفسه ص ٢١٠
٦ـ انظر النويري: نهاية الارب ج ٥ ص ٥١
٧ـ انظر ابن عبد ربه: العقد ج ٥ ص ٣٢
٨ـ الاصفهاني: الاغاني ج ١ ص ٥٦
٩ـ انظر النويري: نهاية الارب ج ٤ ص ٢٤٤ ـ ٢٤٥
١٠ـ انظر الاصفهاني: الاغاني ج ٢ ص ٣٩٦

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وبلغ الغناء درجة عالية من الاتقان، ملكت على الناس نفوسهم • يروى أن ابن سريج غنى في مجلس الوليد بن عبد الملك ، بحضور مسدّي بن الرقاع العاملي ، فقال الوليد : ويحك ياعدّي ألا تصرف هذا الصوت؟ قال : لا والله ماسمعته قط ولا سمعت مثله ، ولولا أنه في مجلس أمير المؤمنين لقلت طائفة من الجن يتغنون[١] ، وعندما غنى في موسم الحج حبس الناس عن مناسكهم[٢]، وتأثر جرير الشاعر فقال حين سمع غناءه :((لله دركم يا أهل مكة، ما أعطيتم ! والله لو أن نازعا نزع اليكم ليقيم بين أظهركم فيسمع هذا صباح مساء لكان أعظم الناس حظا ونصيبا • فكيف ومع هذا بيت الله الحرام، ووجوهكم الحسان ، ورقة ألسنتكم وحسن شارتكم وكثرة فوائدكم[٣]))• وكان بجانب ابن سريج في مكة الفريض الذي خرج فوقف حيث لا يرى ويسمع صوته فترنم ورجع صوته •• ، فما سمع السامعون شيئا كان أحسن من ذلك الصوت وتكلم الناس فقالوا : طائفة من الجن حجاج[٤] • وليس هذا الا من قبيل غاية الاحسان التي بلغها المغنون في السمو بالغناء فنال اعجاب العامة والعلماء ، روى أبو الفرج الأصفهاني[٥] أن ابن سريج كان جالسا فمر به عطاء وابن جريج ، فحلف عليهما بالطلاق أن يغنّيهما ، على أنهما ان نهياه عن الغناء بعد أن سمعا منه ، تركه • فوقفا فغنّاهما •• فغشي على ابن جريج وقام عطاء يرقص واذا صحت هذه الرواية اذا كان تأثر هذين الشيخين المحدثين قد بلغ هذه الدرجة ، فكيف كان تأثر العامة بذلك ؟ أغلب الظن أنه كان كبيرا • كما اعجب بعض الولاة كالحارث بن خالد المخزومي —والي مكة لعبد الملك بن مروان— بالغناء وبلغ من شدة تأثره أن قال للغريض المغني المكي :((يا غريض، لا لوم في حبك ، ولا عذر في هجرك، ولا لذة لمن لا يروّح قلبه بك، ياغريض، لو لم يكن لي في ولايتي مكة حظ الا أنت لكان حظا كافيا وافيا ، ياغريض انما الدنيا زينة ، فأزين الزينة ما فرّح النفس ولقد فهم قدر الدنيا على حقيقته من فهم قدر الغناء))• ومن قضاة مكة الأوقص المخزومي[٦] ، قال :((قالت لي أمي : أي بني ، انك خلقت في صورة لا تصلح معها لمجامعة الفتيان في بيوت القيان، فعليك بالدين، فان الله يرفع به الخسيسة

١— انظر النويري : نهاية الأرب ج ٤ ص ٢٥٨
٢— انظر الأصفهاني : الاغاني ج ١ ص ٢٢٠، ٣٢٧
٣— المرجع السابق ص ٣٠٦

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ويتم به النقيصة، فنفضني الله بقولها ... وحين ولي قضاء مكة، ماروي مثله في العفاف والنبل، فبينما هو نائم ذات ليلة في علية له، اذ مرّ به سكران يتغنى ويلحن في غنائه فأشرف المخزومي عليه فقال: ياهذا، شربت حراما، وأيقظت نياما، وغنيت خطأ، خذ عني فأصلحه عليه))[1].

ويشبه هذا ماروي عن مالك بن أنس في المدينة، حين قال: ((نشأت وأنا غلام حدث أتعلم المغنين وآخذ عنهم، فقالت لي أمي: يابني ان المغني اذا كان قبيح الوجه لم يلتفت الى غنائه، فدع الغناء واطلب الفقه، فانه لايضرّ معه قبح الوجه، فتركت المغنين واتهمت الفقهاء))[2].

والناظر الى الغناء في الحجاز يجد أن المدينة سبقت الى العناية به، واحتلت المركز الأول للغناء والمغنين، ونجد مكة تطلب مغنيها من المدينة.. فابن سريج تتلمذ على مغني المدينة، أمثال سائب خاثر[3]، وطويس[4] وترد في الأغاني اشارة الى أن مكة كانت تأتي بالمغنيات من المدينة، كالذي قيل في سلامة القس[5] ولكن ذلك لم يستمر طويلا، فاشتهر في كل من المدينتين مغنون، وكان هؤلاء يتبادلون الزيارات والخبرات، فابن محرز، مولى بني مخزوم، كان يسكن المدينة مرة ومكة مرة، فاذا أتى المدينة أقام بها ثلاثة أشهر يتعلم الضرب من عزة الميلاء ثم يرجع الى مكة[6]، وكذلك قدم ابن سريج والغريض الى المدينة وعندما سمعا معبدا سمعا شيئا لم يسمعاه بمثله قط[7]. ومعبد مغني المدينة يقول: ((غنيت فأعجبني غنائي وأعجب الناس، وذهب لي به صيت وذكر فقلت: لاتيمّن مكة فلأسمعن من المغنين بها، ولأغنينهم ولأتصرفن اليهم... فأقمت عندهم شهرا آخذ منهم ويأخذون مني ثم انصرفت الى المدينة))[8]. ولم يقتصر الخروج الى مكة على معبد من المغنين بالمدينة، فقد خرج في احدى مواسم الحج ((هيت وطويس

١ــ ابن عبدربه: العقد ج ٧ ص ١٢، الأصفهاني: الأغاني ج ٢ ص ٣٨٠

٢ــ الاصفهاني: الاغاني ج ٤ ص ٢٢٢ ط. دار الكتب.

٣ــ انظر النويري: نهاية الارب ج ٤ ص ٢٤٤

٤ــ انظر ابن عبدربه: العقد ج ٧ ص ٢٤

٥ــ انظر الاصفهاني: الاغاني ج ٨ ص ٣٣٤، ٣٣٨

٦ــ المرجع السابق ج ١ ص ٣٩٠

٧ــ انظر المرجع السابق ص ٤٧

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

والدلال وبرد الفؤاد ونومة الضحى وفند ورحمة وهبة الله ومعبد ومالك وابن عائشة ونافع بن طنبورة وبذيح وجميلة وعزة الميلاء وحبابة وسلامة وخليدة وعقيلة والشماسية وفرعة وبلهلة ولذة العيش وسعيدة والزرقاء .... ولما قاربوا مكة تلقاهم سعيد بن مسجح وابن سريج والغريض وابن محرز والهذليون وجماعة من المغنين من أهل مكة، وقيان كثير لم يسمين لنا ... وخرج أبناء أهل مكة من الرجال والنساء ينظرون جمعهم وحسن هيئتهم))(١).

ولم تلبث المنافسة أن دبت بين مغني المدينتين، فكان معبد قد وضع ألحانا سمعة فخرها وفضلها على المدائن التي افتتحها قتيبة بن مسلم في بلاد فارس(٢)، ولما سمع مغنو مكة بسمعة معبد وشهرتها وهي الأصوات السمعة التي سميت مدن معبد، لحقتهم لذلك غيرة، فاجتمعوا واختاروا من غناء ابن سريج سمعة، فجعلوها بازاء سمعة معبد ثم خايروا أهل المدينة فانتصفوا منهم(٣).

ومن قبيل التحاسد والتنافس بين المغنين في المدينتين، ما رواه أبو الفرج الأصفهاني(٤) من أن مالك بن أبي السمح ومعبد تلاحيا وتنافرا، وقال كل واحد منهما: أنا أجود صنعة منك. فمضيا الى ابن سريج في مكة، فلما سمع منهما، فخر عليه مالك، ففناهما ابن سريج صوتا. قال: فانصرفا مفلولين مفضوحين.

بقي أن أشير الى أن أغلب المغنين كانوا من الموالي، وانهم استفادوا مما كان لدى الأمم الأخرى من غناء وأدوات تلازمه، كالذي قيل: أن عود ابن سريج كان على صنعة عيدان الفرس وان كان هذا لا يعني أن العرب لم يشاركوا في الغناء، فقد كان مالك بن أبي السمح الطائي من المغنين المشهورين في المدينة. وهو مغن عربي أصيل، كان أبوه من طيء وكانت أمه قرشية من بني مخزوم وقيل: على أم أبيه منهم(٥).

١ـ الاصفهاني: الاغاني ج ٨ ص ٢٠٩ ـ ٢١٠ ط. دار الكتب

٢ـ انظر ابن عبد ربه: العقد ج ٧ ص ٢٣

٣ـ انظر الأصفهاني: الاغاني ج ٩ ص ٢٣٨ ط. دار الكتب

٤ـ انظر المرجع السابق ج ١ ص ٢٨٢ـ ٢٨٣

٥ـ انظر النويري: نهاية الأرب ج ٤ ص ٢٥٠

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وصار الغناء صار ضرب من اللهو ، أعني الشراب، حين كان البعض يشربون في مجالس الغناء فيسمعون ويشربون.(١) ومع ذلك فقد هيأت الحجاز ((لنمو الغناء عند العرب هذا النمو الذي جعله يتحول من صناعة بسيطة الى صناعة معقدة لها تقاليدها ورسومها ، وهي صناعة بلغت مبلغا عظيما من السحر والفتنة على أيدي وألسنة كثير ممن برعوا في الغناء براعة هائلة))(٢).

أما الطائف فقد اتخذت مصيفا لسراة القوم ، يتخذون بها القصور ويتنزهون(٣) ، وكانت الثريا بنت علي بن عبد الله بن الحارث، صاحبة عمر بن أبي ربيعة ، تصيف بالطائف(٤). وكان من أشهر مواليها الفريض المغني(٥) ، وكان المرجي الشاعر يسكن عرج الطائف، وكان(٦) يصحبه فند المغني ، مولى عائشة بنت سعد(٧) ، ويبدو أن المغنين كانوا ينزلونها وينشرون غناءهم فيها ، ولكن شهرتها بالغناء كانت أقل

من شهرة المدينة ومكة.

١ــ انظر الاصفهاني : الاغاني ج ٨ ص ٢٠٧ ، ابن سعد : الطبقات ج ٥ ص ١٣٧

٢ــ شوقي ضيف: الشعر والغناء ص ١٤

٣ــ انظر النويري: نهاية الأرب ج ٤ ص ٢٧٩

٤ــ انظر الأصفهاني : الاغاني ج ١ ص ٢٢٠

٥ــ انظر النويري: نهاية الأرب ج ٤ ص ٢٦٧

٦ــ انظر الأصفهاني : الاغاني ج ١ ص ٣٩٨

٧ــ انظر المرجع السابق ص ٤٠٦

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الفصل الثاني

مظاهر الحياة الاجتماعية

مناصر السكان

أ- المسكوب

ب- الموالي

جـ- الرقيق

المرأة في مجتمع الحجاز

المجالس الاجتماعية

الثراء والتحضر

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

عناصر السكـان :

عاش في الحجاز خليط من الأجناس، فالمجتمع العربي الحجازي اختلط بغيره من الأجناس كالفرس والروم وسواهم من الأمم، وهؤلاء شاركوا السكان حياتهم وحملوا اليهم عاداتهم وتقاليدهم الاجتماعية، ولاشك أن هذا الاختلاط قد ترك آثارا واضحة في الحياة الاجتماعية خاصة في المدن .

ورغم كثرة مناطق الاستقرار والقرى والمدن في الحجاز، الا أن المدن الرئيسية فيها كانت المدينة ومكة ثم الطائف . وكانت الحياة المشتركة في المدينة الواحدة قد خففت من غلواء الروابط القائمة على اساس عصبية القبائل (١) . يضاف الى هذا أن الاسلام كان قد نظم المجتمع على أسس جديدة، فطلب من أبناء المجتمع أن يتعاونوا ويتآخوا وينسوا أحقادهم وضغائنهم، ورفض العصبية القبلية بشدة، فقال تعالى : ((قل ان كان آباؤكم وأبناؤكم واخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب اليكم من الله ورسوله وجهاد في سبيله فتربصوا حتى يأتي الله بأمره والله لايهدى القوم الفاسقين)) (٢) .

الا أن التنظيم القبلي لم يتلاش في هذا العصر ((وكانت للفرد احساسات بالعشيرة والقبيلة)) (٣) وبقيت القبيلة هي الوحدة الاجتماعية في جبهات القتال، ففي سنة سبع وثلاثين هجرية تلمس ذلك بوضوح في موقعة صفين (٤)، وكذلك في موقعة مرج راهط سنة أربع وستين (٥) . وكانت الأسس القبلية مرعية في توزيع العطاء ((وما فرض عمر بن الخطاب، وعثمان بن عفان، وعلي بن أبي طالب، رضي الله عنهم، الديوان اذ فرضوه، الا على القبائل ...)) (٦)، كما وزع العطاء على عرفاء القبائل (٧)، وكانت العرافات موجودة أزمان النبي صلى الله عليه وسلم، وأزمان الخلفاء الراشدين (٨)، وكان معاوية ابن أبي سفيان قد أرسل عطاء أهل المدينة ((ووجه عاصم بن أبي هاشم بن عتبة الى المدينة فقدم به، وكان العطاء يدفع الى العرفاء، وكان لكل قبيلة عريف يأخذ أعطيتهم ويدفعها اليهم،

١ـ انظر صالح العلي : التنظيمات الاجتماعية والاقتصادية في البصرة ص ٥٦ دار الطليعة بيروت ١٩٦٩ .
٢ـ سورة التوبة : آية ٢٤
٣ـ فلهوزن : تاريخ الدولة العربية ص ٣
٤ـ انظر الطبري : تاريخ ج ٥ ص ١٤
٥ـ انظر احسان النص : العصبية القبلية ص ٢٤٢، الطبري : تاريخ ج ٥ ص ٥٣٥ ـ ٥٤٤

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وكان المرفاء يأخذ وسها فلا يغيبون غائبا ولا يميتون ميتا ويصدقون أهلها فيعطونهم بعضا ويأخذون بعضا ، وحين همّ عاصم باصلاح الديوان كره الناس ذلك لما يصيبهم من نصيب الموتى والغيّب فقاموا عليه واقتسموا الأموال)) (١) . ولم يقتصر هذا التنظيم القبلي على العرب فحسب بل تجاوزهم الى الموالي ، فقد كتب عمر بن الخطاب الى أمراء الأجناد ((لو من أعتقتم من الحمراء فأسلموا فألحقوهم بمواليهم وعليهم ماعليهم ، وان أحبوا أن يكونوا قبيلة وحدهم فاجعلوهم أسوتكم في العطاء والمعروف)) (٢) .

وظل الطابع القبلي هو الغالب على المجتمع العربي طوال العصر الأموي ، وأهل الحجاز وان استقروا وتحضروا غير أنهم لم يتمكنوا من ترك النظم البدوية الاجتماعية القائمة على أساس الروابط الدموية والنسب (٣) . وقد تألف السكان في الحجاز من العناصر الآتية :

أ - العرب

ارتكز المجتمع الحجازي على سيطرة القبائل العربية التي شكلت غالبية السكان وتمتعت بأهم الامتيازات والرواتب والمكافئات . وكانت كل قبيلة تضم عددا من الأفراد الذين ينتمون الى جد واحد مشترك (٤) ، يحملون اسمه عادة (٥) ، وتنقسم القبائل الكبرى الى فروع تدعى : العمائر والبطون والأفخاذ والعشائر والفصائل والأزهاط (٦) على خلاف بين النسابين من حيث التقديم والتأخير وفي اضافة بعض المصطلحات أو في نقصها . ويتحمل أفراد القبيلة الواحدة مسئوليات مشتركة فهم يساهمون في دفع دية القتل الخطأ الذي يرتكبه أحد أفراد القبيلة ، فالامام مالك (٧) يقول : ((انما العقل على أهل القبائل أهل ديوان كانوا أو غير أهل ديوان)) . كما أنهم يشتركون في وراثة من لا وارث له ممن يموت من أفراد القبيلة (٨) .

ومن بين قبائل الحجاز احتلت قريش منزلة اجتماعية مرموقة وكان يقال : ((يكفيك من قريش أنها أقرب من رسول الله ، صلى الله عليه وسلم نسبا ، ومن بيت الله بيتا)) (٩) وكان أحدهم يفاخر فيقول :

١- انظر المصعب الزبيري : نسب قريش ص ١٥٤
٢- ابن سلام : الأموال ص ٣٣٦
٣- انظر الفيروز آبادي : القاموس ج ٣ ص ٣٥ مادة قبل
٤- Robertson Smith: Kinship and Marriage in early Arabia, P. 3 London 1907
٥- انظر احسان النص: العصبية القبلية وأثرها في الشعر الأموي ص ٥٣ بيروت ١٩٦٣
٦- انظر النويري : نهاية الأرب ج ٢ ص ٢٧٦ ، جواد علي : المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام ج ١ ص ٥٠٩

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

((منا النبي المرسل ، وفينا الكتاب المنزل ، ولنا الخليفة المؤمل))(١) . مما يدل على شعورهم بالمكانة السامية التي كانت تتمتع بها قريش فرياسة الدولة فيهم ، ونالت سيادتها اعتراف جميع العرب عدا الخوارج(٢) ، هذا بالاضافة الى المجد الذي حازته حين اختار الله رسوله منهم ، والبطولات التي أحرزوها في نشر الاسلام . وذكر ابن حبيب(٣) أن مآثر قريش في الاسلام ثلاثة ((النبوة والخلافة والشورى)) .

وكانت قريش ابان العصر الأموي بمكة ((أهل كثرة وثروة وأهل مقال في كل مقام هم أهل النادى والبلد وعليهم يدور الأمر))(٤) .

وتنقسم قريش الى قسمين : قريش البطاح ، وقريش الظواهر ، فقريش البطاح هم الذين ينزلون الشعب بين أخشبي مكة(٥) ، وأشهر بيوتهم : بنو عبد مناف ، وبنو عبد الدار وبنو عبد العزى وبنو عبد ابن قصي بن كلاب ، وبنو زهرة بن كلاب ، وبنو تيم بن مرة ، وبنو مخزوم بن يقظة بن مرة ، وبنو سهم وبنو جمح ابنا عمرو بن هصيص بن كعب ، وبنو عدي بن كعب ، وبنو حسل بن عامر بن لؤي ، وبنو هلال بن أهيب بن ضبة بن الحارث بن فهر ، وبنو هلال بن مالك بن ضبة بن الحارث بن فهر(٦) .

أما قريش الظواهر فهم الساكنون خارج مكة في أطرافها ، وكانوا على ما يبدو أعرابا(٧) ، وأشهرهم : بنو معيص بن عامر بن لوي ، وتيم الأدرم بن غالب بن فهر(٨) ، ومحارب والحارث ابنا فهر(٩) . كما ألحق عثمان ، في خلافته ، بقريش بني سامة بن لؤي ، وبني الحارث بن لؤي وبني خزيمة بن لؤي وبني سعد بن لؤي وبني عوف بن لؤي(١٠) . وقد تباعدت مواطن هؤلاء عن قريش ، ثم تفرق من قريش بطون كثيرة بعد الاسلام .

١ ـ ابن عبد ربه : العقد الفريد ج ٣ ص ٢٥١
٢ ـ انظر فلهوزن : تاريخ الدولة العربية ص ٣٧
٣ ـ المحبر ص ١٦٥
٤ ـ الفاكهي : المنتقى في أخبار أم القرى ص ٣٧
٥ ـ أخشبا مكة : جبلاها أبو قبيس والذي يقابله أنظر أخبار مكة للأزرقي ج ٢ ص ٢٦٦ ـ ٢٦٧
٦ ـ ابن حبيب : المحبر ص ١٦٧ ـ ١٦٨
٧ ـ انظر جواد علي : المفصل في تاريخ العرب ج ٤ ص ٢٨
٨ ـ في جمهرة أنساب العرب لابن حزم بدل تيم كلمة تميم ص ١٢
٩ ـ ابن حبيب : المحبر ص ١٦٨

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وقد أقام في الطائف قوم عرفوا بقريش ودیارهم في جهات الطائف (١) ومنهم بدو وحضـــر ،
فالحاضرة تقطن في الأودية القريبة من الطائف كالوهط والوهيط وسواهما ، والبادية منهم عاشت
حياة البداوة (٢) وكانت قريش مع فصاحتها وحسن لغتها ورقة ألسنتها (٣) عزيزة الجانب عظيمة الشأن .
وزادت مكانة قريش مع الاسلام وانطلق فريق منهم فاستوطن الأمصار خاصة بلاد الشام .
ولم يكن أهل مكة كلهم من قريش بل ساكنتهم (٤) أقوام أخرى كخزاعة والأحابيش (٥) وقـــوم
من بني بكر (٦) والأزد (٧) وآخرون من قبائل العرب (٨) والموالي والرقيق .
ومن القبائل المشهورة بالحجاز بنو سليم (٩) ويروى أنها كانت أكبر قبائل قيس (١٠) ويعود
نسبها الى قيس عيلان (١١) من العدنانية (١٢) وتفرع منها عدة بطون وعشائر (١٣) وسكن بنو سليم مناطـق
متفرقة منها : حرة بني سليم وفيها رياض وقيعان (١٤) وحرة النار (١٥) وكانت لهم منازل في عالية نجد
بالقرب من خيبر (١٦) ووادي القرى وتيماء (١٧) وكانت قرية الأرحضية للأنصار وبني سليم وبها آبار ومزارع
كثيرة (١٨) كما سكن بعضهم في المدينة (١٩) وسكنت أعراب بني سليم في المنطقة المعروفة بمعدن بنـــي
سليم (٢٠) وهي منطقة كثيرة الأهل وماؤها من البرك . وذكر الهمداني أن ديارهم تمتد من وادي
القرى الى خيبر الى شرقي المدينة الى حد الجبلين الى ماينتهي الى الحرة . ومن أودية بني سليم

١ـ انظر الهمداني : صفة جزيرة العرب ص١٢١ نشرة محمد بن عبدالله بن بليهد النجدي ١٩٥٣م
٢ـ انظر كحالة : معجم قبائل العرب القديمة والحديثة ج ٣ ص٩٥١ دار العلم للملايين ١٩٦٨م
٣ـ انظر المرجع السابق ص٩٤٨ ـ ٩٤٩
٤ـ انظر الأزرقي : أخبار مكة ج ٢ ص٢٣٤
٥ـ انظر المرجع السابق ص ٢٤٠
٦ـ انظر نفسه ص ٢٤٩
٧ـ انظر جواد علي : المفصل في تاريخ العرب ج ٤ ص ٣٠ ومابعدها .
٨ـ انظر النويري : نهاية الأرب ج ٢ ص ٣٣٥ ، القلقشندي : صبح الأعشى ج ١ص٣٤٥
٩ـ انظر ابن حزم : جمهرة أنساب العرب ص٢٦١
١٠ـ انظر المرجع السابق ص٢٦١ ، كحالة : معجم قبائل العرب ج ٢ ص٥٤٣
١١ـ انظر القلقشندي : صبح الأعشى ج ١ ص٣٤٦
١٢ـ = السمهودي : وفاء الوفا بأخبار دار المصطفى ج ٤ ص١١٨٦
١٣ = = المرجع السابق ص١١٨٧
١٤ـ = القلقشندي : صبح الأعشى ج ١ ص٣٤٦
١٥ـ = كحالة : معجم قبائل العرب ج ٢ ص٥٤٣
١٦ـ انظر السمهودي : وفاء الوفا ج ٤ ص١١٢٤

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الخصبة ذو رولان[١] وهو من أودية المدينة به قرى كثيرة تنبت النخل . كما كان في بلادهم معدن ذهب[٢].

واشتركت بنو سليم في الحروب التي استعرت نيرانها بين الزبيرية والمروانية وقتل خلق كثير منهم فيها[٣].

ومن القبائل التي انتشرت حول مكة من قيس : بنو عقيل وبنو هلال وبنو نمير وبنو نصر، ومن كنانة : غفار ودوس وبنو ليث وخزاعة وخثعم وحكم والأزد[٤]، وذكر الاصطخري[٥] أن بكر بن وائل انتشرت بين مكة والمدينة، ((وأما نواحي مكة ، فان الغالب نواحيها مما يلي المشرق بنو هلال وبنو سعد في قبائل هذيل)) . أما السمهودي[٦] فذكر أن ودّان كانت قرية من نواحي الفرع لضمرة وغفار وكنانة، كما كانت بدر منزلا وماء لبني غفار[٧].

أما بنو عامر بن صعصعة وهم من هوزان ، فكانوا يتصيفون بالطائف لطيبها وثمارها ويشتون في نجد[٨]، ولكن أهم من سكن الطائف هم ثقيف بنو قسي بن منبه بن بكر بن هوزان[٩]، ومنهم كان أهم ولاة الأمويين[١٠]، كما سكن الطائف قوم من حمير وقوم من قريش[١١]. والطائف على ظهر جبل غزوان[١٢]، وبغزوان ديار بني سعد وسائر قبائل هذيل[١٣]، وقبيلة هذيل متسعة لها بطون كثيرة[١٤]، نزل بعضها ناحية بطن نخل[١٥]، وجبلي برد وذكا[١٦].

وكذلك كانت خزاعة كثيرة البطون أشهرها : بنو المصطلق[١٧]، بنو كعب[١٨]، بنو عدي[١٩]، بنو مليح[٢٠]، بنو عوف[٢١]، وقد نزلت بأنحاء مكة في مر الظهران[٢٢]، وجبل الابواء[٢٣]، وقديد ونواحي خليص[٢٤].

وكانت خزاعة قد حاربت مع علي بن أبي طالب في وقعة صفين[٢٥].

١ـ انظر السمهودي : وفاء الوفا ج ٤ ص ١٢٩٢
٢ـ انظر ابن حزم : جمهرة أنساب العرب ص ٢٦٢
٣ـ انظر كحالة : معجم قبائل العرب ج ٢ ص ٥٤٥
٤ـ انظر اليعقوبي : البلدان ص ٧٥
٥ـ انظر المسالك والممالك ص ٢٥ تحقيق محمد جابر عبد العال الحيني ١٩٦١م
٦ـ انظر وفاء الوفا ج ٤ ص ١١٤٥
٧ـ انظر القلقشندي : صبح الاعشى ج ١ ص ٣٤٠
٨ـ انظر كحالة : معجم قبائل العرب ج ٣ ص ٧٠٩
٩ـ انظر اليعقوبي : ص ٧٥ ، ابن حزم : جمهرة أنساب العرب ص ٢٦٦
١٠ـ انظر ياقوت : معجم البلدان ج ٤ ص ٩
١١ـ انظر الاصطخري : المسالك والممالك ص ٢٤
١٢ـ انظر القلقشندي : صبح الاعشى ج ١ ص ٣٤٩
١٣ـ بطن نخل : قرية قريبة من المدينة . انظر ياقوت : معجم البلدان ج ٤ ص ٩ اليعقوبي : ص ٧٣

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ومن بني عامر بن صعصعة بن هوازن كان بنو كلاب ينزلون بين المدينة ووادي القرى سيما حرة ليلى حيث النخل والعيون[١]، وكانت من ديارهم كذلك حمى ضرية وحمى الربذة في جهات المدينة وفدك والعوالي[٢].

أما قبيلة مزينة فكانت منازلها بين المدينة ووادي القرى[٣]، في نواحي الروحاء[٤]، والعرج[٥] والعمق والفرع[٦]، وهي قرية من نواحي المدينة لقريش والأنصار ومزينة.

ونزلت بطون من طيء نجد والحجاز مايلي وادي القرى وجبلي أجا وسلمى وناحية فيد وتيماء[٧] كما سكن بعضهم في المدينة[٨]، ونزل تربة وبيشه قرب مكة بنو هلال[٩]، ونزلت خثعم مابين بيشه وتربة[١٠]، وظهر تبالة، وما صاقب تلك البلاد وما والاها فانتشروا فيها، وفي سنة سبع وثلاثين هجرية انقسمت خثعم الى فرقتين: فرقة حاربت مع علي[١١]، وحاربت الفرقة الثانية مع معاوية. أما غطفان فكانت قبيلة كثيرة الشعوب والبطون، وكانت منازلها مايلي وادي القرى وجبلي طيء أجا وسلمى[١٢]، ومن بطونها كانت أشجع التي سكنت المدينة وضواحيها[١٣]، وارتبطت مع أهل المدينة في حلف قبل الاسلام، كما اشتركت في معركة الحرة ضد الأمويين ومنهم معقل بن سنان الذي قتل في موقعة الحرة فقيل فيه:

وأصبحت الأنصار تبكي سراتها ... وأشجع تبكي معقل بن سنان[١٤]

ولأشجع موضع عرفيا الجر كانت فيه بينهم وبين سليم بن منصور وقعة.[١٥]

١- انظر السمهودي: وفاء الوفا ج ٤ ص ١١٨٧
٢- = القلقشندي: صبح الأعشى ج ١ ص ٣٤٠
٣- انظر اليعقوبي: البلدان ص ٧٣
٤- = المرجع السابق نفس الصفحة.
٥- انظر ياقوت: معجم البلدان ج ٤ ص ١٥٦
٦- انظر المرجع السابق ص ٢٥٢
٧- انظر ابن رسته: الأعلاق النفيسة ص ١٧٦
٨- انظر القلقشندي: صبح الأعشى ج ١ ص ٣٢٤
٩- انظر ياقوت: معجم البلدان ج ٢ ص ٢١
١٠- انظر المرجع السابق ج ١ ص ٥٢٩
١١- انظر كحالة: معجم قبائل العرب ج ١ ص ٣٣٢
١٢- انظر القلقشندي: صبح الأعشى ج ١ ص ٣٤٤
١٣- انظر المرجع السابق ص ٣٤٤

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ومن القبائل العظيمة في الحجاز كانت جهينة[1]، وامتدت منازلها الى ينبع ورضوى[2]، وذكر الهمداني[3]، أن ديار جهينة انتشرت من حدود رضوى والأشعر الى واد مابين نجد والبحر[4]، أي أنها سكنت المنطقة الممتدة على الساحل من جنوبي دير بلي حتى ينبع[5].

وفي صحيح مسلم[6] أن النبي، صلى الله عليه وسلم، قال: ((الأنصار ومزينة وجهينة وغفار وأشجع، ومن كان من بني عبدالله، موالي[7] دون الناس، والله ورسوله مولاهم)).

أما كنانة التي أشرنا الى أن ديارها كانت تنتشر حول مكة[8]، فكان من بطونها بنو عبد مناه بن كنانة وبنو مالك بن[9] كنانة وبنو الليث بن عبد مناه وعدد اليعقوبي من بلادهم[10] سقيا بني غفار وغفان ومر الظهران. كما ذكر السمهودي[11]، أن بعض هذه البطون سكن بالبزواء التي بين الجار ووداان وغيقة[12].

أما بنو أسلم بن افصى فقد سكنوا الأبواء، ووهرة وهي قرية ذات نخيل من أعراض المدينة[13]، وسكن حمى فيد أخلاط من أسد وهمدان[14].

أما أشهر من سكن المدينة ((فالمهاجرون والأنصار والتابعون وبها قبائل العرب من قيس ابن عيلان من مزينة وجهينة وكنانة وغيرهم))[15]. من أخلاط الناس والموالي والرقيق. وفي سفح

١- انظر القلقشندي: صبح الأعشى ج ١ ص ٣١٦
٢- انظر السمهودي: وفاء الوفا ج ٤ ص ١٣٣٤
٣- انظر المرجع السابق ص ١٢١٨
٤- انظر صفة جزيرة العرب ص ١٣٠
٥- انظر كحالة: معجم قبائل العرب ج ١ ص ٢١٤
٦- صحيح مسلم ج ٤ ص ١٩٥٤ ((كتاب فضائل الصحابة))
٧- بنو عبدالله: قوم من غطفان. انظر المرجع السابق نفس الصفحة
٨- انظر كحالة: معجم قبائل العرب ج ٣ ص ٩٩٦ - ٩٩٧
٩- في جمهرة أنساب العرب لابن حزم ص ١١ ملك
١٠- البلدان ص ٧٣
١١- انظر وفاء الوفا ج ٤ ص ١١٤٧ - ١١٤٨
١٢- انظر اليعقوبي: البلدان ص ٧٣
١٣- انظر ياقوت: معجم البلدان ج ٥ ص ٣٥٩
١٤- انظر السمهودي: وفاء الوفا ج ٣ ص ١١٠٢
١٥- اليعقوبي: البلدان ص ٧٢

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

صلح بيوتات من لبن لسكنى الأكارية ، وبيوتا من الشعر لسكنى بعض المنقطعين من أهل البادية .(١)

والأنصار هم الأوس والخزرج من ولد ثعلبة بن عمرو مزيقياء بن عامر من الأزد . وهم أهل عز ومنعة ، نصروا النبي ، صلى الله عليه وسلم وآووه ، ووصفهم دخيل النسابة فقال : ((هم الفارسون للخيل والمطعمون في المحل والقائلون بالعدل)) .(٢) وكانت مدينتهم عاصمة الدولة الاسلامية في عهدها الزاهر ، ثم انتقلت العاصمة الى الأمصار ، وبقيت المدينة مقر اللارستقراطية العربية ، وللأنصار بقايا كثيرة متفرقة بالمشرق والمغرب .(٣)

وكانت قبيلة غزارة بن ذبيان بن بغيض من عظفان ، تنزل في نواحي وادي القرى والأكادر والجناب التي تقع بين المدينة وفيد ،(٤) أما قبيلة بجيلة فقد شاركت خثعم منازلها في سروات اليمن والحجاز الى تبالة ، كما سكنت الأعوص ، وهي على أميال يسيرة من المدينة بنو حصن وهم من باهلة ،(٥) كما كان لعك بن عدنان أرض تدعى الأغلاب بين مكة والساحل .(٦) ولبلي بقايا بالحجاز وأكثر أهل سميراء والحاجز من عبس .(٧) وذكر أن بني أسد بن ربيعة نزلوا بخيبر من ضواحي المدينة .(٨)

هذه هي أهم القبائل والجماعات العربية التي استوطنت الحجاز والتي تنوعت حياتها الاجتماعية بتنوع البيئة الطبيعية ((فهناك دائما هذا الأسلوب من العيش الرعوي حيث ينبت المرعى وتسام الأبل وهذا الأسلوب من العيش الزراعي حيث تفلح الأرض وتلقى البذور ، وبالتالي هناك هذا الأ-

---

١ـ مؤلف مجهول : وصف المدينة المنورة ص ١٠ مخطوط بدار الكتب المصرية برقم ١٦٤٤

٢ـ انظر ابن حزم : جمهرة أنساب العرب ص ٣٣٢

٣ـ انظر ابن عبد ربه : العقد الفريد ج ٣ ص ٢٥٤

٤ـ انظر المرجع السابق ص ٢٤٩

٥ـ انظر فلهوزن : تاريخ الدولة العربية ص ٣٧ .

٦ـ انظر القلقشندي : صبح الاعشى ج ١ ص ٣٢٠

٧ـ ابن حزم : جمهرة أنساب العرب ص ٢٥٥ دار المعارف ١٩٧١

٨ـ القلقشندي : صبح الأعشى ج ١ ص ٣٤٥

٩ـ ياقوت : معجم البلدان ج ١ ص ٢٣٩ ج ٢ ص ١٦٤

١٠ـ السمهودي : وفاء الوفا ج ٤ ص ١١٧٩

١١ـ كحالة : معجم قبائل العرب ج ١ ص ٦٣

١٢ـ ياقوت : معجم البلدان ج ١ ص ٢٢٣

١٣ـ المرجع السابق ص ٢٢٢

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

من التنقل والاستقرار من حياة البادية وحياة الحضر))[١].

ولم تأخذ القبائل العربية في مناطق سكناها بالحجاز ابان العصر الأموي وفي حلها وترحالها لم تأخذ شكلا ثابتا مستقراخاصة وأن ذلك العصر كان عصر تمخض وفتوح وارساء قواعد اجتماعية جديدة.

كما نلاحظ أن استقرار القبائل في مدن الحجاز قد خفف الى حد كبير من الروابط القبلية المعروفة فعاش الناس جنبا الى جنب، وارتبطوا بعلاقات اجتماعية ساعدت مع الظروف الحياتيه اليومية في ايجاد الأحساس بالولاء للمدينة التي سكنوها، واشتهر قول: أهل المدينة[٢]، وأهل مكة[٣] وأهل الطائف[٤] بل وتجاوزا ذلك الى القطر كله والنسبة اليه كقولهم أهل الشام، أهل العراق أهل الحجاز[٥]. كما أن بروز شخصية الدولة غذى هذا الاتجاه، ونماه فقوة الدولة وهيبة ولاتها قد أضعف من عصبية القبائل، وكان ذلك من عوامل الاستقرار والاختلاط في المدن والأمصار. وقيل في هذا الصدد: ((ان سلطة القبائل السياسية وروابطها القائمة على أساس علاقة الدم تأثرت كثيرا بعد استقرارها في المصر وخضوعها لسلطة الأمير العليا التي لم تكن تستمد قوتها من رابطة الدم))[٦].

ب- الموالي

وجانب القبائل العربية عاش في الحجاز مجموعة من السكان عرفوا بالموالي[٧]، وأمدت الفتوحات وأسواق النخاسة هذا الصنف من السكان، وهؤلاء اذا ما أسعدهم الحظ أصبحوا بعد اعتاقهم موالي. فللمالك أن يعتق عبده، أو اماءه وهؤلاء ((بعد العتق يصبحون موالي لأسيادهم العرب[٨]. كما أن أهل البلاد المفتوحة حينما كانوا يسلمون ينضمون الى العرب ويدخلون في خدمتهم ويتحالفون معهم[٩] لكي يعتزوا بشوكتهم وقوتهم وبذلك يصبحون موالي أيضا بالحلف والموالاة.

١- شكري فيصل: المجتمعات الاسلامية في القرن الأول ص١٦-١٧ بيروت ١٩٧٣

٢- انظر الطبري: تاريخ ج ٥ ص ٤٨٧

٣- انظر ياقوت: معجم البلدان ج ٤ ص ٩

٤- انظر الدياربكري: تاريخ الخميس في أحوال أنفس نفيس ج ٢ ص ١١١

٥- انظر البلاذري: أنساب الأشراف ج٤ ص ٣٧٨، القلقشندي: صبح الأعشى ج ١ ص ٢٦٤

٦- صالح العلي: التنظيمات الاجتماعية والاقتصادية في البصرة ص ٥٦

٧- الولى: القرب والدنو. والمولى: المالك والعبد والمعتق والصاحب والقريب كابن العم ونحوه والجار والحليف والنزيل والشريك... انظر الفيروز آبادي: القاموس ج ٤ ص ٤٠٠ وقد ينضم الرجل الى غير قبيلته بالحلف والموالاة فينسب اليهم، فيقال: فلان حليف بني ... أو مولاهم. انظر القلقشندي: صبح الأعشى ج ١ ص ٣٠٠

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وترتب على صلة الولاء هذه حقوق وواجبات، واحتوى التنظيم القبلي الذي ينص على : أن القبيلة هي الوحدة الاجتماعية(١)، احتوى هذا التنظيم الموالي، فكان موالي القبيلة ينسبون اليها ويحاربون معها(٢)، اضافة الى استخدامهم في شئونها(٣). ويشاركون في دفع دية القتل الخطأ الذي قد يرتكبه أي فرد من أفرادها. قال مالك(٤) ((أنما العقل على القبائل أهل ديوان كانوا أو غير أهل ديوان)). كما استفاد الموالي من حماية العرب ـ القبائل ـ لهم(٥)، وكل من السيد والمولى يرث الآخر اذا لم يكن له وريث وقيل : الرجل من أبيه والمولى من مواليه(٦). كما تمتع الموالي بممارسة الحقوق المدنية التي تمتع بها الأحرار(٧). وهم مساوون للعرب نظريا.

عاش الموالي في الحجاز بجانب القبائل العربية، وذكر المقدسي(٨) أن أكثر أهل جدة كانوا من الفرس ولهم بها قصور عجيبة وكانت لغتهم عربية، هذا وقد وردت الاشارة الى الموالي منذ حوادث الاسلام الأولى، ووردت الاشارة اليهم في الكتاب الذي عقده النبي صلى الله عليه وسلم بين المسلمين في المدينة ومن سكنها من اليهود(٩)، كما اشترك بعض الموالي في غزوة بدر، وفرض لهم عمر بن الخطاب في العطاء(١٠).

ساوى الخلفاء الراشدين بين العرب والموالي في العطاء، فكان أبو بكر الصديق يقسم العطاء بين الناس بالتساوي دون تمييز بين العرب والموالي فلم يفضل أحدا على أحد(١١). وكتب عمر ابن الخطاب لأمراء الأجناد : ((ومن أعتقتم من الحمراء فأسلموا فألحقوهم بمواليهم لهم مالهم وعليهم ما عليهم وان أحبوا أن يكونوا قبيلة وحدهم فاجعلوهم أسوتهم في العطاء))(١٢). وعنف الفاروق أحد عماله حين فضل العرب على الموالي، فأعطى العرب وترك الموالي. فكتب اليه : ((أما بعد فبحسب المرء من الشر أن يحقر أخاه المسلم والسلام))(١٣). أما عثمان فكان يعطي الموالي والعبيد نصيبهم من

١ـ انظر ديموميين : النظم الاسلامية ص ١٥٣
٢ـ انظر ابن خلدون : المقدمة ج ٢ ص ٥٩٧
٣ـ انظر أحمد أمين : فجر الاسلام ص ٩٠
٤ـ مالك بن أنس : المدونة الكبرى ج ٦ ص ٣٩٧ طبعة دار صادر بيروت
٥ـ Nicholson: ALiterary History of the Arabs.Page2I9
٦ـ الشافعي : كتاب الأم ج ٨ ص ١٣٩ واشترط الشافعي لذلك في الأرث المولى المعتق وانظر كذلك المبرد : الكامل ج ٤ ص ١٥
٧ـ انظر Lewis, BErnard : The Arabs in History .page 70
٨ـ انظر المقدسي : أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم ص ٧٩ تحقيق دي غويه ليدن ١٩٠٩
٩ـ انظر ابن هشام : السيرة النبوية القسم الأول ص ٥٠٢
١٠ـ انظر البلاذري : فتوح البلدان ص ٥٦٣

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

المعطاء (١)، وساوى علي بين الموالي والعرب في العطاء وقال لمن احتج عليه ذلك: ((قرأت ما بين الدفتين - يعني القرآن - فلم أجد لولد اسماعيل على ولد اسحاق فضل هذا على هذا، وأخذ عود من الأرض، فوضعه بين أصبعيه)) (٢). واقتدى عمر بن عبد العزيز بالخلفاء الراشدين فجعل العرب والموالي في الرزق والكسوة والمعونة سواء (٣).

وقد شارك الموالي أهل الحجاز حياتهم في السراء والضراء، وأصيب منهم عدد كبير في موقعة الحرة سنة ثلاث وستين حين اشتركوا مع أهل المدينة ضد الجيش الأموي بقيادة يزيد بن هرمز أحد الموالي (٤)، وكنت قد أشرت الى موقفهم من حركة عبد الله بن الزبير.

ورغم موقف الخلفاء الراشدين من الموالي واشتراك هؤلاء في كثير من جوانب الحياة اليومية الحجازية ومساواة الاسلام بين جميع معتنقيه بغض النظر عن الجنس واللون اذ جعل العقيدة رابطة تقوم مقام الدم والنسب جاعلا الفضل للأتقى. رغم كل هذه الأمور نظر العرب الى الموالي في العصر الأموي على أنهم أدنى منهم رتبة وأقل مكانة ((فكانوا لا يكنون الموالي بالكنى ولا يدعونهم الا بالاسماء والألقاب، ولا يمشون في الصف معهم ولا يتقدمونهم في الموكب، وان حضروا طعاما قاموا على رؤوسهم وان أطعموا المولى لسنه وفضله وعلمه أجلسوه في طرف الخوان لئلا يخفى على الناظر أنه ليس من العرب ولا يدعونهم يصلون على الجنائز اذا حضر أحد من العرب... وكان الخاطب لا يخطب امرأة منهم الى أبيها ولا الى أخيها وانما يخطبها الى مواليها)) (٥).

ورسم المبرد (٦) صورة أخرى توضح مدى احتقار العرب للموالي فقال: ((وقد كان في قريش من فيه جفوة ونبوة، كان نافع بن جبير أحد بني نوفل بن عبد المطلب، اذا مر عليه بالجنازة سأل عنها، فان قيل: قرشي. قال: وأقوماه! وان قيل: عربي. قال: وامادتاه! وان قيل: مولى أو عجمي، قال: اللهم هم عبادك تأخذ منهم من شئت وتدع من شئت)).

ولم تقتصر تلك النظرة على الأفراد بل شاركت الدولة الأموية نفسها في تفضيل العرب على الموالي في شغل المناصب السياسية والادارية (٧) وأرغموا على دفع الجزية في بعض الأحيان (٨)، كما كان عليهم أن يحملوا اختاما في أعناقهم أو أيديهم تميزهم عن غيرهم من الناس (٩).

١- انظر الطبري: تاريخ ج ٤ ص٢٧٤، ٢٧٨
٢- اليعقوبي: تاريخ ج ٢ ص١٨٣
٣- انظر ابن سعد: الطبقات ج ٥ ص ٢٧٥
٤- انظر البلاذري: أنساب الأشراف ج ٤ ق٢ ص٣٥، ابن سعد: الطبقات ج ٥ص ٢٨٤
٥- ابن عبد ربه: العقد الفريد ج ٣ ص٣٢٦
٦- الكامل في اللغة والأدب ج ٤ ص ١٥

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

(١)

واُطلقت عليهم أسماء : كالنبط ،والحمراء ، والموالي ، وغيرها من الأسماء ، في حين أن من يدعو عربيا بالنبطي أو ياحبشي أو يا فارسي أو يارومي أو يابربري كان يضرب الحد في قول مالك .(٢)

وقد يتزوج العربي من نساء الموالي ، ولكنهم لايرون حقا للموالي في التزوج من العربيات ويأنفون من ذلك ويأبونه . ذكر المبرد (٣) أن أعرابيا قال لآخر : ((أترى هذ ، العجم تنكح نساء نا في الجنة؟ قال : أرى ذلك والله بالأعمال الصالحة . قال توطأ والله رقابنا قبل ذلك)) . وكان المولى اذا تزوج بعربية تعرض للمقتة والاهانة ،وفي الحجاز ((قدم أعراب من بني سليم أقحمتهم السنة الى الروحاء فخطب الى بعضهم رجل من الموالي من أهل الروحاء ، فزوّجه أهلها فركب محمد بن بشير الخارجي الى المدينة ووالياها يومئذ ابراهيم بن هشام بن اسماعيل .... فاستمداه الخارجي على المولى . فأرسل ابراهيم اليه والى النفر . وفرّق بين المولى وزوجته وضربه المسلمين مائتي سوط ،وحلق رأسه ولحيته وحاجبيه ، فقال محمد بن بشير في ذلك :

قضيت بسنة وحكمت عدلا ... ولم ترث الحكومة من بعيد
وفي المائتين للمولى نكال ... وفي سلب الحواجب والخدود (٤)
فأي الحق أنصف للموالي ... من اصهار المبيد الى العبيد))

وكان أكثر أهل المدينة يكرهون الزواج من الاماء حتى نشأ فيهم علي بن الحسين ، والقاسم ابن محمد ، وسالم بن عبد الله ، وكانت أمهاتهم من بنات الفرس ، فاقوا أهل المدينة فقها وعلما وورعا ، فرغب الناس لذلك في السراري ، (٥) ومع ذلك حين تزوج علي بن الحسين جارية لة وأعتقها ،أتبه عبد الملك بن مروان . (٦) وبقي أبناء الاماء أقل مكانة من أبناء العربيات ، ويطلق على من كان أبوه عربيا وأمه أمة لفظ الهجين . (٧)

قابل الموالي تعصب العرب ضدهم بالسخط ،وظهر ذلك بوضوح في أحداث العصر الأموي ، وانقلب الى قوة حربية تساند الخارجين على الدولة الأموية في العراق . وفي الحجاز ظهر من الشعراء الموالي اسماعيل بن يسار النسائي مولى بني تيم بن مرة ، تيم قريش ، والذي ((كان شعوبيا شديد التعصب للعجم ، وله شعر كثير يفخر فيه بالأعاجم .. ـ كقوله : (٨)

اذ نربي بناتنا وتدسو ... ن سفاها بناتكم في التراب)) .

١ـ انظر المبرد : الكامل ج ٢ ص ١٢٥ ، ابن عبد ربه : العقد ج ٣ ص ٣٢٦ ، ٣٢٨
٢ـ مالك بن أنس: المدونة الكبرى ج ٦ ص ٢٢٧
٣ـ الكامل في اللغة والأدب ج ٤ ص ١٦
٤ـ الأصفهاني : الأغاني ج ١٦ ص ١٠٦ ط دار الكتب المصرية
٥ـ انظر ابن عبد ربه : العقد ج ٧ ص ١٢١ ، المبرد : الكامل ج ٢ ص ١٢٠
٦ـ انظر ابن عبد ربه : العقد ج ٧ ص ١٢١

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وهـــذا دل العرب تعصبا بتعصب . والواقع أن شملة التعصب الجنسي لم تنطفأ بيـــن العرب والموالي طيلة العصر الأموي ، وكانت في النهاية احدى عوامل سقوط بني أمية.

وقد لعب الموالي دورا كبيرا في حياة أهل الحجاز الاجتماعية ، فالفتوحات الظافرة في جبهات القتال المختلفة ترتب عليها كثير من الزيجات ، فقد ((تزوج المهاجرون والأنصار في أهل السواد[1])) . ولم يكن عمر بن الخطاب يرضى عن هذه الزيجات اذ خشي النتائج التي ستترتب عليها فنهى عنها ، وروى أنه ((بعث الى حذيفة بعدما ولاه المدائن وكثر المسلمات : انه بلغني أنسك تزوجت امراة من أهل المدائن من أهل الكتاب فطلقها[2] . فكتب اليه : لا أفعل حتى تخبرني : أحلال أم حرام ، وما أردت بذلك ؟ فكتب اليه : لابل حلال ، ولكن في نساء الأعاجم خلابة ، فان أقبلتم عليهن غلبتكم على نسائكم . فقال : الآن ، فطلقها)). وانقضى عهد عمر بن الخطاب وتغيرت الأحوال ، فامتزجت الدماء العربية بدماء الأمم المفتوحة ، وبالتالي امتزجت النظم الاجتماعية ، وكانت ((الاماء الجواري من الوسائل المهمة لنقل حضارة الأمم المختلفة ووسائل الترف الأخرى الى بيوت العرب وتعليمهم طهي أنواع كثيرة من الطعام فضلا عن جلبهن الملابس الزاهية الجميلة ، كما نقلن الشيء الكثير من عادات وتقاليد بلادهن[3])) . خاصة وأن بعضهن كن من طبقات اجتماعية راقية . وظهر بوضوح أثر الموالي في الحياة الاجتماعية في دورهم الذي قاموا به في الحياة الفنية الحجازية حين اشتهر منهم في الغناء كثيرون ترجم الأصفهاني في الأغاني للمغنين منهم واهتم بأخبارهم وأصواتهم من أمثال : طويس وسائب خاثر والدلال ومعبد وابن عائشة ويونس الكاتب وابن مسجح وابن محرز وابن سريج والغريض اضافة الى النساء ممن أشرت لهن فيما سبق .

واقتبس هؤلاء من موسيقى وغناء الفرس والروم ونقلوه الى العربية ، ونقلوا من حضارتهم السابقة الى أسيادهم العرب وساعدهم في ذلك أن العرب لم يوصدوا الباب أمام الحضارات التي كانت قبلهم[4] من جهة ، واختلط الموالي بالسكان وقاموا لهم بادارة الأعمال من جهة أخرى كالذي روى أن سعد مولى معاوية بن أبي سفيان كان يلي أموال سيده بالحجاز . وكان معاوية يقول : أغبط الناس عيشا مولاي سعد ، يتربع في جدة ، ويتقيظ بالطائف ويشتو بمكة[5] ، ولم يكن مولى معاوية هو الوحيد الذي عاش في رغد من العيش فقد تولى الموالي بعض المناصب في الحجاز كعبد الرحمن بن أبزى مولى خزاعة الذي كان كاتبا لعامل مكة في عهد أبي بكر وعمر بن الخطاب[6] كما كان كثير من حجاب الخلفاء الأمويين منهم[7] ، وتولى سليمان بن يسار مولى ميمونة سوق المدينة لعمر بن عبد العزيـــز

١ــ الطبري : تاريخ ج ٣ ص ٥٨٨

٢ــ المرجع السابق نفس الصفحة

٣ــ محمد حسين الزبيدي : الحياة الاجتماعية والاقتصادية في الكوفة ص ٨٩

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

في خلافة الوليد بن عبد الملك[1]، وأسند هشام بن عبد الملك كتابة ديوان المدينة الى الموالي[2].

هذا وكان بعض الموالي يقومون بالمهن الحرة كالتجارة[3]، أو الصنائع ((كالقصارين والصواغين والخياطين[4])) والحرف اليدوية الأخرى. ومن مصادر عيشهم كما كانوا ينالونه من العطاء والرزق[5]. ويظهر أن الحجاز كانت محط أنظار الموالي فاتجهوا اليها حين اشتد عسف ولاة العراق لهم[6]. وظهر كثير من الموالي في الحجاز فكان من الشعراء زياد الأعجم مولى عبد القيس[7] وأبو العباس الأعمى وهو من الموالي الذين كسان هواهم في بني أمية[8]، ويزيد بن ضبة مولى ثقيف[9]، وفي المدينة كان من أسرة يسار أكثر من شاعر. وكان يونس الكاتب مولى لعمرو بن الزبير وكان أبوه فقيها فأسلمه في الديوان وكان من كتابه[10].

وبرع كثير من الموالي في العلوم الدينية فكان سليمان بن يسار مولى ميمونة بنت الحارث زوج النبي - صلى الله عليه وسلم[11] وكان عالما فقيها[12]. وكان نافع مولى عبد الله بن عمر من رواة الحديث[13]. أما ربيعة بن أبي عبد الرحمن الذي يقال له ربيعة الرأي مولى التميميين فقد كان من فقهاء أهل المدينة وحفاظهم كما اشتهر من تلاميذ ابن عباس مجاهد بن جبر في التفسير وهو مولى لبني مخزوم[14]. أما عكرمة فقد مات سيده وهو عبد ((فاشتراه خالد بن يزيد بن معاوية من علي ابن عبد الله بن عباس بأربعة آلاف دينار، فبلغ ذلك عكرمة فأتى عليا، فقال : بعتني بأربعة آلاف دينار؟ قال : نعم، قال : أما انه ماخير لك، بعت علم أبيك بأربعة الآف دينار! فراح علي الى خالد فاستقاله فأقاله فأعتقه))[15]. وكان طاووس بن كيسان من خاصة تلاميذ ابن عباس ثم[16]

١- انظر ابن سعد، ج ٥ ص ١٧٥
٢- انظر ابن حبيب : المحبر ص ٣٧٨
٣- انظر ابن سعد : الطبقات ج ٥ ص ٤١٤، الأغاني ج ١ ص ٤٠٢ ط الهيئة ج ٤ ص ٤٠٨ ط دار الكتب
٤- انظر مالك بن أنس: المدونة الكبرى ج ٦ ص ١٥٣
٥- انظر Nicholson ; A Literary History of The Arabs , Page 219
٦- انظر البلاذري : فتوح البلدان ص ٥٥٧، ٥٦٤
٧- انظر الطبري : تاريخ ج ٦ ص ٤٨١، ٤٨٨
٨- انظر الأصفهاني : الأغاني ج ١٥ ص ٥٧ ط دار الكتب
٩- انظر ابن سعد : الطبقات ج ٥ ص ٤٤٧
١٠- انظر الأصفهاني : الأغاني ج ٤ ص ٤٢٧ ط دار الكتب
١١- انظر النويري : نهاية الأرب في فنون الأدب ج ٠ ص ٢٩٢
١٢- انظر ابن سعد : الطبقات ج ٥ ص ١٧٤
١٣- انظر ابن قتيبة : المعارف ص ٤٥٩

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

كان من سادة التابعين ومن فقهاء مكة ومفتيها [1] . أما عطاء بن أبي رباح مولى أبي ميسرة الفهري [2] فكان من أعلم الناس بمناسك الحج [3] ، وغير هؤلاء كثيرون من العلماء الموالي ، ولم يقتصر هذا الحال على موالي الحجاز فحسب بل اشتهر كثير منهم في العلم في أمصار الدولة الاسلامية المختلفة ، يدل على ذلك ماروا ه صاحب العقد [4] الذي قال : قال ابن أبي ليلى : ((قال لي عيسى بن موسى وكان جائرا شديد العصبية : من كان فقيه البصرة؟ قلت : الحسن بن أبي الحسن . قال : ثم من ؟ قلت : محمد بن سيرين . قال : فماهما ؟ قلت : مولیان .

قال : فمن كان فقيه مكة؟ قلت عطاء بن أبي رباح ، ومجاهد بن جبر ، وسعيد بن جبير ، وسليمان بن يسار . قال : فماهولاء ؟ قلت موالي .

فتغير لونه ، ثم قال : فمن أفقه أهل قباء ؟ قلت : ربيعة الرأي ، وابن أبي الزناد ، قال : فما كانا ؟ قلت من الموالي .

فأربد وجهه ، ثم قال : فمن كان فقيه اليمن ؟ قلت طاووس ، وابنه وهمام بن منبه . قال : فما هؤلاء ؟ قلت من الموالي .

فانتفخت أوداجه فانتصب قاعدا ، ثم قال : فمن كان فقيه خراسان ؟ قلت عطاء بن عبد الله الخراساني . قال : فما كان عطاء هذا ؟ قلت : مولى .

فازداد وجهه تربدا ، واسود اسودادا حتى خفته ، ثم قال : فمن كان فقيه الشام؟ قلت : مكحول . قال فما كان مكحول هذا ؟ قلت : مولى .

فازداد تغيظا وحنقا ، ثم قال : فمن كان فقيه الجزيرة؟ قلت : ميمون بن مهران . قال : فما كان قلت : مولى .

قال فتنفس الصعداء ، ثم قال : فمن كان فقيه الكوفة ؟ قلت : فوالله لولا خوفه لقلت : الحكم ابن عيينة ، وعمار بن أبي سليمان ، ولكن رأيت فيه الشر فقلت : ابراهيم ، والشعبي . قال : فما كانا ؟ قلت عربيان . قال : الله أكبر وسكن جاشه)) [5] .

ولقد لفتت كثرة العلماء من الموالي نظر عبد الرحمن بن خلدون ، فعقد فصلا ((في أن حملة العلم في الاسلام أكثرهم العجم)) .

ذلك أن الموالي كثروا في بيوت العرب وشاركوا الناس في أعمالهم ، فاذا كان العربي ((تاجرا فمواليه أعوانه في التجارة ، واذا كان عالما كانت مواليه تلاميذه وأعوانه في العلم ، ومتى كان عند هم

١ـ ابن سعد : الطبقات ج ٥ ص ٢٨٧

٢ـ انظر ابن القيم الجوزية : أعلام الموقعين ج ١ ص ١٩

٣ـ انظر ابن الجوزي : صفة الصفوة ج ٢ ص ١١٩

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

حسن استعداد نبغوا فيه بحكم مخالطتهم لسادتهم في السر والعلن ، وملازمتهم لهم في الاقامة والسفر ، ودليلنا على ذلك نافع مولى عبد الله بن عمر فقد أخذ عنه أكثر علمه)) (١) . وبجانب هذا أقبل الموالي على العلم لأسباب أخرى كالأسباب الدينية والاجتماعية . وكان أمثال هؤلاء العلماء محل تقدير الناس واحترامهم .

وتوضح الأمثلة التي ذكرنا اشتراك الموالي في الحياة الاجتماعية والحضارية ، كما كان لهم أثر واضح في الأحداث السياسية في العصر الأموي ، وقد أشرت الى اشتراك الموالي بقيادة يزيد ابن هرمز (٢) في موقعة الحرة التي قتل خلق منهم فيها (٣) ، ويبدو أثرهم بوضوح حين ثار المختار ابن أبي عبيد في وجه خلافة ابن الزبير فانضم له عدد كبير من موالي العراق ، فأخرج ولاة ابن الزبير من الكوفة (٤) . وأكثر من هذا أنه بعث جيشا لقتال ابن الزبير بقيادة شرحبيل بن ورس وكان اكثر هذا الجيش من الموالي ((ليس فيهم من العرب الا سبعمائة رجل)) (٥) . وأمره أن يمضي الى مكة حتى يحاصر ابن الزبير ويقاتله ، فبعث ابن الزبير عباس بن سهل بن سعد في ألفين فقضى على جيش المختار (٦) . ولم يتمكن ابن الزبير من القضاء على حركة المختار حتى تضعضعت قواه أمام خصومه الأمويين .

ويبدو أن بخل ابن الزبير قد صرف عنه الناس ومن بينهم الموالي فلم يشبع رغبتهم بالعطاء والصلات فعبّروا عن خيبة أملهم بهذين البيتين :

ان الموالي أمست وهي عاتبة على الخليفة تشكو الجوع والحربا (٧)
اخوانكم ان بلاه حل ساحتكم ولا ترون لنا في غيره نسبا (٨) .

واعتمد ابن الزبير في حكومته على العرب دون الموالي فعابوه وقال أحدهم وهو ابو حرة مولى أسلم : ما أرانا سفكنا الدماء وقاتلنا الناس الا لتملك (٩) .

وعلى أي حال كان للموالي أثر لاينكر سواء في اختلاط الأجناس أم في اختلاط الحضارات ، على أرض الحجاز .

١ـ أحمد أمين : فجر الاسلام ص ١٥٥
٢ـ انظر البلاذري : أنساب الاشراف ج ٤ ق ٢ ص ٣٥
٣ـ انظر ياقوت : معجم البلدان ج ١ ص ٢١٥ مادة حرة
٤ـ انظر ابن كثير : البداية والنهاية ج ٨ ص ٢٦٦ ومابعدها
٥ـ الطبري : تاريخ ج ٦ ص ٧٣
٦ـ انظر ابن الأثير : الكامل ج ٤ ص ٢٤٨
٧ـ حرب حربا من باب تعب أخذ جميع ماله فهو حريب . المقري الفيومي : المصباح المنير ج ١ ص ١٧٤ وانجمعة حمزة فتح الله . المطبعة الأميرية ١٩٢٨ م .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

جـ- الرقيـق.

كان في بلاد الحجاز قبل الاسلام رقيق يقومون على خدمة السادة، وهم من أجناس شتى وكذلك كانوا في الاسلام، فكان مالك بن أنس(١) يقول: ((الحمران من الرقيق أحب الي من السودان)). وملك الأثرياء الرقيق اذا كانوا ضرورة لازمة للاقتصاد والنظام الاجتماعي حين ذاك(٢).

وقد عني الاسلام بالرقيق رغم أنه لم يلغ هذا التنظيم الاجتماعي السائد يوم ذاك، ومن عناية الاسلام بتحسين أحوال الرقيق ما نزل الله سبحانه ((واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا وبالوالدين احسانا وبذي القربى واليتامى والمساكين والجار ذي القربى والجار الجنب والصاحب بالجنب وابن السبيل وما ملكت أيمانكم، ان الله لايحب من كان مختالا فخورا))(٣). كما جعل اعتاق الرقيق مقربة يتقرب بها المسلم الى الله وورد في الحديث: ((أيما رجل أعتق امرأ مسلما استنقذ الله بكل عضو منه عضوا منه من النار))(٤). فكان من الناس من يعتق، كرما منه، عتقا كاملا ومنهم من كان يعتق على أن يدفع له مبلغ من المال فيما بعد، ويكون هذا بعتق مكتوب أو بكلام شفوي يشهد عليه الشهود أو بأن يعطي الرجل لمملوكه وثيقة شرائه من مالكه قبله، وقد تمنح للعبد حريته اذا أدى شروطا متفقا عليها أو يموت مالكه غالبا .. وقد جعل القرآن عتق رقاب الرقيق كفارة لذنوب كثيرة وقربة من أحسن القرب.(٥)

هذا وقد تدفقت أعداد كبيرة من الرقيق على البلاد خلال الفتوح الاسلامية حين كانت الحجاز مركز تلك الفتوحات، وكان الأسر في الحرب أهم مصادر الرقيق ففي وقعة جلولاء سنة ١٦ هـ أصاب المسلمون اثني عشرة ألف جارية وغلام،(٦) وبلغ سبي قيسارية أربعة آلاف رأس بعث بهم معاوية الى عمر بن الخطاب فقسمهم على يتامى الأنصار وجعل بعضهم في الكتاب والأعمال للمسلمين،(٧) وكان خالد بن الوليد قد فتح عين التمر عنوة فقتل وسبى،(٨) فكان أول سبي قدم المدينة من العجم.(٩) وذكر صاحب الذخائر والتحف أن المسلمين أصابوا بالمدائن مالا عظيما وسبيا كثيرا

١- مالك بن أنس: المدونة الكبرى ج ٦ ص ٤٠٤

٢- انظر جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام ج ٤ ص ١١٨

٣- سورة النساء: آية ٣٦ وانظر عن عناية الاسلام بالرقيق النساء آية ٩٢، المائدة آية ٨٩ والمجادلة آية ٣.

٤- البخاري: الصحيح ج ٣ ص ١٨٨

٥- انظر متز: الحضارة الاسلامية في القرن الرابع الهجري ج ١ ص ٣٠٠

٦- انظر الرشيد بن الزبير: الذخائر والتحف ص ٢٤٥

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

((فأخذ من المدائن وما حولها مائة ألف رأس)) ٠ إ ؟ ٠

واذا كانت الحروب في صدر الاسلام تكاد تكون دائمة ، وكان النصر للمسلمين يكاد يكون متلاحقا مطردا ، والبلاد المفتوحة والأمم المغلوبة لاتكاد تعد ، أمكننا أن نتصور كيف كان الرقيق لايحصى كثرة ، وكيف كان مختلفا متنوعا تنوع الأمم التي اشتبك معها المسلمون في قتال (١) ٠ وذكر بعض الفقهاء أن : الامام مخير في الاسرى : امّا القتل ، وأمّا الاسترقاق ، وامّا الفداء بمال أو بأسرى ، وأما المن عليهم باطلاق سراحهم بغير فداء ، فان أسلموا سقط القتل عنهم ، وأما السبي فهم النساء والأطفال ويكونون سبيا مسترقا اذ لايجوز قتلهم (٢) ٠ وكان المسترقون يعتبرون غنيمة (٣) ٠ تأخذ الدولة الخمس منهم وتوزع الأربعة الأخماس الباقية على المحاربين ٠

وأصاب أهل الحجاز كثيرا من هؤلاء الرقيق والسبايا سواء مما كان يوزعه الخلفاء كالذي ذكر أن الوليد بن عبد الملك قسم بالمدينة رقيقا كثيرا عجما (٤) بين الناس ، كما أمر سليمان بن عبد الملك مثلا لجعفر بن الزبير برقيق من البيض والسودان (٥) ٠ ومن ناله المحاربون في جبهات القتال ولو ذهبنا نتتبع أخبار السبايا والرقيق ممن ناله أهل الحجاز منذ أول الاسلام الى آخر الدولة الأموية لرأينا طوائف عديدة منهم من طبقات اجتماعية شتى ٠

انتشر الرقيق اذن بين المحاربين ودخل بيوتهم ٠ واذا كان الرقيق يعد مالا ، وتجرى عليه كل العقود المالية من بيع وشراء واجارة ورهن أمكننا أن نفهم أنه لم يقتصر على المحاربين بل كان في متناول القادرين من الناس (٦) ٠

كان شراء الرقيق الحمران والسودان أمر واقعا في هذا العصر ((فكان التجار ينزلون بالرقيق من الصقالبة فيشترونهم أهل الاسلام)) (٧) ٠ ومن أراد شراء جارية ((جاز له أن ينظر الى وجهها وكفيها)) (٨) ووجه الى مالك بن أنس سؤال ((أفرأيت ما يستأجر الناس من النخاسين الذين يبيعون لهم الرقيق ويجعلون لهم الجعل على مايبيعون من ذلك ؟ ٠٠٠)) (٩) ومثل هذه الشواهد انما تنبئ عن

١ــ انظر: أحمد أمين: ضحى الاسلام ج ١ ص ٨٢
٢ــ الماوردي : الأحكام السلطانية ص ١٣١ انظر ايضا ابو يعلى : الاحكام السلطانية ص ١٤٣
٣ــ انظر الماوردي : الاحكام السلطانية ص ١٣٤
٤ــ انظر الطبري : تاريخ ج ٦ ص ٤٦٦
٥ــ انظر الأصفهاني : الاغاني ج ١٥ ص ٥
٦ــ انظر أحمد أمين : ضحى الاسلام ج ١ ص ٨٢
٧ــ مالك بن أنس: المدونة الكبرى ج ٤ ص ٢٧١

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

قيمة بيع وشراء الرقيق في تلك الآونة .

واختلفت أثمان العبيد من شخص الى شخص ((وحيث أن المجتمع الحجازي كان يعنى بالشعر الجيد وبالموسيقى الجميلة (١) .. فقد عظمت فيه قيمة الغلمان والجواري الموهوبين المتعلمين)) .

وقد عرض عبد الله بن جعفر عشرة آلاف درهما ثمنا لعبد كان لعلي بن الحسين (٢) . كما اشترى خالد بن يزيد بن معاوية من علي بن عبد الله بن عباس عكرمة بأربعة آلاف دينار (٣) ، ثم راح علي الى خالد فاستقاله فاقاله (٤) . وقيل أن يزيد بن عبد الملك اشترى جارية من مولدات المدينة بأربعة آلاف دينار ، واشترى كذلك سلامة بعشرين ألف درهم (٥) لبراعتها وشهرتها في الغناء (٦) .

ان مهارة العبد الشخصية وكفاءته كانت من الأمور التي تحدد ثمنه ، جاء في الاغاني أن نصيبا الشاعر كان حبشيا أسود اللون أدخل على عبد العزيز بن مروان ((فدعا المقومين ، فقال : قوموا غلاما أسود ليس به عيب . قالوا : مائة دينار . قال : انه راع للابل يبصرها ويحسن القيام عليها . قالوا : حينئذ مائتا دينار . قال : انه يبري القسي ويثقفها ويرمي النبل ويريشها . قالوا : أربعمائة دينار . قال . انه راوية للشعر بصير به . قالوا : ستمائة دينار . قال : انه شاعر لا يلحق حذقا . قالوا : ألف دينار)) .

وكان للحكومة رقيق عرف برقيق الخمس (٧) ، وهؤلاء (٨) نظير خمسها من أسرى الحروب تستعين بهم في قضاء المصالح العامة (٩) ، وربما باعتهم (١٠) . وكانت تدفع لهم مرتبات زهيدة أحيانا (١١) ، اذ لاحظ للماليك في العطاء الجاري ، من بيت المال ، الا الطعام فانه يروى أن عمر كان قد أجراه عليهم .

ان كثرة الأموال في أيدي أهل الحجاز والحياة المترفة التي كانوا يعيشونها قد تركت أثرها الواضح في اقتناء الرقيق فملأت كثرتهم البيوت (١٢) ، وترك الزبير بن العوام ((ألف عبد وأمة)) (١٣) ، وكان لعبد الله بن أبي ربيعة عبيد من الحبشة يتصرفون في جميع المهن وكان عددهم كثيرا ، أما عمر بن أبي ربيعة فكان له في الحوك سبعون عبدا (١٤) سوى غيرهم .

---

١ ـ متز : الحضارة الاسلامية ج ١ ص ٢٨٠ .
٢ ـ انظر البخاري : الصحيح ج ٣ ص ١٨٨ ـ كتاب العتق ـ
٣ ـ انظر ابن سعد : الطبقات ج ٥ ص ٢٨٧
٤ ـ انظر النويري : نهاية الأرب ج ٥ ص ٥٨ ـ ٥٩
٥ ـ انظر المرجع السابق ص ٥٦
٦ ـ الأصفهاني : الأغاني ج ١ ص ٣٤٤ ـ ٣٤٥ ط الهيئة المصرية
٧ ـ انظر ابن سلام : الأموال ص ٤٤٦
٨ ـ انظر البلاذري : فتوح البلدان ص ١٦٨

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وقد عمل الرقيق في مهن مختلفة ،فاشتغل بعضهم في الزراعة حيث استخدمهم الملاك في زراعة الأرض واستصلاحها ، فكانت لعبد الله بن الزبير أرض جعل فيها عددا من العبيد الزنج يعمرونها له ، كما عمل العبيد في رعي الإبل والماشية ، روى الزبير بن بكار (١) (٢) ((لم ينزل بنو عبد الله ابن الزبير : خبيب وحمزة وعباد وثابت عند جدهم منظور بن زبان بالبادية يرعون عليه الإبل كما يفعل عبيده)) (٣) . وذكر أن النصيب الشاعر كان عبدا حبشيا يرعى ابل مواليه في بداية حياته (٤) . ومن الرقيق من عمل في اعداد طعام سيده ، وقد يأذن السيد لعبده بممارسة التجارة ويزوده بمال يدفعه اليه ، وكان مالك لايرى باسا أن يتاجر العبد لنفسه بمال عنده (٥) (٦) . ويساعد العبد سيده في اعماله . فكان معبد المغني يقول : ((كنت غلاما مملوكا لآل قطن موالى بني مخزوم ، وكنت أتلقى الغنم بظهر الحرة . وكانوا تجارا أعالج لهم التجارة في ذلك)) (٧) . وكان لعمرو بن عبد الله بن صفوان رقيق يتجرون ، وكان ذلك مما يعينه على عماله وتوسعه (٨) (٩) .

والعبد ملك لمولاه هو وأسرته وما يملك من مال أو متاع وكان من السادة من يجعل عبده حجاما أو قصابا أو صائغا . ومن الأعمال التي زاولها العبيد الصناعة ، فكانت الولائد بالمدينة ينسجن الريط وهي نوع من الألبسة (١٠) . ومن عبيد أهل الحجاز من كان يعمل نجارا (١١) .

وهكذا ساهم الرقيق بتلبية حاجات السكان الحجازيين من المهن اليدوية المختلفة ،كما كانت البيوت المترفة تقتني العبيد من اجناس مختلفة ، ماعدا العرب الذين لا رق عليهم (١٢) وليس أمام العربي الا الاسلام أو السيف . ومن هنا نجد الرقيق الأبيض أو الأسود الذي أحضر من جبهات القتال ،أو أشتري من أسواق النخاسة ، واستخدم بعض هؤلاء في بيوت الأغنياء وعهدوا اليهم بالقيام بالأعمال المنزلية ((واختاروا منهم المهرة في أمثال ذلك والقومة عليهم أفادوهم علاج ذلك والقيام على عمله والتفنن فيه ..)) (١٣) كما نجد من أهل الحجاز من اتخذ الجواري للتمتع بما يقمن به من رقص وغناء ،

١- التنوخي : المستجاد من فعلات الأجواد ص ٣٤ - ٣٥ تحقيق محمد كرد علي طبعة ١٩٧٠
٢- الزبير بن بكار : جمهرة نسب قريش ص ٨٠
٣- الزبير بن بكار : جمهرة نسب قريش ص ٨٠
٤- انظر الأصفهاني : الأغاني ج ١ ص ٣٤٤ ، ٣٥٠ ط الهيئة المصرية
٥- انظر المرجع السابق ص ٢٦٩
٦- مالك بن أنس: المدونة الكبرى ج ٤ ص ١٢٥
٧- الأصفهاني : الأغاني ج ١ ص ٤٤
٨- المصعب الزبيري : نسب قريش ص ٣٩١
٩- انظر الطبري : تاريخ ج ٣ ص ٣٨٦
١٠- انظر مالك بن أنس: المدونة الكبرى ج ٤ ص ٢٤

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فكان لعبد الله بن جعفر جوار يتغنين وغلام يقال له بديع يتغنى ... وكان يقول : وماعلي أن آخذ الجيد من أشعار العرب وألقيه الى الجواري فيترنمن به ويشذرنه بحلوقهن ونغمهن))[1].

ورغم الخدمات التي كانت تقدمها فئة العبيد الى المجتمع الحجازي، الا أن مكانتهم الاجتماعية كانت سيئة، واستصغر الناس شأنهم، يروى أن علي بن الحسين جلس في حلقة عبد لبني عدي، فقال رجل من قريش[2] : تدع قريشا وتجالس عبد بني عدي، فقال علي : انما يجلس الرجل حيث ينتفع.

يروي أيضا أن علي بن الحسين كان يتخطى حلق قومه حتى يأتي زيد بن أسلم فيجلس عنده فقال له نافع بن جبير :((غفر الله لك ! أنت سيد الناس وأفضلهم تذهب الى هذا العبد فتجلس معه ، يعني زيد بن أسلم، فقال : انه ينبغي للعلم أن يتبع حيث ماكان))[3]. فكان بن جبير يرى أن العبد أقل قيمة أن يجلس في حلقته رجل كالحسين بن علي ولو كان العبد كزيد بن أسلم في علمه وفقهه .

ولم تقتصر تلك النظرة على نافع بن جبير بل شاركه فيها آخرون فحين تزوج علي بن الحسين جارية له وأعتقها عيّره بذلك عبد الملك بن مروان[4].

أما الاماء والجواري فكان منهن من أصبحن أمهات أولاد لأسيادهن ، وعدد ابن حبيب[5] أبناء أمهات الأولاد من خلفاء بني أمية، كما ذكر ابن عبدربه[6] أن :((بني أمية كانت لا تستخلف بني الاماء . وقالوا : لا تصلح لهم العرب)) اذ كانت العرب تستصغر شأن أبناء الاماء ، وتطلق على الواحد منهم لفظ هجين[7]، وكانت مكانة أم الولد منحطة حتى أنهم كانوا يطلقون عليها اسم أم الولد بينما يطلقون على الحرة لقب أم البنين[8].

١ـ الجاحظ: رسائل ج ٣ ص ١٥٩

٢ـ انظر ابن سعد : الطبقات ج ٥ ص ٢١٦

٣ـ الأصبهاني : حلية الأولياء ج ٣ ص ١٣٨ مكتبة الخانجي ١٩٣٢

٤ـ انظر ابن سعد : الطبقات ج ٥ ص ٢١٤

٥ـ المحبر ص ٤٥

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ومن أبرز أبناء السراري في الحجاز كان علي بن الحسين والقاسم بن محمد وسالم بن عبد الله (١).

وكانت أم الحارث بن عبد الله بن أبي ربيعة أم ولد سوداء حبشية، (٢) ورغب الناس من أهل المدينة في التسري حينما اشتهر عدد من أبناء السراري في الفقه والورع، ومما يوضح الاقبال على الاماء قول بعضهم ((عجبا لمن عرف الاماء كيف يقدم على الحرائر ... وقالوا : الأمة تشتري بالعين وترد بالعيب، والحرة غل في عنق من صارت اليه)) (٣). واشتهر كل جنس من الاماء بصفة خاصة فكان يقال :((من أراد أن يتخذ جارية للتلذذ اتخذها بربرية ، ومن أراد أن يتخذها للولد اتخذها فارسية ومن أراد أن يتخذها للخدمة اتخذها رومية)) (٤).

ولا شك أن الزواج بالاماء قد ترتب عليه تغيرات اجتماعية في الخلق والملبس والمطعم وامتزجت الدماء كما امتزجت الحضارات في مظاهر الحياة اليومية. وذكر سيد أمير علي أن اختلاط العرب بالجواري كان له تأثير سيء على الحياة الاجتماعية الاسلامية اذ ساعدوا على انحطاط مستوى الحياة الفكرية والاخلاقية (٥). ولم يذكر سيد أمير علي شواهد تدعم هذا الرأي.

وقد أباح الاسلام للمسلم أن يتسري من اماته قال تعالى :((والذين هم لفروجهم حافظون الا على ازواجهم أو ما ملكت أيمانهم فانهم غير ملومين)) (٦). فاذا تزوج الرجل مما ملكت يمينه أطلق على الزوجة أم ولد وتحتل مرتبة دون الحرة وفوق الأمة، واذا أنجبت لزوجها لا يجوز بيعها أو شراؤها وتصبح حرة من تلقاء نفسها اذا مات عنها السيد (٧)، كما أن اتخاذ الجواري كان أمرا مألوفا في الحجاز حتى عد من لا يتخذ الجواري من خير الرجال لأهله ، روى الزبير بن بكار (٨) ((قالت ابنة لأختي لأهلنا : خالي خير رجل لأهله إ لا يتخذ ضرة ولا يشتري جارية)).

١ــ انظر ابن قتيبة : عيون الأخبار ج ٤ ص ٨، ابن عبد ربه : العقد ج ٧ ص ١٢١

٢ــ انظر الأصفهاني : الاغاني ج ١ ص ٧١

٣ــ انظر ابن عبد ربه : العقد ج ٧ ص ١٢١

٤ــ السيوطي : تاريخ الخلفاء ص ٢٢١

٥ــ مختصر تاريخ العرب والتمدن الاسلامي ص ١٢٨

٦ــ سورة المعارج : آية ٢٩ــ ٣٠

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وقد اختلفت حقوق الرقيق عن حقوق الأحرار، الا أنه كان يعتد برهم بعد استئذان سادتهم أن يتزوجوا وأن يمتلكوا الأموال(١)، وقال غير واحد من أهل العلم من التابعين: أنه لا بأس بأن يتسرر المملوك في ماله وان لم يذكر ذلك لسيده(٢) كما اتجه بعض العبيد للتخلص من الرق بمكاتبة أسيادهم(٣) وتتم المكاتبة بدفع مبلغ من المال يتفق عليه الطرفان يدفع في موعد محدد يحصل العبد بعده على حريته، ويبقى في العبودية مابقي عليه منه شيء(٤)، وهذا بالاضافة الى ما ذكرنا من اعتاق الكثيرين من قبل أسيادهم بلا مقابل(٥)، فكان عبدالله بن عمر اذا رأى من رقيقه أمرا من التقوى يعجبه أعتقه، ومنهم من أعتق تكفيرا عن أحد الذنوب، واذا أعتق العبد صار مولى، وتربطه بمن أعتقه صلة الولاء، فالولاء لمن أعتق(٦).

وأخيرا ترك هؤلاء الرقيق في حياة أهل الحجاز أثرا ليس الى انكاره من سبيل سواء في اللغة(٧)، أو في الحياة الاجتماعية والاقتصادية، ورغم عناية الاسلام وحرصه على تحسين أحوال الرقيق(٨)، الا أنهم كانوا في مكانة اجتماعية سيئة، وكانت ((الاماء والعبيد يطبخ في أعناقهم ..... ولم يزل ذلك من أمر الناس القديم))(٩). هذا بجانب أنهم كانوا يعملون في الأعمال التي أنف العرب من العمل فيها، وكان هؤلاء يشعرون بسوء حالتهم الاجتماعية، ولعل هذا هو الدافع الحقيقي لثورتهم في صدر خلافة بني العباس زمن أبي جعفر المنصور(١٠).

١ـ انظر مالك بن أنس: المدونة الكبرى ج ٢ ص ٢٠٠

٢ـ المرجع السابق ج ٤ ص ٥٦

٣ـ انظر البخاري: الصحيح ج ٣ ص ١٩٨

٤ـ المرجع السابق ص ٢٠٠

٥ـ انظر ابن سعد: الطبقات ج ٤ ص ١٦٧

٦ـ انظر البخاري: الصحيح ج ٣ ص ٢٠٠

٧ـ انظر جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام ج ٨ ص ١٢٢

٨ـ انظر حسن ابراهيم حسن: النظم الاسلامية ص ٣٠٨

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

المرأة في مجتمع الحجـــاز

كان الاسلام فاتحة خير للمرأة التي نعمت بحياة جديدة في ظله ، وحبا المرأة بالكثير من التقدير وأعلى مركزها ، ورفعها الى مكانة جديدة سامية وأحاطها بسياج من الحماية وكفل لها حياة راضية مرضيـــة (١) .

وقد تمتعت المرأة بقسط وافر من المكانة الاجتماعية ، وشاركت في مختلف أوجه الحياة فكانت تحضر الى المسجد (٢) وتختلط بالجمهور وتسمع خطب الخلفاء ودروس العلماء ، (٣) كما شاركت المرأة في الاحداث السياسية التي وقعت في هذا العصر ، وظهر في هذه الدراسة أن السيدة عائشة ساهمت بصورة فعالة في النشاط السياسي سواء في الفتنة أم الأحداث التي وقعت بعدها .

ولم تكن عائشة هي الوحيدة التي شاركت في أحداث عصرها السياسية ، اذ اشتركت غيرها من النساء فيها ، ففي موقعة صفين كانت أم الخير البارقية تحارب في صفوف جيش علي وتحث المحاربين على القتال كقولها : ((هلموا رحمكم الله الى الامام العادل والوصي الوفي والصديق الأكبر ، انها إحن بدرية واحقاد جاهلية وضغائن أحدية وثب بها معاوية حين الغفلة ليدرك بها ثارات بني عبد شمس)) (٤) . ونحو ذلك كان كلام لليلى بنت عدي ، (٥) ومن المعروف أن المرأة العربية كانت ترافق الجيوش في تحركاتها العسكرية .

ومما يصور جدارة المرأة ومكانتها موقف أسماء بنت أبي بكر حين شدد الحجاج الحصار على ابن الزبير وتخلى عنه كثير من أصحابه فدخل على أمه وقال : ((يا أماه ، قد خذلني الناس حتى ولدي وأهلي ولم يبق معي الا اليسير ومن ليس عنده أكثر من صبر ساعة والقوم يعطونني ما أردت من الدنيا ، فما رأيك ؟ فقالت : أنت أعلم بنفسك ، ان كنت تعلم أنك على حق واليه تدعو فامض له فقد قتل عليه أصحابك ، ولا تمكن من رقبتك يتلعب بها غلمان بني أمية ، وان كنت انما أردت الدنيا فبئس العبد أنت أهلكت نفسك ومن قتل معك وان قلت كنت على حق فلما وهن أصحابي ضعفت فهذا ليس فعل الأحرار ولا أهل الدين كم خلودك في الدنيا ! القتل أحسن ! فقال : يا أماه أخاف ان قتلني أهل الشام أن

١ــ انظر علي ابراهيم حسن : نساء لهن في التاريخ الاسلامي نصيب ص ١٣٥ مكتبة النهضة المصرية

٢ــ انظر مالك بن أنس : الموطأ ج ١ ص ١٥٧ مكتبة عيسى البابي الحلبي ١٩٥١

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

يمثلوا بي ويصلبوني . فقالت: يابني إن الشاة اذا ذبحته لا تتألم بالسلخ ، فامض على بصيرتك واستعن بالله))[1]. ووقفت اسماء بنت أبي بكر هذا الموقف الذي قد يضعف فيه بعض شجعان الرجال ، وكان لتلك الكلمات أثرها البارز في رفع معنويات ابنها فخرج يقاتل حتى قتل . وكذلك اشتركت بعض نساء الخوارج في حروبهم ضد الأمويين في الحجاز[2]، الا أن مشاركة المرأة في الأمور السياسية كانت مشاركة جزئية على قدر ما تسمح به ظروفها .

وكذلك كان للمرأة الحجازية نصيب في الحركة العلمية ، وضربت السيدة عائشة بسهم وافر في الفقه ورواية الحديث والفتيا والأدب[3]، وأخذت عنها الحديث عمرة بنت عبد الرحمن التي وصفها عمر بن عبد العزيز قائلا :((ما بقي أحد أعلم بحديث عائشة منها))[4]. وكان عمر بن عبد العزيز يسألها عن الحديث. وبجانب هاتين المرأتين اشتهرت نساء أخريات أفرد ابن سعد لهن جزءا من كتاب الطبقات للحديث عنهن[5]، كما وردت أحاديث مسندة لبعض النساء في كتب الحديث[6]، وروي أن ابن اسحاق صاحب المغازي روي عن فاطمة بنت المنذر بن الزبير زوجة هشام بن عروة[7]، أما عائشة بنت طلحة فقد اشتهرت بمعرفتها في الأدب وأيام العرب والنجوم، ووفدت مرة على هشام بن عبد الملك. فقال لها : ما أوفدك ؟ قالت: حبست السماء مطرها ومنع السلطان الحق. قال : فانا أصل رحمك وأعرف حقك. ثم بعث الى مشايخ بني أمية فقال : أن عائشة عندي فاسمروا عندي الليلة فحضروا ، فما تذاكروا شيئا من أخبار العرب وأشعارها وآثارها الا أفاضت معهم فيه ، وما طلع نجم ولا غار الا أسمعته . فقال لها هشام : أما الأول فلا أنكره ، وأما النجوم فمن أين لك ؟ قالت أخذته عن خالتي عائشة رضى الله عنها ، فأمر لها بمائة ألف درهم، ورد ها الى المدينة))[8].

١ــ ابن الأثير : الكامل ج ٤ ص ٣٥٢ ــ ٣٥٣

٢ــ انظر عبد الحميد العبادي : صور من التاريخ الاسلامي ص ١٨٤ مكتبة الآداب بالاسكندرية ١٩٤٨

٣ــ انظر ابن سعد : الطبقات ج ٢ص ٣٧٤، ٣٧٥، ٣٧٦.

٤ــ ابن سعد : الطبقات ج ٢ص ٣٨٧

٥ــ الجزء الثامن من طبعة بيروت.

٦ــ انظر صحيح مسلم ج ٥ ص ٣٥٠ ــ ٣٧١

٧ــ انظر ابن قتيبة : المعارف ص ٩٢

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وكانت عائشة بنت طلحة حين تأيمت تقيم بمكة سنة وبالمدينة سنة((وتخرج الى مال لها بالطائف عظيم تعمر لها هناك فتتنزه وتجلس فيه بالعشيات فتتناضل بين يديها الرماة))(١). ويأتيها الشعراء فتجزل لهم العطاء - وكذلك كانت سكينة بنت الحسين التي كانت تنقد الشعراء(٢) وتفاضل بينهم(٣)، ومن النساء من لم تكن تنكر تشبيب الشعراء بها، وأكثر من هذا أن بعض النساء الشريفات كن يرغبن(٤) ان يكون لهن ذكر في شعر الغزلين ولا يرين في ذلك بأساً، اذ كان ((للمرأة الشريفة ذات السؤدد حظ في المجتمع لا يدانيه حظ المرأة الحرة الفقيرة، فسؤددها حماية لها ودرع يصونها من الغض من منزلتها ومكانتها))(٥).

ولا شك أن المرأة احتلت مكانة بارزة في شعر ذلك العصر وعاشت حياة أدبية راقية، تروي الشعر، وتقارن بين الشعراء وتنتقدهم(٦)، وعاشت في هذا العصر كثيرات من النساء الشهيرات أمثال سكينة بنت الحسين وعائشة بنت طلحة وكانتا تعرفان بعقيلتي قريش(٧). وذهب بعض الرواة(٨): أنه لم يكن لهما نظير في زمانهما. كما برزت أسماء نسوة أخريات: كزينب بنت موسى الجمحية، ولبابة بنت عبد الله بن عباس والثريا بنت علي بن عبد الله، ممن وردت الاشارة اليهن في شعر شعراء ذلك العصر الذي احتلت فيه المرأة مكانة مرموقة.

هذا بجانب شهيرات نساء بني أمية، كعاتكة بنت يزيد، وفاطمة بنت عبد الملك، وأم البنين بنت عبد العزيز بن مروان.

ومما يشير الى المكانة الاجتماعية للمرأة حينذاك، أنها كانت تخرج من بيتها وتخاطب الرجال في حوائجها، ((ولم يزل الرجال يتحدثون مع النساء في الجاهلية والاسلام حتى ضرب الحجاب على أزواج النبي، صلى الله عليه وسلم، خاصة))(٩). فكانت سكينة بنت الحسين ((تجالس الأجلة من قريش وتسمع

١- الزبيري : نهاية الأرب ص٢٧٩ - ٢٨٠
٢- انظر الأصفهاني : الأغاني ج ١٨ ص٣٢٨، ٣٣٤ ط. الهيئة المصرية
٣- انظر الأصفهاني : الأغاني ج ٨ ص٣٨ - ٣٩ ط. دار الكتب.
٤- انظر الأصفهاني : الأغاني ج ١ ص. ٢١
٥- جواد علي : المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام ج ٤ ص ٦١٦
٦- انظر ياقوت: معجم البلدان ج ٥ ص ١١٦ - ١١٧
٧- انظر ابن عبد ربه : العقد الفريد ج ٥ ص. ١٥

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

كلام الشعراء فتفاضل بينهم وتناقشهم وتجيزهم))[1]. واذا كانت الشرائف من النساء يقعدن للرجال للحديث[2] فقد كان بعضهن لا يسترن وجوههن من أحد . كالذي ذكر أن مصعب بن الزبير عاتب زوجته عائشة بنت طلحة في سفورها فقالت:((ان الله تبارك وتعالى وسمني بميسم جمال أحببت أن يراه الناس ويعرفوا فضلي عليهم، فما كنت لأستره ، ووالله مافيّ وصمة يقدر أن يذكرني بها أحد))[3]، ولم يكن سفورها لينتقص من مكانتها ، فقد كانت من أحسن سيدات عصرها ((حسنا وديانة وجمالا وهيئة وشارة وعفة))[4].

وكان أهل الحجاز لا يرون بأسا أن تنتقل المرأة الى عدة أزواج ، ولا ينقلها عن ذلك الا الموت[5] مادام الرجال يريدونها ، فسكينة بنت الحسين كان أزواجها على التوالي : عبد الله بن الحسن بن علي[6]، ثم مصعب بن الزبير[7]، ثم عبد الله بن عثمان بن عبد الله بن حكيم بن حزام[8]، ثم زيد بن عمرو بن عثمان بن عفان[9]، ثم الأصبغ بن عبد العزيز بن مروان[10]، ((وتزوجت لبابة بنت عبد الله بن عباس: علي بن عبد الله بن جعفر، ثم خلف عليها اسماعيل بن طلحة بن عبيد الله . ثم محمد بن عبيد الله بن عباس بن عبد المطلب))[11].

أما مهور النساء فقد ارتفعت تبعا للمكانة الاجتماعية للمرأة، كالذي ذكر أن مهر عائشة بنت طلحة كان ألف ألف درهم، حملها اليها عمر بن عبيد الله بن معمر التيمي . خمسمائة ألف مهر، وخمسمائة ألف هدية[12]. وكان مصعب بن الزبير ، حين تزوجها قد مهرها خمسمائة ألف درهم وأهدى لها مثل ذلك[13]. كما أمهر الحجاج بن يوسف ابنة عبد الله بن جعفر تسعين ألف دينار[14]. ومن الطبيعي أن يتفق المهر مع

١ــ الزركلي : الأعلام ج ٣ ص ١٦١

٢ــ انظر الجاحظ: رسائل ج ٢ص ١٤٩

٣ــ النويري: نهاية الأرب ج ٤ ص ٢٧٢، وأنظر الأصفهاني : الأغاني ج ١١ ص ١٧٦ ط. دار الكتب

٤ــ النويري: نهاية الأرب ج ٤ ص ٢٧٦

٥ــ انظر الجاحظ :رسائل ج ٢ ص ١٥٨

٦ــ انظر ابن حبيب: المحبر ص ٤٣٨

٧ــ انظر الأصفهاني : الأغاني ج ١٩ ص ١٢٧ طبعة الهيئة المصرية العامة

٨ــ انظر المرجع السابق ص ١٢٨

٩ــ نفسه ونفس الصفحة

١٠ــ انظر المصعب الزبيري: نسب قريش ص ٥٩، ابن حبيب: المحبر ص ٤٣٨

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

المكانة الاجتماعية للزوجين. ومن الطبيعي أيضا أن يكون مهر المرأة الفقيرة أدنى من ذلك بكثير، فقد يتزوج الرجل بشق درهم[١] كما روى أن سعيد بن المسيب زوج ابنته، وكانت من أحسن النساء على درهمين لكثير بن أبي وداعة[٢].

لا شك أن المرأة الحجازية كانت ذات شخصية في المجتمع. فأسرتها ومكانتها كانت تمنع زوجها من الحاق الأذى بها، وكانت بعض النساء تشترط على زوجها الا يمنعها رغبة أو مخرجا تريده[٣]، وكان من نفوذ سكينة بنت الحسين، أن منعت مرة، زوجها زيد بن عمرو بن عثمان من الدخول عليها[٤]. كما كانت عائشة بنت طلحة((تمتنع على مصعب في غالب الأوقات. فحكي أنه دخل عليها يوماً وهي نائمة، ومعه ثماني لؤلؤات قيمتها عشرون ألف دينار، فأنبهها ونثر اللؤلؤ في حجرها. فقالت: نومتي كانت أحب الي من هذا اللؤلؤ. ولم تزل حالها معه على مثل ذلك حتى شكا ذلك الى كاتبه ابن أبي فروة))[٥]. يضاف الى ذلك حرية المرأة في الزواج بمن تشاء. ومنهن من عرض عليها الزواج من أحد كبار رجالات ذلك العصر فرفضته، اذ أنه لا يوافق رغبتها. وقد خطب عمر بن الخطاب أم كلثوم بنت أبي بكر فأبته قائلة :((انه خشن العيش شديد على النساء))[٦].

كان الحجازيون يفضلون المرأة القرشية على غيرها من النساء، اذ أن نساء قريش كن خير نساء الحواضن((أحناها على ولد في صغره، وأرعاها على بعل في ذات يده))[٧].

وقد عرف أهل الحجاز ما نسميهن في وقتنا الحاضر بالخاطبات. ومنهن حبى المدينية التي يروى أن مصعب بن الزبير قال لها : ابغيني امرأة أتزوجها، فدلته على عائشة بنت طلحة[٨]. ومنهن من

١ـ انظر ابن قتيبة : عيون الأخبار ج ١ ص ٢٢١

٢ـ انظر ابن كثير : البداية والنهاية ج ٩ ص ١٠٠

٣ـ انظر الأصفهاني : الأغاني ج ١٩ ص ١٥٦

٤ـ المرجع السابق نفس الصفحة.

٥ـ النويري : نهاية الأرب ج ٤ ص ٢٧٥

٦ـ ابن عبدربه : العقد ج ٧ ص ٨٣ ـ ٨٤

٧ـ المرجع السابق ص ٨٣

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

كانت تتوسط للرجل عند المرأة التي يريدها بذكر محاسنه وصفاته (١). وقد يرسل بعضهم احدى الخاطبات الى المرأة التي ذكرت له لتنظر في أمرها، كالذي روي أن مصعب بن الزبير وعبد الله بن عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق وسعيد بن العاص جاءوا الى ((عزة الميلاء، وكانت عزة هذه يألفها الأشراف وغيرهم من أهل المروءات (٢) وكانت من أظرف الناس وأعلمهم بأمور النساء، فقالوا لها: انا خطبنا فانظري لنا ...)).

هذا وقد كان للمرأة حظ عظيم في حضارة ذلك العصر، ونالت قسطا وافرا من التنعم بتلك الحضارة، وظهر تحضرها جليا في ملبسها، ومأكلها ومسكنها، ونزهاتها، مما أشرت له في ((الثراء والتحضر)). وساعدها في ذلك ماتوفر لها من فراغ حين أخذت الاماء يقضين حوائج البيوت (٣) خاصة بيوت الأغنياء والاشراف.

ولم تقتصر أعمال الجواري على خدمة البيوت فقد تزوج بعض أهل الحجاز من الجواري والاماء، واتخذوهن أمهات أولاد (٤)، الا أنهن كن دون مرتبة المرأة العربية الحرة.

وقد اشتركت الاماء والجواري بفعالية في الحياة الاجتماعية الحجازية، وساهمن بدور واضح في اختلاط الدماء والعادات ويبدو أن نتائج ذلك الاختلاط لم تكن ايجابية دائما. ومن ذلك ما استحدثته في البيئة العربية من لهو ومجون انغمس فيه البعض ولم تسلم منه المرأة العربية، كالذي روي أن الدلال المغني كان ((ملازما لأم سعيد الأسلمية، وبنت طلحة بن الحكم بن أبي العاص، وكانتا من أمجن النساء. كانتا تخرجان فتركبان الفرسين فتستبقان عليهما حتى تبدو خلاخيلهما ...)) (٥). كما كانت في مكة امرأة من ولد عتاب بن أسيد، تسمى ديباجة الحرم. وكان يزورها شباب ذلك العصر، فبعثت مرة الى زوج سكينة بنت الحسين (٦) قواعدها الأبطح ((واذا الديباجة قد افترشت بساطا في الأبطح وطرحت النمارق، ووضعت حشايا وظهرها أنماط، فجلست عليها، فلما طلع زيد بن عمرو بن عثمان قامت اليه فتلقته وسلمت عليه ثم رجعت الى مجلسها)) (٧). ولم يعجب ذلك سكينة بنت الحسين فأنكرت على زوجها زيارة الديباجة، وأمرت حشمها بالرحيل الى الطائف ثم منعت زيدا من الدخول عليها.

١- انظر الجاحظ: رسائل ج ٢ ص ١٣٢
٢- النويري: نهاية الأرب ج ٤ ص ٢٧٣
٣- انظر الجاحظ: رسائل ج ٢ ص ١٥٦
٤- انظر الفصل الثاني من الباب الثاني

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أما المرأة في البادية فقد اقتضت ظروف الحياة أن تشارك الرجل في أعماله ، وتجالسه وتتحدث معه ، اذ لم تنشأ في البادية القيود والحدود التي تفصل بين الرجل والمرأة،(١) تلك القيود التي أخذت طريقها الى المجتمع المدني حين اختلطت الشعوب وتمازجت الحضارات منذ عهد الوليد الثاني .(٢)

وقد كانت مناسبات الحج مناسبات تتعرض فيها المرأة الى الظهور فيرى الرجل وجهها ، ومن الرجال : أحمق وماجن . فلم تكن بعض النساء ترضى عن ذلك فقالت احداهن لعمر بن أبي ربيعة : ((حتى متى لا تزال سادرا في حرم الله تشبب بالنساء وتشيد بذكرهن))(٤) . وبلغ خالد القسري والي مكة قول الشاعر :

يا حبذا الموسم من موقف ... وحبذا الكعبة من مسجد

وحبذا اللاتي تزاحمننا ... عند استلام الحجر الأسود

فقال خالد : اما انهن لا يزاحمنك بعدها أبدا ، ثم أمر بالتفريق بين الرجال والنساء في الطواف))(٥) .

وهكذا كانت المرأة جزءا من المجتمع وشاركت الرجل في أحداث العصر السياسية والعلمية والأدبية ، وكان لها في دولة الشعر سلطان بارز ، ونعمت بترف الحضارة التي كانت تعم الحجاز .

المجالس الاجتماعية :

لا شك أن المجالس التي كانت تعقد حول رجال العلم ، انما تمثل نمطا معينا من المجالس الاجتماعية ، سواء أكانت الدروس الدينية في الحديث أو التفسير أو الفقه ، أو المغازي والقصص . وصورة ذلك أن يجلس رجل العلم في المسجد وحوله الناس يستفسرون منه عما يريدون . أو يبتدئ هو فيتحدث في الموضوع الذي يريد .(٦)

وكنت قد ذكرته فيما سبق ، كيف اختلطت الدماء والأجناس فنشأ عن هذا الاختلاط قيم اجتماعية صاحبها ثراء وتحضر واسع في البلاد . فكانت مجالس اجتماعية من نمط آخر غير تلك المجالس

١— انظر جواد علي : المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام ج ٤ ص ٦١٧

٢— انظر سيد أمير علي : مختصر تاريخ العرب والتمدن الاسلامي ص ١٧٣

٣— انظر الأصفهاني : الاغاني ج ١ ص ٨٢

٤— انظر المرجع السابق ص ١٦٣

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الدينية. فكان الناس يخرجون للتنزه حيث الماء والبساتين في مناسبات معينة، فقد سأل العقيق الناس مرة، فدخل عرصة سعيد بن العاص الماء حتى ملأها، فخرج اليها، واجتمعوا حولها، ومما زاد في بهجة الخروج للتنزه كثرة المغنين، فشارك ابن عائشة المغني الناس وغناهم، فما رئي يوم أحسن منه، ووصف صاحب الأغاني ذلك اليوم فقال: انه مارئي جمع في ذلك الموضع مثل ذلك الجمع[1]. وكان العقيق معروفا كمكان نزهة للناس يخرجون اليه[2] ومعهم من المغنين من كان يبعث الطرب في نفوسهم في مجلسهم ذاك، وقد أكثر الأصفهاني في وصف مجالس النزهة تلك[3].

هذا وقد كان للغناء مجالس خاصة يتخذ فيها زي خاص، كالذي قيل: أن جميلة المغنية ((جلست يوما للوفاء تغليها، وجعلت على رؤوس جواريها شعورا مسدلة كالعناقيد الى أعجازهن، وألبستهن أنواع الثياب المصبغة ووضعت فوق الشعور التيجان، وزينتهن بأنواع الحلي))[4]، وعندما حضر الناس وفيهم عبد الله بن جعفر، قامت الجواري صفين، وجلست جميلة فغنت ثم دعت لكل جارية بعود، وأمرتهن بالجلوس على كراسي صغار قد أعدتها لهن، فضربن وغنّت عليهم وغنّى الجواري على غنائها، فكان غناء يفتن القلب[5].

والحق أن مجالس الغناء لم تكن كلها كمجلس جميلة ذاك، ولم تكن كلها في بيوت المغنين والمغنيات بل كانت تعقد أحيانا في بيوت الناس، كبيت حسن بن حسن بن علي[6]، وبيت عبد الله بن جعفر[7]، وبيت حمزة ابن عبد الله بن الزبير[8]. وكان بعض المغنين منقطعا الى هؤلاء يغنيهم بما يمدحون به من شعر[9]. كما

١ــ انظر الاصفهاني: الاغاني ج ٢ص ٢٠٧
٢ــ انظر المرجع السابق ص ٢٣٥
٣ــ انظر الأصفهاني: الاغاني ج ١ ص ٣٦٧، ج ٢ ص ٢٠٧، ج ٧ ص ١٨٨
٤ــ انظر الأصفهاني: الاغاني ج ٨ ص ٢٢٦ ــ ٢٢٩ طبعة دار الكتب
٥ــ انظر المرجع السابق نفس الصفحات
٦ــ انظر الاصفهاني: الاغاني ج ١ ص ٢٣٥ طبعة الهيئة المصرية العامة

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وجد الغناء في بيوت أخرى سوى من ذكرنا.[1]

هذا وقد كانت المناسبات كالأعراس مكانا ملائما للمجالس الاجتماعية، حيث يجتمع الناس يتحدثون ويسمعون المغنين[2]، فقد تغنى طويس في عرس رجل من الأنصار، وكان في القوم النعمان بن بشير الأنصاري، وغنّى الدلّال في زفاف - ابنة عبد الله بن جعفر الى الحجاج بن يوسف[3]. وكذلك كانت مناسبات الختان، روى الأصفهاني[4]: ((أن يوما شهر فيه ابن سريج بالغناء في ختان ابن مولاه عبد الله بن عبد الرحمن بن أبي حسين. قال لأم الغلام: خفضي عليك بعض الغرم والكلفة فوالله لألهين نساءك حتى لا يدرين ما جئت به ولا ما عزمت عليه))، كما وصف أبو الفرج[5]، احدى تلك المناسبات الاجتماعية، فقال: ((حدثني عبد الرحمن بن ابراهيم المخزومي قال: أرسلتني أمي وأنا غلام أسأل عطاء بن أبي رباح عن مسألة، فوجدته في دار يقال لها دار المعلّى، وعليه ملحفة معصفرة، وهو جالس على منبر، وقد ختن ابنه والطعام يوضع بين يديه وهو يأمر به أن يفرق في الخلق، فلهوت مع الصبيان ألعب بالجوز حتى أكل القوم وتفرقوا وبقي عطاء مع خاصته ...)). فاستأذنوا عطاء في الارسال الى الغريض وابن سريج فلما أتيا غنّاه غناء جميلا.

وقد كانت للمغنين مجالس يتطارحون فيها الغناء يجتمعون ويتغنون، روى أن المغني معبدا[6] خرج من المدينة وتوجه الى مكة. فلما قدمها سأل عن المغنين أين يجتمعون؟ فقيل له: انهم يجتمعون بقميقعان في بيت فلان. قال معبد: ((فجئت الى منزله بالغلس فقرعت الباب فقال: من هذا؟ فقلت: انظر عافاك الله! ... ففتح فقال: من أنت عافاك الله؟ قلت: رجل من أهل المدينة. قال: فما حاجتك؟ قلت: أنا رجل أشتهي الغناء، وأزعم أني أعرف منه شيئا، وقد بلغني أن القوم يجتمعون عندك، وقد أحببت

١- انظر ابن عبد ربه: العقد ج ٧ ص ١٨

٢- انظر المرجع السابق ص ٢٦

٣- انظر الأصفهاني: الاغاني ج ٤ ص ٢٩٣ - ٢٩٥

٤- انظر الاغاني ج ١ ص ٢٦٠

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أن تنزلني في جانب منزلك وتخلطني بهم، فانه لا معونة عليك ولا عليهم مني . فلوى شيئا ثم قال : انزل على بركة الله . قال : فنقلت متاعي فنزلت في جانب حجرته . ثم جاء القوم حين أصبحوا واحدا بعد واحد حتى اجتمعوا، فانكروني وقالوا : من هذا الرجل ؟ قال : رجل من أهل المدينة خفيف يشتهي الغناء ويطرب عليه ، ليس عليكم منه عناء ولا مكروه ، فرحبوا بي وكلمتهم ، ثم انبسطوا وشربوا وغنوا فجعلت أعجب بغنائهم ... وأظهر ذلك لهم ويعجبهم مني .. فأقمت عندهم شهرا آخذ منهم ويأخذون مني ثم انصرفت الى المدينة))[1]. والى جانب مثل هذا المجلس الذي اقتصر على الطرب كان بعض الشعراء يجتمعون ويتداولون الشعر فيما بينهم أو يجتمعون حول مغن أو مغنية ينشد من أشعارهم ويتغنى بها .

وقد كان للشعر مكانة مرموقة في مجالس السمر التي جمعت بين الرجال والنساء في العصر الأموي، ذكر الأصفهاني[2] ، أن نصيبا الشاعر قدم مكة فأتى المسجد الحرام ليلا فجاءت ثلاث نسوة فجلسن قريبا منه وجعلن يتحدثن ويتذاكرن الشعر والشعراء فقالت احداهن : قاتل الله جميلا حيث قال :

وبين الصفا والمروتين ذكرتكم ... بمختلف بين ساع وموجف[3]

وعند طوافي قد ذكرتك ذكرة ... هي الموت بل كادت على الموت تضعف

فقالت الأخرى : قاتل الله كثيّر عزة حيث قال :

ظلمن علينا بين مروة فالصفا ... يمرن على البطحاء مور السحائب[4]

فكدن لعمر الله يحدثن فتنة ... لمختشع من خشية الله تائب

فقالت الأخرى : بل قاتل الله نصيبا ابن الزانية حيث قال :

ألا م على ليلى ولو استطيعها ... وحرمة ما بين المنية والستر

لملت على ليلى بنفسي ميلة ... ولو كان في يوم التحالف والنحر

فمال اليهن فأنشدهن فأعجبن به وقلن له : بحق هذا البيت من أنت؟ قال : أنا ابن المقذوفة بغير جرم نصيب فرحبن به واعتذرن اليه وحادثهن بقية ليلته ، فأنت ترى أن خروج المرأة ليلا كان أمرا مباحا ،

١ــ الاصفهاني : الاغاني ج ١ ص ٦١ــ٦٢

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وانها كانت تجلس في المسجد الحرام، تتحدث عن الشعر وتوازن بين الشعراء وتجالس رجلا لا تعرفه وتسمر معه وتظهر اطلاعها على ثقافة عصرها .

ومثل مجلس السمر ذلك كانت تعقد مجالس أخرى كان يتم بعضها خارج المدن يتطارح فيها المجتمعون الشعر ويسمعون الغناء، وهذه صورة من صور كثيرة كانت تحدث في الحجاز، فكانت بعض النساء يخرجن للتنزه ويخرج معهن الرجال ، فقد ((خرج النصيب وكثير والأحوص غبّ يوم أمطرت فيه السماء، فقال : هل لكم في أن نركب جميعا فنسير حتى نأتي العقيق فنمتع فيه أبصارنا ؟ فقالوا : نعم . فركبوا أفضل مايقدرون عليه من الدواب، ولبسوا أحسن مايقدرون عليه من الثياب وتبكروا ثم ساروا حتى أتوا العقيق، فجعلوا يتصفحون ويرون بعضهم يشتهون حتى رفع لهم سواء عظيم فأمّوه حتى أتوه فاذا وصائف ورجال من الموالي ونساء .....)) فنزلوا وجلسوا وسمعوا الغناء من شعر نصيب . ولم يقتصر مثل هذا المجلس على الموالي فقد اجتمعت نسوة فيهن سكينة بنت الحسين ((فذكرن عمر بن أبي ربيعة وشعره وظرفه ومجلسه وحديثه فتشوقن اليه وتمنينه . فقالت سكينة أنا لكن به ، فبعثن اليه (٢) رسولا أن يوافي الصورين ليلة سمتهما ، فوافاهن على رواحله فحدثهن حتى طلع الفجر وحان انصرافهن (٣))).

وكانت بعض المجالس تجتمع حول لعب الشطرنج الذي شاع بين الناس حتى أن الامام مالكا كان لا يرى قبول شهادة العدل من على اللعب به ، كما كرهه محمد بن الحنفية (٤)، ومع ذلك نجد أن أحد أهل مكة (٥) ((اتخذ بيتا فجعل فيه رشطرنجات ونردات وقرقات ودفاتر من كل علم وجعل في الجدار أوتادا فمن جاء علق ثيابه على وتد منها ، ثم جيء دفترا فقرأه أو بعضها يلعب به ، فلعب به مع بعضهم (٦) (٧))، ويروي

١ــ انظر الأصفهاني : الأغاني ج ١ ص ٣٦٧ ط. الهيئة المصرية

٢ــ موضع قرب المدينة : انظر ياقوت: معجم البلدان ج ٣ ص ٤٣٤

٣ــ الأصفهاني : الأغاني ج ١ ص ١١٠

٤ــ انظر مالك بن أنس : المدونة الكبرى ج ٦ ص ٢٥٨

٥ــ انظر الأصبهاني : محاضرات الأدباء ج ٢ ص ٧٢٦ دار مكتبة الحياة بيروت ١٩٦١

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أن الشاعر الأحوص قد زار تلك الدار[1]، أما أهل المدينة فكان اذا خطب اليهم من يلعب الشطرنج رفضوه ويزعمون أنه إحدى الضرتين وقد عم لعب الناس بالكرك في مكة[2] ((فكان أهل مكة يلعبون بالكرك في كل عيد، وكان لكل حارة من حارات مكة كرك يعرف بهم يجمعون له ويلعبون في حارة ويذهب الناس فينظرون اليه في تلك المواضع))[3]. وفي المدينة ومنذ زمن عثمان بن عفان انتشر اللهو بطيران الحمام بالرمي على الجلاهقات[4] وكانت مناسبات الأفراح تجمع الناس الذين يحضرون فيشاهدون ويسمعون المغنين[5].

هذا وقد وجد في الحجاز قوم أصحاب نوادر وفكاهه يشيعون المرح والسرور في مجالس أهل الحجاز، فكان أشعب يضحك أهل المدينة ويملأ بيوتهم ظرفا، وكان أشعب قد تربى في بيت عائشة بنت عثمان بن عفان[6]، ويروى أنها دفعته ((في المزابن فقالت له بعد حول: أتوجهت لشيء؟ قال: نعم، تعلمت نصف العمل وبقي نصفه. قالت: وما تعلمت؟ قال: تعلمت النشر وبقي الطي))[7]. وكان أشعب يجلس في مجالس أهل المدينة[8] ويزورهم في بيوتهم وعرف عندهم ((أنه كان أطيب أهل زمانه عشرة وأكثرهم نادرة))[9]. ومما يروى من نوادره أن صاحبة له قالت: هب لي خاتمك أذكرك به، قال: اذكريني أن منعتك اياه فهو أحب الي[10]. ويروى أن أشعب ((كان يتحدث الى امرأة بالمدينة حتى عرف ذلك. فقالت لها جاراتها يوما: لو سألته شيئا فانه موسر. فلما جاء قالت: ان جاراتي ليقلن لي: مايصلك بشيء، فخرج نافرا من منزلها فلم يقربها شهرين، ثم أنه جاء ذات يوم فجلس على الباب، فأخرجت اليه قدحا ملآن ماء، فقالت اشرب هذا من الفزع. فقال: أشربه أنت من الطمع))[11]. وله مع سكينة بنت الحسين نوادر كثيرة[12].

١ـ انظر الأصفهاني: الأغاني ج ٤ ص ٢٥٣، ٢٥٤ ط. دار الكتب المصرية.
٢ـ انظر الاصبهاني: محاضرات الأدباء ج ٢ ص ٧٢٦.
٣ـ الفاكهي: المنتقى في أخبار أم القرى ص ١٠
٤ـ انظر الطبري: تاريخ ج ٤ ث ص ٣٩٨
٥ـ انظر الفاكهي: المنتقى في أخبار أم القرى ص ٧ـ ٨
٦ـ انظر النويري: نهاية الارب ج ٤ ص ٢٥
٧ـ انظر الاصفهاني: الأغاني ج ١٩ ص ١٣٩ ط. الهيئة المصرية

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وقد كثرت فكاهات أشعب ونوادره، فكانت تملأ مجالس أهل المدينة يتناقلونها في المجالس العامة ويتفكهون بها في المجالس الخاصة، ويتداولونها في أوقات الفراغ فيشيع الضحك والمرح، وربما عبث به الناس استزادة في المرح. روى صاحب الأغاني[1] أن: ((الحسن بن الحسن بن علي كان يعبث بأشعب أشد عبث، وربما أراه في عبثه أنه قد ثمل وأنه يعربد عليه، ثم يخرج اليه بسيف مسلول ويريه أنه يريد قتله، فيجري بينهما في ذلك كل مستضحك)).

وقد شارك صاحب نوادر تحفة يدعى الفاضري أشعب في الفكاهة والمرح. وبلغ أشعب أن الفاضري قد أخذ في مثل مذهبه ونوادره، وأن جماعة استطابوه فرقبهم حتى علم أنه في مجلس من مجالس قريش يحادثهم ويضحكهم. فصار اليهم ثم قال: قد بلغني أنك قد نحوت نحوي، وشغلت عني من كان يألفني فان كنت مثلي فافعل كما أفعل))[2]. كما كان بعض أهل المدينة يصنع صنيع أشعب والفاضري لا من أجل الناس. ولكن لعنايتهم بالفكاهة والمرح[3]. وكان أهل المدينة يعدون في الظرفاء وأصحاب النوادر عندهم: طويس والدلال وهنب، ((فكان هنب أقدمهم والدلال أصغرهم. ولم يكن بعد طويس أظرف من الدلال ولا أكثر ملحا))[4].

أما مكة فقد اشتهر فيها من أصحاب النوادر شاعر يدعى الدارمي، وكان يجلس في مجالس الرجال، ويخرج مع النساء في تنزههن، فكان لا يطيب لهن متنزه الا به[5]. ويروي أبو الفرج[6] أن الدارمي هذا جلس في مجلس بعض الولاة وأخذ يحدث، فأغفى الوالي، فعطس الدارمي عطسة هائلة، ففزع الوالي فزعا شديدا، ثم استوى جالسا وقال له: أتفزعني؟ قال: كلا! ولكن هكذا عطاسي. فقال ائتني ببينة على ذلك. فخرج فأتاه برجل. فسأله الوالي: بما تشهد لهذا؟ قال: أشهد أني رأيته مرة عطس عطسة فسقط ضرسه. فأغرق الوالي في الضحك.

وهكذا كان هؤلاء ممن عرف بالنوادر والفكاهة يجلسون في مجالس أهل الحجاز، الذين توفر لهم

١- الأصفهاني: الأغاني ج ١٨ ص ١٨٠

٢- النويري: نهاية الأرب ج ٤ ص ٢٩

٣- انظر الأصفهاني: الأغاني ج ١٩ ص ١٧٦ - ١٧٨

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ثراء وفراغ وقته حين تجمعت بين أيديهم ثروات آبائهم وثرواتهم الشخصية، وابتعدوا عن الاشتغال بالسياسة والوظائف الادارية، فانصرف قسم كبير منهم الى مجالس الطرب والغناء، ومجالس التنادر والفكاهة.

وبجانب تلك المجالس البريئة، كان هناك نوع آخر من المجالس، حيث يجتمع بعض الناس على شرب الخمر. ويبدو أنهم كانوا يحلون نبيذ التمر والفضيخ من الزهر والرطب. وروى أن حسان بن ثابت انتقد هؤلاء قائلا: ((أنتم اليوم مسلمون تشربون هذا النبيذ من التمر والفضيخ من الزهر والرطب))(١). ومن ذلك أن معاوية بن أبي سفيان اعترض على جلد مروان بن الحكم لابن سيحان في نبيذ أهل المدينة، وكتب اليه بابطال الحد عن ابن سيحان(٢).

وكان من ندماء ابن سيحان هذا: عبد الرحمن بن الحكم(٣)، والوليد بن عثمان(٤)، والوليد بن عتبة بن أبي سفيان(٥)، ((وكان كل من قدم من ولاة بني أمية وأحداثهم ممن يصيب الشراب يدعوه ويناديمه))(٦). وكان في المدينة نباذ يسمى ابن حونك(٧)، ومثل تلك المجالس انما هي لفئة محدودة من الناس.

الثراء والتحضر

كثرت الأموال في الحجاز خلال العصر الأموي، وكانت مصادر تلك الأموال شتى، منها ما يعود الى فترة حكومة الخلفاء الراشدين، حين كانت الحجاز دار الحكومة، فانثالت على أهلها الأموال من الفتوحات ولعل أول تلك الأموال جاء نتيجة حروب الردة في عهد أبي بكر الصديق، فبلغ نفل الفارس في بعض تلك الحروب ستة آلاف، والراجل ألفين(٨).

الا أن الأموال الكثيرة تدفقت على أهل الحجاز، في عهد عمر بن الخطاب الذي جاءت كنوز الارض مما كان يفتحه العرب: ((عن أبي هريرة أنه قدم على عمر من البحرين، قال: فلقيته في صلاة الصبح الآخرة، فسلمت عليه، فسألني عن الناس. ثم قال لي: ما جئت به؟ قلت: جئت بخمس مائة ألف. قال: هل تدري ما تقول؟ ... قلت مائة ألف ومائة ألف ومائة ألف فعددت خمسا ... فقال عمر للناس: انسه

١- الأصفهاني: الأغاني ج ١٧ ص ١٦٧ طبعة الهيئة المصرية.
٢- انظر المرجع السابق ج ٢ ص ٢٥١ طبعة الهيئة المصرية.
٣- انظر المرجع السابق ص ٢٥٥.
٤- نفسه ص ٢٤٨
٥- نفسه ص ٢٥٢

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

قدم علينا مال كثير . فان شئتم أن نعده لكم عدا وان شئتم أن نكيله لكم كيلا))[1] . واذا كان ذلك كذلك، فان ما جاء من الفتوحات المظفرة في جبهتي فارس والروم كان أعظم وأكثر . ففي معركة القادسية وحدها ((جمعت الأموال والأسلوب وبيع سلب رستم فبلغ سهم الرجل لكل فارس أربعة عشر ألفا ، وسهم الراجل سبعة آلاف ....))[2] .

وبجانب الفتوحات كثر الخراج فكان خراج الكوفة قبل أن يموت عمر بن الخطاب بضام مائة ألف ألف درهم[3]، وفي رواية أخرى أن الخراج كان عشرين ومائة ألف ألف درهم يحمل منها مابين العشرين ألف ألف الى الثلاثين ألف ألف الى أهل المدينة[4]، اضافة الى ما كان يحمل الى الحجاز من جهات أخرى كالشام ومصر، فرأى عمر بن الخطاب أن ((الفتوح قد توالت وأن كنوز الاكاسرة قد ملكته وأن الحمول من الذهب والفضة والجواهر النفيسة والثياب الفاخرة قد تتابعت فرأى التوسيع على المسلمين وتفريق تلك الأموال فيهم ولم يكن يعرف كيف يصنع وكيف يضبط ذلك — فأشار عليه بعض مرازبة الفرس بتدوين الديوان — فقطن عمر وفرض العطاء فجعل لكل واحد من المسلمين نوعا مقررا))[5]، وهكذا كثرت الأموال بين أيدي الناس فالدولة توزع العطاء عليهم ، والمحاربون يأخذون كذلك نصيبا معلوما من غنائم المعارك التي يخوضونها .

ان فرض عمر العطاء للمهاجرين والأنصار والناس كان سابقة مشكورة حذا حذوها الخلفاء بعده ، وساهم ذلك في اليسر العالي لأهل الحجاز، وكان عمر قد بدأ ((بعم رسول الله صلى الله عليه وسلم، ففرض للعباس وبدأ به[6] ، ثم فرض لمن بعد بدر الى الحديبية أربعة آلاف ، ثم فرض لمن بعد الحديبية الى أن أقلع أبو بكر من أهل الردة ثلاثة آلاف ثلاثة آلاف ... ثم فرض لأهل القادسية وأهل الشام ألفين ألفين، وفرض لأهل الملاء البارع منهم ألفين وخمسمائة ، ألفين وخمسمائة ... وفرض لمن بعد القادسية واليرموك

١ — البلاذري: فتوح البلدان ص ٥٥٤ وانظر الخراج لابي يوسف ص ٤٦

٢ — اليعقوبي : تاريخ ج ٢ ص ١٤٥

٣ — انظر ابو يوسف: كتاب الخراج ص ٢٦

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ألفا ألفا ... وأعطى نساء النبي ، صلى الله عليه وسلم عشرة آلاف عشرة آلاف ... وفضل عائشة بالفين لمحبة رسول الله —صلى الله عليه وسلم اياها . وجعل نساء أهل بدر في خمسمائة خمسمائة ونساء من بعدهم الى الحديبية على أربعمائة أربعمائة ونساء من بعد ذلك الى الأيام ثلثمائة ثلثمائة، ونساء أهل القادسية مائتين مائتين، ثم سوّى بين النساء بعد ذلك وجعل الصبيان سواء على مائة مائة ...))(١).

هذه صورة للأموال التي قررها عمر بن الخطاب ونال أهل الحجاز منها الكثير، كما أن عمر كان ((يرزق الناس الرجل والمرأة والمملوك جريبين كل شهر))(٢)، وكان مناديه ينادي: ((لا تعجلوا أولادكم عن الفطام فانا نفرض لكل مولود في الاسلام))(٣).

ولم تقتصر مصادر الأموال على ما قررته الدولة أو مانالته المحاربون في جبهات القتال، فقد كانت قريش خاصة قبيلة تجارية تعرف طرق استغلال الأموال وتنميتها(٤).

وفي الفترة الأولى من خلافة عثمان بن عفان استمرت الفتوحات واستمر معها تدفق الأموال الى الحجاز ، ومما يلقي أضواء ساطعة على الأوضاع المالية أن الجارية كانت تباع بوزنها ورقا ، وبيع النسمس بعشرة آلاف دينار، وبيع البعير بالف والنخلة الواحدة بالف(٥).

والمؤرخون حين يتحدثون عن الثروات في عهد عثمان يذكرون أرقاما لا تخلو من مبالغة ظاهرة، الا أنها تدل على ما أصاب الناس من ثراء ورفاه ، فابن سعد(٦) يذكر أن قيمة ماترك الزبير بن العوام كانت أحدا وخمسين أو اثنين وخمسين ألف ألف. وانه كان يمتلك بمصر خططا وبالاسكندرية خططا وبالكوفة خططا وبالبصرة دورا ، وكانت له غلات تقدم عليه من أعراض المدينة ، وذكر المسعودي(٧)، أن ربع ثمن مال عبد الرحمن بن عوف الزهري بلغ بعد وفاته أربعة وثمانين ألفا . وروى الرشيد بن الزبير(٨) أن غلة طلحة بن

١— الطبري: تاريخ ج ٣ ص ٦١٤— ٦١٥

٢— البلاذري: فتوح البلدان ص ٥٦٤

٣— المرجع السابق ص ٥٦٢ .

٤— انظر البلاذري: فتوح البلدان ص ٤٧٣

٥— انظر ابن قتيبة: الامامة والسياسة ج ١ ص ٣١، المحب الطبري: الرياض النضرة ج ٣ ص ٥٩

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

عبيد الله كانت كل يوم ألف دينار وقيل أكثر من ذلك.

وعندما ولي علي بن أبي طالب الخلافة انشغلت عليه الأمور، وتركز اهتمام المؤرخين بالحوادث السياسية أكثر من سواها، ومما يذكر أنه وقف لسنتين من خلافته ((عين أبي نيزر والمفيفة))ـ وهما ضيعتان بالمدينة ـ على فقراء أهل المدينة وابن السبيل.(١)

واستعان الأمويون بالمال لتحقيق أغراضهم السياسية، فأفقدوها على أهل الحجاز لاسكاتهم وكسب جانبهم، فأعطى معاوية بن أبي سفيان الحسن بن علي حين تم الصلح بينهما أعطاه مافي بيت مال الكوفة وكان فيه خمسة آلاف ألف(٢) وعندما وفد عليه في احدى السنين في دمشق أجازه بمائة ألف(٣)، وقيل أن عطاء الحسن بن علي كان كل سنة مائة ألف يبعث بها معاوية اليه(٤). ولم تقتصر صلات معاوية وعطاؤه على الحسن بن علي بل نال الكثيرون من أهل الحجاز منها. واتبع يزيد بن معاوية سياسة أبيه في بذل المال، فكان يعطي بعض أهل الحجاز جوائز سنية، وقيل أنه أعطى عبد الله بن جعفر أربعة آلاف ألف وعندما عوتب يزيد في ذلك قال: انما أعطيتها أهل المدينة أجمعين فعايده فيها الا عارية،(٥) وصدق يزيد في ذلك فكان عبد الله بن جعفر يقول: ان الله قد عوّدني أن يتفضل علي، وعودته أن اتفضل على عباده فأخاف أن أقطع العادة فيقطع عني(٦). وفي امارة عثمان بن محمد بن أبي سفيان على المدينة بعث الى يزيد وفدا من أهلها ((فأكرمهم وأحسن اليهم وأعظم جوائزهم فأعطى عبد الله بن حنظلة.. مائة ألف درهم وكان معه ثمانية بنين فأعطى كل ولد عشرة آلاف))(٧) كما أعطى كلا من أعضاء الوفد مائة ألف سوى كسوتهم وحملانهم.(٨)

١ـ انظر احمد زكي صفوت: جمهرة رسائل العرب ج ١ ص ٦٠٦ مكتبة مصطفى البابي الحلبي ١٩٥٢

٢ـ انظر الطبري: تاريخ ج ٥ ص ١٦٠

٣ـ انظر ابن عبد ربه: العقد الفريد ج ١ ص ٢٦٨

٤ـ انظر السيوطي: تاريخ الخلفاء ص ١٩٣

٥ـ انظر ابن عبد ربه: العقد الفريد ج ١ ص ٢٦٩

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وعندما سيطر عبد الله بن الزبير على الحجاز تطلع اليه الناس ولكنه عرف بالبخل، ووجد الحجاج في بيت ماله بعد القضاء عليه عشرة آلاف ألف درهم (١)، وقيل بل كانت دنانير (٢)، وكان أخوه مصعبا كريما جوادا، حتى قيل أنه وهب ((نخلة كانت لبعض الاكاسرة مصنوعة من الذهب مرصعة بالجوهر والياقوت الأحمر والأصفر والزبرجد ... فجمع من يقومها فبلغت القيمة ألفي ألف دينار . فدفعها الى عبد الله بن أبي عروة ... وكان أيسر أهل المدينة)) (٣). وشخص مصعب بن الزبير الى مكة سنة سبعين فقدمها بأموال عظيمة فقسمها في أهله وغيرهم وقدم بدواب كثيرة وظهر وأثقال، فأرسل الى عبد الله بن صفوان وجبير بن شيبة وعبد الله بن مطيع مالا كثيرا ونحر بدنا كثيرة (٤). وفي مناسبة أخرى أمر لعاصم بن عمر بستة عشر ألف دينار وأضعفها لعبد الله بن جعفر (٥). ووصف البلاذري (٦) جود مصعب بن الزبير فقال : انه كان جوادا وبلغ من جوده أنه كتب الى أخيه عبد الله : من سألك شيئا فاكتب الي له ، فان أعطيته كان حمده لك وان منعته كان ذمه لي ، فلم يكتب لأحد اليه الا أعطاه .

ولما استقرت الخلافة في أسرة مروان بن الحكم، استخدموا الأموال أيضا لخدمة أغراضهم السياسية ((فكانوا يكسون الناس الخز)) ويجزلون لهم الأعطيات واذا حجّوا قسموا الأموال بين الناس في الحجاز (٧). فعل الوليد بن عبد الملك وأخوه سليمان الذي حج سنة سبع وتسعين فأمر لخارجة بن زيد بن ثابت خمسة وثلاثين ألف دينار (٨)، وذكر أنه ((قسم بين أهل المدينة قسما، وفرض لقريش خاصة أربعة آلاف فريضة، ولم يدخل فيها حليفا ولا مولى ... فدخل عليه مشيخة قريش وقالوا : انك قد فرضت لنا أربعة ألاف فريضة (٩)

١ — انظر البلاذري : أنساب الأشراف ج ٥ ص ٣٧٦
٢ — انظر الرشيد بن الزبير : الذخائر والتحف ص ٢٠٨
٣ — الرشيد بن الزبير : الذخائر والتحف ص ١٧٣ — ١٧٤
٤ — انظر الطبري : تاريخ ج ٦ ص ١٥٠
٥ — انظر الجهشياري : الوزراء والكتاب ص ٤٦
٦ — أنساب الأشراف ج ٥ ص ١٩٥
٧ — الرشيد بن الزبير : الذخائر والتحف ص ٢١١
٨ — انظر اليعقوبي : تاريخ ج ٢ ص ٢٨٥

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

لا تدخل علينا فيها حليفا ولا مولى ، فرأينا أن نكافئك ونجعلها في حلفائنا وموالينا ، فنحن أخذ موئة منهم ، ففرض لهم أربعة آلاف فريضة أخرى))[1]. واستمر أهل الحجاز يأخذون الاعطيات والصلات أيام الأمويين فقد ((أعطى هشام بن عبد الملك محمد بن أبي الجهم ثلاثة آلاف دينار))[2]. ولكن هشاما قطع اعطيات أهل الحجاز لمدة سنة حين ثار زيد بن علي عليه في الكوفة . ثم لم يلبث العطاء ان عاد زمن الوليد بن يزيد[3]. هذا بجانب ما كان ينفقه الأجواد في الحجاز كعبيد الله بن عباس وعبد الله بن جعفر وسعيد بن العاص[4]، وعبد الله بن عامر بن كريز وحمزة بن عبد الله بن الزبير[5] وسواهم .

وهذه الأموال التي كانت تنصب في حجور الحجازيين كثرت ونمت وبلغت لدى البعض مبلغ الثراء الواسع . ومن الأمثلة على ذلك ثراء العرجي الشاعر، فقد روي أن مجاعة حدثت فأمر باطعام الناس واعطائهم، وبلغ ما أخرجه حينئذ عشرين ألف دينار . كما روى أنه كان يلبس الحلتين قيمتهما خمسمائة دينار[6]. وغير العرجي أثرياء كثيرون، فكان أحد أحفاد عثمان بن عفان من أكثر الناس مالا ، وكانت السماء تمرق فيقول : امطري حيث شئتِ فلا تمطرين على بلد الا ولي فيه مال . وحين توفي ترك لورثته مالا عظيما[7].

يسرت تلك الثروات لأهل الحجاز أن يتحولوا من حياة الشظف الى حياة العيش الرغيد ، فتغيرت الحياة الاجتماعية ، وارتقت الحياة العربية، وارتفع مستوى الحضارة والتمدن في البيت الحجازي، وكان للموالي والرقيق من الفرس والروم وغيرهم من الأجناس التي خضعت لنفوذ العرب دور كبير في الانتقال بالبيت الحجازي من خشونة البداوة الى ترف الحضارة، ((فاستعملوهم في مهنهم وحاجات منازلهم واختاروا منهم

١ــ اليعقوبي : تاريخ ج ٢ ص ٢٩٨

٢ــ القلقشندي : صبح الأعشى ج ١ ص ٢٦٤ نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب المصرية

٣ــ انظر الأصفهاني : الاغاني ج ٧ ص ٢٢ نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب المصرية

٤ــ انظر ابن عبدربه : العقد ج ١ ص ٢٠٢

٥ــ انظر عن أجواد الاسلام : ابن حبيب : المحبر ص ١٤٦ ــ ١٥٦

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

المهرة في أمثال ذلك والقومة عليهم أفادوهم علاج ذلك، والقيام على عمله والتفنن فيه ، مع ماحصل لـ من اتساع العيش والتفنن في أحواله . فبلغوا الغاية من ذلك وتطورا بطور الحضارة والترف في الأحوال واستجادة المطاعم والمشارب والملابس والمباني والأسلحة والفرش والآنية وسائر الماعون والخرش ... فأتوا من ذلك وراء الغاية))[1]. وكان الرقيق في ذلك العصر قد كثر كثرة ملحوظة وانتشر في بيوت أهل الحجاز

وتمثل التطور الحضاري الحجازي في عدة أمور منها تشييد القصور والتفنن في بنائها ، واستخدموا البنائين من الأمم المغلوبة في بنائها[2] ، وامتد البناء في المدينة حتى بلغ سلما في عهد عثمان بن عفان ، وتحضر القوم فبنيت قصورهم ودورهم بالآجر والجص والساج[3] ، وابتنى سعد بن أبي وقاص داره ورفع سمكها ، ووسع فضاءها وجعل أعلاها شرفات، كما ابتنى المقداد بن الأسود دارا في ظاهر المدينة جعلها مجـ الظاهر والباطن[4]. ومعاوية بن أبي سفيان بنى بمكة دورا يقال لها الرقط اذ بنيت بالآجر الأحمر والجص الأبيض فكانت رقطا ، وكان قد حمل اليها البنائين من الفرس الذين كانوا بالعراق[5]، وكان معاوية يدفع الثمن الباهظ في الدار المتقنة البناء فقد اشترى من حويطب بن عبد العزى دارا بالمدينة بأربعين ألف دينار، فاستشرف الناس لذلك[6] وعندما حج في خلافته أعجب بدار عبد الله بن الحارث بمكة ((فجعل يـ الى الدار ، فخرج اليه عبد الله بن الحارث، وهو شيخ كبير بمحجن ليضربه ، وقال : لا أشبع الله أما تكفيك الخلافة حتى تطلب هذه الدار))[7]. ويظهر أن دار عبد الله هذه قد أثارت اهتمام معاوية بـ بنائها وحسن مظهرها ، والا لما وقف هذا الموقف وهو الواسع السلطان والأموال .

وقد توسعت حركة التفنن في البناء، فكان أحدهم يبني القصر ويتخذ حوله حدائق غناء كالذي أن سعيد بن العاص ((كان له منزل بالمرصة وغرس فيه النخل وزرع فيه وبنى قصرا معجبا))[8]. وصار جمـ

١ـ ابن خلدون : المقدمة ج ٢ ص ٦٥٩
٢ـ انظر الطبري : تاريخ ج ٤ ص ٢٨٤
٣ـ انظر ابن خلدون : المقدمة ج ٢ ص ٧١٣
٤ـ انظر المسعودي : مروج الذهب ج ٢ ص ٣٤٢
٥ـ انظر الأزرقي : أخبار مكة ج ٢ ص ٢٣٧
٦ـ انظر النويري : نهاية الأرب ج ٤ ص ٢٤٠

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ذلك الى معاوية الذي اشتراه من عمرو بن سعيد بن العاص بثلثمائة ألف درهم(١)

واستمرت حركة البناء في التوسع والامتداد ، ففي عهد خلافة ابن الزبير انتقد ابن عباس اتخاذ القصور بأجياد وقعيقعان(٢) وقال لابن صفوان((هيهات ، هيهات ، تركت والله سنة عمر ٠٠٠ قضى عمر أن أسفل الوادي وأعلاه مناخ للحاج ، وأن أجياد وقعيقعان للمريحين والذاهبين ، واتخذتها أنت صاحبك دورا وقصورا))(٣) ٠ وحين كثرت الأموال على ابن الزبير هدم الكعبة وجدد بناءها وكساها القباطي(٤) وسمح بالخلوق داخلها وخارجها فكان أول من خلقها(٥) ٠

وأخذ أهل الحجاز بنصيب وافر من تلك المظاهر الحضارية فاتخذوا القصور والبساتين كقصر عروة بن الزبير ومزارعه(٦) ، وقصر عاصم بن عمر بن عثمان(٧) ، وقصر عنبسه بن العاص الذي بناه بالحجارة المطابقة(٨) ، وبنيت هذه القصور في العقيق الذي كان أهل المدينة يخرجون اليه متنزهين(٩) ، وهناك قصور أخرى اتخذت في الجماوات وفي العرضة كقصر سعيد بن العاص الذي غرس النخل والبساتين بجانب القصر وكان نخلها(١٠) أبكر شيء بالمدينة ٠ وعدد السمهودي قصورا شتى لأهل المدينة حفلت بألوان عديدة تبرز تغيرا ظاهرا(١١) في حياة أهل الحجاز الاجتماعية(١٢) ٠

وتجاوزت حركة البناء والعناية بالبساتين المدينتين المقدستين ، ففي الطائف كانت تنتشر البساتين ومنها كانت الفواكه ترسل الى مكة(١٣) ، ومن البساتين المشهورة بها بستان لعمرو بن العاص أعجب به سليمان ابن عبد الملك حين زاره في خلافته(١٤) ، والى الطائف كان يتجه أهل مكة وأهل المدينة فيقيمون بها يتنزهون

١ـ انظر الاصفهاني : الأغاني ج ١ص١٢، ٣٥
٢ـ أجياد : موضع بمكة يلي الصفا ، انظر ياقوت: معجم البلدان ج ١ص١٠٥، قعيقعان : اسم جبل بمكة ، انظر المرجع السابق ج ٤ ص ٣٧٩
٣ـ الازرقي : أخبار مكة ج ٢ص ١٦٤
٤ـ انظر المرجع السابق ج ١ص ٢١٠
٥ـ انظر اليعقوبي : تاريخ ج ٢ص ٢٦٠
٦ـ انظر السمهودي : وفاء الوفا ج ٣ ص ١٠٤٤
٧ـ انظر المرجع السابق ص ١٠٤٨
٨ـ انظر نفسه ص ١٠٥١ والحجارة المطابقة : الطبق من كل شيء ماساواه ، وقد طابقه مطابقة ٠
٩ـ انظر نفسه ص ١٠٥٢
١٠ـ انظر نفسه ص ١٠٥٣

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

لطيب مناخها (١)، خاصة ممن جمع منهم الى ضخامة الثروة شرف المكانة.

وقد ساهمت الدولة الأموية نفسها في التحول الحضاري الحجازي فمعاوية بن أبي سفيان كان قد ((أجرى في الحرم عيونا واتخذ لها أخيافا (٢) فكانت حوايط وفيها النخل والزرع)) (٣). وفي خلافة الوليد ابن عبد الملك كتب الى عمر بن عبد العزيز، وهو على المدينة، في ((تسهيل الثنايا وحفر الآبار، وأمره أن يعمل الفوارة بالمدينة، ففعلها وأجرى ماءها. فلما حج الوليد ورآها أعجبته فأمر لها بقوام يقومون عليها وأمر أهل المسجد أن يستقوا منها)) (٤). وبعث الوليد الى خالد بن عبد الله القسري، وهو على مكة، ((بثلاثين ألف دينار، فضربت صفائح وجعلت على باب الكعبة وعلى الأساطين التي داخلها وعلى الأركان والميزاب فكان أول من ذهب البيت في الاسلام)) (٥). وهذه الأعمال العمرانية كانت تتم في الحجاز تحت سمع أهلها وبصرهم وربما باشتراكهم.

وفي عهد خلافة سليمان بن عبد الملك ((أراد الحج، فكتب الى خالد بن عبد الله، وهو عامل مكة، يأمره أن يجري له عينا تخرج من الثقبة من الماء العذب حتى تظهر بين زمزم والركن الأسود ... فعمل خالد البركة، عملها في أصل ثبير، عملها بحجارة منقوشة، واستنبط ماءها من ذلك الموضع ... ثم شق من هذه البركة عينا تجري الى المسجد الحرام في قصب من رصاص حتى أظهرها في فوارة تسكب في فسقية رخام بين الركن وزمزم)) (٦)، ومن الطبيعي أن يجاري السكان الدولة في أعمالها العمرانية فالناس على دين ملوكهم.

ولم تقتصر المظاهر الحضارية على القصور التي شيدت والبساتين التي غرست والمياه التي استنبطت، بل تجاوز أهل الحجاز ذلك الى المطاعم والملابس، فكانوا يذبحون الشاة ويعملون منها

١ـ انظر النويري: نهاية الارب ج ٤ ص ٢٧٩

٢ـ أخياف: ما انحدر عن غلظ الجبل وارتفع عن مسيل الماء، انظر الفيروز آبادي: القاموس ج ٣ ص ١٤٤

٣ـ انظر الازرقي: أخبار مكة ج ٢ ص ٢٢٧

٤ـ ابن الاثير: الكامل ج ٤ ص ٥٣٣

٥ـ اليعقوبي: تاريخ ج ٢ ص ٢٨٤ وانظر كذلك العمري: مسالك الأبصار في ممالك الأمصار ج ١ ص ٩٨

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ألوانا من الطعام،(١) ومنهم من كان يأكل كل يوم خبيصا معصودا(٢) فيما يعمل له من طعام،(٣) وكان بعضهم يفضل عليه الخزير،(٤) كما أن البعض منهم كان يجمع بين الشواء والطلاء والغناء في مجلس الطعام،(٥) وذكر الجاحظ(٦) أن أهل الحجاز قد لبسوا الكتان وأكلوا الدرمك(٧) منذ زمن عمر بن الخطاب(٨). وتميز طعام الطبقة الفقيرة بالبساطة والقلة(٩). وشرب بعض أهل الحجاز شرابا من عسل الطائف.

ان الفتوحات الاسلامية والنتائج التي ترتبت عليها جعلت الفاتحين العرب على صلة مباشرة بحضارات الأمم التي خضعت لهم، فتصرفوا على ألوان من الأطعمة لم تكن معروفة لديهم من قبل، واقتبسوا منهم أسباب البذخ ودواعي الترف. وذكر أن أول من قلد الأعاجم في أسباب الترف من الخلفاء كان معاوية ابن أبي سفيان فنعم بمأكله ومشربه،(١٠) واقتدى به خلفاؤه وسائر الناس خاصة بعد أن كثرت الأموال في أيديهم.(١١) واتخذت الآنية من الذهب والفضة،(١٢) واذا كان من البدو من يستخدم الأواني المفضضة فقد أغرقت المدن، بالتالي، في التحضر والترف الحضاري، ذلك أن الأمة ((اذا تغلبت وملكت ما بأيدي أهل الملك قبلها كثر رياشها ونعمتها فتكثر عوائدهم ويتجاوزون ضرورات العيش وخشونته الى نوافله ورقته وزينته))(١٤).

هذا بجانب تفنن أهل الحجاز وترفهم في الألبسة(١٥)، فقد لبسوا الخز والديباج والاستبرق والحلل

١ــ انظر الزبير بن بكار: جمهرة نسب قريش ج ١ ص ٣٠٢

٢ــ الخبيص: حلواء معمول من التمر والسمن يخبص بعضه في بعض. انظر الزبيدي: تاج العروس ج ٤ ص ٣٨٥ ((مادة خبص)).
المعصود: دقيق يلت بالسمن ويطبخ. الزبيدي: تاج العروس ج ٢ ص ٤٢٣ ((مادة عصد))

٣ــ انظر الزبير بن بكار: جمهرة نسب قريش ج ١ ص ٣٠٦

٤ــ الخزير (الخزيرة) لحم يؤخذ فيقطع صغارا في القدر ثم يطبخ بالماء والملح، فاذا أميت طبخا ذر عليه الدقيق فعصد به ثم أدم بأي ادام، ولا تكون الخزيرة الا وفيها لحم، فاذا لم يكن فيها لحم فهي عصيدة. انظر المرجع السابق ص ٣٠٧.

٥ــ انظر ابن قتيبة: عيون الاخبار ج ٣ ص ١٩٨، الأصفهاني: الأغاني ج ١٥ ص ٣٥ ط. دار الكتب

٦ــ انظر رسائل الجاحظ ج ٢ ص ٣١

٧ــ الدرمك: الدقيق الحواري والخبز المتخذ منه.

٨ــ انظر ابن قتيبة: عيون الاخبار ج ٣ ص ٢٠٤، ٢٠٨، ٢٠٩

٩ــ انظر المرجع السابق ص ٢٠٥

١٠ــ انظر جورجي زيدان: تاريخ التمدن الاسلامي ج ١ ص ٨٨

١١ــ انظر محمد حسين الزبيدي: الحياة الاجتماعية والاقتصادية في الكوفة ص ٦٤

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الموشاة، ذات الاثمان المرتفعة، وروى أن تميما الداري اشترى حلة بالف دينار، وقيل أن ابن عباس (١) (٢) كان يرتدي رداء بالف، كما رؤي على محمد بن الحنفية مطرف خز أصفر. وروى ابن قتيبة أن ربيعة (٣) (٤) بن أبي عبد الرحمن قال : ((رأيت مشيخة بالمدينة في زي الفتيان لهم الغدائر وعليهم المورد والمعصفر وفي أيديهم المخاصر وبها أثر الحناء)). وكان فتية بني مروان يرفلون في القوهي والوشي (٥) كأنهم الدنانير الهرقلية. ولم يقتصر ذلك على الاموبين فقد شاركهم فيه أهل الحجاز، فروي أن الهذلي أحد المغنين (٦) بمكة، كان اذا أمسى أشرف على المسجد، وغض وهو في الجبل فلا يلبث أن يرى الجبل وقد صار كقرص الخبيص صفرة وحمرة من أردية قريش (٧).

وهذا الترف في الملابس كاد أن يكون شيئا عاما فعمر بن عبد العزيز أبان ولايته على المدينة (٨) (٩) يرتدي الثوب باربعمائة، والمرجي يلبس الحلتين بخمسمائة، وذكر خالد بن خداش أنه رأى على مالك ابن أنس طيلسانا طرازيا وقلنسوة وثيابا مروية جيادا، وفي بيته وسائد ونمارق مطروحة يمنة ويسرة فسي سائر البيت لمن يأتيه من قريش والانصار ووجوه الناس، قال : فقلت له : يا أبا عبد الله الذي أرى شيئا (١٠) حدثته أم وجدت الناس عليه ؟ قال : رأيت الناس عليه. فمالك اذن يقلد أهل الحجاز في ثيابهم وأثاث بيوتهم. وغالى بعضهم فكان مروان بن أبان بن عثمان يلبس ((سبعة قمص كأنها درج بعضها أقصر من بعض وفوقها رداء عدني بالفي درهم)). هذا بجانب أن بعض أهل الحجاز كانوا يظهرون المسك والعنبر (١١) (١٢) والكافور والصندل والعود وأصناف الطيب والجواهر.

١ـ انظر الاصفهاني : الاغاني ج ١ ص ٢٦٥، ٢٦٨، ٢٢٩

٢ـ انظر ابن قتيبة : عيون الاخبار ج ١ ص ٢٩٧

٣ـ انظر المرجع السابق ص ٢٩٨

٤ـ انظر المرجع السابق ص ٢٩٩

٥ـ القوهي : نوع من الثياب أبيض منسوب الى قوهستان بفارس، وكل ثوب يشبهها يقال له قوهي.

٦ـ انظر الاصفهاني : الاغاني ج ١ ص ٣٢٠ ط. الهيئة المصرية العامة.

٧ـ انظر المرجع السابق ج ٥ ص ٦٥ ط. دار الكتب المصرية

٨ـ انظر ابن سعد : الطبقات ج ٥ ص ٣٣٤

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

هذه بعض مظاهر البذخ والترف التي شاعت في العصر الأموي بين أهل الحجاز، وكان بعضهم يتخذ للخيل والنجائب من الإبل مظهرا خاصا[1]، فكانوا يخصّون النجائب بعضون فوقها القطوع والديباج، كما وضع بعضهم في أعناق خيولهم أطواقا من ذهب[2].

وأخذت المرأة الحجازية هي الأخرى بنصيب وافر من العناية بملابسها وزينتها وحليها، على قدر حالها وامكانها فجملّت نفسها ((بالاعتناء بالنظافة و بالثياب وبالحلية كالخلخال والسوارين والخاتم ... والقرطين والقلائد وبالتجميل بالكحل وبالمساحيق التي توضع على الوجه والدهن الذي يدهن به الشعر وخضاب الكف والقدم وبالوشم وما شاكل ذلك من أمور وتحلية كانت معروفة في ذلك العهد))[3]. ولبست المرأة الحجازية الثياب الرقيقة الشفافة[4]، ومنهن من كانت تخضب أطرافها وتتزين باللؤلؤ والياقوت والجواهر الكريمة[5]، فكانت سكينة بنت الحسين تثقل ابنتها الرباب باللؤلؤ[6]، كما شاع التختم في الأصابع بين الرجال والنساء[7].

ويتضح بذلك البون الشاسع بين شظف عيش الرعيل الأول من المسلمين وترف أبنائهم في العصر الأموي. ومما يؤكد ذلك أن السيدة عائشة سئلت عن ثوبها زمن النبي، صلى الله عليه وسلم، فقالت: ((أما والله ما كان خزا ولا قزا ولا ديباجا ولا قطنا ولا كتانا ... بل كان سداه من شعر ولحمته من أوبار الإبل))[8]. وأين هذا مما وصلت اليه المرأة الحجازية في العصر الأموي من تحضر وترف حتى قيل أن بعضهن كان لهن ماشطة خاصة![9]

١- انظر الأصفهاني : الاغاني ج ١ ص ٢٢٩، ٢٦٦ ط. الهيئة المصرية العامة.

٢- انظر المرجع السابق ص ٢٦٧

٣- جواد علي : المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام ج ٤ ص ٦٢٣

٤- انظر الأصفهاني : الاغاني ج ١ ص ٢٢٢، ٤١٨

٥- انظر ديوان عبيد الله بن قيس الرقيات ص ٣٥

٦- انظر الأصفهاني : الاغاني ج ١ ص ٤٠٢، ج ٨ ص ٢٧٣، ٢٧٦

٧- انظر المرجع السابق ج ١٩ ص ١٢٧ ط. الهيئة المصرية العامة.

٨- انظر الزبير بن بكار : جمهرة نسب قريش ج ١ ص ٣٢٧، الأصفهاني : الاغاني ج ١ ص ٢٣٩

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وشاع في المجتمع الحجازي الخضاب فبجانب تخضب النساء كان الرجال يخضبون لحاهم،(١) ويضمون على رؤوسهم الدهن.(٢) وانتشر بين الناس استعمال الطيب، ومن أنواعه المسك والكافور والعنبر، وكان ابن عباس يضع على رأسه الغالية.(٣) وحين حاصر الحجاج عبد الله بن الزبير في مكة شرب المسك مخافة أن يصلب فيشتم نتنه(٤) عندما أدرك نهايته المحتومة. أما عثمان بن عروة بن الزبير فكان يكثر من وضع الغالية، وكان حين يقوم من مصلاه يأتي ناس يسلتون الغالية من على الحصا مما أصابها من لحيته.(٥)

وأكثر عمر بن عبد العزيز في ولايته على المدينة من الطيب، فكان بعض أهل المدينة يعطون الغسال الدراهم الكثيرة حتى يغسل ثيابهم في أثر ثيابه من كثرة الطيب فيها.(٦)

وانتشر في الحجاز كثير من تلك المظاهر ((التي نراها في المدن حين تتحضر ، فعم فيها الاهتمام بفن الغناء، وعم فيها شيء كثير من الترف، وأخذ يسود المجتمع ضرب من الحرية في حياة الرجل والمرأة(٧))). وفي جوانب الحياة الجديدة ظهر الترف واللهو ومعهما فراغ كثير من الشباب، فانصرف هؤلاء الى الملاهي وشجعهم أن بعض شخصيات ذلك العصر كانوا يحضرونها، فقد قال عبد الله بن صفوان لعبد الله بن جعفر : ((أبا جعفر، لقد صرت حجة لفتياننا علينا ، اذا نهيناهم من الملاهي ، قالوا : هذا ابن جعفر سيد بني هاشم يحضرها ويتخذها))(٨).

١— انظر الأصفهاني : الاغاني ج ١٩ ص ١٤٣

٢— ابن قتيبة : عيون الأخبار ج ١ ص ٣٠٠

٣— انظر المرجع السابق ص ٣٠٣ والغالية : نوع من الطيب مركب من مسك وعنبر وعود ودهن .

انظر الزبير بن بكار : جمهرة نسب قريش ج ١ ص ٣٠٥

٤— انظر البلاذري : أنساب الأشراف ج ٥ ص ٣٦٧

٥— انظر الزبير بن بكار : جمهرة نسب قريش ج ١ ص ٣٠٥

٦— أنظر الأصفهاني : الاغاني ج ٩ ص ٢٦٢ ط. دار الكتب المصرية

٧— شوقي ضيف: التطور والتجديد في الشعر الأموي ص ٢٢١

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وقد نهض الرقيق بهذا اللون من اللهو ((وفتح النوادي في المدينة ومكة جميعا بحيث أصبحت نواديه أشبه بدور الخيالة والمسارح في عصرنا ، واشتهر في المدينة نادي جميلة أو كما يقولون دارها التي خرّجت مئات المغنين والمغنيات))(١). ولا شك أن الموالي والرقيق قد يسروا لأهل الحجاز التعرف عن قرب بالحضارات التي كانت سائدة في بلادهم ، فنشأ من ذلك مزيج حضاري نعم به الحجازيون في العصر الأموي.

كانت للحجاز اذن بيئة اجتماعية حضارية خاصة ((وقد كان وقع في صدر الاسلام الانتماء الى المواطن))(٢). ونجد من أهل الحجاز من يسكب مشاعره في الحنين الى الوطن في أشعار رقيقة كأبي قطيفة الشاعر الذي أخرجه ابن الزبير من المدينة مع بقية الأمويين(٣).

ويتضح مما سلف أن أهل الحجاز عاشوا في هذا العصر حياة جديدة ، ساهم الأمويون في صنعها وظهر التحول في المساكن والمطاعم والملابس، وانتقلوا من خشونة العيش وشظفه الى رغده وسعته .

١ـ شوقي ضيف : التطور والتجديد في الشعر الأموي ص ٢٧

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الخاتمـــــة

تناولت في هذه الدراسة تاريخ اقليم الحجاز ، سياسيا واجتماعيا، خلال عصر حكم بني أمية، الذين كانوا قد ملأ نفوذهم منذ خلافة عثمان بن عفان، حين قدت الادارة تعتمد في الغالب على أقرباء الأمويين، وتسنموا مناصب أهم الولايات: معاوية بن أبي سفيان على الشام، والوليد بن عقبة على الكوفة، وعبد الله بن عامر على البصرة، وعبد الله بن أبي سرح على مصر، ومروان بن الحكم مشير وكاتب للخليفة في المدينة المنورة.

وتمكن الأمويون، مع مرور الزمن، من عزل عثمان عن رجال الشورى ، وغدوا بطانة له ، ونظروا الى خلافته على أنها ملك لبني أمية ... واستغلوا ظروف الخليفة الشيخ ، وانتهزوا الفرص، فكانت خلافة عثمان بداية فعلية لحكم بني أمية.

ولم يقتصر الأمر على تمتع بني أمية بالمناصب العليا في الدولة، بل حباهم الخليفة وأجزل لهم الصلات والهبات، فنشأ في المدينة نفسها سخط على ما بلغه البعض من بسطة سياسية في عهد عثمان، وعلى استغلال هؤلاء للموارد الاقتصادية في الدولة ، خاصة وأن تكدس الثروات ظهر جليا لدى البعض في تلك الفترة.

ولم يقتصر السخط على المدينة، بل انتشر في الأمصار، حين شعرت بالفوارق الاقتصادية والاجتماعية، وازداد التذمر وحدة وعنفا حين ارتبط بتيار التعصب القبلي ، وأخذت القبائل تسخط على قريش سيادتها واستئثارها بالمناصب والثروة ، وقريش تسخط ايثار عثمان بني أمية، وحدب عليهم واقطاعهم الاقطاعات. وظهر بوضوح التفكك الذي أصاب وحدة أهل الحجاز وتآلفهم واجتماعهم كلمتهم . وأخذ بعضهم يعدد أعمال الخليفة، ويقارن سيرته بسيرة من سبقه في تولي أمور المسلمين ، وتجرأ البعض على عثمان وأخذت هيبة الخلافة في الضعف.

وليس هنا مكان الدفاع عن عثمان الذي فسرت اجراءاته وادارته في بعض الأمور، تفسيرا أساء

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

واشتدت رياح الفتنة في العامين الأخيرين من خلافة عثمان، وخذل الناس من أهل الحجاز خليفتهم حين أقبلت جموع الثائرين من أهل الأمصار لأسباب سياسية واقتصادية واجتماعية، فحصروا الخليفة، ثم لم يلبثوا أن قتلوه . ولا يعقل أن يعجز أهل الحجاز لو رغبوا عن صد الثائرين مع قلة عددهم، ونفاذ مؤنهم، وظهورهم على حقيقتهم العدوانية .

سادت الفوضى عاصمة الخلافة اثر مقتل عثمان، وكان حادثا مشئوما على أهل الحجاز، ونقطة تحول هامة في تاريخ الحجاز السياسي . فأخذت البلاد منذئذ تدور في فلك التبعية للأمصار التي تزايد نفوذها . وانكسر الباب الوثيق الذي كان يفصل بين قريش والعرب . وكانت الفاجعة بعثمان مبعث كل فتنة في الأمة، ودق إسفين الانقسام والاختلاف بين الناس .

أما الأمويون، فكانت خلافة عثمان في بدايتها مكسبا أدبيا ومعنويا لهم، وفي نهايتها ورقة رابحة في أيديهم مهدت لهم سبيل الوصول الى الخلافة تحت ستار الطلب بدم عثمان .

ووسط مظاهر انقسام الناس على أنفسهم، وعدم اجتماع كلمتهم، الى جرأة أهل الأمصار وسيطرتهم على المدينة المنورة، أختير علي بن أبي طالب للخلافة بالأغلبية، اذ اعتزل المحض وهرب الأمويون . . . ولم يتمكن علي من إقامة الحدود على قتلة عثمان، وألقيت كل المشكلات على عاتقه، فكانت خلافته حافلة بالقلاقل والحروب من بدايتها .

وتبع عزل علي عمال عثمان في الأمصار، ظهور الاضطراب والانقسام في الحجاز نفسها، فاضطر الخليفة الى خوض العديد من الحروب الأهلية، التي كلفت الأمة غاليا من الدماء . وعمقت الفرقة والاختلاف، ولم تؤد الى وضع حد لمتاعب علي بن أبي طالب، وخسر أهل الحجاز بعض أعلامهم الذين سقطوا صرعى في ميادين القتال . وأصيبت الوحدة الوطنية الحجازية بصدع . وتثاقل بعض أهل الحجاز عن الوقوف في جانب الخليفة . وأصبح دور أهل الحجاز ثانويا في الأحداث السياسية، وتنازلت بلادهم عن زعامتها وسيادتها الى الأمصار التي غدت أكثر اغراء بالرجال والمال .

والواقع أن السفارات السلمية التي بذلت لإخماد نيران الحرب الأهلية قد فشلت فكان تسوية

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وتطف الأمويون ثمرة ذلك بزعامة معاوية بن أبي سفيان، الذي نجح في تأليب أهل الشام ضد الخليفة، وأتهمه أنه قعد عن نصرة عثمان وآوى قتلته . وواتت الظروف معاوية، اذ كان علي في أخبث جند وأعصاه، وأجبر انقسامهم وانعدام الوحدة والتآلف بينهم الخليفة على سلسلة من التنازلات عند رغبتهم، مما أضاع عليه فرصا كثيرة لحسم الأمور، ووقعت ادارته في ارباك مستمر . وانتهز معاوية تلك الظروف، فاستولى على مصر، وبعث الجند للغارة على دولة علي كحملة بسر بن أبي أرطاة على الحجاز واليمن . كما نجح في استغلال قوى الاتجاهات القبلية ، فقوى أمره ، وعظم مركزه ، فاتخذ لنفسه لقب خليفة . فاستفز علي جيشه ، الا أنه لم يلبث أن طعن .

وأفسح اغتيال علي المجال أمام معاوية بن أبي سفيان لتدعيم موقفه وتحقيق أمانيه في تولي الخلافة، وتحسّول موقفه فاقبل نحو العراق لاخضاعها . ولم يتمكن الحسن بن علي من تنظيم دولته اثر مبايعته بالخلافة، فجنح الى السلم، حين رأى تواكل جنده عن الحرب، وخذلانهم اياه ، فتنازل عن الخلافة لصالح معاوية . وبدأ عصر جديد من عصور الحكم في الدولة الاسلامية ، هو عصر الخلافة الأموية التي اتخذت من دمشق عاصمة لها .

واختلف موقف المسلمين من خلافة معاوية بن أبي سفيان بين التأييد والمعارضة، وكان أهل الحجاز من هؤلاء المعارضين، بل ومن أشدهم معارضة للدولة الأموية ولخلافة معاوية . اذ كانوا يرون أن الخلافة حق المهاجرين الأولين وابنائهم بالشورى ، لا في بني أمية، الذين ليس لهم في الاسلام سابقة .... كما أن وصول معاوية الى الخلافة قد صوحب بأحداث لا مثيل لها في سوابق اختيار الخلفاء .... ولم ينتخب انتخابا عامة في المدينة المنورة، وانما رضي به أهل الشام وبايعوه ، واعتمد عليهم في تحدي الخليفة ومنازعته ، وتمكن آخر الأمر بفضل قوته من تحقيق أمانيه في تولي الخلافة ، التي ان كانت انما تنال بالوراثة وتستحق بالقرابة، وتستوجب بحق العصبية، فليس لبني أمية من ذلك نصيب، وان كانت تنال بالسابقة فليس لمعاوية في السابقة قديم مذكور ولا يوم

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ولم يرض أهل الحجاز أن تكون بلادهم على هامش الدولة، وأن تكون الخلافة في الشام وما يستتبع ذلك من دفع خراج الحجاز، فيحمل كل عام الى دمشق. كما أن العلاقات الودية، لم تكن كما ينبغي أن تكون، بين قريش ومعاوية الذي استأثر عليها، وأساء الى بعض بطونها. ولم يقتصر ذلك على قريش بل تجاوزه الى الأنصار والأتقياء وأهل الورع الذين كانوا يحسّون أن الأمويين نقلوا الخلافة الى حكم زمني متأثر بأسباب دنيوية مطبوعة بطابع العظمة وحب الذات.

ولم تلجأ المعارضة الحجازية الى القوة المسلّحة ضد معاوية الذي استطاع أن يتخطى العقبات واصطنع سياسة اللين والحلم والمال في معاملة السكان، واختط لادارة الحجاز سياسة مميزة، فأسند حكم مدنها الى أقربائه الأمويين. ولم يترك أولئك الولاة يتمتعون بالحكم فحرص على ايقاع الفرقة والخلاف بينهم، وكان ذلك بالاضافة الى شدة الولاة في معاملة السكان، ومظاهر الملك الأموي، من الأمور التي نفذ الساخطون منها الى معارضة الحكومة، وتوجيه النقد اليها.

وعندما عزم معاوية على بيعة ابنه يزيد بولاية العهد، واتت الفرصة زعماء أهل الحجاز، الذين كانوا يطمعون في الوصول الى الخلافة بموت معاوية، ويسعون اليها ويرون أحقيتهم فيها، واتتهم الفرصة للاعلان عن آرائهم ونظرتهم الى توريث الملك نظرة استنكار واستنكار، وعدوه تقليدا لأكاسرة الفرس وقياصرة الروم. واتخذوا موقف المعارضة الشديدة، وفشلت محاولات معاوية للحصول على بيعة أولئك الزعماء. ولا ريب أن تحول الخلافة من نظام شوري وانتخابي الى نظام وراثي ملكي قد بدا لأهل الحجاز أمرا غريبا لم يسبق اليه معاوية في الاسلام، فيعيّن وليا للعهد وهو مازال في كرسي الحكم. واتهم معاوية بأنه سنّ في الاسلام سنّة الملك المنحصر في أسرة واحدة، بعد أن كان أساسه الشورى ويختار من عامة قريش.

استهان معاوية بالمعارضة الحجازية وزعمائها، مما ترتب عليه نتائج محزنة وقعت في خلافة يزيد

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ولاذ عبدالله بن الزبير بالكعبة، وأعلن أنه عائذ بالبيت. وأخذت كتب الشيعة تترى على الحسين ابن علي، وتتلخص في دعوته الى الكوفة لاحياء الخلافة العلوية، وصادفت دعوتهم قبولا منه، فخرج الحسين الى الكوفة، رغم النصائح العديدة والمخلصة التي وجهت اليه، وواجهته السلطة هناك بالشدة والعنف، وقضت عليه وعلى الكثيرين من أهل بيته ممن كان معه.

وكان لهذا الحادث وقع سيء وفظيع في نفوس أهل الحجاز، وكان أحد الأسباب التي غذت الثورة ضد الخلافة الأموية. ونجح ابن الزبير في استغلال هذا الحادث المؤلم لمصلحته وللتشنيع على يزيد بن معاوية، ومال الناس الى تأييد ابن الزبير قائلين: أما اذا هلك الحسين فليس أحد ينازع ابن الزبير.

وجهد يزيد بن معاوية في معاملة أهل الحجاز بالحسنى فغير الولاة، ومنح الأموال، وأكرم الوفود، ولكنه لم يستطع أن يمد ما في النفوس أو يحدث تغييرا في الاتجاهات فهجاه أهل المدينة أشد مايكون الهجاء وشنعوا عليه، ثم أخرجوا بني أمية من مدينتهم، وخندقوا حولها، واستعدوا للحرب الا أن تحصيناتهم واستعداداتهم لم تصمد طويلا أمام الجيش الأموي، الذي هزم أهل المدينة وقتل العديد منهم.

كانت ثورة أهل المدينة مظهرا لصراع بين فئتين، تريد كل منهما أن تكون الخلافة من نصيبها. وتمتد جذور هذا النزاع السياسي الى زمن معاوية بن أبي سفيان، وتشاء ظروف يزيد السيئة أن ينفجر الموقف في عهده، وأن يكون هو الرجل الذي كتب على يديه أمر انهائه. كما يسرت أخطاء أهل المدينة سرعة تغلب مسلم بن عقبة عليهم، فتوجه الى مكة لاخضاع ابن الزبير. ولقي قائد الجيش الأموي حتفه في طريقه اليها، ولم يحقق حصار الجند الشامي لابن الزبير شيئا ... وظهر أن حريق الكعبة قد وقع قضاء وقدرا، وأن الجيش الأموي بريء من تهمة احراق الكعبة ... وسرعان ماتوفي يزيد بن معاوية، فعمت الفوضى أنحاء الدولة، واضطربت الأمور في وجه ولاتها، وأتيحت الفرصة لامتداد نفوذ

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وهكذا تمت بيعة ابن الزبير في معظم الأمصار الاسلامية، وبايعه معظم الناس وأرسل ولاته الى الاقاليم، وأخرج الأمويين من المدينة . وكاد المرء أن يظن أن المجد السياسي قد عاد من جديد الى الحجاز، وسيتم لها أمر السيادة والنفوذ .

الا أن الأحداث التي وقعت في مرج راهط قد دقت أول مسمار في نعش الخلافة الزبيرية، وثبتت دعائم الحكم الأموي في الشام ، وخرج مروان بن الحكم منها أميرا للمؤمنين هناك. ثم لم يلبث أن انتزع مصر من ولاة ابن الزبير . وأكمل عبد الملك بن مروان خطة أبيه ، فهاجم العراق، ونجح في استغلال العصبيات المختلفة داخل جيش مصعب بن الزبير الذي غدر به العراقيون، وخذلوه بدير الجاثليق فقتل .

كان خضوع العراق ايذانا بغروب شمس خلافة ابن الزبير، فانفذ عبد الملك الجيوش بقيادة الحجاج ابن يوسف الى الحجاز . ولم يجد الدفاع المستميت الذي أبداه عبد الله بن الزبير شيئا ، فخرّ قتيلا في جمادى الآخرة سنة ثلاث وسبعين هجرية، وكان لمقتله رنة حزن وألم في مكة والحجاز .

وبخضوع الحجاز للحكم الأموي دخلت في عهد جديد من التبعية لبلاد الشام، بعد أن حاول الحجازيون بالمجد وسعوا في سبيل ابقاء مركز الثقل السياسي في بلادهم، وكانت تلك المحاولة آخر المحاولات التي قام بها أهل الحجاز لاسترداد نفوذهم السياسي في العصر الأموي .

وقد تشدد الولاة في معاملة السكان خاصة آل علي وآل الزبير . ولم تقتصر المعاملة القاسية على الولاة فحسب، بل شاركهم بعض الخلفاء الأمويين أنفسهم ، وظلت جماهير الناس وفي مقدمتهم أهل الورع والتقوى معارضة للدولة الأموية .

ولا شك أن الأحداث الدامية التي وقعت في العصر الأموي على أرض الحجاز ، وما رافقها من آلام ودماء قد تركت أثرها الواضح في نفوس أهل الحجاز، فركنوا الى الهدوء على رغم أنوفهم، وان

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الخوارج الاباضية، فالحقوا بأهل المدينة هزيمة منكرة في قديد ، وفاجعة لا تقل عن فاجعة الأمويين لهم في وقعة الحرة • ولم ينقذ البلاد من حكم الخوارج الا جيوش الدولة الأموية، التي أخذت تترنح أمام ضربات العباسيين، وسبقت الأحداث السياسية أهل الحجاز، ولم يبق لهم الا مكانة بلادهم الدينية السامية لوجود الحرمين بين ظهرانيهم •

واذا كانت الزعامة السياسية، في العصر الأموي ، قد انتقلت من الحجاز الى الشام، فقد استمرت البلاد تؤدي دورها الحضاري، وغشت العناية بأكثر العلوم الاسلامية، فكان لأهل الحجاز دور بارز وباع طويل في الحركة العلمية التي غلب عليها الطابع الديني كعلوم القرآن من قراءات وتفسير، وحديث الرسول صلى الله عليه وسلم، واستنباط الأحكام الفقهية والفتاوى الشرعية، بجانب الاهتمام بالسيرة والمغازي، فكانت الحجاز تحتل المركز الثقافي الأول في بلاد الاسلام، وغدت محجّا لطلاب العلم والمعرفة •

والنشأة الاسلامية للعلوم جعلتها وثيقة الصلة بالمسجد الذي احتل أهمية خاصة في تطور الحركة العلمية، فكان مركز العلم والثقافة ومعهد التعليم ودار القضاء، بجانب كونه مكان عباده ومركز الحياة السياسية • وعقدت حلقات دروس العلماء في الفقه والتفسير والحديث والمغازي بالمسجد ، وتحلّق حولهم مريدو العلم ومحبوه يأخذون عن اساتذتهم وينهلون من علمهم •

ويهمني أن أشير الى عناية أهل الحجاز بتدوين العلوم ومنذ وقت مبكر من حياة الجماعة الاسلامية • ولا يخفى مالهذا العمل من فضل على تطور الحركة العلمية، وحفظ الروايات الأولى من الضياع• فكانت روايات أهل الحجاز وكتاباتهم من أسس النهضة العلمية التي شهدها العصر العباسي •

وبجانب الحياة العلمية الجليلة قويت الحياة الأدبية والفنية في الحجاز خلال العصر الأموي • وكانت ثمرة حياة غنية خصبة متحضرة، ساهم وصول الأمويين الى الخلافة في تطورها، فتأثر الأدب الى حد كبير بالأحداث السياسية والاجتماعية التي عمّت الحجاز أو تأثر بها أهلها • وشهد العصر الأموي

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أما الغناء فقد انتشر في مدن الحجاز انتشارا واسعا ، وتطورت فنونه على امتداد العصر الأموي، فتفوق الغناء الحجازي على غناء الأمصار الأخرى، ووجد في ظرف أهل الحجاز ورقة شعورهم وبساطة أموالهم وتحضر بداوتهم وفراغ أوقاتهم سوقا غذة وروجه وشهره • واحتشد في المدن الحجازية جمع كاثر من المغنين والمغنيات ه وبلغ الغناء درجة عالية من الاتقان ملكت على الناس نفوسهم، وأعجبت به عامتهم •

وقد عاش في الحجاز في ذلك العصر خليط من الأجناس كالفرس والروم وسواهم من الأمم، شاركوا العرب حياتهم وحملوا اليهم معهم تقاليدهم وعاداتهم • وشكلت القبائل العربية غالبية السكان، وتمتعت بأهم الامتيازات كالرواتب والمكافئات • وتنوعت حياة القبائل العربية الاجتماعية بتنوع البيئة الطبيعية • الا أن استقرار القبائل في مدن الحجاز قد خفف الى حد كبير من الروابط القبلية القائمة على أساس الروابط الدموية والنسب •

وشارك الموالي القبائل العربية في سكنى البلاد في السراء والضراء، كما تركوا أثرا واضحا في حياة أهل الحجاز الاجتماعية، وامتزجت الدماء العربية بدماء الأمم المفتوحة، ونقلت الاماء والجواري من حضارات الأمم المختلفة، ووسائل الترف وعادات وتقاليد بلادهن الى أهل الحجاز •

واشتهر من الموالي كثيرون سواء في العلوم الدينية أم في الحياة الفنية الحجازية، ولكن العرب نظروا اليهم على أنهم أدنى مرتبة وأقل مكانة •

كما ملك الأثرياء من أهل الحجاز الرقيق الذين كانوا ضرورة للحياة الاقتصادية وللنظام الاجتماعي حينذاك، فاستخدموهم الناس في مهنهم كالزراعة، ورعي الابل والماشية ، والتجارة، والصناعة، وحاجات منازلهم للقيام بالأعمال المنزلية •

وقد تمتعت المرأة الحجازية بقسط وافر من المكانة الاجتماعية، وشاركت في مختلف أوجه الحياة الاجتماعية، في العلم والأدب والسياسة، كما احتلت مكانة بارزة في شعر ذلك العصر • هذا بجانب تمتع المرأة بحظ كبير من حضارة ذلك العصر، وظهر تحضرها في ملبسها ومأكلها ومسكنها •

وكان مما ساعد على تحضر أهل الحجاز الأموال التي انثالت عليهم من الفتوحات والحروب والصلات

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الحضارة والتمدن في البيت الحجازي ... وتغيرت الحياة الاجتماعية، وتمثل التغير الحضاري في تشييد القصور الكثيرة والتفنن في بنائها، واتخذت البساتين، وحفرت الآبار، واستنبطت المياه ، وتنوعت الأطعمة والألبسة، واتخذت الآنية من الذهب والفضة، ولبس الناس الخز والديباج والحلل الموشاة، ذات الأثمان الغالية، واتخذوا أنواعا من الطيب. وباختصار عاش أهل الحجاز، في العصر الأموي، حياة جديدة، ساهم الأمويون في صنعها، وظهر تحضرهم في المساكن والمطاعم والملابس، وانتقلوا من خشونة العيش وشظفه الى رغده ونعمته .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

مراجع البحث

أولا

١ . القرآن الكريم .

٢ . ابن الاثير : أبو الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم ت ٦٣٠ هـ .

أ ـ أسد الغابة في معرفة الصحابة (٥ أجزاء) المطبعة الاسلامية بطهران ١٣٧٧هـ .

ب ـ الكامل في التاريخ (١٢ جزء) تحقيق Tornberg . دار صادر بيروت ١٣٨٥ هـ ـ ١٩٦٥م .

٣ . الأزدي : محمد بن عبدالله ت ٢٣١ هـ .

ـ تاريخ فتوح الشام . تحقيق عبد المنعم عبدالله عامر . مؤسسة سجل العرب ١٩٧٠

٤ . الأزرقي : أبو الوليد محمد بن عبدالله بن أحمد ت ٢٣٣ هـ؟

ـ أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار (جزءان) الطبعة الثالثة . تحقيق رشدي الصالح ملحس . دار الأندلس بيروت ١٣٨٩ هـ ـ ١٩٦٩ م .

٥ . الأشعري : أبو الحسن علي بن اسماعيل ت ٣٣٠ هـ .

ـ مقالات الاسلاميين واختلاف المصلين (جزءان) ، الطبعة الاولى ، تحقيق محمد محي الدين عبدالحميد ، مكتبة النهضة المصرية ١٣٦٩ هـ ـ ١٩٥٠م

٦ . الأصبهاني : ابو نعيم أحمد بن عبدالله الأصبهاني ت ٤٣٠ هـ

ـ حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (١٠ أجزاء) الطبعة الأولى . مكتبة الخانجي ١٣٥١ هـ ـ ١٩٣٢م

٧ . الأصطخري : ابن اسحاق ابراهيم بن محمد الفارسي ت في النصف الأول من القرن الرابع الهجري .

ـ المسالك والممالك . تحقيق محمد جابر عبدالعال الحيني ١٣٨١ هـ ـ ١٩٦١م

٨ . الأصفهاني : الحسن بن عبدالله ت ٣١٠ هـ .

ـ بلاد العرب . تحقيق حمد الجاسر وزميله . دار اليمامة بالرياض ١٣٨٨ هـ ـ ١٩٦٨م .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ـ الاجزاء : ١ ، ٢ ، ١٧ ـ ٢٤ نشر الهيئة المصرية العامة للتأليف والترجمة والنشر .
ـ الاجزاء من ٣ ـ ١٦ نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب المصرية .
ـ نسخة أخرى بتحقيق عبد الستار أحمد فراج . دار الثقافة بيروت ١٣٨٠ هـ ـ ١٩٦١م .
ب ـ مقاتل الطالبيين . شرح وتحقيق السيد أحمد صقر . مكتبة عيسى البابي الحلبي ١٩٤٩م .
١٠ . البخاري : أبو عبد الله محمد بن اسماعيل بن ابراهيم الجعفي ت ٢٥٦ هـ .
أ ـ التاريخ الكبير (٤ اجزاء) مطبعة دائرة المعارف العثمانية بالهند ، ١٣٨٢ هـ ـ ١٩٦٣م .
ب ـ صحيح البخاري (٩ اجزاء) دار ومطابع الشعب بالقاهرة .
١١ . ابن بسام المحتسب .
ـ نهاية الرتبة في طلب الحسبة . تحقيق حسام الدين السامرائي . مطبعة المعارف بغداد ١٩٦٨م .
١٢ . البستي : أبو حاتم محمد بن حبان ت ٣٥٤ هـ .
ـ كتاب مشاهير علماء الأمصار . عني بتصحيحه م . فلايشهمر لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٣٧٩ هـ ـ ١٩٥٩م .
١٣ . البغدادي : أبو بكر أحمد بن علي بن ثابت الخطيب البغدادي ت ٤٦٣ هـ .
ـ تقييد العلم . حققه يوسف العش . دمشق ١٩٤٩م .
١٤ . البغدادي : عبد القاهر بن طاهر بن محمد ت ٤٢٩ هـ .
ـ الفرق بين الفرق . تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد . مكتبة محمد صبيح .
١٥ . ابن بكار : أبو عبد الله الزبير بن بكار بن عبد الله بن مصعب ت ٢٥٦ هـ .
ـ جمهرة نسب قريش وأخبارها (الجزء الأول) تحقيق محمود محمد شاكر ١٣٨١ هـ
١٦ . ابن أبي بكر : محمد بن يحيى ت ٧٤١ هـ .
ـ التمهيد والبيان في مقتل الشهيد عثمان . تحقيق محمود يوسف زايد دار الثقافة بيروت ١٩٦٤م .
١٧ . البكري : أبو عبيد عبد الله بن عبد العزيز البكري الأندلسي ت ٤٨٧ هـ .
ـ معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع (٤ أجزاء) تحقيق مصطفى

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

١٨ • البلاذري : أحمد بن يحيى بن جابر المعروف بالبلاذري ت ٢٧٩ هـ •

أ ـ أنساب الأشراف •

ـ الجزء الأول تحقيق محمد حميد الله • نشر معهد المخطوطات العربية ودار المعارف ١٩٥٩م •

ـ الجزء الرابع ، القسم الثاني تحقيق Max Schloessinger القدس ١٩٣٦م •

ـ الجزء الخامس تحقيق S.D.F. Goitein القدس ١٩٣٦م

وأعادت مكتبة المثنى ببغداد طبع هذين الجزئين ونشرتهما •

ب ـ فتوح البلدان ،تحقيق صلاح الدين المنجد • مكتبة النهضة المصرية ١٩٥٧ •

٩٩ • البياسي : يوسف بن محمد البياسي ت ٦٥٣هـ ـ ٦٥٤ هـ •

ـ الاعلام بالحروب الواقعة في صدر الاسلام (جزءان) مخطوط برقم ٤٦ بمعهد المخطوطات العربية •

٢٠ • الترمذي : أبو عيسى محمد بن عيسى ت ٢٧٩ هـ

ـ صحيح الترمذي بشرح ابن العربي المالكي (١٣جزء) الطبعة الأولى بالمطبعة المصرية ١٣٥٠ هـ ـ ١٩٣١م •

٢١ • ابن تغري بردي : أبو المحاسن يوسف بن تغري بردي الأتابكي ت ٨٧٤ هـ •

ـ النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة (١٢جزء) دار الكتب المصرية ١٣٥٥ هـ ـ ١٩٣٦م •

٢٢ • التنوخي: أبو علي المحسن بن علي التنوخي • ت ٣٨٤ هـ •

ـ المستجاد من فعلات الأجواد • عني بنشره وتحقيقه محمد كرد علي طبعة ١٩٧٠م

٢٣ • ابن تيمية : أبو العباس أحمد بن عبد الحليم ت ٧٢٨ هـ •

ـ الحسبة في الاسلام • نشر المكتبة العلمية بالمدينة المنورة •

٢٤ • الجاحظ: أبو عثمان عمرو بن بحر ت ٢٥٥ هـ •

أ ـ البيان والتبيين (٤ أجزاء) دار الفكر للجميع ١٩٦٨م •

ب ـ كتاب التبصر بالتجارة • نشر حسن حسني عبد الوهاب التونسي

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

د - رسائل الجاحظ (جزءان) تحقيق عبد السلام محمد هارون • مكتبة الخانجي ١٣٨٤ هـ - ١٩٦٥م •

هـ - رسالة في بني أمية تصحيح محمود عرنوس • مكتبة الأهرام •

و - العثمانية، تحقيق عبد السلام محمد هارون ١٩٥٥ •

٢٥ • ابن الجزري: شمس الدين ابو الخير محمد بن محمد ت ٨٣٣ هـ •

- غاية النهاية في طبقات القراء (٣ أجزاء) نشر • Burgstraesser
مكتبة الخانجي ١٣٥١ هـ - ١٩٣٢م •

٢٦ • الجهشياري: أبو عبد الله محمد بن عبدوس ت ٣٣١ هـ •

- كتاب الوزراء والكتاب تحقيق مصطفى السقا وآخرين • الطبعة الأولى مكتبة مصطفى البابي الحلبي ١٣٥٧ هـ - ١٩٣٨م •

٢٧ • ابن الجوزي: أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد ت ٥٩٧ هـ •

- صفة الصفوة (٤ أجزاء) الطبعة الأولى بحيدر آباد الهند ١٣٥٥ هـ

٢٨ • حاجي خليفة: مصطفى بن عبد الله الشهير بحاجي خليفة وبكاتب جلبي ت ١٠٦٦ هـ •

- كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون (جزءان) طبعة استانبول ١٩٤١م •

٢٩ • الحاكم النيسابوري: محمد بن عبد الله ت ٤٠٥ هـ •

- المستدرك على الصحيحين في الحديث (٤ أجزاء) مكتبة النصر الحديثة بالرياض •

٣٠ • ابن حبيب: أبو جعفر محمد بن حبيب بن أمية بن عمرو الهاشمي البغدادي ت ٢٤٥ هـ •

- المحبر، تصحيح ايلزه ليختن شتيتر، المكتب التجاري بيروت •

٣١ • ابن حجر: أبو الفضل أحمد بن علي بن حجر العسقلاني ت ٨٥٢ هـ •

أ - الاصابة في تمييز الصحابة (٥ أجزاء) مكتبة المثنى بغداد •
٤ أجزاء من نسخة أخرى حققها طه الزيني • مكتبة الكليات الازهرية ١٣٨٨ هـ - ١٩٦٨م •

ب - تهذيب التهذيب (١١ جزء) نشر دار صادر بيروت عن طبعة سنة ١٣٢٥ هـ - ١٣٢٧ هـ • بحيدر آباد - الهند •

٣٢ • ابن أبي الحديد: عبد الحميد بن هبة الله بن محمد بن الحسين ت ٦٥٦ هـ •

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

٣٣. ابن حزم: ابو محمد علي بن أحمد بن حزم الأندلسي الظاهري ت ٤٥٦ هـ.
أ - جمهرة أنساب العرب. تحقيق عبد السلام محمد هارون. الطبعة الثالثة، دار المعارف ١٣٩١ هـ - ١٩٧١م.
ب - كتاب الفصل في الملل والأهواء والنحل (٥ أجزاء) الطبعة الاولى، مطبعة التمدن ١٣٢٠ هـ - ١٣٢١ هـ.

٣٤. الحلبي: علي بن برهان الدين الحلبي ت ١٠٤٤ هـ.
- انسان العيون في سيرة الأمين المأمون (٣ أجزاء) الشهير بالسيرة الحلبية، المطبعة الأزهرية ١٣٢٠ هـ.

٣٥. ابن حنبل: الامام أحمد ت ٢٤١ هـ.
- المسند (٦ أجزاء) المطبعة الميمنيه بمصر ١٣١٣ هـ.

٣٦. ابن خرداذبه: ابو القاسم عبيد الله بن عبد الله ت في حدود سنة ٣٠٠ هـ.
- المسالك والممالك، طبعة BRILL ١٨٨٩م تحقيق دي غوي DE GOEJE أعادت نشره مكتبة المثنى.

٣٧. الخزاعي: علي بن ذي الوزارتين محمد بن أحمد بن موسى الخزاعي ت ٧٨٩ هـ.
- الدلالات السمعية على ماكان في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم من الحرف والصناع والعمالات الشرعية. مخطوط رقم: تاريخ ٦٣٨ بدار الكتب المصرية.

٣٨. ابن خلدون: عبد الرحمن بن محمد ت ٨٠٨ هـ.
أ - المقدمة (٤ أجزاء) تحقيق علي عبد الواحد وافي، الطبعة الثانية لجنة البيان العربي ١٣٨٤هـ - ١٣٨٨ هـ = ١٩٦٥م - ١٩٦٨م.
ب - العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر (٧ أجزاء)، دار البيان بيروت.

٣٩. ابن خلكان: أحمد بن محمد بن أبي بكر ت ٦٨١ هـ.
- وفيات الأعيان وأنباء ابناء الزمان (٨ أجزاء)، تحقيق احسان عباس دار صادر بيروت ١٩٦٨ - ١٩٧٢م.

٤٠. ابن خياط: ابو عمرو خليفة بن خياط البصري ت ٢٤٠ هـ.
- تاريخ خليفة بن خياط (جزءان) تحقيق سهيل زكار، دمشق ١٣٨٧ - ١٩٦٧م.

٤١. الدهلوي: الشيخ أحمد المعروف بشاه ولي الله المحدث الدهلوي ت الربع الأول من القرن ١٢ هـ.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

٤٣ . الدينوري : أحمد بن داود ت ٢٨٢ هـ .
ـ الأخبار الطوال ، تحقيق عبد المنعم عامر ، الطبعة الأولى ، مكتبة عيسى البابي الحلبي ، ١٩٦٠م .

٤٤ . ديوان حسان بن ثابت الأنصاري ، شرح عبد الرحمن البرقوقي ، المكتبة التجارية الكبرى ١٣٤٧ هـ ـ ١٩٢٩م .

٤٥ . ديوان عبيد الله بن قيس الرقيات ، تحقيق وشرح محمد يوسف نجم ، دار صادر ١٣٧٨ هـ ـ ١٩٥٨م .

٤٦ . ديوان عمر بن أبي ربيعة المخزومي : شرح محمد محي الدين عبد الحميد ، الطبعة الثالثة المكتبة التجارية الكبرى ١٣٨٤ هـ ـ ١٩٦٥م .

٤٧ . الذهبي : ابو عبد الله محمد بن عثمان الذهبي ت ٧٤٨ هـ .
أ ـ تذكرة الحفاظ (٤ أجزاء) الطبعة الثالثة ، دائرة المعارف العثمانية بحيدر آباد بالهند ١٣٧٥ هـ ـ ١٩٥٥م .
ب ـ دول الاسلام (جزءان) الطبعة الثانية ، دائرة المعارف العثمانية ١٣٦٤ هـ .
جـ ـ العبر في خبر من خبر (٥ أجزاء) تحقيق صلاح الدين المنجد ، الكويت ١٩٦٠ ـ ١٩٦٦م .
د ـ المنتقى من منهاج الاعتدال في نقض كلام أهل الرفض والاعتزال ، حققه محب الدين الخطيب ، المطبعة السلفية ومكتبتها ١٣٧٤ هـ .

٤٨ . الراغب الأصبهاني : أبو القاسم حسين بن محمد ت ٥٠٢ هـ .
ـ محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء (٤ أجزاء) مكتبة الحياة بيروت ١٩٦١

٤٩ . ابن رسته : أبو علي أحمد بن عمر ت أوائل القرن الرابع الهجري .
ـ الأعلاق النفيسة ، طبعة ليدن ١٨٩١م أعادت نشره مكتبة المثنى .

٥٠ . ابن رشيق : أبو علي الحسن بن رشيق القيرواني الأزدي ت ٤٥٦ هـ .
ـ العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده (جزءان) تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد ، الطبعة الثالثة ١٣٨٣ هـ ـ ١٩٦٣م ، المكتبة التجارية الكبرى .

٥١ . الزبيدي : محمد مرتضى ت ١٢٠٥ هـ .
ـ تاج العروس من جواهر القاموس (١٠ أجزاء) منشورات دار مكتبة الحياة بيروت .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

٥١. ابن الزبير : الرشيد ت القرن الخامس الهجري .

ـ الذخائر والتحف ، تحقيق محمد حميد الله ، الكويت ١٩٥٩م

٥٣. الزبيري : أبو عبد الله المصعب بن عبد الله بن المصعب الزبيري ت ٢٣٦ هـ .

ـ كتاب نسب قريش ، تعليق ا . ليفي بروفنسال ، دار المعارف ١٩٥٣م .

٥٤. الزركشي : بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشي ت ٧٩٤ هـ .

ـ البرهان في علوم القرآن (٤ أجزاء) تحقيق محمد ابو الفضل ابراهيم ، دار احياء الكتب العربية ١٣٧٦ هـ ـ ١٩٥٧م .

٥٥. السخاوي: شمس الدين محمد بن عبد الرحمن ت ٩٠٢ هـ .

ـ الاعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ ، دمشق مطبعة الترقي ١٣٤٩ هـ .

٥٦. السرخسي : شمس الدين محمد بن أحمد ت ٤٨٣ هـ .

ـ كتاب المبسوط (٣٠ جزء) نشر دار المعرفة بيروت .

٥٧. ابن سعد : أبو عبد الله محمد بن سعد بن منيع الزهري ت ٢٣٠ هـ .

ـ الطبقات الكبرى (٨ أجزاء) دار صادر ١٣٧٧ هـ ـ ١٩٥٧م .

٥٨. ابن سلام : أبو عبيد القاسم بن سلام ت ٢٢٤ هـ .

ـ كتاب الأموال ، تحقيق محمد خليل هراس ، مكتبة الكليات الأزهرية ، ١٣٨٨ هـ ـ ١٩٦٨م .

٥٩. السمعاني : أبو سعد عبد الكريم بن محمد بن منصور التميمي السمعاني ت ٥٦٢ هـ .

ـ كتاب الأنساب (٦ أجزاء) تعليق عبد الرحمن بن يحي ، الطبعة الأولى ، دائرة المعارف العثمانية ، ١٣٨٢ هـ ـ ١٩٦٢م .

٦٠. السمهودي : علي بن أحمد ت ٩١١ هـ .

ـ وفاء الوفا بأخبار دار المصطفى (٤ أجزاء) تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد ، دار احياء التراث العربي بيروت ١٣٧٤ هـ ـ ١٩٥٥م .

٦١. ابن سيد الناس: أبو الفتح محمد بن محمد ت ٧٣٤ هـ .

ـ عيون الاثر في فنون المغازي والشمائل والسير (جزءان) مكتبة القدسي بالقاهرة سنة ١٣٥٦ هـ .

٦٢. السيوطي : جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر ت ٩١١ هـ .

أ ـ الاتقان في علوم القرآن (جزءان) الطبعة الثالثة ، مكتبة مصطفى البابي

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

جـ- حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة (جزءان) طبعة مصطفى فهمي الكتبي ١٣٢١ هـ.

٦٣. الشاطبي : أبو اسحاق ابراهيم بن موسى اللخمي الغرناطي المالكي ت ٧٩٠ هـ.

- الموافقات في أصول الشريعة (٤ أجزاء) تحقيق عبد الله دراز ، المكتبة التجارية الكبرى.

٦٤. الشافعي : أبو عبد الله محمد بن أدريس الشافعي ت ٢٠٤ هـ.

- الأم (٨ أجزاء) باشر تصحيحه محمد زهدي النجار ، مكتبة الكليات الأزهرية ١٣٨١ هـ - ١٩٦١م.

٦٥. الشهرستاني : أبو الفتح محمد بن عبد الكريم بن أبي بكر أحمد ت ٥٤٨ هـ.

- كتاب الملل والنحل (جزءان) تحقيق محمد سيد كيلاني ، مكتبة مصطفى البابي الحلبي ١٣٨٧هـ- ١٩٦٧م.

٦٦. الشوكاني : محمد بن علي بن محمد ت ١٢٥٠ هـ.

- نيل الأوطار - شرح منتقى الأخبار من أحاديث سيد الأخبار (٧ أجزاء) ، مكتبة مصطفى البابي الحلبي ، الطبعة الثالثة ١٣٨٠ هـ - ١٩٦١م.

٦٧. الطبري : أبو جعفر محمد بن جرير ت ٣١٠ هـ.

أ- تاريخ الرسل والملوك (١٠ أجزاء) تحقيق محمد ابو الفضل ابراهيم ، دار المعارف ١٩٧٠.

ب- جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٣٠ جزء) الطبعة الثانية ، مكتبة مصطفى البابي الحلبي ١٣٧٣ هـ - ١٩٥٤م.

٦٨. ابن الطقطقي : محمد بن علي بن طباطبا المعروف بابن الطقطقي ت ٧٠٩ هـ.

- الفخري في الآداب السلطانية والدول الاسلامية ، دار صادر ١٣٨٦ هـ - ١٩٦٦م.

٦٩. ابن طولون : شمس الدين محمد بن طولون الصالحي المتوفى ٩٥٣ هـ.

- قيد الشريد من أخبار يزيد مخطوط بمعهد المخطوطات العربية رقم ٧٥٨.

٧٠. ابن عبد البر : ابو عمر يوسف بن عبد الله بن محمد ت ٤٦٣ هـ.

أ- الاستيعاب في معرفة الأصحاب بهامش الاصابة في تمييز الصحابة لابن حجر العسقلاني.

ب- جامع بيان العلم وفضله وما ينبغي في روايته وحمله (جزءان) ، وقف على طبعه ادارة الطباعة المنيرية بالقاهرة.

- طبعة أخرى للمكتبة السلفية بالمدينة المنورة ١٣٨٨ هـ - ١٩٦٨م.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

٧٢. ابن عبد ربه: أحمد بن محمد بن عبد ربه الأندلسي ت ٣٢٨ هـ.
ـ العقد الفريد (٨ أجزاء) ، تحقيق محمد سعيد العريان، المكتبة التجارية الكبرى، ١٣٧٢ هـ - ١٩٥٣م.

٧٣. ابن العبري: غريغوريوس الملطي ت ٦٨٥ هـ.
ـ تاريخ مختصر الدول، طبعة أنطون صالحاني اليسوعي، الطبعة الثانية بيروت ١٩٥٨م.

٧٤. ابن العربي: القاضي أبو بكر بن العربي ت ٥٤٣ هـ.
ـ العواصم من القواصم في تحقيق مواقف الصحابة بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم، حققه وعلق حواشيه محب الدين الخطيب، الطبعة الثالثة، المطبعة السلفية ومكتبتها ١٣٨٧ هـ.

٧٥. ابن عساكر: أبو القاسم علي بن الحسن بن هبة الله بن عبد الله بن الحسين ابن عساكر ت ٥٧١ هـ.
ـ التاريخ الكبير (٧ أجزاء) اعتني بترتيبه وتصحيحه عبد القادر بدران، روضة الشام، ١٣٢٩ هـ.
ـ يختلف العنوان في الجزء السادس والجزء السابع الى ((تهذيب تاريخ ابن عساكر))

٧٦. ابن العماد الحنبلي: أبو الفلاح عبد الحي بن العماد الحنبلي ت ١٠٨٩ هـ.
ـ شذرات الذهب في أخبار من ذهب (٨ أجزاء) المكتب التجاري بيروت.

٧٧. العمري: ابن فضل الله ت ٧٤٩ هـ.
ـ مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، تحقيق أحمد زكي، دار الكتب المصرية ١٣٤٢ هـ - ١٩٢٤م.

٧٨. ابن عياض اليحصبي: أبو الفضل عياض بن موسى بن عياض اليحصبي السبتي ت ٥٤٤ هـ.
أ ـ الالماع الى معرفة أصول الرواية وتقييد السماع، تحقيق السيد أحمد صقر، الطبعة الأولى، دار التراث بالقاهرة ١٣٨٩ هـ - ١٩٧٠م.
ب ـ ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك (جزءان)، تحقيق أحمد بكير محمود، دار مكتبة الحياة بيروت ١٣٨٤ هـ - ١٩٦٥م.

٧٩. الغزالي: أبو حامد محمد بن محمد بن محمد ت ٥٠٥ هـ.
أ ـ احياء علوم الدين (٤ أجزاء)، تحقيق بدوي طبانة، مكتبة عيسى البابي الحلبي ١٣٧٧ هـ - ١٩٥٧م.
ب ـ المستصفى من علم الأصول (جزءان)، المكتبة التجارية الكبرى ١٣٥٦ هـ -

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

٨٠. الفاسي : أبو الطيب محمد بن أحمد بن علي ت ٨٣٢ هـ.

أ - شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام ، طبعة WUSTENFELD ١٨٥٩م أعادت نشره مكتبة خياط بيروت ١٩٦٤م.

ب - العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين ، مخطوط برقم ٧٣٧ بمعهد المخطوطات العربية.

٨١. الفاكهي : ابو عبد الله محمد بن اسحاق بن العباس الفاكهي ت ٢٣٠ هـ.

- كتاب المنتقى في أخبار أم القرى ، طبعة F. WUSTENFELD ، ١٨٥٩م، أعادت نشره مكتبة خياط بيروت ١٩٦٤م.

٨٢. ابو الفداء : عماد الدين اسماعيل بن علي بن محمود ت ٧٣٢ هـ.

أ - المختصر في أخبار البشر (٤ أجزاء) الطبعة الأولى ، بالمطبعة الحسينية.

ب - كتاب تقويم البلدان ، تصحيح رينود وماك كوكين ديسلان باريس ١٨٤٠م.

٨٣. ابن الفقيه : أبو بكر أحمد بن ابراهيم الهمذاني ت ٦٣٦ هـ؟

- مختصر كتاب البلدان ، نشر دي غويه ١٨٨٥م.

٨٤. الفيروزآبادي : مجد الدين محمد بن يعقوب ت ٨١٧ هـ.

- القاموس المحيط (٤ أجزاء) الطبعة الثانية ، مكتبة مصطفى البابي الحلبي ١٣٧١هـ - ١٩٥٢م.

٨٥. ابن قتيبة : أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري ت ٢٧٦ هـ.

أ - الامامة والسياسة (جزءان) ، تحقيق طه محمد الزيني ، مؤسسة الحلبي وشركاه.

ب - تأويل مختلف الحديث ، الطبعة الأولى بمطبعة كردستان بمصر ١٣٢٦ هـ.

جـ - الشعر والشعراء (جزءان) تحقيق أحمد محمد شاكر ، دار المعارف ١٣٨٦/١٣٨٧هـ = ١٩٦٦/١٩٦٧م.

د - عيون الأخبار (٤ أجزاء) نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب المصرية ، المؤسسة المصرية العامة ١٣٨٣ هـ = ١٩٦٣م.

هـ - المعارف ، تحقيق ثروت عكاشة ، الطبعة الثانية ، دار المعارف ١٩٦٩م

٨٦. القرطبي : أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري ت ٦٧١ هـ.

- الجامع لأحكام القرآن (٢٠ جزء) ، نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب ، نشر دار الكتاب العربي للطباعة والنشر ١٣٨٧ هـ = ١٩٦٧م.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

٨٧. القلقشندي : أبو العباس أحمد بن علي ت ٨٢١ هـ
أ - صبح الأعشى في صناعة الانشا (١٤ جزء) المؤسسة المصرية العامة ،
ب - مآثر الانافة في معالم الخلافة - الجزء الثالث - تحقيق عبد الستار أحمد فراج - ، الكويت ١٩٦٤م .
جـ - نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب ، الطبعة الأولى ، تحقيق ابراهيم الأبياري ، الشركة العربية للطباعة والنشر ، القاهرة ١٩٥٩م .

٨٨. ابن قيم الجوزية : أبو عبد الله محمد بن أبي بكر ت ٧٥١ هـ .
- اعلام الموقعين عن رب العالمين (٤ أجزاء) تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد ، الطبعة الأولى ، المكتبة التجارية الكبرى ، ١٣٧٤ هـ - ١٩٥٥م .

٨٩. الكتبي : محمد بن شاكر بن أحمد ت ٧٦٤ هـ .
- فوات الوفيات (جزءان) تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد ، مكتبة النهضة المصرية ١٩٥١ م .

٩٠. ابن كثير : أبو الفداء اسماعيل بن كثير القرشي الدمشقي ت ٧٧٤ هـ
أ - الباعث الحثيث شرح اختصار علوم الحديث ، تحقيق أحمد محمد شاكر الطبعة الثالثة ، مكتبة محمد علي صبيح ، ١٩٥١م .
ب - البداية والنهاية (١٤ جزء) ، مكتبة المعارف بيروت ١٩٦٦م .
جـ - تفسير القرآن العظيم (٤ أجزاء) ، مكتبة عيسى البابي الحلبي .

٩١. الكندي : محمد بن يوسف ت ٣٥٠هـ؟
أ - كتاب الولاة وكتاب القضاة ، هذبه وصححه رفن كست Rhuvon Guedt مطبعة الآباء اليسوعيين ، بيروت ١٩٠٨م
ب - ولاة مصر ، تحقيق حسين نصار ، بيروت ١٣٧٩ هـ - ١٩٥٩م

٩٢. مالك بن أنس الأصبحي : ت ١٧٩ هـ
أ - المدونة الكبرى (٦ أجزاء) دار صادر بيروت
ب - الموطأ (جزءان) تعليق محمد فؤاد عبد الباقي ، مكتبة عيسى البابي الحلبي ١٣٧٠ هـ - ١٩٥١م

٩٣. الماوردي : أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب البصري البغدادي ت ٤٥٠ هـ .
- الأحكام السلطانية والولايات الدينية ، الطبعة الثانية ، مكتبة مصطفى البابي الحلبي ١٣٨٦ هـ - ١٩٦٦م .

٩٤. المبرد : أبو العباس محمد بن يزيد ت ٢٨٥ هـ .
- الكامل في اللغة والأدب (٤ أجزاء) ، تحقيق محمد ابو الفضل ابراهيم وزميله دار نهضة مصر .

٩٥. المحب الطبري : أحمد بن عبد الله بن محمد ت ٦٩٤ هـ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

٩٦. المخزومي : جمال الدين محمد جار الله بن محمد نور الدين بن أبي بكر ت القرن التاسع الهجري.
ـ الجامع اللطيف في فضل مكة وأهلها وبناء البيت الشريف، الطبعة الاولى، مكتبة عيسى البابي الحلبي ١٣٤٠ هـ ـ ١٩٢١م.

٩٧. المسعودي : أبو الحسن علي بن الحسين بن علي المسعودي ت ٣٤٦ هـ.
أ ـ التنبيه والاشراف، دار التراث بيروت ١٣٨٨ هـ ـ ١٩٦٨.
ب ـ مروج الذهب ومعادن الجوهر (٣ أجزاء)، الطبعة الأولى، دار الأندلس بيروت ١٣٨٥هـ ـ ١٩٦٥م.

٩٨. مسلم : أبو الحسين مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري ت ٢٦١ هـ.
أ ـ صحيح مسلم (٥أجزاء)، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، دار أحياء التراث بيروت ١٣٧٤ هـ/ ١٣٧٥ هـ ـ ١٩٥٤/١٩٥٥م
ب ـ صحيح مسلم بشرح النووي، (١٨جزء)، المطبعة المصرية ومكتبتها ١٣٤٩هـ

٩٩. المقدسي : أبو عبد الله محمد الشافعي المقدسي المعروف بالبشاري ت ٣٨٧ هـ.
ـ أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، دي غويه، ليدن ١٩٠٩م.

١٠٠. المقري الفيومي : أحمد بن محمد بن علي ت ٧٧٠ هـ.
ـ كتاب المصباح المنير، الطبعة السابعة، بالمطبعة الأميرية مراجعة حمزة طاهر، ١٩٢٨م.

١٠١. المقريزي: أبو العباس أحمد بن علي المقريزي ت ٨٤٥ هـ.
أ ـ امتاع الاسماع بما للرسول من الابناء والأموال والحفدة والمتاع، تحقيق محمود محمد شاكر، لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٤١م.
ب ـ كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك ـ الجزء الأول، الطبعة الثانية صححه ووضع حواشيه محمد مصطفى زيادة، لجنة التأليف والترجمة والنشر، ١٩٥٧م.
جـ ـ كتاب المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، المعروف بالخطط المقريزية، (جزءان)، مكتبة المثنى بغداد ١٩٧٠م.
د ـ النزاع والتخاصم فيما بين بني أمية وبني هاشم، تصحيح محمود عرنوس، مكتبة الأهرام.

١٠٢. المنقري: نصر بن مزاحم ت ٢١٢ هـ.
ـ وقعة صفين، تحقيق عبد السلام محمد هارون، الطبعة الثانية، المؤسسة العربية الحديثة ١٣٨٢، هـ.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

١٠٥. ابن النديم: محمد بن اسحاق النديم ت ٤٣٨ هـ.
- الفهرست، تحقيق Flügel، نشر مكتبة خياط، بيروت.
١٠٦. النوبختي: أبو محمد الحسن بن موسى النوبختي ت ٣١٠ هـ؟
- كتاب فرق الشيعة، تصحيح هـ. ريتر، جمعية المستشرقين الألمانية، استانبول ١٩٣١م.
١٠٧. النويري: شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب ت ٧٣٢ هـ.
- نهاية الأرب في فنون الأدب (١٨جزء)، نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب، المؤسسة المصرية العامة.
١٠٨. ابن هشام: أبو محمد عبد الملك بن هشام ت ٢١٨ هـ.
- السيرة النبوية، (جزءان)، تحقيق مصطفى السقا وزميله، الطبعة الثانية مكتبة مصطفى البابي الحلبي، ١٣٧٥ هـ = ١٩٥٥م.
١٠٩. الهمداني: أبو محمد الحسن بن أحمد بن يعقوب ت ٣٣٤ هـ.
- صفة جزيرة العرب، نشره محمد بن عبد الله بن عليه النجدي، مطبعة السعادة، ١٩٥٣م.
١١٠. ابن واصل الحموي: ابو عبد الله محمد بن سالم بن نصر الله بن واصل الحموي ت ٦٩٧ هـ
- تجريد الأغاني (٦ أجزاء)، تحقيق طه حسين وزميله، القاهرة ١٣٧٦ هـ = ١٩٥٧م.
١١١. الواقدي: أبو عبد الله محمد بن عمر ت ٢٠٧ هـ.
- فتوح الشام (جزءان)، المكتبة الأهلية بيروت ١٩٦٦م.
١١٢. وكيع: محمد بن خلف بن حيان ت ٣٠٦ هـ.
- أخبار القضاة (٣ أجزاء)، صححه عبد العزيز مصطفى المراغي، المكتبة التجارية الكبرى، ١٣٦٦ هـ = ١٩٤٧م.
١١٣. ياقوت: أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموي الرومي البغدادي ت ٦٢٦ هـ.
أ- معجم الأدباء وطبقات الأدباء، المعروف بارشاد الأريب الى معرفة الأديب (٧أجزاء)، تحقيق مرجليوث، طبع بمصر ٢٣ - ١٩٢٥م.
ب- معجم البلدان (٥أجزاء)، دار صادر، ١٣٧٤/١٣٧٦ هـ = ١٩٥٥/١٩٥٧م.
١١٤. يحيى بن آدم القرشي ت ٢٠٣ هـ.
- كتاب الخراج، تحقيق أحمد محمد شاكر، الطبعة الثانية، المطبعة السلفية ومكتبتها، ١٣٨٤ هـ.
١١٥. اليعقوبي: أحمد بن أبي يعقوب بن جعفر بن وهب بن واضح ت ٢٨٤ هـ.
أ- تاريخ اليعقوبي (جزءان)، دار صادر ١٣٧٩ هـ = ١٩٦٠م

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ثانيـــا

١ . ابراهيم أحمد العدوي : الدكتور
ـ الدولة الاسلامية وامبراطورية الروم ، الطبعة الثانية ، ١٩٥٨م مكتبة الانجلو المصرية .

٢ . ابراهيم رفعت : اللواء
ـ مرآة الحرمين ـ أو الرحلات الحجازية والحج ومشاعره الدينية ـ الطبعـــة الأولى ، دار الكتب المصرية ، ١٣٤٤ هـ ـ ١٩٢٥م .

٣ . أحمد ابراهيم الشريف ـ الدكتـور .
أ ـ دور الحجاز في الحياة السياسية العامة في القرنين الأول والثانـي للهجرة ، الطبعة الأولى ، دار الفكر العربي ١٩٦٨م .
ب ـ مكة والمدينة في الجاهلية وعصر الرسول ، الطبعة الثانية ، دار الفكر العربي ، ١٩٦٥م .

٤ . احسان النص: الدكتـور
ـ العصبية القبلية وأثرها في الشعر الأموي ، دار اليقظة العربية بيروت ١٩٦٣م .

٥ . أحمد أمين : الدكتـور
أ ـ فجر الاسلام ، الطبعة العاشرة ، دار الكتاب العربي بيروت ١٩٦٩م .
ب ـ ضحى الاسلام ، الجزء الأول ، الطبعة الرابعة ، لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٣٦٥ هـ = ١٩٤٦م .
ـ الجزء الثاني ، الطبعة الأولى ، لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٣٥٣ هـ = ١٩٣٥م .

٦ . أحمد زكي صفوت
ـ جمهرة رسائل العرب في عصور العربية الزاهرة ، الجزءان : الأول والثاني ، الطبعة الأولى ، مكتبة مصطفى البابي الحلبي ، ١٣٥٦ هـ ـ ١٩٣٧م .

٧ . أحمد الشايب: الدكتـور
ـ تاريخ الشعر السياسي الى منتصف القرن الثاني ، الطبعة الرابعة ، مكتبة النهضة المصرية ١٩٦٦م .

٨ . أحمد شلبي : الدكتـور
أ ـ التاريخ الاسلامي والحضارة الاسلامية ، الجزء الثاني ، الطبعة الخامسة مكتبة النهضة المصرية ١٩٧٠م .
ب ـ تاريخ التربية الاسلامية ، الطبعة الثالثة ، مكتبة النهضة المصرية ١٩٦٦م

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

١٠. أرنولد : سيرتوماس و. Arnold , Sir Thomas, W.
أ ـ الخلافة، ترجمة جميل مصلي ، دار اليقظة العربية للتأليف والترجمة والنشر ١٩٤٦م.
ب ـ الدعوة الى الاسلام ، ترجمة حسن ابراهيم حسن وآخرين ، الطبعة الثالثة، مكتبة النهضة المصرية ١٩٧٠م.

١١. أنستاس ماريا الكرملي : الأب
ـ النقود العربية وعلم النميات، القاهرة ١٩٣٩م

١٢. أنيس زكريا النصولي :
ـ الدولة الأموية في الشام، مطبعة دار السلام، بغداد ١٩٢٧م.

١٣. بارتولد : ف
ـ تاريخ الحضارة الاسلامية ، ترجمة حمزة طاهر، الطبعة الرابعة، دار المعارف ١٩٦٦م.

١٤. بروكلمان : كارل
أ ـ تاريخ الشعوب الاسلامية، ترجمة نبيه أمين فارس ومنير البعلبكي، دار العلم للملايين، بيروت ١٩٦٥م.
ب ـ تاريخ الأدب العربي ـ الجزء الأول ـ ترجمة عبد الحليم النجار، دار المعارف، الطبعة الثانية ١٩٦٨م.

١٥. بطرس البستاني :
ـ دائرة المعارف (٥أجزاء) ، دار المعرفة، بيروت ١٩٥٨م.

١٦. ترتون : أ. س
ـ أهل الذمة في الاسلام ، ترجمة حسن حبشي ، الطبعة الثانية دار المعارف ١٩٦٧م.

١٧. ثابت اسماعيل الراوي : الدكتور
ـ تاريخ الدولة العربية، خلافة الراشدين والأمويين، مطبعة الارشاد ، بغداد ١٩٧٠م.

١٨. جواد علي : الدكتور
ـ المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام، (١٠أ جزاء) ، دار العلم للملايين، الطبعة الأولى ١٩٦٩م.

١٩. جورجي زيدان :
أ ـ تاريخ آداب اللغة العربية الجزء الأول مراجعة شوقي ضيف ،دار الهلال ١٩٥٧م.
ب ـ تاريخ التمدن الاسلامي (٥أجزاء) ، مراجعة حسين مؤنس دار الهلال ١٩٥٨م.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

٢١ - حافظ وهبة
- جزيرة العرب في القرن العشرين ، الطبعة الخامسة ، لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٣٨٧ هـ = ١٩٦٧م

٢٢ - حسن ابراهيم حسن : الدكتور
أ- تاريخ الاسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي (الجزء الأول) الطبعة السابعة ، مكتبة النهضة المصرية ١٩٦٤م .
ب- النظم الاسلامية ، بالاشتراك مع علي ابراهيم حسن ، الطبعة الرابعة ، مكتبة النهضة المصرية ١٩٧٠م .

٢٣ - حسين مؤنس: الدكتور
- عالم الاسلام ، دار المعارف ١٩٧٣م .

٢٤ - خودا بخش:
- الحضارة الاسلامية ، ترجمة علي حسني الخربوطلي ، دار الكتب الحديثة ١٩٦٠م

٢٥ - خير الدين الزركلي :
- الاعلام (١١ جزء) الطبعة الثالثة بيروت ١٣٨٩ هـ = ١٩٦٩م

٢٦ - دائرة المعارف الاسلامية (١٥جزء) ، نقلها الى العربية ابراهيم زكي خورشيد وزملائه ، ١٣٥٢ هـ = ١٩٣٣م .

٢٧ - دوزي : رينهارت
- تاريخ مسلمي اسبانيا - الجزء الأول - ترجمة حسن حبشي ، دار المعارف ١٩٦٣م .

٢٨ - روزنثال : فرانز Rosenthal, Franz
- علم التاريخ عند المسلمين ، ترجمة صالح أحمد العلي ، مكتبة المثنى بغداد ١٩٦٣م

٢٩ - الزنجاني : أبو عبد الله
- تاريخ القرآن ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٣٥٤ هـ ١٩٣٥م .

٣٠ - ابو زيد شلبي
- تاريخ الحضارة الاسلامية والفكر الاسلامي ، الطبعة الثانية ، القاهرة ، ١٣٨٢ هـ = ١٩٦٢م .

٣١ - سهير القلماوي : الدكتورة
- أدب الخوارج في العصر الأموي ، لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٤٥م

٣٢ - سيد أمير علي
- مختصر تاريخ العرب والتمدن الاسلامي ، ترجمة رياض رأفت ، لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٣٨م .

٣٣ - سيد يو : ل ١ .
- تاريخ العرب العام ، ترجمة عادل زعيتر ، الطبعة الثانية ، مكتبة عيسى البابي الحلبي ، ١٣٨٩ هـ / ١٩٦٩م .

٣٤ - شكري فيصل : الدكتور
- المجتمعات الاسلامية في القرن الأول ، الطبعة الثالثة ، دار العلم للملايين

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

٣٦. صالح أحمد العلي : الدكتـــور
ـ التنظيمات الاجتماعية والاقتصادية في البصرة في القرن الاول الهجري ، الطبعة الثانية ، دار الطليعة بيروت ١٩٦٩م .

٣٧. صبحي الصالح : الدكتـــور
أ ـ علوم الحديث ومصطلحه ، الطبعة الرابعة ، دار العلم للملايين ١٣٨٥ هـ = ١٩٦٦م
ب ـ مباحث في علوم القرآن ، الطبعة السادسة ، دار العلم للملايين ١٩٦٩م
جـ ـ النظم الاسلامية ، نشأتها وتطورها ، الطبعة الثانية ، دار العلم للملايين ١٣٨٨ هـ = ١٩٦٨م

٣٨. طه حسين : الدكتور
أ ـ حديث الأربعاء ، الجزء الأول ، الطبعة الثامنة ، دار المعارف .
ب ـ الفتنة الكبرى .
(١) عثمان ، دار المعارف ، الطبعة الثامنة ١٩٧٠م
(٢) علي وبنوه ، دار المعارف ١٩٦٤م

٣٩. عباس محمود العقاد :
أ ـ الحسين ابو الشهداء ، دار الهلال ، القاهرة .
ب ـ الصديقة بنت الصديق ، الطبعة الخامسة ، دار المعارف ١٩٦٣م .
ج ـ العبقريات الاسلامية ، دار الآداب ، بيروت ١٩٦٨م
د ـ معاوية بن أبي سفيان في الميزان ، دار الكتاب العربي ، بيروت ١٣٨٦ هـ = ١٩٦٦م .

٤٠. عبد الحليم الجندي :
ـ مالك بن أنس امام دار الهجرة ، دار المعارف ١٩٦٩م .

٤١. عبد الحميد العبادي : الدكتور .
ـ صور من التاريخ الاسلامي ، المصر العربي ، مكتبة الآداب للطباعة والنشر ـ الاسكندرية ١٩٤٨م .

٤٢. عبد الحي الكتاني :
ـ كتاب التراتيب الادارية (جزءان) نشر حسن جعنا ، بيروت .

٤٣. عبد العزيز الدوري الدكتور
أ ـ مقدمة في تاريخ صدر الاسلام ، المطبعة الكاثوليكية بيروت ١٩٦١م .
ب ـ بحث في نشأة علم التاريخ عند العرب ، المطبعة الكاثوليكية ١٩٦٠م

٤٤. عبد الفتاح علي شحاته : الدكتور
تاريخ الحضارة ، دراسات في الحضارة العربية الاسلامية ، الطبعة

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

٤٦. عبدالمنعم ماجد : الدكتور

أ- التاريخ السياسي للدولة العربية (جزءان) ،الجزء الأول الطبعة الرابعة، مكتبة الانجلو المصرية، ١٩٦٧م، الجزء الثاني ،الطبعة الثالثة ، مكتبة الجامعة العربية بيروت ١٩٦٦م.

ب- الأطلس التاريخي للعالم الاسلامي في العصور الوسطى ،الطبعة الثانية، دار الفكر العربي ١٩٦٧م بالاشتراك مع علي البنا -

٤٧. علي ابراهيم حسن : الدكتور

- نساء لهن في التاريخ الاسلامي نصيب، مكتبة النهضة المصرية، ١٩٥٠م

٤٨. علي حسن عبدالقادر : الدكتور.

- نظرة عامة في تاريخ الفقه الاسلامي ، الطبعة الثالثة، دار الكتب الحديثة ١٩٦٥م

٤٩. علي حسني الخربوطلي : الدكتور.

أ- تاريخ العراق في ظل الحكم الأموي، دار المعارف ١٩٥٩م.

ب- الدولة العربية الاسلامية، مكتبة عيسى البابي الحلبي، ١٣٨٠ هـ = ١٩٦٠م.

٥٠. عمر رضا كحالة:

أ- أعلام النساء في عالمي العرب والاسلام (٥أجزاء) ،الطبعة الثانية، دمشق ١٣٧٩ هـ = ١٩٥٩م.

ب- معجم قبائل العرب القديمة والحديثة (٣أجزاء) ، الطبعة الثانية، دار العلم للملايين ١٣٨٨ هـ = ١٩٦٨م.

٥١. غلوب: جون باجوت

- الفتوحات العربية الكبرى، تعريب خيري حماد ، مكتبة المثنى ببغداد ١٩٦٣م

٥٢. فان فلوتن :

- السيادة العربية والشيعة والاسرائيليات في عهد بني أمية، ترجمة حسن ابراهيم حسن وزميله، الطبعة الثانية، مكتبة النهضة المصرية ١٩٦٥م.

٥٣. فلهوزن - يوليوس:

أ- تاريخ الدولة العربية من ظهور الاسلام الى نهاية الدولة الأموية، ترجمة محمد عبدالهادي ابو ريدة الطبعة الثانية، لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٦٨م.

ب- الخوارج والشيعة، أحزاب المعارضة السياسية الدينية في صدر الاسلام، ترجمة عبدالرحمن بدوي، مكتبة النهضة المصرية ١٩٥٨م.

٥٤. فنسنك : ا.ي.

- مفتاح كنوز السنة، ترجمة محمد فؤاد عبدالباقي ، الطبعة الأولى ، ١٣٥٣ هـ - ١٩٣٤م.

٥٥. فون جرونيباوم : جوستاف.ا.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ب- تاريخ العرب ، مطول ، الجزء الأول ، الطبعة الثالثة ، دار الكشاف ، بيروت ١٩٦١م بالاشتراك مع جبرائيل جبور ، واد ور جورجي .

٥٧. لوبون : غوستاف

- حضارة العرب ، ترجمة عادل زعيتر ، الطبعة الرابعة ، مكتبة عيسى البابي الحلبي ١٣٨٤ هـ = ١٩٦٤م .

٥٨. متز: آدم Mez, Adam.

- الحضارة الاسلامية في القرن الرابع الهجري ، أو عصر النهضة في الاسلام (جزءان) ، ترجمة محمد عبدالهادي ابو ريدة ، الطبعة الثالثة ، لجنة التأليف والترجمة والنشر ، ١٣٧٧ هـ = ١٩٥٧م .

٥٩. السيد محسن الأمين الحسيني

- أعيان الشيعة (٣أجزاء) ، الطبعة الأولى ، دمشق ١٣٥٤ هـ = ١٩٣٥م .

٦٠. محمد ابو الفضل ابراهيم .

- أيام العرب في الاسلام ، الطبعة الثالثة ، مكتبة عيسى البابي الحلبي ١٣٨٨ هـ = ١٩٦٨م ، بالاشتراك مع علي محمد البجاوي .

٦١. محمد أحمد جاد المولى

- انصاف عثمان ، مطبعة المعارف ومكتبتها ١٩٤٤م .

٦٢. محمد جمال الدين سرور : الدكتور

- الحياة السياسية في الدولة العربية الاسلامية خلال القرنين الأول والثاني بعد الهجرة ، الطبعة الثالثة ، دار الفكر العربي ١٣٨٦ هـ = ١٩٦٦م .

٦٣. محمد حسين الذهبي : الدكتور

- التفسير والمفسرون (٣ أجزاء) ، الطبعة الأولى ، دار الكتب الحديثة ١٣٨١ هـ = ١٩٦١م .

٦٤. محمد حسين الزبيدي : الدكتور

- الحياة الاجتماعية والاقتصادية في الكوفة في القرن الأول الهجري ، ١٩٧٠م

٦٥. محمد حسين هيكل : الدكتور

- عثمان بن عفان ، مكتبة النهضة المصرية ، ١٩٦٤م .

٦٦. محمد حميد الله : الدكتور

- مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة ، الطبعة الثالثة ، ١٣٨٩ هـ = ١٩٦٩م ، دار الارشاد للطباعة والنشر ، بيروت .

٦٧. محمد الخضري :

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

٦٨. محمد ضياء الدين الريس: الدكتور
أ- الخراج والنظم المالية للدولة الاسلامية، الطبعة الثالثة، دار المعارف ١٩٦٩م.
ب- عبدالملك بن مروان والدولة الأموية، الطبعة الثانية، مطابع سجل العرب ١٩٦٩م.
جـ- النظريات السياسية الاسلامية، دار المعارف، الطبعة الخامسة ١٩٦٩م.

٦٩. محمد الطيب النجار: الدكتور
- الموالي في العصر الأموي، الطبعة الأولى، دار النيل للطباعة ١٣٦٨ هـ = ١٩٤٩م.

٧٠. محمد عبدالغني حسن:
- علم التاريخ عند العرب، مؤسسة المطبوعات الحديثة القاهرة ١٩٦١م.

٧١. محمد فؤاد عبدالباقي:
- المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، كتاب الشعب.

٧٢. محمد كرد علي:
أ- الادارة الاسلامية في عز العرب، القاهرة ١٣٥٢ هـ = ١٩٣٤م.
ب- الاسلام والحضارة العربية (جزءان)، الطبعة الثالثة، لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٦٨م.

٧٣. محمد يوسف موسى: الدكتور
- تاريخ الفقه الاسلامي، دار الكتب الحديثة ١٣٧٨ هـ = ١٩٥٨م.

٧٤. مرغوليوث: د. س.
- دراسات عن المؤرخين العرب، ترجمة حسين نصار، دار الثقافة بيروت.

٧٥. ناصر الدين الأسد: الدكتور.
- مصادر الشعر الجاهلي وقيمتها التاريخية، الطبعة الثانية، دار المعارف ١٩٦٢م.

٧٦. نبيه عاقل: الدكتور
أ- خلافة بني أمية، الطبعة الأولى، دمشق ١٩٧٢م.
ب- دراسات في تاريخ الامبراطورية البيزنطية، الجزء الأول دمشق ١٩٦٧م

٧٧. نورالدين حاطوم: الدكتور
- المدخل الى التاريخ، دمشق ١٣٨٤ هـ = ١٩٦٤م بالاشتراك مع آخرين.

٧٨. هل: ي
- الحضارة العربية، ترجمة ابراهيم أحمد العدوي، مكتبة الانجلو المصرية ١٩٥٦م

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ثالثاً :

I. Arberry; A.J

-Aspects of Islamic Civilization. London. I964

2. Arnold; Sir Thomas, W.

- The Caliphate, London. I967

3. Browne , Edward, G.

- A Literary History of Persia. Volumel, Cambridge. I964

4. Encyclopaedia of Islam. Prepared By Gibb, Kramers, Levi- provencal and Schacht. Leiden. I960

5. Fisher, Sydney, Nettleton.

- The Middle East A History. London. I960

6. Hitti, Philip,K.

-History of The Arabs. London. Eighth Edition. I964

7. Husaini, S.A.Q

- Arab Administration. Fifth Edition. Lahore- Pakistan I966

8. Kennedy, Pringle

- Arabian Society At The Time of Muhammad. Calcutta , I926

9. Lewis, Bernard.

- The Arabs in History . Fourth Edition . London.I966

I0. Muir: Sir William.

- The Caliphate, Its Rise, Decline and Fall. Khayats, Beirut, I963.

II. Nicholson, Reynold, A.

- A Literary History Of The Arabs. Cambridge. I966.

I2. Noldeke, Theodore.

- Sketches From Eastern History. Translated By John Sutherland Black. Khayats, Beirut. I963.

I3. Saunders, J.J.

- A History of Medieval Islam. London. I966.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

I4. Smith, Robertson.

-Kinship and Marriage in early Arabia. London I907.

I5. Syed, Ameer Ali.

- A ShortHistory of The Saracens. London. I955.

I6. Sykes, Sir Percy.

- A History Of Persia. Volumel Third Edition. London. I953.

I7. Tritton, A.S.

- The Caliphs and Their Non Muslim Subjects. London I97

I8. Watt, Montgomery , W.

- Muhammad At Medina. Oxford University Press. I962

I9. Wellhausen, J

- The Arab Kingdom And its fall . Translated By Margaret Graham Weir . Khayats, Beirut I963.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الفهـــــــــرســـــــــت

	الصفحـــة
مقدمـــــة	٤ـ ١٣
الباب الأول : الأحوال السياسية في الحجـاز	
الفصل الأول : الأحداث السياسية التي أدت الى انتقال الخلافة الى الأمويـــــــن .	١٥ـ١٠٧
١ـ الأحداث الداخلية في أواخر خلافـــة عثمان بـــن عفـــــان .	١٦ـ٦٦
استعلاء نفوذ بني أميـة	١٧
الأوضاع الاقتصاديـــــة	٢٣
الأحوال الداخلية في الأمصـــار	٣٧
نهاية خلافة عثمان بن عفـــان	٢
٢ـ الحروب الأهلية في خلافة علي بن أبي طالب	ـ ١٠٧
بيعة علي بن أبي طالب بالخلافـة	٦٨
وقعـة الجمـــل	٧٩
وقعة صفيـــــن	٨٨
التحكيم والخـــوارج	٩٢
النهـــروان	٩٨
نهايته	١٠٠
اضطراب الأحوال في دولة الحجاز	١٠٨ـ١٩٨
الفصل الثاني : قيام الخلافة الأموية بالشام وأثر أبي سفيان	١١٥
موقف أهل الحجاز من خلافة الحجاز لها	١٣٠
بيعة يزيد بن معاوية ومعـــد	١٥١
وفاة معاوية ووصيته لخلافة يزيد بن معاوية	١٥٣
بوادر ثورة أهل الـ	١٦١
موقف الحسين الحسين بن علي	١٧٠
حالة الحجاز الحـرة	١٧٥
ثورة أهل مكة ـ الحصار الأول ـ	١٩١

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الفصل الثالث: حال الحجاز السياسي في عهد الخلفاء الأمويين من بني مروان ٩٩ ا ـ ٢٧١
ابن الزبير يبسط نفوذه على الأمصار الاسلامية ٢٠٠
موقف أهل الحجاز من خلافة عبد الله بن الزبير ٢١٢
نهاية خلافة عبد الله بن الزبير ٢٢٤
[illegible] بلاد الحجاز لسيطرة الأمويين ٢٤٠
[illegible] ياسية في الحجاز بعد مقتل ابن الزبير ٢٥٨
الباب الثاني : مظاهر [illegible] جتماعية في الحجاز
الفصل الأول : مظاهر الحياة [illegible] ة ٢٧٣ـ٣٥٢
تمهيد ٢٧٤
أثر المسجد في الحياة العلمية ٢٨٢
العلوم الدينية :
أ ـ القراءات ٢٨٧
ب ـ التفسير ٢٩٢
جـ ـ الحديث ٣٠٠
د ـ الفقه ٣١١
التاريخ ـ السيرة والمغازي ـ ٣١٧
الأدب والفن ٣٣٢
الفصل الثاني : مظاهر الحياة الاجتماعية ٣٥٣ـ٤٠٣
عناصر السكان : ٣٥٤
أ ـ العرب ٣٥٥
ب ـ الموالي ٣٦٢
جـ ـ الرقيق ٣٧٠
المرأة في مجتمع الحجاز ٣٧٧
المجالس الاجتماعية ٣٨٣
الثراء والتحضر ٣٩٠
الخاتمة ٤٠٤ـ٤١٢
مراجع البحث ٤١٣ـ٤٣٤

٤٩٣٤٨٨